ملخص الرسالة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد: فهذه رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة عام: (١٤٢٣هـ)، بعنوان: (بعض مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث وأثرها على المسلمين).

ولقد كان من أهداف الرسالة: بيان موقف الإسلام من التشبه بالكافرين، وبيان أثر التشبه بالكافرين على العقيدة، وسياق بعض مظاهر التشبه بالكفار في أصول الدين.

ومن أهمية موضوع الرسالة: الوصول إلى بيان سبب الضلال في العقائد، وهو التشبه بالكافرين، حيث لم تأت العقائد الفاسدة والبدع في كثير من العبادات إلا عن طريق هذا الأصل الخطير من أصول الشر. وبيان الأمور التي وقع فيها التشبه بالكافرين بشكل عام مع ذكر بعض التفصيلات التي يتبين بها المقصود، والحكم على هذه الأفعال من ناحية أثرها على العقيدة. وبيان أثر المناهج الفاسدة والمعتقدات الباطلة المأخوذة من الكفار على وقوع المسلمين في التشبه بالكافرين.

نتائج البحث: مما استوقفني في هذا البحث: تشديد الكتاب والسنة وأقوال الصحابة في النهي عن التشبه بالكفار، بل وسد الذرائع الموصلة إلى التشبه بهم. وأن معنى الاختلاف المذموم: هو الاختلاف على الكتاب والسنة. ولقد كان سبب افتراق كثير من الفرق عن أهل السنة والجماعة هو التشبه بالكافرين، بشكل أو بآخر. وكما أن التشبه بالكفار أمر واقع لا محالة كما أخبرنا بذلك النبي ﷺ، فإن التخلص من التشبه بالكفار أمر واقع كذلك، وسوف يكون النصر يوماً ما للمسلمين، كما أخبرتنا بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولذلك:

التوصيات: وجدت الحاجة ماسة للكتابة في هذا الموضوع وإشباعه بحثاً واستقصاءً وتجميع فتاوى أهل العلم فيه، وأرى من الخليق عمل موسوعة في التشبه بالكفار في العصر الحديث، يجمع فيها التعريف بكل أداة من أدوات التشبه، وأحكامها، وأقوال أهل العلم وفتاواهم في ذلك، والتعريف بالشخصيات التي عملت على إقحام المذاهب الفكرية الغربية، وتوضيح الصلة بين كل فكرة وبين مصدرها الكافر وتأريخ دخولها إلى بلاد المسلمين. وجوب العمل على إبراز جوانب القدوة الإسلامية ومن أهم جوانبها: السيرة النبوية وسيرة السلف الصالح والمعارك والمفتوحات الإسلامية التي تزرع العزة في نفوس الناشئة، وتصرف أنظارهم عن الحضارة الغربية الزائفة. وبالعكس فلا بد من إبراز الجانب المظلم في الحياة الغربية وأدوات الدمار الأخلاقي والاقتصادي والاجتماعي التي تنخر في تلك المجتمعات.

In the name of Allah , the most beneficent , the most merciful

Praise be to Allah , and may peace and blessing be upon the prophet , Mohammad. This is presenter thesis to the master degree attainment in the creed , from Umm Al-Qura University in the year (1423 AH) by an address: (some aspects of imitation of unbelievers in the modern ages and its effects on Moslems).

One of the goals of the thesis is displaying the attitude of Islam toward the imitation of unbelievers , and displaying the effect of the imitation of unbelievers on the creed , then attaining to explaining the reason of delusion in the creeds , which is the imitation of unbelievers. Since the corrupt creeds and the innovations in most of the worships do not come out except via this dangerous source of the sources of the evil , which is neglected by most of the Moslems. And displaying the matters that imitation of unbelievers took place as general , besides stating some details to clarify what mentioned. And set a judgment on the deeds regarding their effect on the creed. And stating the effect of the corrupt schemes and false belief that are taken from unbelievers on Moslems who fall in imitating unbelievers.

Related Literature:

(……….. the straight way for the breach of the Hell companions.) which is written by Iben Taimeyah. And (The clarification and the show of the others who fall in imitation of unbelievers.) , that’s written by H.Al-Towaijery. Regarding to the thesises , the first thesis is: (The forbidden imitation in the Islamic law) by the researcher Jameel Habeeb Al-Metairi. The second thesis is: (The prophylactic arrangement from the imitation of unbelievers) by the researcher Othman Ahmad Dokri. And the third thesis is: (The Sunnas and the antiquities in the prohibition from the imitation of unbelievers) by the researcher Suhail Abdul Ghaffar.

Methodology:

I try not talk about this aspect unless the following is proved in it.

(if it is possible)

1) It should be under the list of the imitation aspect , of the disbelievers and I prepared this plan of this research on this base and I tried to find this example which is similar to the disbelievers.

The conclusion of the research.

What draws my attention in this research is the Qura’an and sunnahVCV\CV and the prophet’s companions saying They strictly forbade the imitation if non believers to block the ways which lead to this imitation.

The undesired difference is:

The disagreement in the Qura’an and sunnah. The reason of this disagreement is the imitation of disbelievers in some ways. This imitation is difinitely a must so the victory will be one day for the Muslims , As told by the Qura’anic verses the prophets sayings.

The Recommendations:

2. The urgent need to write in this matter or subject by researching and finding out and collecting the fat was of the ulamas.
3. In my point of view it is necessary to make an ecyclopedia in the imitation of the disbeliever in the present time in order to collect the definitions of every aspect of the imitation aspects and their rules the sayings of the Islamic scholars and their fatwas and to write the biographies of those presons who tried to involve the western theoretical thinkings and to explain the relationship between every idea and its non Islamic sources and the history of their entering to the Muslim countries.
4. It is needed to show the good Islamic example or a good model As follows:
5. The prophets biography and the biography of previous good followers and scholars and to make every one knows about the great Islamic battles which stress on the self esteem in the teens and to take their attention away from the false western civilization on the contrary it is a must to show the dark side of the western life and to show the ruin of the behaviorism and the economy and socialism which is found a lot in these western societies.

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

بعض مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث وأثرها على المسلمين

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب:
أشرف بن عبد الحميد بن محمد بارقعان

إشراف فضيلة الشيخ:
د. محمد عمر محمد حسن

عام: (١٤٢٣هـ).

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، و نستغفره، ونعوذ بالله، من شـرور أنفـسـنا، ومن سـيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله ﷺ.

يا أيها الّذين آمنواْ اتقُواْ اللّه حق تقَاته ولاَ تموتن إلاّ وأُنتم مسلمونَ

يآ أيها الناس اتقُوا ربكُم الذي خلَقَكُم من نفْسٍ واحدة وخلَق منها زوجها وبث منهمـا رِجالاً كَثيراً ونِسآًء واتقُوا الله الذي تسآءَلُونَ بِه والأرحام إن الله كَانَ علَيكُم رقيباً

يا أيها الّذين آمنواْ اتقُواْ اللّه وقُولُواْ قَولاً سديداً. يصلح لَكُم أَعمالَكُم ويغفر لَكُم ذُنوبكُم ومن يطعِ اللّه ورسـولَه فَقَد فَاز فَوزاً عظيماً.

أما بعد: فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمـد ﷺ، وشـر الأمـور محدثا ا، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فإن الله عز وجل لما أمر المؤمنين بالدعاء وطلبِ الثبـات علـى الـصراط المستقيم حذرهم عن سبيل المشـركين فقال عز وجل: (اهدنا الصراطَ الْمستقيم، صراطَ الذين أَنعمت علَيهم غَيرِ الْمغضوبِ علَيهم ولا الضالين)[1]، فمن أهم مقتضيات الصراط المستقيم البعد عن سبيل المشـركين.

ولقد وقع عدد غير قليل من المسـلمين اليوم في مشا ة أعداء الله مـن اليهـود والنصارى وغيرهم إما في المعتقدات أو في العبادات أو تلقفوا بعض المذاهب الهدامة مـن الغرب ليستقوا منها مناهج عملية يسـيرون عليها في حيا م، وقد يجادل بعضهم في تأثير هذه الأفعال وتلك المعتقدات على عقيدة المسـلمين.

هذا ومن ألقى نظرة فاحصة على تاريخ المسـلمين في العصور الـسابقة لم يجـد افتاً على التشـبه بأعداء الله كتهافت بعض أهل هذا العصر، والله المستعان.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية: (٧).

كل ذلك مما كون لدي قناعة حول أهمية هذا الموضـوع، والكتابـة في صـور التشـبه بالكافرين في العصر الحديث وأثرها على عقيدة المسلم، ليكون هذا الموضـوع جهداً ضئيلاً من تلك الجهود التي تدفع ذلك المد التقليدي للكفار.

وعندها شرعت في كتابة هذه الخطة، التي أرجو من الله أن أكون قد أحـسـنت في اختيارها، ووفقت في عرضها، ومما لاحظته أن التشـبه قد عم في العـصر الحـديث فدخل كل باب تقريباً، مما جعل الموضوع مترامي الأطراف يحتاج صاحبه إلى مـضاعفة الجهد فخصصت جزءاً غير قليل في البحث عن المصادر والمراجع.

وجعلت عنوان الرسالة:-

((بعض مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث وأثرها على المسـلمين)).

أسباب اختياري لهذا الموضوع:-

١- شرف هذا الموضوع، حيث ذكره الله عز وجل في أعظم سـورة من سـور القرآن الكريم وحذر الناس عن الوقوع فيه، وذلك في معرض دعاء المؤمنين، حيث قـال تعالى: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

٢- عدم وجود كتابة علمية مستقلة في أقسام العقيدة عن هذا الموضوع – على حد ما توصل إليه علمي – مع أن جانب التوحيد له الحظ الأوفر من أبواب هـذا البحـث وفصوله.

٣- ما يتسم به من الجـدة والابتكار خاصة في لفت أنظار المسلمين حول مظـاهر التشـبه بالكافرين عموماً في أبواب متعددة.

٤- عرض هذا الموضوع ذه الطريقة سـوف يكشف الستار عن تلك المـذاهب الفكرية التي كان لها الأثر الأكبر في تشـبه المسـلمين بالكافرين، فكل مسلك عمليـي وراؤه خلفية فكرية.

٥- أنه موضوع عصري، وأعمال المسـلمين وأفكارهم في هذا العصر شاهدة على فشو هذه الظاهرة، ظاهرة التشـبه بالكافرين.

الأهداف المرجو تحقيقها من هذا البحث:-

١- بيان موقف الإسلام من التشبه بالكافرين.

٢- بيان أثر التشبه بالكافرين على العقيدة.

٣- التنبيه على أن التشبه بالكافرين لا يكون في العادات والمعاملات فحسب كما يظن بعض المسلمين، بل يتعدى ذلك إلى العبادات والعقائد.

٤- الوصول إلى بيان سبب الضلال في العقائد، وهو التشبه بالكافرين، حيث لم تدخل العقائد الفاسدة[2] والبدع في كثير من العبادات إلا عن طريق هذا الأصل الخطير من أصول الشر، والذي غفل عنه كثير من المسلمين.

٥- تنبيه المسلمين عن تدخل هذا الموضوع في أعظم الخصوصيات وفي أدقها وأصغرها.

٦- بيان الأمور التي وقع فيها التشبه بالكافرين بشكل عام مع ذكر بعض التفصيلات التي يتبين ا المقصود، والحكم على هذه الأفعال من ناحية أثرها على العقيدة.

٧- بيان أثر المناهج الفاسدة والمعتقدات الباطلة المأخوذة من الكفار على وقوع المسلمين في التشبه بالكافرين - فكل منهج من تلك المناهج له الأثر في وقوع المسلمين في مضاهاة الكافرين، سواءً أكان ذلك المنهج أو تلك النظرية العلمية متعلقة بالعقائد أو الأعمال – وبيان خطر تلك المناهج، فلا يخفى ما في وصف الفعل أو الاعتقاد المحرم بالتشبه بالكفار من التنفير منه، كما هو الحال بالنسبة للمناهج المنحرفة المأخوذة من الكفار، فوصف الفعل بكونه في مصاف الأفعال التي فيها تشبه بالكفار، من أنجع الطرق التي يمكن أن تقنع كل مسلم يجد في نفسه الغيرة على انتمائه الإسلامي _ ولكنه غير مقتنع بضلال هذا المنهج، وربما يجهل انتماء هذه الفكرة إلى الكفار، وصدورها عنهم

---

(١) حيث الخوض في العقائد بلا علم من عادات المشركين، قال تعالى: (وخضتم كالذي خاضوا)، ويشهد لكون هذا من أصول الشر ما قاله شيخ الإسلام في معرض حديثه عن عمرو بن لحي الخزاعي الذي تشبه بالمشركين ونصب الأنصاب حول الكعبة، قال: "فقد تبين لك أن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي: التشبه بالكافرين". أ هـ اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٥٢/١

ـ فتكون هذه الطريقة مقنعة له لو كان في قلبه بقية باقية من غيرة على دينه وإيمانه، وهذا واقع في الأمة؛ فكم من أبناء هذه الأمة ممن ينـتهج بعض المناهج المأخوذة في أصلها عـن الكفار وربما تكون مضادة للشرع بشكل أو بآخر، وهو لا يعلم انتماء الفكرة التي يعتنقها إلى غير المسـلمين، وأ ا صادرة عن أعداء الملة والدين، وربما لو كان يعلم ذلك لاتخـذ موقفاً آخر.

الدراسات السابقة:-

لم تكتب في هذا الموضوع: مظاهر التشـبه بالكفار في العصر الحديث وأثرها علـى المسـلمين – حسب علمي – دراسة علمية مستوفية لأصول البحث العلمي، ومن خلال بحثي عن الدراسات السابقة التي لها علاقة بالموضوع وقفت على ثلاث رسائل وجـدا ا تطرقت من نواح بعيدة إلى حد ما عن موضوع هذه الرسالة، مما يتوافق مع الأقسام الـتي قدمت لها هذه الرسائل، فليس منها قسم العقيدة.

كما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني ـ رحمه الله ـ كتابه العظيم: (اقتـضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)، هذا السفر الجليل الذي كتبه إمام من أعظـم أئمة أهل السنة والجماعة، فقد جمع فيه الكثير من التأصيل والفوائد والفرائد التي من قرأها ووعاها وعمل ا: فهم معنى التشبه في القرآن والسنة، وكان في خندق حصين من جميع أشكال الموالاة للكفار، فلله در هذا العالم الجليل، والكتاب طبـع في مجلـدين بتحقيـق الشيخ: د. ناصر عبد الكريم العقل.

كما وقفت على دراسة مفيدة في هذا الجانب، بعنوان: (الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأثرون من مشا ة المشركين)، للشيخ: حمود بن عبد الله بن حمود التويجري، فبدأ في كتابه بتأصيل الموضوع من الناحية الشرعية، ثم بدأ بالأمثلة على التشبه في العصر الحديث، مما يعتبر مقدمة لموسوعة علمية في العصر الحديث في التشبه بالكفار؛ فإنه أتى على أكثـر أبواب التشبه العلمية منها والعملية.

وأما الرسائل العلمية: فالرسالة العلمية الأولى كانت بعنوان: التشبه المنهي عنه في الفقه الإسلامي، للباحث: جميل حبيب المطيري، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم الفقه بجامعة أم القرى، والثانية بعنوان: التدابير الواقية من التشبه بالكفار، للباحث: عثمان أحمد دوكري، وهي رسالة مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود، قسم الدعوة.

ولقد تحدث مؤلف الرسالة الأولى عن القواعد الفقهية المتعلقة بالتشبه، فأصلها تأصيلاً جيداً، وأما الرسالة الثانية: فتحدث فيها مؤلفها عن جانب العلاج الواقي من التشبه بالكفار، كما لم يغفل ذكر مظاهر التشبه بالكفار، في العصر الحديث، كتقدمة لما يريد التحدث عنه من التدابير الواقية من التشبه بالكفار.

وأما الرسالة الثالثة: فهي بعنوان السنن والآثار في النهي عن التشبه بالكفار، وهي رسالة علمية مقدمة للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام: (١٤٠١ هـ) قسم الحديث، للباحث سهيل عبد الغفار، وهي رسالة مقسمة إلى بابين، قام المؤلف بجمع عدد جيد من الأحاديث التي تبين حكم التشبه، مع بعض التعليقات التي توضح المقصود من الأحاديث وخاصة المشكل منها، هذا في الباب الثاني، وأما الباب الأول من الرسالة فضمنه تعريف التشبه، وقسم التشبه إلى تشبه ممنوع وتشبه مباح، وهل شرع من قبلنا شرع لنا.

خطة البحث:-

لقد كانت خطة البحث قائمة على تقسيمه إلى مقدمة وبابين وخاتمة.

المقدمة: وذكرت فيها أهمية الموضوع والأسباب التي دفعتني لاختياره وما سبقه من دراسات.

الباب الأول:-

مفهوم التشبه بالكفار وأثره على المسلمين.

الفصل الأول: تعريف التشبه بالكفار لغة وشرعاً، وأدرجت فيه بعض المسائل التي توضح معنى التشبه بالكفار، وتزيده بياناً، مستضيئاً بالكتاب والسنة وآراء أهل العلم.

الفصل الثاني: حكم التشـبه بالكفار:-

المبحث الأول: موقف القرآن من التشـبه بالكفار، وعرضت فيه لذكر الآيـات التي حذرت من التشـبه بالكفار، مسـتـنيراً بأقوال أهل العلم في تفسـيرها.

المبحث الثاني: موقف السـنة من التشـبه بالكفار، قمـت في هـذا المبحـث باستقراء ما ورد في السـنة في هذا الباب مستعيناً بأقوال شراح الأحاديث، ومن له كلام من أهل العلم في هذه الأحاديث، وقد استفدت في هذا المبحث مما كتبه الباحث: سـهيل عبد الغفار، في رسالته: (السـنن والآثار في النهي عن التشـبه بالكفار).

المبحث الثالث: موقف الصحابة من التشـبه بالكفار، وأوردت فيه بعض المواقف التي وقفها الصحابة الكرام _ رضي الله عنهم _ حذروا فيها من التشـبه بالكفار بأقوالهم وأفعالهم.

الفصل الثالث: أثر التشـبه بالكفار على العقيدة:- خصصت هذا المبحث لآثار التشـبه بالكفار والتي تمس جانب العقيدة _ كالبحث في خروج المتشـبه م من الإسلام وعلاقة التشـبه بالكفار بالولاء والبراء وغير ذلك، وتطرقت أيضاً إلى غير ذلك من الآثار؛ مـن باب ذكر الشيء بالشيء، مما يؤدي بعضه إلى بعض.

المبحث الأول: أثر التشـبه بالكفار في عقائدهم.

المبحث الثاني: أثر التشـبه بالكفار في أعمالهم.

الباب الثاني:-
مظاهر التشـبه بالكفار في العصر الحديث.

وهو صلب البحث ومادته الأساسـية التي تشتمل على جانب الأمثلة والمظاهر بعـد أن تحدثت في الباب الأول على ما يتعلق بجانب التنظير والتقعيد ببيان موقف الإسـلام مـن التشـبه.

تمهيد

الفصل الأول: مظاهر التشـبه بالكفار في العصر الحديث في الجانب الإعتقادي.

المبحث الأول: مظاهر التشـبه بالكفار في توحيد المعرفة، وهو التوحيد العلمـي الذي يشتمل على توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، ففي هـذا المبحـث أبـين المذاهب الفاسدة التي أدت إلى خدش جانب هذا النوع من التوحيد، أو الإلحاد فيه، وأبين مصادرها وأثر اعتناقها على عقائد المسـلمين.

المطلب الأول: الفلسـفة، أصولها وآثارها في العصر الحديث.

المطلب الثاني: علم الكلام، أصوله وآثاره في العصر الحديث.

المطلب الثالث: الشيوعية، وأثرها على عقيدة وجود الله في العصر الحديث.

المطلب الرابع: الوجودية، وأثرها على عقيدة وجود الله في العصر الحديث.

المبحث الثاني: مظاهر التشبه بالكفار في توحيد الطلب والقصد، وهـو تعطيـل للنوع الثاني من التوحيد (توحيد الطلب والقصد)، وفي هذا المبحث أعمل علـى حـل الإشكال الذي شاع بين الناس فيه وهو الخلط بينه وبين توحيد الربوبية، وأبين أنـه هـو الذي جاء القرآن والسـنة بنسبته إلى أهل الجاهلية.

المبحث الثالث: أثر العلمانية في التحاكم إلى غير الله، أبين من خلال هذا المبحث علاقة التحاكم الوطيدة بالعقيدة، وأبين دور هذا المذهب الفكري في إقصاء التحـاكم إلى الله في بلاد المسـلمين، وإحلال القوانين الوضعية الكفرية بدلاً منه، ولا أفصل القـول في آثار العلمانية الأخرى؛ وأرجئه إلى الفصل الثالث من هذا الباب لأتحدث عنـها بـشكل عام.

المبحث الرابع: مظاهر التشـبه بالكفار في تحريف الكتب المنــزلة، وفي هـذا المبحث أذكر بعض النصوص التي تشهد على أن التحريف للكتب المنـزلة من صـفات الكفار، ثم أسـوق بعض المظاهر لأولئك المنـتسبين إلى الإسـلام والـذين حرفـوا في النصوص القرآنية.

المطلب الأول: تحريف النص.

المطلب الثاني: تحريف معاني القرآن (المعنى).

المبحث الخامس: مظاهر التشبه بالكفار في جانب النبوات، فالإيمان بالرسول ﷺ وغيره من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، يجب أن يكون على ما شرعه الله، لا على أساس ما أخذ من الكفار الذين تمسكوا بأحد الجانبين من إفراط أو تفريط في حق الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، أو النبوة عموماً.

المطلب الأول: الاستغاثة بالرسول ﷺ أو (إطراء النبي ﷺ).

المطلب الثاني: إدعاء النبوة.

المبحث السادس: مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث في الإيمان بالقدر، وهو سادس أركان الإيمان ولا يكمل الإيمان إلا به، فلذلك أفردت له مبحثاً في جانب العقيدة، مما يوضح بعض العقائد الكفرية التي أدخلت على هذا الركن الركين من أركان الإيمان.

المبحث السابع: مظاهر التشبه بالكفار في الاختلاف في أصول الدين.

وهذا المبحث جعلته ضمن الجانب الاعتقادي لعلاقته الوطيدة بأصول الدين التي من أهمها أركان الإيمان، فأبين فيه أن الاختلاف في أصول الدين من طريقة الكافرين، ولأن القضايا التي يعتبر الاختلاف فيها من التشبه بالكفار غالباً ما تكون في الجانب الاعتقادي.

المطلب الأول: تعريف الاختلاف المذموم.

المطلب الثاني: ضابط الأصول التي لا يسوغ فيها الخلاف.

الفصل الثاني: مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث في العبادات.

وأفردت هذا الفصل لمظاهر التشبه العملية التي يقصد بها التعبد، أو هي في مظان التعبد، وإن لم يقصد بها ذلك.

المبحث الأول: الرهبانية والتصوف.

المبحث الثاني: الأعياد المكانية.

المبحث الثالث: الأعياد الزمانية.

الفصل الثالث: المذاهب الفكرية المعاصرة، مصادرها وآثارها في الجانب العملي.

وهذا الفصل أبين فيه أولاً كيف أن المذاهب الفكرية المعاصرة نـشأت في بيئـة كافرة، لا علاقة لها بالبيئة الإسلامية، وأبين كيف أ ا دخلـت إلى بـلاد المـسـلمين، والأفكار التي تدخل تحت هذه المذاهب الفكرية والتي تعتبر من مظاهر التشـبه بالكفار.

المبحث الأول: المذاهب الفكرية المعاصرة وعلاقتها بالغرب.

المطلب الأول: الصراع بين الدين والعلم في الغرب.

المطلب الثاني: قاعدة تأثر المغلوب بالغالب.

المبحث الثاني: مظاهر تأثر المسـلمين بالعلمانية في الجانب العملي.

المبحث الثالث: مظاهر تأثر المسـلمين بالشيوعية في الجانب العملي.

المبحث الرابع: مظاهر تأثر المسـلمين بالعقلانية في الجانب العملي.

المبحث الخامس: مظاهر تأثر المسـلمين بالوجودية في الجانب العملي.

المبحث السادس: القومية والوطنية وأثرها العملي في حياة المسـلمين.

الخاتمـة: وفيها نـتائج البحث.

منهجي في البحث:-

- لقد حرصت في عمل الخطة على ذكر آثار المـذاهب الاقتـصادية الكـبيرة والمهمة، والتي كان لها دور كبير في صناعة مظاهر التشـبه بالكافرين، والـتي قـد تندرج تحتها مذاهب أصغر منها، وقد لا أفصل في بعضها ولا أجعل لـه مطلبـاً أو مبحثاً مستقلاً لأن غيره قد يدل عليه، أو أنه يندرج تحت غيره من المذاهب، فأذكره عرضاً تحت غيره من المذاهب الكبيرة، حيث إن الغرض هو بيان مظـاهر التـشـبه بالكافرين بشكل عام مع ربطها بمصادرها الكفرية، سـواء اندرجت تحـت هـذا المذهب الفكري أو ذاك.
- وقد أفصل في ذكر مظاهر التشبه بالكفار منذ بدايتها مما لا يندرج زمنياً تحت العصر الحديث؛ لكون تلك المظاهر القديمة أصولاً ينبني عليها فهم ما أحدث في العصر من مظاهر التشبه بالكفار، كما تعتبر المظاهر الحديثة امتداداً لتلك المظـاهر القديمـة وفرعاً عنها.

▪ ولقد أضحت الرسالة بمباحثها ومطالبها لفتاً لأنظار المسلمين إلى قضية التشبه بالكفار في معظم ا الات الفكرية منها والعملية، ولذلك لم تتعمق في كل مجال على حدة، بل أتت تربط بين مصادر العقائد الدخيلة ومنابع المذاهب الفكرية وبين بعـض العقائد التي انـتحلها المنـتسبون إلى الإسلام وبعض الممارسات المستوردة من الكفار بشكل عام، لتنفـر من كان في قلبه أنفة من التبعية للآخر، لا لكي توقفه على كـل صغيرة وكبيرة من مظاهر التشبه في ذلك المذهب أو تلك النحلة المنسوبة إلى الإسلام.

▪ وأعمل على ألا أتحدث عن مظهر من المظاهر إلا إذا تحقق فيه ما يلي (حسب الاستطاعة):-

أ- أن يكون مندرجاً تحت مظهر من مظاهر التشـبه بالكفار التي أعددت الخطة على أساسها.

ب- أن أجد لهذا المثال[٣] المندرج تحت المظهر، مشا ة في ذاته للكافرين.

وذلك لأنني لو حاولت أن أدخل في الرسالة كل مثال يندرج تحت المظاهر الأساسـية للتشـبه، فستكون الرسالة أطول من المعقول؛ فإن مظاهر التشـبه كـثيرة يتعـذر حصرها.

▪ وأحاول توضيح ما وقفت عليه من الأفكار التي أُخذت عن الكفار في العصر الحديث وأبين من قال ا من الكفار وأستشهد بأقوالهم ما استطعت فـإن لم أجـد أقوالهم في مظا ا أستشهد بمن نقل عنهم من أهل العلم الموثوقين ولقد آثرت في ذلك كله عرض الفكرة والتمثيل عليها ببعض الأمثلة مما يبينها ويـشير إلى أخوا ـا مـن الأفكار التي قد تؤخذ عن الكفار وأكتفي بذكر هذا القدر من الأمثلة مخافة الإطالـة ولأن المقصود هو التنبيه على أجناس وأنواع مظاهر التشـبه وليس الوقـوف علـى آحادها؛ فذلك متعذر الحصر والله المستعان، وأحاول الرد على تلك الأفكـار الـتي يكون فيها تشـبه بالكفار باختصار لكـي لا يتحـول الكتـاب إلى ردود علـى المتشـبهين وأهل البدع في الدين وإنما هذه الرسالة تخـتص بوجه واحد من وجـوه

---

(١) والذي يعتبر هو نفسه مظهراً، ولكنه فرعي.

الرد عليهم وهو أن هذه الأفكار أو المعتقدات أو الأفعال التي يقعون فيها هي من التشبه بالكفار.

- وأخرج الأحاديث بما في ذلك الحكم على صحتها مستنيراً بآراء المحدثين، فأذكر في تخريج الأحاديث: اسم الكتاب، ورقم الصفحة والجزء، ورقم الحديث حسب ترتيبه في الكتاب الذي أعزوه إليه، ثم أذكر أقوال أهل العلم في صحة الحديث. وأكتفي في الحكم على الآثار بما فيه تصحيح لأحد المحدثين إن وجد.
- ولا ألتزم بذكر المخرجين للأحاديث غير البخاري ومسلم إن كان الحديث في أحدهما، وقد أذكرهم للفائدة.
- وأما بالنسبة للترجمة فإني لم أترجم لمشاهير الصحابة والتابعين، وأما بالنسبة لترجمة غيرهم من الأعلام فاخترت أن أترجم لمن لم يشتهر، إذا كانت الترجمة له مما له صلة بفهم الفكرة أو المظهر من مظاهر التشبه، وقد أترجم لمن كان مشهوراً إذا كان مؤسساً لمذهب أو له صلة وثيقة بأصحاب المذهب، مما يتوقف عليه بيان المذهب الفكري وجلاؤه.
- وأما بالنسبة إلى إثبات أن الفعل المعين هو من خصائص الكافرين، فيكون ذلك عن طريق الكتاب أو السنة أولاً إذا كان منصوصاً عليه في أحدهما _ وهو الأصل _، وأما إذا لم يكن في ذلك نص من كتاب أو سنة فإني أعتمد _ في إثبات أن الفعل المعين من خصائص الكافرين _ على الواقع، سواء أكان ذلك الواقع مستقى من التاريخ أو من الأحداث المعاصرة التي أثبتت أن بعض الأفعال هي من خصائص الكافرين.

شكر وتقدير

ولا أنسى أن أشكر بعد شكر الله عز وجل، كل من ساعدني في عمل هذه الرسالة، وفي مقدمتهم والدي العزيزين اللذين كان لهما الفضل في تنشئتي، بعد الله تعالى، واللذين لم يألوا جهداً في بذل الغالي من أجل راحتي، وكان ذلك من عمرهما وراحة بالهما

وإغماض جفو ما، وهما اللذان لن أؤدي حقهما مهما فعلت، وأنا المقـصر في حقهمـا مهما قدمت، ربي اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً.

كما لا أنسى أن أشكر أساتذتي الكرام، كل من علمني منهم حرفاً أو اسـتفدت منه أدباً، سـواء من كان منهم في المدارس أو حلقات التحفيظ أو المساجد، هم قـدوتي وشموع هدايتي، ومنهم أستاذي وشيخي ومشرف الرسالة: د. محمد عمر محمد حسـن، فله وراء كل حرف كتبته في هذه الرسالة أثراً، وهو الذي وسعني بحلمه وصـبره، وهـو صاحب الخلق الرفيع والأدب الجم والتواضع الكبير، لقد كان عوناً لي بحق على صعوبات البحث، ولا أنسى وقوفه إلى جانبي من البداية وحتى النهاية، ولا أستطيع أن أقضي حقـه إلا بالدعاء له، وهذا بظهر الغيب.

كما أشكر كل من أفادني علماً في هذا البحث أو أشار إلي بمرجع، أو أسدى إلي رأياً، ولهم مني جزيل الشكر والتقدير والعرفان.

كما لا أنسى من قاسمتني أفراحي، وشاطرتني أحزاني، وكانـت خير أنيس لي في الطريق، هي أول من تضرر من طول البحث، ولم يثنها ذلك عن مؤازرتي، إ ا زوجي التي رزقني منها ربي قرة أعين، فأسأل الله عز وجل أن يجزيها خير الجزاء، وأن يجمعني ـا في الجنة، آمين.

الباب الأول

مفهوم التشبه بالكفار وأثره على المسلمين

الفصل الأول

تعريف التشبه لغة وشرعاً

المبحث الأول: تعريف التشبه لغة:

مادة: (ش ب هـ) جاءت في اللغة بمعنيـين، الأول: المشا ة والمماثلة، والثاني: الالتباس والإشكال، قال ابن فارس: "(شبه) الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً. يقال شبه وشبه وشبيه. والشبه من الجواهر: الذي يشبه الذهب، والمشبهات من الأمور: المشكلات. واشتبه الأمران إذا أشكلا"[١]، وقال ابن منظور: "وتشـبه به فلان بكذا. والتشبيه التمثيل"[٢]،وقال المناوي: "التشبيه إقامة شيء مقام شيء لصفة جامعة بينهما ذاتية أو معنوية فالذاتية نحو هذا الدرهم كهذا الدرهم وهذا السـواد كهذا السـواد، والمعنوية نحو زيد كالأسد أو كالحمار، أي في شدته وبلادته، وزيد كعمرو أي في قوته وكرمه"[٣]، وقال الزبيدي: "وأمور مشتبهة ومشبهة كمعظمة أي مشكلة ملتبسة يشبه بعضها بعضاً"[٤].

وتشـبه على صيغة (تفعل) وهي من صيغ الزوائد[5]، وتأتي بعدة معان، أولها: مطاوعة فعل كقولك كسرت الأقلام فتكسرت[٦]، وثانيها: الاتخاذ[7] كتوسد ثوبه أي اتخذه وسادة، وثالثها: التكلف[٨]، كقولك: تصبرت، أي تكلّفت الصبر، ورابعها: التجنب[٩]، مثل: تحرج، أي تجنب الحرج، وخامسها: التدرج[١٠]، كقولك: تجرعت الماء، أي شربت الماء جرعة بعد جرعة ، ومثله تحسـيت، وسادسها:الصيرورة[١١]، مثل: تزوج فلان إذا صار

(1) معجم مقايـيس اللغة، ابن فارس ٢٤٣/٣، وانظر كتاب العين ٤٠٤/٣، ولسان العـرب ٥٠٥/١٣، ٥٠٦، وتاج العروس ٣٩٣/٩، والقاموس المحيط ١٦١٠/١

(2) لسان العرب ٥٠٣/١٣

(3) التوقيف على مهمات التعاريف: ١٧٦/١

(4) تاج العروس ٣٩٣/٩، وانظر كتاب العين ٤٠٤/٣، وانظر: القاموس المحيط ١٦١٠/١

(5) يقصد بالفعل الزائد: ما زيد على حروفه الأصلية، وهذا زيد فيه التاء والتضعيف، انظر: الواضـح في علـم الصرف، د. محمد خير الحلواني، ص: (١٢٠- ١٢١).

6 - انظر: الكتاب لسـيبويه: ٦٦/٤ بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٥٥٥/٢.

(7) انظر: لسان العرب ٤٦٠/٣

8 - انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٥٥٥/٢، وانظر: لسان العرب ٤٣٩/٤

9 - انظر: المصباح المنير ١٢٨/١، وانظر لسان العرب ٤٣١/٣

10 - لسان العرب ٢٩٠/١٠

11 - انظر: الواضح في علم الصرف، د. محمد خير الحلواني، ص: (١٢٠- ١٢١).

زوجاً، وسابعها: الإظهار، قال ابن المبرد: "وقوله: (تخلّق) يريد أظهر خلقاً مثل: (تجمل) يريد أظهر جمالاً وتصنع، وكذلك (تجبر) إنما تأويله الإظهار"[1]، وثامنها: الطلب، قال ابن عقيل: "وجيء بناء تفعل للدلالة على الطلب، نحو تعظم وتيقن، أي: طلب أن يكون عظيماً وذا يقين"[2] [3].

والمعاني الصرفية التي تناسب فعل (تشـبه) هي ما يتعدى منها بالباء، وهي: التكلف والصيرورة والإظهار والطلب، فيقال: تشـبه فلان بفلان، أي: طلب التشـبه به وتكلفه بعد أن لم يكن من عادته، وأظهر ذلك فصار شبيهاً به.

ففي التشـبه معنى تكلف الفعل، وعلى هذا فإن الذي وقع منه التشـبه بدون تكلف الفعل ذاته لا يكون قد فعل التشـبه، وإنما قد حصل منه مطلق المشا ة، فلا يدخل في التشـبه بمعناه اللغوي. وفيه معنى الصيرورة من حال إلى حال، فلا يكون متشـبهاً من كان يمارس ما هو معتاد بالنسبة له ولجنسه ونوعه. وفي التشـبه معنى الإظهار فمن فعل ما فيه مشا ة لغيره مع إخفائه لا يعد تشـبهاً بالمعنى اللغوي ما دام خفياً. وفي التشـبه بمعناه اللغوي معنى الطلب فلا يكون الفعل الذي وقع من غير طلب تشـبهاً، وإن كانـت كل هذه الأفعال لا تخرج عن مطلق المشا ة.

1 - انظر: الكامل لابن المبرد: ٢٤/١

2 - انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ٥٥٥/٢

3 - للمعاني السابقة، انظر: الواضح في علم الصرف، د. محمد خير الحلواني، ص: (١٢٠- ١٢١)، كتاب شـذا العرف في فن الصرف، للأستاذ: أحمد الحملاوي: ص: (٣١).

المبحث الثاني: تعريف التشبه بالكفار اصطلاحاً: -

لم أقف فيما قرأت للعلماء المتقدمين على تعريف للتشـبه إلا على تعريف للغزي وآخر للمناوي رحمهما الله، فأما تعريف المناوي[1] فقد قال شارحاً حديث: ((من تشـبه بقوم فهو منهم)): "أي تزيا في ظاهره بزيهم وفي تعرفه بفعلهم وفي تخلقه بخلقهم وسار بسـير م وهديهم في ملبسهم وبعض أفعالهم، أي وكأن التشـبه بحق قد طابق فيه الظاهر الباطن"[٢]، وهنا قصد المناوي أيضاً تعريف التشـبه الكامل الذي ينطبق على فاعله قوله صلى الله عليه وسلم: ((فهو منهم)) ولم يتعرض إلى تعريف التشـبه الجزئي _ والذي لا يقع عليه وعيد الحديث كاملاً ولكنه لا يخلو من وقوعٍ في التشـبه المحرم والمنهي عنه شرعاً _ فهو كالإمام الغزي عليه رحمة الله لم يدخل جزءاً مهماً من المعرف في التعريف ولعلهما قصدا التشـبه الذي يقع عليه الوعيد الكامل في الحديث الشريف.

وأما تعريف الإمام الغزي[3]_ رحمه الله _ فقد قال: "هو عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشـبه به، وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته، أو هو عبارة عن تكلف ذلك وتقصده وتعلمه"[٤]، وهنا نجد الإمام الغزي رحمه الله يعرف التشـبه الكامل الذي يكون صاحبه به قد شابه به الطرف الآخر من كل وجه، ولذلك قال: وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته، أي: في كل أموره، وهذا يقصد به التشـبه الذي ينطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم: ((من تشـبه بقوم فهو منهم))[٥]، فإن هذا النوع من التشـبه هو الذي عليه

(1) توفي سـنة ١٠٣١هـ انظر كشف الظنون ١٧١٤/٢

(2) فيض القدير ١٠٤/٦

(3) توفي سـنة (١٠٦١) هـ انظر : رسالة التشـبه المنهي عنه في الفقه الإسلامي: ص: (٤).

(4) حسـن التنبه لما ورد في التشـبه، لمحمد بن أحمد الغزي الشافعي: 2/1ب.

(5) أخرجه أبو داود في سـننه ٤٤/٤ برقم (٤٠٣١) و أحمد في مـسـنده ٥٠/٢ بـرقم (٥١١٥)،(٥١١٤)، وقال عنه شيخ الإسلام بعد أن ساق إسـناد أبي داود: "وهذا إسـناد جيد" انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٦٩/١ وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل: ١٠٩/٥

الوعيد في قوله صلى الله عليه وسلم: ((فهو منهم))، وأما من كان تشـبهه م تشـبهاً جزئياً في شيء مما اختصوا به فإنه لا ينطبق عليه كامل وعيد الحديث ولكنه بلا شك لا يسلم من الإثم، قال شيخ الإسلام: "وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشـبه م، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشـبه م"[1]، وعلى هذا فإن تعريفه لم يشمل التشـبه الجزئي الذي لا يعدو أن يكون محرماً، كما يلاحظ على هذا التعريف أنه اشترط قصد التشـبه أيضاً، والصحيح أن التشـبه قد يكون بغـير قصد كما سـيأتي.

وأما التعريفات التي وقفت عليها للمعاصرين فقد عرفه الباحث عثمان دوكري في رسالته (التدابير الواقية من التشـبه بالكفار) فقال: "هو تمثل المسلم بالكفار في عقائدهم أو عبادا م أو أخلاقهم أو فيما يختصون به من عادات، أو خضوعه لهم بشكل من الأشكال"[2]، وهذا التعريف أشمل؛ حيث إنه أدخل الرابط: (أو) بين كل من العقائد والعبادات والأخلاق فأفاد أن التشـبه المنهي عنه يقع بفعل أحدها، أو بفعلها كلها من باب أولى، ولكن يؤخذ عليه ذكره لخضوع المسلم للكافر _ والخضوع شكل من أشكال الموالاة _ فهذا الفعل (الخضوع للكفار) وإن اعتبر من موالاة أعداء الله فإنه لا يلزم اندراجه ضمن التشـبه م، فموالاة الكفار أعم من مجرد التشـبه م، وبينهما عموم وخصوص كلي.

ومن التعاريف النافعة للتشـبه ما أورده الشيخ الدكتور ناصر العقل حيث قال: "هو مماثلة الكافرين بشتى أصنافهم، في عقائدهم، أو عبادا م، أو عادا م، أو في أنماط السلوك التي هي من خصائصهم"[3]، وفي الحقيقة فإن هذا التعريف من أشمل التعاريف حيث إنه أدخل التشـبه بنوعيه الكلي والجزئي غير أنه لم يورد الفاعل للتشـبه[4] وهو المسلم _ ويدخل تحته من يدعي الإسلام بحكم أنه من المسلمين في الظاهر[5] _ وذلك ركن من أركان التشـبه بالكفار، كما يؤخذ على هذا التعريف والتعاريف السابقة أ ا لم تخرج التشـبه المباح من التعريف، فاشتراط كونه من خصائص الكفار لا يخرج ما كان من

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧٠/١

(2) التدابير الواقية من التشبه بالكفار: ٥٠/١

(3) كتاب: من تشـبه بقوم فهو منهم، الصفحة: (٧).

(4) انظر: التدابير الواقية من التشـبه بالكفار، ص: (٤٩).

(5) كما قال تعالى: (فَأَخرجنا من كانَ فيها من الْمؤمنِين، فَما وجـدنا فيهـا غَيـر بيـت مـن الْمـسلمين) (الذريات:٣٥-٣٦)، فسمى من كان في البيت: مسلمين؛ لوجود زوج لوط عليه السلام، وكانت تدعي الإيمـان، فأخرج الله المؤمنين الذين كانوا في بيت لوط عليه السلام، وأبقى زوجه، لأ ا كانت مسلمة في الظاهر، ومنافقـة في الباطن، انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٣٢/٢.

الأمور المفيدة التي تقتضيها الحكمة الثابتة شرعاً، فإن النبي صلى الله عليه وسلم عمل ببعض ما اختص به الكفار في زمنه كما فعل في قصة حفر الخندق[1] الذي كان من خصائص الفرس، فلا بد من إدخال شرط في التعريف يخرج به التشـبه المباح شرعاً، وعلى هذا فيمكن تعريف التشـبه اصطلاحاً بأنه: **مضاهاة المسلم للكفار لغير مصلحة معتبرة شرعاً**، فكلمة مضاهاة تعني التشـبه سـواء أكان جزئياً أم كلياً وسـواء أكان بقصد أو بغـير قصد، وتخرج المعاني التي لا تعتبر تشـبهاً _ وإن كانـت من العلاقات المحرمة بالكفار _ كالولاء للكفار، كما ذُكر في التعريف ركنا التشـبه وهما المسلمون والكفار، ثم أخرج التعريف التشـبه المباح الذي قد يتوهم دخوله في النوع المحرم وذلك بعبارة: لغير مصلحة معتبرة شرعاً، فما كان لمصلحة معتبرة شرعاً خرج عن كونه تشـبهاً محرماً، و بهذا يكون التعريف جامعاً مانعاً.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: مراعاة قصد التشـبه:

إن للقصد في التشـبه معنيان: أما الأول: فهو قصد ذات الفعل، مع علمه بأنه من خصائصهم، فلو لم يقصد ذات الفعل الذي يعتبر تشبهاً وقصد غيره مما لا علاقة له بالتشـبه: لم يكن من التشـبه المحظور، فإن العذر بعدم قصد ذات الفعل مرعي في الشريعة؛ فإنه من الخطأ الذي يعذر صاحبه، وعلى هذا المعنى ينطبق قوله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات))[2]، وهذا المعنى[3] مراعى _ في الحكم على كون الفعل تشـبهاً أم لا _ بلا شك، فلا يمكننا أن نسمي من فعل فعلاً دون إرادته ودون سبق قصد منه _ كالجاهل والمكره والمخطئ والناسـي والنائم والمجنون _ متشـبهاً بحال من الأحوال.

والمعنى الثاني: قصد معنى التشـبه إضافة إلى قصد ذات الفعل مع علم الفاعل بأن الفعل من خصائصهم وذلك بأن يكون الفاعل فعل الفعل مع قصده إياه _ وهنا خرج عن كونه ناسـياً أو مكرهاً...... إلخ _ بالإضافة إلى قصده التشـبه بالكفار راغباً للتشـبه

1- انظر سـيرة ابن هشام: ١٨٢/٤

(2) أخرجه البخاري: ٢٥٥١/٦، برقم: (٦٥٥٣)، ومسلم: ١٥١٥/٣ برقم: (١٩٠٧).

(3) قصد ذات الفعل.

مع علمه بأن هذا الفعل من خصائصهم، فهنا حصل منه قصد ذات الفعل ولكنه لم يحصل منه ذلك التشوف والركون إلى الكفار، ومع ذلك يكون متشـبهاً ؛ وذلك لقصده ذات الفعل الذي يعلم كونه من التشبه المنهي عنه والأمور بمقاصدها، فأما إذا زاد على ذلك إرادة التشـبه وقصده فإنه عندئذ قد جاء بمحظور زائد على مجرد التشـبه فإن فيه عملاً قلبياً يشعر بمحبتهم وإكنان المودة لهم، وهذا أخطر من مجرد التشـبه العملي م، فإني لم أجد _ حسب اطلاعي _ عن أحد من السلف أنه لما نهي عن مظهر من مظاهر التشـبه اعتذر بأنه لم يقصد المشا ة، بل كانـت حالهم – لو افترضنا وقوع أحدهم في ذلك- لا تخرج عن عدم العلم بأن الفعل المعني به من خصائص المشـركين[1]، وعلى هذا فإنه يحرم عليه فعل التشـبه سـواء قصد التشـبه أو لم يقصده، ما دام أنه قصد ذات الفعل الذي يعلم أنه من خصائص الكفار.

وأسـوق هنا مثالاً من السـنة لعله يؤكد ما سبق، عن أبي أمامة رضي الله عنه، في حديث طويل قال: قال عمرو بن عبسة السلمي[2] كنـت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأ م ليسـوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسـول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً...... إلى أن قال: فقلت يا نبي الله أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة قال: ((صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع ؛ فإ ا تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة، حتى يستقل الظل بالرمح[3]، ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر جهنم[4] فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس؛ فإ ا تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار))[5] ففي هذا

---

(1) و ذا يكون قد ابتعد عن الإثم حيث إنه لم يحصل منه أي نوع من أنواع القصد التي ذكر ا آنفـاً، لا قـصد ذات الفعل مع علمه أنه من خصائص الكافرين، ولا قصد ذات الفعل مع قصد التشـبه.

(2) هو: عمرو بن عبسة أبو نجيح السلمي، أحد السابقين إلى الإسلام، وممن كان يقال عنهم: هو ربع الإسـلام، استأذن النبي في المكث معه أو اللحوق بقومه فأذن له بالرجوع إلى قومه فخرج ثم أتى النبي قبل فتح مكـة بعـد الحديبية، ثم سكن الشام و ا مات، انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٢٤١/٦، سير أعلام النبلاء: ٤٥٦/٢.

(3) معنى يستقل الظل بالرمح أي: يقوم مقابله في جهة الشمال ليس مائلاً إلى المغرب ولا إلى المشرق وهذه حالـة الاستواء انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ٦ / ١١٦

(4) ومعنى تسجر جهنم: يوقد عليها إيقاداً بليغاً، انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ١١٧/٦

(5) صحيح مسلم:١ / ٥٧٠، برقم: (٨٣٢).

الحديث _ وغيره _ لم يرد أن النبي صلى الله عليه وسلم قيد النهي عن المشا ة فيه بالقصد، قال شيخ الإسلام: "ومعلوم أن المؤمن لا يقصد السجود إلا لله تعالى، وأكثر الناس قد لا يعلمون أن طلوعها وغرو ا بين قرني شيطان، ولا أن الكفار يسجدون لها، ثم إنه صلى الله عليه وسلم ى عن الصلاة في هذا الوقت؛ حسماً لمادة المشا ة بكل طريق"(١).

كما جاء في كتاب: (رد المحتار على الدر المختار) أن التشـبه لا يقع إلا مع القصد فقال في معرض الحديث عن التشـبه بالكفار: "أي إن قصده، فإن التشـبه م لا يكره في كل شيء بل في ما يقصد به التشـبه"(٢)، وتابعه على ذلك الباحث: جميل بن حبيب اللويحق المطيري في رسالته: التشـبه المنهي عنه في الفقه الإسلامي، واحتج بحديث: ((إنما الأعمال بالنيات))(٣)، وهذا الحديث إنما يستدل به على اشتراط قصد ذات الفعل كما ذكرت فيما سبق، وظاهر دلالة حديث أبي أمامة يفهم منها كون التشـبه م لا يشترط له قصد التشـبه.

كما أن القصد قد يكون له تأثير فيما كان من الحكمة الأخذ به من اختراعات الكفار المأخوذة عنهم أصلاً، فالشرع قد أباحها كما تقدم، ولكن إذا اقترن بذلك قصد التشـبه بالكفار والميل لهم ومحبتهم وتفضيل ما عندهم على ما عند المسـلمين فإن هذه النية تعتبر من موالاة الكفار المحرمة(٤)، وإن كان ظاهر الفعل جائزاً.

وحديث عمرو بن عبسة _ﷺ _ السابق يفهم منه وجوب ترك العمل الذي فيه مشا ة للكفار، ولو كان مع عدم التشوف(5) والميل القلبي إلى ما عند الكفار وبه قال شيخ الإسلام كما سبق عرضه(6)، وقد قال ابن تيمية _ رحمه الله _ في موضع آخر: "ما كان في الأصل مأخوذاً عنهم، إما على الوجه الذي يفعلونه، وإما مع نوع تغيـير في الزمان، أو المكان، أو الفعل، ونحو ذلك، فهو غالب ما يبتلى به العامة، في مثل ما يصنعونه في الخميس الحقير[7] والميلاد ونحوهما، فإ م قد نشؤوا على اعتياد ذلك، وتلقاه الأبناء عن الآباء وأكثرهم

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٨/١

(2) انظر: حاشية ابن عابدين، المعروفة برد المحتار على الدر المختار، لمحمد أمين (ابن عابدين): ٣٨٤/٢.

(3) أخرجه البخاري ٢٥٥١/٦ برقم: (٦٥٥٣)، ومسلم ١٥١٥/٣ برقم: (١٩٠٧).

(4) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، للشيخ محمد بن سعيد القحطاني، ص: (٢٣٧).

(5) والتشوف: التطلع لما عندهم مع الطلب وتعلق الأمل، انظر لسان العرب: ١٨٥/٩، والمصباح المنير: ٣٢٧/١، ومختار الصحاح: ١٤٧/١.

(6) كما سبق في الصفحة السابقة، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٨/١

7 - يقصدون به الخميس الكبير عندهم، ويزعمون أن في مثله نزلت المائدة على عيسى عليه السلام، سمـاه شـيخ الإسلام بالخميس الحقير تصغيراً له، انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٥٣٧/١

لا يعلمون مبدأ ذلك، فهذا يعرف صاحبه حكمه فإن لم ينـته وإلا صار من القسم الأول"[1]، يقصد بالأول ما لا شك في تحريمه من التشـبه م، وقد فصله قبل هذا الكلام، ووجه الاستدلال بكلامه _ رحمه الله _ هنا: أن من عمل ما كان مأخوذاً عنهم في الأصل وهو لا يعلم أنه من عوا ئدهم؛ فهو بلا شك لا يقصد التشـبه م، ومع ذلك أمر شيخ الإسلام بأن يعرف صاحب الفعل حكمه _ وهو التحريم _ ثم بعد ذلك إذا انـتهى عن الفعل فبها ونعمت وأما إذا لم ينـته فقد صار من القسم الأول المحرم، وفي هذه الحال لا يكون هذا قد قصد التشـبه؛ لأنه كان يفعل الفعل ذاته قبل أن يعلم أنه من خصائصهم، وكذلك لم يقل شيخ الإسلام: يسأل صاحبه عن قصده، بل قال يعرف صاحبه حكمه، فلم يشترط أن يقصد التشـبه، بل اشترط مجرد المعرفة بأن هذا الفعل من خصائص المشركين.

قال شيخ الإسلام: "ومن هذا الباب أنه ﷺ كان إذا صلى إلى عود أو عمود جعله إلى حاجبه الأيمن أو الأيسر ولم يصمد له صمداً"[2]، ولهذا ى عن الصلاة إلى ما عبد من دون الله في الجملة وإن لم يكن العابد يقصد ذلك، ولهذا ينهى عن السجود لله بين يدي الرجل وإن لم يقصد الساجد ذلك؛ لما فيه من مشا ة السجود لغير الله، فانظر كيف قطعت الشريعة المشا ة في الجهات وفي الأوقات، وكما لا يصلى إلى القبلة التي يصلون إليها كذلك لا يصلى إلى ما يصلون له بل هذا أشد"[3].

ومن تصريحات شيخ الإسلام الجلية في هذا الباب قوله رحمه الله: "وقد تقدم بيان أن ما أمرنا الله ورسـوله به من مخالفتهم مشروع سـواء كان ذلك الفعل مما قصد فاعله التشـبه م أو لم يقصد، وكذلك ما ى عنه من مشا تهم يعم ما إذا قُصدت مشا تهم أو لم تقصد فإن عامة هذه الأعمال لم يكن المسلمون يقصدون المشا ة فيها، وفيها مالا يتصور قصد المشا ة فيه كبياض الشعر وطول الشارب[4] ونحو ذلك"[5].

وعلى هذا فإنه لا عبرة بادعاء عدم القصد؛ فإن من فعل ما هو تشـبه بالمشـركين، وهو يعلم حكمه فإنه قد وقع في التشـبه المنهي عنه، ولو كان لا يقصد مشا تهم فيه.

---

(1) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٥٥٢

2 - انظر: سـنن البيهقي الكبرى: ٢/ ٢٧٢، المعجم الكبير: ٢٠/ ٢٥٩، وضعفه الألباني، انظر ضعيف سـنن أبي داود، ص: (٦٥)، برقم: (١٣٦).

(3) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٢٢٠

(4) وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (خالفوا المشـركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب) انظـر: صـحيح البخاري: ٢٢٠٩/٥ برقم: (٥٥٥٣) وصحيح مسلم: ٢٢٢/١ برقم (٢٦٠)

(5) اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٧٣/١

وأمر الشريعة بمخالفتهم مطلقاً دليل على عدم مراعاة قصد من وافقهم في فعلهم _ ما دام أنه يعلم بوجوب المخالفة _ قال شيخ الإسلام: "قوله صلى الله عليه وسلم: غيروا الشيب ولا تشـبهوا باليهود(1). دليل على أن التشـبه م يحصل بغـير قصد منا، ولا فعل، بل بمجرد ترك تغيـير ما خلق فينا، وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية الاتفاقية"[2].

وهذا الحديث الذي أورده شيخ الإسلام هنا يشبه الصريح من كلامه صلى الله عليه وسلم في تسمية ما هو مأخوذ عنهم: تشـبهاً ولو كان بغـير قصد.

المسألة الثانية: ما كان مأخوذاً عنهم في الأصل ثم صار من عوائد المسـلمين، وما كان غير مأخوذ عنهم:

إن ما كان مأخوذاً عن الكفار في الأصل هو مظهر من مظاهر التشـبه ولو صار ذلك من عوائد المسـلمين، إذا تبين حكمه، فإن اعتياد المسـلمين له لا يخرجه عن دائرة مضاها م. قال شيخ الإسلام: "ما كان في الأصل مأخوذاً عنهم إما على الوجه الذي يفعلونه وإما مع نوع تغيـير في الزمان أو المكان أو الفعل ونحو ذلك فهذا غالب ما يبتلى به العامة في مثل ما يصنعونه في الخميس الحقير(3) والميلاد ونحوهما فإ م قد نشئوا على اعتياد ذلك وتلقاه الأبناء عن الآباء وأكثرهم لا يعلمون مبدأ ذلك فهذا يعرف صاحبه حكمه فإن لم ينـته وإلا صار من القسم الأول"[4] يقصد بالقسم الأول: ما لا شك في تحريمه والذي قد يبلغ التحريم في بعضه إلى أن يكون من الكبائر، وقد يصير كفراً حسب الأدلة الشرعية[5]، وقال ابن حجر في الفتح: "وقد كره بعض السلف لبس البرنس(6) لأنه كان من لباس الرهبان، وقد سئل مالك عنه فقال: لا بأس به، قيل: فإنه من لبوس النصارى قال كان يلبس ههنا"[7]، فبـين الإمام مالك _ كما نقل عنه ابن حجر _ أنه لم يبح لبسه

---

(1) رواه الترمذي في سـننه: ٢٣٢/٤، برقم: (١٧٥٢)، والنسائي في ا تبى: ١٣٧/٨، برقم: (٥٠٧٣، ٥٠٧٤)، وحسـنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤٩٠/٢، برقم: (٨٣٦).

2 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧١/١

(3) سبق التعريف به ص: (١٩).

٢ - اقتضاء الصراط المستقيم: ٥٥٢/١

5 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٥٥٢/١.

(6) والبرنس: كل ثوب غطاء رأسه منه انظر: نيل الأوطار للشوكاني: ٢٩٢/٢.

7 - فتح الباري ٢٧٢/١٠

إلا لأنه كان يلبس ههنا _ أي عند المسلمين[1] _ ولولا ذاك لحكم عليه بالتحريم ما دام أنه مأخوذ عن النصارى.

وأما ما لم يكن في الأصل مأخوذاً عنهم ولكنهم يفعلونه أيضاً: فلا يكون ذلك من التشبه المنهي عنه، ما لم ينص الشرع على كونه من التشبه بهم، **فإن ما نص عليه الشارع له وضعه الخاص**، ومما نص عليه الشرع ما يمكن أن يندرج تحت هذا النوع، فمن ذلك نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريد الثقفي[2] عن قعدة المغضوب عليهم وهذا مما قد يكون من أفعال المسلمين التي لم يأخذوها عن الكفار بل فعلوها من عند أنفسهم، ولكن النص أخرجه فصار من التشبه المنهي عنه ولولا نهي الرسول ﷺ لما زاد الحكم على استحباب مخالفتهم في هذا النوع من القعود[3]؛ لأنه لم يكن في الأصل مأخوذاً عنهم ولكنهم يفعلونه، بل قد يتعدى ذلك إلى الوجوب، قال شيخ الإسلام: "النوع الثاني[4]: ما ليس في الأصل مأخوذاً عنهم لكنهم يفعلونه أيضاً، فهذا ليس فيه محذور المشابهة ولكن قد يفوت فيه منفعة المخالفة، فتتوقف كراهة ذلك وتحريمه على دليل شرعي وراء كونه من مشابهتهم، فأما استحباب تركه لمصلحة المخالفة إذا لم يكن في تركه ضرر؛ فظاهر لما تقدم من المخالفة، وهذا قد توجب الشريعة مخالفتهم فيه"[5].

وقد جمع شيخ الإسلام بين تقرير هذه المسألة ومسألة القصد _ السابقة _، في جملة واحدة فقال رحمه الله: "فمن انعطف على ما تقدم من الدلائل العامة نصاً وإجماعاً وقياساً تبين له الفرق بين ما بقينا فيه على عادتنا لم نحدث شيئاً نكون به موافقين لهم فيه وبين أن نحدث أعمالاً أصلها مأخوذ عنهم، قصدنا موافقتهم أو لم نقصد "[6].

ويستثنى مما سبق: ما استفاض عند المسلمين حتى صار من شعارهم _ ما لم يكن في تحريمه نص؛ **فإن ما نص عليه الشارع له وضعه الخاص فلا يتبدل ولا يتغير باختلاف الأزمنة والأماكن _ احتراماً للنص، وإيماناً بأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان**، قال

1 - أي أنه لم يكن مأخوذاً من النصارى في نظره رحمه الله.

(2) هو أبو عمرو الشريد بن سويد الثقفي، من حضرموت وله صحبة، سكن الطائف، وكنيته أبو عمرو، وهو والد عمرو بن الشريد يقال: إنه من حضرموت ويقال أيضاً: إنه من همدان حليف لثقيف، انظر: الإصابة: ٣/٣٤٠، وانظر للاستفادة: الثقات: ٣/١٨٨، رجال مسلم: ١/٣١٠، مشاهير علماء الأمصار: ١/٥٨

3 - إعمالاً للأصل الذي جاءت به السنة.

(4) النوع الثاني داخل في القسم الثاني وهو ما لم يعلم الفاعل أنه من عملهم انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٥٥٢

(5) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٥٥٣

(6) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٤٧٩

ابن حجر في الفتح _ مبيناً أن ما استفاض عند المسـلمين حتى صار من شعارهم لا يعد تشبهاً بالكفار حتى ولو كان مما يفعله الكفار _، في معرض حديثه عن حكم لبس الطيلسان: "وإنما يصلح الاستدلال بقصة اليهود في الوقت الذي تكون الطيالسة من شعارهم وقد ارتفع ذلك في هذه الأزمنة فصار داخلاً في عموم المباح، وقد يصير من شعائر قوم فيصير تركه من الإخلال بالمروءة"[1]، فهناك فرق بين أن نحدث أعمالاً نشا بهم ا، وبين أن يباشر المسلمون ما استفاض عندهم حتى لم يعد يعتبر من شعار الكفار.

وكما أنه قد يصير الفعل من شعار المسـلمين بعد أن كان شعاراً للكفار، فقد يصير الفعل تشـبهاً بعد أن لم يكن كذلك، وذلك بأن يصير الفعل من شعار الكفار، يقول الذهبي عن زمنه:"ألا ترى أن العمامة الزرقاء والصفراء كان لبسهما لنا حلالاً قبل اليوم. وفي عام سبعمائة، فلما ألزمهم السلطان الملك الناصر حرمت علينا"[2].

وقد يرد سؤال مفاده: هل فيما صح عن الأنبياء السابقين ويدين بـه اليهـود أو النصارى ويفعله المسلمون اليوم ولم يرد في شريعتنا[3]، هل هذا يدخل ضمن التشـبه المنهي عنه، أم لا ؟

وللإجابة على هذا السؤال: لا بد لنا من العلم بثبوت ذلك عن الأنبياء السابقين لمحمد عليه الصلاة والسلام قال ابن العربي _ رحمه الله _: "وإنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا من معرض المدح والثناء هل يلـزم اتباعه أم لا"(4)، وذلك لا يكون إلا عن طريق الكتاب أو السـنة في الغالب(5)، فإن ثبت ذلك _ كما في أفعال الأنبياء التي ختمها الله تعالى بقوله: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[6] _ فإن هذا ليـس فيه تعارض مع ما سـبق من تحريم التشـبه بالمشـركين، قال

---

1 - فتح الباري: ٢٧٥/١٠

2 - تشبيه الخسـيس بأهل الخميس، للذهبي، ص: (٢٥).

3 - فإن ما ورد الأمر به في شريعتنا قد يكون من الأصول المتفق عليها بين الشرائع، كما في قوله تعـالى: (ومـا أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (الأنبـيـاء:٢٥)، وكقوله صـلى الله عليـه وسلم: ((والأنبـيـاء إخوة لعلات أمها م شتى ودينهم واحد)) أخرجه البخـاري ٣ /١٢٧٠ بـرقم: (٣٢٥٩) وانظر: كتاب: موقع شرع من قبلنا من الأدلة ص: (٦٦)، وصفحة: (٨٨- ٨٩).

(4) نقله عنه القرطبي في تفسـيره ١٦٤/١٦

(5) بين شيخ الإسلام أنه يمكن ذلك عن طريق التواتر، وهو قليل جداً فيما أعلم، انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٦٤/١

6 - سـورة الأنعام، الآية: (٩٠).

الآمـدي(1): "اختلفوا في النبي عليه السلام وأمته بعد البعثة هل هم متعبدون بشرع من تقدم؟ فنقل عن أصحاب أبي حنيفة وعن أحمد في إحدى الراويتين عنه وعن بعض أصحاب الشافعي أن النبي عليه السلام كان متعبداً بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحي إليه لا من جهة كتبهم المبدلة ونقْل أربا ا"[٢]، فإنه إنما ينا عن التشـبه م في ما لم يرد فيه نص يدل على كونه من هدي النبيـين، بشرط أن لا يكون في شرعنا بيان خاص بالموافقة أو المخالفة فإن وجد ذلك في شرعنا لزم الاستغناء به عن غيره[٣]، وأما إذا لم يثبت أن ذلك من هدي النبيـين فإنه من التشـبه المنهي عنه.

وأما أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب موافقتهم فيما لم يؤمر فيه بشيء: فإن ذلك نسخ[٤] بأحاديث الأمر بالمخالفة، وعلى فرض أن ذلك لم ينسخ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك لمعرفته بالوحي فكان يعرف حقهم من باطلهم عن طريقه[٥].

---

(1) هو سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد ابن سالم التغلبي الآمدي الحنبلي ثم الشافعي، ولد سنة نيف وخمسين، فرق دينه وأظلم وكان يتوقد ذكاءً، وتبحر في العلوم وتفرد بعلم المعقولات والمنطق والكلام، ثم أقرأ الفلسفة والمنطق بمصر بالجامع الظافري وأعاد بقبة الشافعي وصنف التصانيف ثم قاموا عليه ورموه بالانحلال وكتبوا محضراً بذلك، ت: (٦٣١هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء: ٣٦٤/٢٢-٣٦٥.

2 - الإحكام للآمدي: ١٤٧/٤

3 - انظر تفسـير القرطبي: ٢١١/٦

4 - انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٦٦/١

5 - انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٦٦/١

الفصل الثاني

حكم التشبه بالكفار.

المبحث الأول: موقف القرآن من التشبه بالكفار:-

إن من دعاء المؤمنين في أول سـورة من القرآن أن يهديهم الله الصراط المستقيم المخالف للكفار من اليهود والنصارى[1]، وهو الدعاء الذي يدعو به المسلمون في كل صلاة، والذي تضمنـته أعظم سـورة في القرآن والتي لا تصح الصلاة إلا ا فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج[2] يقولها ثلاثا))[3]، وهذا الدعاء في قوله

(1) وبه قال المفسرون، انظر: تفسـير الطبري: ١/ ٨٤، وتفسـير القرطبي ١/١٥٠، وتفسـير الجلالين: ٣/١

(2) أي ناقصة غير تامة، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٠١/٤

3 - أخرجه مسلم: ٢٩٧/١ برقم (٣٩٥)

تعالى: (اهدنا الصراطَ الْمستقيم، صراطَ الذين أنعمت علَيهم غَير الْمغضوبِ علَيهم ولا الضالين)[1]، قال ابن كثير: "وهما طريقة اليهود والنصارى"[2]، وقال: "فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم "وقد ورد في تفسـير هذه الآية حديث عن عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلاّل))[3]، قال ابن كثير: "أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى: (من لَعنه الله وغَضب علَيه)[4]، وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم: (قَد ضلوا من قَبلُ وأَضلوا كَثيراً وضلوا عن سـواءِ السبِيلِ)[5]، و ذا جاءت الأحاديث والآثار"[6].

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد موقفه من التشـبه واضحاً جلياً، ألا وهو موقف النهي عن التشـبه بالكفار[7] بصيغ مختلفة وطرق متعددة، فينهى الله تبارك وتعالى عن التشـبه عموماً في مواضع، وينهى عن اتباع أهواء الكفار في مواضع أخرى، وينهى أحياناً عن التشـبه م في الاستمتاع بالشهوات المحرمة، وقد ينهى عن موافقتهم في ما هو جائز أحياناً أخرى سداً لذريعة التشـبه، وينهى عن التشـبه م في الحكم بين الناس بالباطل، ويبرئ نبيه صلى الله عليه وسلم منهم تبرئة تامة.

وتفصيل ذلك فيما يلي:-

١- فأما يه عن التشـبه عموماً فقد قال تعالى في معرض إجابته لدعاء النبيـين الكريمين موسى وهارون: ((فَاستقيما ولا تتبِعآن سبِيلَ الذين لا يعلَمونَ)[8]، قال الطبري في تفسـيرها: "ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فتستعجلان قضائي فإن وعدي لا خالف له وإن وعيدي نازل بفرعون"[9]، فأمرهما بالاستقامة و اهما عن سلوك طريق الذين لا يؤمنون بوعد الله ووعيده، وجعل الاستقامة تنافي اتباع سبيل الكافرين، ولذلك

1 - سورة الفاتحة - ٧
2 - تفسـير ابن كثير ٢٨/١
(3) رواه الترمذي في سـننه: ٢٠٤/٥ برقم: (٢٩٥٤)، وصححه الألباني في صحيح سـنن الترمذي: ١٨٣/٣، برقم: (٢٩٥٤)، طبعة مكتبة المعارف.
(4) سـورة المائدة: من الآية: (٦٠).
(5) سـورة المائدة: من الآية: (٧٧).
6 - تفسـير ابن كثير ٢٨/١
7 - مع اعتبار الضوابط التي جاء ا القرآن والسـنة.
8 - سـورة: (يونس الآية: ٨٩).
9 - الطبري ١٦٢/١١ وانظر القرطبي ٣٧٦/٨

كانت وصية موسى عليه وعلى نبـينا الصلاة والسلام لأخيه هارون بذلك: (وقَالَ موسى لأخيه هارونَ اخلُفْنِي في قَومي وأَصلح ولا تتبع سبيلَ الْمفْسِدين)[1].

٢- وأما يه عن اتباع أهوائهم ففي قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (ثُم جعلْناك علَى شرِيعة من الْأَمرِ فَاتبِعها ولا تتبِع أَهواءَ الذين لا يعلَمونَ، إِنهم لَن يغنوا عنك من الله شيئاً وإِن الظالمين بعضهم أَولياءُ بعضٍ والله ولي الْمتقين)(2)، قال شيخ الإسلام: "وأهواؤهم هو ما يهوونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك فهم يهوونه وموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه"(3)، (الذين لا يعلمون): قال الشوكاني: "وهم كفار قريش ومن وافقهم"(4)، وقال القرطبي: "قال ابن عباس: قريظة والنضير نـزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه"[5]، وقال:" قال ابن عباس: يريد أن المنافقين أولياء اليهود والله ولي المتقين"[6]، وهذا القول يقتضي أن التشـبه بأعداء الله واتباع أهوائهم من صفات المنافقين _ أجارنا الله من حالهم _ وقال تعالى في النهي عن اتباع أهوائهم أيضاً: (والذين آتيناهم الْكتاب يفْرحونَ بِما أُنزِلَ إِلَيك ومن الْأَحزابِ من ينكر بعضه قُلْ إِنما أُمرت أَنْ أَعبد الله ولا أُشرِك بِه إِلَيه أَدعو وإِلَيه مآبِ، وكَذَلك أَنزلْناه حكْماً عربِياً ولَئنِ اتبعت أَهواءَهم بعد ما جاءَك من الْعلْمِ ما لَك من الله من ولي ولا واقٍ)[7]، قال الطبري رحمه الله في تفسـيرها: " اه جل ثناؤه عن ترك ما أنـزل إليه واتباع الأحزاب و دده على ذلك إن فعله فقال: ولئن اتبعت يا محمد أهواءهم _ أهواء هؤلاء الأحزاب ورضاهم ومحبتهم _ وانـتقلت من دينك إلى دينهم ما لك من يقيك من عذاب الله إن عذبك على اتباعك أهواءهم"[8]، فلئن كان اتباع أهواء الكفار موجباً لسخط الله على نبيه، فإن ذلك العقاب يكون لمن اتبع أهواء الكفار من أمته من باب أولى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالضمير في (أهواءهم) يعود والله أعلم إلى ما تقدم ذكره، وهم الأحزاب الذين ينكرون بعضه فدخل في ذلك كل من أنكر شيئاً من القرآن من يهودي أو نصراني وغيرهما وقد قال: (ولَئنِ اتبعت أَهواءَهم بعد ما جاءَك من الْعلْمِ)

---

1 - سـورة: (الأعراف – ١٤٢).
(2) سـورة: (الجاثية – ١٨،١٩).
(3) اقتضاء الصراط المستقيم: ٩٧/١
(4) فتح القدير: ١٠/٥
5 - انظر: تفسير القرطبي: ١٦٤/١٦.
6 - تفسـير القرطبي: ١٦٤/١٦.
7 - سورة: الرعد الآيتين: (٣٦، ٣٧).
8 - تفسـير الطبري: ١٦٥/١٣

ومتابعتهم فيما يختصون به من دينهم وتوابع دينهم: اتباع لأهوائهم، بل يحصل اتباع أهوائهم بما هو دون ذلك"[1]، فكل ما باين القرآن من أفعالهم فهو من أهوائهم التي توجب لمن اتبعها سخط الله وعذابه، وليس النهي عن هذا هو المقصود فحسب بل سـيأتي النهي عما كان جائزاً بحكم القرآن من حيث الأصل ولكن نهي عنه لمجرد سد ذريعة التشـبه.

٣- ومن نهيه عن اتباع أهوائهم قوله تعالى: (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين)[2]، قال الطبري رحمه الله في تفسـيرها: "(ولئن اتبعت أهواءهم): ولئن التمست يا محمد رضا هؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك (كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) فاتبعت قبلتهم يعني فرجعت إلى قبلتهم، ويعني بقوله: (من بعد ما جاءك من العلم): من بعد ما وصل إليك من العلم بإعلامي إياك أنهم مقيمون على باطل وعلى عناد منهم للحق (إنك إذاً لمن الظالمين) يعني أنك إذا فعلت ذلك من عبادي الظلمة أنفسهم المخالفين أمري والتاركين طاعتي وأحدهم وفي عدادهم"[3]، فوصف الظلم ملازم لمن اتبع أهواء الكفار ولو كان فعله ذلك من أجل أن يقرب بينه وبين الكفار _ سـواءً أكان ذلك من أجل دعوتهم أو من أجل مصالح اقتصادية أو سـياسـية أو غير ذلك _ لعموم الآية، فلا يجوز أن يتنازل المسلم عن شيء من أصول دينه مجاراة للكفار ومداهنة لهم.

٤- ومن نهيه تعالى عن التشـبه بهم فيما هو محرم علينا قوله تعالى: (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون)[4]، وهذه الآية من أقوى الآيات في التخويف من سلوك سبيل الكافرين، والتحذير من التشـبه بهم، فقد جمع الله تبارك وتعالى فيها بين وصف المنافقين بالتشـبه بهم في جانب الاعتقاد الفاسد والأهواء الباطلة وبين وصفهم بالاستمتاع بالنصيب الحرام من الشهوات، كما أن هذه الآية جاءت في سـورة التوبة وهي التي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين وجلّت صفاتهم،فقد روى البخاري أن ابن عباس سئل عن سـورة التوبة ؟ فقال: "التوبة هي الفاضحة ما زالت تنـزل (ومنهم) حتى

---

1 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٩٧/١
(2) سـورة البقرة - ١٤٥
(3) تفسـير الطبري: ٢٥/٢
(4) سـورة التوبة - ٦٩

ظنوا أ ا لن تبقي أحداً منهم إلا ذكر فيها"[1]، وما ذكره الله في هذه الآية هو بعض صفات المنافقين في هذه السـورة العظيمة التي فضح الله فيها المنافقين بذكر صفا م العملية وكان منها صفة التشـبه بالكفار، فيؤخذ منها أن التشـبه بالكفار إنما هو من صفات المنافقين التي حذرت منها هذه السـورة، قال الطبري رحمه الله: "(فاستمتعوا بخلاقهم) يقول فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم ودينهم ورضوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عوضاً من نصيبهم في الآخرة وقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع (وخضتم) في الكذب والباطل على الله"[2]، فلم يكتف بذكر تحريم هذه الأفعال بل شبه مقارفتهم لها بفعل الذين كفروا من قبل مما زاد في قبحها ونكار ا، وعلى هذا فالفعل المنهي عنه إذا كان في الأصل من خصال الكفار فإنه يكون أعظم جرماً وأشد خطراً من فعل المحرم العادي.

وجمع الله في هذه الآية ذم التشـبه بالكفار في جانب الشبهات وفي جانب الشهوات المحرمة، قال شيخ الإسلام: "وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض؛ لأن فساد الدين: إما أن يقع بالاعتقاد الباطل، والتكلم به، أو يقع في العمل بخلاف الاعتقاد الحق، والأول: هو البدع ونحوها، والثاني: فسق الأعمال ونحوها، والأول: من جهة الشبهات، والثاني: من جهة الشهوات"[3].

ومما يندرج مع ما سبق قوله تعالى: (والذين لا يشهدونَ الزور وإذَا مروا بِاللغوِ مروا كراماً)[4] ، هذه الآية جاءت في وصف عباد الرحمن المتقين، ففسرها غير واحد من السلف بأن الزور[5] هو أعياد المشـركين، قال ابن كثير عليه رحمة الله: "وهذه أيضا من صفات عباد الرحمن أ م لا يشهدون الزور، قال غير واحد من السلف: هو أعياد المشـركين"[6]، وقال القرطبي رحمه الله: "وعن ابن عباس ﷺ أنه أعياد المشـركين"[7]، ونقل شيخ الإسلام _ رحمه الله _ عن غير واحد من أهل العلم كذلك قوله: أنه أعياد المشركين[8]، وهذا يعني أن صفات عباد الرحمن المتقين لا يمكن أن تكمل إلا بأن يكونوا في منأى عن صفات الكفار وشعائرهم الظاهرة، كالأعياد وغيرها.

1 - أخرجه البخاري: ٤/ ١٨٥٢ برقم: (٤٦٠٠)، وأخرجه مسلم: ٢٣٢٢/٤ برقم: (٣٠٣١).
(2) تفسـير الطبري: ١٠ / ١٧٥، وانظر: تفسـير القرطبي: ٢٠١/٨
(3) اقتضاء الصراط المستقيم: ١ /١١٨- ١١٩
(4) سـورة الفرقان: الآية: (٧٢).
5 - والزور هو الكذب والباطل، انظر: لسان العرب ٤/ ٣٣٦
6 - انظر: تفسـير ابن كثير: ٣٣٠/٣
7 - انظر: تفسـير القرطبي: ٧٩/١٣
8 - انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ١ / ٤٧٩

ومما نهينا عن التشبه بهم فيما هو محرم علينا أصلاً: قسوة القلب بعد طول الأمد، قال تعالى: (أَلَم يأن للذين آمنوا أَنْ تخشع قُلُوبهم لذكْرِ الله وما نزلَ من الْحق ولا يكُونوا كَالذين أُوتوا الْكتاب من قَبلُ فَطَالَ علَيهم الأَمد فَقَست قُلُوبهم وكَثير منهم فَاسقُونَ)[1]، قال الطبري عليه رحمة الله: "ويعني بقوله: (فَطَالَ علَيهم الأَمد): ما بينهم وبين موسى صلى الله عليه وسلم وذلك الأمد: الزمان"[2]، وقال: "(ولاَ يكُونواْ): يعني الذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (كَالذين أُوتوا الْكتاب من قَبلُ) يعني: من بني إسرائيل ويعني بالكتاب الذي أوتوه من قبلهم: التوراة والإنجيل"[3]، وقد قال تعالى لبني إسرائيل: (ثُم قَست قُلُوبكُم من بعد ذَلك فَهِي كَالْحجارة أَو أَشد قَسوةً وإِن من الْحجارة لَما يتفَجر منه الْأَنهار)[4]، وقال: (فَبِما نقْضهم ميثَاقَهم لَعناهم وجعلْنا قُلُوبهم قَاسيةً يحرفُونَ الْكَلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذُكروا بِه)[5]، ولما كانت من صفات بني إسرائيل قسوة القلب صار يعد ذلك من التشبه المحرم، وقسوة القلب جاء تحريمها في قوله تعالى: (فَويلٌ للْقَاسية قُلُوبهم من ذكْرِ الله)[6]، ولكن زاد في تحريمها ما فيها من مضاهاة للكفار من أهل الكتاب، فكل من كان في قلبه شيء من القسوة بعد طول الأمد ففيه من مشابهة الكفار حسب تلك القسوة.

ومن ذلك قوله تعالى: (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات)[7]، قال الطبري رحمه الله: "هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب"[8]، وقد نهانا الله عز وجل عن الافتراق لأنه شر، وأخبرنا في كتابه أن النهي عن الافتراق يعتبر من أصول شرائع الأنبياء من أولي العزم من الرسل فقال: (شرع لَكُم من الدينِ ما وصى بِه نوحاً والذي أَوحينا إِلَيك وما وصينا بِه إِبراهيم وموسى وعيسى أَنْ أَقيموا الدين ولا تتفَرقُوا فيه)[9]، ونهانا عن مشابهة الذين خالفوا

1 - سورة الحديد – الآية (١٦).
(2) تفسير الطبري: ٢٢٩/٢٧
(3) تفسير الطبري: ٢٢٨/٢٧
(4) سورة البقرة: الآية: (٧٤).
(5) سورة المائدة الآية: (١٣).
(6) سورة الزمر الآية: (٢٢).
(7) سورة آل عمران الآية: (١٠٥).
(8) انظر: تفسير الطبري: ٣٩/٤
(9) سورة الشورى الآية: (١٣).

شرائع الأنبياء بالتفرق كما في آية آل عمران السابقة وكما في قوله تعالى: (ذَلك بِأن الله نزلَ الْكتاب بِالْحق وإِن الذين اختلَفُوا في الْكتابِ لَفي شقَاقٍ بعيد)(1).

٥- ومن موقف القرآن من التشـبه: يه تعالى عن موافقة الكفار حتى فيما هو جائز بالنسبة للمسـلمين من ناحية الأصل؛ سداً للذريعة وحسماً لمادة التشـبه، قال تعالى: (يا أَيها الذين آمنوا لا تقُولُوا راعنا وقُولُوا انظُرنا واسمعوا ولِلْكَافرِين عذَاب أَليم)(٢)، قال الطبري ـرحمه اللهـ في تفسـيره: "هي كلمة كانت اليهود تقولها على وجه الاستهزاء والمسبة، فنهى الله تعالى ذكره المؤمنين أن يقولوا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون بل هي كلمة كانت الأنصار في الجاهلية تقولها فنهاهم الله في الإسلام أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم"(3)، وسـواء كانت الكلمة من كلام الأنصار في الجاهلية أو كانت من كلام اليهود استهزاءً، فإن المسـلمين لم يكونوا يقصدون ا المعنى الباطل، ومع ذلك اهم الله تعالى عن قولها، قال شيخ الإسلام: "فهذا كله يبين أن هذه الكلمة ي المسلمون عن قولها؛ لأن اليهود كانوا يقولو ا – وإن كانت من اليهود قبيحة ومن المسـلمين لم تكن قبيحة – لما كان في مشا تهم فيها من مشا ة الكفار"(4)، وعلى هذا فينبغي على المسلم الحق أن يخالف الكفار في كل شؤو م ـ ولو كان أصل الأمر مباحاً ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لأن مخالفة الكفار مقصد شرعي.

٦- وأما النهي عن التشـبه م في الحكم ففي قوله تعالى: (فَاحكُم بينهم بِما أَنزلَ الله ولا تتبِع أَهواءَهم عما جاءَك من الْحق)(٥)، ومعناها كما قال الطبري ـرحمه اللهـ: "ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين يقولون إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم(٦)، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا"(٧)، فهنا حرم الله على نبيه أن يتبع أهواء أهل الكتاب في الحكم بينهم، فكيف بمن يتبع أهواءهم في الحكم بين المسـلمين. ثم قال الله تعالى في الآية التي تليها

(1) سـورة البقرة الآية رقم (١٧٦).
2 - سـورة البقرة: الآية ١٠٤
(3) انظر: تفسـير الطبري: ٤٦٩/١، وراجع في تفسـيرها: القرطبي ٢/ ٥٧- وانظر ابن كثير ١/ ١٤١
(4) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٥/١
5 - سـورة المائدة - ٤٨
6 - كما هي طريقة اليهود دائماً في التسامح مع أهل الفواحش ـ إذا كانوا من علية القوم ـ، حتى صارت مـن صفا م الثابتة والعياذ بالله.
7 - تفسير الطبري: ٢٦٩/٦، وانظر تفسير القرطبي: ٢١١/٦

مباشرة تأكيداً للمعنى: (وأن احكُم بينهم بما أنـزلَ الله ولا تتبع أهواءَهم واحذَرهم أنْ يفْتنوك عن بعضِ ما أنـزلَ الله إليك) [1]، فدل أن من الفتنة: الحكم بأهواء أهل الكتاب.

وتخصيص النهي عن اتباع أهواء الكفار في الحكم _ وقد نهى عن اتباع أهوائهم عموماً في عدد من الآيات _ دليل على خطورة التشـبه بالكفار في جانب الحكم بغـير ما أنزل الله؛ فإن في ذلك اتباع لأهواء الكفار، فكيف باتخاذ الأنظمة والقوانين المخالفة لشرع الله والتحاكم إليها[٢].

١- ومن موقف القرآن من التشـبه بالمشـركين: تبرئة الله لرسـوله _ صلى الله عليه وسلم _ منهم تبرئة تامة، وذلك في قوله تعالى: (إن الذين فَرقُوا دينهم وكانوا شيعاً لَست منهم في شيءٍ)، قال الطبري رحمه الله في تفسـيرها: "إن قوله (لَست منهم في شيءٍ) إعلام من الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أنه من مبتدعة أمته الملحدة في دينه: بريء، ومن الأحزاب من مشركي قومه ومن اليهود والنصارى"[3]، وهذه البراءة تقتضي بلا شك قطع الصلة بهم من كل وجه، فلا تجوز موالاتهم من كل وجه سـواءً كان ذلك تشـبهاً أو محبة أو نصرة أو غير ذلك، كما قال شيخ الإسلام: "وذلك يقتضي تبرؤه منهم في جميع الأشياء، ومن تابع غيره في بعض أموره فهو منه في ذلك الأمر، فقول القائل: لست من هذا في شيء، أي لست مشاركاً له في شيء، بل أنا متبرئ من جميع أموره، وإذا كان قد برأ الله رسـوله صلى الله عليه وسلم من جميع أمورهم؛ فمن كان متبعاً للرسـول صلى الله عليه وسلم حقيقة كان متبرئاً كتبرئته، ومن كان موافقاً لهم كان مخالفاً للرسـول بقدر موافقته لهم، فإن الشخصيتين المختلفتين من كل وجه في دينهما كلما شابـهت أحدهما خالفت الآخر"[4]، وهذه الآية من أعظم الآيات التي تدل على وجوب مفارقة الكفار في جميع ما هم عليه _ ما لم تكن ثم فائدة معتبرة شرعاً _، فهذا هو موقف القرآن، نجده ظاهراً جلياً في بيان تحريم التشـبه بالكفار.

---

1 - سـورة المائدة - ٤٩

2 - سـيأتي التفصيل في الحكم بغـير ما أنزل اله في مبحث: أثر العلمانية في التحاكم إلى غير الله.

(3) تفسير الطبري: ١٠٥/٨

(4) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١ / ١٧٦

المبحث الثاني: موقف السنة من التشبه بالكفار:

لقد جاء موقف السـنة، موافقاً للقرآن تماماً، وكما هي طريقة السـنة مع القرآن أ ا تبين عن خاصه وعامه وتفسر مبهمه[1] وتفصل مجمله، وتقيد مطلقه، وتشرح أحكامـه[2]، ولقد جاء موقف السـنة من التشـبه ملفتاً لنظر الباحث فإنك تجد النبي صلى الله عليه وسلم قد سلك كل طريق ممكنة لبيان أهمية المفاصلة الكاملة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وعمل بكل ما يقطع المشا ة بين من رضي بالله معبوداً وإلهاً، وبين من عبد الطاغوت[٣] وكفر بمن حق له أن يكون معبوداً وإلهاً، فلم يترك أمراً يزيد المباينة بينهما إلا أمر به ورغب فيه، ولم ير شيئاً يقيم الصلة بينهما إلا ى عنه وحذر منه. فمن الأحاديث ما جاء النهي فيها عن التشـبه بالكفار يأ صريحاً، دون ذكر سبب النهي، ومن الأحاديث ما جاء النهي فيه عن التشـبه م مع التعليل بالمخالفة لهم، ومنها ما جاء فيه نسبة المتشـبه م إلى الجاهلية، ومنها ما جاء فيه التحذير من التشـبه م لأن ذلك ملحق م وحكم المتشـبه م كحكمهم، ومن الأحاديث في السـنة النبوية ما جاء فيه الترهيب من التشـبه م لما حصل لهم من عقوبة الله، ومن الأحاديث ما ورد فيه النهي عن التشـبه م على صيغة الإخبار عن حال المسـلمين في المستقبل وانجرافهم وراء التشـبه الأعمى بالكفار، هذا من ناحية الإجمال، وتفصيل ذلك فيما يلي:-

١- فمن الأحاديث التي جاء فيها النهي عن التشـبه بالكفار يأ صريحاً مجرداً عن ذكر سبب من الأسباب: ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: قدم رسـول الله _ صلى الله عليه وسلم _ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ((ما هذان اليومان))، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله قد أبدلكم ما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر)) [4]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فوجه الدلالة: أن

---

(1) السـنة للمروزي، ص: (٣٥).

(2) انظر: السـنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص: (٢٤).

(3) قال شيخ الإسلام رحمه الله: الطاغوت هو ما عظم بالباطل من دون الله تعالى، انظر: بيـان تلبـيس الجهميـة: ٤٥٠/١، وقال ابن القيم رحمه الله: الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، انظر: إعلام الموقعين: ٥٠/١.

(4) سـنن أبي داود: ٢٩٥/١ برقم (1134) وانظر: مسـند أحمد: ١٠٣/٣ بـرقم (12025) و: ٢٥٠/٣ برقم: (13647)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٢١٠/١، برقم: (١٠٠٤).

اليومين الجاهليـين لم يقرهما رسـول الله صلى الله عليه وسلم ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة، بل قال: ((إن الله قد أبدلكم بهما يومين آخرين)) والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه....وأيضا فقوله لهم ((إن الله قد أبدلكم)) لما سألهم عن اليومين فأجابوه ((إنهما يومان كانوا يلعبون فيهما في الجاهلية))، دليل على أنه نهاهم عنهما اعتياضاً بيومي الإسلام؛ إذ لو لم يقصد النهي لم يكن ذكْر هذا الإبدال مناسباً؛ إذ أصل شرع اليومين الإسلامييـن كانوا يعلمونه، ولم يكونوا ليتركوه لأجل يومي الجاهلية"[1]، وهنا وضع رسـول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة جليلة من خلال هذا الحديث حيث استبدل ذانك اليومين بيومين آخرين، دون ذكر سبب ظاهر وهذا يدل على أن مخالفة الكفار من مقصود الشارع أصلاً، فسكوته عن ذكر سبب الاستبدال يشعر بكون المخالفة لهم مما لا نقاش فيه، وأنه مما عرف من طريقة الشارع.

ومن النهي الصريح عن موافقة الكفار ما ورد أيضاً عن ابن عباس أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسـوله))[٢]، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الإطراء، ورفعه صلى الله عليه وسلم إلى منـزلة فوق منـزلته وهذا تحريمه معلوم من دين الإسلام، وبه جاء محمد صلى الله عليه وسلم وعنه دافع وصال وجال، ولكنه مع ذلك ذكر النصارى الذين وقعوا في الضلال، ففيه ترسـيخ معنى أنهم ضلال وأنهم أمعنوا في الضلال، مما يرسخ بدوره وجوب مخالفتهم، وعندها ينقدح في الذهن أن الأصل في هؤلاء القوم: الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم، والواجب مخالفتهم في جميع شؤونهم، إلا في عمل دل الدليل أو القياس الصحيح على جواز موافقتهم فيه.

٢- وقد جاءت بعض الأحاديث بالأمر ببعض الأفعال أو النهي عن بعضها مع التعليل _ لذلك الأمر أو النهي _ بمخالفة أهل الكتاب منها:

ما رواه أبو عمير بن أنس[3] عن عمومة له من الأنصار قال: "اهتم النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة كيف يجمع الناس لها فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة فإذا

(1) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٨٦/١ – ٤٨٨.

2 - صحيح البخاري: ١٢٧١/٣ برقم: (3261) وانظر للفائدة: مسند الإمـام أحمـد: ١ / ٢٣، بـرقم: (154)، ١ / ٢٤ برقم: (164)، و: ١ / ٤٧ بـرقم: (331)، ١ / ٥٥ برقم: (391) و صحيح ابن حبـان: ٢ / ١٤٧ و: ٢/ ١٥٤و: ١٤ / ١٣٣، سـنن الدارمي: ٢ / ٤١٢ برقم: (٢784).

(3) "هو أبو عمير بن أنس بن مالك الأنصاري قيل اسمه عبد الله، ثقة من الرابعة، قيل: كان أكبر ولد أنـس بـن مالك"، تقريب التـهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٦٦١/١.

رأوها آذن بعضهم بعضاً فلم يعجبه ذلك، قال فذكر له القنع _ يعني الشبور[1] _ فلم يعجبه ذلك وقال: ((هو من أمر اليهود))، قال: فذكر له الناقوس[٢] فقال: ((هو من أمر النصارى))[٣]، قال شيخ الإسلام: "وهذا يقتضي يه عن كل ما هو من أمر اليهود والنصارى"[٤]، فهنا رفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمل شيئاً من الأدوات التي يستخدمها أهل الكتاب مع أ ا لم تعرض عليه إلا من أجل الدعوة إلى الصلاة التي هي عمود الدين، وقد اشتملت على أعظم ما يميز المسـلمين عن غيرهم من أهل الملـل كالشهادتين، وغيرهما، ومع ذلك رفض النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وجعل علة تركه له أنه من فعل اليهود والنصارى.

ومنها ما رواه جابر رضي الله عنه قال: اشتكى رسـول الله _ صلى الله عليه وسلم _ فصلينا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قياماً فأشار إلينا، فقعدنا فصلينا بصلاته قعوداً فلما سلم قال: ((إن كدتم آنفاً لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلى قائماً فصلوا قياماً وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً)) [٥]، قال شيخ الإسلام: "وهذا تشديد عظيم في النهي عن القيام للرجل القاعد و ى أيضاً عما يشبه ذلك وإن لم يقصد به ذلك، فهل بعد هذا في النهي عن مشا تهم في مجرد الصورة غاية"[6]، فنهاهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن القيام عليه وهو قاعد، وعلل النهي بأن هذه الصورة تشـبه صورة قيام فارس والروم على ملوكهم وهم قعود، مع أ م لم يكونوا في صلاة حال قيامهم على ملوكهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ى أصحابه عن ذلك إمعاناً في البعد عن مشا ة الكفار.

ومن الأحاديث التي جاء فيها الأمر بفعل من الأفعال معللاً بمخالفة الكفار أيضاً: قوله صلى الله عليه وسلم: ((خالفوا اليهود فإ م لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم))[٧]،

(1) بفتح الشين وضم الباء مع التشديد، يعني: البوق، انظر: فتح الباري: ٨١/٢

2 - الناقوس: هو جرس كبير يقرعه قساوسة النصارى؛ للإيذان بالصلاة، انظر: فتح الباري: ٢٠/١، ٨٣/٢.

3 - انظر: أبو داود في سـننه: ١٣٤/١ برقم: (٤٩٨)، والبيهقي في السـنن الكبرى: ٣٩٠/١ برقم: (١٧٠٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٩٨/١، برقم: (٤٦٨).

4 - انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٥٦/١

5 - صحيح مسلم ٣٠٩/١ برقم: (٤١٣)، ومسـند أحمد ٣/ ٣٣٤ برقم: (١٤٦٣٠).

(6) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٢٧/١.

(7) سـنن أبي داود: ١ / ١٧٦، برقم (652)، صحيح ابن حبان: ٥ /٥٦١ برقم: (٢١٨٦)، وصححه الألبـاني في صحيح سـنن أبي داود: ١٢٨/١، برقم: (٦٠٧).

وهذا تصريح منه صلى الله عليه وسلم بالأمر بالمخالفة[1]، ثم أعقب ذلك بالأمر بلبس النعال أو الخفاف في حال الصلاة وكأن هذا الأمر لم يشرع إلا بعد معرفة حال اليهود في صلا م فكان من شأن الحنفاء المسلمين أن يخالفوهم، وهذا يشعر بأن مخالفة الكفار مشروعة لهم في شأ م كله، وليس في هذا الشأن فحسب، فجاءت السـنة بأحكام تكليفية مبناها الأساسـي على مخالفة الكفار، وهكذا صارت مخالفة الكفار من مقاصد الشارع التي تبنى عليها بعض الأحكام الشرعية.

ومن الأحاديث التي جاء فيها التصريح بالنهي عن فعل من الأفعال معللاً بمخالفة الكفار كذلك: ما جاء عن عمرو بن عبسة السلمي[2] _ في حديث طويل _: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأ م ليسـوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسـول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً...... إلى أن قال: فقلت يا نبي الله أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة قال: ((صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع؛ فإ ا تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة، حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر جهنم[3] فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس؛ فإ ا تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار))[4]، وهنا جاء النهي لعلة المشا ة[5]، مع كون الفعل عبادة لله، فكيف بما كان لا علاقة له بطاعة الله، وإنما هو من العادات التي أخذت عن الكفار، وقد تقدم بيان أن دلالة الحديث على تحريم المشا ة ولو كانت غير مقصودة إذا عرف المتشـبه أ ا من التشـبه المحرم.

ومن يه صلى الله عليه وسلم المعلل بمخالفة الكفار ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إذا لم يكن

---

1 - انظر: عون المعبود: ٢٥٠/٢

2 - هو أبو نجيح عمرو بن عبسة السلمي البجلي، من السابقين الأولين إلى الإسلام، وهاجر بعد أحـد، ونـزل الشام، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٤٥/١- ٤٥٦/٢، الإصابة في معرفـة الـصـحابـة، لابـن حجـر: ٤١١/٧، تاريخ الطـبري: ٥٤١/١، تقريب التهذيب، لابن حجر: ٤٢٤/١، الاسـتيعاب، لابـن عبـد الـبر: ١١٩٢/٣- ١١٩٣.

3 - ومعنى تسجر جهنم: يوقد عليها إيقاداً بليغاً، انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ١١٧/٦

(4) صحيح مسلم: ١ / ٥٧٠ برقم ٨٣٢

(5) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٦٠/٢.

لأحدكم إلا ثوب واحد فليشد به حقوه[1] ولا يشتمل به اشتمال اليهود)) [2]، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _ بعد إيراده الحديث: "وإنما الغرض أنه قال: ((ولا يشتمل اشتمال اليهود))، فإن إضافة المنهي عنه إلى اليهود دليل على أن لهذه الإضافة تأثيراً في النهي"[٣]، وهذا يدل على وجوب مفارقة الكفار في الشكل الظاهر، حتى ولو كان المسلم متلبساً بالصلاة التي هي عمود الدين، والتي تشتمل على أعظم وجوه المخالفة للكفار من الشهادتين والإخلاص لله، وتجريد المتابعة للرسـول صلى الله عليه وسلم[٤].

هذا وإن من طريقة السـنة فيما كان مشروعاً في الإسلام وفي شرائع من كان قبلنا من يهود أو نصارى في جانب العبادات: الأمر به مع مخالفتهم في صفته وهيئته[5].

ومن الأوامر التي جاءت في السـنة معللة بمخالفة أهل الكتاب _ في هيئة عبادا م مع أن أصل العبادة مشروع عند المسـلمين _ قوله صلى الله عليه وسلم: ((فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر))[٦]، فهنا أمر منه صلى الله عليه وسلم بأن يكون صيامنا متميزاً عن صيام أهل الكتاب بأكلة السحر[7]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _: "وهذا يدل على أن الفصل بين العبادتين أمر مقصود للشارع"[8]، فيستحب لنا السحور لإيقاع هذا التميز والمخالفة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث[٩]، "والمعنى أن السحور هو الفارق بين صيامنا وصيام أهل الكتاب لأن الله تعالى أباحه لنا إلى الصبح بعد ما كان حراماً علينا أيضاً في بدء الإسلام وحرمه عليهم بعد أن يناموا أو مطلقاً،

1 - والمراد به هنا: الإزار، والحقو في الأصل معقد الإزار، وأطلق على الإزار مجازاً انظر: فتح الباري: ١٢٩/٣.

2 - رواه أبو داود في سـننه ١/ ١٧٢ برقم: (٦٣٥)، والإمام أحمد في مـسـنده ١٤٨/٢ بـرقم: (٦٣٥٦)، وابن خزيمة في صحيحه ٣٧٦/١ برقم: (٧٧٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١٩٤/١، برقم: (٧٦٨).

3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٩٠/١

4 - فإن المصلي مأمور بمتابعة النبي ﷺ في صلاته كما في الحديث المشهور عند أهل العلم وقد اشتهر الاستدلال به والعمل به عندهم وهو حديث مالك بن الحويرث وفيه أن النبي ﷺ قال: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))، رواه ابـن حبان في صحيحه ٥٤١/٤ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢١٦/١، برقم: (٨٩٣).

5 - انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٤٧٤

(6) أخرجه مسلم في صحيحه: ٧٧٠/٢، برقم: (١٠٩٦).

(7) والسحر: هو آخر الليل قبيل الفجر، انظر: فتح الباري: ٤٨٧/٢، وحاشية الـسـندي: ١٤٩/٤، وعـون المعبود ٣٣٦/٦

(8) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٨/١.

9 - انظر: شرح السـيوطي: ١٤٦/٤، وفيض القدير: ٤٣٠/٤، وشرح النووي على صحيح مسلم: ٢٠٨/٧

ومخالفتنا إياهم تقع موقع الشكر لتلك النعمة"[1]، فهذا يدل على أن أكلة السحر لم يفعلها أهل الكتاب لأن عدم فعلها من شرائعهم الصحيحة التي لم تحرف [٢]، فيؤخذ منه تحريم التشـبه باليهود والنصارى حتى في شرائعهم التي ثبت أنه لم يدخلها التحريف _ وعلمنا عدم تحريفها بنص شرعي صحيح _؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يكون قد انا في هذا الحديث عن التشـبه م فيما هو من شرائعهم الصحيحة الثابتة، وذلك إنما يكون مقيداً بما إذا جاءت الشريعة الإسلامية مخالفة لهم. كل هذا فيما كان من شرائعهم الصحيحة الثابتة _ فقد أُمرنا بمخالفتهم _، فكيف إذا كان التشـبه م فيما لم يثبت أنه من شرائعهم بل ثبت قبحه بالشرع والعقل، كما يفعله بعض المسـلمين اليوم، والله المستعان.

ومن الأحاديث التي جاء النهي فيه معللاً بالمخالفة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر لأن اليهود والنصارى يؤخرون"[٣]، والمقصود من الحديث: تحريم قصد التعبد بتأخير الإفطار مع ظنه بأن في ذلك أفضلية على التعجيل[٤]، فهو تشـبه بالمشـركين وبدعة في الدين، ولئن كان ظهور البدع مؤذن بانطفاء جذوة السـنن، فإن ظهور البدع التي يقصد ا التشـبه بالكفار قد يشعر باندراس الدين كاملاً، هذا هو مفهوم الحديث، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وهذا نص في أن ظهور الدين حاصل بتعجيل الفطر هو لأجل مخالفة اليهود والنصارى وإذا كانت مخالفتهم سبباً لظهور الدين فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله فتكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة"[5]، فجعل مخالفتهم من أسباب ظهور الدين وعلاماته، فتكون موافقتهم من أسباب ضعف الدين في قلوب الناس، ومظهراً من مظاهر ضياعه ونسـيانه.

---

1 - انظر: عون المعبود: ٣٣٦/٦، وتحفة الأحوذي: ٣٢٣/٣

2 - وهو الأقرب لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أهل الكتاب ولم يقل: اليهود والنصارى، فإن وصف أهـل الكتاب وصف مدح وفيه نسبة لهم إلى ما هو سماوي من عند الله، ولهذا ورد في الحديث الـصحيح: ((والنـصارى ضلال)) ولم يقل وأهل الكتاب ضلال، والله أعلم.

3 - رواه أبو داود في سـننه: ٢ /٣٠٥ برقم: (2353)، و أحمد في مسـنده: ٢ / ٤٥٠ برقم: (9809)، وحسـنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١٢٧٢/٢ برقم: (٧٦٨٩)

4 - انظر: شرح الزرقاني ٢١١/٢

(5) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٩/١.

ومن ذلك ما جاء عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية[1] قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة فمنعني بشير وقال: إن رسـول الله _ صلى الله عليه وسلم _ ى عنه وقال: ((يفعل ذلك النصارى))[2]، فعلل النهي عن الوصال بأن ذلك من فعل النصارى، وهنا يحتمل أن يكون المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: ((يفعل ذلك النصارى)) أنه من شرائع النصارى الصحيحة، وشريعتنا جاءت بخلافه فوجب الاكتفاء بما أمرنا به دون زيادة أو نقص، ويحتمل أن يكون المقصود: أن ذلك من محدثات النصارى ورهبانيتهم التي ابتدعوها، وهو الأقرب؛ لأن أفعال النصارى جاءت في السـنة غالباً على صفة الذم؛ فإ م أهل بدع وضلال، كقوله ﷺ: ((والنصارى ضلال))[3]؛ ولذلك _ والله أعلم _ لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: إن ذلك من شرع عيسى، ولم ينسبه إلى شيء من كتبهم، فلم يقل: إنه مما جاء في التوراة أو الإنجيل، بل نسبه إلى النصارى الذين وصفهم في أحاديث أخرى بالضلال، وهنا رجح شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _ أن يكون المقصود من الحديث: أن ذلك من محدثات النصارى فقال: "فعلل النهي عن الوصال بأنه صوم النصارى وهو كما قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ويشبه أن يكون من رهبانيتهم التي ابتدعوها"[4]، ومعلوم أنه لو كان مقصود الحديث: أن الوصال من شرائع النصارى، فإنه لا يخرج عن الأمر بمخالفتهم كما سبق بيانه قريباً.

كما ورد أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم عاشوراء، فلما أخبر بأن اليهود يصومونه: عزم على صيام تاسـوعاء مع صيام عاشوراء فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حين صام رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسـول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع))[5] قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسـول الله صلى الله عليه وسلم، قال شيخ الإسلام: "فتدبر، هذا يوم عاشوراء يوم فاضل يكفر صيامه سـنة ماضية صامه رسـول الله صلى الله عليه وسلم

(1) هو نذير بن الخصاصية السدوسي، كان يسمى أولا نذيراً فسماه النبي ﷺ بشيراً، انظر: الإصـابة في معرفـة الصحابة، لابن حجر العسقلاني: ٤٢٥/٦.

(2) رواه أحمد في مسـنده ٢٢٥/٥ برقم: (٢٢٠٠٥)، و مسـند عبد بن حميـد ١٥٩/١ بـرقم: (٤٢٩)، و الطبراني في الكبير ٤٤/٢ برقم: (١٢٣١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: "وليلى لم أجد من ذكرها وبقيـة رجالـه رجال الصحيح" ١٥٨/٣، وليلى امرأة بشير بن الخصاصية ذكرها ابن حبان في الثقات: ٣٤٦/٥، برقم: (٥١٥٤).

3 - تقدم تخريجه، ص: (٢٦).

4 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٣/١.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه: ٧٩٧/٢ برقم: (١١٣٤)، وأبو داود في سـننه: ٣٢٧/٢ برقم: (٢٤٤٥).

وأمر بصيامه ورغب فيه ثم لما قيل له قبيل وفاته إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى أمر بمخالفتهم بضم يوم آخر إليه وعزم على ذلك"[1]، وهذا يعني أن السـنة لم تكتف بالأمر بالمخالفة والنهي عن التشـبه المطلق بالكفار، بل جاءت بمخالفتهم حتى فيما هو من الشرع الحنيف الثابت أنه مما يحبه الله ويرضاه، كما هو شأن يوم عاشوراء فإنه قد ورد في فضل صيامه: أنه يكفر السـنة الماضية[2]، ولكن مع ذلك لم يشفع هذا الفضل لصيامه مفرداً، لأن أهل الكتاب كانوا يصومونه على هذه الهيئة، فأمرنا بمخالفتهم بصيام يوم قبله حتى نخرج عن مشابهتهم، فلم نؤمر بصيامه مفرداً كما يفعل أهل الكتاب _ مع أن الفضل الوارد في صيامه لا في غيره _ منعاً من المشابهة لهم، ولم ينهنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن صيامه؛ حتى لا يفوتنا الأجر العظيم المترتب على صيامه، فكان من شأن الأمة الوسط أن تؤمر بصيامه مع صيام يوم قبله؛ لتتحقق المخالفة ويثبت الأجر.

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "إن المشـركين كانوا لا يفيضون[3] حتى تطلع الشمس ويقولون: أشرق ثبير[4] كيما نغير[5] وأن النبي صلى الله عليه وسلم خالفهم ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس"[6]، وهنا خالفهم النبي صلى الله عليه وسلم مع أن في موافقتهم زيادة عبادة، فآثر عليه الصلاة والسلام مخالفتهم بالتبكير في الإفاضة من مزدلفة مع أن في مكثه بجمع زيادة في زمن العبادة، فعلم أن مخالفتهم أفضل ولو كان في موافقتهم زيادة طاعة لله عز وجل، ففضيلة المخالفة تقدم على فضيلة الطاعة في حالة تعارضهما[7].

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٨٥/١.

2 - انظر: صحيح مسلم ٨١٨/٢ برقم: (١١٦٢).

3 - يعني من مزدلفة إلى منى انظر: فتح الباري ٤٨١/٣

4 - أشرق بلفظ الأمر أي: لتطلع عليك الشمس، وثبير: بفتح الثاء: هو جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الـذاهب منها إلى منى، انظر: تحفة الأحوذي ٥٤٦/٣ وشرح السـيوطي ٢٦٣/٥.

5 - معناه كيما ندفع للنحر وهو من قولهم أغار الفرس إذا أسرع في عدوه، ولفظ: (كيما نغير) إنما ورد عند ابن ماجه وأحمد، انظر: فتح الباري: ٥٣٢/٣.

6 - رواه البخاري في صحيحه ٢ / ٦٠٤ برقم: (1600) والترمذي في سـننه ٣ / ٢٤٢ برقم: (896)، و سـنن النسائي (المجتبى) ٥ / ٢٦٥ برقم: (3047)، و سـنن ابن ماجـه ٢ /١٠٠٦ بـرقم: (3022)، و مسـند أحمد ٣٩/١ برقم: (275).

(7) ما لم يكن في ذلك إضاعة لواجب أوجبه الله تبارك وتعالى علينا، فلا تجب المخالفة في هذه الحالة إلا في هيئـة العبادة.

ولم يقتصر يه صلى الله عليه وسلم عن التشـبه بالكفار في جانب العبادات فحسب، بل جاء الأمر بالمخالفة حتى في جانب العادات[1]؛ لتكون المفارقة للكفار من سمات دينه صلى الله عليه وسلم، من ذلك على سبيل المثال ما يتعلق بحل الطعام أو حرمته، فعن قبيصة بن هلب[2] عن أبيه قال: سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن طعام النصارى فقال: ((لا يتخلجن[3] في صدرك طعام ضارعت[4]فيه النصرانية))[5]، وفي رواية: ((شيء ضارعت فيه النصرانية))[6] فإن من بدع النصارى: أ م لا يأكلون طعاماً وقع في قلو م شك في حله ترهباً منهم وابتداعاً، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن مشا تهم في ذلك.

ومن ذلك أيضاً ما ورد _ في وسـيلة الذبح _ عن رافع بن خديج[7] قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة فأصاب الناس جوع... _ إلى أن قال: قال رسـول صلى الله عليه وسلم _: ((ما أ ر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السـن والظفر

---

(1) فتأمل كيف دخلت مخالفة الكفار في كل شأن من الأوامر النبوية وكأن المخالفة مزجت بالشرع القويم في إناء طيب المزاج ليشربه المؤمن العامل هنيئاً مريئاً، فيتشرب الدين الخالص كما أنزل، ليجد المخالفة للكفار في كل شرائع وآداب وعقائد هذا الدين المتين.

2 - هو: قبيصة بن هلب الطائي، كوفي، واسم هلب يزيد بن قنافة روى عن أبيه، وأبوه من الصحابة، روى عنـه سماك بن حرب، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر: ١٥٤٩/٤، وانظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ١٢٥/٧، معرفة الثقات: ٢١٤/٢، المنفردات والوحدان، ص: (١٤٢).

3 - قال التوربشتي: يروى بالحاء المهملة وبالخاء المعجمة فمعناه بالمهملة: لا يدخلـن قلبك منه شيء فإنه مبـاح نظيف وبالمعجمة: لا يتحركن الشك في قلبك انـتهى. انظر: تحفة الأحوذي ١٥٣/٥

4 - ضارعت فيه النصرانية أي شا ت لأجله أهل الملة النصرانية من حيث امتناعهم إذا وقع في قلب أحدهم إنـه حرام أو مكروه، والمعنى لا تتحرج فإنك إن فعلت ذلك ضارعت فيه النصرانية فإنه من دأب النصارى. انظر: تحفـة الأحوذي ١٥٣/٥

5 - رواه الترمـذي في سـنـنـه ١٣٣/٤ بـرقم: (١٥٦٥)، وأحمـد في مـسـنـده: ٢٢٦/٥ بـرقم: (٢٢٠١٦)، (٢٢٠١)، وابن ماجه في سـننه: ٩٤٤/٢ برقم: (٢٨٣٠)، والبيهقـي في سـننه ٢٧٩/٧ بـرقم: (٤٣٩٩)، (٤٤٠٠) وصححه الألباني: صحيح سـنن الترمذي ١٩٣/٢.

6 - نفس المصادر السابقة.

(7) هو رافع بن خديج بن رافع بن عدي بن زيد بن عمرو بن زيد ابن جشم الأنصاري النجـاري الخزرجـي، عرض على النبي يوم بدر فاستصغره وأجازه يوم أحد فخرج ا وشهد ما بعدها وروى عن النبي وعن عمه ظهـير بن رافع وروى عنه ابنه عبد الرحمن وحفيده عباية بن رفاعة والسائب بن يزيد ومحمود بن لبيد وسعيد بن المـسيب ونافع بن جبير وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو النجاشي مولى رافع وسليمان بن يسار وآخرون واستوطن المدينـة إلى أن انتقضت جراحته في أول سنة أربع وسبعين للهجرة فمات وهو ابن ست وثمانين سنة، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر الأندلسي: ٤٧٩/٢، والإصابة في معرفة الصحابة: ٤٣٦/٢.

وسأحدثكم عن ذلك أما السـن فعظم وأما الظفر[1] فمدى الحبشة))[2]، فنهى عن الظفر لأنه من مدي الحبشة _ وكانوا كفاراً[3] _ مع أن هذه الأشياء تنهر الدم وتقوم بالمقصود من الذبح الذي هو التخلص من الدم الفاسد، ولكن لما كان في استعمال هذه الآلة من التشـبه بالكفار[4] _ مع عدم ضررها _ ى النبي صلى الله عليه وسلم عن استعمالها في الذبح.

ومما جاء فيه النهي عن التشـبه م في جانب العادات كذلك: ما ورد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((خالفوا المشـركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب))[5]، وفي رواية مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((جزوا الشوارب وأرخوا اللحى[6] خالفوا ا وس))[7]، قال شيخ الإسلام: "فأمر بمخالفة المشـركين مطلقاً ثم قال: احفوا الشوارب واعفوا اللحى وهذه الجملة الثانية بدل من الأولى"[8]، فإذا كانت مخالفة المشـركين واجبة على المسـلمين، وهي كما سبق من أسباب بقاء الدين ظاهراً، فإن كل فرد من أفراد النهي يأخذ حكم جنس التشـبه في التحريم _ والله أعلم _ فمن أراد أن يسلك الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه فعليه أن يجانب هدي المشـركين في شأنه كله، بل في أدق شؤونه وأقر ا إلى جانب العادات، وهذا معنى أمره صلى الله عليه وسلم لأمته بالمخالفة للكفار في هذا الحديث[9]، ومما يؤخذ من الحديث: أن مخالفة الكفار علة قد تقاس عليها بعض الأفعال الحادثة، قال شيخ الإسلام _ في معرض شرحه للحديث _: "فعقب الأمر بالوصف المشتق المناسب وذلك دليل على أن

---

(1) قال في تحفة الأحوذي: "هو جسم صلب كالصدف أحد طرفيه رقيق محدد يقال له أظفار الطيـب"، تحفـة الأحوذي: ٥٨/٥.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: ٨٨١/٢ برقم: (٢٣٥٦)، ومسلم في صحيحه: ١٥٥٨/٣ برقم: (١٩٦٨).

3 - انظر: تحفة الأحوذي: ٥٨/٥، وشرح سـنن ابن ماجه: ٢٢٩/١.

4 - قال الحافظ ابن حجر: "واعترض على هذا التعليل: بأنه لو كان كذلك لامتنع الذبح بالسكين وسائر ما يذبح به الكفار وأجيب بأن الذبح بالسكين هو الأصل وأما ما يلتحق ا فهو الذي يعتبر فيه التشبيه"، انظر: فتح البـاري: ٦٢٩/٩ وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٤٨/١، تحفة الأحوذي ٥٨/٥.

5 - صحيح البخاري ٥ / ٢٢٠٩ برقم: (5553)، وصحيح مسلم: ١ / ٢٢٢ برقم: (259).

6 - ظاهر كلام السلف في اللحية وجوب تركها، وممن صرح بذلك أبو عوانة رحمه الله في مسـنده فقال: "بيان الطهارات التي تجب على الإنسان في بدنه من ذلك إيجاب جز الشوارب وإحفائها، وإيجاب إعفاء اللحيـة وإيجـاب مخالفة ا وس والتشـبه بأمورهم" مسـند أبي عوانة: ١٦١/١

7 - أخرجه مسلم ١/ ٢٢٢ برقم: (٢٦٠)

8 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٣/١

9 - لبيان ذلك مفصلاً انظر: فتح الباري ١٠ / ٣٥١، وشرح النووي على صحيح مسلم: ٣ / ١٥٠

مخالفة المجوس أمر مقصود للشارع، وهو العلة في هذا الحكم أو علة أخرى أو بعض علة، وإن كان الأظهر عند الإطلاق أنه علة تامة، ولهذا لما فهم السلف كراهة التشبه بالمجوس في هذا وغيره كرهوا أشياء غير منصوصة بعينها عن النبي صلى الله عليه وسلم من هدى المجوس وقال المروزي[1] سألت أبا عبد الله _ يعني أحمد بن حنبل رحمه الله _ عن حلق القفا[2] فقال: هو من فعل المجوس ومن تشبه بقوم فهو منهم"[3]، فقد فهم السلف من هذه النصوص: تحريم التشبه بالكفار بأي حال ولو لم يرد في تعيين حكم التشبه بهم في ذلك الفعل المعين نص خاص؛ لأنه قد ثبت النهي عن مشابهتهم _ عموماً _ بأدلة شرعية مستفيضة.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم))[4]، قال صاحب كتاب عون المعبود [5]: " والحديث يدل على أن العلة في شرعية الخضاب هي مخالفة أهل الكتاب وبهذا يتأكد استحباب الخضاب"[6]، وكأني بشيخ الإسلام يفصل القول في كلام جميل له فيقول: "في هذا الحديث رتب الحكم على الوصف بحرف الفاء فيدل هذا الترتيب على أنه علة له من غير وجه حيث قال: ((إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم)) فإنه يقتضي أن علة الأمر بهذه المخالفة: كونهم لا يصبغون فالتقدير: اصبغوا لأنهم لا يصبغون، وإذا كان علة الأمر بالفعل عدم فعلهم له دل على أن قصد المخالفة لهم ثابت بالشرع"[7]. ولو تأملنا هذا الحديث لوجدنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا بمخالفتهم فيما يعتبر تركه مشابهة لهم، قال المناوي: "وإذا نهى عن التشبه بهم في بقاء بياض الشيب الذي ليس من فعلنا فلأن ينهى عن إحداث التشبه بهم أولى"[8]، أي أن النهي عن ما يكون تكلف فعله: تشبهاً، أولى من النهي عن ما يكون تركه على ما هو

(1) هو: أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد الله المروزي، كان هو المقدم من أصحاب الإمام أحمد لورعه وفضله وكان يأنس به وينبسط إليه وهو الذي تولى إغماضه لما مات وغسله وقد روى عنه مسائل جمة، انظر: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: ١٥٦/١.

(2) وهو مؤخر العنق، انظر: ولسان العرب: ١٩٢/١٥، والعين: ٢٢٢/٥، ومختار الصحاح: ٢٢٨/١، وحلق القفا قال عنه الإمام أحمد: "هو من فعل المجوس ومن تشبه بقوم فهو منهم"، الورع لابن حنبل: ١ /١٧٨

3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٤/١-٢٠٥.

4 - أخرجه البخاري في صحيحه ١٢٧٥/٣ برقم: (٣٢٧٥)، ومسلم في صحيحه: ١٦٦٣/٣ برقم: (٢١٠٣).

5 - وهو: محمد شمس الحق آبادي أبو الطيب.

6 - عون المعبود: ١٧٢/١١

7 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٥٦/١

(8) فيض القدير: ٤٠٨/٤

عليه تشـبهاً م، وقد ى عن الفعل الأخير، فيكون قد ى عن المرجوح فالنهي عن الراجح _ وهو تكلف التشـبه م _ أولى، وهو المطلوب في الشريعة الإسلامية.

والأمر بالصبغ في الحديث إنما هو فرد من أفراد جنس المخالفة وليس خاصاً بالصبغ فحسب، بل هو أمر بالمخالفة في هذا الفعل؛ لأن طريقة الشريعة هي مخالفة المشـركين بكل طريق، وهنا يسـوق شيخ الإسلام مثالاً فيقول: "فإذا رؤي رجل هم بزنا فقيل له: اتق الله كان أمراً له بعموم التقوى داخلاً فيه الأمر بخصوص ترك ذلك الزنا؛ لأن سبب اللفظ العام لا بد أن يدخل فيه كذلك إذا قيل: إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم، كان أمراً بعموم المخالفة داخلاً فيه المخالفة بصبغ اللحية لأنه سبب اللفظ العام"(1)، ولذا يقرر الأصوليون أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[2]، فقد يكون الحكم مسـوقاً في قصة حديث من الأحاديث النبوية، فيكون _ الحكم _ شاملاً لتلك الحادثة، ولمثيلا ا إذا كانت تدخل في صورة تلك الحادثة وتندرج في عمومها.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن الشريد بن سـويد(٣) قال: مر بي رسـول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس هكذا _ وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية[٤] يدي _ فقال: ((أتقعد قعدة المغضوب عليهم))[5]، والمراد بالمغضوب عليهم: اليهود[٦]كما تقدم، قال شيخ الإسلام: "وهذه مبالغة في مجانبة هديهم"[٧]، وفي هذا الحديث نجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ى عن مجرد جلسة تشـبه طريقة جلوسهم، هذا مع أنه يحتمل أن الصحابي لم يكن يعلم أن هذه طريقتهم في الجلوس، كما أنه لم يكن يقصد التشـبه م بلا شك، فهذا موقفه صلى الله عليه وسلم ممن هذا حاله، فما هو عسى أن يكون موقفه إذا رأى من يتشـبه م وهو يقصد ذلك ويتكلفه(8).

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ٥٢/١

2 - انظر المغني ٢٧١/٢، ١٥/٣

(3) سبق التعريف به، ص: (٢٢).

4 - والألية: بفتح الهمزة اللحمة التي في أصل الإ ام انظر: عون المعبود: ١٣٥/١٣

5 - أخرجه أبو داود في سننه: ٢٦٣/٤، برقم: (٤٨٤٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٩١٩/٣، برقم: (٤٨٤٨).

6 - كما ورد تفسـيرها سابقاً في موقف القرآن، وانظر: عون المعبود: ١٣٥/١٣

7 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٦٥/١

(8) وقد قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)(سورة الأحزاب: من الآية٢١)، فإذا كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم ممن رآه في موقف يضاهي الكفار، هو: الإنكار عليه، فمن اقتدائنا به صلى الله عليه وسلم: أن ننكر على من نراه قد تشـبه بالكفار دون أي تردد، مع توخي الحكمة في ذلك.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل[1] شعره وكان المشركون يفرقون[2] رؤوسهم وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ثم فرق رسـول الله صلى الله عليه وسلم رأسه"[3]، وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدم مخالفة المشـركين على مخالفة أهل الكتاب فيما لا يمكن العمل فيه إلا بأحد أمرين: إما موافقة المشـركين فيكون بذلك مخالفاً لأهل الكتاب، وإما موافقة أهل الكتاب فيكون بذلك قد خالف المشـركين، فكان يختار في ذلك مخالفة المشـركين ولو كان في ذلك موافقة لأهل الكتاب؛ لأنه وإن كان أهل الكتاب على ضلال، فإن المشـركين أبعد عن الحق وأضل، قال ابن حجر _ رحمه الله _: "والأقرب إلى الصواب: أن الحالة التي تدور بين الأمرين لا ثالث لهما إذا لم ينـزل على النبي صلى الله عليه وسلم شيء كان يعمل فيه بموافقة أهل الكتاب؛ لأ م أصحاب شرع بخلاف عبدة الأوثان فإ م ليسـوا على شريعة فلما أسلم المشركون انحصرت المخالفة في أهل الكتاب فأمر بمخالفتهم"[4]، فكان يعمل _ عليه الصلاة والسلام _ بمخالفة من هو أبعد الكفار عن الحق لأنه بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يوافق أهل الكتاب أو أهل الأوثان فاختار موافقة أهل الكتاب لأ م أقرب إلى الحق من عبدة الأوثان، وهنا نجد النبي صلى الله عليه وسلم مع هيبته وجلالته وقدره يهتم بأمر قد لا يرعيه كثير من الناس انـتباهاً، ألا وهو مخالفة الكفار في سدل شعره أو فرقه، ثم يحرص على أن يخالف أكثر الكفار بعداً عن الحق، فيسدل تارة عندما يكون الفرق شعار المشـركين الذين هم أبعد عن الحق بلا شك من أهل الكتاب، ثم يفرق تارة أخرى عندما ينقاد المشركون إلى الإسلام مذعنين، وعندما لا يتبقى سـوى مخالفة أهل الكتاب الذين قد وافقهم من قبل وهذا يدل على مدى حرصه الشديد صلى الله عليه وسلم على مخالفة الكفار.

ومما جاء من يه صلى الله عليه وسلم عن التشـبه م في جانب التعامل مع الآخرين معللاً بالمخالفة: ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صلى الله

(1) يقال سدل شعره وأسدله إذا أرسله ولم يضم جوانبه، انظر: فتح الباري: ١٠ / ٣٦٢، "والسدل: الإرسـال والفرق قسمة شعر الرأس في المفرق"، انظر: تنوير الحوالك، للسيوطي: ١ /٢٣٢

2 - الفرق تفريق الشعر بعضه من بعض وكشفه عن الجبين، انظر: فتح الباري: ١٠ / ٣٦٢

3 - رواه البخاري في صحيحه: ١٣٠٥/٣، بـرقم: (٣٣٦٥)، و: ١٤٣٤/٣ بـرقم: (٣٧٢٨)، و: ٢٢١٣/٥ برقم: (٥٥٧٣)، ومسلم في صحيحه: ١٨١٧/٤، برقم: (٢٣٣٦).

4 - انظر: فتح الباري ١٠ /٣٦٢

عليه وسلم: ((تسليم الرجل بأصبع واحدة يشير بـها فعل اليهود)) [1]، قال البيهقي[2] ـ رحمه الله ـ: "ويحتمل والله أعلم أن يكون المراد به كراهية الاقتصار على الإشارة في التسليم دون التلفظ بكلمة التسليم"[3]، فهنا لم يرد النهي الصريح في الحديث، ولكن قد تكون الطريقة الواردة أبلغ من النهي الصريح، حيث إنه بين في الحديث أن التسليم بالأصبع الواحدة يشير ا من فعل اليهود، واكتفى بذلك، والمراد من الحديث بلا شك هو: النهي عن الفعل المذكور[4] لعلة كونه من فعل اليهود، وكأنه يقول: مادام أنه من فعل اليهود فيجب عليكم ترك هذه الطريقة في التسليم ؛ لوجوب مخالفتهم في شأ م كله.

كما ى رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن التشـبه م في جانب العادات الشخصية معللاً ذلك بالمخالفة: فقد ورد عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا تلبسـوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها؛ فإ ا لهم في الدنيا ولنا في الآخرة))[5]، وهذا تعليل صريح من النبي صلى الله عليه وسلم بأن سبب النهي هو أن هذه الأشياء إنما يستخدمها الكفار في الدنيا. ومن كمال هذا الدين أن جعل للمسلم: البديل الأخروي، فله أن يستمتع ذه الأشياء في الآخرة[6]، واستمتاعه ا هنالك إنما هو نتيجة اجتنابه لها في الدنيا، والعلة الأساسـية المنصوص عليها في الحديث: أ ا من خصائص الكفار في الدنيـا، فمن ترك التشـبه م في الدنيا عوضه الله عن ذلك بالمتعة الحقيقية في الآخرة.

---

(1) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط: ٣٦١/٤ برقم: (٤٤٣٧)، وأبو يعلى في مـسـنده: ٣٩٧/٣ بـرقم: (١٨٧٥)، و حسـنه الألباني انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٥٦٧/١ برقم: (٢٩٤٦).

(2) هو المحدث الإمام الثقة مسند نيسابور أبو سليمان داود بن الحسين بن عقيل بن سعيد الخسروجردي البيهقي، قال: ولدت سنة مئتين، سمع يحيى بن يحيى وسعد بن يزيد الفراء وقتيبة وإسحاق وعلي بن حجر وأبا مصعب الزهري ويعقوب بن كاسب ومحمد بن رمح وأبا التقي اليزني، ورحل وكتب الكثير وجود، وعنه أبو علي النيسابوري وأبـو بكر بن علي وعبد الله بن محمد ابن مسلم وبشر بن أحمد الإسفراييني وخلق كثير، مات بخسروجرد وهي قرية كبيرة في سنة: (٢٩٣هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء: ٥٧٩/١٣

3 - شعب الإيمان: ٤٦٤/٦.

4 - انظر: فتح الباري ١٤/١١.

5 - أخرجه البخاري في صحيحه ٢٠٦٩/٥ بـرقم: (٥١١٠)، ومـسلم في صـحيحه: ١٦٣٨/٣ بـرقم: (2067).

6 - مع اتساع الفارق بين هذه الأشياء في الدنيا وبينها في الآخرة، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: "لا يـشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء" (تفسـير ابن كثير ٦٤/١) فليس الحرير هو الحرير وليس الديباج هـو الديباج وليس الذهب هو الذهب، بل بين ما في الدنيا وما في الآخرة من المتع تفاوت كبير في الحقائق ؛ لأ ا أعظـم متعة مما في الدنيا بكثير، نسأل الله العظيم من فضله.

٣- وأما الأحاديث التي جاء فيها نسبة المتشـبه بالكفار إلى الجاهلية _ وفي ذلك وصف للمتشـبه م بالجهل المستلزم لعدم العلم ونقص الإيمان وغير ذلك من الأمور التي كان عليها أهل الجاهلية(1) _:-

فمن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سـنة الجاهلية(2)، ومطلب دم امرئ بغـير حق ليهريق دمه))٣، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "الابتغاء هو الطلب والإرادة، فكل من أراد في الإسلام أن يعمل بشيء من سـنن الجاهلية: دخل في هذا الحديث، والسـنة الجاهلية: كل عادة كانوا عليها فإن السـنة هي العادة"٤، فمن أبغض الناس إلى الله: المتشـبه بالكفار، لأنه طلب العودةَ إلى الجهل والظلم الذي كان عليه أهل الجاهلية، فاتصف بالجهل الذي كانوا عليه، فاستحق أن يكون من أبغض الناس إلى الله، فتأمل كيف وصف _ رسـول الله صلى الله عليه وسلم _ المتشـبه بالكفار بالجهل الذي هو ضد العلم، ثم ترتب على ذلك بغض الله له، فصار من أبغض الناس له.

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا))٥، قال المناوي _ رحمه الله _: "إذا رأيتم الرجل يتعزى أي: ينـتسب بعزاء الجاهلية، أي: بنسبها والانتماء إليها، يقال: اعتزى إليه أي انتسب وانتمى، وتعزى كذلك، فأعضوه، أي: اشتموه ن أبيه، أي: قولوا له: اعضض ن أبيك، أو بذكره، وصرحوا بلفظ الذكر ولا تكنوا عنه بالهن تنكيراً وزجراً"(6)، وهذه الطريقة من الشتم _ في مقابل الإساءة _ لم نعهدها من الشارع صلى الله عليه وسلم في كثير من

---

(1) قال البخاري: "باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكا ا إلا بالشـرك لقول النبي صـلى الله عليه وسلم: ((إنك امرؤ فيك جاهلية)) وقول الله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلـك لمـن يشاء)"، انظر: صحيح البخاري: ١ / ٢٠

(2) قال ابن منظور: "جاهلية: هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسـولـه وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك" انظر: لسان العرب:١١ / ١٣٠، وانظـر: النهايـة في غريب الحديث:١ /٣٢٣، قال ابن حجر _ رحمه الله:" وسـنة الجاهلية اسم جنس يعم جميع ما كان أهل الجاهليـة يعتمدونه من أخذ الجار بجاره والحليف بحليفه ونحو ذلك ويلتحق بذلك ما كانوا يعتقدونه والمراد منه ما جاء الإسلام بتركه كالطيرة والكهانة وغير ذلك" فتح الباري: ١٢ / ٢١١.

3 - أخرجه البخاري في صحيحه ٢٥٢٣/٦ برقم: (٦٤٨٨).

4 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٧٦/١

5 - رواه الإمام أحمد في مسـنده: ١٣٦/٥، برقم: (٢١٢٧١)، وصـححه الألبـاني في سلـسلة الأحاديـث الصحيحة: ٥٣٧/١، برقم: (٢٦٩).

(6) فيض القدير:٣٥٧/١

المواضع وإنما جاءت هنا بهذا الأسلوب؛ لأن المسيء في هذه الحالة يجمع بين أمور، منها: أنه تبجح بذكر مآثر الجاهلية، وأنه استعلى على غيره من المسلمين، والأمر الأعظم: أنه تشبه بأهل الجاهلية وذلك بافتخاره بهم أمام المسلمين، فهو لم يتشبه بهم فحسب، بل استعلى بهم، وفي ذلك محبة للكفار وتفضيل لهم على إخوانه المسلمين.

ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عِبية[1] الجاهلية، وفخرها بالآباء مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن))[2]، فهنا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التشبه بالكفار الذين في زمن الجاهلية، حيث كانوا يتفاخرون بالآباء والأجداد، ووصف هذه الصفة الذميمة بأنها من صفات أهل الجاهلية، ونسبها إلى الجهل، فمن تشبه بهم في هذه الصفة أو في غيرها من صفات أهل الجاهلية فقد وقع في المحظور الذي هو التشبه بالكفار، مع اتصافه بصفتهم التي هي الجهل. ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم المقياس الصحيح للتفاضل بين الناس، ألا وهو التقوى.

من ذلك ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية))[3]، وهذا الحديث فيه براءة ممن فعل شيئاً من هذه الأفعال، قال ابن حجر _ رحمه الله _: "كأنه توعده بأن لا يدخله في شفاعته أصلاً"[4]، وهذا وإن كان ليس إخراجاً من الدين بالكلية ولكنه خطير، وقيل المقصود: ليس على ديننا الكامل[5]، ففي هذا الحديث وصف التشبه بالكفار _ في النياحة على الميت _: بأنه من أفعال الجاهلية، وتبرأ من فاعله، فجمع بين البراءة من الفاعل وذم الفعل بأنه من أفعال الجاهلية.

(1) عبية الجاهلية: بضم العين المهملة وكسرها (وكسر الموحدة وفتح التحتية المشددتين)، أي: نخوتها وكبرها وفخرها وتعاظمها أي تفاخرها، وأصله من العبء وهو الثقل، انظر: تحفة الأحوذي: ٣١٧/١٠، ١١٠/٩، وعون المعبود: ١٦/١٤.

2 - رواه أبو داود في سننه: ٣٣١/٤ برقم: (٥١١٦)، والترمذي في سننه: ٧٣٥/٥ برقم: (٣٩٥٦)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١/ ٣٦٧ برقم: (١٧٨٧).

3 - رواه البخاري: ١٢٩٧/٣ برقم: (٣٣٣١)، ومسلم في صحيحه: ٩٩/١ برقم: (١٠٣).

4 - انظر: فتح الباري: ١٦٤/٣.

5 - انظر: فتح الباري: ١٦٤/٣.

ومن ذلك ما جاء عن أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركو ن؛ الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة))[1]، فهذه الصفات لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: إ ا من صفات الكفر، وكان يكفي ذلك لبيان أ ا من التشـبه بالكفار، المحرم في الشريعة الإسلامية، ولكنه نسبها إلى الجاهلية التي عند الكفار قبل الإسلام، ولم ينسب هذه الأفعال إلى أوصاف محرمة كالكفر أو الفسق بل إلى أشخاص لهم صفة الكفر والجهل، وفي ذلك إضافة وصف المتلبس ا[2] بالجهل الذي هو ضد العلم وهذا الوصف مما يزجر عن التشـبه بالكفار فكل من اتصف بشيء من صفات أهل الجاهلية فله نصيـبه من ذلك الجهل الذي اتصفوا به، بقدر الصفات التي شاركهم فيها.

٤- وأما ما ورد من الأحاديث وفيه الترهيب من التشـبه م؛ لأن ذلك موجب لكون حكم المتشـبه م كحكمهم، مما يقتضي خروجه عن دائرة المسـلمين: فمن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((بعثت بين يدي الساعة بالسـيف حتى يعبد الله وحده ولا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي[٣] وجعل الذلة والصغار[٤] على من خالف أمري، ومن تشـبه[٥] بقوم فهو منهم[٦]))[٧]، وهذا أشهر حديث في باب

---

(1) رواه مسلم في صحيحه: ٦٤٤/٢ برقم: (٩٣٤).

(2) أي مع وصفه بالتشـبه بالكفار، فهو موصوف بالجهل.

3 - قال ابن حجر: "وفي قوله تحت ظل رمحي: إشارة إلى أن ظله ممدود إلى أبد الآباد، والحكمة في الاقتصار على ذكر الرمح دون غيره من آلات الحرب كالسـيف؛ أن عاد م جرت بجعل الرايات في أطراف الرمح"، فتح الباري: ٩٨/٦.

4 - والمراد بالصغار: بذل الجزية، انظر: فتح الباري: ٩٨/٦.

5 - وقال بعضهم قد يقع التشـبه في أمور قلبية من الاعتقادات وإرادات وأمور خارجية من أقوال وأفعال قـد تكون عبادات وقد تكون عادات في نحو طعام ولباس ومسكن ونكاح واجتماع وافتراق وسفر وإقامـة وركـوب وغيرها، انظر: فيض القدير: ١٠٤/٦.

6 - قال المناوي - رحمه الله-: "ومن تشـبه بقوم فهو منهم: أي حكمه حكمهم وذلك لأن كل معصية مـن المعاصي ميراث أمة من الأمم التي أهلكها الله فاللوطية ميراث عن قوم الفاء، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث قوم شعيب، والعلو في الأرض ميراث قوم فرعون، والتكبر والتجبر ميراث قوم هود، فكل من لابس من هؤلاء شـيئا فهو منهم وهكذا"، فيض القدير: ٢٠٤/٣.

7 - أخرجه أبو داود في سـننه: ٤٤/٤ برقم (٤٠٣١)، وأحمد في مسـنده ٥٠/٢ بـرقم (٥١١٥)،(٥١١٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه:٤٧٠/٦ برقم: (٣٣٠١٠)، (٣٣٠١٦)، وعبد بن حميـد في مـسـنده ٢٦٧/١ بـرقم (٨٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان ٧٥/٢ برقم: (١١٩٩)، والطبراني في الأوسط: ١٧٩/٨ برقم: (٨٣٢٧)، وقال عنه شيخ الإسلام بعد أن ساق إسـناد أبي داود: "وهذا إسـناد جيد"، انظر اقتضاء الـصراط المـستقيم: ٢٦٩/١ وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل: ١٠٩/٥.

التشـبه بالكفار، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وهذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشـبه بـهم وإن كان ظاهره يقتضي: كفر المتشـبه بـهم، كما في قوله تعالى: (ومن يتولهم منكُم فَإنه منهم)[1]، **فقد** يحمل هذا على التشـبه المطلق[2] فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك **وقد** يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفراً أو معصيةً أو شعاراً للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك"[3]، وعلى كلا الاحتمالين فإن التشـبه بـهم ـ تشـبهاً كاملاً أو تشـبهاً في بعض أفعالهم ـ منهي عنه بنص الحديث، فهو إما معصية أو شعاراً للكفر أو يؤدي إلى معصية أو كفر. ولو تأملنا الحديث لوجدناه قد سـيق في معرض ذكر من خالف أمره صلى الله عليه وسلم، ووصفه له بالذلة والصغار، فجعل أمره صلى الله عليه وسلم في مقابل التشـبه بغيره ـ وهم جميع أصناف الكفار ـ وفي هذا يبين لنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم: أن شأنه مباين لشأن الكفار كل المباينة، فمن خالف أمره صلى الله عليه وسلم فهو متشـبه بغيره ـ وهم الكفار ـ ومن تشـبه بـهم فهو منهم، وليس منه صلى الله عليه وسلم، وليس فعل التشـبه من دينه صلى الله عليه وسلم، فإذا كان التشـبه بالكفار مخالفة له صلى الله عليه وسلم، فإن الاستقامة على دينه صلى الله عليه وسلم لا تكون إلا بمخالفة الكفار، وبهذا تكون مخالفتهم من مقاصد دينه عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

٥- وأما ما ورد من الأحاديث مما فيه الترهيب من التشـبه بـهم حتى لا نشاركهم في العقوبات التي حلت بـهم، فمن تلك العقوبات تشديد الله عليهم لما شددوا على أنفسهم، أو عدم فلاحهم لما أعرضوا عن شرع الله، أو هلاكهم بذنوبـهم، أو لعنهم على لسان رسـوله لمقارفتهم ما يسخطه، وكل ذلك من المعاصي فلا يجوز التشـبه بـهم فيها، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وهذا كله يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله سبحانه وتعالى: (ولا تبرجن تبرج الْجاهلية الْأولَى)[4]، فإن ذلك ذم للتبرج وذم لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابـهتهم في الجملة"[5]، فلا يجوز التشـبه بـهم في جميع أحوالهم التي لم ترد إباحتها في

(1) سـورة: (المائدة: من الآية٥١).
(2) وهو التشـبه الكامل بـهم، أي في شأنـهم كله.
3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧٠/١-٢٧١.
4 - سورة: (الأحزاب: من الآية٣٣).
(5) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٣٥/١

ديننا؛ لأن ذلك أبعد عن مشاركتهم في أي شأن من شؤو م وأبعد عن مشا تهم وأقرب إلى مخالفتهم، قال شيخ الإسلام ـرحمه اللهـ: "وذلك يقتضي أن مجانبة هديهم مطلقاً: أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه أن يكـون هـالكاً"(1)، فذلك مما يزيد في البعد عن الهلاك والضلال الذي اتصفوا به، وعلى هذا فتكون مجانبة هديهم الذي لم يرد النهي عنه ـ في مثل هذا النوع من الأحاديث التي جاء فيها النهي عن التشـبه م في المعاصي التي اقترفوها، على فرض أنه لم ترد في النهي عن التشـبه م أحاديث عامة ـ من باب تجنب المحرم والبعد عنه بعداً تاماً،[2] كما أن في ذلك: البعد عن المشتبه من الأمور، كما قال شيخ الإسلام: "فإذا كانت الشريعة قد جاءت بالنهي عن مشاركة الكفار في المكان الذي حل م فيه العذاب فكيف بمشاركتهم في الأعمال التي يعملو ا واستحقوا ا العذاب فإن المشاركة في العمل أقرب إلى اقتضاء العذاب من الدخول إلى الديار فإن جميع ما يعملونه مما ليس من أعمال المسـلمين السابقين إما كفر وإما معصية وإما شعار كفر أو شعار معصية وإما مظنة للكفر والمعصية وإما أن يخاف أن يجر إلى المعصية وما أحسب أحداً ينازع في جميع هذا ولئن نازع فيه فلا يمكنه أن ينازع في أن المخالفة فيه أقرب إلى المخالفة في الكفر والمعصية وأن حصول هذه المصلحة في الأعمال أقرب من حصولها في المكان ألا ترى أن متابعة النبيـين والصديقين والشهداء والصالحين في أعمالهم أنفع وأولى من متابعتهم في مساكنهم ورؤية آثارهم"[3]، فمشاركتهم في أعمالهم التي ترتب عليهم ا عذاب ونكال من الله في الدنيا، ليست مجرد تشـبه م فحسب، بل هي مشاركة لهم في احتمال وقوع ذلك العذاب والنكال ـ الذي وقع عليهم ـ على من شاركهم، ويدخل فيه ما كان من عملهم مما لم يكن من ديننا، فإن أمرهم كله ـ إذا لم يكن مما أمرنا به في ديننا ـ إلى شر ووبال وسـوء عاقبة، ولو كان في هذا العمل خير لأمرنا به في ديننا، فقد قال تعالى: (الْيوم أَكْملْت لَكُم دينكُم وأَتممت علَيكُم نِعمتي ورضيت لَكُم الإسلام ديناً)(٤)، ولهذا استدل شيخ الإسلام ـرحمه اللهـ بأحاديث النهي عن المكث أو الصلاة في ديار العذاب ـاستدل اـ على تحريم التشـبه م في الأعمال التي استحقوا ا العذاب، من باب الأولى، واستدل بذلك أيضاً على تحريم التشـبه م في جميع

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٠٦/١

2 - قال شيخ الإسلام: "فقد دلت هذه الأحاديث على أن إضافة الأمر إلى الجاهلية يقتضي ذمه، والنـهي عنـه، وذلك يقتضي المنع من أمور الجاهلية مطلقاً، وهو المطلوب" اقتضاء الصراط المستقيم:٢٤٦/١.

3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٨٢/١

(4) سـورة: (المائدة: من الآية٣).

أعمالهم، مما لم يكن من عمل المسلمين السابقين، فترك التشبه بهم عموماً: أحسم لمادة الهلاك الذي وقعوا فيه.

فمن الأحاديث التي جاء فيها التحذير من التشبه بهم؛ لما أصابهم من عقوبة الله لهم بالتشديد عليهم لمّا شددوا على أنفسهم: ما جاء عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: ((لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار (ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم)[(1)]))[(2)]، والتشديد كما قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "تارة يكون باتخاذ ما ليس بواجب ولا مستحب بمنزلة الواجب والمستحب في العبادات، وتارة باتخاذ ما ليس بمحرم ولا مكروه بمنزلة المحرم والمكروه في الطيبات"[3]، وأهل الكتاب قد وقعوا في هذا التشديد، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وهذا المعنى الذي دل عليه الحديث موافق لما قدمناه في قوله تعالى: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)[(٤)]، من أن ذلك يقتضي كراهة[5] موافقتهم في الآصار والأغلال، والآصار: ترجع إلى الإيجابات الشديدة، والأغلال هي: التحريمات الشديدة؛ فإن الإصر هو: الثقل والشدة، وهذا شأن ما وجب، والغل: يمنع المغلول من الانطلاق وهذا شأن المحظور"[6]، وقد أمرنا بمخالفة أهل الكتاب في كل شؤونهم، لكي لا يصيبنا ما أصابهم من عقوبة الله، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وفيه أيضاً تنبيه على أن التشديد على النفس ابتداءً يكون سبباً لتشديد آخر يفعله الله إما بالشرع وإما بالقدر، فأما بالشرع فمثل ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخافه في زمانه من زيادة إيجاب أو تحريم، كنحو ما خافه لما اجتمعوا لصلاة التراويح معه ولما كانوا يسألون عن أشياء لم تحرم، ومثل أن من نذر شيئاً من الطاعات وجب عليه فعله وهو منهي عن نفس عقد النذر وكذلك الكفارات الواجبة بأسباب، وأما القدر فكثيراً ما قد

---

(1) سورة: (الحديد: من الآية٢٧).

(2) رواه أبو داود في سننه: ٢٧٦/٤ برقم: (٤٩٠٤)، قال شيخ الإسلام: "رواية أبي داود للحديث وسكوته عنه يقتضي أنه حسن عنده وله شواهد في الصحيح" انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٩٨/١.

3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٢٢/١.

(4) سورة: (الأعراف: من الآية١٥٧).

5 - والكراهة لها معنيان عند أهل العلم: كراهة تحريم وكراهة تنزيه، وظاهر قصد شيخ الإسلام هنا التحريم؛ وذلك للنهي الموجود في الحديث السابق _ وموجب النهي عند شيخ الإسلام هو التحريم، انظر: شرح العمدة: ٣٨٠/٤ _ ولمعرفتنا بمنهج شيخ الإسلام وهو أن موافقة أهل الكتاب عموماً محرمة، فكيف إذا ورد في ذلك نص بالنهي عنها فهي محرمة من باب أولى.

6 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٢٤/١.

رأينا وسمعنا من كان يتنطع في أشياء فيبتلى أيضاً بأسباب تشدد الأمور عليه في الإيجاب والتحريم مثل كثير من الموسـوسـين"(1)، وقد وقع هذا في أهل الكتاب حين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فمثال التشديد عليهم بالشرع، ما ورد من قصة بني إسرائيل مع موسى لما سألوه عن البقرة وأوصافها، وقد أمروا في البداية أن يذبحوا أي بقرة، فلما تشددوا وتنطعوا بالسؤال عن الأوصاف جاء م أوصاف عسرت عليهم الوقوف على المطلوب(2)، ومثال التشديد عليهم بالقدر: ما وقع للنصارى لما ابتدعوا الرهبانية، فشددوا على أنفسهم في غير المشروع لهم، فلم يكن من نصيبهم إلا التعب والمشقة مع الوزر والبعد عن الله، وكذلك من شا هم من هذه الأمة؛ فإنه سـوف يلحق به مثل مالحق م، مالم ينـته عن التشـبه م.

ومن الأحاديث التي جاء فيها التحذير من التشـبه بالكفار: التحذير من التشـبه م لما أصا م من عقوبة الله لهم بعدم الفلاح: فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا عليهم بنت كسرى، قال: ((لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة))[٣]، وفي هذا الحديث ي من النبي صلى الله عليه وسلم لأمته عن التشـبه با وس بأن يولوا أمرهم وقياد م امرأة، وفيه زجر لهم عن ذلك؛ لأن فيه مشا ة لأولئك القوم الذين بين النبي صلى الله عليه وسلم عدم فلاحهم، فمن شاركهم في ذلك كان سبباً في عدم نجاحه وفلاحه.

ومن الأحاديث التي جاء فيها التحذير من التشـبه بالكفار: التحذير من ذلك لما أصا م من عقوبة الله بالهلاك لـمّا تركوا أمر الله، ووقعوا فيما اهم: فقد ورد عن عمرو بن عوف[٤] رضي الله عنه مرفوعاً: ((فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسـوها كما تنافسـوها و لككم كما أهلكتهم))[٥]، وهذا الحديث وإن كان في باب السلوك وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على زكاة نفوس الصحابة وطهار ا من كل ما

---

(1) اقتضاء الصراط :١/ ١٠٣

(2) انظر: تفسـير ابن كثير: ١١٠/٥

3 - رواه البخاري في صحيحه: ١٦١٠/٤، برقم: (٤١٦٣)، والترمذي في سـننه: ٥٢٧/٤، برقم: (٢٢٦٢)، والنسائي في ا تبى: ٢٢٧/٨، برقم: (٥٣٨٨).

(4) هو عمرو بن عوف الأنصاري، ويقال له: عمير، كان ممن شهد بدراً، انظر: التاريخ الكـبير، للبخـاري: ٣٠٧/٦، تقريب التهذيب، لابن حجر: ٤٢٥/١، الاستيعاب، لابن عبد البر: ١١٩٦/٣

5 - أخرجه البخاري في صـحيحه: ١١٥٢/٣، بـرقم: (٢٩٨٨)، وكـذلك: ١٤٧٣/٤، بـرقم: (٣٧٩١)، وكذلك:٢٣٦١/٥، برقم: (٦٠٦١)، ومسلم في صحيحه: ٢٢٧٣/٤، برقم: (٢٩٦١).

يشو ا، ولكننا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يبين لنا من خلال الحديث أن الفقر وإن كان مما يخشى منه، ولكنه لا يخشى منه على نفوس أمته وطهار ا كما يخشى عليهم من مشا ة الأمم السابقة، الذين بسطت عليهم الدنيا فتسابقوا فيها فأهلكتهم، وفي هذا يلفت النبي صلى الله عليه وسلم نظر أصحابه الكرام إلى خطورة التشـبه بالكفار في جانب السلوك ـ وإن كان المقصود الأول هو بيان خطورة التنافس في الدنيا ـ، ومعناه أنه من وقع في التنافس المذكور فقد وقع في مشا ة أولئك في فعلهم، وذلك مستلزم لمشاركتهم في عقا م وجزائهم الذي عاقبهم الله به لقاء إساء م؛ فكل هذا موجب للبعد عن هذه الصفة بالذات ـ من صفا م ـ وجميع صفا م الأخرى التي لحقهم بسببها عذاب.

ومن الأحاديث التي جاء فيها التحذير من التشـبه م؛ لما أصا م من عقوبة الله بالهلاك لمـّا وقعوا فيما اهم الله: ما ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إياكم والغلو(1) في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين))(2)، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وقوله: إياكم والغلو في الدين: عام3 في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال"4، فلا يجوز الغلو في أي عبادة من العبادات، فمن فعل ذلك كان متشـبهاً بالغالين الهالكين، ولزم أن يشاركهم في نصيبهم من الهلاك كما شـاركهـم في غلوهم، وبذلك عـلل رسـول الله صلى الله عليه وسلم هـلاك الأمـم من قـبلنـا.

---

(1) قال ابن حجر في الفتح: "وأما الغلو فهو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد وفيه معنى التعمق يقـال: غلا في الشيء يغلو غلوا وغلا السعر يغلو غلاء إذا جاوز العادة، والسهم يغلو غلوا بفتح ثم سكون إذا بلغ غاية مـا يرمى" ٢٧٨/١٣، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ١٠٦/١

(2) أخرجه أحمد في مسـنده: ٢١٥/١، برقم: (١٨٥١)، والنسائي في ا تبى: ٢٦٨/٥، برقم: (٣٠٥٧)، وابـن ماجه في سـننه: ١٠٠٨/٢، برقم: (٣٠٢٩)، وصححه الألباني في (صحيح الجامع الصغير وزيادته)٥٢٢/١ بـرقم: (٢٦٨٠).

3 - وإن كان سبب الحديث خاص برمي الجمار، وسـياقه في السـنن والمسـند قال شيخ الإسلام: "وسـبب هذا اللفظ العام: رمي الجمار وهو داخل فيه؛ فالغلو فيه مثل رمي الحجارة الكبار ونحو ذلك بناء على أنه قد بالغ في الحصى الصغار"، اقتضاء الصراط المستقيم: ١ / ١٠٦، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

4 - اقتضاء الصراط المستقيم: ١٠٦/١

ومنها ما جاء عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف[1]: أنه سمع معـاوية بن أبي سفيان عام حج[2]، وهو على المنبر، وتناول قُصة[3] من شعر كانت في يد حرسـي[4]. فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم[5]؟ سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذه، ويقول: ((إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم))[6]، قال ابن حجر في الفتح: "قوله: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم، فيه إشعار بأن ذلك كان حراماً عليهم فلما فعلوه كان سبباً لهلاكهم"[7]، ففي هذا الحديث تحذير للمسـلمين من التشـبه بأهل الكتاب في دخولهم في المحرمات وانـتهاكهم لها، وفيه ي عن كل أمورهم التي لم يقرها الإسلام؛ لأ ا لا تخرج عن كو ا معصية أو تؤدي إلى معصية ولو كانت غير ذلك لأمرنا ا.

---

(1) أحد التابعين، واسمه: حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري أبو عثمان، روى عن عثمان رضي الله عنه وسمـع من أبيه وأبي هريرة ومعاوية، روى عنه الزهري وصفوان بن سليم وابنه عبد الرحمن وابنه القاسم، وسئل أبو زرعة عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، فقال: مديني ثقة. انظر: ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم، للدارقطني: ٦٠/٢، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٢٢٥/٣.

(2) قال ابن حجر: "وكان ذلك في سـنة إحدى وخمسـين وهي آخر حجة حجها في خلافته" الفتح ٥١٦/٦، وقيل: آخر حجة سـنة سبع وخمسـين، انظر: شرح الزرقاني: ٤٢٧/٤.

(3) قال ابن حجر: "قصة بضم القاف وتشديد المهملة هي شعر الناصية"الفتح:٥١٦/٦، ولعله ما يوصل به الشعر الأصلي بالشعر المستعار.

4 - والحرسـي: منسـوب إلى الحراس وهم: خدمه الذين يحرسـونه، انظر: الفتح: ٥١٦/٦، وشرح الزرقاني: ٤٢٧/٤.

5 - قال ابن حجر في الفتح: "قوله أين علماؤكم فيه إشارة إلى أن العلماء إذ ذاك فيهم كانوا قد قلوا وهو كذلك لأن غالب الصحابة كانوا يومئذ قد ماتوا وكأنه رأى جهال عوامهم صنعوا ذلك فأراد أن يذكر علماءهم وينبئهم بما تركوه من إنكار ذلك": ٥١٦/٦.

6 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٢٧٩/٣، برقم: (٣٢٨١)، ومسـلم في صحيحـه: ١٦٧٩/٣، برقـم: (٢١٢٧).

7 - فتح الباري: ٥١٦/٦

ومن ذلك أيضاً: ما ورد عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((إنما أهلك الذين من قبلكم؛ أ م كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[1]، وعدم تطبيق الحدود معصية في ذاته ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن ينفر منه زيادة ببيان أنه يجمع المعصية والتشـبه بالكفار الذين هلكوا، وفي ذلك تعرض للهلاك الذي وقعوا فيه؛ بسبب مشاركتهم في الشيء الذي أهلكهم الله به، ألا وهو التفرقة بين الشريف والوضيع في تطبيق الحدود، ثم أكد النبي صلى الله عليه وسلم بعده الكامل عن مشا ة الكفار في هذا الجانب فقال: ((وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)).

ومن ذلك أيضاً: ما ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنها مرفوعاً: ((إياكم والشح[2]، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة[3] فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا[4]))[5]، والشح خصلة من الخصال الذميمة، فبين النبي صلى الله عليه وسلم ما حصل لمن كان قبلنا لما اتصفوا ا، ليكونوا عبرة لنا، فمن تشـبه م فسـوف يقع في ما جر م إليه تلك الخصلة، من البخل وقطع الرحم والفجور.

ومن ذلك ما ورد عن خباب بن الأرت[6] رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن بني إسرائيل لما هلكوا قصوا[7]))[8]، قال ابن قتيبة: "والحديث ورد سداً لباب الفساد من الزنادقة احتيالاً

---

1 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٢٨٢/٣ برقم: (٣٢٨٨) أخرجه مسلم في صـحيحه ١٣١٥/٣ بـرقم: (١٦٨٨).

(2) قال البيهقي في السـنن الكبرى: "والشح: هواه في الشيء يحرص عليه"، ٢٩٨/٧، وقال ابن رجب الحنبلـي: "والشح هو شدة حرص الإنسان على ما ليس له من الوجوه المحرمة وينشأ عنه البخل"، كتاب التخويف من النـار ص: (٢٠٣).

(3) أي قطيعة الرحم، انظر: فيض القدير ١٢٥/٣.

4 - والفجور أي: الميل عن القصد والسداد والانبعاث في المعاصي، انظر: فيض القدير: ١٢٥/٣.

5 - أخرجه أبو داود: ١٣٣/٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٥٢١/١.

(6)خباب بن الأرت ابن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم أبو يحيى التميمي، مـن نجباء السابقين له عدة أحاديث وقيل كنيته أبو عبد الله شهد بدرا والمشاهد، حدث عنه مسروق وأبو وائل وأبو معمر وقيس بن أبي حازم وعلقمة بن قيس وعدة، مات بالكوفة سنة سبع وثلاثين وصلى عليه علي. انظر: سـير أعـلام النبلاء، للذهبي: ٣٢٣/٢.

7 - "القص تتبع أثر الوقائع والأخبار يبينها شيئا بعد شيء على ترتيبها في معنى قص الأثر وهو اتباعه حتى ينـتهي إلى محل ذي أثر"، انظر: فيض القدير: ٧٨/١.

8 - أخرجه الطبراني في معجمـه الكبـير: ٨٠/٤، وصححه الألباني في: صحيح الجـامع الـصغير: ٤١٠/١، برقم: (٢٠٤٥).

على الطعن في الدين؛ فإن القاص يروي مناكير وغرائب يميل ا وجوه الناس إليه وشأن العامة القعود عند من كان حديثه عجيباً"[1] فأراد أن ينهى أمته عن القص ولكنه جاء بذكر بني إسرائيل للعظة والعبرة وبيان أحد أسباب هلاكهم الذي هو أحد الأسباب التي من أجلها نهينا عن التشـبه م.

ومن ذلك ما ورد عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قالا: لما نزل برسـول الله صلى الله عليه وسلم، طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم ا كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك[2]: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))، يحذر ما صنعوا[3]، وفيه التحذير من فعلهم، وكأن الذي يفعل كفعلهم ستصيـبه اللعنة التي أصابتهم على لسان رسـول الله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا تنبيه المسـلمين إلى الحذر من أعمال أهل الكتاب الأخرى والتي لم يرد تحريمها أو إباحتها _ أنه يجب الحذر منها عموماً _ فإن سـير م ليست بالسـيرة الحسـنة المرضية، فهم قوم أصابتهم لعنة الرسـول صلى الله عليه وسلم، فكيف يقتدي المسلم أو يتشـبه بقوم أصابتهم اللعنة.

ومن ذلك ما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح وهو بمكة: إن الله ورسـوله حرم بيع الخمر والميتة والخنـزير والأصنام فقيل: يا رسـول الله: أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى ا السفن ويدهن ا الجلود ويستصبح ا الناس[4]؟ فقال: لا، هو حرام، ثم قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: ((قاتل الله اليهود، إن الله عز وجل لما حرم عليهم شحومها[5] أجملوه[6] ثم باعوه فأكلوا ثمنه))[7]، وهنا دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ لاحتيالهم على ر م، فمن شاركهم في ذلك فقد شاركهم في استحقاق وقوع هذه الدعوة عليه، ففيه إشعار بأن التشـبه م عموماً مذموم لاستحقاقهم الدعاء عليهم ولعنـتهم كما سبق.

---

1 - انظر: فيض القدير ٧٨/١.

2 - قال السـيوطي: " فطفق أي: جعل يطرح، خميصة هي: كساء له أعلام، قال وهو كـذلك: أي في تلـك الحال" شرح السـيوطي ٤٠/٢.

(3) أخرجـه البخـاري في صحـيحـه: ١٦٨/١ بـرقم: (٤٢٥)، ١٢٧٣/٣ بـرقم: (٣٢٦٧)، ١٦١٥/٤ برقم: (٥٤٧٨)، ومسلم في صحيحه: ٣٧٧/١ برقم: (٥٣٠).

(4) تجعل وقوداً للمصابيح.

5 - أي: حرم عليهم بيع الشحوم، انظر: الفتح: ٤٢٥/٤.

6 - يقال: أجمل الشحم وجمله أي: أذابه، انظر: شرح صحيح مسلم للنووي: ٦/١١.

7 - أخرجه البخاري في صحيحه: ٧٧٩/٢ برقم: (٢١٢١)، ومسلم في صحيحه: ١٢٠٧/٣ برقم: (١٥٨١).

ومن الأمور التي حصلت لهم من عقوبة الله والتي من أجلها نهينا عن التشبه بهم: وقوعهم في الفتنة، فنهينا عن التشبه بهم؛ لكي لا نقع في ما وقعوا فيه من الفتن، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الدنيا حلوة خضرة[1]، وإن الله مستخلفكم فيها[2] فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا[3] واتقوا النساء[4]، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[5]، فهنا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التشبه بهم في ما به فتنوا، وهو فتنة النساء، فجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم عظة وعبرة لنا، نتعظ بما حصل لهم من عواقب الأمور فنزداد خبرة وبصيرة، ومع ذلك فإن في تحذيره صلى الله عليه وسلم من حالهم في معاصي النساء ووقوعهم في الفتنة: تحذير لأمته من حالهم وشأنهم كله، ثم إن التعبير النبوي في الحديث يدل على انغماسهم في الفتن بعد ذلك؛ فقد قال: ((إن أول فتنة بني إسرائيل))، ولم يقل: إنهم فتنوا بذلك، مما يدل على أنها أول الفتن التي انزلقوا بعدها إلى مهاوي الردى، فالخائف على دينه لا يأخذ أي شأن من شؤونه من هؤلاء المفتونين.

٦- ومن موقفه صلى الله عليه وسلم من التشبه بالكفار: الإخبار عن حال المسلمين في المستقبل وانجرافهم وراء التشبه بأهل الكتاب، وهذا الإخبار إنما هو من أجل النهي عن ذلك، والتحذير منه، وإن كان ذلك لا محالة حاصل لبعض هذه الأمة:

---

1 - خضرة: بفتح فكسر، أي: ناعمة طرية محبوبة، حلوة: بضم أوله أي: لذيذة حسنة، وإنما وصفها بالخضرة؛ لأن العرب تسمي الشيء الناعم خضراً، أو لشبهها بالخضروات في ظهور كمالها وسرعة زوالها، وفيه بيان أنها تفتن الناس بلونها وطعمها، انظر:تحفة الأحوذي: ٣٥٦/٦.

2 - وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون أي: جاعلكم خلفاء من قرن خلوا قبلكم فينظر تطيعونه أو لا، انظر: تحفة الأحوذي: ٣٥٦/٦. قال المناوي: "وإن الله مستخلفكم فيها أي: جاعلكم خلفاً في الدنيا. فناظر كيف تعملون: يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله خلقها وخولكم إياها وخولكم الاستمتاع فيها وجعلكم خلفاً بالتصرف فيها، فليست هي بأموالكم حقيقة بل أنتم فيها بمنزلة الوكلاء. فينظر: هل تتصرفون فيها على الوجه الذي يرضى به المستخلف أو لا، والاستخلاف: إقامة الغير مقام النفس" انظر: فيض القدير:٥٤٣/٣-٥٤٤

(3) ألا للتنبيه فاتقوا الدنيا أي: احذروا زيادتها إلا على قدر الحاجة المعينة للدين النافعة في الآخرة، انظر: تحفة الأحوذي: ٣٥٦/٦.

(4) قال النووي: "ومعناه: تجنبوا الافتتان بالنساء"، انظر:٥٥/١٧.

5 - أخرجه مسلم في صحيحه: ٢٠٩٨/٤ برقم: (٢٧٤٢)، والترمذي في سننه: ٤٨٣/٤، برقم: (٢١٩١)، وابن ماجه في سننه: ١٣٢٥/٢ برقم: (٤٠٠٠).

فمن ذلك ما جاء عن أبي واقد الليثي(1) رضي الله عنه: أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم[2] فقالوا: يا رسـول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((سبحان الله هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفسـي بيده لتركبن [3]سـنة[4]من كان قبلكم))[5]، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن التشـبه حاصل في هذه الأمة لا محالة، إخباراً فيه ي عن الوقوع في ما وقعوا فيه من مخالفة أمر الله عز وجل(6)، كما فيه التنويه على أن التشـبه م في ما هو من خصائصهم التي لم يرد تحريمها نصاً: فيه فتح لباب التشـبه م في ما هو محرم أصلاً.

ومن ذلك ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: ((لتتبعن(7) سـنن[8] الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في حجر ضب[9] لاتبعتموهم))، قلنا: يا رسـول الله آليهود والنصارى؟ قال: ((فمن))[10]، وهذا الحديث قد خرج _ كذلك _ مخرج النهي عن

---

(1) هو: صاحب النبي صلى الله عليه وسلم سماه البخاري وغيره الحارث بن عوف، وقال البخاري وأبو أحمد الحاكم شهد بدراً، وله عدة أحاديث، وحدث أيضاً، عن أبي بكر وعمر، وشهد الفتح وسكن مكة، وحدث عنه عطاء بـن يسار، وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعبيد الله بن عتبة وبسر بن سعيد، عداده في أهل المدينة وعاش نحواً مـن ثمانين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٥٧٤/٢-٥٧٥.

2- تبركاً ا، فكانوا يعبدو ا من دون الله، وكان ذلك التبرك مع الاعتقاد أ ا تنفع مـن دون الله: شـكل مـن أشكال عباد ا، انظر: تيسـير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: ص: (١٤٩)، وتحفة الأحوذي: ٣٣٩/٦.

3 - لتركبن: بضم الموحدة والمعنى لتتبعن سـنة من كان قبلكم، انظر: تحفة الأحوذي: ٣٣٩/٦.

4 - يقصد ا هنا: الطريقة التي يسلكو ا، انظر: تيسـير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: ص: (١٥٠).

5 - أخرجـه الترمذي في سـنـنه: ٤٧٥/٤ برقم: (٢١٨٠)، وقال: حـديث حسـن صحيـح، وأحمد في مسـنده:٢١٨/٥ برقم: (٢١٩٤٧).

(6) انظر: فيض القدير ٢٦١/٥

(7) الخطاب للأمة والمقصود: تتبعون، انظر: فتح الباري: ٣٠٠/١٣

8 - السـنن: بفتح السـين، أي: الطرق، انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ١٦ / ٢١٩

9 - قال المناوي: "وهو كناية عن شدة الموافقة لهم في المخالفات والمعاصي" فيض القدير: ٢٦١/٥

10 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٢٧٤/٣ بـرقم: (٣٢٦٩)، ومـسلم في صـحيحه: ٢٠٥٤/٤ بـرقم: (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

التشـبه م، وفيه بيان انغماس بعض[1] المسـلمين في المستقبل في التشـبه بالأمم الكافرة[2].

فهذا هو موقفه صلى الله عليه وسلم قد تبين من خلال هذه الأحاديث جلياً في النهي عن التشـبه بالكفار بكل وسـيلة وطريق.

المبحث الثالث: موقف الصحابة من التشبه بالكفار:-

لقد جاء موقف الصحابة من التشـبه مشا اً لموقف السنة، فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا ليخالفوا القرآن والسنة، وإنما نورد موقف الصحابة هنا لكونه إنما يجسد موقف القرآن والسنة، فالصحابة هم أقرب الناس إلى مقام الوحي وأعظم الناس تمسكاً بالكتاب وتطبيقاً للسنة، ولذلك فإننا نجد موقفهم لا يختلف عن موقف القرآن والسنة، وإنما هو تطبيق عملي لما جاء فيهما من أحكام ذا الشأن، فالاستدلال بموقف الصحابة هنا يكون بطريقتين، كما قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وهذا الباب فيه كثرة عن الصحابة، وهذه القضايا التي ذكرناها بعضها في مظنة الاشتهار وما علمنا أحداً خالف ما ذكرناه عن الصحابة رضي الله عنهم، من كراهة التشـبه بالكفار والأعاجم في الجملة،

1 - فليس كل المسـلمين سـيحصل منهم هذا التشـبه، لإخباره صلى الله عليه وسلم بأنه ستكون طائفة مـن الأمة مستقيمة على المنهج الصحيح لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة، كما قال عليه الصلاة والـسلام: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)) أخرجـه مـسلم في صحيحه: ١٥٢٣/٣ برقم: (١٩٢٠).

2 - مما يشرح أهمية التصدي لموضوع التشـبه بالكفار.

كما أ م مجمعون على اتباع الكتاب والسنة فعلم اتفاقـهم على كراهة التشـبه"[1]، فالاستدلال بموقف الصحابة يكون بالمسائل التي تكلموا فيها بأعيا ا، وأنكروا فيها على من تشـبه بالكفار، كما يكون بمعرفة أ م أعظم الناس تمسكاً بالكتاب وتطبيقاً للسنة فهم مجمعون على ذلك، فلا يعقل أن يكون للسنة موقفاً معيناً من شيء معين، ويكون للصحابة موقفاً مغايراً ومبايناً لها، لأ م أحرص الناس على تطبيق ما أمروا به في القرآن والسنة.

فأذكر هنا بعض المواقف للصحابة الأجلاء من أجل أن يتبين موقفهم الموافق للسنة، ومن أجل أن نعرف كيف فهم الصحابة ما جاء في القرآن والسنة في مسألة التشـبه وكيف قاموا بتطبيق مافهموه:-

فعن قيس بن أبي حازم[٢] قال: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس[3]، يقال لها زينب، فرآهـا لا تـكلم فقـال: ((ما لها لا تكلم؟)) قالوا: حـجت مصمتة[٤]، قال لها:

(1) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٩٠/١

(2) هو قيس بن أبي حازم: العالم الثقة الحافظ أبو عبد الله البجلي الأحمسي الكوفي واسم أبيه: حصين بن عـوف، أسلم وأتى النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعه فقُبض نبي الله ﷺ وقيس في الطريق ولأبيه أبي حازم صـحبة، وقـال سفيان بن عيينة: ما كان بالكوفة أحد أروى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قيس بن أبي حـازم، وقال أبو داود أجود التابعين إسناداً: قيس، وقد روى عن تسعة من العشرة، ولم يرو عن عبد الرحمن بن عوف، وعن ابن معين قال: مات سنة سبع أو ثمان وتسعين، انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٠٠/٤، وانظر للمزيد: معرفـة الثقـات، للعجـلي: ٢٢٠/٢.

(3) وهي قبيلة من بجيلة، انظر: فتح الباري ١٥٠/٧

4 - مصمتة: بضم الميم وسكون المهملة أي: ساكتة، انظر: فتح الباري ١٥٠/٧.

((تكلمي؛ فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية))[1]، قال شيخ الإسلام: "فأخبر أبو بكر أن الصمت المطلق لا يحل، وعقب ذلك بقوله: هذا من عمل الجاهلية، قاصداً بذلك عيب هذا العمل وذمه، وتعقيب الحكم بالوصف دليل على أن الوصف علة، فدل على أن كونه من عمل الجاهلية وصف يوجب النهي عنه والمنع منه"[2]، ففي هذا الموقف للصديق رضي الله عنه: أنكر على هذه المرأة هذا الفعل؛ بمجرد معرفته أنه من عمل أهل الجاهلية، ولم يستدل على حرمة هذا الفعل بنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يرو عن المرأة أنها سألته عن الدليل على تحريمه لذلك، مما يشعر بأن الفعل لو كان من خصائص أهل الجاهلية: فهو مما ينهى عنه؛ لوجوب مفارقة أعمال أهل الجاهلية.

ومن ذلك ما جاء في سنن البيهقي: عن عبد الرحمن بن غَنم[3] قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح أهل الشام: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من نصارى مدينة كذا وكذا:.... _ إلى أن قال _: ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة[4] ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم..."، إلى آخر ما ورد في العهد[5]، ففي هذا الأثر نجد أن عمر _ رضي الله عنه _ قد أمر كاتبه أن يشرط عليهم بلسانهم أن يتركوا زي المسلمين وأن يلزموا زي الصغار والمهانة، الذي لا يرتضيه الصحابة _ بلا شك _ لأحد من المسلمين، فأمره إياهم بأن لا يتشبهوا بأحد من المسلمين في لباسهم وهيئتهم يدل على أن التشبه بالمشركين إذا وقع من المسلمين فهو مذموم عندهم، وإلا فكيف يجوز أن ينهى المشركون عن ذلك ثم يفعله المسلمون، سيكون ذلك من العبث المحض، وكما هو معلوم أن قصد عمر بذلك هو: المفارقة بينهم وبين المسلمين، فكيف يتشبه بهم أهل الإسلام، قال شيخ الإسلام: "فاتفق عمر والمسلمون معه، ومن وفقه الله تعالى من

---

1 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٣٩٣/٣ برقم: (٣٦٢٢)، قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ومعنى قوله من عمل الجاهلية أي إنه مما انفرد به أهل الجاهلية ولم يشرع في الإسلام فيدخل في هذا كل ما اتخذ من عبادة مما كان أهل الجاهلية يتعبدون به ولم يشرع الله التعبد به في الإسلام" اقتضاء الصراط المستقيم: ١٢٥/١

2 - اقتضاء الصراط المستقيم: ١٢٥/١

(3) "عبد الرحمن بن غنم بفتح المعجمة وسكون النون الأشعري مختلف في صحبته وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين مات سنة ثمان وسبعين"، تقريب التهذيب، ص: (٣٤٨)، وانظر: معرفة الثقات، للعجلي: ٨٤/٢.

(4) قال المناوي في فيض القدير: "والقلنسوة: بفتح القاف واللام وسكون المهملة وفتح الواو من ملابس الرأس" ٢٤٦/٥، وقال ابن حجر: "والقلنسوة: بفتح القاف واللام وسكون المهملة وفتح الواو: غشاء مبطن يستر به الرأس" انظر: فتح الباري ٤٩٣/١.

5 - سنن البيهقي الكبرى: ٩ / ٢٠٢، قال ابن تيمية: "رواه حرب بإسناد جيد"، اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٦٤/١.

ولاة الأمور على منعهم من أن يظهروا في دار الإسلام شيئاً مما يختصون به، مبالغة في أن لا يظهروا في دار الإسلام خصائص المشـركين، فكيف إذا عملها المسلمون وأظهروها"[1].

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي عثمان النهدي[2] قال: كتب إلينا عمر ونحن بأذربيجان: ((يا عتبة بن فرقد[3] إنه ليس من كدك ولا من كد[4] أبيك ولا من كد أمك، فأشبع المسـلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم وزي[5] أهل الشـرك ولبوس الحرير...))[6]، وهذا الأمر من عمر رضي الله عنه ينص فيه على وجوب ترك زي أهل الشـرك، وهو بذلك يقف الموقف الذي يوافق به السـنة بالنهي عن التشـبه بالمشـركين ليعلم أن التحذير من التشـبه كما هو موقف السـنة فهو كذلك موقف الصحابة رضي الله عنهم.

ومن ذلك ما ورد في مسـند أحمد: أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال لكعب أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة؛ فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر _ رضي الله عنه _: ضاهيت[7] اليهودية، لا ولكن أصلي حيث صلى رسـول الله _ صلى الله عليه وسلم _ فتقدم إلى القبلة فصلى. قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فعمر رضي الله عنه عاب على كعب الأحبار مضاهاة اليهودية _ أي مشا بتها

---

1 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٦٩/١، وقال رحمه الله: "وهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقه والعلم وهـي مجمع عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين وأصحا م وسائر الأئمة ولولا شهر ا عند الفقهاء لذكرنا ألفاظ كل طائفة فيها وهي أصناف الصنف الأول ما مقصوده التميـيز عن المسـلمين في الـشعور واللبـاس والأسمـاء والمراكب والكلام ونحوها؛ ليتميز المسلم من الكافر ولا يشبه أحدهما الآخر في الظاهر، ولم يرض عمر رضي الله عنه والمسلمون بأصل التميـيز بل بالتميـيز في عامة الهدى، على تفاصيل معروفة في غير هذا الموضع وذلـك يقتـضي إجماع المسـلمين على التميز عن الكفار ظاهراً وترك التشـبه م" اقتضاء الصراط المستقيم: ١٢٢/١

(2) "أبو عثمان النهدي الإمام الحجة شيخ الوقت عبد الرحمن بن مل وقيل ابن ملي ابن عمرو بن عدي البـصري، مخضرم معمر أدرك الجاهلية والإسلام وغزا في خلافة عمر وبعدها غزوات"، انظر سـير أعلام النبلاء: ١٧٥/٤.

(3) قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب: "عتبة بن فرقد السلمي أبو عبد الله، له صحبة ورواية كان أميرا لعمر بـن الخطاب على بعض فتوحات العراق"، انظر: الاستيعاب: ١٠٣٠/٣.

4 - قال النووي: "من كدك فالكد: التعب والمشقة والمراد هنا أن هذا المال الذي عندك ليس هو من كسبك ومما تعبت فيه ولحقتك الشدة والمشقة في كده وتحصيله ولا هو من كد أبيك وأمك فورثته منهما بل هو مال المسـلمين فشاركهم فيه ولا تختص عنهم بشيء بل أشبعهم منه" شرح صحيح مسلم للنووي: ١٤ / ٤٦

5 - الزي: حسـن الهيئة من اللباس يقال: تزيا فلان بزي حسـن، انظر: العين للفراهيدي: ٣٩٦/٧

6 - أخرجه البخـاري في صـحيحه: ٥ / ٢١٩٣ بـرقم: (5490)، ومـسـلم في صـحيحه: ٣ / ١٦٤٢ برقـــم: (٢٠٦٩)، واللفظ لمسلم.

7 - المضاهاة: مشاكلة الشيء الشيء، انظر: العين للفراهيدي ٧٠/٤، وقال في النهاية في غريب الحديث والأثـر: "والمضاهاة: المشا ة" انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٠٦/٣.

في مجرد استقبال الصخرة _؛ لما فيه من مشا ة من يعتقدها قبلة باقية، وإن كان المسلم لا يقصد أن يصلي إليها"[1]، فهنا جعل الفاروق رضي الله عنه مشا ة اليهودية من الأمور التي يجب أن تجتنب ويحتاط لها، ومع أن عادته رضي الله عنه: اتباع مشورة الصحابة والتابعين، ولكنه ترك المشورة هنا، بسبب أن في ذلك اتباعاً لما كان يفعله اليهود.

ومن ذلك ما ورد عن علي رضي الله عنه أنه خرج فرأى قوماً يصلون قد سدلوا[(2)] ثيا م فقال: ((كأ م اليهود خرجوا من فُهرهم[(3)]))[4]، وهذا إنكار منه رضي الله عن لهذه الهيئة من اللباس في الصلاة، وإن كانت الصلاة هي نفسها قد اشتملت على ما يباين بين المسـلمين واليهود[5]، بل لا بد من مخالفتهم من كل وجه ظاهراً وباطناً.

ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ أنه قال: ((إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلو م، اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلو م واستحلته ألسـنـتهم وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهوا م، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأ م لا يعلمون فقال[6]: اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم عليه فاتركوهم وإن خالفوكم فاقتلوهم، قال: لا بل ابعثوا إلى فلان رجل من علمائهم فإن تابعكم لم يختلف عليكم أحد وإن خالفكم فاقتلوه، فلن يختلف عليكم أحد بعده فأرسلوا إليه، فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله، ثم أدخلها في قرن، ثم علقها في عنقه، ثم لبس عليها الثياب، ثم أتاهم فعرضوا عليه الكتاب، فقالوا: أتؤمن ذا ؟ فأشار إلى صدره يعني الكتاب الذي في القرن، فقال: آمنت ذا وما لي لا أومن ذا، فخلوا سبيله، قال:

1 - اقتضاء الصراط المستقيم: ١٢٧/١

(2) وقد اختلف أهل العلم في معنى السدل فقال ابن سلام: "والسدل هو إسبال الرجل ثوبه من غير أن يضم جانبيه بين يديه فإن ضمه فليس بسدل"، انظر: غريب الحديث لابن سلام: ٣ / ٤٨٢، وهذا إنما يتـنـزل على الثـوب المفتوح وله جانبين كما هو الحال بالنسبة للعباءة للرجل في هذا الزمن، وقال أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: "هو أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد وهو كذلك" النهاية في غريب الحـديث: ٢ / ٣٥٥، قال الشوكاني: "والحديث يدل على تحريم السدل في الصلاة؛ لأنه معنى النهي الحقيقي"، نيل الأوطار: ٦٨/٢.

(3) وفُهر اليهود _ بضم الفاء، ورويت بالقاف بدل الفاء _: مدارسهم، انظر: لسان العـرب ٦٦/٥، وانظـر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٨٤/١.

4 - أخرجه البيهقي في سـننه الكبرى: ٢ /٢٤٣ بـرقم: (3131)، و ابـن أبي شـيبة في مـصنفه: ٢ /٦٢ برقـم: (6481)، وعبد الرزاق في مصنفه: ١ /٣٦٤ برقم: (1423).

5 - فقد اشتملت على ذم اليهود وبيان أن الله قد غضب عليهم، كما في قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم) قال غير واحد من العلماء، المقصود بالآية هم اليهود، انظر: تفـسـير الطـبري: ٨٠/١- ٨٤، وتفـسـير القـرطبي: ١٥٠/١، وتفسـير ابن كثير: ٣٠/١- ٣١.

6 - وفي تفسـير القرطبي: ثم قالوا، بدل (فقال)، ٢٥٠/١٧

وكان له أصحاب يغشونه، فلما حضرته الوفاة أتوه فلما نزعوا ثيابه: وجدوا القرن في جوفه الكتاب فقالوا: ألا ترون إلى قوله: آمنت بهذا وما لي لا أومن بهذا فإنما عنى بهذا هذا الكتاب الذي في القرن، قال: فاختلفت بنو إسرائيل على بضع وسبعين فرقة خير مللهم أصحاب ذي القرن))[1]، وإن كان هذا الموقف مما قد يكون من الإسرائيليات، ولكن الذي يهمنا أن الصحابي أورده مورد الذم للتشبه بهم والوقوع فيما وقعوا فيه، فقد ساقه من باب التحذير، فنعلم أن موقفه هو وجوب المخالفة للكفار، فهذا تحذير منه _ رضي الله عنه _ من أن نسلك ما سلكه كفار بني إسرائيل من اتباع الشهوات وقسوة القلب بعد طول الأمد.

ومن ذلك ما ورد في صحيح مسلم أن أبا موسى الأشعري _ رضي الله عنه _ بعث إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال: ((أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم...)) إلى نهاية الأثر[2]، فهنا نجد الصحابي _ رضي الله عنه _ أراد أن يعظ هؤلاء القراء، فخوفهم من قسوة القلوب التي وقع فيها الذين من قبلنا من الأمم، وهذا يدل على أن ترك ما كان عليه الكفار: من المسلمات عند أبي موسى _ رضي الله عنه _ وعند من سمعه من هؤلاء الفقهاء، فكان بإمكانه _ رضي الله عنه _ أن يكتفي بالتحذير من قسوة القلب، ولكنه حذر من شيء آخر في هذه المعصية، ألا وهو التشبه بالكفار، فإن من قسى قلبه تشبه بأهل الكتاب الذين قست قلوبهم.

ومن ذلك ما ورد عن معاوية _ رضي الله عنه _ قال: ((إن تسوية القبور من السنة[3] وقد رفعت اليهود والنصارى فلا تشبهوا بهما))[4]، فحذر _ رضي الله عنه _ من مخالفة السنة، ومع ذلك فقد زاد في التنفير من رفع القبور بذكر محذور آخر يعتبر _ كذلك _ منفراً من رفع القبور عن الأرض، ألا وهو التشبه باليهود والنصارى. وقد حذر من التشبه بهم قبل أن يقع من المسلمين، مما يظهر خوف الصحابة _ رضي الله

1 - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ٦ / ٩٥ برقم: (7589).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه: ٧٢٦/٢ برقم: (١٠٥٠).

(3) قال شيخ الإسلام: "يشير معاوية إلى ما رواه مسلم في صحيحه عن فضالة بن عبيد أنه أمر بقبر فسوي، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها، رواه مسلم"، اقتضاء الصراط المستقيم: ١٣٢/١ وانظر: صحيح مسلم: ٦٦٦/٢، برقم: (٩٦٨).

4 - المعجم الكبير: ٣٥٢/١٩، برقم: (٨٢٣).

عنهم _ على الأمة من الوقوع في التشبه؛ فإ م لم يكتفوا بالنهي عنه حال وقوعه، بل حذروا منه قبل أن يقع.

ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص _ رضي الله عنه _ قال: ((من بنى ببلاد الأعاجم وصنع نيروزهم ومهرجا م[1] وتشبه م حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة))[2]، وقد أورد شيخ الإسلام هذا الأثر في شرح حديث من تشبه بقوم فهو منهم، قال في شرح الحديث والأثر: "وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه م، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه م كما في قوله: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم)[3]، وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ((من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجا م وتشبه م حتى يموت حشر معهم يوم القيامة))، فقد يحمل هذا على التشبه المطلق؛ فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شا هم فيه، فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو للمعصية: كان حكمه كذلك، وبكل حال فهو يقتضي تحريم التشبه م بعلة كونه تشبهاً"[4]، وعليه فإن من تشبه بقوم تشبهاً تاماً بحيث بنى ببلادهم وساكنهم وصنع ما يصنعونه في أعيادهم فإنه هو المقصود الأكبر ذا الحديث، وهو الذي عناه عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنه _، وعلى هذا فيكون التشبه م لا يخرج عن كونه معصية على أقل الأحوال، وقد يصل إلى درجة الكفر، ولعل المعنى الأخير هو الذي عناه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

ومن ذلك أيضاً ما رواه أبو داود عن الحجاج بن حسان[5] قال: دخلنا على أنس بن مالك، فحدثتني أختي المغيرة[6]، قالت: وأنت يومئذ غلام ولك قرنان أو قصتان[7]،

---

1 - ويوم النيروز والمهرجان: عيدان للكفار. انظر: المطلع على أبواب المقنع: ١/١٥٥.

(2) سنن البيهقي الكبرى: ٩/٢٣٤، قال ابن تيمية: "وروى بإسناد صحيح عن أبي أسامة حدثنا عون عن أبي المغيرة عن عبد الله ابن عمرو قال: ((من بنى ببلاد الأعاجم وصنع نيروزهم ومهرجا م وتشبه م حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة))" اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٢٠٠

(3) سورة: (المائدة: من الآية٥١).

4 - اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٢٧٠.

(5) "هو حجاج بن حسان القيسي، بصري، لا بأس به، روى عن أنس بن مالك"، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/٧٧، وقال ابن حجر: "حجاج بن حسان القيسي البصري، لا بأس به، من الخامسة"، تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/١٥٢

(6) هي: المغيرة بنت حسان التيمية، من التابعات، انظر: الثقات لابن حبان: ٥/٤٦٦.

7 - أي: من الشعر.

فمسح رأسك وبرك عليك وقال: ((احلقوا هذين أو قصوهما؛ فإن هذا زي اليهود))[1]، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "علل النهي عنهما؛ بأن ذلك زي اليهود؛ وتعليل النهي بعلة: يوجب أن تكون العلة مكروهة مطلوباً عدمها، فعلم أن زي اليهود حتى في الشعر مما يطلب عدمه، وهو المقصود"[(2)].

ومن ذلك ما ورد عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما أنه كره الصلاة في المحراب وقال: ((إنما كانت الكنائس فلا تشـبهوا بأهل الكتاب)) يعني أنه كره الصلاة في الطاق[3]، وعلل ذلك بمشا ة أهل الكتاب.

ومن ذلك أيضاً ما رواه أبو داود في سـننه عن ابن عمر أنه قال عن الرجل يصلي وهو مشبك يديه: ((تلك صلاة المغضوب عليهم))[4]، وهذا إفتاء من ابن عمـر رضـي الله عنهما ذه الكلمة التي لا تحتاج إلى مزيد بيان عند السلف؛ فقد كان مجرد نسبة أي فعـل عندهم إلى أفعال الكفار كفيل بتركه وتجنبه.

ومن ذلك قول ابن عباس منفراً من زخرفة المساجد وتزيـينها: ((لتزخرفنها[5] كما زخرفت اليهود والنصارى))[6]، "والحديث ظاهر في الكراهة أو التحريم لقول ابن عبـاس:

---

1 - أخرجه أبو داود في سـننه: ٨٤/٤، برقم: (٤١٩٧)، وضعـ ـفه الألباني في ضعيف سـنن أبي داود: ص: (٤١٣) برقم: (٩٠٠).

(2) اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٨٦/١.

3 - مسـند البزار: ٢١/٥، برقم: (١٥٧٧)، وقد صحح شيخ الإسلام ما روي عن ابن مسعود في ذلك، انظـر: اقتضاء الصراط المستقيم: ١٣٤/١، وقد يفسر بمعناه ما ورد عن ابن أبي الجعد، قال شيخ الإسلام: وعن عبيد بن أبي الجعد قال كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المسجد يعـني الطاقات، انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ١٣٣/١، وروى البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال: قـال رسـ ـول الله صلى الله عليه وسلم: ((اتقوا هذه المذابح يعني المحاريب)) سـنن البيهقي: ٤٣٩/٢.

4 - سـنن أبي داود السجستاني: ٢٦١/١، برقم: (٩٩٣)، صححه الألبـاني في صـحيح سـ ـنن أبي داود: ١٨٦/١، برقم: (٨٧٦).

5 - قال ابن حجر: " والزخرفة: الزينة وأصل الزخرف: الذهب، ثم اسـتعمل في كل مـا يتـزين بـه"، فـتح البـاري: ٥٤٠/١.

6 - أخرجه أبو داود في سننه: ١٢٢/١، برقم: (٤٤٨)، وقد صححه الألباني: صحيح سـ ـنن أبي داود: ٩٠/١، برقم: (٤٣١)، وقد روى ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((مـا أمرت بتشيـيد المساجد))،- والتشيـيد: رفع البناء وتطويله، انظر: فتح الباري: ٥٤٠/١، وسبل السلام: ١٥٨/١ -، قال بن عباس: لتزخرفنها كما زخرفتها اليهود والنصارى، صحيح ابن حبان: ٤٩٣/٤ برقم: (١٦١٥)، ورواه أبو داود في سـننه: ١٢٢/١، برقم: (٤٤٨)، وقال الشوكاني: "والحديث يدل على أن تشيـيد المساجد بدعة" نيل الأوطار: ١٥٧/٢، وقال رحمه الله في نفس الصفحة ـ بتصرف يسير ـ: "ومن جملة مـا عـول عليـه ا ـوزون للتزيـين: بأن السلف لم يحصل منهم الإنكار على من فعل ذلك، وبأنه بدعة مستحسـنة، وبأنه مرغب إلى المسجد،

((كما زخرفت اليهود والنصارى)) فإن التشـبه م محرم وذلك أنه ليس المقصود من بناء المساجد إلا أن تكن الناس من الحر والبرد وتزيـينها يشغل القلوب عن الخشوع الذي هو روح جسم العبادة"[1]، وهذا إنما قاله ابن عباس رضي الله عنه مما فهمه من أن هذه الأمـة سـوف تحذو حذو الأمم قبلها[2]، فذكر ذلك محذراً.

ومن ذلك ما ورد عن مسروق عن عائشة _ رضي الله عنها وأرضـاها _: أ ـا كرهت الاختصار[3] في الصلاة وقالت لا تشـبهوا باليهود[4]، فجعلت _ رضي الله عنها _ علة كراهتها للاختصار أن ذلك تشـبه باليهود، فنهت عنه.

ومن ذلك ما ورد عن عائشة _ رضي الله عنها وأرضاها _ حيث قال عبد الرحمن ابن القاسم[5]: كان القاسم يمشي بين يدي الجنازة ولا يقوم لها ويخبر عن عائشة قالـت: ((كان أهل الجاهلية يقومون لها يقولون إذا رأوها: كنت في أهلك ما أنت[6] مرتين))[1]، قال

وهذه حجج لا يعول عليها من له حظ من التوفيق، لا سـيما مع مقابلتها للأحاديث الدالة على أن التزيـين لـيس من أمر رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه نوع من المباهاة المحرمة وأنه من علامات الساعة، كما روي عن علي، وأنه من صنع اليهود والنصارى وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يحب مخالفتـهم ويرشـد إليهـا عمومـاً وخصوصاً".

(1) سبل السلام، للصنعاني: ١٥٨/١.

(2) قال الصنعاني: "كأنه فهمه من الأخبار النبوية من أن هذه الأمة حذو بني إسرائيل"، سبل السلام: ١٥٨/١

3 - و الاختصار والتخصر في الصلاة: وضع اليد على الخصر، انظر: المصباح المنير: ١٧٠/١.

4 - مصنف ابن أبي شيبة ٤٠٠/١، برقم: (٤٦٠٠).

(5) هو: عبدالرحمن بن القاسم بن محمد أبي بكر الصديق، أبو محمد القرشي التيمي المدني، انظر (رجـال صـحيح البخاري)، أو (الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد): ٤٥١/١

6 - قال ابن حجر في الفتح: "أي: يقولون ذلك مرتين وما موصولة، وبعض الصلة محذوف والتقـدير: كنـت في أهلك الذي كنت فيه، أي: الذي أنت فيه الآن كنت في الحياة مثله؛ لأ م كانوا لا يؤمنون بالبعث بل كانوا يعتقدون

ابن حجر: "ظاهره أن عائشة لم يبلغها أمر الشارع بالقيام[2] لها فرأت أن ذلك من الأمـور التي كانت في الجاهلية وقد جاء الإسلام بمخالفتهم"[3]، وقال النووي: "هـذا مـن جملـة الأحكام التي استدركتها عائشة على الصحابة لكن كان جانبهم فيها أرجح"[4]،وبغض النظر عن الحكم الشرعي للقيام، فإن عائشة _ رضي الله عنها لمـّا لم يبلغهـا الأمـر بالقيـام للجنازة، وكان المشركون يقومون لها: روت هذا الخبر في معرض النهي عـن مـشابهتهم، وهذا يبين موقفها الثابت _ رضي الله عنها _ من مشابهة الكافرين.

فبناء على ما سبق يتبين موقف الصحابة رضي الله عنهم جلياً من التشـبه بالكفار، ألا وهو التحريم عموماً، وتبعهم على ذلك سلف الأمة رحمهم الله، حيث أجمعوا على ترك التشـبه بالكفار، قال شيخ الإسلام: "وهذه القضايا في مظنة الاشتهار وما علمنا أحـداً خالف ما ذكرناه عن الصحابة رضي الله عنهم في الجملة، فعلم اتفـاقهم علـى كراهـة التشـبه بالكفار"[(5)]، وقد ذكر شيخ الإسلام ما يدل على إجماع أهل العلم على وجوب مخالفة الكفار وهو "ما ذكره عامة علماء الإسلام من المتقدمين والأئمة المتبوعين وأصحابهم في تعليل النهي عن أشياء بمخالفة الكفار، أو مخالفة النصارى أو مخالفة الأعاجم وهو أكثـر من أن يمكن استقصاؤه وما من أحد له أدنى نظر في الفقه إلا وقد بلغه من ذلك طائفة وهذا بعد التأمل والنظر يورث علماً ضرورياً باتفاق الأئمة على النهي عـن موافقـة الكفـار والأعاجم والأمر بمخالفتهم"[(6)]، فاعتبر تعليلهم لبعض المنهيات الشرعية بالتشـبه بالكفار

أن الروح إذا خرجت تطير طيراً، فإن كان ذلك من أهل الخير كان روحه من صالحي الطير، وإلا فبالعكس ويحتمـل أن يكون قولهم هذا دعاء للميت، ويحتمل أن تكون ما نافية ولفظ مرتين من تمام الكلام، أي: لا تكوني في أهلـك مرتين المرة الواحدة التي كنت فيهم انقضت ولست بعائدة إليهم مرة أخرى، ويحتمل أن تكون ما استفهامية أي كنت في أهلك شريفة فأي شيء أنت الآن، يقولون ذلك حزنا وتأسفاً عليه" فتح الباري: ١٥٢/٧

1 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٣٩٤/٣ برقم: (٣٦٢٥).

2 - ورد في الصحيحين:عن عامر بن ربيعة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا رأيتم الجنازة فقوموا حـتى تخلفكم))، أخرجه البخاري في صحيحه: ١ /٤٤٠ برقم: (١٢٤٥) ومسلم في صحيحه: ٦٥٩/٢ بـرقم: (٩٥٨)، ولكن روى مسلم نسخ هذا الأمر فقال رحمه الله: " باب نسخ القيام للجنازة" وروى بسـنده عن واقد بن عمـرو بن سعد بن معاذ أنه قال: رآني نافع بن جبير ونحن في جنازة قائماً وقد جلس ينتظر أن توضع الجنازة فقال لي: مـا يقيمك؟ فقلت: أنتظر أن توضع الجنازة لما يحدث أبو سعيد الخدري، فقال نافع: فإن مسعود بن الحكم حدثني عـن علي بن أبي طالب أنه قال: قام رسـول الله صلى الله عليه وسلم ثم قعد. انظر: صحيحه: ٢/ ٦٦١ برقم: (٩٦٢).

3 - فتح الباري: ١٥١/٧- ١٥٢

4 - نقله عنه ابن حجر في الفتح: ١٥٢/٧، ولم أجده في كتب النووي رحمهما الله.

(5) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٩٠/١

(6) اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٩١/١

دليلاً على أ م يرون تحريم التشـبه بالكفار[1]؛ فإن العالم إذا اعتبر الشيء علة لحكم: جعله علة لغيره، فكيف بالكثير من الأحكام الشرعية التي عللها أهل العلم بمخالفة الكفار.

1 - فإن الشيء إذا صار علةً لتحريم فعل محرم في الشرع، كانت العلة محرمة كذلك، كيف لا وهي سبب التحريم الأساسـي، فعلى سبيل المثال: تحريم الخمر لعلة الإسكار، ومن أجل هذه العلة حـرم في الشرع كل مسكر، فعلـم أن علة الإسكار محرمة ؛ لأ ا سبب النهي، وكذلك الأمر في التشـبه فهو علة عند الفقهاء للمنع مـن كـثير مـن الأفعال التي لم يمنعوا منها إلا لعلة التشـبه، فثبت كونه علة للتحريم، وما كان علة لمحرم فهو محرم من باب أولى.

الفصل الثالث

أثر التشبه بالكفار على العقيدة

تمهيد: -

إن نصوص الشرع جاءت بالأوامر لحكمة بالغة، ولم ينهانا الله جـل جلالـه ولا رسـوله صلى الله عليه وسلم عن فعل إلا لما يترتب عليه من الآثار الضارة في عاجل الأمر أو آجله، وهكذا جاء النهي عن التشـبه بالكفار في الكتاب والسـنة، وعلمنـا موقـف الصحابة من التشـبه فقد كانوا ينهون عنه وينأون عنه كما سبق بيانه، فما هـي الآثـار المترتبة على التشـبه بالكفار، والتي استطعنا أن نقف عليها لنفهم مقصود الشارع[1].

فمن تلك الآثار ما نص عليه الشرع من نتائج أفعال المتشـبهين علـى أنفـسهم، وذلك له علاقة بالآثار النفسـية أو الاجتماعية أو السـياسـية مما له شواهده في العـصر الحديث، الذي ظهرت فيه من آثار التشـبه ما لم يظهر من قبل؛ وما ذلك إلى لكثرة وقوع التشـبه في هذا العصر.

إن سـياق هذه الآثار وبيا ا وتفصيلها إنما هو لبيان حكمة الباري جل وعـلا في يه عن التشـبه بالكفار، مما له أكبر الأثر على نفس المتشـبه م، فيكون منفراً له عـن ذلك رادعاً له عن الوقوع في هذا المحظور فإن المتشـبه م قد يتـهاون بالمحـذور الـذي يرتكبه؛ بسبب قلة الوازع الديني أو ضعف قاعدة التسليم للنص عنده، ولكن ذكر الأثـر السـيء المترتب على الفعل قد يزيد أو ينشىء النفور من ذلك الفعل كما أن بيان آثـار هذه المخالفة على العقيدة وعلى الدين عموماً سـيربط بين هذه المخالفة ومخالفات اعتقادية

---

(1) إن طريقة المؤمن هي التسليم لنصوص الشرع، فلا يبحث عن الحكمة إلا من أجل العلم والتدبر، قال تعـالى: (وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذَا قَضى الله ورسولُه أمراً أنْ يكُونَ لَهم الْخيرةُ من أمرِهم ومن يعصِ الله ورسولَه فقَـد ضل ضلالاً مبيناً) (الأحزاب:٣٦)

جليلة أو مخالفات عملية خطيرة قد تقدح في مسلمات دينية _ كالولاء والبراء _ لا سبيل للجدل حولها، مما يضطر المسلم للتسليم بخطورة هذا الفعل ومن ثم الحذر منه، مع الأخذ في الاعتبار أنه كما أن للتشـبه بالكفار أثره الدنيوي المحسـوس فإن له من الآثار على تدين المسلم بالإسلام الشيء الذي لا يستهان به، بل كل فعل للتشـبه له أثره على الدين قبل أن يكون له أثر على المسـلمين في دنياهم، وسأعرض فيما يلي لبعض الأمثلة للآثار المترتبـة على التشـبه على هذا الأساس، وبالله التوفيق.

المبحث الأول: أثر التشبه بالكافرين في عقائدهم:

لقد جاءت السـنة بإلحاق من تشـبه بقوم بأولئك القوم وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: ((ومن تشـبه بقوم فهو منهم))[1] قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "فقد يحمل هذا على التشـبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شا بهم فيه فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك"[2]، وهنا لا نجد شيخ الإسلام يفرق بين ما هو تشـبه اعتقادي أو تشـبه عملي، وعلى هذا فإن ما كان من اعتقادات الكفار كفراً في ذاته كان التشـبه م فيه كفر كمن تشـبه م في معتقد فيه تكذيب للوحي مثلاً، كمن يرى رأيهم في أن الوحي ظاهرة تخيلية. وأما ما كان من اعتقادا م ولم يكن كفراً في ذاته كمن تشـبه م في اعتقاده بأن لمولد النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً خاصاً _ فإن ذلك مأخوذ من عقيدة النصارى بأن لمولد عيسى عليه الصلاة والسلام فضلاً خاصاً[3] _ فإن هذا النوع من الاعتقاد لا يعد كفراً مخرجاً من الملة، فلا يكون من تشـبه بالكفار في عقائدهم كافراً على الإطلاق، فيحتاج هذا إلى ضابط، ولم أجد في نصوص الشرع ضابط التشـبه المكفر رد التشـبه؛ فلزم أن نرد هذا النص[4] إلى النصوص الأخرى التي نعلم ا كفْر من

---

(1) سبق تخريجه، ص: (١٥).

(2) اقتضاء الصراط المستقيم: ٨٣/١

3 - انظر: مبحث الرهبانية والتصوف من نفس الرسالة: الباب الثاني الفصل الثاني.

4 - وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((ومن تشـبه بقوم فهو منهم)).

كفَر، وعلى هذا فلا يكون كافراً حتى يتشـبه م في ناقض من نواقض الإسلام[١]، أو تشبه م تشبهاً كلياً، في جميع شؤو م.

ومن التشـبه م في عقائدهم ما هو كفر: كمن اعتقد أن النبوة لم تنقطع بعد كما تعتقده بعض الفرق كالقاديانية[٢] وغيرها، وهو نفس اعتقاد اليهود بأن المسـيح لم يرسل بعد، أو اعتقد أن الله عز وجل لا داخل الكون ولا خارجه، وهو اعتقاد أهل وحدة الوجود[٣] تشـبهاً منهم بمتصوفة الهند، أو اعتقد أن أحداً يمكنه التصرف مع الله في خلقه ولو بشيء يسـير، كما يعتقده القبوريون في أوليائهم وهو اعتقاد مشركي العرب حيث كانوا يرون أن لآلهـتهم تصرفاً مع الله فهي _ في اعتقادهم _ تمرض أو تشفي أو تحمي أو تضر أو تنفع، أو اعتقد أن هدي غير النبي صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه كالذين يفضلون الأحكام الوضعية على حكم الإسلام، ويعتقدون صحة الحكم بالقوانين المستوردة من عندهم ويستحلون الحكم ا، فهذا يكفر ولو لم يحكم ا[4]، كمن يعتقد ما يعتقده

1 - للاستفادة: انظر: نواقض الإيمان للدكتور: عبد العزيز آل عبد اللطيف.

2 - القاديانية: حركة نشأت سـنة ١٩٠٠ م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، دف إبعـاد المسـلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام، انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٤١٦/١.

(3) "وحدة الوجود: عقيدة إلحادية هندية كما قال ا فلاسفة اليونان القدماء، وتبعهم عليها بعض المذاهب الفلسفية المعاصرة وغلاة الصوفية، تقوم هذه المقولة على الوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر، فالعالم بمـا فيه إنما هو التجلي الإلهي الدائم الذي كان ولا يزال، فالموجود واحد هو الله واجب الوجود الأزلي عن المخلوقـات، فكل شيء هو الله والاختلاف في الصور والصفات مع توحد في الذات، وهي بذلك امتداد لعقيدة الحلول وصـور مهذبة للإلحاد كما يقول شوبنهور. وقد تأثر بعقيدة وحدة الوجود الفلاسفة من أمثال برونو وأسبينوزا، ومن غـلاة الصوفية أمثال الحلاج وابن عربي وابن الفارض وغيرهم، متأثرين بعقائد البرهمية البوذية واليهودية والنصرانية المحرفة، وأقوال فلاسفة اليونان في هذا الجانب بالإضافة إلى عدد من العوامل الداخلية مثل: بعض الأصول المنحرفة للتـشيع، وفلسـفة الفارابي وابن سـينا، وكذلك بعض النظريات المنحرفة للمتصوفة الأوائل بالإضـافة إلى بعـض أصـول مصطلحات علماء الكلام مثل الوحدة والكثرة والذات. وإن أخطر ما تصل إليه هذه العقيدة القول بوحدة الأديان، وإسقاط التكاليف، وما يترتب عليها من تدمير للمسؤولية الفردية، والالتزام الأخلاقي، انطلاقاً من فكـرة الجـبر، والقول بعقيدة النور المحمدي والحقيقة المحمدية والإنسان الكامل. وبالتالي يعلم فساد المصطلحات التي تقول: الكل في واحد والواحد في الكل، أو تقول لا موجود إلا الله وأن جميع الممكنات مظاهر له. وقد رويت عن بعض المتـصوفة أقوال في هذا الصدد تشعر بالكفر والغثيان معاً، كما تلزم هذه العقيدة الفاسدة في وحدة الوجود القـول بروحانيـة الجزاء والقول بالحقيقة التي تسرى فيها الذات الإلهية"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٦٨/٢-١١٦٩

(4) قال شيخ الإسلام: "ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسـوله فهـو كـافر فمـن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر" منهاج السـنة: ١٣٠/٥

الكفار: أن إنفاذ حكم الله بقطع يد السارق، أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر: فإنه يكفر.

ولا نقول إنه كفر لأنه تشبه بهم في جانب العقيدة، بل لأمر آخر وهو أنه اشتمل على جحود ما أثبته الله تعالى؛ فإن من التشبه بالكافرين في عقائدهم ما لا يصل إلى درجة الكفر، كمن اعتقد جواز الاحتفال بمولد النبي ﷺ، فيكون من تشبههم فيما هو من عقائدهم التي ليست كفراً في ذاتها: ينطبق عليه كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك"[1]، فهنا في هذه الحالة لم يعد كونه معصية أو شعاراً للبدعة أو المعصية، والله أعلم.

وهذا الأثر من آثار التشبه بهم: هو أجل الآثار؛ فليس بعد الكفر والخروج من الملة ذنب، ولكنه وإن كان جلياً في حال التشبه بهم في ما هو كفر من عقائدهم أو عباداتهم، فإنه قد يحصل في التشبه فيما هو دون ذلك من خصائص الكفار على سبيل المآل؛ فإن الأمر يؤول إلى الكفر إذا لم يتم التوقف فيه عند حد معين؛ فإن كل أمر يتشبه المسلم بهم فيه يترك مكانه سنة متبعة من سنن الإسلام، وفي النهاية قد يؤول الأمر إلى استبدال الكفر بالإيمان.

ولذلك لما دأب بعض المنتسبين إلى الإسلام على التشبه بالكفار من اليهود والنصارى، ومن ورائهم الغوغاء من الناس أتباع كل ناعق: انسلوا من دين الله (الحنيفية السمحة) شيئاً فشيئاً، فإنه لما قام هؤلاء بمداهنة الكفار، وتركوا ما أوجب الله عليهم من البراءة من أعداء الله، وكراهيتهم، فتخلوا عن هذه الشعيرة المهمة من شعائر الإيمان، وتشبهوا بالكفار في كل صغيرة وكبيرة: آل بهم الأمر إلى تصحيح أديان هؤلاء الكفار، حيث نبتت نابتة في عصرنا الحديث تدعو إلى تصحيح أديان اليهود والنصارى، وتدعو إلى بناء مسجد إسلامي وكنيسة نصرانية ودير يهودي في حائط واحد، وطباعة القرآن الكريم المحفوظ بحفظ الله، مع التوراة والإنجيل ـ اللذين مستهما أيدي التحريف الآثمة ـ في غلاف واحد[٢].

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ٨٣/١

(2) وفي هذا الشأن صدرت فتوى شرعية، برقم: (١٩٤٠٢) في: ١٤١٨/١/٢٥هـ عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء برئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء (الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء) السعودية: تحذر من هذه الدعوى وتبين أنها تتضمن الكفر بالله، وتحرمها تحريماً شديداً، واللجنة التي أصدرت هذه الفتوى مكونة من سماحة الرئيس العام ومفتي عام المملكة العربية السعودية

وقد كانت رائحة هذه الدعوى (دعوى التقارب بين الأديان) تفوح من بعض المسلمين، والعجيب أنها صدرت ممن يظن بهم الخير والصلاح، يقول الشيخ حسن البنا _ رحمه الله _ حيث ألقى في: (١٩٤٦/٣/٥م) كلمة أمام اللجنة الأمريكية البريطانية التي كانت تجول حول العالم العربي بخصوص تمييع قضية فلسطين، والعمل على تهجير اليهود إليها، ألقى الشيخ البنا كلمته أمام هذه اللجنة باعتباره ممثلاً للحركة الإسلامية، جاء فيها: "الناحية التي سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية، إلا أن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة في العالم الغربي، فأريد أن أوضحها باختصار فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية؛ لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم، والإسلام شريعة إنسانية قبل أن تكون قومية، وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقاً"[1]، ويقول في مؤتمر صحفي عقد في: (١٩٤٨/٩/٥م) للاحتفال بمرور عشرين عاماً على إنشاء الجماعة: "وليست حركة الإخوان المسلمون موجهة ضد عقيدة من العقائد، أو دين من الأديان أو طائفة من الطوائف، إذ أن الشعور الذي يهيمن على نفوس القائمين بها أن القواعد الأساسية للرسالات جميعاً قد أصبحت مهددة الآن بالإلحادية، والإباحية وعلى الرجال المؤمنين بهذه الأديان أن يتكاتفوا ويوجهوا جهودهم إلى إنقاذ الإنسانية من هذين الخطرين الزاحفَين"[2].

"وقد تجددت الدعوة إلى وحدة الأديان[3] _ أو التقارب بين الأديان _ في السنوات الأخيرة، واتخذت أشكالاً مختلفة وتحت مسميات متعددة، منها:-

١. الدعوة إلى إقامة (صلاة روح القدس): وهي الصلاة المشتركة التي دعا إلى إقامتها البابا بولس في قرية (أسيس) بإيطاليا في يوم ١٩٨٦/١٠/٢٧م، واشترك فيها عدد من المسلمين إلى جانب اليهود والنصارى.

(الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز) _ رحمه الله _ رئيساً و(الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ نائباً) وعضوية كل من الشيخ د. بكر أبو زيد، و الشيخ د. صالح بن فوزان الفوزان.

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، محمود عبد الحليم: ٤٠٩/١-٤١٠، وانظر: جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد لوح، ص: (٢٣٨).

(2) في قافلة الإخوان المسلمون، عباس السيسي: ٢٦٢/١-٢٦٣، وانظر: جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد لوح، ص: (٢٣٩).

(3) وتعتبر قضية (وحدة الأديان) من تيارات العولمة في العصر الحديث، وأحد روافدها، وتختص بجانب عولمة الفكر، والعولمة: دعوة جديدة لإزالة مفهوم (الأمة) و(الدولة) وإلغاء الحدود بين (دار الإسلام) و(دار الكفر) وجمع الكفار والمسلمين تحت مفاهيم واحدة وراية واحدة تقودها العلمانية والعالمية لإطلاق الحريات، تحت شعارات حقوق الإنسان على الطريقة الغربية، ونشر الإباحية، وتثبيت جوهر المدنية الغربية، تحت شعار: (وحدة الأديان) أو (السلام العالمي)، وهذه دعاوى الصليبية واليهودية، والإسلام يقاومها ويعارضها، ولا يقبل منها شيئاً، انظر: العولمة وخصائص دار الإسلام ودار الكفر، دراسة فقهية مقارنة، د. عابد بن محمد السفياني، ص: (١٦١).

٢. الدعوة إلى عقد حوار (الوحدة الإبراهيمية)، وهو المؤتمر الذي دعا إلى عقده بمدينة قرطبة بإسبانيا (روجيه جارودي)، الفيلسوف الفرنسي المسلم[١]، وذلك بمناسبة افتتاح المعهد الذي أسسه (جارودي) لهذا الغرض، وسماه: (معهد قرطبة لوحدة الأديان)، ويهدف المعهد _ كما يقول مؤسسه _ إلى نشر تعاليم ونتائج الثقافات للأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام. وقد حضر هذا اللقاء عدد من المسلمين، وهم: روجيه جارودي، وعبد الهادي بو طالب، المدير العام لمنظمة الإيسيسكو، ومختار أمبو، الأمين العالم لليونسكو، والبروفسور عبد السلام، وهو قادياني يحمل جائزة نوبل للفيزياء، وبدر الدين أغاخان، وهو إسماعيلي.

٣. تأسيس جماعة: (مؤمنون متحدون)، وهي جماعة تسعى لإذابة الفوارق الدينية ومسخ الشخصيات، وتدعو إلى صلاة مشتركة تسمى: (صلاة روح القدس)، يمارسها كل المؤمنين بالله مهما كانت دياناتهم، كما يضعون نشيداً واحداً يردده الجميع يسمى: (نشيد الإله الواحد: رب وابن)"[٢].

٤. كما ظهر من يقول بأن الجنة ليست حكرا على المسلمين الموحدين وأن الدين المنجي عند الله ليس الإسلام وحده ! فيتساءل لم يعتقد أتباع كل دين أن الله يختصهم بالجنة ويذر غيرهم وأكثر الناس في النار؟ ثم يؤكد أن حقيقة الشرك هي العداء بين الأديان[٣].

ويلاحظ على هذه الدعوى في صياغا ا وشعارا ا المتنوعة أ ا تميل إلى جانب الديانة النصرانية أكثر من غيرها، مما يدل على أن التوجه إليها على ما فيه من إخلال بالعقيدة الإسلامية، فهو جري وراء التشبه بالكفار، وعند تطبيقه سيكون أكبر مثال لأثر التدرج في التشبه بالكفار، وأن التشبه م سيوصل إلى تصحيح أديا م يوماً ما، وذلك كفر بالإسلام؛ فإن الله عز وجل ذكر في كتابه **تكفير النصارى الذين ادعوا له البنوة أو التعدد**، فقال: (لَقَد كَفَرَ الذين قَالُوا إن الله هو الْمسيح ابن مريم)[٤]، وقال: (لَقَد كَفَرَ الذين قَالُوا إن الله هو الْمسيح ابن مريم)[٥]، وقال: (لَقَد كَفَرَ الذين قَالُوا إن الله ثَالثُ ثَلاثَة وما من إله إلا إله واحد وإنْ لَم ينتهوا عما يقُولُونَ لَيمسن الذين كَفَروا

(1) والحقيقة أن هذا الرجل قد تلفظ بالشهادتين ولكنه لم يدخل إلى الإسلام الحقيقي؛ فلا يعد مسلماً حقيقياً.
(2) انظر: التدابير الواقية من التشبه بالكفار، د. عثمان دوكري: ١٥٧/١-١٥٨.
(3) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص: (١٤٠).
(4) سورة: (المائدة: من الآية١٧).
(5) سورة: (المائدة: من الآية٧٢).

منهم عذَاب أليم)[١]. **كما ذكر كفر اليهود وأ م ملعونين** فقال: (لُعن الذين كفَروا مـن بنِي إِسرائيلَ علَى لسان داود وعيسى ابنِ مريم ذَلك بِما عصوا وكَانوا يعتدونَ)[٢]، **كمـا أخبر عنهم أ م ادعوا** لله **الابن**، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قال تعالى: (وقَالَت الْيهود عزير ابن الله وقَالَت النصارى الْمسـيح ابن الله ذَلك قَولُهم بِأَفْواههم يضاهئُونَ قَولَ الذين كَفَروا من قَبلُ قَاتلَهم الله أَنى يؤفَكُونَ)[٣]، **وأخبر عنهم أ م افتروا علـى الله الكـذب ووصفوه بالنقائص** تجرأً **عليه، نسأل الله السلامة والعافية، كما وصفهم** في **نفس الآيـة بأ م يؤججون الحروب والفتن** في **الأرض** فقال: (وقَالَت الْيهود يد الله مغلُولَـةٌ غُلَّـت أَيديهِم ولُعنوا بِما قَالُوا بلْ يداه مبسـوطَتان ينفق كَيف يشاءُ ولَيزِيدن كَثيراً منهم ما أُنزِلَ إِلَيك من ربك طُغياناً وكُفْراً وأَلْقَينا بينهم الْعداوةَ والْبغضاءَ إِلَى يومِ الْقيامة كُلَّما أَوقَدوا ناراً للْحربِ أَطْفَأَها الله ويسعونَ في الأَرضِ فَساداً والله لا يحب الْمفْسِدين)[٤]، **ويبـ ـن أن من طبيعتهم قتل الأنبياء**، وتكذيبهم، فقال: (لَقَد أَخذْنا ميثَاق بنِي إِسرائيلَ وأَرسلْنا إِلَيهِم رسلاً كُلَّما جاءَهم رسـولٌ بِما لا تهوى أَنفُسهم فَرِيقاً كَذبوا وفَرِيقاً يقْتلُونَ)[5]، وقـال: (وإِذْ قَالَ عيسى ابن مريم يا بنِي إِسرائيلَ إِني رسـولُ الله إِلَيكُم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً بِرسـولٍ يأْتي من بعدي اسمه أَحمد فَلَما جاءَهم بِالْبينات قَالُوا هذَا سحر مبِين)[٦]، **وحذرنا** ﷻ **من مكرهم** فقال: (لَتجِدن أَشد الناسِ عداوةً للذين آمنوا الْيهـود والذين أَشركُوا)[٧].

فبحجة التقريب بين الأديان رأوا إزالة الفوارق بين الأديان والله تعالى يقرر ويـدعونا أن نقول لهم إن أرادوا ذلك: تعالوا جميعاً لنوحد الله التوحيد الصحيح[8]، قال تعالى: (قُلْ يا أَهلَ الْكتابِ تعالَوا إِلَى كَلمة سواءٍ بيننا وبينكُم أَلا نعبد إِلا الله ولا نشرِك بِه شـيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أَرباباً من دون الله فَإِنْ تولَّوا فَقُولُوا اشهدوا بِأَنا مسلمونَ)[9]، فإن تولوا وظلوا على كفرهم، فقولوا لهم: نحن مسلمون، ومفهوم ذلك أنكم يا من تركتم التوحيـد

(1) سـورة: (المائدة:٧٣) .
(2) سـورة: (المائدة:٧٨).
(3) سـورة: (التوبة:٣٠).
(4) سـورة: (المائدة:٦٤).
(5) سـورة: (المائدة:٧٠).
(6) سـورة: (الصف:٦).
(7) سـورة: (المائدة: من الآية٨٢).
(8) وهو توحيد الله مع تصديق جميع رسله من أولهم إلى آخرهم، وعدم الكفر بواحد منهم.
(9) سـورة: (آل عمران:٦٤).

الخالص إلى الشرك: كافرون بعيدون كل البعد عن الله، كما قال تعالى: (لَكُم دينكُم ولي دين)[1]، وقال: (إن الذين كفَروا من أهل الْكتابِ والْمشرِكين في نارِ جهنم خالدين فيها أُولَئك هم شر الْبرِية)[2].

فأنى لمؤمن يؤمن بالقرآن أن يتساهل معهم بتصحيح هذه العقائد الفاسدة، بعد هذا البيان التفصيلي عن عقائد أهل الكتاب وضلالهم، فضلاً عن أن يداهنهم في التخلي عن مسلمات دينية هي من أصول دين الإسلام، الإسلام يقول: اليهود والنصارى على ضلال مبين، وهذا يقول: هم على حق والواجب أن نعترف بأنهم على ملة إبراهيمية صحيحة!! لا يقول ذلك إلا من انخرط في سلكهم فصار منهم: (يا أَيها الذين آمنوا لا تتخذُوا الْيهود والنصارى أَولياءَ بعضهم أَولياءُ بعضٍ ومن يتولهم منكُم فَإِنه منهم إِن الله لا يهدي الْقَوم الظالمين)[٣]، وقال تعالى: (ما كَانَ إِبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولَكن كَانَ حنِيفاً مسلماً وما كَانَ من الْمشرِكين)[٤].

وماذا يريد أعداء الله من المسلمين أكثر من ذلك وهو الدخول في مللهم المنحرفة، قال تعالى: (ودوا لَو تكْفُرونَ كَما كَفَروا فَتكُونونَ سواءً)[٥]، وقال: (ولَن ترضى عنك الْيهود ولا النصارى حتى تتبِع ملتهم قُلْ إِن هدى الله هو الْهدى ولَئنِ اتبعت أَهواءَهم بعد الذي جاءَك من الْعلْمِ ما لَك من الله من ولي ولا نصيرٍ)[٦]، نعم إن هدى الله هو الهدى وهو الإسلام لا غير، ومن قال غير ذلك ومن اتبع أهواءهم بعد ما جاءته البينات، فهو بعيد عن ولاية الله ونصرته، ولن تنفعه موالاته للكفار.

كل ذلك أثر من آثار التشبه بالكفار والتدرج في مضاهاتهم في كل صغيرة وكبيرة، أوصل أصحابه إلى الانخراط في أديان الكفار والحكم بصحتها؛ فإن الزاوية الضيقة قد لا يكون لها ذكر في أول الأمر، ولكنها إذا سارت وامتدت إلى أميال: اتسعت حتى يصعب تداركها، والله المستعان.

---

(1) سورة: (الكافرون:٦).
(2) سورة: (البينة:٦).
(3) سورة: (المائدة:٥١).
(4) سورة: (آل عمران:٦٧).
(5) سورة: (النساء: من الآية٨٩).
(6) سورة: (البقرة:١٢٠).

المبحث الثاني: أثر التشبه بالكفار في أعمالهم:

التشـبه بالكفار تدرج لاندراس الدين وذوبانه في أديان الكفار الأخرى(1)، وقد يوصل في النهاية إلى الانسلاخ من الدين بالكلية(٢).

إذا تأملنا كلام العلماء في أثر التشـبه بالكافرين، من جهة الحكم على من عمل ما يتشـبه به بالكفار نجدهم يعلقون الحكم على ما قام بقلب هذا المتشـبه من عقيدة[٣] أو استحسان دينهم الباطل[٤] أو المحبة[5] فإن محبة غير الله كمحبة الله تجعله نداً لله كما قال تعالى: (ومن الناس من يتخذُ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله

(1) وفي ذلك قال شيخ الإسلام في معرض حديثه عن عمرو بن لحي الخزاعي الذي تشـبه بالمشـركين ونـصب الأنصاب حول الكعبة: "فقد تبين لك أن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفـر والمعاصـي: التـشـبه بالكافرين" اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٥٢/١

(2) انظر: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسـية، لعبد الله بن حمد الشبانة، ص: (١٥٦).

3 - انظر كلام القاضي حسـين في كتاب الغزي حسـن التنبه، ١١٤/٥ب

4 - انظر: التشـبه المنهي عنه ص: (٥٩)، لجميل المطيري.

5 - انظر: الولاء والبراء، للشيخ محمد بن سعيد القحطاني، ص: (٢٦٢).

ولَو يرى الذين ظَلَموا إذْ يرونَ الْعذَاب أن الْقُوةَ لله جميعاً وأن الله شديد الْعذَابِ)[١]، فالقاعدة: أن الفعل إذا دل على انخرام هذا الأصل فهو كفر[٢].

كما أن التشـبه الكلي بالمشـركين يصل إلى درجة الكفر لأنه بلا شك ملابس لما هو شرك من أعمالهم، وقد يكفر بعمل واحد من أعمال المشـركين إذا كان متشـبهاً م ومنحازاً إليهم وقلبه متشوف لهم ولما عندهم ويظن بأن ما عندهم خير من شرع الله فهو ـذا الاعتقاد يكفر لأنه لم يكتف بمجرد التشـبه بل اعتقد ما يوجب كفره[٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _: "فقد يحمل هذا[٤] على التشـبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شا هم فيه فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك"[(5)]، فإذا كان الاعتقاد الذي صاحب فعل التشـبه م كفراً فيكون ذلك الفعل كفراً كذلك، ولو لم يكن كفراً في ذاته؛ لمصاحبته لما هو كفر.

فلم يحمله شيخ الإسلام على التشـبه م في شيء من خصائصهم التي ليست بكفر في حد ذا ا؛ فإنه لم يكفر من فعله، بل حمله إما على التشـبه المطلق، فيكون كافراً مثلهم لأنه صار نظيراً لهم، أو _ حمله _ على أنه يصير منهم في الفعل الذي تشـبه م فيه، فإن كان كفراً فقد شاركهم في الكفر وإن كان معصية فإنه قد باء بإثم التشـبه والمعصية، وإن لم يكن في حد ذاته منهياً عنه فإنه قد تحمل إثم التشـبه؛ لأن التشـبه م محرم ولو لم يكن معصية لو تفرد عن كونه تشـبهاً.

ويؤيد هذا ما قاله شيخ الإسلام: "وهذا الحديث[(6)] أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشـبه م وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشـبه م كما في قوله: (ومن يتولهم منكُم فَإنه منهم)"[٧]، فبين أن الحديث حكمه مشابه للحكم في الآية، فليس كل من تولى الكفار

1 - سورة البقرة، الآية: (١٦٥).
2 - انظر: التشـبه المنهي عنه، لجميل المطيري ص: (٦٠).
3 - راجع أثر التشـبه بالكافرين في عقائدهم.
4 - وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((ومن تشـبه بقوم فهو منهم)).
(5) اقتضاء الصراط المستقيم: ٨٣/١
(6) يقصد حديث: ((ومن تشـبه بقوم فهو منهم)).
7 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧٠/١

كان كافراً عند العلماء بمجرد أن الله جعل التولي لهم من دواعي كونه منهم[١]، ولكنه لا يسلم من الوقوع في المحرم؛ فإن أقل أحوال الحديث أن يقتضي تحريم التشبه بهم.

ومن آثار التشبه بالكافرين في أعمالهم:

- **أن ذلك يقود إلى المودة لهم،** قال شيخ الإسلام رحمه الله: "والموالاة والموادة وإن كانت متعلقة بالقلب، لكن المخالفة في الظاهر أهون على المؤمن من مقاطعة الكافرين ومباينتهم ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع ما"[٢]، فمشاركتهم في فعلهم الظاهر إما أن تكون سبباً موصلاً إلى المودة لهم وذريعة لذلك، وإما أن تكون عائقاً _ ولو خفيفاً _ لترك موالاتهم وموادتهم بالقلب، "ذلك أن التقليد بمختلف صوره يقود إلى محبة المقلد _ شاء المقلد أم أبى _ ولعل ذلك ما يفسر لنا حرص الإسلام الشديد على منع تشبه المسلمين بأعدائهم، أو تقليدهم لهم؛ فإن السبب الرئيسي في ذلك أن يبقى الجدار العدائي الفاصل بين المعسكرين قائماً صلباً فلا يتأثر موقف المسلم المتصل باعتزازه بما عنده ورفضه لما عند أعدائه أبداً ولم يضعف ولا يلين"[٣].
- **ومودة الكفار سبب فادح** في **الإيمان بالله واليوم الآخر،** كما أن مجانبتهم وعدم مودتهم من دلائل الإيمان ومن أسباب التأييد من الله، قال تعالى: (لا تجِد قَوماً يؤمنونَ بِالله والْيومِ الآخرِ يوادونَ من حاد الله ورسولَه ولَو كَانوا آباءَهم أَو أَبناءَهم أَو إِخوانهم أَو عشيرتهم أُولَئك كَتب في قُلُوبِهم الإِيمانَ وأَيدهم بِروحٍ منه ويدخلُهم جنات تجري من تحتها الأَنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه)[٤].

وكما أن التشبه بالكفار يدل على المودة الظاهرة لهم فإن المودة من أشكال الموالاة لهم[٥]، وقد حذرنا الله تبارك وتعالى من مولاة الكفار، فقال: (يا أَيها الذين آمنوا لا تتولوا قَوماً غَضب الله علَيهم)[٦]، ولقد سخط الله على بني إسرائيل لما تولوا الكفار: (ترى

---

1 - كما في قصة الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، الذي حصل منه نوع موالاة للكفار في فتح مكة، فلم يحكم النبي ﷺ بكفره، انظر صحيح البخاري: ١١٢٠/٣، برقم: (٢٩١٥).

2 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٩/١

(3) انظر: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، لعبد الله بن حمد الشبانة، ص: (١٥٦).

(4) سورة (المجادلة: من الآية٢٢).

(5) فإن الولاء معناه: النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً. انظر: الولاء والبراء في الإسلام، للشيخ محمد بن سعيد القحطاني، ص: (٩٠).

(6) سورة (الممتحنة: من الآية١٣).

كَثيراً منهم يتولونَ الذين كَفَروا لَبِئْس ما قَدمت لَهم أَنفُسهم أَنْ سخطَ الله علَيهم وفي الْعذَابِ هم خالدونَ)(١)، فالتشبه بالكفار قد يؤدي في النهاية إلى سخط الله ﷻ.

كما أن الركون إلى الكافرين ومحبتهم بالتشبه م في أفعالهم **سبب لفوات اتصاف المؤمنين بمحبة الله لهم؛** فقد قال تعالى: (يا أَيها الذين آمنوا من يرتد منكُم عن دينِه فَسوف يأْتي الله بِقَومٍ يحبهم ويحبونه أَذلة علَى الْمؤمنِين أَعزة علَى الْكَافرِين يجاهدونَ في سبِيلِ الله ولا يخافُونَ لَومةَ لائمٍ ذَلك فَضلُ الله يؤتيه من يشاءُ والله واسع عليم) (المائدة:٥٤).

- كما أن ذلك **يقود إلى موافقة ما** في **الأخلاق والهدي الباطن،** قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلاً يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه مقتضياً لذلك، إلا أن يمنعه من ذلك مانع، وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا أو ظاهراً أتم وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد ومنها أن مشاركتهم في الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التميز ظاهراً بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين"(2)، "ذلك أن المحاكاة في الظاهر تؤدي إلى المحاكاة في الباطن ولو بعد حين، فالتقليد صلة روحية بين المقلد والمقلد، ووساطة انتقال لمعتقداته وأفكاره و(أيديولوجياته) إليه، إما بشكل مباشر وعنيف ودفعة واحدة كما حدث في تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك(٣)، وإما بشكل تدريجي سريع أو بطيء كما يحدث في كل زمان ومكان بين كل مقلد ومقلد"(٤).

- **كما أن ذلك يوجب الدخول** في **ما دخل فيه أهل الغضب والضلال من صفات توجب** في **النهاية مشاركتهم** في **الغضب والضلال** مما يكون من نتائج أفعالهم فعن

(1) سورة (المائدة: ٨٠).

(2) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٩٤/١

(3) هو: أول وأكبر دعاة العلمانية في تركيا، وأول رئيس للجمهورية التركية، وقد عمل على تغريب الدولة العثمانية التركية ومسخ هويتها الإسلامية جرياً وراء اللحاق بركب التقدم والحضارة انظر: الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (٩٧)، (١١٨).

(4) انظر: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، لعبد الله بن حمد الشبانة، ص: (١٥٦).

عروة عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا ومن يكلم فيها رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسـول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((أتشفع في حد من حدود الله)) ثم قام فاختطب[1] ثم قال: ((إنما أهلك الذين قبلكم أ م كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[2]، فمن شاركهم في هذه الصفة _ وهي التفريق في الحدود بين الشريف والضعيف _ فقد شاركهم في الهلاك الذي وقعوا فيه.

كما أ م لما شددو**ا** على أنفسهم كان ذلك سبباً لتشديد الله عليهم إما قدراً أو شرعاً، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال إن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار (ورهبانِيةً ابتدعوها ما كَتبناها علَيهم)[(3)]))[4]، فمن تشـبه م في هذا الفعل _ وهو التشديد على النفس _ فهو جدير بمشاركتهم في عقابه وهو تشديد الله عليه، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وفيه أيضاً تنبيه على أن التشديد على النفس ابتداءً يكون سبباً لتشديد آخر يفعله الله إما بالشرع وإما بالقدر فأما بالشرع فمثل ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخافه في زمانه من زيادة إيجاب أو تحريم كنحو ما خافه لما اجتمعوا لصلاة التراويح معه ولما كانوا يسألون عن أشياء لم تحرم، ومثل أن من نذر شيئاً من الطاعات وجب عليه فعله وهو منهي عن نفس عقد النذر وكذلك الكفارات الواجبة بأسباب، وأما القدر فكثيراً ما قد رأينا وسمعنا من كان يتنطع في أشياء فيبتلى أيضاً بأسباب تشدد الأمور عليه في الإيجاب والتحريم مثل كثير من الموسـوسـين في الطهارات إذا زادوا على المشروع ابتلوا بأسباب توجب حقيقة عليهم أشياء فيها عظيم مشقة ومضرة، وهذا المعنى الذي دل عليه الحديث موافق لما قدمناه في قوله تعالى: (ويضع عنهم إصرهم والأَغْلالَ التي كَانت علَيهم)[5] من أن ذلك يقتضي كراهة موافقتهم في الآصار والأغلال"[6]،

1 - أي قام خطيباً.

2 - أخرجه البخاري في صحيحه: ٣ /١٢٨٢، برقم: (3288)، وأخرجـه مـسلم في صـحيحه: ١٣١٥/٣، برقـم: (1688).

(3) سـورة: (الحديد: من الآية٢٧).

4- أخرجه أبو داود في سـننه: ٢٧٦/٤ برقم: (4904)، وحسـنه الألباني: انظر: غاية المرام: ص: (١٤٠)، برقم: (٢٠٧).

5 - الأعراف: ١٥٧

6 - الاقتضاء ٣٢٤/١

فمن تشـبه م في واحد من أفعالهم _ كالتشدد في الدين _ لحقته كل تلك الآصار والأغلال التي لحقتهم، وهذا إنما هو مثال، وكذلك سائر أفعالهم التي هي من خصائصهم لا يأمن المسلم على نفسه من عقاب الله الذي وقع عليهم أن يقع عليه.

- **والتشـبه بأعمال الكفار الظاهرة من علامات اندراس دين الله، والعكس صحيح**:

فإن مخالفتهم من عوامل ظهور دين الإسلام وتميزه عن الأديان الباطلة، فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر لأن اليهود والنصارى يؤخرون))[1]، فربط النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهور الدين ومخالفة اليهود والنصارى، وجعل ظهور الدين معلقاً بمخالفتهم ومباينـتهم، ومفهومه أن خفاء الدين واندراسه متعلق بإظهار مشا تهم، فإذا كان التشـبه م يساهم في فقدان الدين وعدم ظهوره[2] وجبت مخالفتهم بكل حال.

ومن التشبه بالكافرين في أعمالهم: مشا تهم في زيهم وطريقة معيشتهم، مما لا يعد ذا مصلحة معتبرة شرعاً، ومن أمثلة التشبه م في ما يختصون به في الجانب العملي: اعتماد التاريخ الميلادي بدل التاريخ الهجري _ كما هو حال معظم الدول في العالم الإسلامي اليوم _ مما أدى إلى ضياع الصبغة الإسلامية عن التاريخ، ومما أدى _ في أحيان كثيرة _ إلى رؤية الوقائع التاريخية بمنظار غير إسلامي، لا سيما وأن التاريخ الميلادي تنصب فكرته على ميلاد المسيح عيسى بن مريم ﷺ، وليس لذلك أي علاقة بالدين، فأي فائدة يرجوها الناس من معرفة ميلاد النبي إذا لم يكونوا على بصيرة مما جاء به، هذا إذا ثبت أن ميلاده كان في التأريخ الذي حدده النصارى، بخلاف التأريخ الهجري الذي أرخ به عمر بن الخطاب ﷺ، فإنه يحمل في طياته تأريخ ملحمة النصر ودولة الفتح والبناء، إنه تاريخ بداية الدولة الإسلامية، إضافة إلى كون هذا التاريخ هو من سنة هذا الخليفة الراشد ﷺ وأرضاه.

1 - سـنن أبي داود: ٣٠٥/٢، برقم: (٢٣٥٢)، ومسـند أحمد: ٤٥٠/٢، برقم: (٩٨٠٩) وحسـنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود: ٤٤٢/٢، برقم: (٢٠٦٣)

(2) انظر: تسامح الغرب مع المسـلمين في العصـر الحاضر، تأليـف: عبد اللطيف بن إبـراهيم الحـسـين، ص: (١٤٦)، فقد ذكر بعض الآثار التي تبين أن التشـبه م من علامات اندراس دين الله.

الباب الثاني

مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث

تمهيد

لم يتخذ التشـبه بالكفار بعد القرون المفضلة وقبيل العصر الحديث مظهراً عامـاً لدى المسـلمين؛ وذلك لقرب عهد السلف الصالح ـ رحمهـم الله ـ ولظهـور الـدول الإسلامية بشكل عام على دول الكفر، مما يشكل أنفة من التشـبه بالكفار لـدى عامـة المسـلمين، وما كان في تلك العصور من مظاهر التشـبه بالكفار بـشكل عـام كـان مسبوكاً في قالب إسلامي، وإن كان لا يزال مظهراً من مظاهر التشـبه بالكفار، كانتشار علم الكلام الذي اعتمد على الفلسـفة الإغريقية ثم صبغ بالصبغة الإسلامية وإن كـان لم يزل معلماً من معالم التشـبه بالكافرين.

بدأ دخول الفلسـفة إلى بلاد المسـلمين إبان الحكم العباسـي حـين ترجمـت الكتب الإغريقية في عهد المأمون وكان لها أكبر الأثر في صياغة قواعد للوصول إلى العقائد تختلف عن الطرق الإسلامية الأصيلة مما أدخل إلى تصور العقيدة الإسلامية كثيراً من الغبش وعدم الوضوح، فباتت عقائد الناس في اضطراب واختلاف، وكثرت الفـرق الكلاميـة وانتشرت في بلاد المسـلمين، ولكن الله عز وجل قيض لها من يكشف زيفها، من علمـاء المسلمين من السلف الصالح في القرون الأولى، ثم كان لمدرسة شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في القرن الثامن أثر واضح في التصدي لتلك العقائد المبتدعة.

وأما في نظام الحكم فقد كانت الشريعة الإسلامية مطبقة في تلك الآونة بـشكل عام، وما كان من مخالفة لها لا يعدو أن يكون تبعاً لأهواء شخصية تزول بزوالهـا أو زوال أصحا ا، إلا ما كان من تحكيم للياسق، وكانت فيه أحكام تخالف الـشريعة الإسـلامية، ولكن تطبيق ذلك القانون لم يتعد تلك المرحلة من التاريخ، كما لم يتعد البقعة التي تأثرت بحكم المغول.

وكان للشيعة والصوفية في ابة القرون المفضلة وما بعدها أثر كبير في إدخال عقائد الأمم الكافرة.

هذا وإن الناظر في البدع عموماً يجد أن سببها الأساسـي هو الاستمداد من مناهج كفرية، لا صلة لها بالكتاب والسـنة، فمعظم البدع ضاربة أطنا ا في جذور عقائد الأمم الغابرة ومناهجهم وأعمالهم، قال شيخ الإسلام بعد سـياق قصة عمرو بن لحي الخزاعي: "فقد تبين لك أن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي: التشـبه بالكافرين"(1).

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٥٢/١

بل كل فرقة من الفرق الإسلامية الضالة، وجودها في حد ذاته هو شكل من أشكال التشـبه باليهود والنصارى، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة _ يعني الأهواء _ كلهم في النار إلا واحدة وهي الجماعة))[1]، فافتراق أهل الأهواء من أمة الإسلام فيه مشا ة لافتراق أهل الكتابين.

كل ذلك يدل دلالة واضحة على خطورة البدع وأ ا سبب لافتراق الأمة ومشا ة الأمم الكافرة.

يؤيد ذلك قوله تعالى: (كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[2] فالخوض في الشريعة بلا علم من مضاهاة الأمم السابقة التي ينا عن التشـبه ا، و ذا تكون كل تلك البدع سـواءً كانت مأخوذة من الكفار أم لا، هي نوع من أنواع التشـبه بالمشـركين، والدخول في ذلك دخولاً كاملاً يوجب حبوط الأعمال في الدنيا والآخرة، والعياذ بالله.

قال ابن كثير في تفسـير قوله ﷻ: (كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[3]: (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) أي في الكذب والباطل (أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأ ا فاسدة (فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) لأ م لم يحصل لهم عليها ثواب، قال ابن جرير عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: (كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة (كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا م لا أعلم إلا أنه قال: ((والذي نفسـي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم حجر ضب لدخلتموه)) قال رسـول الله صلى الله

(1) أخرجه سـنن أبي داود: ١٩٧/٤، برقم: (٤٥٩٦)، وابن ماجه: ١٣٢٢/٢، بـرقم: (٣٩٩٢)، وسـنن الدارمي: ٣١٤/٢، برقم: (٢٥١٨)، ومسـند الإمام أحمد ١٠٢/٤، وصححه الألباني في صحيح سـنن ابن ماجه: ٣٦٤/٢، برقم: (٣٢٢٦).

(2) سـورة (التوبة:٦٩).

(3) سـورة (التوبة:٦٩).

عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)). قالوا ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب، قال: ((فمن))[1]، قال أبو هريرة: الخلاق: الدين (وخضتم كالذي خاضوا) قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال فهل الناس إلا هم؟ وهذا الحديث له شاهد في الصحيح"[٢].

يقول الشيخ عبد الرؤوف المناوي[٣] _ متحدثاً عن الفترة التي عاشها وما قبلها _ يقول عن أوضاع بعض المسلمين: "فقد اتبع كثير من أمته سنن فارس في شيمهم ومراكبهم وملابسهم وإقامة شعارهم في الحروب وغيرها وأهل الكتابين في زخرفة المساجد[٤] وتعظيم القبور[٥] حتى كاد أن يعبدها العوام وقبول الرشا وإقامة الحدود على الضعفاء دون الأقوياء وترك العمل يوم الجمعة والتسليم بالأصابع وعدم عيادة المريض يوم السبت والسرور بخميس البيض[6] وأن الحائض لا تمس عجيناً ذلك مما هو أشنع وأبشع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم مبالغة في الاتباع فإذا اقتصروا في الذي ابتدعوه فستقتصرون وإن بسطوا فستبسطوا حتى لو بلغوا إلى غاية لبلغتموها حتى كانت تقتل أنبياءها فلما عصم الله رسوله قتلوا خلفاءه تحقيقاً لصدق الرسولﷺ"[٧].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٢٧٤/٣، برقم: (٣٢٦٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه: ٢٠٥٤/٤، برقم: (٢٦٦٩).

(2) انظر: ابن كثير ٣٥٢/٢.

(3) توفي سنة: (١٠٣٠هـ)، انظر: كشف الظنون: ٥٦٠/١.

(4) يقول د. طاهر مظفر العميد: " لقد مر جامع القيروان بمرحلتين فيما يتعلق بالزخرفة تعكس هاتان المرحلتان مدى الثبات على المسلك القويم حيال زخرفة المساجد التي ى النبي صلى الله عليه وسلم عنها، العصر الأول: يمتاز بغلبة الفراغ. والعصر الثاني يشتهر بكراهيته. وتتكون المؤثرات الزخرفية في هذه الفترة الثانية من التناسب والاختلاف بين المسطحات. أي أن عناصرها تستخلص من تجويفات. وبروز. وفوارغ ومنحوتات"... إلى آخره، انظر: آثار المغرب والأندلس، ص: (٧٨).

٥ - وكان للتوجهات الصوفية في الدولة العثمانية أكبر الأثر في انتشار الأضرحة في العالم الإسلامي، انظر: البيان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ، مقال بعنوان: (القبور والأضرحة دراسة وتقويم) الأضرحة في العالم الإسلامي مشاهد متفرقة.

6 - وهو عيد نصراني يصبغون فيه البيض، ويهدونه، انظر: تشبيه الخسيس بأهل الخميس، للذهبي، ص: (٢٣-٢٩-٤٧).

(7) انظر: فيض القدير ٢٦١/٥.

بداية العصر الحديث:

وأما بالنسبة لتحديد بداية العصر الحديث فيرى عدد كبير من الباحثين أنه يـبدأ بانتـهاء العصور الوسطى[1] وبداية عصر النهضة الحديثة[٢] بالنسبة لأوربا، ويؤرخون لبداية العصر الحديث تحديداً بفتح القسطنطينية، على يد محمد الفاتح، فقد كان لفتح القسطنطينية أثـر كبير في تغيير مجرى التاريخ، يقول أحد الباحثين في هذا ا ال: "منذ انتهى العصر الوسيط بدأ العصر الحديث مع فترة انتقالية بينهما تضاف لرصيد التاريخ الحديث هي مـا يطلـق عليها: (عصر النهضة)، وما زلنا نعيش جميعاً هذا العصر. ويـبدأ العصر الحديث بإجمـاع عدد كبير من المؤرخين منذ سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح سـنة: (١٤٥٣م)، ذلك الحدث الرهيب الذي قَرعت من أجله الكنائس أجراسها، ولقد كان لطبيعـة فـتح القسطنطينية ما يؤكد ذلك. وأحداث التاريخ، كما نؤكد دائماً، لا تموت وإنمـا هـي في الضمائر والقلوب والشعور واللاشعور، تؤثر في الإنسان والحضارة، وتحرك المشاعر واعيـة وغير واعية. لقد ظهر الجيش العثماني أمام أسوار القسطنطينية تحوطـه دعـوات العلمـاء وابتهالا م، وكانت الروح الدينية غالبة على الجند الذين كانوا يعتقدون أ م يؤدون واجباً مقدساً، ولقد كانت المعارك تبدأ بصلاة السلطان، وكان الجيش كلـه يـصلي، ورفـض

(1) تعتبر العصور الوسطى هي العصور التي تمتد ما بين العصر القديم والعصر الحديث، وتسمى لدى الأوروبـيين: عصور الظلمات أو العصور المظلمة، وتمتد ما بين القرن الخامس الميلادي إلى القرن الحادي عشر الميـلادي، انظـر: الموسـوعة العربيـة العالميـة، وهـي ترجمـة بتـصرف عـن: دائـرة المعـارف العالمية(World.Book.Encyclopedia): ٢٧٩/١٦، ويلاحظ أن هذه العصور المظلمة بالنسبة لأوروبـا هي عصور ازدهار و ضة سريعة بالنسبة للمسلمين.

(2) "عصر النهضة: اصطلاح يقصد به الفترة التي اتسمت بنشاط علمي وثقافي ذي سمات عقلانية عرفـت بحركـة التنوير أو العصرانية. وقد أطلق في البداية على الحركة التي ظهرت بألمانيا في القرن الثامن عـشر الميـلادي، والـتي استلهمت آراء كانت وليسـنج، وامتد المصطلح إلى إنجلترا في أيام لوك، ونيوتن، وهوبز، وأسكتلندا في أيام هيـوم، وآدم سميث، وفرنسا في أيام مونتسـيكو وفولتير، وديدرو وروسـو. وتشمل حركة التنوير كذلك عصر بطـرس الأكبر إمبراطور روسـيا، وفريدرك الثاني ملك روسـيا، والإمبراطور جوزيف الثاني. وقد وصلت حركة التنوير إلى العالم العربي الإسلامي في بداية عصر النهضة الحديثة، وتمثلت في الكتابات الأولى في الأدب العربي والفكر الحـديث بصفة عامة متبنية أفكار حركات التجديد والتنوير والمعاصرة في الغرب والمبنية على أساس الفلسفات الإلحادية مـن الدعوة إلى نبذ الدين، والتخلي عن قيمه شرطاً للنهضة –راجع التجديد وحركة التنوير-، مما دفع الكثير من العلمـاء والمفكرين المسـلمين إلى التصدي لها وبيان عوارها"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٩٤/٢، وانظر: الموسـوعة العربيـة العالميـة، وهـي ترجمـة بتـصرف عـن: دائـرة المعـارف العالميـة (World.Book.Encyclopedia): ٢٦٨/١٦.

الإمبراطور البيزنطي التسليم أكثر من مرة مما دعا محمد الفاتح السلطان الشاب (٢٢ سنة) إلى التوجه بجيشه قائلاً: لقد وقفت هذه المدينة أعواماً طوالاً في وجه الإسلام وتحالفت مع أعدائه لذلك فهي مباحة لكم، وبعد يوم واحد كانت المدينة في أيدي المسلمين، وعنـدما انتصف النهار دخل محمد الفاتح المدينة يمتطي صهوة جواده واتجه إلى الكنيسة الكبيرة (أيا صوفيا) ونزل عن جواده أمام بابها وعفر رأسه بالتراب تواضعاً وشكراً لله وقابلـه رجـال الكنيسة فأمـنهم، ثم أشار إلى من أذن للصلاة فأذن لأول مرة في هذه الكنيسة الضخمة، ومن يومها أصبحت مسجداً من أكبر مساجد الإسلام. **لقد كان مطلع العصر الحـديث (الله أكبر) تدوي** في **إحدى الكنائس**"[1]، ومثل هذا الحدث يستحق فعلاً أن يكون بداية لتاريخ جديد، كما تشعر هذه البدايةُ العظيمةُ بأن هذا العصر الذي بدأ بالنـصر والعـزة والتمكين لدين الله – تشعر – بأنه ينبغي للمسلم أن يعيش فيه عزيزاً شامخاً بدينه، غير متأثر بأي نوع من أنواع الولاء لأعدء الله، متميزاً عنهم في كل شؤونه، قـائلاً بلـسان حالـه لأعدائه: إن المجد الذي بناه أسلافنا في مطلع هذا العصر ما هو إلا لبنة من لبنات بناء العزة الإسلامية الشامخ، والذي سأعمل على إرسائه وإعلائه.

(1) المدخل إلى علم التاريخ، د. عبد الرحمن الشيخ، ص: (١٣٧-١٣٨).

الفصل الأول

مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث في الجانب الاعتقادي

لقد خلق الله الخلق موحدين، فإن آدم كان موحداً، ولم يطرأ الشـرك إلا بعد ذلك بقرون، وما ذلك إلا لكون الاعتقاد الصحيح إنما يؤخذ من الله؛ فإن الله أعرف بنفسه وما يجب له من خلقه، وما ضلت البشرية بعد ذلك إلا من مجافا ا لطريق الوحي _ وهو الطريق الوحيد الذي يجب أن تؤخذ منه العقيدة _، وهذه قصة نسـيان التوحيد، يقول ابن عباس ﷺ: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيـين مبشرين ومنذرين"[1]، فمنهم من أخذ معتقده عن طريق الابتداع ومنهم من أخذ معتقده عن طريق التشـبه بغيره من المبتدعة، ففي تفسـير أول شرك حصل في البشرية وهو عبادة قوم نوح لود وسـواع ويغوث ويعوق ونسراً، يقول الطبري _ رحمه الله _: "كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون م فلما ماتوا قال أصحا م الذين كانوا يقتدون م: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدو م و م يسقَـون المطر فعبدوهم"[2]، فكان هؤلاء الذين ابتدعوا وتشـبه خلْـفُهم م، وانتشر الشـرك، فما من انحراف في تاريخ البشر من لدن آدم عليه السلام إلا بسبب آفة أخـذ العقيدة عن غير مصدرها الصحيح النقي وهو مصدر الوحي، بالابتداع أو التشـبه بمن ابتدع في دينه.

---

(1) تفسـير الطبري: ٢ / ٣٣٤

(2) تفسـير الطبري: ٩٩/٢٩

وفي هذا الفصل أحاول أن أكشف الستار عن بعض المظاهر التي سببت الانحراف لدى المسـلمين في الجانب الاعتقادي في العصر الحديث، وأخص منها المظاهر التي تقوم على التشـبه بالكفار دون المظاهر التي تقوم على جانب الابتداع المحض، وإن كان هذا قليل جداً بالنسبة لسابقه؛ وذلك لكثرة تأثر مبتدعة هذه الأمة بغيرهم من الأمم؛ بسبب الداخلين في الإسلام من أهل الملل الأخرى، ممن علق لديهم بعض بقايا اعتقادا م السابقة، بخلاف الأمم السابقة وخاصة التي مثلنا ا من القرون التي كانت بين آدم ونوح؛ فإن مصدر الانحراف في تلك الأمم كان يغلب عليه جانب الابتداع أكثر من جانب التشـبه بالكفار، وإن كان الابتداع يعقبه تشـبه بالمبتدع.

والحاصل أنني سأعتني في هذا الفصل بذكر الاعتقادات _ التي تعني بذا ا مظهراً من مظاهر التشـبه بالكفار في الجانب الاعتقادي _ خصوصاً، وبالمناهج _ المأخوذة من عند الكفار _ التي غذت هذه المظاهر عموماً.

المبحث الأول: مظاهر التشبه بالكفار في توحيد المعرفة

المطلب الأول: الفلسفة، أصولها وآثارها في العصر الحديث.

الفلسـفة اسم يوناني معرب من كلمة (فيلاسـوفيا)، ومعناه: إيثار الحكمة، وهو في لسا م مركب من: (فيلا) و (سـوفيا) و (فيلا): الإيثار، (وسـوفيا): الحكمة[1]، والفيلسـوف معناه: المؤثر للحكمة[2]، وذكر الشهرستاني في الملل والنحل قريباً من ذلك فقال: "الفلسـفة باليونانية: محبة الحكمة والفيلسـوف هو (فيلا)و(سـوفا)، و(فيلا): هو المحب، و(سـوفا): الحكمة، أي هو: محب الحكمة"[3]، والتعبير عن الفلسـفة بمعنى إيثار الحكمة يستلزم أن تكون الحكمة التي يسعى إليها الفيلسـوف المسلم موافقة للشرع القويم فإن الحكمة الحقيقية إنما تؤخذ من مشكاة النبوة، قال تعالى: (ويعلمهم الْكتاب والْحكْمةَ)[4].

وجاء في الموسـوعة العربية العالمية: "الفلسـفة هي دراسة تسعى إلى فهم غوامض الوجود والواقع، كما تحاول أن تكتشف ماهية الحقيقة والمعرفة، وأن تدرك ماله أهمية أساسـية وقيمة عظمى في الحياة، كذلك تنظر في العلاقات القائمة بين الإنسان والطبيعة، وبين الفرد وا تمع"[5]، وهذا هو المعنى الواسع للفلسـفة، وقد يعرفها بعضهم بتعريفات أخرى قد تحصرها في مجالات أضيق من التعريف السابق حسب منظور كل منهم، أو حسب الميادين التي اشتهرت ا الفلسـفة، فقد جاء تعريفها في التعريفات: "الفلسـفة: التشـبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات"[6]، وهنا نرى هذا التعريف قد خصها بأكثر ما اشتهرت به وهو النظر في الإلـهيات، الناتج عنه إمكانية التخلق بأخلاق الإله، وهذا التعريف مشوب

---

(1) لسان العرب: ٩ /٢٧٣

(2) انظر: الفكر الفلسفي في الإسلام، للشيخ: عبد الحليم محمود، الصفحة: (٢٢٣)

3 - الملل والنحل ٣٦٩/٢، وانظر: منهاج السـنة النبوية: ٣٥٩/١.

4 - البقرة: (١٢٩).

(5) الموسـوعة العربيـة العالميـة، وهـي ترجمـة بتـصرف عـن: دائـرة المعـارف العالميـة (World.Book.Encyclopedia): ٤٤١/١٧، وانظر: موسوعة الفلسفة، د. عبـد الـرحمن بـدوي: ١٥٧/٢.

6 - انظر: التعريفات للجرجاني: ٢١٦/١ وانظر: منهاج السـنة النبوية: ٤١٢/١، ٣ / ٣٣٢، وانظر: الحدائق في المطالب العالية ص: (١١٤).

بعقيدة المتصوفة الذين استقوا هذا الفكر من البراهمة الذين يقومون بالعبادات من أجل الفناء في براهما[١].

ولكننا نجد الفلسـفة جاءت في بعض نظرياتها بما يخالف الشرع مما جعل الكثير من أئمة الإسلام يقفون منها موقفاً معادياً[٢]، ومن تلك النتائج التي توصل إليها الفلاسفة ما ذكره ابن القيم فقال: "وقد علمتم الاعتراضات التي اعترض بها أهل الفلسـفة على كونه خالقاً للعالم في ستة أيام وعلى كونه يقيم الناس من قبورهم ويبعثهم إلى دار السعادة أو الشقاء ويبدل هذا العالم ويأتي بغيره"[٣].

ومن تلك المواقف: سئل الإمام أبو حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: "مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة"[٤]، وما ذلك إلا لانحرافهم عن سـواء السبيل بتلك العقائد المستنبطة من نتاج الفكر الإنساني البسـيط الذي لا يستغني بحال عن نور الوحي الإلهي، يقول الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي: "قال الطوفي[(5)]: وقد اعترف أكثر أئمة أهل الكلام والفلسـفة من الأولين والآخرين أن الطرائق التي سلكوها في أمور الربوبية بالأقيسة التي ضربوها لا تفضي بهم إلى العلم واليقين في الأمور الإلهية مثل تكلمهم بالجسم والعرض في دلائلهم ومسائلهم ومقالة أساطين الفلسـفة من الأوائل أنهم قالوا: العلم الإلهي لا سبيل فيه إلى اليقين وإنما يتكلم فيه بالأولى والأحرى، قال: ولهذا اتفق كل من خبر مقالة هؤلاء المتفلسـفة في العلم الإلهي أن غالبه ظنون كاذبة وأقيسة فاسدة وأن الذي فيه من العلم والحق قليل، انـتهى. هذا والفلاسفة هم أرباب النهاية في العقول لكن العقول إذا لم تستند إلى الشرع المنقول وقعت في الحيرة والضلالات وطرأت عليها الخيالات والاستبعادات لما جاءت به الرسل ولهذا كانت الفلاسفة يعتقدون أن عندهم من العلوم والمعارف ما يستغنون به عن علم الأنبياء عليهم السلام، قال أبو حيان[(٦)]: وكانوا إذا سمعوا بوحي الله تعالى دفعوه وصغروا علم الأنبياء بالنسبة إلى علمهم"[(7)]، ومنهم من شرط شروطاً حاسمة

1 - انظر: الأسفار المقدسة، للدكتور: علي عبد الواحد وافي، ص: (١٨٩).
2 - انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ١٨٧
3 - شفاء العليل: ١/ ٢١٧
4 - انظر: صون المنطوق والكلام عن فن المنطق والكلام، لجلال الدين السـيوطي، ص:٣٢
(5) هو: سليمان بن عبد القوي الحنبلي الطوفي، ت: (٧١٠هـ)، انظر: كشف الظنون: ٤٢٥/٢.
(6) هو: أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، ت: (٧٤٥)، انظر: كشف الظنون: ١١٠٧/٢.
(7) أقاويل الثقات:١١١/١، ولذلك كانوا يقولون ببدع كثيرة لم يسبقهم إليها أحد في الإسلام، قال محمد بـن عمر بن الحسـين الرازي في كتابه اعتقادات فرق المسـلمين والمشـركين وهو يختصر بعض المعتقدات التي توصـل

للنظر في هذا العلم فقال: صاحب كشف الظنون: "تنبيه: اعلم أن النظر والمطالعة في علوم الفلسـفة يحل بشرطين، أحدهما: أن لا يكون خالي الذهن عن العقائد الإسلامية بل يكون قوياً في دينه راسخاً على الشريعة الشريفة، والثاني: أن لا يتجاوز مسائلهم المخالفة للشريعة، وإن تجاوز فإنما يطالعها للرد لا غير، هذا إن ساعده الذهن والسـن والوقت وسامحه الدهر عما يفضيه إلى الحرمان، وإن لا فعليه أن يقتصر على الأهم وهو قدر ما يحتاج إليه فيما يتقرب به إلى الله تعالى، وما لا بد منه في المبدأ والمعاد والمعاملات والعبادات والأخلاق والعادات"[1]،فشرط أن يكون متسلحاً بالعقيدة الصحيحة قبل أن يخوض في فلسفات القوم، وأن لا يدخل نفسه فيما لا ينفع من علومهم إلا للرد عليه.

ولذلك لم يأخذ بتلك النظريات المخالفة للدين من المسـلمين إلا أهل الفرق المنحرفة من المتكلمين والفلاسفة، فجاءت ردود علماء الإسلام عليهم ردوداً واضحة تجلو الغبار عن منهجهم الضال لتبين موقف الإسلام الصحيح من كل فكر دخيل يعارض قيم الإسلام وعقائده وأصوله[2].

ومع ذلك يرى بعض الباحثين أن الفلاسفة المسـلمين تخيروا من الفلسـفة ما يتناسب مع حقائق الدين فيقول: " يأ للمسـلمين حظ موفور من معرفة أكثر المذاهب الفلسفية التي ذهب إليها فلاسفة اليونان، فاستنبطوا منها ما ينسجم مع الدين الإسلامي ويوافق الشريعة الإسلامية"[(3)]، وليس هذا بصحيح فلو كان الأمر كذلك لما أدى إلى الانشقاق والتفرق في الدين كما هو الحاصل بين الفلاسفة والعلماء من أهل السـنة والجماعة[(4)]، ولو قال الكاتب إ م استنبطوا منها ما ظنوه منسجماً مع الدين لربما كان مصيـباً، وحينئذ نقول: إ م ظنوا وأخطؤوا الظن، وكان الأولى م أن يستنبطوا من

إليها الفلاسفة بناءً على مذهبهم: "مذهبهم أن العالم قديم وعلته مؤثرة بالإيجاب وليست فاعله بالاختيار وأكثـرهم ينكرون علم الله تعالى وينكرون حشر الأجساد"، اعتقادات فرق المسـلمين والمشـركين: ١ /٩١

1 - كشف الظنون لمصطفى الحنفي: ١ / ٤٧

2 - انظر: ما كتبه شيخ الإسلام في التدمرية: ص: (١٧) وغيرها، وكتابه: بيان تلبيس الجهمية، ومنهاج السـنة، وكتب تلميذه ابن القيم: مثل: نونية ابن القيم، وشفاء العليل، وغيرها، ولم أنقل ذم الكلام من كتبهما؛ لشهرة ذلك عنهما، وشهرة هذين الشيخين بنقض القضايا الكلامية.

(3) فلاسفة من الشرق والغرب، لمصطفى غالب: ص: (١٠)، كما جاء رأي صديق القنوجي مشا اً لرأي هذا الكاتب فقال: "فإنك تسمعهم يقولون بتحريم المنطق مع كونه ميزان العلوم وتحريم الفلسـفة مع أ ا عبـارة عـن معرفة حقائق الأشياء وليس فيها ما ينافي الشرع المسائل اليسـيرة" أبجد العلوم: ١٠٦/١

(4) مع أن شيخ الإسلام أثبت جمعهم بين المتناقضات والممتنعات، انظر: التدمرية، ص: (٣٦)، وليس في دين الله أي تناقض فلو أخذ هؤلاء من المنهج الفلسفي ما يوافق الدين _ على حد قول الكاتب _ لما وقعوا في التناقض، ولما أدى ذلك إلى التفرق بين المسـلمين بسبب تلك المقدمات والنتائج الفلسفية التي تنافي بعض المسلمات الشرعية.

نصوص الشرع ما يفيدهم في دينهم ودنياهم، فإن أبوا إلا الفلسـفة فليستدلوا ا على نصوص الشرع ويجعلوه الأساس الذي من أجله تؤول العقليات الظنية لا العكس، وأما القطعيات فلا تعارض بينها وبين الدين، فإن تـوهـم ذلك فلـيـتهم العقل.

ولما جاءت الفلسـفة بما يعارض الدين الصحيح كان ذلك من أسباب رفضها حتى عند بعض أصحاب الأديان السماوية السابقة أيضاً، جاء في أبجد العلوم: "وكانت الفلسـفة ظاهرة في اليونانيـين والروم قبل شريعة المسـيح عليه السلام، فلما تنصرت الروم منعوا منها واحرقوا بعضها وخزنوا البعض؛ إذ كانت بضد الشرائع، ثم إن الروم عادت إلى مذهب الفلاسفة"[1]، وقال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "ولهذا لما ورد ناموس عيسى بن مريم عليه السلام على الروم انتقلوا عن الفلسـفة اليونانية إلى دين المسـيح"[2]، فإذا كان حال الأمم السابقة من النصارى الذين آمنوا بالإنجيل[3] الذي جاء به عيسى عليه السلام وصدقوا به: أ م تركوا الفلسفات اليونانية؛ وما ذلك إلا لعلمهم بأ ا تخالف الأديان والعقائد السماوية المشتملة على الأخبار الصادقة التي لا مرية فيها ولا تحير؛ ذلك بأ ا ثقافات بشرية متحررة من ربقة الشرائع السليمة التي لا تحريف فيها، ولذلك لما حرف النصارى دينهم وأدخلوا فيه الأكاذيب والأباطيل المفتراة على الله رب العالمين وعلى رسـوله عيسى عليه السلام عادوا إلى تلك الثقافات الضحلة مرة أخرى لأن الدين المحرف يرحب بكل ما هو مخالف لشرع الله القويم وصراطه المستقيم.

كما أن الفلسـفة قد ساهمت مساهمة فعالة في إشعال الجدل والخصومات بين المسـلمين وتشتتهم إلى فرق وأحزاب[4]، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وأما الخلاف الذي بين الفلاسفة فلا يحصيه أحد لكثرته ولتفرقهم"[5].

---

1 - أبجد العلوم: ٢٥٢/٢، وانظر: الفهرست: ٣٣٩/١

2 - منهاج السـنة النبوية: ١/ ٣١٧

(3) "الإنجيل: كلمة معربة من الكلمة اليونانية ((إفاجيلويون)) ومعناها البشارة بالخير أو بالخبر الـسار والمفـرح، واللفظ الدال على الإنجيل GOSPEL وهو في الإنجليزية القديمة GOASPEL أي أخبار طيبـة. والإنجيـل كتاب أنزله الله تعالى على عيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة يقول تعالى: ﴿ وقفينا على آثارهم بعيـسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التـوراة وهـدى وموعظةً للمتقين﴾ [المائدة : ٤٦]، وقد وردت كلمة إنجيل في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة. وبعد رفع المسـيح وضياع الإنجيل الرباني المنـزل عليه كتبت أناجيل كثيرة زادت على المائة فاختارت الكنيسة منـها أربعـة وهـي المقصودة بكلمة الإنجيل عند النصارى الآن". انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصـرة: ٩٧٦/٢.

(4) انظر: مجلة البيان: ٧٤/ ١٩.

(5) منهاج السـنة النبوية: ٥/ ٢٨٢.

ويعتبر التوغل في علم الفلسـفة _ بدون القاعدة الاعتقادية الراسخة والهدف الصحيح _: مظهراً من مظاهر التشـبه بالكفار[1]، يشهد لذلك أصلها الإغريقي، فإن الفلسـفة لم تكن بحال من الأحوال وليدة الفكر الإسلامي الصافي، فقد جاءت من بلاد اليونان[2]، وكان أصلها الشك، قال (ول ديورانت) مبيناً تاريخ الفلسـفة من بداياته: "وربما كان التجار أول من اظهروا شكهم وريبتهم، فقد رأوا الكثير في أسفارهم وتعذر عليهم الاعتقاد بهذا الكثير، كما أن ميل التجار العام إلى تقسـيم جميع الناس إلى حمقى أو أوغاد، جعلهم يميلون إلى استجواب كل عقيدة ومذهب"[3]، وهذا توقع منه لبداية نشوء الفلسـفة؛ نظراً لطبيعة الفلسـفة التي تقوم على الشك والريبة في العقائد؛ فإن أكثر من يتوقع منهم ذلك: هم التجار الذين يسافرون في أقطار الأرض غير متسلحين بسلاح الإيمان والعلم الصحيح مما يحدو بهم إلى الشك؛ لكثرة العقائد التي يمرون عليها من خلال تجوالهم في البلاد.

وقد يقسم بعض الباحثين الفلسـفة إلى قسمين:

١- الفلسـفة الغربية القديمة: وهي جذور الفلسـفة الغربية المتأخرة فمعتقدات الغرب المتعلقة بما وراء الطبيعة والعلم والمنطق والأخلاق في العصر الحديث هي تبع لرواد الفلسفة القديمة، وكان من روادها سقراط وأفلاطون وأرسطو.

٢- الفلسـفة الشرقية (الهندية، والصينية): فالفلسفة الهندية والتي تسمى (درشانا) لها علاقة بتفاسـير كتبهم المقدسة، والهدف الرئيسـي منها: هو التحرر من العذاب والتوتر الناتجين عن البدن والحواس والكف عن التشبث بالدنيا وما

1 - قال صاحب كشف الظنون: "واعلم أن أكثر من عنى بها في الأجيال الأمتان العظيمتان فارس والروم فكانت أسـواق العلوم نافقة لديهم لما كان العمران موفوراً فيهم والدولة والسلطان قبل الإسلام لهم" كشف الظنـون: ١/ ٦٧٩. ومعلوم أن أديان هاتين الأمتين باطلة، فدين الفرس عبادة النار، ودين الروم إما الوثنية القديمة وإما النـصرانية المحرفة.

2 - قال ابن القيم _ رحمه الله _: "أين الدين من الفلسـفة وأين كلام رب العالمين إلى آراء اليونـان والمجـوس وعباد الأصنام والصابئين وأين المعقولات المؤيدة بنور النبوة إلى المعقولات المتلقاة عن أرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سـينا وأتباع هؤلاء ممن لا يؤمن بالله ولا صفاته ولا أفعاله ولا ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخـر"، الـصواعق المرسلة: ٣/ ٨١٦، وانظر: منهاج السـنة النبوية: ٥/ ٢٨٢، وانظر: قصة الفلسـفة، ول ديورانت ص: (5).

3 - قصة الفلسـفة، ول ديورانت ص: (٦ – ٧).

فيها[1]، كما اشتهر الفكر الكونفوشي المأخوذ عن الفيلسوف كونفوشيوس (في الصين)، في القرن السادس ق.م [2].

هنا نلاحظ أن القسمين _ وخاصة ما يتعلق منهما بما وراء الطبيعة وصفات الخالق _ بعيدان عن مصادر الدين الإسلامي، كما أن كثيراً من مباحث الفلسفة داخلة في ما هو من العقائد الغيبية التي لا يمكن لأحد أن يخبر عنها خبراً يقيناً إلا الله عز وجل، ولم يترك لنا الله عز وجل أمراً من الأمور الغيبية إلا وحدثنا عنه في كتابٍ جعله تبياناً لكل شيء فما هي الحاجة لأخذ العقيدة من مثل هذه العلوم القادمة من عند الكفار؟. ولذلك فقد بات من المجمع عليه تقريباً بين الباحثين أن الفلسفة علم **دخيل على المسلمين من الأمم السابقة**[3]، وطريقة في التفكير والتوصل إلى الحقائق لم تعهد ولم يأت بها نبي من الأنبياء، بل هي مما أخذ عن الكفار لغير مصلحة معتبرة شرعاً، وقد نهينا عن التشبه بهم.

ولكن مع أن هذا العلم من العلوم المستوردة من الكفار نجد من المسلمين من ولج فيه، وأخذ يستقي منه بعض العقائد، وأعرض عن كثير من نصوص الوحي، كما فعلت جموع من الفلاسفة في القرون الوسطى، ولا زالت العقائد المبنية على قواعد الفلسفة اليونانية تتوالى لتضرب في صميم وحدة الأمة، ونرى من الكتاب والمفكرين المعاصرين من يتأثر بهذا المنهج السقيم، يريد بذلك أن يصوغ منه فكراً اعتقادياً سليماً حراً _ على حد ما ينشد ويدعي _ معارضاً بذلك نصوص الوحي، ومتشبهاً بأعداء الملة والدين من الكفار الملحدين الضالين التائهين، فيتشبه بهم في حيرتهم وهم يهيمون على وجوههم، ليبحثوا عن العقيدة الصحيحة في إلههم وخالقهم، ظناً منهم أنهم لن يجدوها نقية خالصة إلا في أوحال الفلسفة الإغريقية، بعيداً عن القرآن والسنة، ثم تتم المعالجة لتلك النصوص

---

(1) ولعلها هي التي قصدها الجرجاني آنفاً.

(2) انظر: الموسوعة العربية العالمية، وهي ترجمة بتصرف عن: دائرة المعارف العالمية (World.Book.Encyclopedia): ٤٤٥-٤٤٤/١٧

3 - بل إنني لم أجد من خلال بحثي هذا من يعارض في هذه القضية، وانظر: ما قاله ابن النديم في الفهرست: ص: (٣٤٢)، وقال القنوجي في أبجد العلوم: "وكانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية فنقل ذلك إلى العربي عبد الله بن المقفع وغيره" أبجد العلوم: ٢٥٢/٢، وانظر: مجلة البيان: العدد: (٧٤) ص: (١٩)، وانظر: التراث اليوناني، تعريب عبد الرحمن بدوي: ص: (١١)، وانظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام: لـ (دي بور): ص: (١٤١). ولكن من الغريب ما زعمه بعض الباحثين المتحمسين للدفاع عن الإسلام _ كما يظن نفسه _ أن الفلسفة الإسلامية مستقاة من الإسلام ومستقلة كل الاستقلال عن غيرها من الفلسفات، معارضاً بذلك المسلمات التاريخية، وهو يبغي من وراء ذلك الدفاع عن الفكر الإسلامي، والصحيح: أن الفكر الإسلامي غني عن مثل هذه الفلسفات المستوردة والتي ما أنزل الله بها من سلطان، انظر: ما كتبه الشيخ: عبد الحليم محمود، في كتابه: (التفكير الفلسفي في الإسلام)، ص: (١٤) وغيرها.

الثابتة الصريحة من القرآن بالتأويل، ومن السـنة بالرد والتعطيل، كل هذا من تبعات الاتجاه الفلسفي، علمه من علمه وجهله من جهله أو تجاهله.

فمع أن الفلسـفة تعتبر علماً خارجاً على الوحي، وارداً من الأمم السابقة التي كفرت بالله أو غلب عليها الكفر، ومع أ ا تتدخل في الغيبيات التي لا تحتاج إلى نظر واستدلال بل ينبغي أن لا تؤخذ إلا من الوحي؛ فإن من المسـلمين في هذا العصر من يحاول المقارنة بينها وبين الوحي، فيقول أحد الباحثين، وهو يبين تلاقي النبوة والفلسـفة: "والعلم الذي يجيء عن طريق الوحي، لا يختلف في نتائجه عن العلم الذي ينـتهي إليه النظر العقلي والاستدلال المنطقي، وإن اختلف الطريق في كل منهما، ومن هنا تلاقت النبوة والفلسـفة، إذ قيل إن المعرفة التي تجيء عن طريق الوحي، إن قابلها صاحبها بما عند العلماء من حقائق، ألفاها على اتفاق معها؛ لأن العلل والمبادئ واحدة، فإذا أخبر ا من وصل إليها من أسفل بالتفلسف، اتفق رأيهما وصدق أحدهما الآخر بالضرورة، وبادر الفيلسـوف إلى قبول ما يأتي به النبي أو الكاهن، لأ ما على اتفاق والفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل أما الآخر فقد انحط من علٍ، والمسافة بين السطح والقرار واحدة ولكنها بالإضافة إلى من بالقرار تسمى صعوداً وبالإضافة إلى من في السطح تسمى هبوطاً، والأنبياء في هذا كله متفاوتون، فقد يكشف أحدهم ما يطويه المستقبل بعد قرن ويكشف غيره ما تخفيه عشرة قرون تالية، كما يتفاوت الفلاسفة في معرفة الحقائق وسبر غورها"[1]، فلم يكتف بأن قارن بين الوحي والفلسـفة بل قرن معهما التكهن، وجعل ما وصل إليه النبي هو نفسه ما يصل إليه الفيلسـوف، وهذا مغاير للواقع المحسـوس فإن الفلاسفة جاءوا بكثير من الأمور المشككة في الدين مما لا يخفى تعارضه مع الوحي بحال.

جاء في كتاب: (اعتقادات فرق المسـلمين والمشـركين) عن الفلاسفة: "وأكثرهم ينكرون علم الله تعالى وينكرون حشر الأجساد"[٢].

كما أن القرآن والسـنة كلاهما مليء بإثبات صفات الباري ﷻ ولكن الفلاسفة اتفقوا على نفي الصفات[٣]، يقول ابن سـينا: "فإذا حققت تكون الصفة الأولى لواجب الوجود أنه موجود ثم الصفات الأخرى يكون بعضها المتعين فيه هذا الوجود مع إضافة،

(1) التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام، ص: (٣٢-٣٣)

(2) اعتقادات فرق المسـلمين والمشـركين، لمحمد بن عمر بن الحسـين الرازي، ص: (٩١).

(3) انظر: ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، لعبد الله جار النبي، ص: (٣٢١).

وبعضها هذا الوجود مع السلب وليس واحد منها موجباً في ذاته كثرة البتة ولا مغايرة"[١]، فهنا يحاول ابن سـينا أن ينفي جميع الصفات ويردها إلى صفة الوجود، ويشرح هذا الاتجاه للفلاسفة الغزالي، فيقول: "اتفقت الفلاسفة على استحالة إثبات العلم والقدرة والإرادة، للمبدأ الأول، وزعموا أن هذه الأسامي وردت شرعاً، ويجوز إطلاقها لغة، ولكن ترجع إلى ذات واحدة ولا يجوز إثبات صفات زائدة على ذاته كما يجوز في حقنا أن يكون علمنا وقدرتنا أوصافاً لنا زائدة على ذاتنا، وزعموا أن ذلك يوجب كثرة، لأن هذه الصفات لو طرأت علينا لكنا نعلم أ ا زائدة على الذات، فكل شيئين إذا طرأ أحدهما على الآخر، وعلم أن هذا ليس ذاك، وذاك ليس هذا، فلو اقترنا أيضاً، لعقل كو ا شيئين، فإذن لا تخرج هذه الصفات بأن تكون صفات مقارنة لذات الأول عن أن تكون أشياء سـوى الذات، فيوجب كثرة في واجب الوجود. وهو محال فلهذا أجمعوا على نفي الصفات"[٢]، فهذا أعظم ما جاءت به نصوص الوحي _ وهو إثبات صفات البارئ ﷻ _ اختلفت عليه الفلاسفة اختلافاً عظيماً فكيف يقال: إن الفيلسـوف والنبي لا تختلف نتائج ما توصلا إليه في النهاية!

في الحقيقة أن المتفلسـفة من المسـلمين أشبهوا الفلاسفة القدماء الذين تصوروا الإله بما لا يليق أن يوصف به المعدوم فضلاً عن المخلوق[٣]، وفارقوا ما كان عليه الوحي المنـزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم باليونانين أشبه منهم بالنبيـين.

لقد دخلت الفلسـفة ضمن المؤثرات على عقيدة المسـلمين وصارت مصدراً لبعضهم ليستقي منه العقيدة يقول مصطفى غالب[٤] في مقدمة كتابه: فلاسفة من الشرق والغرب: "الحكمة العرفانية العقلانية، والبحث عن كنه الوجود والموجودات، غريزة بشرية تكونت منذ وجود العقل الإنسان، في هذا العالم الذي يمور بالأسرار والرموز والإشارات. وتمتد نشاطات الحكمة عبر الأكوان والموجودات إلى الأمور الماورائية، والعلة السـببيـة والمسالك التوحيدية، والإشراقات[٥] الروحانية السرمدية، الحكمة إذن هي ثمرة العقول

(1) انظر: النجاة، ص: (٢٥١).

(2) انظر: افت الفلاسفة، ص: (١٧٢)، و افت التهافت: ٤٩٢/٢.

(3) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص: (١٧).

(4) كاتب إسماعيلي.

(5) "الإشراق: مذهب الإشراق هو جماع آراء وتيارات راجت في الديانات القديمة الإغريقية والفارسـية. ولـذا فهو فرع من فروع الفلسـفة اليونانية والأفلاطونية الجديدة على وجه الخصوص. ويقوم في جملته على القول: بـأن مصدر الكون هو: النور، فهو يعبر عن الله سبحانه وتعالى بالنور الأعلى، ويصف العوالم بأ ا أنوار مستمدة من النور الأول والمعرفة الإنسانية في مفهوم الإشراقيـين ((إلهام)) من العالم الأعلى، يصل بواسطة عقول الأفلاك، وهـو مـا

الواعية وخلاصة التأمل والتفكير المبدع الخلاق"[1]، فجعل الفلسـفة _ وهي ما عبر عنه بالحكمة _ جعلها مصدراً من مصادر تلقي العقيدة والأمور الماورائية _ على حد تعبيره _ بل ا تعلم المسالك التوحيدية، وقد اعترف أن هذه الحكمة المنشودة التي يتحدث عنها: إنما هي ثمرة العقول الواعية، مع أنه من المعلوم في ديننا الحنيف أنه لا تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، فإن توهم التعارض بينهما؛ لقصر في العقل، لا يقدم العقل على شيء من النقل[2]، وقد جاء النقل بما يجيب عن كل الأسئلة في المسائل التوحيدية، فإن كان الأمر كذلك فما فائدة هذه الحكمة (الفلسـفة) التي نأخذ منها التوحيد، وقد تتعارض مع النقول الصحيحة من الوحي، كما هو الحاصل في الواقع، فالاعتراض على كلامه من حيث أنه أطلق العنان للفلسـفة أن تـتدخل بإطلاق في الغيبيات والمسالك التوحيدية، بدون تقيـيد والصحيح أن الفلسـفة لا يمكن أن نطلق لها العنان في هذا الباب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا علام الغيوب فالأصل فيه هو النص ولا تكون الاستدلالات العقلية فيه إلا من باب الرد على الخصوم.

ونرى على سبيل المثال بعض الباحثين يقرر صحة مذهب المعتزلة وعدم تناقضه، رغم أ م يقولون بنفي الصفات وما ذلك إلا لتأثره بالمنهج الفلسفي اليوناني _ والذي

يسمى بالكشف أو الإشراق، أي ظهور الأنوار العقلية للنفوس بعد تجردها". انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديـان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٥٨/٢ .

(1) انظر: فلاسفة من الشرق والغرب، لمصطفى غالب، ص: (٥).

2 - انظر: العقيدة الأصفهانية: ١ /١٤٥

استقى منه المعتزلة مذهبهم في الصفات[1] بعد تحويره في قالب كلامي منطقي _ فيقول: "وأن قول المعتزلة ذا الوجود العقلي، أو الصوري أو الإلهي للأشياء لا يعني قولهم بوجودها الفعلي، الحسـي المادي في الخارج، وبذلك ينحل التناقض، وتبقى الوحدة الفكرية في مذهبهم، بحيث لا يوجد أي تناقض في منظورهم الميتافيزيقي[٢]، حول الله والعالم"[3]، ومن المعلوم أن مذهب المعتزلة قائم على الفلسـفة اليونانية، وهي التي جاء أصحا ا بالبدع الاعتقادية الكبرى من نفي الصفات والقدر استناداً على مقدمات كلامية فاسدة مأخوذة عن اليونانيين، فهل يوصف مثل هذا المنهج الفكري بالوحدة الفكرية وعدم التناقض؟![٤] فما الذي يحملنا على أخذ معلوماتنا حول الله في الأزل وأفعال الله وما يجب على الله من علم الكلام أو الفلسـفة الواردة إلينا من الكفار، ونترك كلام الله الذي أنزله الله (تبياناً لكُل شيءٍ)[٥].

وفي معرض الإعجاب ذا الفن الدخيل على المسـلمين قال في كتاب: (أسس الفلسـفة) مقدمة مرتضى المطهري: "والإنسان - سـواء نجح أم خاب- لا يستطيع أن يكف نفسه عن المحاولات الفكرية والنشاطات العقلية التي تدور حول بدء العالم وغاية الوجود ومبدئه وحول الحدوث والقدم، والوحدة والكثرة، والمتناهي واللامتناهي والعلة والمعلول، والواجب والممكن، وغيرها من الأمور التي هي من هذا القبيل. وهذه الحاجة الفطرية هي التي أوجدت الفلسـفة.

1 - قال أبو الحسـن الأشعري: عن المعتزلة الذين قالوا بنفي الصفات: "وهذا القول أخذوه عن إخـوا م مـن المتفلسـفة الذين يزعمون أن للعالم صانعاً لم يزل ليس بعالم ولا قادر ولا سميع ولا بـصير ولا قـديم".... إلى أن قال:"ولولا الخوف لأظهروا ما كانت الفلاسفة تظهره من ذلك ولأفصحوا به غير أن خوف السـيف يمنعهم مـن إظهار ذلك، وقد أفصح بذلك رجل يعرف بابن الإيادي كان ينتحل قولهم فزعم أن البارئ سبحانه عالم قادر سميع بصير في ا از لا في الحقيقة"، انظر: مقالات الإسلاميـين للأشعري: ٤٨٣/١، وانظر: نشأة الفكر الفلـسفي في الإسلام، الصفحة: (٣٧٠).

(2) "ميتافيزيقا : فرع من الفلسـفة يبحث عن الحقيقة الأولية للوجود، سماها أرسطو الخبرة، كما يبحث في ماهية الإله والعالم والإنسان، وفيما وراء الطبيعة والحس. هاجمتها المذاهب التجريبية والمادية الوضعية الحديثة"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٥٥/٢

(3) انظر: الفكر الفلسفي الإسلامي، د. حسام الألوسـي: ص:٣٣

4 - مع أن شيخ الإسلام أثبت تناقضهم في الصفات والذات فإ م لما نفوا الصفات لعلة التشبيه ألزموا بنفي الذات لوجود نفس العلة في إثبا ا، فلم يلتزموا باللازم، انظر: التدمرية، ص: (٤٣).

5 - سـورة النحل: الآية: (٨٩).

فالفلسـفة تجعل الوجود بأجمعه ميداناً ليجول فيه الفكر البشري، وهي تحمل العقل الإنساني على جناحها وتحلق به إلى عوالم هي منـتهى آماله وغاية طموحه"[1]، والجواب على ما قاله: أن الفكر الإنساني محدود بما هو من مقدوره فإذا تجاوز المقدور إلى ما يتعذر أن يأتي فيه العقل البشري بالنتائج الصحيحة _ كما هو الحال في الغيبيات _ توقفت مهمة العقل البشري ليترك الباقي لما هو أجدر أن يتبع ويفصل النـزاع ألا وهو الوحي الإلـهي.

كما زعم أن الفلسـفة ظهرت مع تاريخ ظهور الإنسانية، فقال في مقدمة كتابه أصول الفلسـفة: "وتاريخ الفلسـفة مع تاريخ الفكر البشري توأمان ولهذا فنحن لا نستطيع أن نعتبر قرناً معيناً ولا منطقة خاصة على أساس أ ما مبدأ ومنشأ ظهور الفلسـفة على وجه الأرض. فالإنسان- بحكم رغبته الفطرية- لم يفوت أية فرصة أتيحت له في أي وقت وأي مكان للتفكير وإبداء الرأي حول النظام الكلي للعالم"[2]، وهذا زعم يحتاج إلى دليل، وهو ناتج عن الاقتناع الكامل ذا المذهب الفكري الدخيل، فعلم الفلسـفة مخترع من البشر وليس توأماً مع ظهور الإنسانية، فإن كان يقصد العقائد الإنسانية فإنه يلزمه أن يغير تعبيره إلى ما يفصح عن القصد، ولو قال: إن العقائد ظهرت مع ظهور الإنسانية بدلاً من إطلاق ذلك على الفلسـفة، فإن العقائد التي علمها الله آدم شيءٌ والعقائد المستخلصة من الفلسـفة شيء آخر، والفلسـفة والعقائد الصحيحة المستندة إلى الوحي لا يخفى تناقضها في كثير من الأمور.

---

1 - أصول الفلسفة، ص: (١).

(2) أصول الفلسـفة، ص: (٢).

كما نجد الباحث أحمد صبحي في كتابه: الفلسـفة الأخلاقية يقرر صحة الفلسـفة التي سار عليها المعتزلة ويحاول مدحها لكو ا تنشأ عنها أخلاقيات وإن كانت هذه الأخلاقيات ضمن إطار خلق العبد فعل نفسه فالمعتزلة فلسفتهم خير من فلسـفة ابن عربي وفلسـفة الجبرية[1] اللتان أطلقتا العنان للإنسان في تصرفاته خارجاً عن حدود الأخلاق؛ فإن المعتزلة يقولون بأن العبد يخلق فعل نفسه ومن ثم هو مسؤول عن كل ما يفعله من خير أو شر، ففي نظره أن فلسـفة المعتزلة استطاعت أن تكون فلسـفة أخلاقية تعين المسلم على التفريق بين الحسـن والقبيح في تصرفاته[2].

فصار المعيار عند الباحث في تقيـيم هذه الفلسـفة أو تلك هو: مقدار مراعا ا لجانب الأخلاق، ولو كان ذلك على حساب العقيدة الإسلامية، فلا أدري كيف سمح الباحث لنفسه أن يمهد لبحثه ويكون له المادة التي تثبت أن للفلسفات الإسلامية بعداً أخلاقياً ولو كان ذلك مستقى من الفلسفات اليونانية الضالة البعيدة عن نور الوحي، ولو كان ذلك على حساب صحة العقائد التي جاءت ا تلك الفلسفات من عدمها؛ فيقول في شرحه لفلسـفة ابن عربي: "كمال الإنسان لدى أصحاب وحدة الوجود لأنه قد اجتمعت فيه كمالات، والوجود العقلي والروحي والمادي لا فرق في ذلك بين أي من هذه المظاهر، فليس سفك الدماء والفساد في الأرض بأدنى من البر والإحسان من حيث إن الأولى مظاهر لصفات الجلال الإلهي، ولا تفترق صفات الجلال عن صفات الجمال فالمعصية من العبد كمال أو هي جلال لأ ا مظاهر لاسم المنتقم أو الجبار وهو من أسماء الله، فلا فرق بين الخير والشر، بين من يظهر بصورة العاصي ومن يظهر بصورة المطيع من

---

(1) الجبرية: من الفرق الكلامية المنحرفة التي تقول بالجبر، بمعنى أن العباد مجبورون على أعمالهم، وأن الله تعـالى هو الفاعل لأعمالهم، ولا دور لهم فيها، وإنما تضاف إليهم على سبيل ا از. وأول من قال ذه المقالة في الإسـلام الجعد بن درهم، وأخذها عن بيان بن سمعة اليهودي عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم زوج ابنـته عن يهودي باليمن. وأول من أظهرها تلميذه الجهم بن صفوان بمدينة ترمذ في أوائل المائة الثانية للهجرة، ولذلك فإن الجهمية أول من حمل لواء هذه الدعوة، فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعـل أصـلاً. والجبريـة المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل، وسمـى ذلـك كسباً فليس بجبري، انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ٩٧/١، والموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحـزاب المعاصرة: ١٠٣٥/٢-١٠٣٦

(2) انظر: الفلسـفة الأخلاقية للفكر الإسلامي: ص: (٢١٢).

حيث إن كلاهما هو مظهر لاسم من أسماء الله"[1]، ولم يجد طريقاً لنقد هذه النظرية إلا من حيث أ ا أجحفت في جانب الأخلاق، فيقول: "وغني عن البيان أن نظرية كهذه تلغي القيم الخلقية وأحكام الشرائع وتفسر الخلق وحياة الإنسان وسلوكه ومآله بعد الممات تفسـيراً وجودياً بحتاً لا أثر للأخلاقية فيه، إ ا لا تقوض أصول الشرع وأحكامه فحسب بل إ ا تعبث بكل تقيـيم ومن ثم فإ ا إن صلح أن تلحق بالمذاهب الأنطولوجية التي تفسر الوجود فإ ا لا يمكن أن تكون بحال ميتافيزيقا أخلاق، إ ا وإن جعلت الإنسان ربانياً فإ ا لم تكرمه، وأي تكريم ذلك الذي يستوي فيه الطيب مع الخبيث ويلحق فيه إبليس منـزلة الرسـول باسم صفتي الجمال والجلال"[2]، ويقول في شرحه لفلسـفة الإنسان الكامل: "والنظرية شأ ا شأن نظرية ابن عربي تفسر النشأة الإنسانية بالحديث المنسـوب إلى الرسـول، خلق الله آدم على صورته فالله قد خلق الإنسان على صورته وحلاه بأوصافه وسماه بأسمائه فهو الحي والإنسان حي وهو العليم والإنسان عليم وهو الموجود والإنسان موجود وله الربوبية للإنسان الربوبية"[3]، ثم يبدأ في نقده لهذه النظرية على أساس الأخلاق الذي من أجله صنف كتابه، وربما لو وجد في هذه النظرية أو تلك ما يعضد الأخلاق ويقومها لاعتبرها فلسفات إسلامية يعتز ا، ويشهد لذلك موقفه من فلسـفة الاعتزال مع نفيها للصفات وقولهم في الحقيقة بخالقين في الكون، فيقول: "فالإنسان متصف بالكمال وفق هذه النظرية لا لسبب أخلاقي وإنما لنسبة إلهية من حيث هو صورة الحق أو بالأحرى لسبب وجودي محض، والنظرية في جملتها أنطولوجية لا تدع مجالاً للأخلاق بل لعلها تعبث بالقيم شأ ا شأن نظرية وحدة الوجود حين تسـوي بين الخير والشر كما تسـوي بين الجنة والنار"[4].

ثم إنه يدعو غيره إلى تطوير الفلسـفة في الجانب الاعتقادي إلى فلسفات أخلاقية مبنية على نتائج مقدمات الفكر اليوناني لتشمل جوانب الحياة، فيبين _ في كتابه (الفلسـفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي) [5] _ أن الفلسـفة التي عنيت بالنظر والاستدلال في الجانب الاعتقادي لا بد أن تكون لها أبعادها في الجانب الأخلاقي، فالعلوم

---

(1) انظر: الفلسـفة الأخلاقية للفكر الإسلامي: ص: (٢١٢).

(2) الفلسـفة الأخلاقية لمحمود صبحي: ص: (٢١٣-٢١٤).

3 - الفلسـفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ص: (٢١٤).

(4) الفلسـفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ص: (٢١٤- ٢١٥).

(5) وليته جاء بالفكر الإسلامي واعتقاداته الحقيقية التي أثبتها القرآن والسـنة الصحيحة، بل اعتمد في بيان الفكر الإسلامي على عرض بعض النظريات الفلسفية المأخوذة في الأصل من اليونان، وكأن المسـلمين ليست لهم عقيد م التي تميزهم عن غيرهم، والله المستعان.

التي أخذت من اليونان في الاعتقادات لا بد أن تفعل في جانب الأخلاق، وكأن المسـلمين لا يجدون المنبع الإلهي السماوي للأخلاق، والاعتقادات من قبل !! فلا بد في نظره أن يكون من بين الدراسات المتعلقة بالإنسان التي يعنى ا المتكلمون: الدراسات في الجانب الأخلاقي[1].

وكاتب آخر يطلق على بعض الكتب الفلسفية التي خلفها فلاسفة اليونان: (تراثنـا الفلسفي)، ومن تراثنا الفلسفي الذي لا بد من نقده وتمحيصه: كتـاب (فلـوطرخس في الآراء الطبيعة التي يقول ا الحكماء)[2]، ومنها: الرسالة الذهبية للمعلم الأول أرسطوطاليس إلى الإسكندر في العالم والمخلوقات، وشرح مجموع من كتاب: (أناميلحس)، _كـذا _ لوصايا فيثاغورس الفيلسـوف، وهو شرح الوصايا الذهبية لفيثاغورس[3].

وجاء في كتاب (مدخل إلى مبادئ التربية) بعد بيان معنى الفلسـفة اليونانية وبيان مهمة الفيلسـوف: "إن هناك علاقة وثيقة بين الفلسـفة وطريقة حياة أي مجتمع إنساني؛ فالناس يعيشون حسب فلسفتهم في الحياة وقدر م على استيعاب ما يدور حولهم من مظاهر طبيعية واجتماعية، إن العقيدة الفلسفية في غاية الأهمية لمعتنقها؛ لأ ا تنير له طريق الحياة"[4]، وفي الحقيقة فإن المسلم لا يحتاج أن يسلك طريقة الفيلسـوف، الذي يعتمد في تقرير عقائده على العقل، خاصة إذا كانت المعطيات العقلية التي يرتكز عليها في معرفة عقيدته وفلسفته مفروضة عليه مسبقاً من قبل الكفار من اليونانيـين وغيرهم.

والدخول في علم الفلسـفة أدى إلى تسرب بعض العقائد الفاسدة إلى العقيدة الإسلامية الصافية، لتكدر صفاءها؛ فإذا كانت الطريقة التي يتوصلون ا إلى معرفة الغيبيات: طريقة مأخوذة من الكفار الذين فسدت تصورا م، مع ترك السبيل الأمثل وهو سبيل القرآن والسـنة، فإن النتيجة الحتمية ستكون هي الأخرى بعيدة عن منهاج الكتاب والسـنة.

---

1 - انظر: مقدمته: ص:٩- ١٠، وإلى حد كبير: يحاول الباحث تفعيل النظريات الفلسفية إلى أخلاقيات، إيمانـاً منه بجدار ا واستحقاقها لتكون أساساً للأخلاق، بعد أن كانت طريقاً للنظر في الكون والوجود والإلهيات، انظر مـا كتبه عن مشكلة العمل من ص: (٢٥٧) من كتابه إلى ا اية الكتاب.

(2) انظر: تراثنا الفلسفي حاجته إلى النقد والتمحيص، محمد رضا الشبيبي، ص: (١٩).

(3) انظر: تراثنا الفلسفي حاجته إلى النقد والتمحيص، محمد رضا الشبيبي، ص: (٢٠).

(4) مدخل إلى مبادئ التربية د. محمد عكيلة، د. سمير عبد اللطيف هوانة، د. حسـن جميل طه، ص: (٦٢) وهذا الكتاب يدرس في جامعة أم القرى، كمدخل إلى الدبلوم التربوي.

نظرية الفيض:

ومن العقائد الفاسدة التي جاء ا هذا العلم: نظرية الفيض، وهي التي يقررها الفلاسفة وإن لم يقولوا بلوازمها، ويمكن تلخيص النظرية بملامحها العامة كما يلي: صدر العلم عن الله الواحد المختار أزلاً، بمعنى أن العلم قديم بالزمان حادث بالذات، والله واجب الوجود بذاته، والعلم ممكن الوجود بذاته، ولكنه لأنه متصل وجوداً وعدماً بإلـه، فهو واجب الوجود بغيره، فلأن الله لا يتغير، وعلمه وفعله شيء واحد، ولا يصدر عن الواحد مباشرة إلا واحد، فقد فاض عنه أزلاً وأولاً أولية مرتبية وبالذات العقل الأول، وعن هذا صدر عقل ثان، وجسم فلك وصورته (نفسه)؛ وذلك لثنائيته؛ لأنه ممكن بذاته، وواجب بغيره، وتفكيره بكل، وبالله ينتج عنه شيئان: عقل ثان وفلك بصورته وجسمه (الفيض هنا ثنائي)، أو عقل ثان ونفس وفلك (الفيض هنا ثلاثي) ويستمر الأمر هكذا حتى نصل إلى العقل العاشر، فيصدر عنه هيولي جميع الموجودات السفلية والبذور أو الصور أو النفوس والطبائع والخصائص المميزة لأشخاص وأجناس وأنواع الإنسان والحيوان والنبات والجماد. ومع أن الله فاعل مختار، فقد صدر عنه العالم أزلاً لأنه علة تامة لا يتأخر عنها فعلها ولاستحالة الترجيح بلا مرجح، ولقدم الهيولي بالزمان ولاستحالة حدوث الزمان واستحالة حدوث الحركة بعد أن لم تكن[1].

قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "فالإلهية عند القوم أمر مشترك بين الله وبين الملائكة وبين المعلمين ومن نقتدي به لكن إلهية الله أفضل وأكمل كما أن الوجود مشترك بين الموجودات لكن الوجود الواجب أكمل وهذا الشـرك شر من شرك مشركي العرب فإن أولئك وإن أشركوا بالوسائط وقالوا: (هؤلاءِ شفَعاؤنا عند الله)[٢]، وقالوا: (ما نعبدهم إلا ليقَربونا إلى الله زلْفَى)[٣]، فلم يكن التأله عندهم بمعنى التشـبه والاقتداء، بل بمعنى العبادة والذل والمحبة، وهؤلاء مع عظيم شركهم بالله بمخلوقاته جعلوا التأله لنا هو التشـبه بالإله لا أنه يحب ويعبد ويدعى ويسأل **ولهذا** لم **تكن الآلهة** مختصة **بالله عندهم لأن التشـبه مبناه على أن الأدنى يتشـبه بالذي فوقه والذي فوقه يتشـبه بمن فوقه**

(1) انظر: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، د. حسام الألوسـي: ص: (١١٦).

(2) سورة: (يونس: من الآية١٨).

(3) سورة: (الزمر: من الآية٣).

حتى ينـتهي إلى **الغاية ولهذا** سموه **إله الآلهة** ولهذا يقولون إن كل فلك يتحرك للتشـبه بعقله ففلك القمر يتحرك للتشـبه بالعقل العاشر والفلك التاسع يتحرك للتشـبه بالعقل الثامن و ذا الطريق أثبت أرسطو وأتباعه وجوده وقالوا إن الفلك يتحرك للتشـبه به وشبهوه بتحريك المعشوق لعاشقه لكن العاشق يحب ذات المعشوق والفلك عندهم إنما يحب التشـبه بالله وهو كتحريك الإمام للمصلين والمتبوع للتابعين فلم يثبتوا ذا أن الله رب العالمين خلقه وأنشأه ولا أنه إله العالم الذي يحبه العبد ويرجوه ويخشاه"[1]، وعلى هذا فعباد م لله إنما هي تشـبههم به، وهذا ما لم يقل به حتى مشركوا العرب، فإ م يعلمون أن الله فوق خلقه في ذاته وصفاته وقهره، وإنما كان شركهم في الوسائط، فهؤلاء المتفلسـفة قد أزروا بمنـزلة الربوبية في قلو م، حتى صارت عقيدة الإلـه عند مشركي قريش خير من تصور الإلـه في أذهان هؤلاء الفلاسفة[2]، فلم يشبهوا بذلك سـوى الذي حاج إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم: (ربي الذي يحيـي ويميت قَالَ أنا أُحيـي وأُميت قَالَ إبراهيم فَإن الله يأتي بِالشمسِ من الْمشرقِ فَأْت بِها من الْمغربِ فَبهت الذي كَفَر والله لا يهدي الْقَوم الظالمين)[3]، فبهت الذي كفر لتعريه من الحجة التي يثبت ا ما يروج له من ضلال وكبر وإعجاب بنفسه، ولم تكن له طريق لإثبات تلك العقيدة الفاسدة لمن حوله، إلا التشـبه بالإلـه في صورة سمجة عارية عن البرهان، فبهت الطاغوت و ت كل من تشـبه به ممن كابر المعقول وتنكف المنقول.

ويكاد يجمع الباحثون على أن الفارابي[٤] هو أول من قال بنظرية الفيض في الإسـلام[5]، وهذه النظرية (عقيدة صدور العالم عن الله) ليست من ميراث الفلسـفة الإغريقية فحسب، بل هي مزيج من الفلسـفة الإغريقية والعقائد النصرانية المحرفة، يقول المستشرق (دي بور): "وربما تجلى في أقوال الفارابي هذه أنه متأثر بالمعلمين النصارى؛ لما

---

1 - الصفدية: ٣٣٤/٢، وانظر: منهاج السـنة النبوية: ٣ / ٢٨٥.

2 - بل ذكر شيخ الإسلام أن اعتقادهم شر من اعتقاد اليهود والنصارى، انظر: منهاج السـنة النبوية: ٣ / ٢٨٥

3 - سـورة البقرة: (٢٥٨).

(4) "شيخ الفلسفة الحكيم أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركي الفارابي المنطقي، أحد الأذكياء، لـه تصانيف مشهورة، من ابتغى الهدى منها ضل وحار، منها تخرج ابن سينا نسأل الله التوفيق، وقد أحكم أبـو نـصر العربيه بالعراق ولقي متى بن يونس صاحب المنطق فأخذ عنه وسار إلى حران فلزم ا يوحنا بن جيلان النصراني وسار إلى مصر وسكن دمشق، ويقال إنه هو أول من اخترع القانون، وكان يتزهد زهد الفلاسفة، ويقال إ م سألوه أأنت أعلم أو أرسطو فقال لو أدركته لكنت أكبر تلاميذته، من مصنفاته: مقالة في إثبات الكيميـاء وسـائر تواليفـه في الرياضي والإلهي، وبدمشق كان موته في رجب سنة: (٣٣٩هـ)، عن نحو من ثمانين سنة"، انظر: سير أعلام النبلاء: ٤١٦/١٥-٤١٨.

(5) انظر: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، د. حسام الألوسـي، ص: (١١٧).

نلاحظ فيها من تقسـيم ثلاثي، والاصطلاحات التي يستعملها الفارابي تؤيد ما نلاحظه من التأثر بأساتذته النصارى، غير أن هذا كله لا يعدو أن يكون ظاهر فلسـفة الفارابي؛ أما الجوهر الذي تحويه فمرده إلى المذهب الأفلاطوني الجديد"[1]، وهنا يتوقع أن الفارابي جاء ـذا القول من أساتذته النصارى كما هو معروف من سـيرته؛ حيث تلقى العلم في بداية أمره على يد شخصية لا يزال يكتنفها الغموض ويغلب على الظن أن أستاذه الأول كان نصرانياً[2]، ولأنه يقول بالصدور الثلاثي[3]، وهو **يشبه** ما يعتقده النصارى من عقيدة التثليث التي تقوم عليها فلسفتهم بوصف الإلـه بأنه مزيج متجانس من الآب والابن وروح القدس، وهنا قد يكون (دي بور) قد سلك هذا المسلك في تفسـيره لمنشأ نظرية الفيض؛ بسبب انتمائه النصراني؛ ولكن يؤيده شيخ الإسلام في فكرته على وجه العموم، فيقول مبيناً أصل منبت أقوال الفارابي في الفيض: "والفارابي كان قد أخذ الفلسـفة عن متى، ثم دخل إلى حران فأخذ ما أخذه منها عن أولئك الصابئة الذين كانوا بحران وكانوا يعبدون الهياكل العلوية، ويبنون هيكل العلة الأولى، هيكل العقل الأول، هيكل النفس الكلية، هيكل زحل، هيكل المشتري، هيكل المريخ، هيكل الشمس، هيكل الزهرة، هيكل عطارد، هيكل القمر، ويتقربون بما هو معروف عندهم من أنواع العبادات والقرابين والبخورات وغير ذلك"[4].

ومن الفرق المنـتـسبة إلى الإسلام في العصر الحديث والتي تقول بنظرية الفيض: الإسماعيلية[5]، يقول د. سليمان بن عبد الله السلومي: "إن مؤلفا ـم الفلـسفية ونظريـا ـم الاعتقادية تدور على هذا الفكر وتقوم عليه. وبالتالي فإن ترتيبهم للموجودات متفرع مـن ذلك حيث بعد المبدع – بكسر الدال – يأتي المبدع – بفتح الدال – وهو ما أسموه بالعقل الأول والسابق ووصفوه بصفات الله وأسمائه بعد نفيها عن الله عز وجل"[6].

---

1 - انظر: تاريخ الفلسـفة في الإسلام: لـ (دي بور): ص: (٢١١).

2 - انظر: موسـوعة الفلسـفة، عبد الرحمن بدوي: ٩٤/٢، وترجح الموسـوعة أن معلمه الأول هو: يوحنا بن حيلان.

3 - انظر: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، د. حسام الألوسـي: ص: (١١٧).

(4) منهاج السـنة النبوية: ٢ / ١٩٢.

(5) الإسماعيلية: فرقة باطنية، انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتـها هدم عقائد الإسلام، تشعبت فرقها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر، وحقيقتها تخـالف العقائـد الإسـلامية الصحيحة. وقد مالت إلى الغلو الشديد لدرجة أن الشيعة الاثني عشرية يكفرون أعضاءها، انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان المذاهب والأحزاب المعاصرة: ٣٨٣/١.

(6) أصول الإسماعيلية، د. سليمان عبد الله السلومي، ص: ٥١٤/٢- ٥١٥

يقول أحدهم واصفاً العقل الأول: "إن جميع صفات الشرف والجلالة وما يعبر به في جميع اللغات من الإشارات بنعوت الإلهية فإنها واقعة على العقل الأول"[١]، وعلة هذا القول عندهم: "أنه لما كانت حروف المعجم محدثة لم تكن تدل إلا على محدث مثلها وإذا كان القول كذلك كانت هذه الأسماء والصفات منفية عنه – أي المبدع – تعالى وتكبر وكانت واقعة على إبداعه الذي هو العقل الأول الموجود الأول والسابق وهو متعاله متعال"[٢].

وأما العقل الثاني فيعتبر عند الإسماعيلية "أصلاً ثانياً مع العقل الأول ويأتي في الوجود والرتبة بعد السابق ولذلك أطلقوا عليه التالي؛ لأنه تلا العقل الأول في الأفضلية والوجود والأهمية وكثيراً ما أطلق الإسماعيلية على هذا العقل (النفس الكلية) وطبيعتها عقلية محضة وهي أقرب الموجودات من العقول العشرة إلى عالم الكون والمخلوقات"[٣].

ومن تأثر بهذه النظرية: بعض الصوفية، يقول أحد المتصوفة في العصر الحديث: "نحن نعرف النفس أنها ناطقة، ولقد ميزت النفس الناطقة عن النفس الحيوانية بالنطق، والنطق فكر، فكون الإنسان إنساناً وتميزه عن الحيوان إنما كان بسبب فكره. **فالنفس** كما قلنا صورة، والصورة فكر، والفكر إلهي. أفلوطين ذاته جعل أول الموجودات: **العقل الأول**، ووصف هذا العقل بأنه وجود. إذن أول الموجودات العقل وهو فكر. والنفوس الإنسانية أفكار، إذ لكل إنسان نفسه، أي صورته، أي فكره الخاص به، وأصل هذه الأفكار كلها الفكر الإلهي. فالنفوس كانت إذن أفكاراً في العقل الإلهي، ثم طبعت في صفحة الوجود المادي. فتشابهها حادث من قبيل كون الفكر فكراً، والفكر واحد مع تشعب في الصور، إذ الأفكار الجزئية مدرجة في أفكار **كلية**، والأفكار **الكلية** مشتقة من فكر أول هو **العقل الأول** قلنا إنه الماهية. فكل النفوس كانت في الواحد فكراً، ثم صارت في الكثرة كثرة، كل صورة، لها بالواحد المشع ارتباط، وهي بالتالي انعكاس لهذا الإشعاع. فالواحد موجود فيها كمصدر وهي محل للواحد باعتبار تجزئتها وبالإضافة فإن التعين يحمل في ذاته نورانية صافية مع قابلية للانطباع في المادة، ولهذا رأيت أن الصورة ستنزل إلى تحت، أي: ستفارق العالم النوراني المحض لتدخل العالم الظلماني، أي عالم المادة، وتنطبع فيه"[٤].

---

(1) رسالة المبدأ والمعاد ضمن الحقائق الخفية للأعظمي، ص: (١٠١)، نقلاً عن كتاب أصول الإسماعيلية، د. سليمان عبد الله السلومي، ص: ٢/٥٢٠.

(2) انظر: الأنوار اللطيفة للحارثي ص: (٧٩- ٨٠)، نقلاً عن كتاب أصول الإسماعيلية، د. سليمان عبد الله السلومي، ص: ٢/٥٢٠.

(3) أصول الإسماعيلية، د. سليمان عبد الله السلومي، ص: ٢/٥٢٣- ٥٢٤.

(4) انظر: الإنسان الكامل محاورات في فلسفة الصوفية، لمحمد غازي عرابي، ص: (٣٨).

من هذا ومما قبله نعلم أن الاعتماد على الفلسـفة في إثبات العقائد من مظاهر التشـبه بأولئك الكفار الذين ضلوا وأضلوا غيرهم، هذا مع ما جرته إلينا الفلسـفة من عقائد فاسدة، والتي منها عقيدة الفيض التي ترجمت بعض عقائد الأمم الكافرة من قبل، فما أشد غـنى المسـلمين عن كل هذه المصادر بمصدر عز م وهو الوحي من كلام الله تعالى أو كلام نبيه صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني:-

علم الكلام أصوله وآثاره في العصر الحديث:

لقد وقفت من خلال هذه الدراسة على بعض التعريفات لعلم الكلام المستند على المنطق، فأقوم أولاً بتعريف المنطق: جاء في الموسـوعة العربية العالمية: "هو علم يتناول بالدراسة مبادئ وطرائق المحاكمة العقلية؛ فهو يستكشف كيفيات التميـيز بين المحاكمة القويمة والمحاكمة السقيمة، ويسمى المثال المستخدم في المحاكمة: البرهان والاستدلال"[(1)]، وعلى هذا التعريف فإن موضوع علم المنطق هو طريقة التفكير الصحيحة للوصول إلى النتائج السليمة عن طريق الدليل العقلي والحجة، وهو ما يعرف بالمنطق اليوناني، والمنطق اليوناني جزء من الفلسـفة الإغريقية كما جاء في أبجد العلوم بالنسبة للفلسـفة: "إ ا ليست علماً برأسها، بل هي أربعة أجزاء: أما الهندسة والحساب فهما مباحان، وأما المنطق والطبيعيات فبعضها مخالف الحق فهو جهل وليس بعلم وبعضها ليس كذلك"[٢]، فجعل الفلسـفة أقساماً منها المنطق، ثم حكم على تلك الأقسام بما رآه في أغلب الأحوال من واقعها.

---

(1) الموســـوعة العربيـــة العالميـــة، وهـــي ترجمـــة بتـــصرف عـــن: دائـــرة المعـــارف العالميـــة (World.Book.Encyclopedia): ٤٤٢/١٧

2 - أبجد العلوم لصديق حسـن القنوجي: ١ / ٣٥٥

وأما علم الكلام بالتحديد فقد جاء تعريفه كما في كتاب التعريفات: "علم الكلام: علم باحث عن الأعراض الذاتية للموجود من حيث هو على قاعدة الإسلام"[١]، فهنا عرفه بتعريف المنطق؛ فأدخل علم الكلام في سائر الموجودات دون تحديد للإلهيات، فعرفه بشكل عام، ولكنه قيده بما كان على قاعدة الإسلام، ولكن الحاصل أن علم المنطق هو أداة للتفكير لها طريقتها وأسسها ومصادرها، فقد تكون هذه الأداة على طريقة الإسلام وقد تستعمل بطريقة مخالفة للدين.

وأما تعريف علم الكلام على اصطلاح أهله: فقد جاء في أبجد العلوم: "هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها وموضوعه عند الأقدمين: ذات الله تعالى وصفاته؛ لأن المقصود الأصلي من علم الكلام: معرفته تعالى وصفاته"[(2)]، وهو مشابه لتعريف الإمام الإيجي حيث قال: "والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه"[(3)]،كما حذا حذوهما المناوي حيث قال: "والكلام علم يبحث فيه عن ذات الله وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام"[٤]، بينما عرفه ابن خلدون في مقدمته: "علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السـنة"[٥]، وتعريف ابن خلدون تضمن معنى الدفاع عن العقيدة الصحيحة، وإن كان تقيـيده بأنه على مذهب السلف وأهل السـنة فيه نظر _ كما سـيأتي في موقف العلماء من أهل السـنة من علم الكلام _ ويرد نفس الإشكال على وصف صديق حسـن القنوجي لعلم الكلام حيث قال: "ثم إن علم الكلام شرطوا فيه أن تؤخذ العقيدة أولاً من الكتاب والسـنة ثم تثبت بالبراهين العقلية"[٦]، وإن كان قد يشكل في كلام القنوجي أمر آخر وهو أنه جعل من مهمة علم الكلام: الدفاع عن العقائد الثابتة بالكتاب والسـنة أصلاً فجعل مهمة علم الكلام هو مجرد الدفاع وليس تقرير العقائد، وقد عرف علم الكلام في نفس الموضع من كتابه فقال: "هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها، وموضوعه عند الأقدمين: ذات الله تعالى

---

1 - التعريفات للجرجاني: ٢٠١/١
(2) أبجد العلوم لصديق حسـن القنوجي: ٢ / ٦٧
(3) شرح المواقف للإيجي: ٣١/١
4 - التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي: ٦٠٧/١.
5 - انظر: مقدمة ابن خلدون، ص: (٤٤١).
6 - أبجد العلوم لصديق حسـن القنوجي: ٢ / ٦٧

وصفاته"[1]، فاعتبر علم الكلام مصدراً لإثبات العقائد الدينية، وهنا تكمن مغالطة هذا التعريف للواقع المحسوس؛ فهل يعتبر علم الكلام علم يدافع عن العقيدة الثابتة أصلاً؟ أم نعتبره هو نفسه مقرراً للعقائد الدينية؟ والواقع أن المتكلمين أخذوا هذا العلم على أنه أساس في تقرير العقيدة، ثم يستشهدون بعد ذلك بنصوص الشرع _ إذا كانت موافقة لما توصلوا إليه من نتائج كلامية _؛ فإنه لا يمكن أن نفسر نفيهم لصفات الباري جل وعلا الثابتة ثبوتاً واضحاً بالقرآن والسنة _ أو بعضها _ إلا بهذا التفسير[2]، ويعضد هذا التفسير ما قاله الشيخ محمد عبده في سبب تسمية علم الكلام بهذا الاسم: "إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم؛ **وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم** في **كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى** ثم **الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها وإن كان أصلا** لما **يأتي بعدها**؛ وإما لأنه في بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما"[3]، فبين أن استنادهم الأساسي إنما هو على الدليل العقلي وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى.

الفرق بين الفلسفة وعلم الكلام:-

وبالنظر إلى تعريف الفلسفة وعلم الكلام فإننا نلاحظ أن علم الفلسفة عام بالنسبة للوجود والحياة، وأما علم الكلام فإنه خاص بالعقائد الدينية، وإن كان في الأصل هو تطور عن الفلسفة، وعن الفرق بين الفلسفة وعلم الكلام يقول الباحث سليمان الغصن: "يمكن التفريق بينها وبين علم الكلام بأن الفلسفة تبحث فن الحقيقة، وسواء أصابها الفيلسوف حقيقة دينية، أو غير دينية، فهي بحث عن الحقيقة، أي حقيقة"[4]، وفي شرح طريقة اختلاط هذين الفنين ببعضهما يقول صديق حسن القنوجي: "خلط

1 - أبجد العلوم لصديق حسن القنوجي: ٢ / ٦٧

(2) المقصود بهذا التفسير: هو تفسير سبب نفيهم للصفات الثابتة بالقرآن والسنة ؛ والسبب: أنهم جعلوا علم الكلام مصدراً لتلقي العقيدة وليس مدافعاً عن العقيدة الصحيحة،_ مع ادعائهم بأن علم الكلام إنما هو لأجل الدفاع عن العقيدة الصحيحة فحسب _ كما سيأتي في سياق موقف العلماء من علم الكلام.

(3) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده: ص: (٥).

(4) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، للباحث سليمان الغصن: ٢٢/١.

المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسـفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها، فصارت كأ ا فن واحد، ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوهما فنا واحداً قدموا الحديث في الأمور العامة ثم أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها إلى آخر العلم، كما فعله جمع من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة[١] وكتبه محشوة ا، كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد، والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب؛ لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه[2]، بمعنى أ ا لا تثبت إلا به فإن العقل معزول عن الشرع، وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها؛ فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسـفة[3]، بل إنما هو[٤] التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثيراً ما بين المقامين من التفاوت في ذلك، والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد[٥] في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضا م

(1) يقصد الفلسـفة.

(2) وهذا مما يشرح المغالطة التي وجدناها في تعريف علم الكلام، فلعل الكلام كان في الأصل كما عرفه الإيجـي والقنوجي، ثم صار لا يعتمد النص في البداية _ كما صرح بذلك الشيخ: محمد عبده _ ويجعله بمثابة المؤيد لما توصل إليه العقل، بعد اتصاله بعلم الفلسـفة، هذا محتمل، والله أعلم.

(3) وليس شأن علم الكلام.

4 - أي: علم الكلام.

(5) "الإلحاد: هو إنكار وجود الله، أو الميل بنصوص الكتاب والسـنة عن الحق الثابت لها، كالإلحاد في الآيـات الشرعية مثل تسميته تعالى بما لا يليق كتسمية النصارى له أبا، أو تسمية الفلاسفة إياه بالعلة الفاعلة، ومن الإلحـاد، أيضا، تسمية بعض المخلوقين باسمه تعالى كتسمية اللات من الإله، أو وصف الله تعالى بما ينـزه عنه كقول اليهـود (الله فقير)، أو تعطيل أسمائه وصفاته عن معانيها وجحد حقائقها كمن يجعل أسماءه تعالى علات محضة لا تدل علـى الكمال، أو تشبيه الخالق بالمخلوق ذاتا وصفات لقوله تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسـنى فادعوه ا وذروا الذين يلحدون في أسمائه سـيجزون ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ويقول تعالى: ﴿ ولا تقف ما ليس لك بـه علـم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ [الإسراء: ٣٦] . ويأتي الإلحاد، أيضا، بنسبة الآيات الكونية إلى غير خالقها سبحانه- الدهريون- كنسبة نزول المطر للنجم، مثلا، أو التكذيب بالبعث والجنة والنار- الطبيعيون- ، وتكريس الحياة كلها للدنيا فقط. فالإلحاد هو الكفر بالله والميل عن طريق أهل الإيمان والرشد. ويمثل الإلحاد اليـوم ظاهرة عالمية إذ ينص عليه في كل الدساتير الأوربية أو الأمريكية باسم ((العلمانية)) تارة أو ((اللادينية)) تارة أخرى، وأصبح له دول وحكومات تدافع عنه كما في دول أوربا الشرقية وروسـيا والصين"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٧١/٢ .

واستدعى ذلك الحجج النظرية والبطلان؛ فليس ذلك من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين، فإ ما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل، وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتداد بالدليل وليس كذلك بل إنما هو ورد على الملحدين"[1]، يؤيد هذا الرأي ما قاله شيخ الإسلام: "وهؤلاء المتكلمون المتأخرون الذين خلطوا الفلسـفة بالكلام كثر اضطرا م وشكوكهم وحير م بحسب ما ازدادوا به من ظلمة هؤلاء المتفلسـفة الذين خلطوا الفلسـفة بالكلام فأولئك[2] قلت ظلمتهم بما دخلوا فيه من كلام أهل الملل وهؤلاء كثرت ظلمتهم بما دخلوا فيه من كلام أولئك المتفلسـفة"[3]، فاتضح أن الأصل في علم الكلام هو الرد على الشبه والمحدثات وليس البحث عن الدليل، ثم تأثر العلم بالفلسـفة وصار أصحابه يبحثون عن الدليل ليعتقدوا ما هو صحيح، وإنما هذه هي طريقة الفلاسفة في الأصل وليست طريقة المتكلمين.

وبعد بيان معنى علم الكلام عرفنا أنه يبحث عن العقائد الدينية الصحيحة بالطريقة العقلية والمسالك الفلسفية _ هذا على طريقة المتأخرين، وهي التي تعنينا في هذه الرسالة _ فقد كان موقف العلماء من علم الكلام مشا اً لموقفهم من الفلسـفة، وأسـوق هنا جملة من مواقفهم: -

قال أبو يوسف[4] _ رحمه الله _: "من طلب الدين بالكلام تزندق[5]"[6]، ولا شك أن هذه المقولة خطيرة جداً؛ حيث فيها وصف لمن طلب الدين بالكلام بالزندقة وهو من

1 - انظر: أبجد العلوم: ٢ /١١١.

(2) متقدمي المتكلمين.

(3) منهاج السـنة النبوية: ٣ / ٢٨٨

(4) القاضي أبو يوسف هو: الإمام ا تهد العلامة المحدث قاضي القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيـب بن حبيش بن سعد بن بجير بن معاوية الأنصاري الكوفي، وسعد بن بجير له صحبة، وكان أبوه فقـيرا لـه حـانوت ضعيف فكان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم مئة بعد مئة قال أحمد بن حنبل: أول ما كتبت الحديث اختلفت إلى أبي يوسف، وكان أميل إلى المحدثين من أبي حنيفة ومحمد بن الحسن، قال إبراهيم بن أبي داود البرلسي سمعت ابن معين يقول: ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث ولا أحفظ ولا أصح رواية من أبي يوسف وعن ابن سماعة قال كان ورد أبي يوسف في اليوم مئتي ركعة، توفي أبو يوسف يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة: (١٨٢هـ ـ)، انظر: سير أعلام النبلاء: ٥٣٥/٨-٥٣٩.

5 - قال ابن قدامة في المغني: "والزنديق: هو الذي يظهر الإسلام ويستسر بالكفر وهو المنافق كـان يـسمى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم منافقاً ويسمى اليوم زنديقاً"المغني: ٢٤٨/٦.

6 - رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السـنة والجماعة: ١٦٦/١

أوصاف المنافقين، ولا شك أن كلمة كهذه عندما تصدر من عالم كأبي يوسف _ رحمه الله _ فهي تسترعي الانـتباه وتستدعي الوقوف والتأمل، وهي تعني أن علم الكلام لا حاجة له بالنسبة لعلم هذه الأمة؛ فالعلم الذي رزقها الله إياه كاف في إخراجها من الظلمات إلى النور، وخاصة في مجال العقائد.

ولما سئل الإمام الشافعي _ رحمه الله _ عمن يأخذ عقيدته عن طريق النظر العقلي والحجج الكلامية أجاب بعبارة قوية مؤثرة من إمام ذكي عظيم، قال: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف م في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسـنة وأقبل على الكلام"(1)، وقال _ رحمه الله _: " لأن يبتلي الله المرء بكل ذنب ى الله عنه ما عدا الشـرك خير له من الكلام"(2)، وإنما استثنى الشـرك؛ لأنه أكبر الكبائر وجعل ما سـوى ذلك من الذنوب أقل جرماً من الدخول في علم الكلام _ المبني على المقدمات الفلسفية _ والاستدلال به على العقائد، ولا يصدق هذا الوصف على ذنب إلا على البدعة الخطيرة في الدين، وعلى هذا فإن الشافعي _ رحمه الله _ يرى أن علم الكلام _ المبني على المقدمات الفلسفية _ من البدع التي هي أخطر من الكبائر كلها ما عدا الشـرك.

وكان موقف الإمام أحمد بن حنبل _ رحمه الله _ كموقف شيخه الشافعي فقد أثر عنه أنه قال: "لا تجالسـوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السـنة"(٣)، وما ذلك إلا لأنه يعتبرهم من أهل البدع، فأوصى بعدم مجالستهم من باب هجر المبتدع؛ تأديباً له واتقاء العدوى منه، بل وصف الإمام أحمد علماء الكلام بما هو أشد من ذلك فقال: "لا يفلح صاحب كلام أبداً علماء الكلام زنادقة"(٤)، وهذا تعميم من الإمام _ رحمه الله _ بأنه لا

(1) منهاج السـنة النبوية: ٦١٠/٢، وانظر: قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر: ص: (٤٦)، كما نقل الـذهبي عن: "ابن تاشفين: السلطان صاحب المغرب أمير المسـلمين أبو الحسـن علي بن صاحب الغرب يوسف بن تاشفين البربري ملك المرابطين، تولى بعد أبيه سـنة خمس مئة، وكان شجاعاً مجاهداً عادلاً دينا ورعا صالحاً معظما للعلمـاء مشاوراً لهم نفق في زمانه الفقه والكتب والفروع حتى تكاسلوا عن الحديث والآثار وأهينت الفلسـفة ومج الكلام ومقت واستحكم في ذهن علي أن الكلام بدعة ما عرفه السلف فأسرف في ذلك وكتب يتهدد ويأمر بإحراق الكتب وكتب يأمر بإحراق تواليف الشيخ أبي حامد وتوعد بالقتل من كتمها"، انظر: سـير أعـلام النـبلاء: ١٢٤/٢٠، وانظر: سـير أعلام النبلاء: ١٥/١٧، وغير ذلك من النقولات عن أهل السـنة وموقفهم من الفلسـفة اليونانيـة والكلام.

2 - شرح أصول اعتقاد أهل السـنة: ١٦٥/١.

3 - رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد: ص: (١٥٦).

4 - تلبيس إبليس: ١ / ١٠٢

يفلح كل من اقتبس من هذا العلم، ثم بين حال من ولج فيه وعمل به وعلمه للناس، وهم علماؤه؛ فاعتبرهم زنادقة.

وقال البربهاري[1]في شرح السـنة: "واعلم أنها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأهل الكلام"[٢]، وما كل هذا التحذير _ من هذا الإمام _ إلا من شدة ما رآه أهل السـنة من آثار علم الكلام في ذلك الزمن.

ولذلك فقد ذم الكلام جموع من أهل العلم[3]، قال شيخ الإسلام: "كان مذموما ممنوعاً منه عند السلف والأئمة"[٤]، بل قد نقل في موضع آخر إجماع أهل العلم على ذمه[5]، كما نقل الإجماع في ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٦]، وصنف الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة كتاباً سماه: (تحريم النظر في كتب الكلام)، ونقل فيه إجماع أهل العلم على تبديع أهله، فقال: "وقد بينا بما سبق فساد علم الكلام من أصله وذم أئمتنا له واتفاق أهل العلم على أن أصحابه أهل بدع وضلالة وأنهم غير معدودين من أهل العلم وأن من اشتغل به يتزندق ولا يفلح"[٧]، وقال الإمام الفقيه مرعي بن يوسف الكرمي المقدسـي: "نصيحة اعلم وفقك الله أنه ليس للمرء أسلم في دينه من ترك الخوض في مثل هذا والإعراض عن الخوض في علم الكلام المذموم واقتفاء طريقة السلف فإنهم لم يخوضوا في شيء من هذا"[٨].

ولقد كان من أهل العلم من خاض في بحر علم الكلام وأبحر فيه باحثاً عن فائدة ترجى منه، وكان أغلبهم يصف نفسه بعد عودته وتركه للكلام بالحيرة والريبة والشك، وأنه لم يستفد من كل تلك البحوث سـوى التذبذب بين أهل الكلام وآرائهم، ومن

1 - "شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الفقيه، كان قوالاً بالحق داعيـة إلى الأثر لا يخاف في الله لومة لائم، صحب المروذي وصحب سهل بن عبد الله التستري، ت: (٣٢٨هـ)". انظر: سير أعلام النبلاء: ١٥/٩٠-٩٢.

2 - شرح السـنة للبربهاري: ص: (٣٨)

(3) انظر: المناظرة في القرآن: ص: (٥١)

4 - منهاج السـنة النبوية: ٥ / ٢٨٣

5 - بيان تلبيس الجهمية: ١ / ١٣٩

6 - مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب: ١ / ٢٦٣.

7 - تحريم النظر في كتب الكلام: ١ / ٦٥

8 - أقاويل الثقات: ١ / ١١٠

هؤلاء العلامة ابن أبي الحديد المعتزلي وقد حكى كثرة بحثه في علم الكلام حتى قال في أبيات جميلة:

وأسائل الملل التي اختلفت   في الدين حتى عابدي الوثن
وحسبت أني بالغ أملي في   ما طلبت ومبرئ شـجني
فإذا الذي استكثرت منه   هو الجاني على عظائم المحن
فضللت في تيه بلا علم   وغرقت في يم بلا سـفن[1]

وقال الشهرستاني في ـاية الإقدام في علم الكلام:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها   وسـيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على   ذقـن أو قارعـاً سـن نـادم[2]

ويروي شيخ الإسلام بعض الحكايات في ذلك فيقول: "وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعترف بذلك إما عند الموت وإما قبل الموت والحكايات في هذا كثيرة معروفة هذا أبو الحسـن الأشعري نشأ في الاعتزال أربعين عاماً يناظر عليه ثم رجع عن ذلك وصرح بتضليل المعتزلة وبالغ في الرد عليهم وهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسـفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف، ينـتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، وصنف إلجام العوام عن علم الكلام. وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروى غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات (الرحمن علَى الْعرشِ استوى)[٣] (إِلَيه يصعد الْكَلم الطيب والْعملُ الصالح يرفَعه)[٤] وأقرأ في النفي (لَيس كَمثْله شيءٌ)[٥]،

1 - إيثار الحق على الخلق، ص: (٨٣ – ٨٤).
(2) ـاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني: ص: (٣).
(3) سـورة (طـه:٥) .
(4) سـورة (فاطر: من الآية١٠) .
(5) سـورة (الشورى: من الآية١١).

(ولا يحيطُونَ بِه عِلْماً)(1)، (هلْ تعلَم لَه سمياً)(٢)، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي: وكان يتمثل كثيراً:-

ابة إقدام العقـول عقـال وأكثر سـعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وهذا إمام الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرره واختار مذهب السلف، وكان يقول يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام؛ فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به وقال عند موته لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت فيما ونى عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي _ أو قال _: عقيدة عجائز نيسابور"(3)، ومن هؤلاء: الغزالي _ رحمه الله _ يقول في قواعد العقائد في معرض حديثه عن علم الكلام: "فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات، فليس في الكلام وفاء ذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد تغلغل فيه إلى منـتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود"(4)، ومن هؤلاء: الإمام محمد بن علي الشوكاني حيث يقول عن نفسه: "وها أنا أخبرك عن نفسـي وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسـي، فإني في أيام الطلب وعنوان الشباب شغلت ذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام، وتارة علم التوحيد، وتارة علم أصول الدين، وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم، ورمت الرجوع بفائدة والعود بعائدة فلم أظفر من ذلك بغـير الخيبة والحيرة وكان ذلك من الأسباب التي حببت إلي مذهب السلف على أني كنت قبل ذلك عليه ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وبه شغفاً"(٥)، وما هذا الشك ولا تلك الحيرة التي توصل هؤلاء الجهابذة إليها إلا لكون هذا

(1) سـورة (طـه: من الآية١١٠).
(2) سـورة (مريم: من الآية٦٥).
(3) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة: ٤ / ٧٢، وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلـة والجهمية: ١٩٤/١-١٩٥، ومنهاج السـنة النبوية ٢٧٠/٥- ٢٧١، وكتاب النبوات، لشيخ الإسلام: ص(١١٧).
(4) انظر: قواعد العقائد: ص: (١٠١).
5 - التحف في مذاهب السلف محمد بن علي الشوكاني: ١ / ٧٤

العلم من العلوم التي استغنى عنها المسلمون بما آتاهم الله من الوحي، ولذلك نجد أن كل من مل تلك الطرق لم يجد طريقاً يغنيه إلا طريق القرآن، بعد ما أرهقته طريقة اليونان.

ولكن يستثنى من علم الكلام المذموم ما كان تعلمه من أجل الرد على العقائد المخالفة للقرآن والسـنة[1]، وليس لإثبات العقائد الدينية، فإن ذلك طريقه الوحي، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _: "والسلف لم يذموا جنس الكلام؛ فإن كل آدمي يتكلم، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسـوله والاستدلال بما بينه الله ورسـوله، بل ولا ذموا كلاما هو حق بل ذموا الكلام الباطل، وهو المخالف للكتاب والسـنة وهو المخالف للعقل أيضاً، وهو الباطل، والحذاق العارفون تحقيقه علموا أنه باطل عقلا وشرعاً وأنه ليس بطريق موصل إلى المعرفة، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته إلى الجهل والضلال ومن تبين له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك؛ ولهذا صار حذاق سالكيه ينـتهون إلى الحيرة والشك"[2].

ولعلمهم بأن هذا العلم مأخوذ من عند الكفار ألف بعضهم كتباً في تحريم تعلم هذا العلم مطلقاً؛ وذلك لاستغناء المسـلمين عنه من قبل، كما ألف في ذلك أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حذيفة[3]: كتابه: تحريم النظر في كتب الكلام، نقل فيه اتفاق أهل العلم على أن أصحابه أهل بدع وضلالة وأ م غير معدودين من أهل العلم فقال فيه: "وقد بينا بما سبق فساد علم الكلام من أصله وذم أئمتنا له واتفاق أهل العلم على أن أصحابه أهل بدع وضلالة وأ م غير معدودين من أهل العلم وأن من اشتغل به يتزندق ولا يفلح"[٤]، وقال صديق القنوجي: "العلماء المتقدمون كانوا إذا اطلعوا على شيء من ألفاظ الفلاسفة في أي كلام يرد عليهم اكتفوا في رده وإبطاله بكون فيه شيء من عبارة الفلاسفة، ولم يتشاغلوا ببيان بطلانه، وإن كثيراً من العلماء المتقدمين وكثيراً من المتأخرين وا عن الخوض فيه أشد النهي، وصنف الشيخ جلال الدين السـيوطي كتاباً سماه: (القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق)، ولم يشتغل من اشتغل من المتأخرين؛ إلا لما كثر التعبير بقواعده من المخالفين؛ واستعانوا بالخوض فيه على تيسـير الرد عليهم بالطريق التي سلكوها، وكان

1 - أبجد العلوم: ٢ / ٥٤٥

(2) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام: ١٣/ ١٤٧- ١٤٨، بتصرف يسـير.

(3) توفي سـنة: ٦٢٠ هـ.

4 - تحريم النظر في كتب الكلام: ١ / ٦٥

الأولى: السلوك في طريقة المتقدمين؛ لأن قواعد التعبير بعبارة المنطق كثيرة الغلط وخارجة عن عبارة الكتاب والسـنة واللسان العربي مع أنه مفسدة في كل من الأديان"[1].

وما كان هذا الموقف الحاسم من كثير من علماء الإسلام تجاه هذا العلم إلا لما أدى إليه من مخالفة النصوص الشرعية، وتحريف لبعضها، واختلاف في أصول الدين، كما أ م وجدوا أن أصوله مأخوذة من الكفار[2]الذين لا يعتبرون للنص أي اعتبار؛ ولمـا توصلت إليه مقدمات هذا العلم من نتائج باطلة، مشا ةً لعقائد الكفار من الأمم السابقة.

مصادر علم الكلام:-

إن المسـلمين لما كانت عقائدهم مستقاة من المعين الصافي الأصيل المشرق ألا وهو الوحي _ القرآن والسـنة _ وكلاهما من عند الله الذي خلق البشر وبين لهم ما يجب أن يعتقدوه وهو أعلم بنفسه وصفاته وما يجب نحوه _ لما كانوا كذلك _ كانت عقائدهم تجاه الباري جل وعلى عقائد مشرقة مضيئة، كيف لا وهم لم يتجاوزوا ذلك المنبع الصافي إلى غيره من المنابع، ولكن الأمر لم يستمر على ذلك الحال فلما ازدهرت حركة الترجمة في عهد المأمون[3] ترجمت أقوال الفلاسفة وبدأ بعض المسـلمين يستقون منها العلم، ولكنهم لم يكتفوا في ذلك بالعلوم التطبيقية بل قاموا بترجمة حتى ما يتعلق بجانب العقائد، كما أن نقل تلك العلوم القائمة على علم الكلام كان على سـواعد أناس لا يؤمن جانبهم؛ فإن مما يلفت الانـتباه في أمر هؤلاء المترجمين أن أكثرهم _ فيما اطلعت _ كانوا منحرفي العقيدة، فهم ما بين زنديق حاقد، ونصراني متربص، ومرتزق متهالك، ومن نظر في أسمائهم

---

1 - أبجد العلوم: ٢ / ٥٤٥

2 - موقف المتكلمين من نصوص الكتاب والسـنة للغصن: ٩٠/١

(3) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشـر والرابع عشـر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة: ٢٤٣/١

وسـيرهم بين له حقيقة أمرهم[1]، قال محمد بن إسحاق النديم وهو بصدد بيان بعض أسماء النقلة للكتب الأجنبية إلى اللسان العربي: "ونقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها: البطريق وكان في أيام المنصور، واقليدس بن ناعمة واسمه عبد المسـيح بن عبد الله الحمصي الناعمي سلام الأبرش من النقلة القدماء في أيام البرامكة"[٢]، وهكذا تحمس هؤلاء الكفار لنقل هذه الكتب إلى العربية لعلهم لما وجدوا من الأعطيات الضخمة على أيدي الخلفاء؛ أو ربما لما وجدوا في هذه العلوم من إفساد للعقائد[٣]، قال صديق حسـن القنوجي: "وقد روي أن بعض الخلفاء العباسـيـين لما طلب الفلاسفة ليترجم علم المنطق باللغة العربية شاور كبيراً لهم، فقال: ترجموه لهم فإن علمنا هذا لا يدخل في دين إلا أفسده"[٤]، يقول الباحث على بن بخيت الزهراني: "ومن عجائب الأمور أن حركة الترجمة هذه كان قد تولى العمل ا والإشراف عليها أناس ليسـوا بمسـلمين، من يهود ونصارى ومجوس وطوائف شتى، فما عسى أن تكون النتيجة حين أسـندت حركة الترجمة إلى تلك الطوائف الحاقدة على الإسلام، التي انطلقت في ظل رعاية الدولة وفي كنف تشجيعها تتبارى في إخراج تلك السموم من مكامنها؛ لحقن فكر المسـلمين وعقولهم ا؟ فإن افت هؤلاء المترجمين من أعداء الإسلام على القيام بترجمة هذه الفلسـفة ليؤكد لنا أن هناك مؤامرة خفيةً أو اتفاقاً على الأقل بين هذه الفئات الحاقدة لتدمير المسـلمين من الداخل، وغزوهم فكرياً ذه السموم الخطيرة"[5]، وعلى إثر ذلك كله قام المسلمون بتلقي كثير مما ترجم لهم من هذه الكتب على وجه القبول، حتى ما كان منها في جانب العقائد؛ انبهاراً منهم بالعقول اليونانية فسلكوا بعضهم في الإلهيات مسلكهم، فأصا م من ذلك المسلك ما أصا م من الشك والريـبـة والاختلاف الذي أصاب من قبلهم من الأمم؛ لمـّا ابتغوا غير نور الله ليوصلهم بزعمهم إلى الحق والنور، ولم يكن ما أصا م من ذلك الاختلاف إلا لأ م جعلوا طرائق العقول البشرية التي يعتريها الغي والضلال هي الأساس في

(1) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسـنة للباحث سليمان الغصن: ١/ ٥٠-٥٢
2 - الفهرست: ١ / ٣٤٠
3- انظر: أبجد العلوم، لصديق القنوجي: ٥٤٤/٢
4 - أبجد العلوم: ٢ / ٥٤٥، بتصرف يسـير.
(5) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريـين وآثارها في حياة الأمة: ١/ ٢٤٤

تقرير العقائد وجعلوا الوحي هو المقرر لذلك؛ فالتعارض عندهم بينهما يتم فيه ترجيح العقل البشري على السمع الرباني[1].

ولكننا ما زلنا نجد أن هذا العلم هو الأصل في تلقي العقيدة عند كثير من المعاصرين، بل وحتى بالنسبة إلى المعاهد الإسلامية الكبرى، يقول الباحث علي بن بخيت الزهراني: "أما المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر وغيره فلم توفق إلى تدريس المذهب السلفي، أو حتى تحاول ذلك، وظلت كما هي عليه دوماً من تبن للمذاهب الكلامية وإعراض بل وعداء متوارث لمذهب السلف[2]"[3]، يقول الباحث سليمان الغصن: "كما حاول بعض الكتاب المحدثين إبراز أهمية الكلام، وإظهار دور المتكلمين، وبيان أهمية منهجهم العقلي في تناول القضايا، وفي المقابل نعوا على السلف مجانبتهم للمتكلمين من المعتزلة ونحوهم، وتمسكهم بالنصوص الشرعية، بل صرح بعضهم بأن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة"[4]، يقول الباحث حسن محمود عبد اللطيف: في مقدمة تحقيقه لكتاب غاية المرام في علم الكلام: "ولعل الدراسات الكلامية من أكثر جوانب التراث الإسلامي أصالة وخطراً؛ إذ هي قاعدته الأساسية، وفلسفته الفكرية، وأصوله العقدية التي عنها تنبثق أكثر القيم والعادات الأخلاقية والنظم الاجتماعية والقانونية، بل الاتجاهات الفنية والأدبية. ولكنها _ مع ذلك _ لم تحظ بعد بالعناية التي تستحقها، ولم يتوفر عليها العدد الكافي من الباحثين الذين يقومون على تجديدها وخدمتها؛ بنشر أصولها المخطوطة وتحقيقها، وبعض نظرياتها الهامة وتحليلها، ثم بالتأريخ لها وبنقدها وتقويمها أيضاً على ضوء من أصول الإسلام نفسه والتقدم العلمي المعاصر"[5]، فجعل

---

(1) وفي ذلك يقول الرازي متأثراً بالطرائق العقلية اليونانية ومقدماً لها على الوحي: "فاستواؤه: قهره واستيلاؤه، ونزوله: بره وعطاؤه، ومجيئه: حكمه وقضاؤه، ووجهه: وجوده أو جوده، وحياؤه وعينه: حفظه وعونه: اجتباؤه، وضحكه: عفوه أو إذنه، وارتضاؤه ويده: إنعامه وإكرامه واصطفاؤه"، انظر تأسيس التقديس

2 - وإن كان هذا الكلام ليس على إطلاقه؛ فإنه وإن وجد شيء من العداء والأخذ بالمنهج الكلامي وتدريسه فإننا نجد من المنصفين من أخذ بالمنهج السلفي ونصر أقوال شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، ومنهم على سبيل المثال عميد كلية أصول الدين بالأزهر _ سابقاً _ (الشيخ محمد خليل هراس) _ رحمه الله _ فقد كتب كتاباً سماه: (ابن تيمية السلفي ونقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات، وللشيخ الهراس جهوده المباركة في بيان عقيدة السلف.

3 - انظر: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارها في حياة الأمة: ١/ ٢٦٢، واقرأ دور حاكم المغرب في بداية القرن الثالث عشر الهجري في إرساء قواعد علم الكلام في البلاد، في نفس المصدر: ٢٦١/١

(4) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، للباحث سليمان الغصن: ٩٨/١، وانظر: ضحى الإسلام: ٢٠٢/٣-٢٠٧.

(5) مقدمة التحقيق لكتاب: غاية المرام في علم الكلام، ص: (٧).

الباحث الدراسات الكلامية _ التي عرفنا مصدرها _ هي القاعدة الأساسية للتراث الإسلامي، وعليها تبنى أكثر القيم الدينية، فيا ليت شعري ما تلك القيم التي سنبنيها على هذا التراث اليوناني بعد أن نجعل الدراسات الكلامية هي قاعدتنا الأساسية، بدلاً من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ فإنه لم يقل: بأن علم الكلام قاعدة ثانوية، ولكنه اعتبره هو القاعدة الأساسية للتراث الإسلامي، ولا أدري ما هي أصول الإسلام التي يرى أن ننقد على أساسها تلك المخطوطات الكلامية، بعد أن نكون قد أسسنا تراثنا الإسلامي على الدراسات الكلامية، فكيف نتحاكم إلى من نريد أن نقاضيه، وكيف نضع القاضي _ بعد أن اعترفنا بمصداقيته _ في قفص الا ام.

ولكن من قبل قال الإمام مالك: "لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل"[1]، فأما كونه باطلاً؛ فلأنه أُخذ عن الكفار، وقد استغنى المسلمون عنه في إثبات عقائدهم من قبل؛ فلم يكونوا ليأخذوها إلا من الكتاب والسنة[2]، وأما أنه يدل على باطل: فهو من جهة ما جره علم الكلام من العقائد الفاسدة على وجه العموم، وأقول: على وجه العموم؛ لما أثبته علم الكلام من بعض العقائد الصحيحة مؤيداً بذلك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يشفع ذلك له؛ فقد استغنى السلف من قبل عن هذا النوع من الإثبات العقلي، بالإثبات الذي جاء به القرآن والسنة الصحيحة، ثم جاء علم الكلام من بعد؛ ليثبت بعض العقائد الصحيحة بناء على المعقولات المستوردة، وبناء على نظريات مأخوذة من اليونان، ثم أدى الاعتماد على نفس تلك النظريات إلى نفي بعض العقائد الثابتة الأخرى؛ مجاراة لتلك النظريات بحجة أ ا أثبتت بعض العقائد الصحيحة، ولو كان ذلك على حساب البعض الآخر من العقائد الإسلامية الثابتة بالقرآن والسنة الصحيحة، ولم يفرق الوحي بين هذه العقائد أو تلك بل أثبتها جميعاً من قبل، فما أشد غنى المسلمين عن علم الكلام! وما أشد تعلق بعضهم به! والله المستعان.

كل هذا الإصرار من بعض المسلمين في الماضي والحاضر على الاعتماد على علم الكلام في جانب العقائد أدى إلى وقوعهم في التشبه بالكفار، وذلك من جهتين: من جهة الوسيلة ومن جهة الغاية (وهي النتيجة)، فالوسيلة علم الكلام المأخوذ من عند

1 - رواه الهروي في ذم الكلام، ص: (٢٩٤).

2 - انظر: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، للباحث سليمان الغصن: ١٠١/١

الكفار، والنتيجة[1]: هي الوقوع في بعض العقائد المشا ة لعقائد الكفار، وكل ذلك فيما يتعلق بالغيبيات التي لا ينبغي أن تؤخذ إلا ممن يعلم الغيب (وعنده مفَاتح الْغيبِ لا يعلَمها إلا هو)[2]، وهنا أعرض لذكر بعض تلك النـتائج التي وقع فيها المتكلمون لمـا سلكوا هذا المسلك.

محاولة إثبات وجود الله:

موقف أهل السـنة والجماعة من إثبات الباري أنه يمكن أن يكون ذلك عن طريق تصديق النبي أو الرسـول ولا يلزم أن يكون التصديق بإثبات الباري عن طريق النظر، ولا يشتغلون بإثبات وجود الله أصلاً إلا فيما يتعلق بجانب الرد على المخالفين من الملحدين، أو في مناقشة المتشككين؛ لأن المسألة عندهم فطرية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))[٣] ، فلا يلزمون الناس بالاشتغال بإثبات وجود الله، إلا لمن وجد في نفسه شك من ذلك، أو كان في ذلك رد على المخالفين من الملحدين الذين ينكرون وجود الله أصلاً، وهنا مسألتين:-

الأولى: أن أهل السـنة لا يشتغلون بإثبات وجود الله؛ لأن ذلك أمر فطري قد جبلت عليه النفوس[4]، يقول الشيخ أحمد سعد حمدان _ حفظه الله _: "فما عدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان. على صانع حكيم قادر عليم، (أفي الله شك)[٥]، (ولَئن سأَلْتهم من خلَقَهم لَيقُولُن الله)[٦]، (ولَئن سأَلْتهم من خلَق السماوات والأَرض لَيقُولُن خلَقَهن الْعزيز الْعليم)[٧]، إن هم غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء فلا

---

(1) ومن هنا يبدأ الكلام عن أمثلة من مشا ة المتكلمين للكفار؛ لأ ا هي النتيجة الحتمية للوسـيلة الـتي اتبعوهـا وكانوا في غنى عنها.

(2) سـورة: (الأنعام: من الآية٥٩).

3 - صحيح البخاري: ١ / ٤٦٥، برقم: (1319)، ومسلم:٢٠٤٧/٤ برقم: (٢٦٥٨).

(4) للفائدة: انظر: كتاب فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، د. أحمد سعد حمدان الغامدي، حفظه الله، فقـد بين فيه بجلاء موقف أهل السـنة من إثبات وجود الباري.

(5) سـورة إبراهيم الآية: (١٠).

(6) سـورة الزخرف الآية: (٨٧).

(7) سـورة الزخرف الآية: (١٠).

شك أ م يلوذون إليها في حال الضراء: (دعوا الله مخلصين له الدين)[1]،(وإذَا مسكُم الضر في الْبحرِ ضل من تدعونَ إلا إياه)[2]. ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشـرك"[3].

وأما من شوهت فطرته فكان في شك من وجود الله، فإن إيمانه بالنبي صلى الله عليه وسلم _ عن طريق أعلام النبوة _ سـيدله بالضرورة إلى الإيمان بوجود الله ولا شك، قال الإمام الخطابي _ رحمه الله: "فأما مثبتوا النبوات فقد أغناهم الله تعالى عن ذلك وكفاهم كلفة المؤونة في ركوب هذه الطريقة المنعرجة التي لا يؤمن العنت على راكبها والانقطاع على سالكها"[4]؛ فإن إثبات النبوات يقتضي بالضرورة الإيمان بوجود الخالق المعبود، وعلى هذا فلا يجب على كل من آمن بالنبي ﷺ أن يبحث عن إثبات وجود الله فإن إيمانه بالنبي ﷺ يقتضي إيمانه بصدق أخباره وقد أخبر النبي ﷺ بأنه جاء بالوحي من عند الله عز وجل.

ولذلك فإن الله لما أرسل رسـوله موسى _ عليه السلام _ إلى أحد منكري وجود الله في التاريخ (فرعون): وعظه بالنسبة لإنكاره لوجود الله فقال: (فَقُلْ هلْ لَك إلَى أَنْ تزكى،وأَهديك إِلَى ربك فَتخشى)[5]، ولم يقنعه بآية لأن المسألة مفروغ منها عند فرعون وغيره، ولكنه حين أراد أن يثبت له صدق رسالته أتاه بالمعجزة من عند الله، (فَأَراه الآيةَ الْكُبرى)[6]، ومعلوم أن هذه الآية ليست لإثبات وجود الله بقدر ما هي لإثبات صدق الرسالة التي جاء ا الكليم عليه السلام.

والثانية: أن هؤلاء المتكلمين يلزمون الناس بالبحث عن وجود الله أولاً، يقول الشيخ أحمد سعد حمدان _ حفظه الله _: "ولهذا فإن المتكلمين أول ما يوجبون على الشخص: ((المعرفة)) أي: معرفة الله عز وجل على اختلاف في بدايات المعرفة ويحكون على ذلك الوجوب: الإجماع لظنهم أن ذلك قضية إجماعية"[7]، يقول الإيجي: "قد اختلف في أول

(1) سـورة يونس الآية: (٢٢).
(2) سـورة الإسراء الآية: (٦٧).
3 - فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، د. أحمد سعد حمدان الغامدي، ص: (٢٠٣- ٢٠٤).
4 - الغنية عن الكلام: ص: (٩٤).
(5) سـورة النازعات الآية: (١٩).
(6) سـورة النازعات الآية: (٢٠).
(7) انظر: فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، د. أحمد سعد حمدان الغامدي، ص: (٢٠٢).

واجب على المكلف أنه ماذا فالأكثر ومنهم الشيخ أبو الحسـن الأشعري على أنه معرفة الله تعالى إذ هو أصل المعارف والعقائد الدينية وعليه يتفرع وجوب كل واجب من الواجبات الشرعية كما مر وهو قبلها وهذا مذهب جمهور المعتزلة والأستاذ أبي إسحاق الأسفرائيني وقيل هو أول جزء من النظر لأن وجوب الكل يستلزم وجوب أجزائه فأول جزء من النظر واجب وهو متقدم على النظر المتقدم على المعرفة وقال القاضي واختاره ابن فورك وإمام الحرمين إنه القصد إلى النظر لأن النظر فعل اختياري مسبوق بالقصد المتقدم على أول أجزائه والا اع لفظي إذ لو أريد الواجب بالقصد الأول أي لو أريد أول الواجبات المقصودة أو لا وبالذات فهو المعرفة اتفاقاً وإلا أي وإن لم يرد ذلك بل أريد أول الواجبات مطلقاً فالقصد إلى النظر لأنه مقدمة للنظر الواجب مطلقاً فيكون واجباً أيضا وقد عرفت أن وجوب المقدمة إنما يتم في السبب المستلزم دون غيره"[1]، وهذا إيجاب على المكلف بأن يعمد إلى النظر، بل جعلوه أول واجب على المكلف، وهو إيجاب لما لم يوجبه الله.

وهكذا فإن المتكلمين ألزموا الناس باستخدام طريقتهم في الاستدلال، رغم أن هذه الطريقة تسببت في أخطاء في العقيدة وفي الصفات بشكل أخص.

قال الخطابي _ رحمه الله _ مؤكداً لما سبق: "إنا لا ننكر أدلة العقول والوصل ا إلى المعارف، ولكننا لا نذهب في استعمالها إلى الطريقة التي سلكتموها في الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلا ا فيها على حدوث العالم وإثبات الصانع، ونرغب عنها إلى ما هو أوضح بياناً وأصح برهاناً، وإنما هو الشيء أخذتموه عن الفلاسفة واتبعتموهم عليه، وإنما سلكت الفلاسفة هذه الطريقة؛ لأ م لا يثبتون النبوات ولا يرون لها حقيقة فكان أقوى شيء عندهم في الدلالة على إثبات هذه الأمور ما تعلقوا به من الاستدلال ذه الأشياء"[2].

لقد كان المزلق الأول لمن أخذ بعلم الكلام: أ م اقتنعوا ببدايات المتكلمين لما بدؤوا بإثبات الصانع فلم يكن عند اليونانيـين وحي يقتنعون به يستقون منه العقيـدة وكـانوا يعيشون في ضلال فلا يعرفون رباً ولا إلـهاً ولا يعرفون نبياً ولا رسـولاً، ولكن الحاصل أن متكلمي المسـلمين لما بدؤوا الكلام في ما يجب اعتقاده كانت بدايتهم هي نفس بداية

1 - المواقف: ١٦٤،١٦٥/١

(2) الغنية عن الكلام: ص: (٩٤).

الفلاسفة وهي إثبات وجود الخالق جل وعلا [1]، قال شـيخ الإسـلام ـ رحمـه الله ـ: "وأصل ذلك أ م طلبوا أن يقرروا ما لا ريب فيه عند المسـلمين، من أن الله تعالى خالـق السماوات والأرض، وأن العالم له صانع خالق خلقه"[٢]، وكانت للمتكلمين طريقتـان في إثبات الصانع[٣]: طريقة الجواهر والأعراض[٤]أو طريقة الإمكان والوجوب[٥]، وهي مبنيـة على ما شاهده المتكلمون من الشواهد الحاضرة أمامهم وما جبلت عليـه مـن صـفات، وللتمثيل على ذلك أسـوق ما قاله الآمدي وهو يستدل على صفة الحياة للرب عز وجـل فقد قال: "وإذا ثبت كونه قادراً مريداً عالماً وجب أن يكون حياً؛ إذ الحياة شـرط هـذه الصفات على ما عرف في الشاهد"[٦]، فطريقتهم هي قياس الغائب على الشاهد[7] في تقرير صفات الباري عز وجل؛ وفي الحقيقة قياس الشاهد على الغائب ذه الطريقة ليس بصحيح في هذا الباب؛ فإن الله عز وجل قد عرفنا بنفسه فقال: (لَيس كَمثْله شيءٌ وهـو الـسميع الْبصير)[٨]، فلا ينبغي أن يقاس بأحد من خلقه من كل وجه، وإن كانت هـذه الطريقـة أثمرت بالنسبة لإثبات هذه الصفة، فسـنرى كيف صارت هذه القاعدة عنـد المـتكلمين قاعدة تنفي الكثير من الصفات الثابتة للباري جل وعلا بالقرآن والسـنة؛ وذلك بـسبب

---

(1) انظر ما بدأ به الآمدي كتابه غاية المرام في علم الكلام حيث بدأه بالقانون الأول (في إثبات الواجب بذاتـه) على طريقة المتكلمين، ص: (٩).

2 - انظر: بيان تلبيس الجهمية: ١ / ١٣٩، و بيان تلبيس الجهمية: ١ / ١٠١.

(3) انظر ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، د. عبد الله محمد جار النبي، ص: (١٧٩).

4 - وطريقة الجواهر والأعراض مفادها: أ م يقسمون العالم إلى جواهر وأعراض، والجواهر لا تخلو عن الأعراض، والأعراض حادثة، وما لا يخلو عن الحودث فهو حادث ينتج: أن العالم بجميع أجزائه حادث، أما الأعراض فبعـضها بالمشاهدة وبعضها بالدليل. وأما الجواهر فبالدليل، وهو أ ا لا تخلو عن الحوادث وما لا يخلو عـن الحـوادث فهـو حادث، وإذا ثبت أن العالم حادث كان لا بد من محدث يخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود. انظـر: ابـن قـيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، د. عبد الله محمد جار النبي، ص: (١٨٠).

5 - وطريقة الإمكان والوجوب مفادها: أنه لا شك في وجود موجود، فإن كان واجباً ثبت وجود الواجب وإن كان ممكناً فإن وجوده لا يمكن أن يكون من ذاته بل لا بد من علة فإن كانت واجبة ثبت وجـود الواجـب، وإن كانت العلة ممكنة فلا بد لها من علة وهكذا، ويستحيل أن تستمر سلسلة العلل إلى ما لا اية لأن ذلك يـؤدي إلى التسلسل وهو محال، وكذلك يستحيل أن يتوقف الأول على الأخير فيؤدي إلى الدور وهو محال، ولذلك لا بـد أن تقف السلسلة عند موجود واجب ليس له علة، هذا الموجود هو واجب الوجود، وهو الله تعالى. انظر: ابـن قـيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، د. عبد الله محمد جار النبي، ص: (١٩٥)، وانظر: المعتزلة بين القديم والحديث، محمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص: (١٦-١٧).

6 - غاية المرام في علم الكلام: ص: (٤٥).

(7) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ٤٦/٢ – ٦٧/٢، وانظر: اية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني: ١٨٢

(8) سورة: (الشورى: من الآية١١).

توهم تشبيه الخالق بالمخلوق في الصفات التي نسبت للمخلوق وهو ما يعبرون عنه بالحادث الذي تخالف صفاته صفات واجب الوجود، جاء في أبجد العلوم: "وتوصلوا إلى إبطال مسائل التوحيد؛ لأنهم جعلوا مسائل التوحيد مبنية على قياس الغائب على الشاهد[1]"[٢]، قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ: "وأما الخوض في الأعراض والأجسام كما خاض فيه المتكلمون كقولهم ليس بجسم ولا عرض ونحو ذلك فأول من ابتدعه في الإسلام: الجهمية[٣] وأتباعهم من المعتزلة، لا يعرف في هذه الأمة حدوث القول في الله بأنه ليس بجسم ولا جوهر ونحو ذلك إلا من جهة هؤلاء، وكذلك الاستدلال على حدوث العالم بطريق الجسم والعرض إنما ابتدعها في الإسلام هؤلاء، **وهذا أصل علم الكلام**"[٤]، وأسوق هنا كلاماً جليلاً للإمام ابن قيم الجوزية، حيث يقول: "وهذا الطريق من الناس من يظنها من لوازم الإيمان. وأن الإيمان لا يتم إلا بها، ومن لم يعرف ربه بهذه الطريق لم يكن مؤمناً به ولا بما جاء به رسوله. ومن الناس من يقول: ليس الإيمان موقوفاً عليها ولا هي من لوازمه، وليست طريق الرسل، ويحرم سلوكها لما فيها من الخطر والتطويل، وإن لم يعتقد بطلانها. وهذا القول لأبي الحسن الأشعري نفسه، فإنه صرح بذلك في رسالته إلى أهل الثغر، وبين أنها طريق خطرة مذمومة محرمة، وإن كانت غير باطلة، ووافقه على هذا جماعة من أصحابه من أتباع الأئمة، وقالت طائفة أخرى: بل هي طريق في نفسها متناقضة مستلزمة لتكذيب

---

(1) وفي هذا النوع من القياس يقول شيخ الإسلام: "ما جاء به الرسول لا يجوز أن يعارض بضرب الأمثال له ولا يدركه كل أحد بقياس ولا يحتاج أن يثبته بقياس بل هو ثابت بنفسه وليس كل ما ثبت يكون له نظير وما لا نظير له لا قياس فيه فلا يحتاج المنصوص خبراً وأمراً إلى قياس بخلاف من أراد أن ينال كل ما جاءت به الرسل بعقله ويتلقاه من طريق القياس كالقياس العقلي المنطقي وهو قياس الشمول أو قياس التمثيل ونحو ذلك فإن كلاً من هذا وهذا يسمى قياساً"درء تعارض العقل والنقل: ٣١٨/٧

2 - بتصرف يسير: أبجد العلوم، لصديق القنوجي: ٥٤٤/٢

(3) "الجهمية: إحدى الفرق الكلامية التي تنتسب إلى الإسلام، قامت على البدع الكلامية والآراء المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، متأثرة بعقائد وآراء اليهود والصابئة والمشركين والفلاسفة الضالين. وأول من قال بهذه العقيدة الفاسدة وإليه تنسب هو : الجهم ابن صفوان، الذي أخذها عن الجعد بن درهم الذي أخذها عن أبان بن سمعان اليهودي. وأول ما ظهرت بدعتهم ظهرت في بلدة ترمذ بخراسان بلد الجهم بن صفوان، وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية الجهمية إلى درجات ثلاث: الأولى: وهم الجهمية الغالية النافون لأسماء الله – تعالى – وصفاته، وإن سموه بشيء من الأسماء الحسنى، قالوا: هي مجاز. والثانية: وهم المعتزلة ونحوهم الذين يقرون بأسماء الله – تعالى – الحسنى، لكنهم ينفون صفاته جل وعلا ولا يعني ذلك أنهم جبرية في القول بالقدر. الثالثة: وهم الكثير من الفرق الكلامية وطائفة من أهل الحديث، كمحمد بن كلاب ومن اتبعه وأبي الحسن الأشعري وطوائف من أهل الفقه والتصوف، وهم يقرون بأسماء الله – تعالى – وصفاته في الجملة، ولكنهم يردون طائفة من الأسماء والصفات الخبرية وغير الخبرية ويؤولونها"، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٤٠/٢-١٠٤١ .

4 - بيان تلبيس الجهمية: ٢ / ٤٩٨- ٤٩٩

الرسـول لا يتم سلوكها إلا بنفي ما أثبته، وهي مستلزمة لنفي الصانع بالكلية، كما هـي مستلزمة لنفي صفاته ونفي أفعاله، وهي مستلزمة لنفي المبدأ والمعاد؛ فإن هذه الطريق لا تتم إلا بنفي سمع الرب وبصره وقدرته وحياته وإرادته وكلامه، فضلاً عن نفي علـوه علـى خلقه، ونفي الصفات الخبرية من أولها إلى آخرها، ولا تتم إلا بنفي أفعاله جملة وأنه لا يفعل شيئاً البتة"(١).

يقول د. عبد القادر محمد عطا: "اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _ هذا الدليل _ دليل الأعراض وحدوث الأجسام _: "أعظم القواطع العقلية التي يعارضون ا الكتب الإلهية، والنصوص النبوية، وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها"(2)؛ لذلك كان هدم هذه القواطع العقلية، والأصول الأساسـية: هدماً لمذهب المبتدعة، واجتثاثاً له من جذوره؛ فإذا هدم الأصل، فلا عبرة بالفرع؛ كالشجرة تجتث من جذورها، أي حياة في أغصا ا وفروعها"(٣)، يقول الشيخ خليل هراس _ رحمه الله _: "ومن الحق أن نقرر أن ابن تيمية كان على صواب فيما عمد إليه من إفساد هذه الطرق والتحذير من سلوكها؛ فإ ا طرق معتاصة يصعب تصورها على كثير من الناس وفي مقدمتها طول وخفاء ونزاع كثير بحيث لا يمكن إثبا ا بطريق قطعي، فكيف تجعل سبيلاً لتحصيل أشرف المطالب وهو الإيمان بالله تعالى، وإن من أعظم الحرج أن نكلف العامة ومن لا قدرة لهم على النظر أصلاً بتحصيل معنى الإمكان والحدوث والتغير والجوهر والعرض وغير ذلك مما يدخل في تركيب هذه الأدلة، ثم نقول لهم إنكم لا يصح إيمانكم بالله إلا من هذه الطريق فنضيق عليهم رحمة الله ونصدهم عن سبيله ونكلفهم من الأمر ما لا يطيقون"(٤).

وهذا المسلك من مسالكهم في إثبات الصانع، وهو مأخوذ من الكفار في الأصل، وهي طريقة جالينوس، **قال الإيجي** في **المواقف**: "مذهب جالينوس في حدوث الأجسام مسالك، المسلك الأول وهو المشهور: الأجسام لا تخلو عن الحوادث وكل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث"(5)، وقد أُلفَت بعض الكتب في بيان أصل هذه الطريقة في إثبات الخالق وأ ا جاءتنا من عند الكفار، قال صديق القنوجي: "وللسـيد الإمام العلامة محمد بن الوزير كتاب: (ترجيح أساليب القرآن لأهل الإيمان على أساليب اليونان، وبيان ذلك

(1) انظر مختصر الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية، ص: (١٨٦).
(2) درء تعارض العقل والنقل: لابن تيمية: ٣٠٨/١
3 - الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبيهم في الصفات: ٢٠٣/٢
4 - باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات، ص: (٨٢).
(5) المواقف للإيجي: ٦٠٩/٢

بإجماع الأعيان بأوضح التبيان)، وكتاب: (البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع) رد في هذين الكتابين على المتكلمين والكلام، وأثبت أن جميع مسائل هذا العلم تـثبت بالسـنة والقرآن، ولا يحتاج معهما إلى قوانين المتكلمين وقواعد الكلام وهما نفيسان جداً"[1]، فهذه البداية غير صحيحة، وفيها مشا ة لطريقة اليونان.

ثم تدرجوا مع لوازم الدلائل التي استدلوا ا لإثبات الخالق مما أدى م إلى نفي بعض الصفات؛ حتى لا ينخرم دليل إثبات الصانع؛ فهي مبنية على ثلاث مقدمات كلها تعتمد على الأمور المحسـوسة وعلى أساسها تم القياس بالنسبة للمغيبات وهذه المقدمات هي: الأعراض حادثة، والأجسام لا تخلو من الحوادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث[2]، فالأعراض المشاهدة حادثة والأجسام المشاهدة لا تخلو من الحوادث، فالأجسام كلها حادثة؛ ولذلك فلا يجوز للباري أن يتصف بصفات الحوادث بأن يكون محلاً لها؛ حتى لا ينخرم دليل وجود الصانع؛ ونفياً للتشبيه بالمخلوقات في زعمهم، وبذلك نفى بعض المتكلمين الأسماء والصفات[3]ونفى بعضهم بذلك الصفات[4]، ونفى بذلك بعضهم بعض الصفات وأولوا البعض الآخر[5]، بل أدى ببعضهم ممن تمادى في الغي والضلال إلى أن يقول بقول ظاهره نفي الذات حتى ينفي بذلك عن الخالق مطلق ما للحوادث من صفات[6]، وزعموا أ م بذلك يرومون نفي التشبيه عن الخالق بالحوادث، فوقعوا بذلك في تشبيهه بالمعدومات، ووقعوا هم في التشـبه بالملحدين الذين نفوا وجود الله أصلاً.

تعطيل صفات الباري:

وبناءً على الأساس الذي وضعوه وهو أن سبيل إثبات الصانع إنما يكون عن طريق الحدوث فإن وصفه بما هو من خصائص الحوادث هو من التجسـيم الذي يبطل به دليل الصانع عندهم؛ فإن المقدمة القائلة: ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث "تعني نفي جميع صفات الله عز وجل الفعلية كالاستواء وا يء وا ول إلى سماء الدنيا والرضى والغضب

1 - أبجد العلوم: ٢ / ٤٤١

2 - انظر مختصر الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية، ص: (١٨٥- ١٨٦).

3 - كما قالت الجهمية، انظر: منهاج السـنة النبوية لشيخ الإسلام: ٣٩٢/٥.

4 - كما قالت المعتزلة، انظر: اية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني: ص: (١٩١).

5 - كما قالت الأشاعرة، انظر: كتاب الأربعين للرازي، ص: (١٠٦-١١٣).

6 - كما قال بذلك طائفة من المتكلمين، انظر: بيان تلبيس الجهمية: ٨٣/٢، وانظر: كشف الأوهام والالتباس عن تشـبه بعض الأغبياء من الناس، ص: (٩٠).

ونحو ذلك مما وردت به النصوص لأ ا عندهم: حوادث فلو جاز حلولها في ذات الله لكان مخلوقاً حسب القاعدة التي قعدوها لإثبات الخالق"[1]، وعلى أساس أن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث "فما دام أن الأجسام لم توجد بمفردها قبل الأعراض والأكوان _ التي تسمى حوادث _فإذن الأجسام مخلوقة؛ لأ ا لا تسبق الحوادث، وهذه القاعدة _ كذلك _ نفوا بسببها جميع الصفات الفعلية التي تقوم بذات الله عز وجل بمشيئته متى ما أراد"[2]، وليس كل المتكلمين ينفون جميع الصفات الإلهية؛ فإن منهم من أثبت الصفات التي توصلوا إليها عن طريق العقل، وأولوا ما سـوى ذلك مما يتعارض مع العقل _ في زعمهم _ كصفة النـزول، واليد والعين والاستواء وغير ذلك من الصفات الخبرية[٣]التي لا تثبت إلا عن طريق السمع، يقول الآمدي: "وأما خبر النـزول فإنه يحتمل أن يكون المراد النـزول بمعنى اللطف والرحمة وترك ما يليق بعلو الرتبة وعظم الشأن والاستغناء الكامل المطلق"[٤]، وهذا التأويل رد عليه العلماء من أهل السـنة والجماعة في موضعه وسموه تعطيلاً؛ لأنه غاية ما يؤدي إليه قولهم.

قال شيخ الإسلام: "ثم أصل هذه المقالة مقالة التعطيل للصفات إنما هي مأخوذة عن تلامذة اليهود والمشـركين وضلال الصابئين فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام _ أعنى أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة وأن معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك _ هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم ابن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي، وكان الجعد بن درهم هذا فيما قيل من أهل حران، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين نمرود، والكنعانيـين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم، ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانيـين المشـركين كما أن كسرى ملك الفرس وا وس وفرعون ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة وبطليموس ملك اليونان وقيصر ملك الروم فهو اسم جنس لا اسم علم، فكانت الصابئة إلا قليلاً منهم إذ ذاك

(1) فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: ص: (٢٢٩).

(2) فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: ص: (٢٢٩).

3 - يقول الشيخ خليل الهراس _ رحمه الله _: "يكاد يكون من المتفق عليه بين الفلاسفة والمعتزلة: نفـي تلـك الصفات الخبرية وتأويل ما ورد فيها من الآيات والأحاديث"، ص: (١٤٦)، من كتابه: باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات.

4 - غاية المرام: ١٤٢/١

على الشـرك وعلماؤهم هم الفلاسفة وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركاً بل مؤمناً بالله واليوم الآخر كما قال الله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1]، لكن كثيراً منهم أو أكثرهم كانوا كفاراً أو مشركين كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا وصاروا كفاراً أو مشركين فأولئك الصابئون الذين كانوا إذ ذاك كانوا كفاراً أو مشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل"[2]، ولقد انـتهج أكثر المتكلمين في تعطيل صفات الباري _ جل وعلا _ سبيل التأويل؛ ليخرجوا من تبعة رد النص القرآني، وادعوا أن نسبة الصفات إلى الرب _ عز وجل _ إنما هي على سبيل المجاز اللغوي، يقول الباحث أحمد الحربي: "والذي يغلب على الظن كما أن القول بنفي الصفات انتقل إلى الجهمية والمعتزلة من طريق اليهود والنصارى فكذا القول بالتأويل؛ إذ أن التأويل بهذا الاصطلاح كان معروفاً عند اليهود والنصارى قبل ظهوره على يد الجهمية والمعتزلة، ففي اليهودية ارتبط التأويل باسم (فايلو الإسكندراني)[٣] الذي كان ينفي الصفات الخبرية التي وردت في التوراة[٤]، ويؤكد على وجوب تفسـيرها تفسـيراً مجازياً وفق قوانين التأويل المجازي التي حددها هو بنفسه. وسار على نهج (فايلو) عدد من لاهوتي اليهود في العصور الإسلامية، منهم: سعدايا الفيومي[5]، وموسى بن ميمون[١]الذي أكد في

---

(1) سـورة البقرة: الآية: (٦٢).

(2) مجموع الفتاوى: ٢٠/٥

3 - أول فيلسـوف يهودي جمع بين الفلسـفة والتدين على الطريقة اليهودية، ودرس اليونانية، وكـان وثيـق الصلة بالفلسـفة اليونانية، وقام بتفسـير النصوص الدينية تفسـيراً رمزياً على أساس أنها تحتوي جميعاً على أفكـار أتت بها الفلسـفة اليونانية! انظر: موسـوعة الفلسـفة، بدوي: ٢١٩/٢-٢٢٨، وفيها ذكر باسم: (فايلون).

(4) "التوراة: لفظة التوراة كلمة مستعربة عن أصلها العبري تورا، بمعنى القانون والتعليم والشريعة، وهي الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى، في طور سـيناء، مشتملة على العقيدة والشريعة، كتب موسى منها ثلاث عشرة نسخة، وأعطى لكـل سبط نسخة، ووضع نسخة في التابوت، وتطلق على الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم. وظلت التوراة على حالها مـع بني إسرائيل إلى سـنة ٥٨٦ ق.م. عندما هزم ملك بابل نبوخذ نصر بني إسرائيل، وساق الأعيان والوجهاء منهم إلى بابـل، ظن علماؤهم أن ملكهم أوشك على الزوال، وأن النبي المنتظر من آل إسماعيل على وشك الظهور، فعمدوا إلى تحريف التوراة بكتابتها من جديد، وحرفوا نصوص النبوءات عن النبي المنتظر من آل إسماعيل"، انظر: الموسـوعة الميـسرة في الأديـان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٣٠/٢-١٠٣١

(5) هو سعدايا بن يوسف الفيومي: (٢٦٩-٣٣١)هـ، فيلسـوف يهودي مصري، ولد بالفيوم مـن أعمـال الصعيد، وتوفي في بغداد، ويعده اليهود أول فلاسفتهم الربانيـين، وكتابه الرئيسـي: (الأمانات والاعتقادات) ألفـه بالعربية، ويحاول فيه الجمع بين العقل والنقل بتأويل النقل حتى يتفق مع العقل، انظر: الماتريدية دراسة وتقويماً، لأحمد الحربي، ص: (١٦٦- ١٦٩).

كتابه (دلالة الحائرين) أن السبب الرئيس الذي أدى إلى ظهور التشـبيه هو التمسك بظاهر الصفات الخبرية التي وردت في التوراة وتفسـيرها بالحقيقة دون ا از. وفي النصرانية ظهر القول بالتأويل ا ازي على يد (كلمانت الإسكندري)[٢] و(أوريجين)[٣]، والقديس: (أوغسطين)[٤]، واشتهر به أيضاً: (يوحنا الدمشقي)[٥] الذي يعتبر من أكبر آباء الكنيسة الشرقية، وقد كان له دور كبير في ظهور الجدل العقلي بين المسـلمين، بل يعده كثير من الباحثين المسؤول الأول عن ظهور الجدل العقلي في البيئة الإسلامية"[6].

وطريقة المتكلمين في إنكار الصفات المبنية على صريح المعقول عندهم وإن كانت تلك الصفات قد ثبتت بالكتاب أو السـنة أو الإجماع، ليست طريقة جديدة، بل سبقهم ا مشركوا العرب حينما حكموا عقولهم في نفي ما أثبته الرسـول صلى الله عليه وسلم من خلال القرآن من البعث بعد الموت، حيث قالوا _ كما جاء في القرآن _: (قَالُوا أَإِذَا متنا وكُنا تراباً وعظَاماً أَإنا لَمبعوثُونَ)[7]، فعارضوا الوحي، في صريح ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من البعث بعد الموت، وطريقة المتكلمين فيها مشا ة لما سلكه مشركوا مكة حين صعب عليهم التصديق بما يخالف مشاهدا م، فادعوا مخالفة صريح الوحي للحس والمشاهدة والمعقول، فكفروا بالوحي، لأ م لم يجدوا مخرجاً إلا إنكار أحد المتناقضين على حسب ما توصلوا إليه، وأما المتكلمون الذين ادعوا مخالفة صريح الوحي للقطعيات العقلية حاولوا أن يخرجوا من هذا التعارض الذي في أذها م بتأويل النص أو بالطعن في ثبوته، فلم يكن من فرق بينهما إلا أن مشركي العرب عارضوا الوحي بالحس والمشاهدة، وهي بلا

---

1 - هو موسى بن ميمون بن يوسف بن إسحاق، أبو عمران القرطبي، طبيب فيلسـوف يهودي، وعالم لاهوتي بالديانة اليهودية، ولد في قرطبة عام ٥٢٩ هـ ،وتعلم ا، ورحل إلى مصر سـنة ٥٦٧هـ وأقام في القاهرة وكـان فيها رئيساً روحياً لليهود له مكانـته العظيمة عندهم، ومات ا سـنة: ٦٠١هـ، له تصانيف كثيرة من أشهرها: دلالة الحائرين. انظر: عيون الأنباء: ٥٨٢، وانظر: موسـوعة الفلسـفة بدوي: ٤٩٧/٢-٥٠٠.

2 - من علماء مدرسة الإسكندرية الدينية النصرانية، ولد في أثينا سـنة: ١٥٠م تقريباً، ثم انتقل إلى الإسـكندرية واستقر ا، وتلقى الفلسـفة على أساتذة النصرانية ا، ومات في فلسطين سـنة ٢١٣م، انظر: الماتريديـة دراسـة وتقويماً، لأحمد الحربي، ص: (١٦٦- ١٦٩).

3 - من أكبر فلاسفة الآباء المسـيحيـين، ومن علماء مدرسة الإسكندرية، ولد في نحو: ١٨٥م،وتعلم على يـد كليمانت الإسكندري، ومات نحو عام:٢٥٣م، انظر: الماتريدية دراسة وتقويماً، لأحمد الحربي، ص: (١٦٦- ١٦٩).

4 - لاهوتي وفيلسـوف نصراني، وأحد كبار آباء الكنيسة الكاثوليكية، ولد في تاغشت في شرقي الجزائر سـنة: (٣٥٤)م، تأثر بمذهب المانوية، ووجد فيها ما يرضي نوازعه، انظر: موسـوعة الفلسـفة: بدوي: ٢٤٧/١- ٢٥٢.

5 - انظر: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، حسام الدين الألوسـي: ص: (٩٤-٩٥).

(6) الماتريدية دراسة وتقويماً، لأحمد الحربي، ص: (١٦٦- ١٦٩).

(7) سـورة: (المؤمنون:٨٢).

شك أقوى مما عارض به المتكلمون النص؛ فإ م عارضوه بالمعطيات العقلية المبنية على مقدمات منطقية والمحسـوسات أقوى بلا شك من المعقولات؛ فإن المعقولات لم تقم إلا بما هو محسـوس ومشاهد؛ فأنى لمن كان أعمى أصم أن يرتب مقدمات ليصل ا إلى نتائج صحيحة! وفرق آخر أن مشركي العرب قاموا بالكفر بالنص صراحة، وأما المتكلمون فطريقتهم هي محاولة الجمع بين النص وبين المعقول _ في نظرهم _ بما يزري على النص، ويبقي العقل شامخاً على حساب النص، والله المستعان، هذا هو الفرق بينهما في نظري، وإلا فإن هؤلاء اعترضوا على النص بحجة أنه مخالف للعقل وأولئك كذلك، وهؤلاء أزروا على النص وأولئك ردوه جملة وتفصيلاً، ولم تتهم كلتا الطائفتين ما توصلت إليه من المعقولات.

وفي نفي المتكلمين لبعض الصفات اعتماداً على المنطق، يقول ابن الوزير[1]: "وإنما كره علم الكلام؛ لما يؤدي إليه الخوض فيه من المحارات ومخالفة الضرورات أو المشهورات ألا تري أن المتكلمين لما توغلوا في هذه المباحث أدي ذلك طائفة منهم إلي القدح في الحكمة، وطائفة إلي القدح في القدرة على هداية العصاة، وطائفة إلي القدح في دوام العذاب، ورجحت كل طائفة تأويلها، أما غلاة الأشعرية الذين قدحوا في معني الحكمة فرجحوا ذلك؛ لصعوبة النظر في حكمة الله تعالى في جميع الشرور الدنيوية والأخروية؛ وعجز العقول عن درك ذلك، وأما غلاة المعتزلة فرجحوا قدحهم في القدرة[2] على اللطف أنه قد خاض في أمر معين يحتمل أنه محال ولا بد من إخراج المحال من المقدورات بالإجماع وإلا أدى إلي تجويز قلب القديم حادثاً والحادث قديماً، وغير ذلك مما يستقبح ذكره، وقد أشار الغزالي إلي مثل كلامهم في شرح الرحمن الرحيم من المقصد الأسـنى، وأما الأشعرية فقدحوا في الحكمة بأسرها فكان ما ذهبت إليه المعتزلة أهون من هذه الجهة، وأما ابن تيمية وأصحابه فرأوا أن القدح في الحكمة والقدرة يتطرق إلي النقص في كمال الربوبية وذلك

(1) هو: "السيد محمد بن إبراهيم الوزير بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي الهادوي الإمـام العلامـة والمحدث الأصولي النحوي المتكلم الفقيه البليغ الرحلة الحجة الصوفي كان فريد العصر ونادرة الدهر خاتمـة النقـاد وحامل لواء الإسناد وبقية أهل الاجتهاد بلا خلاف وعناد رأساً في المعقول والمنقول إماماً في الفروع والأصول" انظر: أبجد العلوم: ٣/ ١٩٠.

(2) وربما سهل على المعتزلة ترجيحهم القدح في القدرة بسبب اتصالهم باليهود الذين اشتهر عنهم القول بنـسبة النقائص إلى الله _ تعالى الله عز وجل عما يقولون _ قال شيخ الإسلام: "فإن اليهود لهم بالمعتزلة اتـصال وبينـهما اشتباه ولهذا كانت اليهود تقرأ الأصول الخمسة التي للمعتزلة ويتكلمون في أصول اليهود بما يشابه كلام المعتزلة" درء التعارض: ٩٤/٧

يحتمل الكفر ويضارعه أو يقرب منه"[1]، وإنما كان إنكار الأشاعرة للحكمة بسبب إراد م نفي الغرض عن الله؛ لتوهم التشبيه بالحوادث؛ لأن الغرض هو من الأعراض التي هي من خصائص الأجسام التي ثبت عندهم أ ا حادثة، وذلك بالاعتماد على مقدما م المنطقية.

وفي نفي الحكمة عن الله يقول الآمدي: "ونحن لا ننكر أن ذلك[٢]مما يقع وإنما ننكر كونه مقصوداً بالتكليفات والأمر بالطاعات حتى يقال: إنه خلق لكذا أو لعلة كذا بل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل ويكفى الخصم من سخف عقله وزيف رأيه أن عادت حكمة خلق السموات والأرض والنجوم والشجر والجبال وإظهار الآيات والدلائل والمعجزات وإيجاب الطاعات والعبادات وتصريف الخلائق بين المأمورات والمنهيات إلى لذة يجدها بعض المخلوقين في مقابلة طاعته تزيد على اللذة التي يجدها بطريق الابتداء والتفضل، مع أن الله تعالى قادر على أن يخلق له أضعاف تلك اللذة في التفضل الابتدائي من غير تعب ولا نصب إن الله على كل شئ قدير"[٣]، وهنا يحاول الآمدي أن ينفي صفة الحكمة عن الله بحجة فهمه لمعنى الحكمة في القرآن[٤]بأ ا تشـبه تلك اللذة الحاصلة لدى العبد المقدم على فعل له فيه مصلحة، وكان الأولى به أن ينـزه الله تعالى عن العبث كما نزهه عن حصول اللذة له، فلا لذة ولا عبث تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإن نفي الحكمة عن الله والتي يسميها المتكلمون: الغرض _ تسمية ما أنزل الله ا من سلطان _ يوجب إثبات أن تكون مفعولات الله جل جلاله هي ضرب من العبث.

وقد رد الله على كفار قريش بنفي العبث الذي ظنوه به، مع أن كفار قريش لم يصرحوا بأن الله عز وجل قد خلق الخلق لغير حكمة، وإنما جوزوا للعبد أن يعبد غير الله[5] _ مع علمهم بأن الله قد خلق الخلق وأنه هو المدبر لشؤو م _ وظنوا أنه لا بعث ولا عقاب ولا ثواب[6]، فقالوا ما يلزم منه نفي الحكمة عن الله، قال تعالى: (وما خلَقْنا السماءَ والْأَرض وما بينهما باطلاً ذَلك ظَن الذين كَفَروا فَويلٌ للذين كَفَروا من النار)[٧]، (أَفَحسِبتم أَنما خلَقْناكُم عبثاً وأَنكُم إِلَينا لا ترجعونَ) [٨]، (وما خلَقْنا السماوات والْأَرض

(1) انظر: إيثار الحق على الخلق، ابن الوزير محمد بن إبراهيم الحسـني القاسمي: ١ / ٢٠١.
2 - المقصود بـ (ذلك): هو الحكمة والتعليل في مفعولات الله _ جل جلاله_.
3 - غاية المرام في علم الكلام: ص: (٢٤٢).
4 - من مثل قوله تعالى: (وما خلَقْت الْجِن والإِنس إلا ليعبدون) (الذريات:٥٦).
(5) انظر: تفسـير الطبري: ١٥٢/٢٣.
(6) انظر: تفسـير ابن كثير: ٥٥٧/٢، ١٧٦/٣
7 - سـورة ص: (٢٧).
8 - سـورة المؤمنون: (١١٥).

وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون)[١]، (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين)[٢]، فرد الله عليهم قولهم: بعدم وجوب عبادة الله وعدم توقع البعث بعد الموت بأنه يلزم منه لازم باطل هو ا ام الله بالعبث، مع أ م لم يتفوهوا بإلصاق ذلك النقص بالذات الإلـهية، ولم ينفوا الحكمة عن الله جل جلاله صراحة، وإنما قالوا ما يلزم عنه ذلك.

ولا يوصف الله تبارك وتعالى عند المتكلمين بأنه في العلو؛ لأن المكان يعتبر عرضاً والعرض من خصائص الأجسام التي هي في الحقيقة حادثة[٣]، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، فالله ليس في مكان معين ولا يشار إليه في رأيهم، والحقيقة أن هذا القول يلزمهم القول بوحدة الوجود أو الحلول، ومع أن لازم المذهب لا يلزم أن يكون مذهباً، ولكن الجهمية من المتكلمين لم يتورعوا عن ذلك والتزموا ذا اللازم فإ م زعموا "أن الله في كل مكان ولا يكون في مكان دون مكان"[4]، والحلول من عقائد الحرانيـين[5] فإ م يقولون: "ربما يكون حلول الصانع بحلول ذاته، وربما يكون بحلول جزء من ذاته، على قدر استعداد مزاج الشخص، وربما قالوا: إنما تشخص بالهياكل السماوية كلها وهو واحد"[٦]، وإن كان هذا القول في الحقيقة ظاهره نفي وجود الله أصلاً، ولذلك يروي شيخ الإسلام حكاية مناظرة أحدهم للجهمية حيث قال له _ عندما صرح بالقول بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه: "فلو أردت تصف المعدوم، كيف كنت تصفه بأكثر من هذا؟ _ أو قال _ فرق لي بين هذا الرب الذي تصفه وبين المعدوم!"[٧]، فلم يجد لهذا السؤال جواباً إلا بعد حين، وكان جوابه: "لو كان فوق العرش للزم أن يكون جسماً"[٨]، وهكذا فإن

1 - سـورة الدخان: (٣٨-٣٩).

2 - سـورة الأنبـيـاء: (١٦-١٧).

3 - انظر: لوازم دليل الحدوث عند المتكلمين في نفي بعض الصفات وعلى ذلك فقس: في كتاب: فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: ص: (٢٢٩)، وانظر: ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، لعبد الله جار النبي، ص: (٣١٨).

(4) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ابن حنبل _ رحمه الله _: ص: (٤٠).

(5) وهي فرقة وثنية، كانوا يقولون: إن صانع هذا العالم، ومصوره، ومدبره، ونافعه، وضـاره هـي الكوكـب السبعة، واشتهرت مدينة حران في تاريخها كله بأ ا مقر عبادة (سـين) إله القمر، وسموا أنفسهم بالصابئين خوفاً من القتل إذا بقوا على دينهم في زمن المأمون، انظر: كتاب: (الصابئون حرانيـين ومندائيـين ص: ٥٨).

6 - الصابئون حرانيـين ومندائيـين، د. رشدي عليان، ص: (٥٩).

7 - انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٢٥٣/٦.

8 - انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٢٥٣/٦.

هذه المسألة جرت إلى مشا ة الكفار، إما بأصحاب القول بالحلول ووحدة الوجود، وإما بالملاحدة الذين يقولون بنفي وجود الله، والله المستعان.

ومع ذلك فإننا نجد من المســلمين من يقول ذا القول بل ما زال يتلى عند الشيعة الإمامية ما جاء في الكافي: "هو أين الأين بِلا أينٍ و كيف الْكيف بِلا كيف فَلا يعرف بِالْكيفُوفية و لا بِأينونية"[1].

1 - الكافي للكليني: ٧٩/١.

المطلب الثالث:

الشيوعية وأثرها على عقيدة وجود الله في العصر الحديث:-

الشيوعية: هي مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأن المادة هي أساس كـل شـيء ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي(1).

وضعت أسسها الفكرية النظرية على يد كارل ماركس اليهودي الألماني، كارل ماركس عاش بين العامين: (١٨١٨-١٨٨٣)م، وهو حفيد الحاخام المعروف مردخاي ماركس، وكارل ماركس شخص قصير النظر متقلب المزاج حاقد على المجتمع، مادي النـزعة(2)، ومن مؤلفاته: (البيان الشيوعي) الذي صدر سـنة: (١٨٤٨)م، رأس المال ظهر سـنة (١٨٦٨)م، ساعده في التنظير للمذهب فردريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥)م، وهو صديق كارل ماركس الحميم وقد ساعده في نشره المذهب كما أنه ظل ينفق على ماركس وعائلته حتى مات، ومن مؤلفاته: أصل الأسرة، الثنائية في الطبيعة، الاشتراكية الخرافية والاشتراكية العلمية، وشاركهم: (لينين): واسمه الحقيقي: فلاديمير أليتش بوليانوف، وهو قائد الثورة البلشفية(٣) الدامية في روسـيا عام: (١٩١٧)م ودكتاتورها المرهوب، وهو قاسـي القلب، مستبد برأيه، حاقد على البشرية. ولد سـنة: (١٨٧٠)م، ومات سـنة (١٩٢٤)م، وهناك دراسات تقول بأن لينين يهودي الأصل، وكان يحمل اسماً

---

(1) الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: (٣٠٩).

(2) حيث إن المادية هي أصيلة في النهضة الأوروبية، وليست ناشئة عن مذهب معين كالشيوعية؛ فهـي نزعـة متأصلة في النهضة الأوربية، يقول الشيخ محمد قطب: "الاتجاه المادي قديم في الحياة الأوروبية قدم النهضة الأوروبية إن لم نقل إن له جذوراً أعمق من ذلك في بعض اتجاهات لفلسـفة الإغريقية القديمة واتجاهات الحياة الرومانيـة قبـل المسـيحية.. وقد قامت النهضة الأوروبية على أساس معاد للدين كما أنها رجعت إلى الأصول الإغريقية الرومانيـة تستمد منها بدلاً من الأصول الدينية المسـيحية التي كانت منسلخة منها منقلبة عليها"، انظـر: مـذاهب فكريـة معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٢٦١).

(3) "البلشفية: كانت البلشفية تعني في أول أمرها الأغلبية التي تقابل كلمة (المنشفيك) التي تعني الأقليـة- بعـد انقسام الحزب الاشتراكي الديمقراطي للعمال الروسـي على نفسه سـنة ١٩٠٣م – ولكنها تطورت وأصبحت بعد ذلك تعني الكراهية الموجهة ضد المجتمع البرجوازي، وبصفة خاصة ضد الغرب الرأسمالي، وقد أصبحت أخيرا مرادفة للشيوعية في استعمالها العام"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٩٠/٢.

يهودياً، ثم تسمى باسمه الروسـي الذي عرف به مثل تروتسكي في ذلك، وشاركهم في نشر المذهب: (لينين): وهو الذي وضع الشيوعية موضع التنفيذ وله كتب كثيرة وخطب ونشرات أهمها ما جمع في ما يسمى مجموعة المؤلفات الكبرى، ومن شخصيات هذا المذهب: (ستالين): واسمه الحقيقي: (جـوزيف فاديونوفتش زوجا شـفلي)، توفي عـام: (١٩٥٤ م) وهو سكرتير الحزب الشيوعي ورئيسه بعد لينين، اشتهر بالقسـوة والجبروت والطغيان والدكتاتورية وشدة الإصرار على رأيه في تصفية خصومه على القتل والنفي كما أثبتت تصرفاته أنه مستعد للتضحية بالشعب كله في سبيل شخصه، ومن المشاركين في الحزب: (تروتسكي): ولد سـنة: (١٨٧٩)م واغتيل سـنة: (١٩٤٠)م بتدبير من ستالين، وهو يهودي واسمه الحقيقي بروشتاين. له مكانة مهمة في الحزب وقد تولى الشؤون الخارجية بعد الثورة ثم أسـندت إليه شؤون الحزب.. ثم فصل من الحزب بتهمة العمل ضد مصلحة الحزب ليخلو الجو لستالين الذي دبر اغتياله للخلاص منه نهائياً[1].

من أهم أسس المذهب الشامل الذي طرحه (كارل ماركس)[٢]:-

- إنكار وجود الله، واعتبار المادة أزلية أبدية، وهي كل شيء في الوجود، والنظرة المعادية للدين، يقول ستالين: "إن دولة السـوفيت الشيوعية لا يمكنها الوقوف موقفاً محايداً تجاه الدين، فالحزب الشيوعي يقف بجانب المادة، في حين أن الدين يناهض المادة. الدين و الشيوعية مثلهما مثل الماء والنار فكما أن هاتين المادتين لا تتحدان، وإحداهما تقضي على الثانية فلا مكان للدين في الديانة الشيوعية أبداً. فكل دين من الأديان هو والمادة على طرفي نقيض"[٣].
- تفسـير حركة المادة وتغيرا تها بما يسمى بـ (المادية الجدلية)، وملخصها كما يقول الشيخ محمد قطب: "تصور خاص لقضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان يقوم على أساس مادي بحت، على أساس أن المادة هي الشيء الوحيد الأصيل في هذا الكون، وأن كل ما في الكون ومن فيه منبثق من المادة ومحكوم بقوانين المادة، ولا وجود له خارج نطاق المادة، كما يقوم هذا التصور من جهة أخرى على أساس وجود التناقض في طبيعة المادة، ومن ثم في كل ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن

(1) انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٩١٩/٢ - ٩٢٠.

2 - انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٤٦٤).

(3) مقدمات العلوم والمناهج، لأنور الجندي، ص: (٦٢٧- ٦٣٠).

كيانات بما في ذلك الكيان الإنساني، فهو كيان مادي من جهة ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى"[1].

- التفسـير المادي للتاريخ الإنساني، وتلخص بادعائه أن التاريخ الإنساني خاضع أيضاً لنظام المادية الجدلية الذي زعم أن طبيعة المادة والحياة التي هي نتاج المادة، حسب زعمه، خاضعة له.
- الاشـتراكية، وهي: "مذهب اقتصادي وسـياسـي تبلور في أعقاب الثورة الصناعية، يعارض النظام الرأسمالي الذي يقوم على الملكية الفردية والمشروع الخاص، ويهدف إلى إشراك ا تمع في ملكية عوامل الإنتاج. وقد شهد القرن التاسع عشر عدداً ضخماً من المفكرين الذين يصفون أنفسهم أو يصفهم غيرهم بالاشتراكية، ولا رابط بينهم إلا الضيق بالنظام الرأسمالي، والرغبة في إقامة مجتمع مغاير، ولكنهم يختلفون فيما عدا ذلك، فهذا يميل إلى التعاونية، وذاك يود اختفاء نظام الإرث، وثالث يرمي تبعة المظالم على النقود والربح، لا يرى خلاصاً إلا بإلغاء الملكية الفردية"[2]، ولقد آل هذا المذهب إلى إلغاء الملكية الفردية إلغاءً كاملاً في اية التطبيقات الاشتراكية، وجعل الدولة الممثلة للمجتمع هي المالكة لكل شيءٍ، والقاعدة الاقتصادية التي تطبق على الجميع هي: (من كل حسب استطاعته، ولكل حسب حاجته).

ولا بد لهذه الفكرة أن تنتج عن فلسـفة مادية أو فكرية ليقتنع ا الناس، وعندها "رأى الملاحدة وأصحاب الفكر المادي في آراء داروين[٣]أساساً يمكن أن يدعم مذهبـهم،

---

(1) مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٢٦٨)، و انظر الموسـوعة الميسرة في الأديان والمـذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٣٨/٢.

(2) انظر الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٤٢/٢

3 - داروين هو: (تشارلس داروين)، بريطاني، عاش ما بين عام (١٨٠٨و ١٨٨٢م) بدأ دراسة الطب ثم لم يكمل مسـيرته، وانتقل إلى دراسة اللاهوت، وكان شغفه بالرحلات العلمية الاستكشافية وراء البحار، وتعلق بالبحث في علم الأحياء، ودون ملاحظاته التي توصل إليها طوال ربع قرن من البحث، وتجلت له فكرة تطور الأحياء بعضها من بعض من ظاهرة التشابه في التكوين الجسمي بينها، ومن بعض ظواهر أخرى. وكتب في ذلك كتابه المشهور: (أصل الأنواع)، وقدمه إلى إحدى الجمعيات العلمية، وصدرت الطبعة الأولى منه في ١١/١٤سـنة: (١٨٥٩م) وأحـدث هذا الكتاب ضجة كبرى في الغرب، لاشتماله على أفكار جديدة تخالف السائدة. ثم كتب كتاباً آخر سماه: (أصـل الإنسان)، ونشره سـنة: (١٨٧٤م)، وقد خصص هذا الكتاب لموضوع التطور الإنساني، انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٣١٧)، وانظر: الموسـوعة الميـسرة في الأديـان والمـذاهب المعاصرة: ٩٢٥/٢.

فاتخذوها أساساً، وأخذوا يروجون لها في ميادين العلم، ويعتبرو ا نظرية مع أ ا لا ترقى في سلم البحث العلمي عن كو ا فرضية، وبعد أن أطلقوا عليها زوراً وتزيـيفاً عنوان (نظرية) أضافوا إليها فكرة جديدة، وهي أن نظرية التطور قادرة على تفسـير نشأة الخلق، ونـشأة الحياة"[1].

وتقوم فكرة التطور الداروينية على أن الكائنات الحية تسـير في تطورها مرتقية من أدنى الأحياء إلى الأعلى فالأعلى، وأن الإنسان قد كان قمة تطورها، وبقاء بعض الأنواع وانقراض بعضها يرجع إلى ظاهرة الصراع من أجل البقاء، فالبقاء يكون للنوع المكافح الأفضل، وأما النوع الخامل الذي لا يكافح من أجل البقاء فإنه يضمر، ثم يضمحل، ثم ينقرض، والعضو الذي يهمل إذ لا تبقى له وظيفة علم في النوع الواحد، يضمر شيئاً فشيئاً، حتى يضمحل، ولا يبقى منها إلا أثر يدل عليه، وقد لا يبقى له أي أثر[2].

وكون الأنواع تتطور لا يعني ذلك تفسـيراً شاملاً لبداية الكون والحياة فما هو مصدر السديم الذي تكونت منه الأحياء فيما بعد؟ ما منشأ أصل هذه الأنواع المتطورة، لا زال السؤال قائماً، لا بد من قوة فاعلة أحدثت أصل الأنواع، ثم قامت هذه الأنواع بالتطور على أساسها وبعنايتها _ هذا على فرض صحة هذه النظرية _ كما أنه يلزم من تفسـير الملحدين للوجود ذه الفرضية: الدور الممتنع عقلاً، فكيف تبدأ الكائنات من السديم ثم إلى السديم تعود مرة أخرى، فلا بد من نقطة بداية لهذه الدائرة، ولابد من مريد مبدئ ومعيد لهذه الدائرة، إن وجدت، ولكنهم جعلوا هذه الفرضية هي المفسرة لنشأة الأحياء وهذا ليس بصحيح ولا يلزم من هذه الفرضية إن صحت، يقول ستالين: "وبذلك أعد تطور العلم _ وخصوصاً الاكتشافات الثلاثة في العلم الطبيعي: قانون حفظ الطاقة، ونظرية التكوين الخلوي للكائنات الحية ونظرية التطور لداروين _ المقدمات العلمية لانتصار النظرية المادية الجدلية عن العالم، التي وضعها كارل ماركس وفردريك إنجلز[3]"[1].

---

(1) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٣١٩).

(2) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٣١٨)، وانظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٩٢٦/٢- ٩٢٧.

(3) فردريك إنجلز: عاش ما بين: (١٨٢٠-١٨٩٥م)، وهو صديق كارل ماركس الحميم وقد ساعده في نـشره المذهب كما أنه ظل ينفق على ماركس وعائلته حتى مات، ومن مؤلفاته:- أصل الأسـرة، الثنائيـة في الطبيعـة، الاشتراكية الخرافية والاشتراكية العلمية، انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٩١٩/٢.

والجحود يولد الجحود[2]؛ فما دام أن الحياة مادة والكون تحكمه المـادة ولا مالـك متصرف في الكون، ولا أحد يستطيع أن يكتسب صفة التصرف في الأشياء والممتلكـات، إلا بأن يكون هو الخالق، ولا خالق، أو أن يكون امتلاكه لها بإيعاز من الخـالق المالـك، فالنتيجة الحتمية هي أنه لا يملك أحد شيئاً، وعلى هذا سار التاريخ، في الأمم البدائيـة في نظر الشيوعيـين، وهو أن القبيلة هي التي تملك كل شيء، والـسـيادة المطلقـة لهـا في التشريع والاقتصاد، فاعتماداً على نظرية التطور لداروين توصل الشيوعيون إلى مذهبـهم الإلحادي، ومن ثم بنوا عليه مذهبهم في السـياسة والاقتصاد، وذلك بعد أن فسروا كـل الحقب الزمنية السابقة، بناءً على ما تفرضه المادة على غـرار نظريـة داروين، وفي رأي الشيوعيـين القائم على المادية[3] البحتة: أن المادة في حالة تغير دائم ينـتج عنـه الكـون والأحياء، يقول ستالين: "إن الديالكتيك[4] _ خلافاً للميتافيزيقيا _ لا يعتبر الطبيعة حالـة سكون وجمود، حالة ركود واستقرار، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين، حالة تجـدد وتطور لا ينقطعان؛ ففيها دائماً شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل"[5]، هكذا تطور مادي؛ أسبابه مادية ونتائجه مادية، لأنهم يكفرون بغـير المادة، وعلى هذا فسروا التاريخ، ولكن السؤال المطروح: أين الأحاسـيس والقيم والمثل هل هي داخلـة في نطـاق هـذه المؤثرات لتكوين المجتمع، الجواب جاء في كتاب: (المادية التاريخية)[6]: "والمادية التاريخية _

(1) ستالين في كتابه: (المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية)، ص: (١٦)، من الترجمة العربية. نقلاً عـن كتـاب مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب: ص(٢٨٢).

2 - انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٦٣١).

٣ - "المادية: هي بأن كل ما هو موجود مادي، أو يعتمد كلية في وجوده على المادة، بزعم أنها الحقيقة الوحيـدة القادرة على تفسـير الحياة والسلوك وتطورهما، وبالتالي فإن المفهوم المادي للكائنات الإنسانية والمخلوقات الحية هو أنها ليست كائنات ثنائية مركبة من جسم مادي، وروح لا مادية، وإنما هي جسمية في طبيعتها تتكون من جزيئـات لا تقبل القسمة أو الفناء"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٣٧/٢

(4) الديالكتيك: طريقة في المناقشة والاستدلال، تختلف معانيها وأنواعها في المدارس الفلسفية والفكرية المختلفـة، انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٥٥/٢.

5 - ستالين في كتابه: (المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية)، ص: (١٦)، من الترجمة العربية.

(6) جاء في الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: "الماديـة التاريخيـة ((المفهـوم المـادي للتاريخ)): هي مفهوم مادي للتاريخ البشري، ومحاولة لتفسـيره انطلاقاً من قوانين المادية الجدلية في دراسة وتفسـير الحياة الاجتماعية وتطور المجتمعات، على أن الوضع المادي والاقتصادي هو الذي يكيف شكل الحياة البشرية في أي وقت من أوقاتها، وأي طور من أطوارها، ويزعم أنه سابق لها، لأن المادة عندهم تسبق الوعي، ولا يمكن للـوعي أن يسبق المادة. وهذا الوضع المادي والاقتصادي في تطور دائم، ومن ثم فإن الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم، التي تنبثق عنه، في تطور دائم تبعاً لذلك. وقد استعمل هذا المفهوم لأول مرة من قبل فريدريك إنجلز، ثم تبنـاه كـارل

خلافاً للعلوم الأخرى _ لا تدرس فقط هذه القوانين الخاصة أو تلك من قـوانين تطـور أشكال معينة لحركة المادة، وإنما هي تدرس القوانين العامة الشاملة للحركة المادية، وا تمع هو أيضاً شكل لحركة المادة"[1]، فالمادة هي كل شيء ولا اعتبار لشيء وراء المادة مهمـا كان ذلك الشيء، وفي محاولة للترجيح بين المادة والفكر يقول ستالين في كتابـه: (الماديـة الديالكتيكية والمادية التاريخية) "وتقوم المادية الفلسفية على مبدأ آخـر، وهـو أن المـادة والطبيعة والكائن، هو حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك أو الشعور وبصورة مستقلة عنه. وأن المادة هي عنصر أول، لأ ا منبع الاحساسات والتصور والإدراك،بينمـا الإدراك هو عنصر ثان مشتق، لأنه انعكاس المادة، انعكاس الكائن، وأن الفكر هو نتاج المادة لمـا بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال، أو بتعبير أدق: إن الفكر هو نتـاج الـدماغ، والدماغ هو عضو التفكير فلا يمكن بالتالي فصل الفكر عن المادة دون الوقـوع في خطـأ كبير"[2]، وجاء في كتاب أسس المادية الديالكتيكية: "وجدت الطبيعة ليس فقط قبل النـاس وإنما عموماً قبل الكائنات الحية، وبالتالي فهي مستقلة عن الإدراك، وهـي الأوليـة، أمـا الإدراك فلم يستطع التواجد قبل الطبيعة فهو ثانوي"[3]، فما دام أن المادة هي أساس الفكـر والدماغ، فكل تصور ينبغي أن يكون على أساس أن المادة هـي المحـرك الأساسـي في الكون.

وفي محاولة لتفسـير التاريخ على حسب القواعد المادية جـاء في كتـاب الماديـة التاريخية: "كان القطيع البدائي أول شكل انتقالي للمجتمع الذي حـدث فيـه تكـوين الإنسان، ولقد ظهر هذا القطيع عندما انفصل الإنسان عن عالم الحيوان وبدأ بإنتاج أدوات العمل، وما زال باقياً، إلى أن تكونت ملامح الإنسان الحديث نتيجة لتطورهـا التـدريجي البطيء"[4]، ثم يحاول أن يفسر وجود الطور الآخر من حياة البشر، فيقول: "ومع ظهـور

ماركس للتعبير عن مفهومها الجديد للعالم. وقد تعرضت المادية التاريخية للنقد لـ عتها الحتمية، وإخـراج الـسـنن الإلهية من التدخل في الكون، وتجاهلها لدور الوعي، وتأثيره في البنية التحتية وطبيعة الإنسان"، ١١٣٨/٢

(1) ستالين في كتابه: (المادية التاريخية)، ص: (١١)، من الترجمة العربية نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصـرة للشيخ محمد قطب: ص(٢٧٨).

٢ - ستالين في كتابه: (المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية)، ص: (٢٩)، من الترجمة العربي، نقلاً عن الشيخ محمد قطب في مذاهب فكرية معاصرة(ص:٢٧٠-٢٧١)

٣ - أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص: (٤٣)، من الترجمة العربية. نقلاً عن الشيخ محمـد قطـب في مذاهب فكرية معاصرة(ص:٢٧٠-٢٧١)

(4) (المادية التاريخية)، ص: (٣٣٥)، من الترجمة العربية. نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصرة للـشيخ محمـد قطب: ص(٢٨٥).

الإنتاج الفردي ظهر التناقض بين الملكية الاجتماعية والطابع الفردي لعملية الإنتاج، هـذا التناقض الذي يحل عن طريق القضاء على الملكية الاجتماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الإنتاج، وهذه هي الأسباب الرئيسـية التي أدت إلى القضاء على النظـام البـدائي كحتمية طبيعية"(١).

ثم ينتقل الجنس البشري من المشاعية البدائية إلى الرق على حسب متطلبات الحيـاة المادية (المتغيرة)، وفي شرح ذلك يقول إنجلز: "وإن تطبيق العبودية في الظروف التي كانـت سائدة في ذلك الحين قد كان خطوة كبرى إلى الأمام، ذلك أنه من الحقـائق الواقعـة أن الإنسان قد انبثق من الحيوان، وبالتالي فلم يكن له بد من استخدام وسائل بربرية تكـاد أن تكون وحشية من أجل تخليص نفسه من البربرية"[٢]، ثم يتطور الجنس البشري وتتطور معـه حاجاته المادية، وتزول مرحلة العبودية لبني البشر، ويفسر زوال هذه المرحلة فريدريك إنجلز فيقول: "وإنما زالت العبودية لأ ا لم تعد تدر ربحاً قط، لكنها بزوالها خلفت وراءها لسعتها السامة وذلك بوسمها علم الأحرار في الإنتاج بميسم الضعة، فكان ذلـك بمثابـة الزقـاق المسدود الذي وجد العالم الروماني نفسه فيه، كانت العبوديـة مـستحيلة مـن الناحيـة الاقتصادية وكان عمل الأحرار مستهجناً من الناحية الأخلاقية، لم يعد في وسـع الأول أن يظل أساس الإنتاج الاجتماعي وكان الأخير لا يزال غير قادر على أن يكون أساساً لهـذا الإنتاج، لم يكن ينفع في هذا الحال سـوى ثورة كاملة"[٣]، وهنا جاء دور الإقطاع بصورته الأوربية المعروفة[٤]، ثم يتطور الإقطاع بدوره إلى الرأسمالية، يقول أحدهم: "وهكذا نرى أن الإقطاعية التي كانت متوافقة عند نشأ ا مع مستوى القوى المنتجـة في ا تمـع صـارت متناقضة مع القوى المنتجة المتنامية، وصار إلغاؤها ضرورة تاريخية"(5)، ثم تبـدأ مـساوئ الرأسمالية وفق تطور الجنس البشري وحاجاته المادية(6) يقول سـيجال: "غير أن الرأسمالية_

(1) (المادية التاريخية)، ص: (١٦١)، من الترجمة العربية. نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصرة للـشيخ محمـد قطب: ص: (٢٨٦).

2 - (كتاب: أنتي دوهرنج)، ص: (٢١٧)، من الترجمة العربية. نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصـرة للـشيخ محمد قطب: ص(٢٨٧).

3 - كتاب أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، فريدريك إنجلز، ص: (٢٣٦)، من الترجمة العربية. نقـلاً عـن كتاب مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب: ص(٢٨٨).

4 - حيث كانت الطبقتان المسـيطرتان فيه هما طبقة كبار الملاك وطبقة رجال الدين، وبقية الشعب مسخر لصالح كلتا الطبقتين، انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ: محمد قطب، ص: (٢٨٩).

(5) كتاب: لمحة عن تطور ا تمع منذ بدء التاريخ، سـيجال، ص: (٣٣). من الترجمة العربية. نقلاً عن كتـاب مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب: ص(٢٩٠).

(6) تأمل إلى أي حد تصل شدة تأثرهم بفكرة المادية، المؤسسة على الإلحاد الذي فهموه من فرضية داروين.

عندما تتطور قوى المجتمع المنتجة – تبدو يوماً فيوماً أثقل قدرة على السيطرة عليها، وأجدى برهان على ذلك هو تلك الأزمات التي تأتي على نحو دوري فتزعزع النظام الرأسمالي وتدمر جزءً من القوى المنتجة"[1].

قال ستالين: "وبعد، إذا صح أن العالم يتحرك ويتطور دائماً وأبداً، إذا صح أن اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون للتطور، أصبح من الواضح أنه ليست هناك أنظمة اجتماعية ثابتة، غير قابلة للتغير ولا مبادئ أبدية للملكية الخاصة والاستثمار! وليست هناك أفكار أبدية عن خضوع الفلاحين لكبار ملاكي الأرض، والعمال للرأسماليين"[2]، وهكذا تظهر فكرة الشيوعية جلية واضحة، فكرة تؤمن بنظرية تطور العالم، على أساس فرضية داروين[3]، فالعالم متطور عن المادة وإلى المادة، فكل فكرة وكل مادة في الكون قابلة للتطور، إلا فكرة تطور المادة، فهي الفكرة الأصيلة عندهم والتي تحكم جميع القوانين، فالقوانين التي تتحرك على أساسها المادة لا بد أن تتطور على حسب تطور المادة، بل وحتى النظام السياسي أو الاقتصادي الشيوعي نفسه، قابل للتغير – على حسب منطقه – مجاراةً لتطور المعبود الأول عندهم والوثن الأعظم (وهو المادة)، ليكون أعظم ما يحرر الطبقات الكادحة أو غيرها، من الشعارات البراقة الزائفة من المساواة بين الأفراد[4] – وغيرها من الشعارات – عرضة للتغيير، ولكن الشيء الوحيد الذي لا ولن يتغير هو إيمان الشيوعيين بالمادة وكفرهم بوجود الله، وهو الحقيقة التي غفل عنها المنخدعون بشعارات المساواة – من المسلمين المؤيدين لنظام الشيوعية السياسي والاقتصادي – فانطلقوا وراء النتائج المتغيرة ونسوا أن ينقبوا عن الأصل الثابت الذي انبنت عليه تلك النتائج، التي بدورها يمكن أن تتغير إلى ما لا يرضونه في المستقبل.

وكل هذه الأطوار في أزمانها صحيحة ومنطقية – في رأيهم – ما دامت مجارية لاحتياجات المادة ومتطلباتها؛ فليس وراء المادة شيء يجب أن نأخذه في الاعتبار، فما دامت الأنظمة الاقتصادية مراعية لرغبة الحياة المادية ومتطلباتها فهي واقعية، ومتى صارت الظروف المادية لا تتطلب هذا النوع من الحياة الاقتصادية وجب تغييره على أساس تلك الظروف

1 - كتاب: لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، سيجال، ص: (٣٦). من الترجمة العربية. نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب: ص(٢٩٢).

2 - المادية الديالكتيكية: ص: (٢٥)، نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٢٧٨).

3 - انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٩٢٨/٢.

4 - وهي شعارات النظام الاقتصادي الشيوعي والتي ركضت خلفها الطبقات الكادحة لأنها وجدت فيها المساواة المزعومة بينها وبين الطبقات الغنية في المجتمعات.

المادية، يقول ستالين: "بل ينبغي لنا أن نبني حكمنا على أساس الظروف التي ولدت هـذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطتين ا، إن نظام الرق يكون في الظروف الحاضـرة خرقاً وبدعة مضادة للطبيعة، ولكن نظام الرق في ظـروف المـشاعية البدائيـة الآخـذة بالانحلال، هو حادث مفهوم ومنطقي؛ لأنه يعني خطوة إلى الإمام بالنسبة لنظام المـشاعية البدائية، إن المطالبة بإقامة الديمقراطية البرجوازية في ظروف القيصرية وا تمع البورجوازي مثلاً في روسـيا سـنة (١٩٠٥م) كانت شيئاً مفهوماً وصـحيحاً وثوريـاً تمامـاً لأن الجمهورية البرجوازية كانت تعني إذ ذاك خطوة إلى الأمام.. ولكن المطالبة بإقامة الجمهورية الديمقراطية البرجوازية في ظروف الاتحاد السـوفياتي الحاضر، تكون خرقاً، وشيئاً رجعيـاً ومضاداً للثورة؛ لأن الجمهورية البرجوازية هي خطوة إلى الوراء بالنـسبة إلى الجمهوريـة السـوفياتية، كل شيء يتعلق بالظروف، بالمكان والزمان"(1)، وهذه فلسـفة عجيبة نابعة من إيمانه بفكرة تطور المادة التي تحكم كل شيء _ والتي بنوها على فكرة التطور الداروينية _، ولا يحكم المادة شيء، فإيمانه بالشيوعية في زمنه، مشابه لإيمانه بالديمقراطيـة في زمـن ماضٍ، والذي يحكم ذلك كله هو المادة؛ لأن الحياة مادة في نظره، ولا شيء وراء المادة.

وهكذا ارتضى الشيوعيون لأنفسهم بل ولغيرهم من الشعوب _ بلا دليل مقنع _ المنهج الذي تفرضه المادة في طورها الجديد على حسب زعمهم، يقول سـيجال: "ومـن هنا يتبين أن إلغاء الرأسمالية بالطرق الثورية واستبدالها بالشيوعية، أي: بمجتمع دون طبقات تكون وسائل الإنتاج فيه ملكاً مشتركاً يصبح ضرورة تاريخية"(2)، وكل هذا التحكم دون أي تدخل منهم _ على حسب زعمهم _ في تطور احتياجات البشر المادية، فالمنهج الذي ينبغي أن يسـير عليه البشر في هذه الحقبة الزمنية هو الماركسـية بكل تطبيقا ـا، فـأي تحكم أعظم من هذا، حين تبنى معتقدات الناس على فرضية قد تثبت وقـد لا تثبـت، ثم يختارون لبني البشر من بين الأنظمة القائمة على هذه النحلة نظاماً منها زعموا أنه يواكـب العصر الحاضر، ومن خلفهم الرعاع أتباع كل ناعق، لم يفهموا أساس ما اعتنقوا، ولا بأي علة اختير لهم ما يطبقونه من معطيات نحلتهم، فلو أ م فهموا ما هو الأصل الذي انبنـت عليه الشيوعية من إلحاد، ثم فقهوا التحكم الواضح في اختيار المنهج المنـبني علـى ذلـك

(1) ستالين في كتابه: (المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية)، ص: (٢٣)، من الترجمة العربية. نقلاً عـن كتـاب مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب: ص(٢٧٨).

(2) كتاب: لمحة عن تطور ا تمع منذ بدء التاريخ، ص: (٣٧). من الترجمة العربية. نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب: ص(٢٩٢).

الإلحاد، لرجع كل من له عقل منهم إلى الرشاد، ولعلموا أ م فروا من ظلم الرأسمالي ـة، إلى استخفاف عقولهم بالشيوعية.

أثر الشيوعية في نشر الإلحاد في العصر الحديث:

إن الحديث عن الشيوعية كمذهب فكري يؤدي اعتناقه إلى التش ـبه بالملحدين الذين يقدحون في وجود الله تبارك وتعالى، لا يعني الحديث عن أولئك القوم الذين اقتنعوا بالمذهب الشيوعي كاملاً، حتى بفكرة عدم وجود الله (الإلحاد)، قال الشيخ ابن باز ــ رحمه الله ــ: "إن الذين يدعون إلى الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهدامة المناقضة لحكم الإسلام كفار ضلال أكفر من اليهود والنصارى"[1]، فإن هذا الحال هو خروج عن دين الإسلام بالكلية، والحديث في هذا المبحث يهدف إلى إقناع أولئك الذين طبقوا الشيوعية كنظام س ـياس ـي أو اقتصادي بكون هذه المبادئ الاقتصادية هي من الأمور المبنية على قاعدة الشيوعي ـين الأساس ـية وهي أن لا رب ولا إله يعبد في الكون؛ فإن النداء ذه الشعارات الشيوعية الس ـياس ـية أو الاقتصادية يعني إقراراً لتلك القاعدة وإرساءً لها.

ومن الأحزاب التي تنادي ذا النظام وتطبيقه وخاصة النظام الاشتراكي: (حزب البعث العربي الاشتراكي)، وهو حزب قومي علماني يقوم على ثلاثة مبادئ هي: الوحدة والحرية والاشتراكية، يدعو إلى الانقلاب الشامل في المفاهيم والأفكار والعقائد والقيم؛ لصهرها وتحويلها إلى التوجه الاشتراكي، شعار هذا الحزب هو: (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة)، وقد أسس هذا الحزب رجل نصراني يدعى: (ميشيل عفلق)[2].

يقول ميشيل: "لو سئلت عن أسباب ميلي للاشتراكية لأجبت: إن ما أطمع به منها ليس زيادة في ثروة الحياة، إن الذي يظن الاشتراكية ديناً للشفقة مخطئ أيما خطأ وما نحن رهبان نلوذ بالرحمة، إذا سئلت عن تعريف للاشتراكية فلن أنشده في كتب ماركس ولينين وإنما أجيب: إ ا **دين الحياة**، وظفر الحياة على الموت"[3]، والحقيقة أن العمل الاشتراكي الذي يطالب به حزب البعث فكرته مأخوذة من الشيوعية وإن لم يصرحوا بذلك.

---

(1) مجموع الفتاوى ومقالات متنوعة: ٢٧٤/١.

(2) ولد في دمشق، عام: (١٩١٠م)،انظر: حزب البعث تاريخه وعقائده، لسعيد بن ناصر الغامـدي، ص: (٩)، (١٢).

(3) انظر: في سبيل البعث ص: (١٧- ١٩).

إن الشعوب العربية كانت في الوقت الذي نشأ فيه حزب البعث العربي متأثرة، بأطروحات الشيوعية، وخاصة الطبقات الكادحة في ا تمعات العربية، وما أكثرها في ا تمعات العربية في ذلك الزمن؛ بسبب تسلط الاستعمار الغربي أو آثار تسلطه؛ حيث نشأ عن استنـزاف الاستعمار الغربي للشعوب العربية: الفقر الشديد عند بعضهم والأمية، مع جانب الاستهداف الأخلاقي؛ كل ذلك _ وخاصة الحالة المعيشية لدى كثير منهم _ كان سبباً في قبول شعار الاشتراكية لدى الشيوعيـين، فلم يكن لدى البعثيـين بد من طرح نفس الشعار مع محاولة التميـيز؛ مع أن الدوافع والمضمون والأهداف فيها تشابه إلى حد كبير، فالنظرة الإلحادية المتنكرة للأديان هي سمة هذا الحزب ومؤسسه حيث يقول: "فنحن مع **تبنينا للنظرة السلبية إلى الدين**، أي: رغم معرفتنا الطريقة الرجعية التي استخدم الدين ا ليكون داعماً للظلم والتأخر والعبودية، نثق رغم ذلك بأن الإنسان يستطيع أن يثور على هذه الكيفية في استخدام الدين، ونحن لا نجهل بأن نظرتنا هذه تتطلب من الجهد والحذر أضعاف ما تتطلبه النظرة الشيوعية التي تخلصت من المشكلة بأن رفضتها تماماً، وألقتها جانباً، أما نحن فالمشكلة بالنسبة لنا أعقد بكثير؛ لأننا كما قلنا في مرحلة الانقلاب العميق الجذور في كل الأمور الأساسـية التي ترتكز عليها حياة العرب والتي يؤلف الدين جزءاً منها"(1)، فهو يتبنى النظرة السلبية للدين، ومن المبادئ المتأخرة التي جاء ا الدين وساهم في دعمها: مبدأ العبودية، وعلى هذا الأساس يجب الثورة على الكيفية التي يمارس ا الدين؛ حيث إنه يدعم مبدأ العبودية، ثم اعتبر الدين مشكلة يجب التخلص منها، وهو في هذه النظرة يغبط الشيوعية في طريقتها السهلة للتخلص من الدين، ويتمنى لو اختار نفس طريق الشيوعية، وهي التخلص من الدين تماماً، بدلاً من التخلص من الكيفية التي يمارس ا الدين ويدعم ا العبودية لله رب العالمين.

ولم يكتف الشيوعيون بنشر فكرة الإلحاد بصور ا الواضحة "فالإلحاد دخل وما زال يدخل إلى بعض أبناء شعوب الأمة الإسلامية، متسللاً في أثواب العلوم(٢) والفنون وأنواع الثقافات الغربية والشرقية، أو ضمن مبادئ المنظمات الاشتراكية والشيوعية، والأحزاب القومية العلمانية"(3)، وما زالوا يحاولون إدخال هذه اللوثة الفكرية إلى تصورات المسـلمين، حتى من خلال الآداب والفنون، فيقول أحد المتأثرين بالشيوعية ممن يعيش بين أظهر المسـلمين وينتمي إليهم، في إحدى الروايات الأدبية!! وفي خضم تفاصيلها على

---

(1) في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ص: (١٢٥ – ١٢٧).

(2) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد ص: (٧٣).

(3) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٤٣٩).

لسان أحد أبطال روايته: "إن إبداع الشيوعيـين ليس بعده إبداع"[1]، وهو ذا يسجل إعجاباً بالشيوعية ليس بعده إعجاب، ثم يسخر بعقيدة وجود الله _ سخر الله منه[٢] _ فيقول في أحد رواياته أيضاً: "والشمس في غاية الجمال كأ ا تجسد لجمال الله ذاته أو انعكاس لجمال أمه[٣]"[٤]، ويقول: "ما الفرق بين الله في الدين وقوى الإنتاج والجدلية الماركسـية كلها أمور لا ترى"[٥]، ويقول: "لا فرق عندي بين هذا المذهب أو ذاك، بل إني لا أهتم بكل المذاهب الدينية"[٦]، ويقول وهو يروي قصة هشام الذي يتحدث مع صديقه: "وابتسم هشام بالرغم منه؛ فشعبية الله مرتفعة هذه الأيام، لو كان ماركس في هذا الموضع لذكر الله كثيراً"[٧]، وهو في هذه الروايات يستهزئ بكل من يرى وجود الله حقاً، ونلحظ من خلال هذه النقول تأثره بالشيوعية التي علمته كيف ينكر وجود الله، ومن ثم يتهكم ويسخر من كل من يعترف بوجوده.

وما رواية نجيب محفوظ[٨] المسماة بـ (أولاد حارتنا)، والتي كوفئ عليها _ في الدنيا _ بجائزة نوبل للسلام[٩]، إلا شاهداً على ذلك الدس لفكرة الإلحاد في أوساط

---

(1) انظر: رواية الكاتب: تركي الحمد: (الكراديب)، ص: (١٢٠).

2 - ومن صفات الله أنه يسخر ممن يسخر منه أو من دينه أو من شعائر دينه التي يتمثل ا عباده الصالحون، قـال تعالى: ﴿الذين يلْمزونَ الْمطوعين من الْمؤمنين في الصدقَات والذين لا يجِدونَ إلا جهدهم فَيسخرونَ منهم سخر الله منهم ولَهم عذَاب أَليم﴾ (التوبة:٧٩).

3 - وهذا كفر صريح بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هو الله أحد،الله الصمد، لَم يلد ولَم يولَد، ولَم يكُن لَه كُفُواً أَحـد﴾ (سـورة الإخلاص).

4 - انظر: رواية الكاتب: تركي الحمد: (الكراديب)، ص: (١٣٥).

5 - انظر: رواية الكاتب: تركي الحمد: (الكراديب)، ص: (١٤٩).

6 - انظر: رواية الكاتب: تركي الحمد: (العدامة)، ص: (٥١).

7 - انظر: رواية الكاتب: تركي الحمد: (العدامة)، ص: (٢٥٠).

(8) تقول عنه الموسـوعة العربية العالمية: "نجيب محفوظ روائي عربي كبير. حـاز جائـزة نوبل في الأدب عـام: (١٩٨٨م). ولد بالقاهرة، بدأ بكتابة الرواية التاريخية ثم الرواية الاجتماعية وانتقل إلى معالجـة مـشكلات ا تمـع المصري. تزيد مؤلفات نجيب محفوظ على ٥٠ مؤلفاً منها رواياته: الطريق، السمان والخريف، الشحاذ، ثرثرة فـوق النيل، أولاد حارتنا، عصر الحب، اللص والكلاب، ميرامار، الحب تحت هضبة الأهرام، الحرافيش، بدايـة و ايـة. ترجمت معظم أعماله إلى جميع اللغات العالمية، وتم منحه قلادة النيل عام ١٩٨٨م، وهي أرفع الأوسمة في الجمهورية"، انظر: الموسـوعة العربية العالمية: ١٤٦/٢٥.

(9) جوائز نوبل: يدعون أ ا: تمنح سـنوياً لأولئك الذين قدموا مساهمات جليلة لمصلحة البشرية، بغض النظر عن جنسـيا م. فقد أوصى المخترع السـويدي الثري، ألفرد نوبل، بأن يخصص ريع ممتلكاته لتمويل خمـس جـوائز سـنوية. تمنح هذه الجوائز للاكتشافات والاختراعات الأكثر أهمية في مجالات الفيزياء والكيمياء وعلـم وظـائف الأعضاء أو الطب، ولأكثر الأعمال الأدبية تميزاً وذات الطبيعة المثالية، ولأكثر الأعمال فعالية لصالح السلام الـدولي،

المسـلمين؛ فإن فكرة الرواية قائمة على استهزاء _ لا يغفل عنه ذو لب وعقل _ بالله وبالأنبياء والرسل، وتنـتهي تلك الرواية بموت الرجل الذي لا يراه أحد، ويسكن في صحراء بعيدة، وهو الذي أرسل الأشخاص الذين تشـبه شخصيا م وسـيرهم إلى حد كبير شخصيات وسـير الرسل الكرام، وهو الذي أسماه في الرواية بـ (الجبلاوي)[1].

وحـتى بعض الشعراء تأثروا بنظرية (داروين) الإلـحـادية، يقول الزهـاوي ت: (١٩٣٦م)، في ديوانه:-

إني أفكر في الطبيعة فاحصاً	فيعد تفكيري من الإلحـاد
ووجدت أن الكائنات سلالة	لا فرق بين خفيها والبادي
أما الزمان فإن دورانـ ـه	ما يربط الآزال بالآبـ ـاد[2]

وقوله: -

ما حياة قديمها غير بـ ـاد	لـك إلا تطـور في جـ ـماد
إ ا تـتبنى لها في نظـ ـام	كل ما يقضي حاجتها من عتاد[3]

ويقول:-

ما نحـن إلا أقرد	من نسل قرد هالك
فخر لنـا ارتقاؤنا	في سـلّم المـدارك[4]

بل وصل دس فكرة الإلحاد حتى إلى ما يعرض أمام ناظري الطفل المسلم؛ فإنه لم يسلم _ أحياناً _ من مشاهد توحي بفكرة الإلحاد[5]؛ ليجد ذلك الطفل في حال بلوغه فكرة الإلحاد متبلورة في ذهنه قد وضعوا أساسا ا في مخيلته، ليكون بذلك مرتعاً سهلاً للأفكار الإلحادية أو ما يدعمها ويمهد لها الطريق.

ولكنها في الحقيقة تعطى كذلك لمن كانت له جهود في محاربة الإسلام، فقد أعطيت لنجيب محفوظ مكافـأة علـى رواية (أولاد حارتنا) والتي استهزأ فيها بشخص النبي ﷺ، والأنبياء بعامة، ومثل فيها الله ﷻ بخلقه.

(1) انظر: دراسة المضمون الروائي في أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، تأليف عبد الله بن محمد بن ناصـر المهنـ ـا، ص: (٢٧-٣٦).

2 - ديوان الزهاوي، ص: (٥٢٥، ٥٩٩) .

3 - المصدر السابق : ص: (٥٢٥، ٥٩٩)، والبيت مكسـور في الأصل .

4 - ديوان الزهاوي : ص: (٥٢٥، ٥٩٩).

5 - انظر: بصمات على ولدي، طيبة اليحيى: ص: (٥٤- ٦٨-)، ففيها ما يثبت استخدامهم للإيحـاء في نـشر فكرة الإلحاد، حيث يتم التصرف في الكون من خلال ما يعرض أمام الطفل، وكأنه لا إله ولا متصرف يحميه، وكأن هذه الشخصيات الكرتونية، تستطيع التصرف في مجريات الكون، وإن كان ثمة من يدافع عن الكون فهو مـ ـن عـ ـالم المادة أيضاً، فالنتيجة الحتمية: هي لا إله والحياة مادة.

وما هذا الدس ولا ذلك التضليل الخفي؛ إلا لأن العقيدة الإسلامية قائمة بأعظم أسسها وأرسخ قواعدها على الإيمان بالله الخالق المالك المدبر؛ فطَرح قضية الإلحاد في أوساط المسـلمين لن يلقى قبولاً، بل لن يجد إلا الإنكار والإعراض، فلا بد من دسـه بطريقة أو بأخرى، وإلباسـه أثواباً تخفي حقيقته ولو كان ذلك عند عامة المسـلمين ودهمائهم دون عقلائهم.

المطلب الرابع:

الوجودية وأثرها على عقيدة وجود الله في العصر الحديث:-

تعرف الوجودية بأ ا: تيار فلسفي يعلي من قيمة الإنسان ويؤكد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه، وهي جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة، وليست نظرية فلسفية واضحة المعالم[1].

يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب الوجودي: (جان بول سارتر)[2] ، وهو الذي اكتمل المذهب بصورته النهائية الإلحادية بآرائه وأطروحاته[3].

نشأت الوجودية _ بصور ا الحديثة _ بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كانت محنة الحرب وما تركته من الدمار والرعب بيئة ملائمة لظهور أفكار الوجودي ين وتفس يرا م

(1) انظر: الموس وعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٨١٨/٢.

(2) هو فيلس وف فرنس ي ولد س نة: (١٩٠٥ م)، وهو ملحد وناصر الصهيونية له عدة كتب وروايات تمثل مذهبه منها: الوجودية مذهب إنساني، الوجود والعدم، الغثيان، الذباب، الباب المغلق، توفي عام: (١٩٨٠م)، انظ ر: موسوعة الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي: ٥٦٣/١-٥٦٥، الموس وعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاص رة، ص: (٥٤٣)، وكواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للشيخ عبد الرحمن الميداني، ص: (٣٥٩).

3 - انظر: الموس وعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٨١٨/٢.

التشاؤمية، فقد شعر الإنسان الأوروبي بعد تلك الحروب المدمرة بأن هذا العالم الذي يعيش فيه عالم هش قابل للانكسار السريع والتحطيم المروع، ولم يكن ثمة علاج لهذا الشعور، فظهر المذهب الوجودي على يد الفيلســوف الفرنســي جان بول سارتر في هذه البيئة، فكان الوضع النفســي للأوروبي بعد الحرب، بالإضافة إلى الخواء الروحي الذي يعيشه الإنسان الأوروبي في ظل غياب الدين الصحيح قد ساعد على ظهور الوجودية، ونشأت من كتابات سارتر حركة وجودية بين الشباب تتلخص بالتحلل من القيم، وانطلاق الفرد لتحقيق شهواته بلا قيد، مادامت الحياة لا غاية لها في اعتقادهم، وقابلة للانـتهاء في أي لحظة[1]، وتحقيق الحركة الكاملة لا يمكن مع الاعتراف بالإلـه والأديان؛ فإ ا تكبح بالتأكيد جماح تلك الحرية المحققة للذات والوجود، فلزم أن تكون الحرية المطلقة التي يتجاهل الإنسان فيها ما أصاب بني شعبه ويتجاهل فيها كل شيء: متحررةً من كل شيء، حتى من الاعتراف بالأديان والوجود الإلهي الذي يفرض على الإنسان التقيد[2] بما أوجبه الإله عليه ســواءً تجاه نفسه أو تجاه بني جنسه، فالوجودية ثورة على الآخر في سبيل تحقيق الذات، بحيث يستوي رضى ذلك الآخر وسخطه، ســواء أكان هذا الآخر قيماً دينية، أو أخلاقاً حميدة، أو أعرافاً سائدة.

والوجوديون يقولون: الوجود مقدم على الماهية، وهذا اصطلاح فلسفي عندهم معناه: أن الوجود الحقيقي هو وجود الأفراد أما النوع فهو اسم لا وجود له في الخارج، فمثلاً: زيد وإبراهيم وخالد وفلان وعلان هؤلاء موجودون حقيقيون لا شك في وجودهم ولكن الإنسان أو النوع الإنساني كلمة لا حقيقة لها في الخارج كما يزعمون، وهم يهدفون من وراء هذه الفلســفة إلى أن على الفرد أن يحقق وجوده بتحقيق رغباته وشهواته غير مبال بمصير النوع الإنساني كله إلى الفناء[3]، وعلى هذا فالوجودية هي نوع من أنواع تحقيق الذات مشوب بالأنانية التي يسعى الإنسان من خلالها إلى تحقيق وجوده فحسب، دون النظر إلى الآخر، ودون أن يكون للآخر أي اعتبار لديه، سالكاً في سبيل تحقيق ذاته أي طريق يوصله إلى مراده ولو كان ذلك على حساب اعتقاداته وقيمه وأخلاقه، فالحرية مطلب أساســي لاعتناق هذا المذهب، بغض النظر عن أي قيود لهذه الحرية، فلا بد للإنسان أن يحقق ذاته بأي وســيلة يراها _ هو _ مناسبة، فهي حرية فكرية وحرية أخلاقية وحرية اجتماعية، حرية لم يناد ا أي مذهب من قبل، فالديمقراطية التي تنادي

1 - انظر: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، تأليف: ناصر القفاري وناصر العقل، ص: (١١٧).
(2) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للشيخ عبد الرحمن الميداني، ص: (٣٦٤).
(3) انظر: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، تأليف: ناصر القفاري وناصر العقل، ص: (١١٦).

دائماً بالحرية تقيدها بما لا يمس المصالح المباشرة للرأسمالية[1]، بل حتى الشيوعية التي لا تؤمن بوجود الإلـه تقيد تصرفات الفرد بما لا يتعارض مع مبادئها، ولكن الحرية التي وهبها سارتر لأتباعه حرية شخصية في كل شيء وتمارس بأي طريقة، حتى ولو كانت ضارة بالآخرين، ما دامت أ ا تحقق وجود الإنسان.

وبناء على ما سبق: فالوجودية مذهب إلحادي، وتصحيحه أو المناداة بشيء من مضامينه المنافية للدين الإسلامي هو في الحقيقة مناداة بما يمهد لهذا المذهب الضال، ولذلك فإننا لن نجد في أوساط المســلمين من ينادي بتطبيق هذا المذهب بحذافيره؛ فإن ذلك يخرجه عن دين الإسلام بالكلية ويكشف زيف ما يدعو إليه، ولكننا وللأسف نجد من أبناء المســلمين من يذهب لينادي ببعض شعارات هذا المذهب الهدام، من حق حرية الفرد ولو كان ذلك ينال من قيم دينه وعقيدته، ونرى من المســلمين من يدعو إلى تحقيق الذات، وأن يجد الإنسان نفسه ولو كان ذلك بما حرم الله عز وجل، كل ذلك بدعوى الحرية الكاملة، فقد نادى ا سارتر من قبل، ولكن سارتر كان أشد فهماً للحرية من هؤلاء؛ فإن الحرية الكاملة لا تكون أبداً مع إثبات الإلـه الخالق المعبود؛ فالاعتراف به يلزم اتباع شرعه ومنهاجه، والحرية الكاملة لا تتفق أبداً مع دين من الأديان، والاعتراف بالرب يعنى الاعتراف بالعبودية، والحرية المطلقة لا تجتمع مع العبودية أبداً إلا كما يجتمع الســواد والبياض، فإما أن تكون الحرية مقيدة بالقيم الربانية، وعندها لن تكون حرية كاملة، وإما أن تكون الحرية متحررة من كل القيم والأخلاق، وعندها ستكون تلك الحرية كارثة على الإنسانية، ولكنها في الحقيقة هي حرية سارتر المزعومة.

بل وصل الحد إلى التصريح بالانتماء إلى هذا المذهب الكفري الإباحي، أو إطرائـه والإشادة بأصحابه[٢]، والتأسف على قلة الاعتناء به مما ينـذر بزوالـه[٣]، وفي إعجـاب بسارتر، تتحسر إحداهن على ا تمعات الإسلامية أن لم يظهر من بينها رجل يشبه سارتر

1 - انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ: محمد قطب، ص: (٢١٥).

(2) انظر: مقالاً بعنوان: (دفاعاً عن الدكتور الفيلسـوف)، حسـونة المصباحي جريدة الشرق الأوسـط، عـدد: (25/01/2001)، وآخر بعنوان: (الفيلسـوف الفرنسـي جان بودريار: نحن أمام شكل جديد من الإرهاب)، حسـونة المصباحي، جريدة الشرق الأوسط، عدد: (٢٠٠١- ١١-١٦).

(3) كائنات فوق، أنيس منصور، ص: (٥٧-٥٨).

في ثـقافته وإبداعه، فتقول: " هل لدينا حقا مثقفون كبار؟ لم لم يظهر سارتر بينـا؟ لا أعني من حيث القوة الإبداعية بل من حيث قوة الضمير والأخلاق"[1].

وفي الحقيقة: ما يدعو إليه سارتر وكل أدعياء الحرية المطلقة ــ التي لا تتقيد بالدين ــ قد وقعوا في ما فروا منه؛ فإن اتباع الإنسان لشهوات نفسه وهواه يعتبر تخليصاً له من ربقة العبودية لله رب العالمين، ولكنه يعتبر عابداً لهواه، قال تعالى: (أَفَرَأَيت مَنِ اتخذَ إِلَهه هواه وأَضله الله علَى علْمٍ وختم علَى سمعه وقَلْبِه وجعلَ علَى بصرِه غشاوةً فَمن يهديه من بعد الله أَفَلا تذَكَّرونَ)[2]، فهذا قد جعل الهوى إلهه ومعبوده يأمره وينهاه ويسـوقه إلى حيث شاء، وهذه الآية نزلت في المشـركين من قريش كانوا يعبدون الحجر حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسـن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر[3]، فجعل الله اتباعهم لهواهم فيما يجعلونه وسائط يتقربون ا إلى الله[4]: عبودية للهوى وليس من الحرية في شيء.

(1) مقال بعنوان: مستشفى لمعالجة الأخلاق المذمومة! للكاتبة والشاعرة التونسـية: آمـ ـال موسـى، جريـدة الشرق الأوسط، عدد: (٢٠٠٢-٠١-٧).

(2) سـورة الجاثـية: (٢٣).

(3) انظر: لباب النقول في أسباب الن ول، بذيل تفسـير الجلالين، للسـيوطي، ص: (٤٢٢).

4 - قال تعالى: (والذين اتخذُوا من دونِه أَولياءَ ما نعبدهم إلا ليقَربونا إِلَى الله زلْفَى إِن الله يحكُم بينهم في مـا هم فيه يختلفُون)(الزمر: - الآية٣)، قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ: "اتخذ إلهه هواه: أي بما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه"، تفسير القرآن العظيم: ٣٢١/٣.

فكيف بمن جعل الهوى هو طريقه الوحيد ووسـيلته المثلى لتحقيق رغباته وشهواته دون ما رادع ولا وازع، وزاد على ذلك أن يعترف بجرمه الذي تبرأت منه كفار قريش، وهو عبادة الهوى _ حيث إن الله عا م بذلك تعيـيراً لهم؛ لعلهم ينـتهون عما يفعلون، ولم يشعروا بأن هذه هي حقيقة أفعالهم، فكان الخطاب لهم: بأنكم تعبدون أهواءكم في الحقيقة، كما صرح الله _ جل جلاله _ في موطن آخر في كتابه الكريم با امهم باتباعهم لأهوائهم في عباد م لغيره، قال تعالى: (إِنْ هي إلا أَسماءٌ سميتموها أَنتم وآباؤكُم ما أَنزلَ الله بِها من سلْطَان إِنْ يتبِعونَ إلا الظن وما **تهوى** الأَنفُس ولَقَد جاءَهم من ربهم الْهدى)[1]؛ فإ م لم يكونوا يعترفون بأ م كانوا يعبدون أهواءهم في الحقيقة، بل كانوا يقولون: (إنا وجدنا آباءَنا علَى أُمة وإِنا علَى آثَارِهم مهتدونَ)[2]، ويقولون: (إنا وجدنا آباءَنا علَى أُمة وإِنا علَى آثَارِهم مقْتدونَ)[3]_ بل زاد على اتباعه الهوى والاعتراف بذلك: أن يدعو إلى ذلك الجرم، فيا ليت شعري بمن يتشـبه دعاة الحرية المطلقة ودعاة التحرر بلا قيود، بالوجوديـين أتباع سارتر الذين صرحوا بإعطاء الهوى مقاليد أعناقهم، أم بالكفار من مشركي العرب، الذين عا م الله _ جل جلاله _ بعباد م لأهوائهم.

ولذلك فإننا حين ننادي بالحرية التي أتاحها لنا ديننا الحنيف عندها _ وعندها فقط _ نسعى إلى الحرية الحقيقية[4]، حرية من كل شيء في الكون، وعبودية لرب الكون وخالقه.

1 - سـورة: النجم: (٢٣).
2 - سـورة: الزخرف: (٢٢).
3 - سـورة الزخرف، من الآية: (٢٣).
(4) وليست الحرية المطلقة.

المبحث الثاني: مظاهر التشبه بالكفار في توحيد الطلب والقصد:-

تعرف العبادة في اللغة: بمعنى التذلل والخضوع، فيقال طريق معبد أي: مذلل قد وطئته الأقدام[1].

وخير تعريف للعبادة باعتبار المتعبد به _ وهو الاعتبار الذي يعنينا هنا _ هو التعريف الذي اختاره شيخ الإسلام حيث قال: "العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[2]، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: (قُلْ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب الْعالمين)[٣]، فكل ما يدخل تحت هذا التعريف هو من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله، فالصلاة والزكاة والصوم والحج والذبح والنذر والرغبة والرهبة والخوف والرجاء والاستعاذة والاستعانة والاستغاثة، كل ذلك من أنواع العبادة التي صرفُها لغير الله شرك بالله، وقد قال تعالى: (أمر ألا تعبدوا إلا إياه)[٤]، وقال: (واعبدوا الله ولا تشركُوا بِهِ شيئاً)[٥]، يقول الشيخ محمد خليل هراس _ رحمه الله _: "وإذا كان توحيد الإلهية يقوم كما ذكرنا آنفاً على صرف جميع العبادات لله والإخلاص له فيها بغـير شائبة توجه بشيء منها إلى غيره أصلاً، فلا بد إذاً من معرفة أنواع العبادات التي تعبدنا الله عز وجل ا في العقائد والأقوال والأعمال التي يحبها ويرضاها والتي أمرنا أن نتقرب إليه ا، فإن بعض هذه الأمور قد التبس على كثير من الناس فلم يفقهوا معنى التعبد

---

(1) انظر: فيض القدير، للمناوي: ٧٣/٦

(2) مجموع الفتاوى: ١٤٩/١٠.

(3) سـورة: (الأنعام:١٦٢).

(4) سـورة يوسف الآية: (٤٠).

(5) سـورة النساء الآية: (٣٦).

فيها فتوجهوا ا إلى غير الله عز وجل دون أن يشعروا بخطر ذلك على دينهم، وانخلاعهم به من ربقة الإسلام"[١].

وجه دخول عبادة غير الله في الجانب الاعتقادي:

إن صرف العبادة لغير الله قد يكون في ظاهره عملياً، ولكنه إنما يكون تبعاً لاعتقاد أن شيئاً من خصائص الربوبية يكون لغير الله؛ فإن من عبد وثناً وصرف شيئاً من أنواع العبادة القلبية أو العملية له، لا يتصور منه إلا أنه يرى أن في هذا الصنم أو الوثن صفة توجب له هذا النوع من العبادة، فإنه "ليس من الطبيعي أن يتوجه إنسان إلى حجر أو شجر أو قبر أو أي مخلوق آخر بأشكال التقديس والتقرب، ولذا: فإن الصورة الساذجة المباشرة لهذه الأعمال لا يتصور أ ا تنطلي من أول وهلة وبصور ا الساذجة على المخلوق المكرم بعقله، المميز بفطرته، إذ لا بد من وجود حجج وحيثيات تزين هذا الانحراف وتسـوغه له، أي: لا بد من وجود (فلسـفة) لهذا الأمر حتى ولو لم تظهر مصاحبة له، فهي في كثير من الأحيان تظهر في صورة أشبه ما تكون بالاتجاه النفسـي[٢] لدى المبتلين ذا الداء، وهنا تكمن الصعوبة في هذا الجانب من البحث، لأننا نريد دخول منطقة (اللاوعي) عند القبوريـين للخروج بالوعي الكامن الذي يحركهم ويدفعهم إلى هذه الأفعال التي من المفترض ألا يقبلها عقل راشد، بل كيف تمسكوا ا ودافعوا عنها ؟"[٣]. وفي الحقيقة: أن هذا الذي يدعو من دون الله إنما يعتقد فيه نوعاً من النفع أو الضر[٤]، يقول الإمام الشوكاني

(1) دعوة التوحيد، للشيخ محمد خليل هراس، ص: (٤٠).

(2) الاتجاه النفسـي: " ميل عام مكتسب، نسبي في ثبوته، عاطفي في أعماقه، يؤثر في الدوافع النوعية، ويوجـه سلوك الفرد "، انظر: أسس علم النفس الاجتماعي، للدكتور مختار حمزة، ص: (٢٤٤).

(3) دمعة على التوحيد، مقال للكاتب: علي أبو الفتوح: ص: (٩٣).

(4) انظر: كتاب موسـوعة أهل السـنة، لعبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، ص: (٣٦).

ـ رحمه الله ـ: "والبلية كل البلية ما صار يعتقده كثير من العوام، وبعض الخواص في أهل القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء، من أ م يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل، **حتى نطقت ألسـنـتهم بما انطوت عليه قلو م**، فصاروا يدعو م تارةً مع الله، وتارةً استقلالاً، ويصرخون بأسمائهم ويعظمو م تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعاً زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ر م في الصلاة والدعاء"[١]، ومنهم من يعتقد في المقبور قدرة على سماع الأصوات تشـبه قدرة الله، أو يعتقد فيه معرفة لعلم الغيب[2]، قال الشوكاني: "فلولا اشتمال ضمائرهم على هذا الاعتقاد لم يدع أحد منهم ميتاً أو حياً عند استجلابه لنفع أو استدفاعه"[٣] بل حتى مشركو العرب لم يعبدوا الأصنام ـرد كو ا حجارة أو أخشاباً، بل عبدوها "معتقدين أ ا منازل الأرواح - كما بين الإخباريون -"[٤] ومن هنا دخلت هذه التصرفات العملية في باب التشـبه في جانب الاعتقاد؛ فإنه لا يتصور ممن ينادي ولياً من الأولياء، وهو في منأى عنه أن يكون غير معتقد سماعه، وإجابته له، ولا يعقل أن من يقرب قرباناً لصاحب قبر يريد بذلك شفاء ولده إلا أنه يعتقد بصاحب القبر أنه يشفي كما يشفي الله، أو يسمع الصوت من المستغيث، كما يسمع الله، وهذه لوثة فكرية توجب لهذا الذي يمارس هذه الأعمال الخروج من الإسلام.

كما أن هذا الذي يدعو الأموات ويظن م الضر والنفع ظاهر فعله أنه مكذب بقوله تعالى: (أَموات غَير أَحياءٍ وما يشعرونَ أَيانَ يبعثُونَ)[5]، وقوله تعالى: (يدعو لَمن ضره أَقْرب من نفْعه لَبِئْس الْمولَى ولَبِئْس الْعشير)[٦]، كما أنه لا يتصور ممن يتطلع إلى معرفة المستقبل من الكهان والعرافين والمنجمين إلا أنه يؤمن بكونه يعلم الغيب أو أنه مكذب بقوله تعالى: (وعنده مفَاتح الْغيبِ لا يعلَمها إلا هو)[٧]، وهذه لوثة اعتقادية أخرى توجب له الدخول في الكفر المخرج من الملة؛ لتكذيبه لكلام الله تعالى.

(1) انظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص: (٢٨).
(2) انظر: رسالة الشـرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (١٣٤).
(3) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص: (٧٠ – ٧١).
(4) د. أكرم ضياء العمري، السـيرة النبوية الصحيحة: ٨٤/١.
(5) سورة: (النحل:٢١).
(6) سورة: (الحج:١٣).
(7) سورة: (الأنعام:٥٩).

حقيقة توحيد العبادة:

توحيد العبادة هو الذي يعبر عنه العلماء بتوحيد الألوهية، وهو كما عرفه شيخ الإسلام: "أن يعبد الله وحده فيكون الدين كله لله ولا يخاف إلا الله ولا يدعى إلا الله ويكون الله أحب إلى العبد من كل شيء فيحبون لله ويبغضون لله ويعبدون الله ويتوكلون عليه"[1]، وعلى هذا فتوحيد العبادة يستوجب صرف العبادة لله وحده دون ما سـواه؛ فهو المستحق للعبادة، ولذلك قال الله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركُوا بِه شيئاً)[٢]، فعبادة الله تستلزم عدم إشراكه مع غيره في صرف شيء من أنواع العبادة، وبناء على الآية السابقة فإن من عبد الله وأشرك معه غيره لم يكن مستقيماً على ما أمر الله به، قال تعالى: (وما أُمروا إلا ليعبدوا إلَهاً واحداً لا إلَه إلا هو سبحانه عما يشركُونَ) [٣]، وقال: (وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين لَه الدين) [٤].

ويخطئ من يظن أن التوحيد الذي أمر الله به هو توحيد الله بأفعاله فقط، دون توحيد العبادة له _ عز وجل _، وأن التوحيد الذي جاءت به الرسل هو توحيد الربوبية الذي هو توحيد الله بأفعاله، بأنه لا خالق ولا مالك ولا متصرف إلا الله، فإن هذا التوحيد مستلزم لتوحيد العبادة وهو فطري، ولم يكابر فيه كفار قريش ولا غيرهم من الكفار، إلا من شذ، وأما التوحيد الذي بدأ به الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم فهو توحيد الألوهية، وهو توحيد الله بأفعال العباد، بأن لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: (ولَقَد بعثْنا في كُل أُمة رسـولاً أَن اعبدوا الله واجتنِبوا الطاغُوت) [٥]، وقال: (واذْكُر أَخا عاد إِذْ أَنذَر قَومه بِالأَحقَاف وقَد خلَت النذُر من بينِ يديه ومن خلْفه ألا تعبدوا إلا الله إِني أَخاف علَيكُم عذَاب يومٍ عظيمٍ) [٦]، وقال: (إِذْ جاءَتهم الرسلُ من بينِ أَيديهم ومن خلْفهم ألا تعبدوا إلا الله)[٧]، كل هذه الآيات تدل على أن التوحيد الذي جاءت به الرسل هو توحيد الإلهية، وإن كان توحيد الربوبية له مساس بالتوحيد الذي أمر به الرسل

1 - انظر: منهاج السـنة النبوية: ٢٩٠/٣
(2) سـورة: (النساء: من الآية٣٦).
(3) سـورة: (التوبة: من الآية٣١).
(4) سـورة: (البينة: من الآية٥).
(5) سـورة: (النحل: من الآية٣٦).
(6) سـورة: (الأحقاف:٢١).
(7) سـورة: (فصلت: من الآية١٤).

أقوامهم، كما سبق، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، فمن عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً تضمن ذلك إيمانه بأنه لا خالق ولا متصرف في الكون إلا الله.

حقيقة الشـرك:

ولابد قبل الخوض في المظاهر أن نعرج على تعريف الشـرك الأكبر، يقول الشيخ حافظ الحكمي[١] ـ رحمه الله ـ: "وإذا عرفت أن توحيد الإلهية هو إفراد الله تعالي بجميع أنواع العبادة ونفي العبادة عن كل ما سـوى الله تبارك وتعالى فضد ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل وهذا هو الغالب على عامة المشـركين وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها"[2].

ويمكن تقسـيم الشـرك في الألوهية إلى قسمين رئيسـيـين:-

١- من عبد غير الله يظن فيه النفع والضر من دون الله، كما قال تعالى عن المشـركين،: (**ويعبدونَ من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم** ويقُولُونَ هؤلاءِ شفَعاؤنا عند الله قُلْ أتنبئُونَ الله بِما لا يعلَم في السماوات ولا في الأرضِ سبحانه وتعالَى عما

(1) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد بن علي الحكمي أحد علماء المملكة العربية السعودية السلفيين، وهو علم من أعلام منطقة الجنوب، ولد عام: (١٣٤٢هـ)، حفظ القرآن ولم يتعد الثامنة من عمره، وكان سريع الحفظ والفهـم والإدراك، توفي عام: (١٣٧٧هـ)، من مؤلفاته: سلم الوصول إلى علم الأصول، في توحيد الله واتباع الرسول ﷺ - معارج القبول، بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد – أعلام السنة المنشورة، لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة – اللؤلؤ المكنون، في أحوال الأسانيد والمتون – السبل السوية، لفقه السنن المروية – وسيلة الحـصول، إلى مهمات الأصول. انظر: مقدمة كتاب: معارج القبول، بشرح سـلم الوصـول إلى علم الأصـول في التوحيـد: ٢٣-١١/١.

(2) معارج القبول: ٤٥٩/٢.

يشركُونَ)[١]، وقال: (ويعبدونَ من دون الله ما لا ينفَعهم ولا يضرهم وكَانَ الْكَافر علَى ربه ظَهيراً)[٢]، فعبادة غير الله شرك في الألوهية، مبني على اعتقاد خاطئ في جانب الربوبية، وهو اعتقاد النفع والضر بغير الله.

٢- من عبد غير الله، يريد شفاعتهم عند الله، قال تعالى: (ويعبدونَ من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفَعهم **ويقُولُونَ هؤلاء شفَعاؤنا عند الله** قُلْ أَتنبئُونَ الله بِما لا يعلَم في السماوات ولا في الأَرضِ سبحانه وتعالَى عما يشرِكُونَ)[٣]، وقال: (أَلا لله الدين الْخالص والذين اتخذُوا من دونِه أَولياءَ ما نعبدهم إلا ليقَربونا إِلَى الله زلْفَى إِن الله يحكُم بينهم في ما هم فيه يختلفُونَ إِن الله لا يهدي من هو كَاذب كَفار)[٤]، وهؤلاء كفروا بأحد ثلاثة وجوه _ ومنهم من قد جمع بين ذلك كله:-

الأول: عباد م لغير الله، وهذا شرك في الألوهية، قال تعالى: (واعبدوا الله ولا تشرِكُوا بِه شيئاً)[٥]، وهؤلاء أشركوا معه غيره، في جانب العبادة

الثاني: اعتقادهم بأ م يسمعو م، ويستجيبون لهم _ في حال ندائهم للأمـوات _، وهذا شرك في الربوبية وتكذيب لله تعالى: (إِنْ تدعوهم لا يسمعوا دعاءَكُم ولَو سمعوا ما استجابوا لَكُم ويوم الْقيامة يكْفُرونَ بِشرككُم ولا ينبئُك مثْلُ خبِيرٍ)[٦]، فوصف ما يقومون به بأنه شرك، بعد إخباره بحقيقة حالهم وهو عدم سماعهم للنداء، وقال عز وجل: (ومـن أَضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجِيب لَه إِلَى يومِ الْقيامـة وهـم عـن دعـائهم غَافلُونَ)[٧]، فمن ظن أ م يسمعون النداء أو يستجيبون لمن يدعوهم فهو ضـال لا أحـد أضل منه، مكذب لكلام الله.

الثالث: اعتقادهم أ م بيدهم الوساطة المطلقة، والشفاعة التي لا ترد عند الله، ولكن الله تبارك وتعالى قد قيد الشفاعة، فقال: (لا تغنِي شفَاعتهم شيئاً إِلا من بعد أَنْ يأْذَنَ اللـه لمن يشاءُ ويرضى)[٨]، وقال: (يعلَم ما بين أَيديهم وما خلْفَهم ولا يشفَعونَ إِلا لمنِ ارتضى

(1) سورة: (يونس:١٨).
(2) سورة: (الفرقان:٥٥).
(3) سورة: (يونس:١٨).
(4) سورة: (الزمر:٣).
(5) سـورة: (النساء: من الآية٣٦).
(6) سـورة: (فاطر:١٤).
(7) سـورة: (الأحقاف:٥).
(8) سـورة: (النجم: من الآية٢٦).

وهم من خشيته مشفقُونَ)[١]، وقال: (من ذَا الذي يشفَع عنده إلا بِإذْنِه)[٢]، قال الرازي: "اعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال: (أمِ اتخذُوا من دون الله شفَعاءَ قُلْ أولَو كَانوا لا يملكُونَ شيئاً ولا يعقلُونَ)[٣]، وتقرير الجواب: أن هؤلاء الكفار: إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها، والأول باطل: لأن هذه الجمادات وهي الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئاً، فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها؟ والثاني باطل: لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة. فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره"[٤]، وهذا الاعتقاد: شرك في الربوبية، كما أن الفعل الذي انبنى عليه: شرك في الألوهية.

وهذا النوع من الاعتقادات والأفعال هو الذي أشكل على القبوريين في العصر الحديث[٥]، حيث ظنوا أن دعاء الأموات من ابتغاء الوسائل المشروع الذي أمر الله به في قوله تعالى: (أُولَئك الذين يدعونَ يبتغونَ إِلَى ربهم الْوسيلَةَ أَيهم أَقْرب ويرجونَ رحمته ويخافُونَ عذَابه إِن عذَاب ربك كَانَ محذُوراً)[٦]، ولكن التفسير الصحيح لهذه الآية كما يقول الطبري رحمه الله: "القول في تأويل قوله تعالى (أُولَئك الذين يدعونَ يبتغونَ إِلَى ربهم الْوسيلَةَ أَيهم أَقْرب ويرجونَ رحمته ويخافُونَ عذَابه إِن عذَاب ربك كَانَ محذُوراً)[٧]: يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أرباباً يبتغون إلى ربهم الوسيلة يقول يبتغي المدعوون أرباباً إلى ربهم القربة والزلفة لأنهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله، (أيهم أقْرب): أيهم بصالح أعماله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة"[٨]، وجاء في تفسير الجلالين: "الوسيلة: القربة بالطاعة"[١]، فهؤلاء الصالحون الذين

(1) سورة: (الأنبياء:٢٨).
(2) سورة: (البقرة: من الآية٢٥٥).
(3) سورة الزمر: (٤٣).
(4) التفسير الكبير: ٢٨٥/٢٦.
(5) في الحديث والقديم، منذ الدولة العبيدية في مصر والمتسمية بالفاطمية.
(6) سورة: (الاسراء:٥٧).
(7) سورة: (الاسراء:٥٧).
8 - تفسير الطبري: ١٠٤/١٥

يدعو م الناس من دون الله ظناً منهم أ م يسمعون الكلام والاستغاثة الموجهة إليهم وهم أموات في قبورهم، هم كانوا يعبدون الله ويبتغون إليه الوسـيلة بالطاعات والقربات، فكيف تدعو م من دون الله وتتخذو م وسائط فيما بينكم وبين الله وهو الذي أمركم أن تدعوه دون واسطة، فلماذا لا تقتدون م وتدعون الله وتتقربون إليه بالصالحات كما كانوا يفعلون؟ هذا لو كانوا صالحين، فأما إن كانوا ممن يظن م الصلاح وليسـوا كذلك فإ م لا يصلحون أن يكونوا وسائط بينكم وبين الله، ثم إن سـياق الآيات كان يتحدث عن دعاء غير الله فالآية التي قبل هذه الآية مباشرة هي قوله تعالى: (قُلِ ادعوا الذين زعمتم من دونِه فَلا يملكُونَ كَشف الضر عنكُم ولا تحويلاً)[٢]، وفيها إقناع للمشركين بأن لا يشركوا بالله غيره في الدعاء بأن الذين يدعو م من دون الله لا يملكون إزالة البلاء الذي أراده الله بعباده ولا يملكون تحويله عنهم، وكان من المناسب أن يكون الحديث بعد ذلك عن حال المدعوين من دون الله لكي يتم الاقتداء م في المسألة التي تم التنبيه عليها في الآية السابقة مباشرة، فلا داعي هنا لذكر حال أناس يبتغون الوسـيلة إلى ر م بدعاء الأولياء والصالحين؛ فإن هذا الكلام فضلاً عن كونه بعيداً عن سـياق الحديث في الآية السابقة، فإن فيه تناقض معها فكيف ينعى على المشـركين كو م لا يستفيدون شيئاً من دعاء غيره من كشف ضر أو تحويله، ثم يبرز لهم قدوة أناساً يجعلون بينهم وبين الله في الدعاء وسائط.

يقول الباحث مبارك بن محمد الميلي _ فيما يتعلق بالذين يصرفون شيئاً من أنواع القربات إلى الأولياء _: "وربما مازوا أنفسهم من الجاهلية الأولى بأن وضعهم بالشـرك جاء من قبل اعتقادهم في الجماد وغير الصالحين من العباد، أو أن أحداً غير الله يماثله في الخلق والإيجاد ويقولون نحن إنما نعتقد في الصالحين والأخيار أن الله جعل لهم النفع والضر في هذه الدار وتلك الدار فهم يعطون أو يمنعون وبأيديهم مفاتح غيبه، وتحت قبضتهم خزائن فضله، ينـزلون الأمطار متى شاءوا ويعافون من أحبوا ويبتلون من أبغضوا، ويهبون لمن أرادوا ذكوراً أو إناثاً، أو يزوجو م ذكراناً وإناثاً، ويجعلون من غضبوا عليه عقيماً"[٣]، وربما قال قائلهم: الاختلاف في نوع الوسائط؛ فوسائط المشـركين لا أصل لها من الصلاح، ووسائط المؤمنين هم عباد الله الصالحين، فالجواب: أن ذلك غير مسلم؛ فكيف نفى الله النفع الحاصل بالتوسط عموماً ولم لم يخصه بكون الوسائط هم أناس غير صالحين؟! والآية السابقة تدل على إنكار الله على المشركين عباد م لأوليائه الصالحين: (أُولَئك الذين

1 - تفسير الجلالين: ٣٧٢/١

(2) سورة: (الاسراء:٥٦).

(3) رسالة الشـرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (١٠٦- ١٠٧).

يدعونَ يبتغونَ إِلَى ربهم الْوسـيلَةَ أَيهم أَقْرب ويرجونَ رحمته ويخافُونَ عذَابه إِن عذَاب ربك كَانَ محذُوراً)[1]، فبين أن دعاء المشركين لعباد الله الصالحين ابتغاءً للوسيلة، مردود عليه بكون هؤلاء الصالحين هم أنفسهم كانوا يبتغون الوسيلة الصحيحة إلى الله، كدعائه والتضرع إليه بأسمائه وصفاته، إلى غير ذلك من الوسائل المشروعة.

ومن الآيات التي أنكر الله فيها على من عبد غيره ولو كان من أوليائه الصالحين، قولهﷻ: (وقَالُوا لا تذَرن آلهتكُم ولا تذَرن وداً ولا سـواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونسراً)[2]، قال ابن كثير: "قال عبد الله ابن عباس وغير واحد من علماء التفسـير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشـبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين وداً وسـواعاً ويغوث ويعوق ونسراً"[3].

وقوع الشـرك في هذه الأمة:

لقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بأن الشـرك سـوف يقع في هذه الأمة لا محالة قبل قيام الساعة، وذلك بطريقتين:-

الأولى: إخباره صلى الله عليه وسلم بأن المسـلمين سـيقع منهم التشـبه باليهود والنصارى حذو القذة بالقذة كما في حديث أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لتتبعن سـنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه[4]، قلنا: يا رسـول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن))[5]،

---

(1) سـورة: (الاسراء:٥٧).

(2) سورة: (نوح:٢٣).

(3) تفسـير ابن كثير: ٢٢٤/٢.

4 - قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: "لكن ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمة؛ لما تواتر عنه أنها لا تجتمع على ضلالة"، تيسـير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص: (٣٢١)، ثم هو خبر يراد منـه النهي والتحذير من ذلك.

5 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٢٧٤/٣، برقم: (٣٢٦٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه: ٢٠٥٤/٤، بـرقم: (٢٦٦٩).

قال ابن حجر _ رحمه الله _: "والذي يظهر أن التخصيص إنما وقع لجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته ومع ذلك فإنهم لاقتفائهم آثارهم واتباعهم طرائقهم لو دخلوا في مثل هذا الضيق الرديء لتبعوهم"[1]، كما يعرف جحر الضب بالتوائه وعدم استقامته.

وهذه الدقة في التمثيل بهذه الدابة تدل على أن هذه الأمة سـيحصل من بعض أفرادها التشـبه في كل شيء، **وهذا عموم يدخل فيه التشـبه بهم في عبادتهم لغير الله؛** حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث أخرى بأن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[2]، كما جاءت بعض الآيات تخبرنا عن وقوع الشـرك في اليهود والنصارى، فمن الآيات قوله تعالى: (وإِذْ واعدنا موسى أربعين لَيلَةً ثُم اتخذْتم الْعجلَ من بعده وأَنتم ظَالمونَ)[٣]، وقوله: (قُلْ هلْ أُنبئُكُم بِشر من ذَلك مثُوبةً عند الله من لَعنه الله وغَضب علَيه وجعلَ منهم الْقردةَ والْخنازِير وعبد الطاغُوت) [٤]، وقوله: (أَلَم تر إِلَى الذين أُوتوا نصيباً من الْكتابِ يؤمنونَ بِالْجِبت والطاغُوت) [٥].

والطريقة الثانية: التي أخبرنا بها النبي صلى الله عليه وسلم بأن الشـرك سـوف يقع في هذه الأمة لا محالة قبل قيام الساعة: هي طريقة التصريح بذلك حيث ورد عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات[٦] نساء دوس حول ذي الخلصة))[٧]، ومعنى ذلك أنه لن تقوم الساعة حتى ترحل نساء دوس إلى الصنم المعروف في أيام الجاهلية بذي الخلصة، يردن بذلك التعبد كما كان يفعله أهل الجاهلية. وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت: سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى[٨]))[٩].

كل هذه الأحاديث إنما جاءت على وجه التحذير من الوقوع في الشـرك الذي وقع فيه أهل الكتاب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _: "وهذا كله خرج منه

---

(1) فتح الباري: ٤٩٨/٦.

(2) وسـيأتي سـياق الأحاديث حول اتخاذ أهل الكتاب القبور مساجد، في نفس المبحث.

(3) سورة: (البقرة:٥١).

(4) سـورة: (المائدة: من الآية٦٠).

(5) سـورة: (النساء: من الآية٥٠).

6 - قال ابن حجر في الفتح: "أليات: بفتح الهمزة واللام جمع ألية بالفتح أيضا مثل جفنة وجفنات والألية العجيزة وجمعها اعجاز" ٧٦/١٣.

7 - أخرجه البخاري في صحيحه: ٢٦٠٤/٦، برقم: (٦٦٩٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه: ٢٢٣٠/٤، بـرقم: (٢٩٠٦)، وجاء في صحيح البخاري في نفس الصفحة: " وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية".

8 - اللات والعزى: أصنام كانت تعبدها العرب في الجاهلية، انظر: فتح الباري: ٢٥٧/٨.

9 - أخرجه مسلم في صحيحه: ٢٢٣٠/٤، برقم: (٢٩٠٧).

مخرج الخبر عن وقوع ذلك والذم لمن يفعله، كما كان يخبر عما يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمات"[1]،كما أن فيها علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم؛ حيث وقع ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، على وجهه.

الشـرك بين الأمس واليوم:

يحاول بعض المعاصرين أن يفرق بين الصورة التي يحصل فيها الطلب من المقبورين اليوم، وبين الصورة التي عرفت عن كفار قريش في الجاهلية من عبادة الأوثان، والاستغاثة بهم وطلب كشف الكروب منهم[2].

إن الكفار في زمن نوح عليه السلام كانوا يعبدون الأصنام، ولكن ماذا يقصدون بهذه الأصنام؟ إنها رموز لرجال صالحين، وهم: ود وسـواع ويغوث ويعوق ونسر، كما سبق، وكفار قريش كانوا يعبدون الأصنام على أنها أسماء لرجال صالحين؛ فالصنم المسمى بـ (اللات) إنما هو رجل صالح سمي بهذا الاسم لأنه كان يلت السـويق للحجاج، فلما مات، عبد من دون الله. والقبوريون اليوم يعبدون المقبورين الصالحين ـ بغض النظر عن صحة نسبة القبور إلى أصحابها ـ، وهم يطلبون من هؤلاء الصالحين كل ما يطلبه الكفار من أصنامهم في السابق.

ولذلك فإن الصورة التي يفعلها بعض الناس اليوم من طلب الواسطة إلى الله من عباده الصالحين لا تختلف عما كانت عليه في زمن الرسـول صلى الله عليه وسلم فهؤلاء يقولون: نريد من دعائهم التقرب إلى الله، وكفار قريش كانوا يعبدون الأصنام من أجل

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/١٧٠.
(2) سـيأتي قريباً.

التقرب إلى الله كذلك، كما قال الله تعالى وهو يبين خطأ وضلال الكفار الذين يفعلون هذا الفعل: (ما نعبدهم إلا ليقَربونا إلَى الله زلْفَى)[1]، فأي فرق بين الصورتين في الماضي والحاضر؟

كما أن الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعتقدون بأن الله هو الخالق الشافي....، في أغلب أمرهم، حيث قال الله تعالى عنهم: (ولَئن سأَلْتهم من خلَق السماوات والأَرض وسخر الشمس والْقَمر لَيقُولُن الله فَأَنى يؤْفَكُونَ)[2]،(ولَئن سأَلْتهم من نزلَ من السماءِ ماءً فَأَحيا بِه الأَرض من بعد موتها لَيقُولُن الله قُلِ الْحمد لله بلْ أَكْثَرهم لا يعقلُونَ)[3]، (ولَئن سأَلْتهم من خلَق السماوات والأَرض لَيقُولُن الله قُلِ الْحمد لله بلْ أَكْثَرهم لا يعلَمونَ)[4]، (ولَئن سأَلْتهم من خلَق السماوات والأَرض لَيقُولُن الله قُلْ أَفَرأَيتم ما تدعونَ من دون الله إِنْ أَرادنِي الله بِضر هلْ هن كَاشفَات ضره أَو أَرادنِي بِرحمة هلْ هن ممسِكَات رحمته قُلْ حسبِي الله علَيه يتوكَلُ الْمتوكلُونَ)[5]، فهذه الآيات تقنع الكفار بوجوب عبادة الله وحده، بالاستناد إلى مسلمات عندهم، ألا وهي أن الله هو الخالق المدبر، وإلا فلا داعي لذكر خلق الله للكون وشفائه للمرضى، ولكان الاستناد إلى ذلك ضرب من العبث، وتعالى الله عن العبث، يقول الإمام الشوكاني _ رحمه الله _: "اعلم أن الله لم يبعث رسله، ولم ينـزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم، والرازق لهم،ونحو ذلك، فإن هذا يقربه كل مشرك قبل بعثة الرسل: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)[6] ولهذا نجد كل ما ورد في الكتاب العزيز في شأن خالق الخلق ونحوه، في مخاطبة الكفار معنـوناً باستفهام التقرير: (هل من خالق غير الله)[7] (أفي الله شك فاطر السموات والأرض ؟)[8] (أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ؟) [9]"[10].

1 - سورة: (الزمر: من الآية٣).
2 - سورة: (العنكبوت:٦١).
(3) سورة: (العنكبوت:٦٣).
(4) سورة: (لقمان :٢٥).
5 - سورة: (الزمر:٣٨).
(6) سـورة الزخرف الآية ٨٧.
(7) سـورة فاطر الآية ٣.
(8) سـورة إبراهيم الآية ١٠.
(9) سـورة الأنعام الآية ١٤.
(10) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص: (٦٥ – ٦٦).

فكانت مصيبة كفار قريش أ م توسلوا إليه بالتوجه إلى غيره، ولم يشفع لهم اعتقادهم بأن الله هو الخالق المدبر[1]، بل وصفهم الله بالكفر ووعدهم بالنار، فأي فرق بين هؤلاء ومن يقدم القرابين في هذا الزمن لقبر يظن أنه لأحد من أولياء الله الصالحين لكي يقربه إلى الله ويشفع له، الدعوى نفسها، والطريقة نفسها، الدعوى هي التقرب إلى الله، والطريقة هي تقديم القرابين والدعوات والتوجه القلبي لغير الله، يقول الإمام الشوكاني _ رحمه الله _: "فإن قلت: إن هؤلاء القبوريـين يعتقدون أن الله تعالى هو الضار النافع، والخير والشر بيده، وإن استغاثوا بالأموات قصدوا إنجاز ما يطلبونه من الله سبحانه، **قلت: وهكذا كانت الجاهلية فإ م كانوا يعلمون أن الله هو الضار والنافع**، وأن الخير والشر بيده، وإنما عبدوا أصنامهم لتقر م إلى الله زلفى، كما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز"[٢].

وهكذا فإن الفرق لا يكاد يذكر إلا في كون كفار قريش كانوا يعلمون أ م مشركون بالله في ألوهيته[٣]؛ فلم يلتزموا النطق بكلمة التوحيد التي جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ا، والقبوريون اليوم ينطقون ذه الكلمة مراراً وتكراراً، ولكنهم لا يعلمون أ ا تستلزم منهم ترك التعلق بغـير الله، يقول الباحث مبارك بن محمد الميلي: "ولقد سادت هذه الحالة العالم الإسلامي فانـتهوا إلى جاهلية كجاهلية العرب في الدين لا في اللسان والبيان، فقد ارتقى العرب أيام جاهليتهم في معرفة معاني الكلام والإبانة عما في أنفسهم بالألفاظ المؤدية لأصل المعنى، ولكن المسـلمين تشمل أخطاؤهم هذه الناحية أيضاً فلم يكونوا مثل أولئك العرب في فصاحة اللسان، ووضع الأسماء على مسميا م فتراهم يعتقدون في الغوث والقطب[٤] وصاحب الكشف، والتصريف معنى الألوهية، وكان لا يسمو م آلهة. ويخضعون لأوليائهم ويخشو م كخشية الله أو أشد، ولا يسمون ذلك عبادة"[٥]، ويقول وهو يبين الفرق بين الوثنية القديمة والوثنية في العصر الحديث: "لا فرق بينهما في الجهل بما ينافي التوحيد، ولا في الابتلاء بالمبتدعين والدجالين، ولا في التبرك

---

1 - وإن كان كفار قريش _ والقبوريون في هذا الزمن _ لم يـسـلموا من الاعتقاد بآلهتهم بأن لها تصرفاً مـع الله عز وجل، فالغلو عندهم في باب الوسائط ولد نوعاً من الثقة بكون هذه الآلهة لها تصرف مع الله، وأ ا تؤذي من يسـيء إليها، أو أ ا تمنحه البركة، ولكن الاعتقاد الأساس عندهم هو أنه لا خالق إلا الله.

(2) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص: (٧٢).

(3) المقصود هنا أنه لا فرق بين الشـرك قديماً وحديثاً.

(4) القطب: أحد مراتب الترتيب الطبقي للأولياء عند الصوفية ويعرفها مؤسس التيجانية: ((أ ا الخلافة عن الحـق مطلقاً فلا يصل إلى الخلق شيء من الحق [الله] إلا بحكم القطب))، انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٦٩/٢ .

(5) انظر: رسالة الشرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (١٠٦- ١٠٧).

بالآثار احتماءً من الأقدار، ولا في التقرب من الأحجار، والنفور من المرشدين الأخيار، ولا في عصيان من خلقهم وعبادة ما نحتوه"[١].

يقول الشيخ محمد خليل هراس ـ رحمه الله ـ: " توحيد الربوبية وحده لا يكفي لتحقيق معنى التوحيد المطلوب شرعاً، والعبد لا يكون موحداً التوحيد الذي ينجي صاحبه في الدنيا من عذاب القتل والأسر، وفي الآخرة من عذاب النار بمجرد اعتقاده أن الله هو رب كل شيء وخالقه ومليكه وأنه المدبر للأمور جميعاً، فإن مثل هذا التوحيد كان يقر به المشركون الذين أمر الرسـول صلى الله عليه وسلم بقتالهم، بل لابد مع ذلك من توحيد الإلهية الذي هو الغاية العظمى من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام والذي من أجله خلق الله الخلق وجعل الجنة والنار وفرق الناس إلى شقي وسعيد[٢].

وفي مكابرة عجيبة يرى بعضهم أن ما ورد من النهي عن الشـرك والتحذير من عاقبة المشـركين إنما هو خاص بالمشـركين دون من تشـبه م من المسـلمين، يقول الباحث مبارك الميلي: "رأى الطرقيون ومن لف لفهم أن القرآن فاضحهم وكاشف عوارهم؛ فتعللوا للتسلل منه بعلل شتى وما هي بنافعتهم، وكان من تعللهم: تقولهم أن ما جاء في قوم من المشـركين وأهل الكتاب فهو خاص م لا يتناول المسـلمين وإن جاءوا بما هو أشنع وأضل"[3].

وهذا مردود بأدلة كثيرة، منها:

- "قوله تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ)[٤] فعطف على ضمير المخاطبين من المشـركين من بلغه القرآن في زمنهم وبعد عصرهم.
- وقال: (وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ)[5]، والذين يخافون الحشر هم المؤمنون، ومن هم مظنة الإيمان، ممن لم يطبع الله على قلو م.
- وقال:بعد حكاية حادثة قوم لوط: (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)[٦]، والمقصود هنا: مشركوا مكة أو ظالموا هذه الأمة"[٧].

---

(1) رسالة الشـرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (١٠٩- ١١٠).

(2) انظر: دعوة التوحيد ص: (٣٩).

(3) انظر: رسالة الشـرك ومظاهره، مبارك محمد الميلي ص: (٤٥).

(4) سـورة: (الأنعام: من الآية١٩).

(5) سـورة: (الأنعام: من الآية٥١).

(6) سـورة: (هود: من الآية٨٣).

7 - انظر: رسالة الشـرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (٥٧- ٥٨).

وبنفس المغالطة والمكابرة يرى بعضهم أن الالتجاء بأصحاب القبور لا يعد شركاً، فيقول: "الأحجار والأخشاب المعمولة للبناء على قبور الأنبياء والأولياء والالتجاء إليهم لا يقاس بأفعال عبدة الأوثان، فإ م يدعون أصنامهم، ويذبحون لها، والمستشفعون بالأنبياء لا يدعو م، ولا يذبحون لهم، ولا يقولون: ما نعبدهم إ لاّ ليقربونا إ إلى الله زلفى"[1]، ولا أدري كيف جمع بين كو م يلتجئون إليهم وكو م لا يدعو م، وكيف جمع بين كو م لم يقولوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وبين كو م اتخذوهم شفعاء؛ فإن الالتجاء إليهم هو دعاؤهم، والاستشفاع م هو نفسه قول الكفار: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

فهذه الأفعال هي الشـرك بعينه، يقول الشيخ خليل هراس في أصحاب هذه الأفعال: "وهذا إذا لم يكن شركاً فلا تدري ما هو الشـرك، وإذا لم يكن كفراً فليس في الدنيا كفر"[2]، هذه العبارة جاءت من عالم جليل يدرك خطورة الشـرك على هذه الأمة، ويدرك حقيقة ما كان عليه الكفار في الجاهلية ووجه التشابه بينه وبين أفعال بعض الناس اليوم، وفيما يلي أسـوق بعض المظاهر الشـركية التي تشـبه فيها أهل هذا الزمن بمشركي العرب وغيرهم:-

دعاء غير الله:

الدعاء من أعظم العبادات التي يتقرب المسلم ا إلى الله عز وجل، وورد فضله والأمر به في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: (ادعوا ربكُم تضرعاً وخفْيةً)[3]، (ولا تطْرد الذين يدعونَ ربهم بِالْغداة والْعشي يريدونَ وجهه)[4]، (واصبِر نفْسك مع الذين يدعونَ ربهم بِالْغداة والْعشي يريدونَ وجهه ولا تعد عيناك عنهم ترِيد زِينةَ الْحياة الدنيا) [5]، وقوله: (تتجافَى جنوبهم عنِ الْمضاجِعِ يدعونَ ربهم خوفاً وطَمعا) [6]، الآيات السابقة دلت على أن الله عز وجل أمر بدعائه وطلب المعونة منه سبحانه، ومدح الذين يدعونه.

1 - رسالة في رد مذهب الوهابية تأليف : السـيد محمد العصار تحقيق: الشيخ نعمان النصري
(2) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص: (٢٨).
(3) سـورة: (الأعراف:٥٥).
(4) سـورة: (الأنعام:٥٢).
(5) سـورة: (الكهف:٢٨).
(6) سـورة: (السجدة:١٦).

كما أن الله عز وجل أمر بدعائه وحده لا شريك له في آيات عديدة، و ى عن دعاء غيره من المخلوقين في آيات عديدة: (وما ظَلَمناهم ولَكن ظَلَموا أَنفُسهم فَما أَغْنت عنهم آلهتهم التي يدعونَ من دون الله من شيءٍ لَما جاءَ أَمر ربك وما زادوهم غَير تتبيبٍ)[1]، (لَه دعوةُ الْحق والذين يدعونَ من دونِه لا يستجِيبونَ لَهم بِشيءٍ) [2](ذَلك بِأَن الله هو الْحق وأَن ما يدعونَ من دونِه هو الْباطلُ وأَن الله هو الْعلي الْكَبِير)[3]، (والذين لا يدعونَ مع الله إِلَهاً آخر)[4]، (ذَلك بِأَن الله هو الْحق وأَن ما يدعونَ من دونِه الْباطلُ)[5]، (والله يقْضي بِالْحق والذين يدعونَ من دونِه لا يقْضونَ بِشيءٍ)[6]، (ولا يملك الذين يدعونَ من دونِه الشفَاعةَ إِلا من شهد بِالْحق وهم يعلَمونَ)[7]، (قُلِ ادعوا الذين زعمتم من دونِه فَلا يملكُونَ كَشف الضر عنكُم ولا تحوِيلاً)[8]، هذه الآيات تدل على أهمية أن يكون الدعاء خالصاً لله وحده؛ حيث لم يكتف بالنهي عن الشـرك عموماً بل خص الشـرك في الدعاء بالنهي، مع دخوله في النهي العام، يقول الشيخ محمد خليل هراس: "فهذا النوع[9] فيه من الرجاء والخشية، والرغبة والرهبة، والذل والعجز، والضراعة والاستكانة ما يجعله عبادة من أعظم العبادات ولهذا ورد الحث عليه في كثير من الآيات والأحاديث، وقد ورد في هذا الباب من الأدعية المأثورة في كل مقام ما يناسبه، وفيها غنية لمن يريد الدعاء عن هذه الأدعية الشـركية المبتدعة التي تمتلئ ا كتب الصوفية، والتي يسمو ا أوراداً ويريدون ا أن يصرفوا الناس عن أدعية الكتاب والسـنة"[10].

ولذلك سمى الله الدعاء عبادة فقال: (وقَالَ ربكُم ادعونِي أَستجِب لَكُم إِن الـذين يستكْبِرونَ عن عبادتي سيدخلُونَ جهنم داخرِين)[11]، وقال حكاية عن إبراهيم الخليل عليه السلام: (وأَعتزِلُكُم وما تدعونَ من دون الله وأَدعو ربي عسى أَلا أَكُونَ بِدعاءِ ربي شقياً،

(1) سـورة: (هود:١٠١).
(2) سـورة: (الرعد: من الآية١٤).
(3) سـورة: (الحج:٦٢).
(4) سـورة: (الفرقان: من الآية٦٨).
(5) سـورة: (لقمان: من الآية٣٠).
(6) سـورة: (غافر: من الآية٢٠).
(7) سـورة: (الزخرف:٨٦).
(8) سـورة: (الاسراء:٥٦).
(9) دعاء الطلب.
(10) دعوة التوحيد ص: (٥٠).
(11) سـورة: (غافر:٦٠).

فَلَما اعتزلَهم وما يعبدونَ من دون الله وهبنا لَه إسحاق ويعقُوب وكُلاً جعلْـا نبِيـاً)[١]، فسمى دعاءهم أصنامهم: عبادة، يقول الباحث عبد الرحمن دمشقية: "ولما كان دعاء غـير الله عند إبراهيم شركاً قال لهم: (وأَعتزِلُكُم وما تدعونَ من دون الله وأَدعو ربي)[٢] فحكم عليهم في الآية التي تليها أن دعاءهم لها عبادة من دون الله: (فَلَما اعتزلَهم وما يعبدونَ من دون الله)[٣]، وأكد ذلك في آية واحدة فقال: (قُلْ إني نهيت أَنْ أَعبد الذين تدعونَ مـن دون الله لَما جاءَنِي الْبينات من ربي وأُمرت أَنْ أُسلم لرب الْعالَمين)[٤] وقد دلـت الآيـة على أن دعاء غير الله عبادة تتعارض مع الإسلام لرب العالمين. ولو كان يعلم عنهم أ ـم كانوا يعتقدون فيها النفع والضر لما حاجهم بذلك ولأجابوا عن سؤاله (قَالَ هلْ يسمعونكُم إِذْ تدعونَ)[٥] بقولهم: نعم، إ ا تنفع وتضر. فلما عجزوا عن الإجابة قالوا: (قَالُوا بلْ وجدنا آباءَنا كَذَلك يفْعلُونَ)[٦] قال: (قَالَ أَفَرأَيتم ما كُنتم تعبدونَ)[٧] فقال لهم أولاً (تدعونً) ثم قال: (تعبدونَ) وفي آية أخرى (قَالَ أَفَتعبدونَ من دون اللـه مـا لا يـنفَعكُم شـيئاً ولا يضركُم)[٨]"[٩].

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الدعاء هو العبادة))[١٠]، قال ابـن حجـر: "الدعاء من أعظم العبادة فهو كالحديث الآخر الحج عرفة أي: معظم الحج"[١١]، وقال شارح سنن أبي داود: "أي هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة لدلالته على الإقبـال على الله والإعراض عما سـواه"[١٢]، قال الزبيدي: "لما حكم بأن الدعاء هو العبادة الحقيقية التي تستحق أن تسمى عبادة من حيث أنه يدل على أن فاعله مقبل بوجهه إلى الله تعـالى،

(1) سـورة: (مريم:٤٨).
(2) سـورة: (مريم الآية: ٤٨).
(3) سـورة: (مريم الآية ٤٨).
(4) سـورة: (غافر: ٦٦).
(5) سـورة: (الشعراء: الآية: ٧٢).
(6) سـورة: (الشعراء:الآية:٧٤).
(7) سـورة: (الشعراء: ٧٥).
(8) سـورة: (الأنبـيـاء: ٦٦).
(9) انظر: كتاب موسـوعة أهل السـنة، لعبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، ص: (٣٦).
10 - سـنن الترمذي: ٥ / ٢١١، برقم: (2969)، ومسـند أحمد: ٢٧١/٤، قال ابـن حجـر في الفـتح: "أخرجه أصحاب السـنن بسـند جيد"٤٩/١.
11 - فتح الباري: ٩٤/١١، وانظر: تحفة الأحوذي: ٢٢٠/٩، وفيض القدير: ٥٤٠/٣.
12 - محمد شمس الحق: عون المعبود شرح سـنن أبي داود: ٢٤٧/٤، وانظر: شرح سـنن ابن ماجه: ٢٧٢/١.

معرض عما سـواه، لا يرجو ولا يخاف إلا منه: استدل عليه بالآية فإ ا تدل على أنه أمر مأمور به إذا أتى به المكلف قبل منه لا محالة وترتب عليه المقصود ترتب الجزاء على الشرط وما كان كذلك كان أتم العبادة وأكملها ويمكن حمل العبادة على المعنى اللغوي أي الدعاء ليس إلا إظهار غاية التذلل والافتقار"[1].

كما قال عليه الصلاة والسلام: ((ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء))[2]، فالدعاء أكرم العبادات إلى الله، فهو الذي يستجيب للداع إذا دعاه، قال تعالى: (وقَالَ ربكُم ادعونِي أَستجِب لَكُم)[٣]، فالله سبحانه وتعالى أمر بدعائه ووعد بالإجابة، وتوعد من دعا غيره، ومع ذلك نجد في هذا العصر من يدعو غيره.

ومن الآيات الفاصلة في هذا ا ال: قوله تعالى: (وأَن الْمساجِد لله فَلا تدعو مع الله أَحداً)[٤]" ما أوضح هذه الآية لطالب الحق، وهل بعدها مبرر للنـزاع والجدل؟؛ فقولـه: (أَحداً) نكرة في سـياق النهي تعم كل مدعو من دون الله. والمسجد ليس مكاناً للسجود فقط وإنما للدعاء أيضاً، فالصلاة التي تتضمن السجود تتضمن أكثر منه: وهو الدعاء فهـل يجيز أحد دعاء غير الله في الصلاة؟ فما الذي يجعل دعاء غير الله داخـلَ الـصلاة محرمـاً وخارجها جائز؟"[٥]، وهكذا فإن النهي العام هنا يدل على عدم جواز صرف الدعاء لغـير الله، فمع أن الدعاء هو نوع عبادة، والعبادات منهي عن صرفها لغير الله عموماً، كمـا في قوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشرِكُوا بِه شيئاً)[٦]، ولكن خص الله الدعاء بمزيد ي عـن صرفه لغير الله؛ لشرفه ولأنه أصل العبادات ومخها.

بعض مظاهر دعاء غير الله في العصر الحديث:

تنوعت الصور التي يتوجه ا القبوريون في هذا العصر إلى أصحاب القبور بالدعاء فمنهم من يدعو صاحب القبر ويتوجه إليه بطلب الشفاء والإعانة في الشدائد[٧]، ومنهم

(1) إتحاف السادة المتقين: ٢٩/٥.
(2) سـنن الترمذي: ٤٥٥/٥، برقم: (٣٣٧٠)، وسـنن ابن ماجه: ١٢٥٨/٢، بـرقم: (٣٨٢٩)، وصـححه الألباني، انظر: صحيح سـنن الترمذي: ١٣٨/٣، برقم: (٢٦٨٤).
(3) سـورة: (غافر:٦٠).
(4) سـورة: (الجـن:١٨).
(5) كتاب موسـوعة أهل السـنة، لعبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، ص: (٣٠).
(6) سـورة: (النساء: من الآية٣٦).
(7) رسالة الشـرك ومظاهره ص: (١٠٨).

يتخذ أصحاب القبور شفعاء عند الله، وكل ذلك داخل في الشـرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام.

ومنهم من جمع بين الدعاء والعبادة للمقبور، يقول الكاتب عثمان محمد سـليمان: "وكذلك دعاء المقبور والاستعانة به والإلحاح عليه في الدعاء، فقد رأيت بعض الزائـرين يجلس عند القبر ممسكاً بسـياجه، ويلح في طلب حاجته، وأحياناً يصرخ، وبعضهم الآخر يدعو المقبور أثناء الطواف حول القبر، ومما يندى له الجبين أن امرأة شوهدت عند قبـة[1] تحمل طفلاً، ترفعه بيديها و زه وهي تخاطب الشيخ المقبور راجية منها البركة في صغيرها، ثم تقول: (يا شيخ.. سمعت) لتتيقن سماعه وقضاء حاجتها!"[2].

بل من هؤلاء القبوريـين من يوجب دعاء غير الله وطلب الحوائج من المخلـوقين يقول عبد الله الميرغني: "ولهذا يتبين لك (وجوب) التعلق بالوسائل والأسباب، وتأكد لزوم التزام الوسائط والأبواب، فتعلق بالوسائل والأسباب، والجأ واستغث، وتوجه لخـواص الله والأحباب، واطرق لدى الخطوب ما شئت من الأبواب، تنل بذلك من فيض الوهاب ما لا يدخل في حساب"[3]

حتى إن منهم من يستغيث بمن ثبت فجوره وإلحاده في صفات الله، يقول الـشيخ: إسماعيل بن سعد بن عتيق: "محيـي الدين بن عربي صاحب (فصوص الحكـم) والمعتقـد بوحدة الوجود والحلول والاتحاد[٤] وزعيم الفلاسفة القائلين ذه البدعة المكفرة، أقـول إن مزاره وثن يعبد ويقدس في عاصمة دولة كانت عاصمة الخلافة الأموية، ولا يزال في أهلها الخير ــ إن شاء الله ــ، غير أن الفتنة ذا الوثن تزداد يوماً بعد يوم، وقفت على باب القبة

(1) القبة: عبارة عن بناء شاهق يتخذ على شكل مخروطي أو نصف كروي، يقام على قبر من يعتقد فيه الـصلاح والولاية، انظر: مجلة البيان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ، مقال بعنوان: الأضرحة في العالم الإسلامي مـشاهد متفرقة.

(2) انظر: دمعة على التوحيد، ص: (٤٦).

3 - انظر: رسالة عبد الله المحجوب الميرغني، ت(١٢٠٧هـ): تحريض الأغبياء علـى الاسـتعانة بالأنبـيـ ـاء والأولياء)، نقلاً عن: دمعة على التوحيد، المنتدى الإسلامي: ص: (٤٥).

(4) "الاتحاد : من العقائد الوثنية الدخيلة على عالمنا الإسلامي، إذ تلغي الفرق بين الخالق والمخلوق على اعتبار أنه لا موجود في الوجود إلا الله- تعالى الله عن كفرهم- وتعتبر كتب ((الفيدانت)) المقدسة عند الهندوس من مـصادرها الأولى". انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٤٣/٢ .

لأرى وأعتبر، وكنت أحمل حذاءً في يدي، فأنكروا علي بالإجماع: كيف تقرب من المقام وفي يدك حذاؤك؟! احتراماً وتقديساً للولي!"[1].

ويقول أحد الزائرين لمدينة دمشق: لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق فوجدت فئاماً من الناس يغدون إليه ويروحون... وجدتهم يطوفون حوله ويتوسلون به ويعلنون دعاءهم له من دون الله.. وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه وتنادي: أغثني يا محيي الدين... وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه، ويمددن أمامه الأكف، ويمسحن الوجوه، ويخشعن، ويتضرعن وعلقت حوله من التعاويذ والقصائد الشيء الكثير، حفظت من بينها:

أن يكون المدح فيكم سيدي — لنجاة العبد أقوى السبب
فأجرني من زمان جائر — لا يراعي حق أهل الأدب
كم مصاب هاضه قيل له — أن تخف ناب ضواري النوب
زر مقاماً بدمشق حرماً — ثم قل جئتك يا ابن العربي
تحظ بالأمن وغايات المنى — وتعد منه بأقصى الأرب

ومن قصيدة أخرى:

هو منهل للسائلين ومقصد — للمذنبين وراحم المسكين
ما خاب راج قد دعاه مؤملاً — ألا المراد أتاه بالتسكين
يمم حمى أعتابه وألثم ثرى — ترب شذي نفحاته النسرين
قد جئت قطب العارفين بذلة — أرجوك يا عربي وفاء الدين"[2]

وتروى في هذا الباب الأساطير والخرافات فيروى أن بعضهم سافر فضل الطريق، وكان ذلك في ليلة مظلمة حصل له كرب عظيم وضيق فنادى بأعلى صوته: يا سيدي أحمد أنقذني من هذه الحيرة، فما تم مقالته إلا وضوء أضاء له أبصر به الطريق، وفرج الله عنه ما به ببركة هذا الأستاذ من الهم والضيق[3].

وتفنن بعضهم في الطلب ممن هو دون الله، فذهب ينسج أبياتاً _ هي أوهى من نسج العنكبوت _ يستغيث فيها بالمقبور الذي لا يسمع ولا يستجيب، يقول محمد القاياتي

---

1 - دمعة على التوحيد، ص: (٥٦).

(2) شهر في دمشق، دراسات، مشاهدات، نقد، تحقيق، تصوير، توجيهات، مقارنات، خواطر... الخ...، ص: (٥)

(3) كتاب: (نفحة الرحمن في بعض مناقب سيدنا ومولانا وأستاذنا وشيخنا المرحوم الشيخ أحمد بن المرحوم السيد زيني دحلان)، أبو بكر بن محمد شطا، ص: (٣٣).

بعد أن زار الضريح المنسـوب إلى إبراهيم بن أدهم في بلدة جبلة بقرب اللاذقية: "ولقد أنشأ الفقير قصيدة استغاثية وشكوى حال واقعية وجعلتها في صورة عرض حال بسبب ما وقع لنا من الغربة والارتحال، وقدمته لجنابه، وألقيتها في رحابه، متوسلاً إلى الله بكل أحبابه، ومفاتيح أبوابه:

جئـ ـ ـت والوقت بالمكارم أظلم　　أبتغي العيون من جناب ابن أدهم
مأمـ ـل الآمليـن فـي كل خيـر　　ملجـأ الخائفيـن إن أفرط الهـم

حرم الأمن كعبة اليمـن لكـن　　بيتـه للوفـود غيـر محـرم
قطب غوث يغيث من حل فيـه　　ويحـ ـل المقـ ـود ما لم يحتم
وفؤادي على الضريـح ينـادي　　ما لهـذا الجريـح غيرك مرهم
يا إمـام العلـو أنجـد مريـداً　　هو بالحـب فـي جنابك مغرم
فتحنن يا ابن الكـ ـرام علينـا　　علنا من حوادث الدهر نسلـم
فتعطف يا قطب وارحم وادفـع　　عن نزيل وقـل مرادك تـ ـم"(١)

يقول الإمام الشوكاني _ رحمه الله _: "وقد ذكر أهل العلم أنه يجب علـى كـل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله سبحانه، وأن كل غوث مـن عنده، وإذا حصل شيء من ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه ولغيره مجاز. ومن أسمائه المغيث والغياث"(٢).

ولقد انتشر دعاء غير الله بين المسـلمين اليوم بشكل يندى له الجبين، وحتى في العالم العربي الذي يزخر بالعلم وبالقرب من الجامعات والمعاهد الإسلامية، وما سبب ذلك إلا قلة من يعمل على نشر العلم الصحيح الذي ينقذ الناس من خرافات الجهل وأوهام الضلالة، فهذا ضريح من يسمى بالسـيد أحمد البدوي، في الجامع الأحمدي بطنطا بمصر "تجد حوله مظاهر متعددة للتوسل بالبدوي ومناجاته، ومطالبته بتفريج الكرب وقضاء الحوائج، وتبدو على وجوه الزائرين الثقة في أن البدوي سـيجيب مطالبهم، وترى رفع الأكف بالدعاء في خشوع وذله والبكاء أحياناً"(٣).

---

(1) نفحة البشام، ص: (٦٦- ٦٨).
(2) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص: (١١).
(3) انظر: السـيد البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر ص: (٤٦).

ويروي بعضهم أسطورة عن أحمد البدوي تقول هذه الأسطورة: "إن امرأة مات لها ولد صغير فجاءت إلى (سـيدي أحمد البدوي) وهي باكية، وقالت: يا سـيدي ما أعرف ولدي إلا منك، وهي تقول: توسلت إليك بالله ورسـوله، أو قالت: سقت إليك الله ورسـوله، فمد (سـيدي أحمد البدوي) يده إليه ودعا له فأحياه الله تعالى فقال بعضهم مادحاً البدوي:

أنت أحيـيت ميتاً وبعد أن قد   فتك الدود لحمه والبلاء[1]

ومن الغريب أنه قد يتوجه بعضهم إلى القبر من مكان بعيد ويدعو الميـت ويجعـل القبلة وراءه، بل هناك "من يسجد وهو مستقبل القبة[2]، نسأل الله السلامة"[3]، وهذا يفعله بجانب القبر ولا يستبعد أن يفعله من مكان آخر؛ فإن الضلال يقود إلى الضلال، ولا شك أن هذا الفعل غير مستبعد على مثل هذا؛ فإن التوجه القلبي إلى صاحب القبر سبق التوجـه البدني عنده، ثم تلاه التوجه بالبدن، والجوارح جنود القلب، وهذا من الشـرك الأكـبر ــ والعياذ بالله ــ قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ: "ومن الناس من يتحرى وقـت دعائـه استقبال الجهة التي يكون فيها الرجل الصالح سـواء كانت في المشرق أو غيره وهذا ضلال بين وشرك واضح"[4].

ولقد اتضح لي من خلال البحث أن من هؤلاء الذين يستغيثون بأصحاب القبور من خلط بين معنى التوسل بدعاء الصالحين، وبين الاستشفاع بأصحاب القبور وندائهم للتوسط عند الله، يقول الشيخ محمد حسـنين مخلوف: "وهذا النوع من التوسل موضـع الكـلام ومحفل الإفهام وهو التوسل بالنبي أو الولي حياً أو ميتاً بإسـناد الفعل إليه نحو يا نبي الله أو يا سـيدي فلان اشف مريضي أو ارزقني أو أدخلني الجنة أو نجني من النار أو نحو ذلك مما شأنه أن يسـند إلى الله تعالى ولا تتعلق به قدرة العبد باعتبار ذاته ضراً ولا نفعا وإنما أسند الفعل إليه ليتوجه إلى الله تعالى، وسأله أن يفعل ذلك بحيث لا يكون للنبي أو الولي إلا مجرد السعي في حصوله بالتوجه والطلب من الله تعالى أو ليرشده في يقظته أو منامه إلى ما فيـه قضاء حاجته أو يدبر له علاجاً روحانياً أو طبياً أو نحو ذلك من طرق السعي التي يترتـب عليها عادة فعل الله حتى يكون فعل النبي أو الولي وسـيلة إلى فعله تعالى **فهذا السعي وإن**

(1) انظر: السـيد البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر ص: (٣٧).

(2) القبة التي تبنى على الضريح.

3 - دمعة على التوحيد، ص: (٤٦).

4 - اقتضاء الصراط المستقيم: ص: (٢٤١).

كان جائزاً وواقعاً لكثير من الأنبياء والأولياء فكم شفي مريض بتوجها م وكم قـضيت حاجات بإرادا م وإرشادا م ومن أنكر ذلك فقد أنكر محسـوساً، إلا أنه لا يجوز دعـاء النبي أو الولي به ولا طلبه منه بمثل هذه الصيغة التي من شأ ا أن تسـند إلى الله تعالى لأنه في ذلك إيهام أن للنبي أو للولي شيئاً من صفات الألوهية وأنه معبود مـن دون الله حيـث وجه ما شأنه أن يسـند إلى الله تعالى إلى غيره من العباد"[1]، وهذا كلام خطير يتـضمن تجويز دعاء غير الله؛ فهنا يلحظ أن هذا النوع من سؤال الأنبياء والأولياء إذا كانوا غـائبين أو أمواتاً بطلب السعي منهم في مصلحة الداعي بالتوسط له عند الله لدخوله الجنة أو شفاء مريضه أو إسباغ الرزق عليه، فإن صورة هذا النوع من السؤال لا تختلف عن سؤال كفار قريش للصالحين الذين اتخذوهم وسائط عند الله وهم يعلمون أ م لا يطيقون فعل ما ينفعهم أو يصلح حالهم، ولذلك قال تعالى واصفاً حالهم: (والذين اتخذُوا من دونِـه أوليـاءَ مـا نعبدهم إلا ليقَربونا إلَى الله زلْفَى)[٢].

ويقول: "فالرسـول صلى الله عليه وسلم بالنسبة لأمته شافع أي داع وسائل ربـه أن يرحمهم ويغفر لهم أو يقضي حاجتهم ووسـيلة بينهم وبين ر م في كشف ما ينـ ـزل م من هول يوم القيامة داخلة في عموم قوله: (يا أَيها الذين آمنوا اتقُوا الله وابتغـوا إِلَيـه الْوسيلَةَ)[٣]، وقوله تعالى: (من ذَا الذي يشفَع عنده إِلا بِإِذْنِه)[٤]، مما يقرر ثبوت الـشفاعة للأنبياء وغيرهم ولا ينافي طلبها منهم كما زعمه بعض المبتدعة ذاهباً إلى منع سؤال الشفاعة من النبي ﷺ كأن يقول اشفع لي يا رسـول الله أو أسألك الشفاعة قال وإنما يطلب ذلك من الله تعالى بأن يقول اللهم شفع فينا نبيك ولا تطلب من غيره محتجاً ذه الآية وهو زعم باطل واحتجاج فاسد فإن القائل اشفع لي يا رسـول الله لا يريد به أن يكـون فـاعلاً للغفران ودخول الجنة والنجاة من النار مثلاً فمعنى اشفع لي يا رسـول الله : اطلب منـك الشفاعة أي: سؤال الله تعالى أن يغفر لي ويدخلني الجنة"[5]، ولكن كون النبي ﷺ يـشفع لأمته يوم القيامة وأ م يسألونه ذلك ويتوسلون إلى الله بدعائه تحت العرش وهو حي بينهم،

(1) انظر: الرسالة الثانية في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام، للشيخ: محمـد حـسـنين مخلـوف العدوي، ص: (٤٨).

(2) سـورة: (الزمر: من الآية٣).
(3) سـورة: (المائدة: من الآية٣٥).
(4) سـورة: (البقرة: من الآية٢٥٥).
(5) الرسالة الثانية في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام، للشيخ: محمد حسـنين مخلـوف العـدوي، ص: (٥٠).

يختلف تماماً عن سؤاله في حال كونه ميتاً ﷺ، فإن الله عز وجل قال عن الأمـوات : (إِنْ تدعوهم لا يسمعوا دعاءَكُم ولَو سمعوا ما استجابوا لَكُم ويوم الْقيامة يكْفُرونَ بِشرككُم ولا ينبئُك مثْلُ خبِيرٍ)[1]، كما أن هذا النوع من السؤال لم يؤثر عن أحد من الصحابة؛ فلم يصل إلينا أن أحداً من الصحابة ذهب إلى قبر النبي ﷺ وطلب منه الشفاعة، ولو كان هذا هو تفسـير قوله تعالى: (يا أَيها الذين آمنوا اتقُوا الله وابتغوا إِلَيه الْوسـيلَةَ)[2]، لكـان الصحابة أول الناس وأولاهم فهماً له وتطبيقاً لهذا النوع من الوسائل ولتـواترت عنـهم الأخبار في ابتغائها ولكنهم لم يكونوا يطلبون المغفرة وقضاء الحوائج إلا من الله وحده.

ولهذا فقد نسـي فرقاً مهماً بين الصورتين، وهو أن في صورة التشفع _ التي مثـل ا _ والتي أطلق عليها اسم (الشفاعة) طلب من الميت، وهو نفس الطلب من الأمـوات الذي كان يفعله كفار قريش بنص القرآن الكريم، قال تعالى: (والذين اتخذُوا مـن دونِـه أولياءَ ما نعبدهم إلا ليقَربونا إِلَى الله زلْفَى)[3]، وقال: (ويعبدونَ من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفَعهم ويقُولُونَ هؤلاءِ شفَعاؤنا عند الله قُلْ أَتنبئُونَ الله بِما لا يعلَم في السماوات ولا في الْأَرضِ سبحانه وتعالَى عما يشرِكُونَ)[4]، فسماه الله شركاً رغم تسمية الكفـار لـه شفاعة، وأما قوله تعالى: (ولَو أَنهم إِذْ ظَلَموا أَنفُسهم جاءُوك فَاستغفَروا الله واستغفَر لَهم الرسـولُ لَوجدوا الله تواباً رحيماً)[5]، ففيه توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو طلب من حي حاضر لا ينكره أحد على سبيل المبدأ، وليس فيه تلمس الحاجة من لا يقدر عليها، وليس فيه إضفاء للمطلوب منه صفةً من صفات الرب المنـزه عن الشبيه والمثيل، بل وليس فيه تشـبه بأهل الجاهلية، وهذا الأخير لا يختلف فيه مسلمان، وهـو أن التـشـبه بالكفار مذموم في الشرع، وخاصة الكفار الذين ذمهم الله في القرآن، فكيف بالتشـبه م في الأفعال التي ورد ذمهم وتكفيرهم في القرآن من أجلها.

اتخاذ القبور مساجد:

(1) سـورة: (فاطر:١٤).
(2) سـورة: (المائدة: من الآية٣٥).
(3) سـورة: (الزمر: من الآية٣).
(4) سـورة: (يونس:١٨).
(5) سـورة: (النساء: من الآية٦٤).

جاءت السـنة النبوية بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد وذلك بمنع الصلاة في مواضع التي فيها مقابر، ونقل شيخ الإسلام الإجماع على النهي عن اتخاذ القبور مساجد[1]، فقد جاء عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام))[2]، وجاء وصف اليهود بأ م شرار الخلق عند الله بسبب اتخاذهم القبور مساجد فجاء عن عائشة وعبد الله بن عباس ــ رضي الله عنهم ــ: أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا))[3]، وجاء وصف النصارى بأ م شرار الخلق عند الله ففي الصحيحين عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ: أن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ ذكرت لرسـول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأ ا بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ((أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله))[4]، وعن جندب قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أ اكم عن ذلك))[5].

كل هذه الأحاديث جاء فيها النهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ حتى لا يكون ذلك ذريعة إلى عبادة المقبورين، وهو الظاهر من أقوال العلماء، قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: "قال شيخنا[6]: وهذه العلة التي لأجلها ى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشـرك الأكبر أو فيما دونه من الشـرك فإن الشـرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشـرك بخشبة أو حجر، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ماد ا حتى ى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور

(1) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٨٢/١.

(2) أخرجه الترمذي: ١٣١/٢، برقم: (٣١٧)، وابن ماجه: ٢٤٦/١، بـرقم: (٧٤٥)، وصـححه الألبـاني في صحيح ابن ماجه: ١٢٥/١، برقم: (٦٠٦).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٦٨/١، برقم: (٤٢٥)، ١٢٧٣/٣، بـرقم: (٣٢٦٧)، ١٦١٥/٤، بـرقم: (٤١٧٩)، ٢١٩٠/٥، برقم: (٥٤٧٨)، ومسلم في صحيحه: ٣٧٧/١، برقم: (٥٣٠).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٦٧/١، برقم: (٤٢٤)، ٤٥٠/١، برقم: (١٢٧٦)، ومسلم: ٣٧٥/١، برقم: (٥٢٨).

(5) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣٧٧/١، برقم: (٥٣٢).

(6) هو شيخ الإسلام: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

متبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ولرسـوله والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى؛ فإن المسـلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسـول الله أن الصلاة عند القبور منهي عنها وأنه لعن من اتخذها مساجد. فمن[1] أعظم المحدثات وأسباب الشـرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها وقد تواترت النصوص عن النبي عليه الصلاة والسلام بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسـنة الصحيحة الصريحة وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسـول الله لعن فاعله والنهي عنه"[2]، وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: "والأحاديث في هذا الباب كثيرة وفيها التصريح بلعن من اتخذ القبور مساجد مع أنه لا يعبد إلا الله، وذلك لقطع ذريعة التشريك، ودفع وسـيلة التعظيم، وورد ما يدل على أن عبادة الله عند القبور بمنـزلة اتخاذها أوثاناً تعبد" [3].

ومما يزيد من التغليظ في التحريم هو إخباره صلى الله عليه وسلم عن اليهود والنصارى بأنهم فعلوا ذلك، وتعقيبه على ذلك بالنهي، فمن اتخذ القبور مساجد فقد تشـبه باليهود والنصارى الذين لعنهم النبي صلى الله عليه وسلم، بل تشـبه بهم في نفس الفعل الذي لعنوا من أجله، ألا وهو بناء المساجد على القبور، وكان ذلك ذريعة له إلى مشاركتهم في شركهم الذي وقعوا فيه، بسبب اتخاذهم القبور مساجد.

بعض مظاهر اتخاذ القبور مساجد في العصر الحديث:

إننا لو ألقينا نظرة على أحوال العالم الإسلامي اليوم لوجدنا الحال يرثى لها، فإن من المسـلمين أداروا ظهورهم لهذه الأحاديث السالفة الذكر، إما جاهلين أو متجاهلين أو متبعين لفتوى ضالة مخالفة لما نهى الله عنه ورسـوله، فمنذ نشأة الدولة العبيدية في مصر ـ والمتسمية بالفاطمية ـ وهذه المساجد ممتلئة بهذه القبور، إما أن يكون المسجد بني على قبر، وإما أن يكون القبر قد جعل في المسجد بعد بنائه، ولقد كان لتساهل الحكام العثمانيين في هذا الباب بل وولعهم أحياناً بالأضرحة والقباب أثر كبير في انتشار ذلك.

---

(1) هنا بدأ الكلام لابن القيم.

(2) انظر: إغاثة اللهفان: ١/١٨٤-١٨٥

(3) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص: (٤٥).

ففي إسطنبول عاصمة السلطنة العثمانية كان يوجد (٤٨١) جامعاً يكاد لا يخلو جامع فيها من ضريح، أشهرها الجامع الذي بني على القبر المنسـوب إلى أبي أيوب الأنصاري في الآساتانة (القسطنطينية)"[1]، ولم تكن الدولة العثمانية تعتني ذا الجانب من صيانة التوحيد، فكان إهمالها لهذا الجانب من أعظم الأسباب التي كانت وراء انتشار هذه القبور في المساجد؛ فقد كان اتجاه الدولة آنذاك اتجاهاً صوفياً.

"ولقد تعلق أصحاب الطرق الصوفية بالقبور حتى إنك لا تكاد تجد طريقة صـوفية إلا ولها ضريح، ومرجعهم في ذلك هو الرؤيا التي يستندون ا على بناء القبور، فبمجرد أن يرى أحد أوليائهم أن أحد الصالحين جاءه في المنام وأمره ببناء ضريح له في المكان الفـلاني فإنه يستجيب لذلك ومن ثم يتخذ ذلك المكان مسجداً يعكف فيه، **وهذه الطريقـة هـي طريقة النصارى** الذين ما إن يرى أحد رهبا م أو كها م رؤيا يعبرها بأن ثمة قبر الـشهيد المعين فإنه يسارع لتلبية النداء ويقوم ببناء الضريح[2]، **وهي طريقة اليهود أيـضاً**؛ فـإ م يعتمدون على ذلك في بناء قبورهم المقدسة[3]"[4].

ولقد حرص السلاطين العثمانيـون على خدمة هذه الأضرحة والعمل على كسـو ا "ففي سـنة ١٣٠٥هـ أمر السلطان عبد الحميد أيضاً بتبيـيض القبب وتعمير المسجد، وأمر أيضاً بكسـوتين للضريحين[5] (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباخر وقماقم من الفضة عند الضريحين"[6].

"وفي بغداد كان يوجد أكثر من مئة وخمسـين جامعاً في أوائل القرن الرابع عـشر الهجري، وقل أن يخلو جامع منها من ضريح، وفي الموصل يوجد أكثر من سـتة وسـبعين ضريحاً مشهوراً كلها داخل جوامع، وهذا كله بخلاف الأضرحة الموجـودة في المـساجد والأضرحة المفردة[7]"[8].

1 - دمعة على التوحيد، المنتدى الإسلامي، ص: (٢٧).

(2) انظر: موالد مصر المحروسة، لعرفة عبده علي، ص: (٧١).

(3) انظر: جريدة الحياة، العدد: (١٣٠١٣)، بتاريخ: ١٤١٩/٦/٢٩هـ، مقال بعنوان: (اعتراضات سـياسـية على ظاهرة تدخل الحاخامين في الانتخابات الإسرائيلية).

4 - انظر: دمعة على التوحيد ص: (٢٣).

5 - والضريح هو: البناء المبني على القبر.

6 - نقلاً عن كتاب الانحرافات العقدية والعلمية: ١ / ٢٩٤.

7 - مع أن كثيراً من هذه القبور التي تنسب إلى الأنبياء أو الصحابة أو الصالحين هو كذب مختلق لا دليل عليـه، انظر: دمعة على التوحيد، المنتدى الإسلامي، ص: (٢٨- ٢٩).

8 - دمعة على التوحيد، المنتدى الإسلامي، ص: (٢٨).

ومن أشهر القباب الموجودة في العالم الإسلامي مما يتخذ مزارات أو أماكن للعبادة: قبة الشيخ: محمد عثمان عبده البرهاني (شيخ الطريقة البرهانية) في السـودان، بالخرطوم – السـوق الشعبي، وقبة الشيخ: قريب الله، بأم درمان، ودنوباوي، وقبة الشيخ: حمد النيل، بأم درمان، وقبة الشيخ: محمد بن عبد الله كريم الدين (شيخ الطريقة المحمديـة الأحمديـة الإدريسـية). وفي إريتريا: ضريح الشيخ بن علي بقرية (أم بيرم) القريبة من مدينة مصوع الميناء الرئيسـي لإريتريا، وضريح سـيدي هاشم الميرغني وبنـته الست علويـة بمدينـة مصوع. ولا يختلف الحال كثيراً في بلاد الهند ففي بنجلادش مثلاً تنتشر الأضرحة والمزارات خاصة في مدينة دكا (العاصمة)[1].

صرف العبادة لأهل القبور:

لقد مر معنا آنفاً أن العبادة في اللغة هي التذلل والخضوع، ولذلك حرص الإسلام على عدم صرف أي نوع من التعظيم للمخلوق؛ حتى يصفو جانب العبودية لله رب العالمين، ولذلك لما مرض النبي ﷺ وصلى بالناس قاعداً وصلى الصحابة خلفه قياماً: خشي أن يجلب لهم ذلك نوع تعظيم له كما يعظم الكفار ملوكهم ورؤساءهم، فقال: ((إن كدتم آنفاً لتفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا، ائتموا بأئمتكم إن صلى قائماً فصلوا قياماً وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً))[2]، إلى هذا الحد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يبقى جانب العقيدة صافياً لا تشوبه أي مكدرات، رغم أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا ليعظموا أحداً كتعظيم الله، بل كانوا في أشد أحوالهم تعظيماً لر م، وهو حال الصلاة التي هي شعار الذل والعبودية والتعظيم لله جل وعلا، فلم يرض لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يعظموا غير الله خوفاً منه عليهم من أن يتشـبهوا بالكفار، وحتى لا يكون في قلو م ذلة أو خضوع لغير الله، ولو كان هذا الذي يقام على رأسه هو رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن يسجد لغير الله تعظيماً له، ورجاء ما عنده من الخير، وما هو عسى أن يكون رأيه صلى الله عليه وسلم إذا رأى من يسجد

(1) انظر: دمعة على التوحيد، المنتدى الإسلامي، ص: (٤١- ٤٣).
(2) صحيح مسلم: ٣٠٩/١، برقم: (413).

لصاحب قبر من القبور، أو يقدم له نوعاً من الذبائح من أجل أن يشفي له مريضاً أو يرد له ضالة، أو يقضي له حاجة، إن هذا هو أخشى ما كان يخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته حين اهم عن القيام على أئمتهم، ولذلك كان من كلامه صلى الله عليه وسلم: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد))[1].

بعض مظاهر عبادة أهل القبور:

إن أعظم عبادة يؤديها المسلم لربه هي الصلاة، وهذا مما لا يختلف عليه مسلم، وأشرف وضع في الصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه: عندما يكون في وضع السجود، ولكننا نجد أن هذه العبادة العظيمة التي لا يجوز أن تصرف إلا لله: قد صرفها بعض الناس إلى غير الله.

إن السجود في هذه الشريعة محرم لغير الله ولو كان لغير التعظيم، فإنه ولو كان جائزاً في شريعة يوسف فإنه قد نسخ في شريعتنا، ولذلك لما سجد معاذ للنبي صلى الله عليه وسلم، قال له النبي ﷺ: ((ما هذا يا معاذ!؟)) قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فلا تفعلوا))[2].

ولقد غلا العوام في هذا الباب حتى إنه بدأ يعترض عليهم من كان يتولى كبرهم في تجويز بعض الأفعال لأصحاب القبور فيقول: أحمد بن محمد بن الصديق الغماري: "نرى بعض العوام بالمغرب يسجدون للشيخ عبد القادر الجيلاني ويقبلون الأرض بين يديه في حال سجودهم"، ثم ذكر بعض الأعمال والاعتقادات حيال القبور، وعقب بقوله: "فهذا كفر"[٣].

وإن من أعظم القربات التي يحبها الله جل وعلا: الذبح له، ولذلك قرن بين الذبح والصلاة التي هي عمود الدين في موضعين من كتابه تعالى فقال: (فَصل لربك وانحر)[٤]،

1 - موطأ مالك: ١٧٢/١، برقم: (414)، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام، ص: (٩٨)، برقم: (١٢٦).

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه: ٥٩٥/١، برقم: (١٨٥٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ٣١٢/١، برقم: (١٥٠٣).

(3) نقلاً من كتاب دمعة على التوحيد، المنتدى الإسلامي، ص: (٧١- ٧٢).

(4) سورة: (الكوثر:٢).

وقال: (قُلْ إن صلاتي ونسكي[1] ومحياي ومماتي لله رب الْعالمين)[٢]، ومع ذلك فإن من أهل هذا الزمن من يصرف هذا النسك الجليل لغير الله.

فنرى بعض منحرفي العقيدة من المسـلمين يتجه نحو قبور الموتى بأفضل أنواع القرابين والتي لها من المواصفات ما لا يفكر في شرائه _ ربما _ لو أراد أن يحج إلى بيت الله العتيق، رغبة في أن يرزقهم الولي الذرية الصالحة، أو لكي يعيش الولد الذي جاء بعد حين، أو لغير ذلك من الأسباب[3].

ومن العبادات التي يحبها الله تعالى وقد مدح أصحا ا: النذر[4] فقال تعالى: (يوفُونَ بِالنذْرِ ويخافُونَ يوماً كَانَ شره مستطيراً)[٥]، وهذه الآية جاءت في مدح الذين يوفون بالنذر بعد وقوعه منهم، ولكن هذه العبادة صارت في هذا الزمن تصرف عند بعضهم لأصحاب القبور، كالبدوي وغيره، يقول الباحث عبد الله صابر: "والشائع عند الذين ينذرون للبدوي أ م لا بد أن **يوفوا بنذورهم** مهما كانت طبيعتهم في المطل وأكل الحقوق ؛ لاعتقادهم الخاطئ في بطش السـيد وانتقامه، كيف لا وهو يسلط الأمراض على من لم يف بنذره ويميت عياله ويحرق غيطه ويكب زيته، إلى آخر هذه المعتقدات التي يروج لها مجموعة المنتفعين تحت سمع وبصر الحكام بل وبتشجيعهم وحمايتهم"[٦].

وتحصل بسبب هذه الاعتقادات أمور مخزية، وفي القصة التالية نموذج من تلك الأحداث الناجمة عن فساد الاعتقاد، والتي يرويها لنا أحد العائدين من خندق الخرافة بعد أن أنجاه الله منه، فيحدث عن أحد المعتقدين في السـيد البدوي: "لقد عاد من طنطا مع زوجته إلى بلدهما، وحملا معهما بعض أجزاء من الخروف الذي كان قد ذبح على أعتاب ضريح السـيد البدوي، فقد كانت تعاليم الجهالة تقضي بأن يعود ببعضه، التماساً لتوزيع البركة على بقية المحبين _ وأيضاً _ لكي يأكلوا من هذه الأجزاء التي لم تتوافر لها إجراءات الحفظ الصالحة ففسدت، وأصابت كل من أكل منها بنـزلة معوية، وقد تصدى لها الكبار وصمدوا، أما الطفل فمرض، وانتظرت الأم بجهلها أن يتدخل السـيد البدوي لكن ينقذ

1 - والنسك: الذبائح، انظر: تفسـير الطبري: ١١٢/٨.

(2) سـورة: (الأنعام:١٦٢).

(3) اعترافات كنت قبورياً، للأستاذ عبد المنعم الجداوي، ص: (١٨،٢٦).

(4) والنذر لغة: التزام خير أو شر وفي الشرع: التزام المكلف شيئاً لم يكن عليه، انظر: سبل الـسلام، للـصنعاني: ١١٠/٤، والنذر المقصود هنا هو: النذر المطلق، بخلاف المقيد بشرط.

(5) سـورة: (الإنسان:٧).

(6) انظر: السـيد البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر ص: (٤٦).

حالة الطفل التي ساءت وفي آخر الأمر ذهبت به إلى الطبيب الذي أذهله أن تترك الأم ابنها يتعذب طوال هذه الأيام؛ فقد استغرق مرضه أربعة أيام، وهز الطبيب رأسه، ولكنه لم يـيأس وكتب العلاج، أدوية وحقن، ولكن الطفل اشتد عليه المرض، ولم يقو جسمه على المقاومة فمات!"[1]، إلى هذا الحد وصلت الثقة بالخرافات (الشـركية) لدى تلك الأم، حتى استطاعت أن تضع عاطفة الأمومة تحت قدمها انتظاراً للشفاء من صاحب القبر، وكأ ا تنتظر الوعد الإلهي: (وإذا مرضت فهو يشفين)[2].

يقول الباحث مبارك بن محمد الميلي: "وقد أصبح الناس في جاهليتهم الحاضرة ينذرون لمن يعتقدون فيه من الأحياء والأموات والمزارات، الأموال والثياب والحيوانات والشموع والبخور والأطعمة وسائر المتمولات ويعتقدون أن نذرهم سبب يقر م من رضى المنذور وأن لذلك المنذور دخلاً في حصول غرضهم. فإن حصل مطلو م ازدادوا تعلقاً بمن نذروا له واشتدت خشيتهم منه وبذلوا أقصى طاقتهم في الاحتفال بالوفاء له"[3].

ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم ى عن الحلف بغـير الله فقال: " من حلف بغـير الله فقد أشرك"[4]، تجد كثيراً من المسـلمين اليوم لا يتورع عن الحلف بالنبي ﷺ وبمن دونه، كالحلف بالوالدين والحلف بكل ما هو معظم عندهم، بل قد يعظمون الحلف بغـير الله أكثر من تعظيمهم للحلف بالله، يقول الباحث مبارك بن محمد الميلي: "وهكذا تراهم يعظمون الإيمان بأوليائهم ويخشون الحنث فيها أكثر من تعظيم اليمين بالله وخشية الحنث فيها. فيحلفون بالله كاذبين في استخفاف وعدم مبالاة ولا يقدمون على الحلف بمرابطيهم وشيوخ طرقهم كذباً، ولا يكذبون من حلف م، بل يمتقع لون الواحد منهم إذا حاول الحلف م أو سمع من أسرع إلى ذلك الحلف. وكم بلغنا أ م يستحلفون بالله على الشيء فيسرعون إلى الحلف على خلاف الواقع، ثم يستحلفون بشيوخهم أو آبائهم على ذلك الشيء نفسه فتخرس ألسـنـتهم وتجف أرياقهم ويعترفون بكذ م في اليمين بالله ولا يستحيون"[5].

---

1 - انظر: اعترافات كنت قبورياً، للأستاذ: عبد المنعم الجداوي، ص: (٢٧).
(2) سـورة: (الشعراء: ٨٠).
(3) رسالة الشـرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (٢٦٨).
4 - أخرجه أبو داود في سـننه: ٢٢٣/٣، برقم: (٣٢٥١)، وصححه الألبـاني في صـحيح سـ ـنن أبي داود: ٦٢٧/٢، برقم: (٢٧٨٧).
(5) رسالة الشـرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (٢٧٨).

يقول الباحث إدريس محمد إدريس واصفاً حال بعض المسلمين في القطر الإريتري: "ففي إريتريا: يقصد كثير من القبوريين الأضرحة حاملين معهم الأغنام والأبقار والسكر والقهوة والشاي وغيرها من أنواع الأطعمة إضافة إلى الأموال؛ ليقدموها قرباناً إلى صاحب الضريح، وقد يذبحون الأنعام تقرباً أيضاً للولي[1] أو الشيخ، ويطوفون بالقبر ويتمرغون بترابه، ويطلبون قضاء الحوائج وتفريج الكربات منه، كما يحصل من الفساد الأخلاقي حول الأضرحة ما يستحيي الإنسان من ذكر تفاصيله وخاصة الاختلاط وانتهاك الأعراض، وتكثر هذه الممارسات حول الأضرحة الشهيرة، كضريح الشيخ (بن علي)، وضريح سيدي هاشم الميرغني وبنته الست علوية، وضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني، وضريح سيدي هاشم، وضريح أحمد النجاشي"[2].

وهكذا يكاد القلب يتفطر على التوحيد الضائع، ورجوع بعض المسلمين إلى ما كان عليه المشركون الأوائل، من تنوع أشكال العبادة التي تصرف لغير الله، ويشاركنا في هذا التأسف أحد الغيورين على هذه الأمة فيقول: "وارجع البصر نحو أركان الإسلام الخمس، التي ليس في كونها عبادة لبس، هل تجد المسلمين يأتونها على وجهها أم يخصون بها الخالق جل وعلا؟ إنك تجدهم يشهدون شهادة الإخلاص ثم لا يخلصون لله، بل يفزعون لأوليائهم، ويخشونهم خشية تأليه. وتراهم يصلون ولكن لا يخشعون، إلا بين يدي من به يتبركون، ويتساهلون في إخراج الزكوات ويتشددون في الوفاء بما ينذرون للمزارات والمقامات، بل يشحون بما هو منها واجب مشروع، ويسخون بالمقدار المبدوع، كالمكيال المقرر في الحبوب للشيخ عبد القادر الجيلاني. ويصومون رمضان معرضين عن الحجة الشرعية في ثبوته وانقضائه، متعمدين مخالفتها إلى أوامر رؤسائهم الروحيين من المرابطين

(1) "الولي: في الاصطلاح الشرعي: هو العالم بالله تعالى المواظب على طاعته، مع كمال المحبة والرضى لما يحب ويرضى، والسخط والبغض لما يسخط ويبغض. وهو المحب الموالي لأوليائه والمبغض والمعادي لأعدائه، وهو أحد خلّص المؤمنين، وقد وضح كتاب الله تعالى خصائص هؤلاء الأولياء بقوله { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون. الذين ءامنوا وكانوا يتقون }[يونس: ٦٢،٦٣]، وعند الصوفية: هو من تولاه الحق سبحانه بظهور أسمائه وصفاته عليه علماً وعيناً وحالاً، وأثره لذة وتصرف فلا يرى في نظره غير الفاعل الحقيقي (الله تعالى) والولي عندهم، أيضا، هو من تولاه الله بكثير مما تولى به النبي من حفظ وتوفيق وتمكين واستخلاف وتصريف. كما يعتقد الغلاة منهم أن للأولياء أربعة مقامات: فمنهم من يقوم في عالم مقام الأولياء، ومنهم من يقوم في عالم الرسل، ومنهم من يقوم في عالم مقام أولي العزم، بل قالوا، أيضاً، إن مقام الولي فوق مقام النبوة. ونسب لأبي اليزيد البسطامي قوله ((خضنا بحوراً، وقف الأنبياء بسواحلها))، وقال، أيضا، ((أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه)). وقال بعضهم: مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي"، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٧٢/٢-١١٧٣

(2) دمعة على التوحيد، المنتدى الإسلامي، ص: (٤٤).

والطرقيـين ويصبرون على الجوع والعطش في زيارة هؤلاء الرؤساء ويأمون لذلك في الصيام لله ويحجون بقلة، ويزورون ساد م بكثرة، ويطوفون ببعض المزارات، ويوقتون لها الأوقات، ويجعلون أعداداً منها تقوم مقام الحج إلى بيت الله الحرام فهل تفرق مع هذا بين جاهلية عصر الوحي، وجاهلية زمن الاستعباد والبغي"[1]، وهذا النوع من التشبه بالكفار هو من التشبه م فيما به كفروا ومن أجله ناصبهم أهل التوحيد العداء وتبرؤوا منهم، وحاربوهم باللسان والسنان، فأي تشبه بالكفار بعد هذا التشبه، الذي هو في أخص خصائصهم، وهو الفيصل والفرقان بينهم وبين المؤمنين، والله المستعان.

المبحث الثالث: أثر العلمانية في التحاكم إلى غير الله:-

لقد كان من المقرر عند المسـلمين ومن المسلمات البدهية لديهم ما للتحاكم إلى الشرع من منـزلة عظيمة من الدين، فهو من أصول الدين التي لا تنفصل عن العقيدة الإسلامية بحال، ولم يحصل بين المسـلمين اختلاف حول أهمية الحكم بالشرع الحنيف، وأنه لا بد وأن يحكم الحياة الدنيا بكامل فروعها، وأن الوحي هو المنهج المشرف لحياة المسـلمين، ينظم حيا م السـياسـية والاقتصادية والاجتماعية، لم يزل هذا التصور لا يغادر أذهان المسـلمين وأنماط حيا م حتى ما قبل عصرنا الحاضر، فإن كان في التاريخ الإسلامي انحراف عن تطبيق الوحي فلا يعدو عن كونه مجاراة لأهواء النفوس الضعيفة، والتي لا تملك أن تؤصل لذلك الانحراف وأن تجعل منه عملاً شرعياً ومقبولاً لدى المسـلمين، حتى بذرت بين المسـلمين بذور العلمانية القادمة من أعماق الغرب المظلم.

إن التحاكم إلى شرع الله يمثل روح هذا الدين؛ فإن دين الله الذي رضيه للناس ـ حيث قال جل جلاله: (ورضيت لَكُم الإِسلام ديناً)[2]، ـ لم ينـزل ليظل معزولاً عن الحياة البشرية، إن دين الله نزل من عند الله ليكون شرعاً ومنهاج حياة، قال تعالى: (قُلْ إن

---

(1) رسالة الشـرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، ص: (١٠٩).

(2) سـورة: (المائدة: من الآية٣).

صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب الْعالمين)[1]، فالحياة التي من أجل الله لا بد أن تكون على شرع الله.

ولذلك جاءت الآيات مقررة لهذه المسألة، قال تعالى: (ألا له الْخلْق والأمر تبارك الله رب الْعالمين)[2]، فكما أن الخلق من خصائص الله وحده فكذلك الأمر له وحده، ومن ادعى أن للكون خالقاً غير الله فقد أشرك وكذلك من ادعى أن مع الله أحداً يحق له أن يأمر وينهى دون إذنه تعالى فقد أشرك كذلك، يقول د. صلاح الصاوي: "إن حقيقة الرضا بالله رباً تتمثل في الإقرار بالأمر بقسميه: الكوني والشرعي لله عز وجل وأن يقر له بالتفرد في كليهما فيرضى بشرعه كما يرضى بقدره ويسكن إلى تدبيره الشرعي كما يسكن إلى تدبير الكوني... ذلك أن الخلق والأمر من أخص خصائص الربوبية وأجمع صفاته، كما قال تعالى: (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) [3]، ولهذا أجاب بها موسى عليه السلام في مقام المحاجة مع فرعون عندما ابتدره سائلاً: (فمن ربكما يا موسى) [4]، فكان جواب الكليم عليه السلام: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)[5]"[6]

وقال تعالى: (وما اختلَفْتم فيه من شيءٍ فَحكْمه إِلى الله)[7]، وقال: (فَإِنْ تنازعتم في شيءٍ فَردوه إِلى الله والرسول إِنْ كُنتم تؤمنونَ بِالله والْيومِ الآخرِ ذَلك خير وأَحسن تأْوِيلاً)[8].

ولقد ذم الله الذين تركوا حكم الله إلى حكم غيره فقال جل جلاله: (أَلَم تر إِلَى الذين يزعمونَ أَنهم آمنوا بِما أُنزِلَ إِلَيك وما أُنزِلَ من قَبلك يرِيدونَ أَنْ يتحاكَموا إِلَى الطاغُوت وقَد أُمروا أَنْ يكْفُرُوا بِه ويرِيد الشيطَانُ أَنْ يضلهم ضلالاً بعيداً)[9]، فسمى ما ذهبوا إليه وتركوا حكم الله من أجله: طاغوتاً، ونفى الإيمان عنهم مع ادعائهم له[10]. ونفى الله الإيمان عمن لم يسلم لحكم الله ورسوله، وأقسم على ذلك بنفسه، فقال: (فَلا وربك لا يؤمنونَ حتى

(1) سورة: (الأنعام:١٦٢).
(2) سورة: (الأعراف: من الآية٥٤).
(3) سورة الأعراف الآية رقم (٥٤).
(4) سورة طه الآية رقم (٤٩).
(5) سورة طه الآية رقم (٥٠).
(6) تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية ص: (١٨).
(7) سورة: (الشورى: من الآية١٠).
(8) سورة: (النساء: من الآية٥٩).
(9) سورة: (النساء:٦٠).
10 - انظر: تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ص: (٣).

يحكموك فيما شجر بينهم ثُم لا يجِدوا في أنفُسِهِم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)[1]. كما نفى الإيمان عن أهل الكتاب الذين تركوا العمل بحكم الله وأخذوا يتحاكمون إلى أهوائهم فقال: (وكَيف يحكمونك وعندهم التوراةُ فيها حكْم الله ثُم يتولونَ من بعد ذَلك وما أُولَئك بِالْمؤمِنِين)[2].

ولما كان الحكم له سبحانه دون غيره كان الذي يأخذ أحكام الحلال والحرام من غير الله كمن اتخذه نداً لله؛ فإنه قد أشرك مع الله إلهاً آخر في الخصيصة الإلهية التي اختصها الله لنفسه ألا وهي التحليل والتحريم، ولذلك يقول تعالى عن اليهود والنصارى الذين أطاعوا علماءهم وقساوستهم في شؤون التحليل والتحريم، فصاروا يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله: (اتخذُوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والْمسـيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلَهاً واحداً لا إِلَه إلا هو سبحانه عما يشركُونَ)[3]، وهنا وصف الله جل وعلا هؤلاء الرهبان والأحبار بأ م صاروا بالنسبة لهؤلاء التابعين لهم: أرباباً من دون الله، وليس هذا الوصف لأ م يعبدو م فيسجدون لهم ويصلون، بل لأ م أشركوهم مع الله في ما اختص به وحده من التشريع، ولذلك لما سمع عدي بن حاتم الطائي هذه الآية وقد كان في الجاهلية نصرانياً، قال: ((أما إ م لم يكونوا يعبدو م ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه))[٤].

ومظاهر التشريع البشري عند النصارى وقيامهم بتشريع ما لم يشرعه الله عز وجل قديمة قدم ا امع المسكونية[٥] والتي كان أولها ا مع الذي حرموا فيه الختان على غير اليهود، وأحلوا فيه أكل لحم الخ ير على خلاف شريعة موسى عليه السلام، حين اجتمعوا في أورشليم سـنة: ١٠٥م[6].

فمن أدار ظهره للوحي وأخذ الحلال والحرام من غير شرع الله، فقد أضاف إلى كونه اتخذ مع الله نداً في جانب التشريع: أنه تشـبه باليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبا م مشرعين لهم من دون الله.

---

(1) سـورة: (النساء:٦٥).

(2) سـورة: (المائدة:٤٣).

(3) سـورة: (التوبة:٣١).

4 - أخرجه الترمذي: ٢٧٨/٥، برقم: (٣٠٩٥)، وحسـنه الألباني في غاية المرام، ص: (١٩)، برقم: (٦).

5 - يقصدون ا ا امع العامة للنصارى في العالم أجمع، انظر: المسـيحية، د. أحمد شلبي، ص: (١٦٦).

(6) انظر: المسـيحية، د. أحمد شلبي، ص: (١٦٦).

ووصف الله جل وعلا الذين يشرعون للناس ما هو بخلاف الدين الحق المنـزل من عند الله بأ م أضافوا إلى أنفسهم وصف الشراكة مع الله الذي لا شريك له في خلقه وأمره، قال تعالى: (أَمْ لَهُم شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[1]، فمن اتبع من شرع له ما لم يأذن به الله فقد اتخذه شريكاً مع الله، ولقد تقدم الكلام في قوله تعالى: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[2][3]، وأن الحكم بغـير ما أنزل الله منه ما هو كفر أكبر مخرج من الملة ومنه ما هو كفر أصغر[4].

العلمانية نشأ ا ودخولها إلى بلاد المسـلمين:-

تعرف العلمانية بأ ا محاولة فصل الدين عن أحكام الحياة، يقول الشيخ محمد قطب: "هي حركة اجتماعية دف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها"[5].

لقد عانت أوروبا من تسلط الدين المحرف على أشكال الحياة في العصور الوسطى[6]، وكان من الحتمي أن تطالب يوماً ما بالفصل بين هذا الدين المحرف الذي وقف عائقاً بينها وبين التقدم والعلم، وإن كان الدين لم يكن يحكم في الحقيقة كل ما يتعلق بشؤون الحياة، بل كان محصوراً في جانب معين[7]، "ولكن هكذا كانت الممارسة الدينية في ظل الجاهلية الكنسـية المنحرفة، والتي من جرائها كان لرجال الدين كل ذلك النفوذ على عقول الناس وأرواحهم، فهم الوسطاء بين الناس وبين الدين ومفاهيمه، بل هم الوسطاء بين الناس وبين الله، والناس – علماء أو غير علماء – لا يبحثون في أي شأن من الشؤون ليكونوا فيه رأياً أو موقفاً. إنما يسألون رجال الدين ليدلوهم على الرأي أو الموقف الذي ينبغي عليهم اتخاذه،

---

(1) سـورة: (الشورى:٢١).
(2) سـورة: (المائدة:٤٤).
3 - انظر: مبحث أثر التشـبه بالكفار في أعمالهم.
4 - انظر: أثر التشـبه بالكفار على العقيدة من هذه الرسالة.
(5) مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٤٤٥).
6 - وسـيأتي التفصيل في هذه المعاناة في مبحث الصراع بين الدين والعلم في الغرب.
(7) انظر: العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٥٤).

وكان رد الفعل أن الإنسان هو الذي ينبغي أن يستشار في الأمور كلها وليس الدين، وأن العقل البشري هو الذي ينبغي أن يكون صاحب القرار وليس الله.. ولو كان الأمر متعلقاً بالعقيدة أو الأمور الأخروية. وبمقدار ما كان العقل مكبوتاً ومحجوراً عليه، انطلق هذا العقل يريد أن يقتحم كل ميدان ولو كان خارجاً عن اختصاصه! يقتحمه بروح أنه هو صاحب الحق الذي كان ممنوعاً من حقه فهو يريد أن يؤكد هذا الحق. ويقتحمه بروح الشك، أو روح المحو لكل"[١]، ولو أن أوروبا اختارت الدين الصحيح الذي لا يشوبه أي تحريف لحصل الانسجام التام بين الدين والحياة. يقول الشيخ محمد قطب: "الذي تقصده أوروبا حين تطلق هذه الكلمة هو إبعاد ما فهمته هي من معنى الدين عن واقع الحياة، متمثلاً في "بعض" المفاهيم الدينية، وفي تدخل "رجال الدين" باسم الدين في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والعلم والأدب والفن.. وكل مجالات الحياة؛ ثم إقامة هذا كله بعيداً عن نفوذ الكنيسة من جهة، وبعيداً عن مفاهيم الدين كلها من جهة أخرى، بصرف النظر عن وجود الكنيسة أو عدم وجودها"[٢]، وهكذا اختار الأوربيون تنحية الدين كاملاً بدلاً من الرجوع إلى الدين الصحيح.

وفي الحقيقة لم يكن هناك بديل في دينهم المحرف يمكن أن ترجع تلك الجموع الثائرة إليه، ولم يعد هناك وقت لديهم للبحث عن الدين الصحيح، ثم إن الأفكار قد تشبعت بكراهية الأديان بسبب ذلك التسلط، مما جعل الحل الوحيد هو نبذ الدين بالكلية، يقول الباحث محمد العرمابي: "ونتيجة لطغيان الكنيسة وتكميمها الأفواه ولذلك فقد سخط الناس عليها ونقموا نقماً لا هوادة فيه وانسحب هذا السخط على الدين وكل ما يمت به بصلة، بل كرهوا كل متدين، ومثل أمامهم ذلك الشيخ المخيف من الجلادين وفكروا بالخروج من وهدة العقل المتحجر. وبالتالي قرروا بل وفكروا في سبيل يخرجهم من هذا الدين الذي أيقنوا أنه والعلم نقيضان لا يجتمعان وخطان متوازيان لا يلتقيان، وعلى ذلك ولذلك عملوا بجد واجتهدوا في إبعاد الدين عن ساحة العقل المخترع وعن مجال البحث العلمي... وكان من أول نتاج وثمار أعمال الكنيسة أن انفجر ذلك البركان الذي كان يغلي داخل صدور العلماء خاصة والناس عامة، فقذف بحممه التي كانت هي الثورة الفرنسية(١٧٨٩)م التي أقامت مبادئها وأنشأت أسسها على العلمانية بعيداً عن الدين ورهبانه"[3].

(1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٤٥٨- ٤٥٩).

(2) مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٤٤٧- ٤٤٨).

(3) نشأة العلمانية لمحمد العرمابي، ص: (٢٧).

ولكن مع ذلك فإن العلمانية بعد الثورة الفرنسـية ما لبثت أن تشكلت إلى صورتين:-

"الصورة الأولى: العلمانية الملحدة: وهي التي تنكر الدين كلية: وتنكر وجود الله الخالق البارئ المصور، ولا تعترف بشيء من ذلك، بل وتحارب وتعادي من يدعو إلى مجرد الإيمان بوجود الله"[1]، ولكن هذه الصورة لم تلق قبولاً واسعاً في النهاية، فإن الإنسان بطبيعته متدين، فظهر من يدعو إلى إبقاء الدين، ولكن لم ينسـوا ما فعله م هذا الدين، وخشية على أنفسهم من تسلط رجال الدين مرة أخرى، قالوا بفصل الدين عن مظاهر الحياة، لتظهر بذلك صورة أخرى للعلمانية، سماها الباحث أحمد شاكر الشريف بالعلمانية غير الملحدة[٢]، فيقول: "وهي علمانية لا تنكر وجود الله، وتؤمن به إيمانا نظريا: لكنها تنكر تدخل الدين في شؤون الدنيا، وتنادي بعزل الدين عن الدنيا، (وهذه الصورة أشد خطراً من الصورة السابقة) من حيث الإضلال والتلبيس على عوام المسـلمين، فعدم إنكارها لوجود الله، وعدم ظهور محاربتها للتدين [٣] يغطي على أكثر عوام المسـلمين حقيقة هذه الدعوة الكفرية، فلا يتبينون ما فيها من الكفر لقلة علمهم ومعرفتهم الصحيحة بالدين، ولذلك تجد أكثر الأنظمة الحاكمة اليوم في بلاد المسـلمين أنظمة علمانية، والكثرة الكاثرة والجمهور الأعظم من المسـلمين لا يعرفون حقيقة ذلك"[٤]، ولذلك فإن هذا النوع من العلمانية هو الذي انتشر وشاع بين الناس ووصل إلى المسـلمين، وهو الذي عرفته في بداية الحديث عن العلمانية.

ولكن لما دخلت العلمانية (Secularism) إلى بلاد المسـلمين، عربت تعريباً خاطئاً؛ فإن لفظ العلمانية ليس له علاقة بتعريفها فأصل هذا اللفظ باللاتينية هو الاسم: (secular)، وهو يعني ثلاثة معاني: ١- دنيوي، ٢- غير ديني، ٣- مدني[5]، يقول

(1) العلمانية وثمارها الخبيثة، لمحمد بن شاكر الشريف، ص: (١٥).

2 - ولكنه عقب على ذلك في الحاشية بقوله: "العلمانية في جميع صورها وأشكالها هي في الحقيقة ملحدة، سـواء منها ما ينكر وجود الله، وما لا ينكر ؛ لأن أصل الإلحاد في لغة العرب معناه: العدول عن القصد، والميل إلى الجـور والانحراف"، ص: (١٥).

(٣) كثير من الناس لا يظهر لهم محاربة العلمانية (غير الملحدة) للدين ؛ لأن الدين انحصر عندهم في نطـاق بعـض العبادات، فإذا لم تمنع العلمانية مثلاً الصلاة في المساجد، أو لم تمنع الحج إلى بيت الله الحرام، ظنوا أن العلمانيـة لا تحارب الدين، أما من فهم الدين بالفهم الصحيح، فإنه يعلم علم اليقين محاربة العلمانية للدين، فهل هناك محاربـة أشد وأوضح من إقصاء شريعة الله عن الحكم في شتى ا الات، لو كانوا يفقهون.

4 - العلمانية وثمارها الخبيثة، لمحمد بن شاكر الشريف، ص: (١٦- ١٧).

(5) انظر: المورد القريب، إنكليزي – عربي، ص: (٣٣٩)، دار العلم للملايـين، بيروت: ١٩٩٣م.

الشيخ محمد قطب: "وهي ترجمة مضللة لأ ا توحي بأن لها صلة بالعلم، بينما هي في لغا ا الأصلية لا صلة لها بالعلم. بل المقصود ا في تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيداً عن الدين، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة"، فكان الأولى أن تكون الترجمة باسم: (اللادينية).

ولقد كانت أول قصة دخول هذه الفكرة إلى البلاد الإسلامية في الدولة العثمانية، بأن تم إنشاء أول خلية تعمل على تغريب المسـلمين، وهي جمعية الاتحاد والترقي بزعامة مدحت باشا، التي قامت بدورها بالتمهيد لعمل الدستور العلماني للبلاد، وإقحامه مكان الشرع الإسلامي[(1)]، وما زالت المؤامرات تحاك، والأحداث تتلاحق، حتى تم انتخاب مصطفى كمال رئيسـاً للجمعيـة الوطنيـة، فعمـل على فصل السـلطنة عن الخلافة عام: (١٩٢٣م)، ثم ألغيت الخلافة الإسلامية في ١٩٢٤/٣/٣م، كما ألغيت معها وزارتا الشريعة والأوقاف[٢]، وكان يرى أن السلطة شيء والخلافة شيء آخر، وأن الخلافة قد أخذت السلطة من الشعب، وأن من حق الشعب أن يستردها، وفصل بين السلطنة والخلافة[٣]. وهكذا قام الكماليون بترويج فكرة فصل الدين عن سـياسة الحكم بغرض إبعاد الدولة عن الشريعة الإسلامية، وعملوا على إلغاء كل ما ينتمي إلى الإسلام من شؤون الحكم في تركيا، وأبطلوا المحاكم الشرعية، وألغوا الوزارة التي كان اسمها: مشيخة الإسلام وجعلوا مكا ا دائرة صغيرة تابعة لنظارة الداخلية سموها: أمور الديانة، كما حذفوا من دستور[4] تركيا المادة التي فيها أن الإسلام هو دين الجمهورية التركية[٥].

"وجاء قرار إعلان الجمهورية في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م كالتالي:

١. شكل الدولة جمهوري و دينها الإسلام ولغتها التركية.
٢. رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة يتولى رئاسة ا لس الوطني ورئاسة الوزارة.
٣. رئيس الجمهورية يختار رئيس الوزارة من أعضاء ا لس"[(٦)].

"ومنذ هذه اللحظة بدأ "مصطفى كمال" مرحلة بناء تركيا على أسس جديدة، وقد أقيمت الاحتفالات بانتخابه في كل قرى ومدن تركيا، فيما عدا إستانبول التي قام ساستها

(1) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، ص: (٧٠٣- ٧٠٤).
2 - انظر: مقدمة كتاب النهي عن الاستعانة والاستنصار..ص: (٥٢-٥٣).
3 - انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، ص: (٢٣٢، ٢٣٣).
4 - ولا شك أن كلمة (دستور) كلمة دخيلة، والصحيح أن نستبدل كلمة (المنهج) ا.
5 - انظر: حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، من تعليقات الأمير شكيب أرسلان: ٣٥١/٣
(6) الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (٩٤).

وصحافيوها بالهجوم على مصطفى كمال لمحاولته القضاء على الخلافة وإبعاد تركيا عن العالم الإسلامي، وكانوا يرون ضرورة وجود الخليفة في الدولة كرمز لوحدة الأمة، إلا أن مصطفى كمال لم يعر اهتماماً لهذه الانتقادات بل بدأ بتشكيل أول حكومة في ظل النظام الجمهوري الجديد"(١).

"وفي هذا الوقت قامت الحكومة بدعوة السلطان عبد ا يد إلى احتفال بمناسبة فصل الدولة عن الدين وجعل الحكومة منفصلة عن الخلافة، على أن يكون السلطان عبد ا يد خليفة للمسـلمين، وذلك في صلاة الجمعة. وقام عبد ا يد بالدعاء لمصطفى كمال و نئته برئاسة الحكومة، وقد فرحت أكثر البلاد الإسلامية ـذه المبايعة، وهنأت مصطفى كمال على إحيائه سـنة الخلفاء الراشدين في إقامة الدولة والخلافة على أساس الشورى، وبايعت عبد ا يد للخلافة والإمامة الكبرى، وقامت بتلقيب عبد ا يد بلقب "أمير المؤمنين وخليفة رسـول الله وحامي الحرمين الشريفين"وفي مقدمة هؤلاء المهنئين كان مسلمو الهند إلى جانب مسلمي مصر وأساتذة المدارس وعلماء الدين في الأزهر.

وعلى الرغم من هذا فقد كان الناس منقسمون بين من يقول بصحة هذه المبايعة في فصل الدين عن الدولة مثلما حدث في أوروبا من فصل بين الكنيسة والحكومة، وبين من يرفض هذه المبايعة، واعتبر أن هذه الخلافة ما هي إلا خلافة مشايخ الطرق وهي ليست من الإسلام(٢).

ولقد كانت الصوفية التي تنـتهجها الدولة العثمانية من الممهدات لدخول العلمانية إلى الدولة، فإ ا تشـبه إلى حد ما الرهبانية التي كانت أوروبا عليها في بداية دخولهم في الدين النصراني؛ فإن السلبية التي أنتجتها الصوفية تجاه قضايا الأمة[٣]، أورثت شعوراً بأن الدين له رجاله كما أن السـياسة لها رجالها، وأوحت _ ولو عن بعد _ بأن الدين لا دخل له في السـياسة. إن التصور المحرف لدين الله عند الأوربيـين النصارى منذ اعتناقهم للنصرانية، أدى إلى نظرة تتهم الدين بالنقص مما هيأ النفوس إلى رفض تدخل الدين بالكلية؛ فلم يكن عندهم بديل يقتنعون به ويملأ أرواحهم وأفكارهم، ويواكب تطورا م بسبب التحريف، ولم يكن في الدين الذي عرفوه ما يحكم الحياة البشرية سـوى بعض الأحوال الشخصية، فلم يكن بد عندهم من تنحية الدين، يقول الشيخ محمد قطب: "إن الفصل بين الدين والحياة وقع مبكراً جداً في الحياة الأوروبية، أو أنه – إن شئت – قد وقع منذ بدء

(1) انظر: الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (٩٥).
(2) نقلاً عن كتاب الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (٩٦- ٩٧)
3 - وسـيأتي الحديث عن الصوفية مفصلاً في مبحث: الرهبانية والتصوف.

اعتناق أوروبا للمسـيحية، لأن أوروبا قد تلقت المسـيحية عقيدة منفصلة عن الشريعة (بصرف النظر عما حدث في العقيدة ذا ا من تحريف على أيدي الكنيسة) ولم تحكم الشريعة شيئاً من حياة الناس في أوروبا إلا "الأحوال الشخصية" فحسب، أي أ ا لم تحكم الأحوال السـياسـية ولا الأحوال الاقتصادية ولا الأحوال الاجتماعية في جملتها"[1]، فكما أن التصور المحرف لدين الله عند الأوربيـين النصارى منذ اعتناقهم للنصرانية، أدى إلى نظرة تتهم الدين بالنقص مما هيأ النفوس إلى رفض تدخل الدين بالكلية، فكذلك الحال بالنسبة لتصور بعض المسـلمين عن الدين الممزوج بالصوفية _ مع الفارق _ فإن الصوفية قلصت من بعض وظائف الدين الحقيقية لتجعل الدين محصوراً في بعض الأذكار والأوراد والعبادات بعيداً عن واقع الأمة، مما هيأ نفوس بعض المسـلمين لتقبل العلمانية، وإن كان البديل لدى المسـلمين موجود في الدين الصحيح النقي من المحدثات، بخلاف حال الأوربيـين النصارى، وهذا من الفارق بينهما.

ثم حانت الفرصة ليحل القانون الغربي مكان الشريعة الإسلامية بشكل رسمي، ولذلك صرح كمال بذلك فقال: "نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا ولكن شرعاً فيه قلنا ونقول"[2]، ووقع اختيار مصطفى كمال على القانون السـويسري، "وقد أكد مصطفى كمال رأيه في إحلال هذا القانون بقوله: "إن الأديان تعبر عن أحكام ثابتة بينما الحياة تتحول وتحتاج إلى تغيـير. وأقر أن كل ما تعانيه تركيا يرجع إلى كو ا تستمد أحكامها من الدين كما أكد مصطفى كمال أن مقتضيات الحياة تتطلب وضع قانون مدني متسق مع متطلبات المدنية الحديثة"[3].

"ويقع القانون السـويسري الذي وضعته الحكومة الجديدة في ٩٣٧ مادة مقسمة إلى خمسة وعشرين باباً ومقدمة تحوى أحكاماً عامة"[4]، وقد طبق كمال هذا القانون بكل ما يحويه بغض النظر عن عادات الشعب التركي، "فمن أحكام الرشد والزواج التي تضمنها القانون المدني السـويسري:

١- يبدأ سـن الرشد في تمام الثامنة عشرة.
٢- سـن الزواج السابعة عشرة للرجل والسادسة عشرة للمرأة.
٣- لا يجوز لشخص أن يتزوج مرة ثانية.

(1) مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٤٤٧).
(2) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، من تعليقات الأمير شكيب أرسلان: ٣٤٣/٣
(3) الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (١١٨).
(4) الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (١١٩).

٤- لا يجوز للمرأة المتوفى زوجها أن تتزوج إلا بعد مرور ثلاثمائة يوم.

٥- لكل من الزوجين الحق برفع قضية طلاق بسبب زنا الآخر أو بسبب محاولة الآخر اغتياله أو معاملته معاملة سـيئة جداً أو بسبب العشرة بين الزوجين، وعلى الحاكم أن يحكم بالطلاق إذا ثبت صحة أسباب الطلاق.

٦- تبني الأولاد لا يجوز إلا من قبل من كان عمره أربعين سـنة فما فوق، والمتبنى يتلقب بلقب متبنيه ويكون وريثاً له"[1].

ومما قام به أتاتورك أيضاً لهدم النظام الإسلامي أنه ألغى نظام تعدد الزوجات، كما منع نظام الإرث وأعلن المساواة التامة بين الذكر والأنثى في الميراث والحقوق السـياسـية والاجتماعية[2].

ومن ثم انتشرت هذه الفكرة بين المسـلمين انتشار النار في الهشيم، ولقد كان من أسباب دخول العلمانية إلى العالم الإسلامي: تآمر المستعمرين على إدخالها إلى العالم الإسلامي، وفرضها كمهج حياة[3].

كما أن من الأسباب التي ساعدت على نشر هذه الفكرة: تآمر المنصرين الذين حرصوا على نشر كل ما يضعف شوكة الإسلام والمسـلمين، يقول الباحث محمد العرمابي: "و ذه الصلات الثقافية بين مسـيحيـي العرب وبين الثقافة الفرنسـية والثقافة الإنجليزية من ناحية، و ذا الكلف الجديد بالثقافة والدراسات الغربية من ناحية أخرى، فتحت عيو م على عالمين جديدين خارج الكنيسة وخارج المدارس التبشيرية، وهيأت ذلك لظهور الفكر العلماني المعادي للكنيسة في كثير من كتابا م، في الوقت الذي لم يكن فيه لهذا الفكر أثر بين معاصريهم من كتاب المسـلمين ومفكريهم، وقد أخذ هؤلاء النصارى ينشرون هذه الأفكار العلمانية في الصحف وا لات، بل البعض ألف في ذلك مقالات تعد كتباً أو ضمن هذه المبادئ بعض فقرات مما كتبوا، وقد ساعدهم على ترويجها: الاستعمار الذي تناوش البلاد الإسلامية، ومن هنا فقد سرت هذه التيارات الخبيثة في العالم الإسلامي وإن وجهت سهامها الأولى صوب رباط المسـلمين الأكبر الخلافة الإسلامية"[4].

وهكذا اتسعت دائرة هذه الفكرة لتصل إلى بلاد المسـلمين الأخرى ومنها أرض الكنانة مصر، وكان ذلك بعد قدوم الخديوي إسماعيل من بلاد الغرب، وتسلمه السلطة في

---

(1) انظر: الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (١١٩).

2 - نقلاً عن نشأة العلمانية ودخولها إلى ا تمع الإسلامي، د. محمد العرمابي، ص: (٩٨).

3 - نشأة العلمانية ودخولها إلى ا تمع الإسلامي: د. محمد العرمابي: ص: (٥٢).

(4) نشأة العلمانية ودخولها إلى ا تمع الإسلامي، د. محمد العرمابي، ص: (٤٩).

مصر، "وكانت فترة حكم الخديوي إسماعيل باشا (١٨٦٣- ١٨٧٩)م، كانت من أخطر المراحل في تدمير الشخصية الإسلامية لمصر وإذابتها وحل عرو ا، وهدم شريعة الإسلام فيها جملة، هدماً غير مسبوق إليه في تاريخ البلاد"(1).

"ومن أخطر ما قام به الخديوي إسماعيل في مجال ضرب الشريعة الإسلامية: نقل وترجمة القوانين الفرنسـية إلى اللغة العربية والعمل على تطبيقها"[٢].

موقف العلماء من القوانين الوضعية:

لقد كان للعلماء العاملين موقفهم الصلب من دخول هذه القوانين الغربية إلى بلاد المسـلمين، أذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر: مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ _ رحمه الله _ حيث أصدر كتابه المشهور بعنوان تحكيم القوانين ذكر فيه أنواعاً من الحكم بغـير ما أنزل الله وبين أحكامها، حتى وصل إلى النوع الخامس وهو الحكم بالقوانين الوضعية، فقال: "الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسـوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلا، وتفرعاً وتشكيلاً وتنويعاً وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومستندات. فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسـنة رسـوله صلى الله عليه وسلم، فلهذه المحاكم مراجع، هي: القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسـي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيـين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك. فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السـنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، **وتلزمهم به**، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسـول الله بعد هذه المناقضة"[٣].

(1) انظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد، ص: (٦٢).

2 - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد، ص: (٦٢).

(3) تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ص: (٧).

ومن العلماء الذين تكلموا في هذا الشأن الشيخ أحمد شاكر ـ عليه رحمة الله ـ، حيث يقول: "أفيجوز في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لا يبالي واضعه أوافق شرعه الإسلام أم خالفها. إن المسـلمين لم يبلوا بهذا قط – فيما نعلم من تاريخهم – إلا في ذلك العهد عهد التتار... أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير – في القرن الثامن – لذلك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام جنكز خان؟ ألستم ترونه يصف حال المسـلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟... ثم كان المسلمون الآن أسـوأ حالاً وأشد ظلماً وظلاماً منهم؛ لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك الياسق الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسـلمين، ويفخرون بذلك آباءً وأبناءً، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا الياسق العصري، ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم رجعياً وجامداً إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة... إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه"[1]، كما أن الحكم بالقوانين الوضعية فيها محذور آخر يجمع مع المحاذير الشرعية السابقة، حيث إن الحكم بالقوانين الوضعية المأخوذة من الكفار يعتبر مظهراً من مظاهر التشـبه بالكفار ولا شك.

وغيرهم كثير من علماء الإسلام الذين رأوا من واجبهم التحذير من هذا البلاء الذي جلبه بعض المسـلمين إلى بلاد المؤمنين[2]، متشـبهين في ذلك بالغرب الكافر، مغترين بدعاوى الديمقراطية المزعومة، ومستوردين لأنظمة حياتهم عن البشر، كما فعله أسلافهم من أهل الكتاب الذين قال الله تعالى فيهم: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[3].

الديمقراطية وعلاقتها بالعلمانية:

(1) عمدة التفسـير ٤/١٧٣- ١٧٤ لأحمد شاكر.

(2) انظر: الحكم بغـير ما أنزل الله، لعبد الرحمن المحمود، ص: (١٦٥- ١٦٦).

(3) سـورة المائدة: الآية: (٤٤).

لقد كان من المناسب للشعوب الغربية الثائرة التي تريد العدل والمساواة وإعادة الحقوق الضائعة والتحرر من ربقة العبودية للإقطاعيين، ووصاية الكنيسة ورهبانها، أن يكون نظامها ذا خاصيتين:

الخاصية الأولى: أن تكون السلطة بعيدة عن الكنيسة وأحكامها الجائرة، فتم تجريد السلطة من الوصاية الروحية.

والخاصية الثانية: أن تأخذ السلطة في اعتبارها غضب الجماهير من الطبقات الكادحة، الحاقدة على الطبقات الغنية المالكة للثروات.

وهكذا تم اختيار سلطة يتم فيها توزيع الحكم على الشعب بالتساوي، عن طريق النيابة، بحيث ينيب كل واحد من الشعب من يرغب في إنابته ليقوم بالتصويت على التشريعات التي توافق رغبات الشخص المنيب. يقول الشيخ محمد قطب: "لذلك كانت الديمقراطية هي اللعبة المناسبة التي توفق بين رغبة الطبقتين الساعيتين إلى السلطة، إحداهما وهي الطبقة الرأسمالية تستولي على السلطان الحقيقي، والثانية وهي طبقة الشعب تشارك – بقدر – في ذلك السلطان وذلك فضلاً عن عنصرين آخرين إحداهما إيحاء الفكر الإغريقي القديم وتأثيره على المفكرين الغربيين منذ عصر النهضة[1]، وهو فكر يحمل صورة "تذكارية" للديمقراطية من أيام أثينا وإسبرطة، والثاني هو الشعارات التي وضعتها الماسونية اليهودية للثورة الفرنسية وهي: الحرية والإخاء والمساواة، والديمقراطية هي المنطلق الأنسب لهذه الشعارات، ومن ورائها يحقق اليهود ما يحلو لهم من أهداف، وهكذا كانت نقطة الانطلاق، أو نقطتا الانطلاق في الحقيقة هما: أولاً: وجوب إشراف الشعب على أعمال الحكومة، أي إلغاء (الحق الإلهي المقدس) وإخضاع الحكومة لرقابة الشعب على تصرفاتهم، وفصل السلطات، وجعل الحكومة سلطة تنفيذية فحسب، لا سلطة تشريعية..وثانياً: إعطاء الشعب حقوقهم (الإنسانية) التي حرم منها أكثر من ألف عام في ظل نظام الإقطاع"[٢].

وهكذا تمت نشأة الديمقراطية، على أساس أن حكم الشعب للشعب، "فالديمقراطية إذن هي التعبير السياسي أو الوجه السياسي للعلمانية، كما أن الرأسمالية تعبير اقتصادي عن العلمانية"[3].

(1) سبق التعريف بعصر النهضة ص: (٩١).

(2) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (١٨٠- ١٨١).

(3) حقيقة الديمقراطية، لمحمد شاكر الشريف، ص: (٤٠).

وفي الديمقراطية يتم اختيار الرئيس للدولة بناء على ما سبق بالانتخابات، وهي طريقة يتم فيها التصويت من قبل الشعب بأكمله، جاء في الموسـوعة العربية العالمية بشأن الانتخابات: "الانتخاب عملية يدلي فيها الناس بأصوا م للمرشح، أو الاقتراح الذي يفضلونه وتجري الانتخابات باختيار المسؤولين في كثير من التنظيمات مثل الجمعيات والنقابات والنوادي الرياضية والاجتماعية. يعتبر حق الانتخاب في الدول الديمقراطية من أهم الممارسات السـياسـية، فهي وسـيلة لنقل السلطة بطريقة سلمية من شخص إلى شخص آخر وفي كثير من البلاد يجري أحياناً نوع آخر يعرف باسم الاستفتاء للبت في مسائل دستورية أو سـياسـية مهمة.

تختلف إجراءات ونظم الانتخابات من بلد لآخر إلا أن هناك أسساً معينة يجري العمل ا في كثير من البلدان. وفي الغالب ، ينتخب رؤساء الدول والحكومات والهيئات التشريعية على فترات منتظمة. وإذا توفي عضو الهيئة التشريعية أو استقال، تعقد انتخابات فرعية لانتخاب بديل يحل محله.

وفي البلدان الديمقراطية يحق لكل المواطنين، فوق عمر محدد – عادة١٨أو٢١ سـنة – الإدلاء بأصوا م ما داموا مسجلين، ولم يفقدوا هذا الحق لسبب أو لآخر. ويستثنى من ذلك الذين يعانون من مرض عقلي ومرتكبي بعض أنواع الجرائم. تجرى انتخابات الهيئات التشريعية (البرلمانات) عادةً، بالاقتراع السري. فكل شخص حر في التصويت دون أن يتأثر بالآخرين. وتتحدث وسائل الإعلام التي تشمل: الإذاعة والتلفاز، وا لات والصحف عن المرشحين وعن المسائل المهمة المطروحة في الانتخابات بحرية.

تختار الأحزاب السـياسـية في أكثر البلاد الديمقراطية مرشحيها لعضوية الهيئات التشريعية، وتقترح السـياسات العامة. غير أنه في – بعض الدول النامية – تجرى الانتخابات المحلية على أسس غير حزبية، أي تظهر أسماء المرشحين بدون الإشارة إلى انتماءا م الحزبية.

يختار المقترعون الموظفين الرسميـين من بين المرشحين لتولي المناصب إما بالانتخاب المباشر أو غير المباشر. ففي الانتخاب المباشر يدلي الناس بأصوا م بأنفسهم للمرشحين. أما في الانتخاب غير المباشر فيختار الناس ممثلين لهم ليكونوا هيئة انتخابية، ويقوم ممثلو الشعب بدورهم باختيار المرشحين وفقاً للاتجاه الشعبي الذي يمثلونه.

وفي ظل النظام البرلماني – ويطلق عليه أيضاً الحكم البرلماني – ينتخب المواطنون أعضاء الهيئة التشريعية أو البرلمان. ويختار الملك أو رئيس الجمهورية رئيس الوزراء من بين أعضاء الهيئة التشريعية. وفي أغلب البلاد يعين رئيس الدولة زعيم حزب الأغلبية في الهيئة

التشريعية أو رئيس الائتلاف الحزبي رئيساً للحكومة"[1]، ولكن هل يستحق كل من كان فوق عمر ١٨ أو ٢١ أن يشارك في اختيار الرئيس للشعب بحجة الديموقراطية، إن هذا العموم سـيدخل فيه ولا شك كل فرد من أفراد ا تمع مهما كانت انتماءاته، ومهما كانت ميوله وأخلاقه، وعندها سـوف تكون الرئاسة من نصيب كل من يحقق رغبات الشعب، سـواء كان هذا الشعب يريد الأخلاق أو كان منسلخاً من القيم والمفاهيم التربوية الصحيحة.

هذا بالنسبة لانتخاب الرئيس في السلطة الديمقراطية، وأما عن تشريع القوانين والأنظمة فيتم عن طريق البرلمانات التشريعية، والبرلمان يتكون من مجموعة من الأعضاء الذين قام الشعب بانتخا م لتمثيلهم في هذه ا الس التشريعية، جاء في الموسـوعة العربية العالمية: "البرلمان: هو الهيئة الوطنية التي تشرع القوانين في البلدان التي تأخذ بالنظام الديمقراطي. وهناك برلمانات تتكون بالكامل من أفراد منتخبين وأعضاء معينين أو أعضاء يرثون عضويتهم"[٢]، ولكن ما هي التشريعات التي ستكون مقررة من خلال هذه القوانين والأنظمة؟ هل ستكون على قدر كاف من المسؤولية، بحيث تفي بكل احتياجات الشعب، أم ستكون موجهة من أصحاب الثروات والأموال الذين لا مهم سـوى مصلحتهم الشخصية، يقول الشيخ عبد الرحمن الميداني: "وغالباً ما يحرك هذه ا الس أفراد معدودون، ويوجهو ا حسب أهوائهم بوسائلهم وأحابيلهم الشيطانية، هذا إذا لم يتم تزوير الانتخاب بتبديل الصناديق التي ألقى المقترعون فيها أوراق انتخا م، بصناديق أخرى مشا ة لها في الظاهر، وما في بطنها مزور تزويراً كلياً. وكم حدث هذا في مزاعم انتخابات ديمقراطية وكانت الحصيلة: مئة في المئة، لصالح المزور أو الآمر به، أو ٩٩،٩ في المئة، أو نحو ذلك"[3].

إن الصواب والخطأ في هذه الحياة لم يكن يوماً ما معياره الأكثرية منذ خلق الله البشر، قال تعالى: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) [٤]، إن الأكثرية لم تكن معياراً للصواب والخطأ سـوى في هذه الديمقراطية التي يحكم فيها الشعب ويختار دستوره لنفسه،

(1) الموسـوعـة العربـيـة العـالميـة، وهـي ترجـمـة بتـصـرف عـن: دائـرة المعـارف العالمـيـة (World.Book.Encyclopedia) ١٥٤/٣ - ١٥٥.

(2) انظـر الموسـوعة العربيـة العالميـة، وهـي ترجمـة بتـصرف عـن: دائـرة المعـارف العالميـة (World.Book.Encyclopedia): ٣٤٧،٣٤٨/٤.

(3) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: (٧٣١-٧٣٢).

(4) سـورة: (يوسف:١٠٣).

ترى هل سـيكون الصواب هو ما صوبه علماء الطبيعة المنشغلون بدراسا م بعيداً عن معاناة الشعوب، أم سـيكون الصواب هو ما اختاره العمال الكادحون الذين يسعون وراء لقمة العيش، والذين لا يقدمون من الآراء سـوى ما يحقق لهم ما يرومونه من الحياة السعيدة، أم سـيكون الصواب هو الذي تراه الفئة الثرية التي لا يهمها سـوى رواج ما تنتجه مصانعهم، مهما كانت المادة المنتجة، إن الجواب لدى الديمقراطية هو أن الصواب والخطأ سـيختاره الأكثر والأغلب، بغض النظر عن الفئات الأخرى رضيت أم سخطت، وهنا تبدأ المشكلة التي لا ـاية لها، ويشعر الآخر بالظلم الدستوري؛ لأنه ضمن حقوق المنافس ولم يضمن حقوقه، وتسلك الطرق الملتوية للحصول على تغيـير الدستور الظالم في نظر البعض والعادل في نظر الآخرين، إن الصواب والخطأ في المعاملات وغيرها لا يعرفه سـوى خالق البشر، ولذلك قال تعالى: (ألا لَه الْخلْق والأَمر تبارك الله رب الْعالَمين)(1)، فعندما تكون الحرية للشعب في اختياره للشرع الذي يحكمه سـيكون **الأمر** بيد الشعب، وإن كان الأمر لا ينبغي أن يكون إلا لمن كان له الخلق، يقول خير الدين التونسـي وهو يصف الحرية في النظام الديمقراطي: "الحرية الشخصية، وهي إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته بأبناء جنسه لدى الحكم، والحرية السـياسـية وهي حق الرعايا في التدخل وإبداء الرأي في مصالح الدولة، عن طريق ا الس النيابية. وحرية الرأي التي نسميها _ ترجمة للمصطلح الأوربي _ حرية المطبعة، وهي متحققة على درجات متفاوتة في البلاد الأوروبية"[2]، ولكن هذه الحرية ليست في الحقيقة سـوى بعد عن تعاليم الوحي الرباني، ومشاركة الله في أحد خصائصه، يقول د. صلاح الصاوي: "إن الحالة التي تواجهها مجتمعاتنا المعاصرة هي حالة الإنكار على الإسلام أن تكون له صلة بشؤون الدولة، والحجر عليه ابتداءً أن تتدخل شرائعه لتنظيم هذه الجوانب، وتقرير الحق في التشريع المطلق في هذه الأمور للبرلمانات وا الس التشريعية. إننا أمام قوم يدينون بالحق في السـيادة العليا والتشريع المطلق السهم التشريعية، فالحلال ما أحلته، والحرام ما حرمته، والواجب ما أوجبته، والنظام ما شرعته، فلا يجرم فعل إلا بقانون منها، ولا يعاقب عليه إلا بقانون منها، ولا اعتبار إلا للنصوص الصادرة منها"(3)، فالحرية في عصر الديمقراطية ما هي إلا طاغوت يسلم له الأمر من دون الله الذي اختص بالخلق والأمر دون ما سـواه.

(1) سـورة: (الأعراف: من الآية٥٤).

2 - الإسلام والحضارة الغربية، ص: (٢٦).

(3) تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية لصلاح الصاوي: ص: (٨١).

فإذا كان هذا النظام الديمقراطي سـيطبق لدى المسـلمين الذين يقرون بأن الله هو خالقهم فإن ثمة تناقض في هذا الاختيار إلا إذا تشـبهوا بالغرب الكافر في اعتقادا م، فإما أن يقولوا مثل ما قال الملحدون من العلمانيـين بأنه لا خالق في الكون ولا رب يحكم، وإما أن يقولوا مثل ما يروي النصارى عن عيسى عليه السلام أنه قال: اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله[1] _ وهو ما يدعيه العلمانيون الذين لم ينكروا الأديان بالكلية منهم _ وفي الحالتين سـيكون تطبيق الديمقراطية في بلاد المسـلمين من التناقض، إضافة على ما في ذلك من التشـبه بالكفار.

فمن كان مقتنعاً بالقول الأول وهو أنه لا خالق في الكون، لم يكن مسلماً. ومن كان مقتنعاً بما نسبه النصارى للمسـيح من تلك المقولة الجائرة _ إذا فهمناها على حسب فهمهم _ فهذا قد تشـبه بالنصارى، وقد ألقى بالآيات القرآنية التي لا تتفق وتلك المقولة عرض الحائط، وكأن دينه دين النصارى، وهذا في الحقيقة تنصلَ من الإسلام، وتنكر لدينه الإسلامي، وذهب يأخذ دينه عن أساطير النصارى.

فإن هذه العبارة هي من تحريفا م لدين الله _ خاصة لو فهمناها على حسب فهمهم _ يقول الشيخ سفر الحوالي: "إن هذه العبارة ظاهرها الأمر الصريح بالشـرك (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، فهي تجعل قيصر شريكاً لله في التوجه إليه بالعمل، ومن ينفذها على ظاهرها يقع حتماً في شرك الطاعة والاتباع وهو شرك أعظم، لتنافيه مع توحيد الألوهية، وهذه الدلالة تكفي لنفي صدور العبارة من المسـيح عليه السلام، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا لتحذير الجماعة البشرية من الشـرك وتنفيرها منه جليله ودقيقه، فكيف يأمر نبي من أنبياء الله من أولي العزم بالشـرك ويدعو إليه ذه الصورة ؟، والواقع أنه ليس في استطاعة المسـيح – عليه السلام – والقلة المسلمة معه و لا من منهج دعوته أن يرفضوا دفع الجزية للجاني الروماني الذي يجمعها من كل رعايا الإمبراطورية ويدفعها للطاغوت قيصر، ولكن هذا لا يعني أبداً أن المسـيح عليه السلام يقر ذلك الواقع الظالم، ويعترف لقيصر بحق مساواة الله في خلقه ويجعله شريكاً له في ألوهيته كما فهمت الكنيسة. فالمسـيح عليه السلام – لو صحت العبارة – وافق على إجراء مؤقت تقتضيه ضرورة الواقع وطبيعة الدعوة المرحلية. ولو قدر للمسـيح عليه السلام أن تبلغ دعوته من القوة ما بلغت الدعوة الإسلامية عند الإذن بالجهاد لأذن لقومه بأن يرفضوا دفع الجزية لقيصر، بل لأمرهم بجهاد الرومان وإشهار عدوا م. وبذلك يتضح أنه حتى في حالة ثبوت

(1) انظر: العلمانية، للشيخ: سفر الحوالي، ص: (٦٥).

العبارة فإنها ذات مدلول جزئي مؤقت في مسألة فرعية، ولا يجوز أن يستنبط منه قاعدة أبدية عامة يفضي تطبيقها إلى إهمال شريعة الله، والتخلي عن إقامة دينه في واقع الحياة، وإقرار أحكام الطاغوت"[1]، وعلى هذا فالعبارة إما أن تكون مختلقة ليست من قول المسيح أو أن يكون لها معنى آخر لم يفهمه العلمانيون من النصارى، وسواء هذا أم ذاك فإن المسلم لا يمكن أن يحتج بهذه العبارة وأمثالها إلا إذا كان غارقاً في أوحال التشبه بالكفار، متنكراً لدينه ومصادره الأصيلة.

بعض مظاهر تأييد العلمانية في الحكم:

إن الاستشهاد بالنصوص لدى من يريد التبريح للعلمانية لا يأتي غالباً بنصوص التوراة والإنجيل؛ فإن ذلك يعتبر صاحبه ظاهر التشبه بالكفار، فينفر منه الجميع، ولكن المصيبة عندما يتم تطويع النصوص الشرعية لصالح الاتجاه العلماني، وإيجاد الشرعية للعلمانية في الحكم، وعندها لن يتنبه لهذا التلفيق سوى من كان متيقظاً لهذه الدعاوى وكان قد تسلح بسلاح العلم الشرعي، وهناك من الكتاب المسلمين من تأثروا بهذا النهج وبدؤوا يحاولون أن يجدوا للعلمانية في بلاد المسلمين مبررات شتى بحجة أن الإسلام لا دخل له في الحكم، وأن الرسول ﷺ لم يأت بمنهج في التحاكم بل كان واعظاً ومخوفاً بالله، لا يعدو كونه كذلك[2]، يقول محمد شاكر الشريف: "ومن ذلك زعمهم أن الإسلام ليس فيه نظام سياسي، وأن الرسول ﷺ لم يكن من عمله إقامة دولة وإدارتها، وأن عمله لم يتجاوز حدود البلاغ والإنذار المجرد من كل معاني السلطان، وأن الخلافة ليس لها سند من الدين، ومن هؤلاء: الشيخ على عبد الرازق القاضي الشرعي في كتابه: الإسلام وأصول الحكم، وممن قفا قفوه في إنكار النظام السياسي الإسلامي الكاتب: خالد محمد خالد[3] في كتابه: (من هنا نبدأ)"[4]، وهذا إنما يقوله قائله؛ لتأثره بالعلمانية والنظام الديموقراطي الغربي الذي يراد له أن يحل مكان النظام السياسي الإسلامي، ولا أدري كيف تجاهل نظام الحكم الإسلامي المطبق خلال قرون من الزمن وكيف جهل أو تجاهل

(1) انظر: العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٦- ٦٨).
(2) تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم علي البهنساوي، ص: (٢٥٦- ٢٥٧).
(3) قبل أن يتراجع عما قرره فيه.
(4) حقيقة الديمقراطية، لمحمد شاكر الشريف، ص: (٥٤).

سـيرة الرسـول ﷺ والتي تنطق شاهداً على السـياسة النبوية الحكيمة والتي رسمها النبي ﷺ لأمته من بعده، وكيف جهل أو تجاهل ما ألفه علماء الإسلام من كتب مستنبطة من النظام النبوي[1]، وهذا القول واضح البطلان بما تقدم من بيان لمنـزلة التحاكم في الشرع، وأن الإسلام منهج حياة شامل، قال تعالى: (قُلْ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب الْعالَمين) [2].

فالديمقراطية إذن منهج لا يتفق مع الإسلام بشكل من الأشكال، ولا يمكن أن نأخذ به ونقول: نجمع بينه وبين الإسلام، يقول الشيخ محمد قطب: "وفي العالم الإسلامي كتاب ومفكرون ودعاة مخلصون مخدوعون بالديمقراطية. يقولون نأخذ ما فيها من خير ونترك ما فيها من شرور. يقولون نقيدها بما أنزل الله. ولا نبيح الإلحاد ولا نبيح التحلل الخلقي والفوضى الجنسـية! إ ا إذن لن تكون الديمقراطية.. إنما ستكون الإسلام!!

إن الديمقراطية هي حكم الشعب بواسطة الشعب. إ ا تولى الشعب سلطة التشريع. فإذا ألغي هذا الأمر أو قيد بأي قيد فلن تكون هي الديمقراطية التي تقوم اليوم ذا الاسم. واسألوا الديمقراطيـين! قولوا لهم: نريد أن نحكم بما أنزل الله، ولا يكون للشعب ولا ممثله حق وضع القوانين إلا فيما ليس فيه نص من كتاب أو سـنة أو إجماع من علماء المسـلمين! قولوا لهم: نريد أن ننفذ حكم الله في المرتد عن دينه، وحكم الله في الزاني والسارق وشارب الخمر.. قولوا لهم: نريد أن نلزم المرأة بالحجاب، ونمنع التبرج، ونمنع العري على الشواطئ وفي الطرقات، ونريد في الوقت ذاته أن نكون ديمقراطيـين! اسألوهم وانظروا ماذا يقولون! سـيقولون على الفور: إن هذه ليست الديمقراطية التي نعرفها.. ففي الديمقراطية يشرع الناس في جميع الأمور لا يلتزمون في شيء منها بغـير ما يريده الشعب (نظرياً على الأقل! وإن كانت الحقيقة أن الرأسماليـين هم الذين يشرعون من وراء الستار!) سـيقولون إن الديمقراطية لا تتدخل في(الحرية الشخصية) للأفراد! فمن شاء أن يرتد عن دينه فهو حر! ومن شاء أن يتخذ صديقة أو خليلة فهو حر. ومن شاءت أن تكشف عن صدرها أو ظهرها أو ساقيها فهي حرة! ومن شاءت أن تخون زوجها فهي حرة ما لم يشتك الزوج!"[3]، فلا يمكن الجمع بين الديمقراطية والإسلام بحال، لا يمكن أن نجمع بين النظام الرباني والنظام الطاغوتي، لا يمكن أن نجمع بين قول الله تعالى: (إن الْحكْم

(1) من أمثلة كتاب الخراج لأبي يوسف وكتاب الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى، وغيرهما.
(2) سـورة: (الأنعام:١٦٢).
(3) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٢٥٣).

إلا لله)[1]، وبين الحكم بالأنظمة والدساتير الغربية، إلا بالكفر بأحدهما، ولا يمكن أن نجمع بين العمل بالسـنة النبوية التي يقول صاحبها ﷺ: ((ومن تشـبه بقوم فهو منهم))[2]، وبين الارتماء في أحضان الغرب الكافر، نستقي منه نواتج معاركهم ومهاتراتهم وثوراتهم[3].

إننا لا نعجب أن يلجأ الغرب إلى أطروحات العلمانية، أو أن يعجبوا بها ولكننا نعجب من بعض المسـلمين الذين أعجبتهم الديمقراطية ورأوا فيها حلاً لمشكلات المجتمعات الإسلامية في التحاكم، يقول أحد الكتاب المعاصرين: "تعني الديموقراطية: أن تطلق الحريات في (التفكير) و(التعبير) والتجمع والتحزب، ويحرم شيء واحد فقط هو استخدام القوة والسلاح والإكراه لفرض الأفكار. ومنهج الأنبياء يقوم على (تراض منهم وتشاور) و لا إكراه في الدين، وهو يستخدم اللاعنف من طرف واحد حتى لو اعتمد الآخر على العنف؛ لأن التورط في العنف معناه الدخول في مذهب الآخر، والأنبياء دعوا إلى شق طريق جديد في تحرير الإنسان من علاقات القوة ووثنية الإكراه بأن لا تكون المرجعية الأساسـية في المجتمع السلاح والعضلات والإكراه، فهذا هو لب التوحيد أن لا إله إلا الله وليست القوة هي الله وليس الحاكم هو الله رب الناس ملك الناس إله الناس، ولتحقيق هذا دعا الأنبياء الناس أن لا يقتلوا أحداً أو حاكماً لتغيـير الأوضاع لأنه استبدال طاغوت بطاغوت ولكن أن يغيروا رصيد ما بنفوسهم بالتخلص من القابلية لعبادة القوة"[4]، هنا يحاول الكاتب أن يصل إلى أن الديمقراطية الصحيحة تقتضي عدم معارضة الحكم بالدستور بالعنف إذا أردنا أن نكون ديمقراطيـين فعلاً، وربما تكون هذه القضية لها وجه من الصحة، والديمقراطية والتي يجب أن نسعى إليها ومن الشرف أن ننتمي إليها في نظره تسعى إلى الحرية في التعبير وعدم فرض الآراء بالقوة. ثم يحاول أن يقنع القارئ بأن الإسلام لا يعارض هذا التوجه الذي تسلكه الديمقراطية، فإنه لا إكراه في الدين، وعلى هذا يجب على الذين يريدون تغيـير الحكم بهذه الدساتير أن ينـتبهوا إلى أمور مهمة في نظره، وهي:-

- أن الإسلام لا يشجع الإكراه بل هو مع الحوار والتشاور(البرلمانات)، هذه الطريقة الصحيحة التي يجب أن يسلكها كل من أراد أن يجمع بين الديمقراطية والإسلام، فالعلمانية تطالب بالحرية بلا عنف، والإسلام كذلك، والدليل قوله تعالى: (لا إِكْرَاه

---

(1) سـورة: (الأنعام: من الآية٥٧).
(2) سبق تخريجه ص: (١٥).
(3) حيث نتجت الديمقراطية عن الثورة الفرنسـية التي قامت عام: (١٧٨٩)م.
(4) الشرق الأوسط: عدد ٢٩/ أغسطس آب/ ٢٠٠١م.

في الدين)[1]، والحقيقة أن هذه دعوى فضفاضة تحتاج إلى تفصيل، فالإسلام يكفل الحريات، ولكنه لا يتيح الحرية بحيث يستطيع أن يغير كل من شاء دينه الإسلامي إلى أي دين، وإذا أراد أن يثبت هذا النوع من الحرية المزعومة فعليه أن يبحث لها مسـوغاً آخر غير الدين الإسلامي ولا يمكن أن يلصقها بالإسلام، فالنبي ﷺ أكد على حد الردة فقال: ((من بدل دينه فاقتلوه))[2].

- ادعى أن عدم الإكراه في الدين هو لب التوحيد، وهذه دعوى جديدة؛ فلب التوحيد هو الإخلاص لله وأما عدم الإكراه في الدين هو من أوامر الله.
- أن الحاكم في نظره ليس هو الله رب الناس وملك الناس، وهذه مخالفة صريحة لقول الله تعالى: (إن الْحكْم إلا لله)[3]، وقوله: (ألا لَه الْخلْق والأمر)[4]، فكيف لا يكون الحكم لله وهو رب الناس وملك الناس.
- يقول: "ولتحقيق هذا دعا الأنبياء الناس أن لا يقتلوا أحداً أو حاكماً لتغيـير الأوضاع لأنه استبدال طاغوت بطاغوت"، والحقيقة أن الأنبياء جاءوا ليغيروا نظام حياة الناس، ولم يرض نبي من الأنبياء بحكم الطواغيت، ومنهم نبـينا محمد ﷺ فقد قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قَاتلُوا الذين يلُونكُم من الْكُفار وليجِدوا فيكُم غلْظَةً)[5]، وغزوات النبي ﷺ معلومة وكتب السـيرة مليئة بتلك المحاولات النبوية المباركة لتغيـير حكم الطواغيت، ولكنني أتعجب من قوله: "لأنه استبدال طاغوت بطاغوت"، فهل حكم الأنبياء يعتبر طاغوتاً؟!

ويقول كاتب آخر: "ومن ثم فالديمقراطية، هي عملية تربية مجتمعية، تبدأ في المنـزل والمدرسة والجامعة والمسجد والكنيسة والشارع والمؤسسات الوسـيطة، وإذا لم تمـارس الديمقراطية في هذه المؤسسات يكون صندوق الانتخابات عملية خادعة ومضللة يجيء بمـن له قدرة على حشد الجماهير غير الواعية. فالطرح الذي يختزل الديمقراطيـة في صـندوق الانتخابات، هو طرح خاطئ ومضلل، ولكن الديمقراطية غير ذلك كما قلت، فهي تعـني وجود دولة مؤسسات، وتعني التربية والتنشئة السـياسـية، وتعني تنمية الوعي وتفعيلـه وتعميقه، **وتعني إعلاماً تنويرياً وتعليماً** يخاطب **العقل، وتعني وضـع الـدين** في **مكانـه**

(1) سـورة: (البقرة: من الآية٢٥٦).
(2) أخرجه البخاري: ١٠٩٨/٣، برقم: (٢٨٥٤).
(3) سـورة: (الأنعام: من الآية٥٧).
(4) سـورة: (الأعراف: من الآية٥٤).
(5) سـورة: (التوبة: من الآية١٢٣).

الصحيح، ونتحدث بعد ذلك عن الانتخابات في شكلها النـهائي، فهـذه الانتخابـات ستقذف بالإسلاميـين إلى الحكم من خلال قدرتهم على حشد الجمـاهير البـسـيطة، ونتيجة لغياب الوعي الصحيح لدى المواطن الذي تعرضت إرادته الـسـياسـية للقهـر. الديمقراطية الحقيقية إذا خلصت النوايا يمكن أن تتحقق وتكتمل خلال عـدة سـنوات، بشرط أن نبدأ بجدية وإخلاص وفقاً للمفهوم الحقيقي لديمقراطية المؤسسات، وليس مجـرد تدشين هياكل ديمقراطية لخداع العالم وخداع الذات. الخطـر يكمـن في أن الديمقراطيـة بتعريفها المؤسسـي تنسحب من مجتمعاتنا بشكل منتظم، وهذا يجعل خطر الانتخابـات النهائية خطراً جسـيماً، لأن وعي الفرد أصبح مشوهاً وباتت عقليته لا تستوعب أكثر من المصطلحات الدينية. ويبدو أن هناك تفاهماً ما في الوطن العربي بتحجيم الديمقراطية بمعناها الحقيقي، **بل إن هناك بدعة الآن** في **الإعلام العربي، بأن الديمقراطية الغربية لا تناسـبنا**، وماذا عن الشعوب؟ **إن شعباً يندفع وراء مشاعره الدينية فقط، ولا يعبـأ** بحريتـه، ولا يستثيره الاعتداء على كرامته الإنسانية، ويطارد المبدعين، ويخرج في مظاهرات صاخبة من أجل جملة في عمل إبداعي تم نزعها من سـياقها، ولا يتظاهر من أجـل الانـتهاكات اليومية للديمقراطية ولحقوق الإنسان، هو شعب لم يكافح بعد من أجل الديمقراطية، ومن ثم لا يستحقها"[(1)]، فهو يطالب إذن بأن يوضع الدين في مكانه الصحيح، وهـو أن يكـون محكوماً لا حاكماً، وهو يعتقد كذلك أن الديمقراطية الغربية هي أفضل ما يمكـن تطبيقـه بالنسبة لنظام الحكم، كما أنه لم يسلم من قلمه حـتى الإسلاميـين الـذين يتخـذون الديمقراطية سلماً لتحقيق الفضيلة، والله المستعان.

(1) انظر: صحيفة الشرق الأوسط، عدد: (١٤/ أغسطس / ٢٠٠٢)، مقال بعنوان: (الديمقراطية شرط أساسـي للوطنية، مجدي خليل (كاتب وباحث مقيم في نيويورك)، أمريكي الفكر والوطن.

المبحث الرابع:

مظاهر التشبه بالكفار في تحريف الكتب المنزلة

تمهيد:-

التحريف هو التغيير قال ابن منظور: "والتحريف في القرآن والكلمة: تغيير الحرف عن معناه والكلمة عن معناها"[1]، ويطلق التحريف على الزيادة في النص أو النقص منه، قال الغزالي: "والتحريف في الزيادة والنقص"[2].

(1) لسان العرب: ٤٣/٩.

(2) نقلاً عن فيض القدير: ٦ /١٥١

والتحريف نوعان: **تحريف اللفظ** وهو: تبديله، **وتحريف المعنى** وهو: صرف اللفظ عنه إلى غيره مع بقاء صورة اللفظ[1].

قال ابن القيم: "والتحريف: العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه، والنوعان مأخوذان من الأصل عن اليهود؛ فهم الراسخون فيهما، وهم شيوخ المحرفين وسلفهم؛ فإنهم حرفوا كثيراً من ألفاظ التوراة وما غُلبوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه، ولهذا وصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم، ودرج على آثارهم الرافضة فهم أشبه بهم من القذة بالقذة، والجهمية فإنهم سلكوا في تحريف النصوص الواردة في الصفات مسالك إخوانهم من اليهود، ولما لم يتمكنوا من تحريف نصوص القرآن حرفوا معانيه وسطوا عليها، وفتحوا باب التأويل لكل ملحد يكيد الدين فإنه جاء فوجد باباً مفتوحاً وطريقاً مسلوكة، ولم يمكنهم أن يخرجوه من باب أو يردوه من طريق قد شاركوه فيها، وإن كان الملحد قد وسع باباً هم فتحوه وطريقاً هم اشتقوه"[2]، وسيأتي في هذا المبحث تفصيل كلام ابن القيم إن شاء الله تعالى.

المطلب الأول: تحريف النص.

لقد أخبرنا الله عز وجل عن حفظه وصيانته لكتابه من التحريف فقال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[3]، قال ابن جرير الطبري: "يقول تعالى ذكره إنا نحن نزلنا الذكر وهو القرآن (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل ما ليس منه أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه"[4]، وقال القرطبي: "وإنا له لحافظون من أن يزاد فيه أو ينقص منه، قال قتادة وثابت البناني: حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص منه حقاً فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا وقال في غيره بما

1 - انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣٥٥/١- ٣٥٩

(2) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢١٥/١- ٢١٦

(3) سورة: (الحجر:٩).

4 - تفسير الطبري:٨/١٤

استحفظوا فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا"[1]، وهنا يشير القرطبي _ رحمه الله _ إلى قوله تعالى: (إنا أنزلْنا التوراةَ فيها هدى ونور يحكُم بِها النبيونَ الذين أسلَموا للذين هادوا والربانِيونَ والأحبار بِما استحفظُوا من كتابِ الله وكَانوا علَيه شهداءَ)[2]، فإن الله عز وجل وكل حفظ التوراة إلى الأحبار، ولم يتكفل بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن.

ومن الأدلة كذلك على حفظ الله لكتابه عن التحريف قوله تعالى: (لا يأْتيه الْباطلُ من بينِ يديه ولا من خلْفه تنـزيلٌ من حكيمٍ حميد)[3]، روى الطبري _ رحمه الله _ بسنده عن قتادة قوله: "يقول تعالى ذكره وإن هذا الذكر لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه وحفظه من كل من أراد له تبديلاً أو تحريفاً أو تغييراً من إنسي وجني وشيطان مارد"[4]، وقال القرطبي _ رحمه الله _: "قال ابن عباس: (عزيز) أي: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله (لا يأْتيه الْباطلُ من بينِ يديه ولا من خلْفه)، أي: لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينـزل من بعده كتاب يبطله وينسخه"[5]، وفي قول ابن عباس هذا إشارة إلى من يدعي أن عنده كتاب ينسخ القرآن أو شيئاً منه أنه كاذب وأن ما جاء به باطل والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد صارت هذه المسألة _ مسألة حفظ الله للقرآن من الزيادة والنقصان _ مما ينص عليه أهل السنة ضمن اعتقادا م، قال البيهقي في كتابه: (الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث): "ونعتقد فيما أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن، ولم ينسخ رسمه في حياته وأنه بقي في أمته محفوظاً لم تجر عليه زيادة ولا نقصان"[6].

ومن هنا فإن الزعم بأن القرآن فيه زيادة أو نقص تكذيب لما سبق من الآيات، قال البيهقي: "فمن أجاز أن يتمكن أحد من زيادة شيء في القرآن أو نقصانه منه أو تحريفه فقد كذب الله في خبره وأجاز الخلف فيه"[7]، ومن جاء بشيء من عنده وزعم أنه سقط من القرآن فإنه قد افترى على الله كذباً بنص كلام الله؛ لأنه زعم أن الله لم يحفظ كتابه في ما

---

1 - تفسير القرطبي: ١٠/٥
(2) سورة: (المائدة: من الآية٤٤).
(3) سورة: (فصلت:٤٢).
(4) تفسير الطبري: ٢٤ /١٢٤
(5) تفسير القرطبي: ١٥ / ٣٦٧
(6) الاعتقاد: ٢٠٩/١
(7) شعب الإيمان: ١ / ١٩٤

سلف من الزمن حتى جاء هو بما عنده من السقط، فهذا الفعل يعتبر محاولة للتحريف في القرآن، وكذلك من حاول النقص من القرآن فإنه يقع تحت طائلة هذا التكذيب، بل كفر العلماء من قال بشيء من ذلك لتكذيبه ما جاء في القرآن من نفي الزيادة والنقصان[1].

وتحريف الكتب السماوية جاء في القرآن بأنه من صفات اليهود، قال تعالى: (فَوَيلٌ للذين يكْتبونَ الْكتاب بِأيديهم ثُم يقُولُونَ هذَا من عند الله ليشتروا بِه ثَمناً قَليلاً فَويلٌ لَهم مما كَتبت أَيديهم وويلٌ لَهم مما يكْسِبونَ)[2]، قال الطبري _ رحمه الله _: "يعني بذلك الذين حرفوا كتاب الله من بني إسرائيل وكتبوا كتاباً على ما تأولوه من تأويلا م مخالفاً لما أنزل الله على نبيه موسى صلى الله عليه وسلم ثم باعوه من قوم لا علم لهم ا ولا بما في التوراة جهال بما في كتب الله لطلب عرض من الدنيا خسـيس فقال الله لهم فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون"[3]، فاليهود حرفوا نص كتا م عمداً لمكاسب دنيوية، وأهواء شخصية.

ومن الآيات التي ذكرت تحريف اليهود للنص في كتبهم قول الله تعالى: (يا أَيها الرسـولُ لا يحزنك الذين يسارِعونَ في الْكُفْرِ من الذين قَالُوا آمنا بِأَفْواههم ولَم تؤمن قُلُوبهم ومن الذين هادوا سماعونَ للْكَذبِ سماعونَ لقَومٍ آخرِين لَم يأْتوك يحرفُونَ الْكَلم من بعد مواضعه يقُولُونَ إِنْ أُوتيتم هذَا فَخذُوه وإِنْ لَم تؤتوه فَاحذَروا)[4]، قال ابن كثير في تفسـيرها: "نزلت في اليهوديـين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مئة جلدة والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك فقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا له أن رجلاً منهم

(1) انظر: شعب الإيمان للبيهقي: ١ / ١٩٤، وتفسـير القرطبي: ٨٤/١.
(2) سـورة: (البقرة:٧٩).
(3) انظر: تفسـير الطبري: ١ / ٣٧٨
(4) سـورة: (المائدة:٤١).

وامرأة زنيا فقال لهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر ‌ ما رسـول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة أخرجاه"[(1)]، وهذه محاولة من اليهود لإخفاء نص مما أنزله الله عليهم من التوراة، ولولا حكومة النبي صلى الله عليه وسلم الواعية لما طبق حكم الله في هذه القضية بناء على تحريفهم لكتا ‌ م.

ولقد تبع اليهود في هذه الصفة الذميمة من التحريف لنصوص القرآن الكريم ثلاث طوائف من المنتسبين إلى الإسلام وهم الرافضة[(٢)] والجهمية والقرامطة، قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: "وكان عصبة الوارثين لهم في ذلك ثلاث طوائف الرافضة والجهمية والقرامطة فإ ‌ م اعتمدوا في النصوص المخالفة لضلالهم هذه الأمور الثلاثة"[٣].

ومن اعتقادات الرافضة إلى يومنا هذا أن القرآن الذي عند المسـلمين فيه نقص كبير[٤]، فقد صرح بذلك بعضهم، يقول أحدهم: "فإ ‌ م بعد النبيﷺ قد غيروا وبدلوا في الدين، كتغيـيرهم القرآن وتحريف كلماته وحذف ما فيه من مدائح آل الرسـول والأئمة الطاهرين وفضائح المنافقين وإظهار مساويهم"[٥].

---

(1) تفسـير ابن كثير: ٢ / ٥٩

(2) "الرافضة: هي تلك الطائفة من الشيعة التي تعتقد بأحقية أهل البيت في الإمامة على باقي الصحابة، بمن فـيهم الشيخان – رضي الله عنهما -، على أن هذه الإمامة ركن من أركان الدين بنص النبي صـلى الله عليـه وسـلم. ويشمل، أيضاً، كل من يقول بالبداء والرجعة والغيبة والتولي والتبري إلا في حالة التقية. ويرجع العلماء سبب التسمية لرفضهم إمامة الشيخين وأكثر الصحابة، وقد أطلق عليهم هذا الاسم بعد رفضهم إمامة زيد بن علي، وتفرقهم عنه؛ لعدم موافقته على أفكارهم، وكانت تسمى من قبل الخشبية والإمامية، ومن أشهر فـرقهم الاثناعـشرية". انظـر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٥٩/٢ .

3 - الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣٥٥/١- ٣٥٩، ويقصد ‌ ذه الأمور الثلاثة هو ما ذكره قبل ذلك من أفعالهم فقال: " بكتمان ما وجدوا السبيل إلى كتمانه وما غلبوا عن كتمانه حرفوا لفظه عن ما هو عليه وما عجـزوا عـن تحريف لفظه حرفوا معناه بالتأويل" ذكره قبل الكلام السابق، فالأمور الثلاثة هي الكتمان فإن لم يستطيعوا فتحريف النص، فإن لم يستطيعوا فتحريف المعنى.

4 - انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب بن علي عواجي: ‎/٢٣١.

5 - الأنوار النعمانية: ٩٧/١، نقلاً عن: الشيعة الإثناعشرية وتحريف القرآن، محمد مال الله، ص: (١١).

ولهم في ذلك روايات، فيروي الكليني(1) عن أحدهم: "قَالَ دخلْت علَى أَبِي عبد الله (عليه السلام) فَقُلْت لَه جعلْت فداك إني أسأَلُك عن مسأَلة هاهنا أَحد يسمع كَلامي قَالَ فَرفَع أَبو عبد الله (عليه السلام) ستراً بينه و بين بيت آخر فَاطَّلَع فيه ثُم قَالَ يا أَبا محمد سلْ عما بدا لَك قَالَ قُلْت جعلْت فداك إِن شيعتك يتحدثُونَ أَن رســولَ الله (صلى الله عليه وآله) علم علياً (عليه السلام) باباً يفْتح لَه منه أَلْف بابٍ قَالَ فَقَالَ يا أَبا محمد علم رســولُ الله (صلى الله عليه وآله) علياً (عليه السلام) أَلْف بابٍ يفْتح من كُل بابٍ أَلْف بابٍ قَالَ قُلْت هذَا و الله الْعلْم قَالَ فَنكَت ساعةً في الأَرضِ ثُم قَالَ إِنه لَعلْم و ما هو بِذَاك قَالَ ثُم قَالَ يا أَبا محمد و إِن عندنا الْجامعةَ و ما يدرِيهم ما الْجامعةُ قَالَ قُلْت جعلْت فداك و ما الْجامعةُ قَالَ صحيفَةٌ طُولُها سبعونَ ذراعاً بِذراعِ رســولِ الله (صلى الله عليه وآله) و إِملائه من فَلْقِ فيه و خط علي بِيمينِه فيها كُل حلالٍ و حرامٍ و كُل شيءٍ يحتاج الناس إِلَيه حتى الأَرش في الْخدشِ و ضرب بِيده إِلَي فَقَالَ تأْذَنُ لي يا أَبا محمد قَالَ قُلْت جعلْت فداك إِنما أَنا لَك فَاصنع ما شئْت قَالَ فَغمزنِي بِيده و قَالَ حتى أَرش هذَا كَأَنه مغضب قَالَ قُلْت هذَا و الله الْعلْم قَالَ إِنه لَعلْم و لَيس بِذَاك ثُم سكَت ساعةً ثُم قَالَ و إِن عندنا الْجفْر و ما يدرِيهم ما الْجفْر قَالَ قُلْت و ما الْجفْر قَالَ وِعاءٌ من أَدمٍ فيه علْم النبِيــين و الْوصيــين و علْم الْعلَماءِ الذين مضوا من بنِي إِسرائيلَ قَالَ قُلْت إِن هذَا هو الْعلْم قَالَ إِنه لَعلْم و لَيس بِذَاك ثُم سكَت ساعةً ثُم قَالَ و إِن عندنا لَمصحف فَاطمةَ (عليها السلام) و ما يدرِيهم ما مصحف فَاطمةَ (عليها السلام) قَالَ قُلْت و ما مصحف فَاطمةَ (عليها السلام) قَالَ مصحف فيه مثْلُ قُرآنِكُم هذَا ثَلاثَ مرات و الله ما فيه من قُرآنِكُم حرف واحد"[2]، وهذه الرواية يزعمون أنه يقول فيها: إن عند آل البيت ثلاثة أسفار ليست عند بقية المســلمين: الجامعة والجفر(3) ومصحف فاطمة، وهذا المصحف هو من القرآن وليس من القرآن الذي بين أيدي المســلمين، وما هذا القرآن الذي عند المســلمين إلا ما يساوي ثلث المصحف المنســوب إلى فاطمة، ولكن أين هذا المصحف لم يظهر كل هذه

(1) هو شيخ الشيعة وعالم الإمامية صاحب التصانيف أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي الكليني، ويعتمد كتابــه: (الكافي في الأصول) على الأحاديث الموضوعة على الرسول ﷺ والآثار المكذوبة عن الصحابة، وكان ببغداد و ــا توفي وقبره مشهور، مات سنة ٣٢٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء: ٢٨٠/١٥ .

(2) الكافي في الأصول، للكليني: ٢٣٩/١.

(3) "الجفر: أحد ركائز المعتقدات الباطنية، إذ يطلق عندهم على علم من العلوم الغيبية المبنية على أسرار الحــروف، ومنها ما يستدل على الحوادث المستقبلية حتى قيام الساعة ويدعي المشتغلون به كذبا و تانا أنه علم أسره النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأمره بتدوينه، فكتبه الإمام حروفاً متفرقة، أخــذه جعفــر الصادق عنه". انظر: الموســوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٣٧/٢ .

السـنين المتطاولة، وبغض النظر عن سـند هذه الرواية، أليست هذه الرواية تعارض قول الله تبارك وتعالى: (إِنا نحن نزلْنا الذكْر وإِنا لَه لَحافظُونَ)[1]، وما عارض القرآن كان خطأً بلا شك، فعلم أن هذا الذي يدعونه إنما هو من تلفيقهم وكذ م؛ فلو كان هذا الذي يدعونه من القرآن لحفظه الله عز وجل بنص القرآن.

ويروي الكليني عن جعفر _ رحمه الله _ أنه قال: "ما ادعى أحد من الناسِ أنه جمع الْقُرآنَ كُله كما أُنزِلَ إلا كذاب و ما جمعه و حفظَه كما نزلَه الله تعالَى إلا علي بن أَبِي طَالبٍ (عليه السلام) و الأَئمةُ من بعده (عليهم السلام)"[2]، فهل حفظه الله لعلي وحده، أم أنزله ليكون حجة على خلقه إلى يوم القيامة، وما فائدة هذا القرآن الذي أنزل على الثقلين ولا يعلمه إلا رجل من الإنس، ثم يخفى على كل الناس من بعده، وكلما سأل الناس عن بقية القرآن أجيبوا بأ م لا يعلمون من القرآن إلا ثلثه، والباقي حفظه الله لكنه عند علي والأوصياء من بعده.

ولكي نعرف المزيد عن هذا المصحف المزعوم يروي الكليني رواية أخرى عن حماد بنِ عثْمانَ قَالَ"سمعت أَبا عبد الله (عليه السلام) يقُولُ تظْهر الزنادقَةُ في سـنة ثَمان و عشرِين و مائَة و ذَلك أَني نظَرت في مصحف فَاطمةَ (عليها السلام) قَالَ قُلْت و ما مصحف فَاطمةَ قَالَ إِن الله تعالَى لَما قَبض نبِيه (صلى الله عليه وآله) دخلَ علَى فَاطمةَ (عليها السلام) من وفَاته من الْحزن ما لا يعلَمه إِلا الله عز و جل فَأَرسلَ الله إِلَيها ملَكاً يسلي غَمها و يحدثُها فَشكَت ذَلك إِلَى أَميرِ الْمؤمنِين (عليه السلام) فَقَالَ إِذَا أَحسست بِذَلك و سمعت الصوت قُولي لي فَأَعلَمته بِذَلك فَجعلَ أَمير الْمؤمنِين (عليه السلام) يكْتب كُلَ ما سمع حتى أَثْبت من ذَلك مصحفاً قَالَ ثُم قَالَ أَما إِنه لَيس فيه شيءٌ من الْحلَالِ و الْحرامِ و لَكن فيه علْم ما يكُونُ"[3]، ولكن أين هذا المصحف ولماذا لم يظهره علي رضي الله عنه وقت خلافته.

ويذكر علي بن إبراهيم القمي الشيعي في تفسـيره بعض التحريفات للقرآن الكريم، منها: "قرأ قارئ قوله تعالى: ((كنتم خير أمة خرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[4]، فقال أبو عبد الله عليه السلام لقارئ هذه الآية: (خير أمة) يقتلون أمير المؤمنين والحسـن والحسـين بن علي عليهم السلام ؟ فقيل له: وكيف

(1) سـورة: (الحجر:٩).
(2) الكافي في الأصول، للكليني: ٢٢٨/١.
(3) الكافي في الأصول، للكليني: ٢٤٠/١.
(٤) آل عمران: (١١٠).

نزلت يا ابن رسـول الله؟ فقال: إنما نزلت: ((كنتم خير أئمة أخرجت للناس)) ألا ترى مدح الله لهم في آخر الآية ((تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)) ومثله آية قرئت على أبي عبد الله عليـه السلام: ((الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما [١])) فقال أبو عبد الله عليه السلام: لقد سألوا الله عظيما أن يجعلهم للمتقين إماما. فقيل له: يا ابن رسـول الله كيف نزلت ؟ فقال: إنما نزلت: (الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعل لنا من المتقين إماما)) وقوله: ((له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله [٢])) فقال أبو عبد الله: كيف يحفظ الشيء من أمر الله وكيف يكون المعقب من بين يديه فقيل له: وكيف ذلك يا ابن رسـول الله ؟ فقال: إنما نزلت ((له معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله)"[3].

إن اليهود لما اخترعوا بعض الكلام من عند أنفسهم فقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله، لم تكن إضافتهم سـوى تحريف لما جاء في التوراة، ولم ينسبوا إلى التوراة أضعافها كما فعلت الرافضة، فكان هؤلاء شر سلف لشر خلف، ولقد تعدى فعلهم فعل اليهود الذين هم أساتذة التحريف للنصوص.

ومن هؤلاء المحرفين لنص القرآن: الباطنية ومنهم القرامطة الذين ذكرهم الإمام ابن القيم رحمه الله آنفاً، وهم أصحاب "حركة باطنية هدامة تنتسب إلى شخص اسمه حمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط لقصر قامته وساقيه وهو من خوزستان في الأهواز ثم رحل إلى الكوفة. وقد اعتمدت هذه الحركة التنظيم السري العسكري، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية"[4]، ومنها تتفرع بعض الفرق الباطنية في العصر الحديث، وعلى منوالهم درج البابية البهائية والقاديانية.

---

(١) الفرقان: (٧٤).

(٢) سورة الرعـد، الآية: (١٠).

(3) تفسـير القمي:٣٦/١، نقلاً عن الشيعة الإثناعشرية وتحريف القرآن، محمد مال الله، ص: (٨-٩).

(4) انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٣٧٨/١

والبهائية حركة نبعت من المذهب الشيخي[1] سـنة ١٢٦٠هـ[٢]، وهي تطور عـن البابية، التي أسسها الميرزا علي محمد رضا الشيرازي (١٢٣٥_١٢٦٦هـ)[٣]، وهو الملقـب بالباب الشيرازي، وممن أكمل مسـيرة البهائية: حسـين بن علي المازندراني، والذي لقب بعد ذلك بـ (اء الله)، وادعى نسخ الشريعة الإسلامية[٤]، وادعى النبوة بعد ذلك، ووصل بعد ذلك إلى ادعاء الربوبية[5]، ومن تعليمات البهائية:-

١. وحدة الأديان.
٢. وحدة الأوطان.
٣. وحدة اللغة.
٤. السلام العالمي، أو ترك الحروب.
٥. مساواة الرجال بالنساء[٦].

ويدعي الشيرازي بأن عنده مصحف يسمى البيان أوحاه الله إليه وهو أفضل من القرآن[٧] وناسخ له[٨]، وفيه يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بحرف من مثله، فيقول فيه _ بعبارة غاية في العجمة _: "إنا قد جعلناك جليلاً للجاللين وإنا قد جعلناك به عظيماً عظيماناً للعاظمين وإنا قد جعلناك نوراً نوراناً للنورين قد جعلناك رحماناً رحيماً للراحمين وإنا قد جعلناك تميماً للتامين _ إلى أن يقول _: قل إنا قد جعلناك مليكاناً مليكاً للمالكين قل إنا قد جعلناك علينأ علياً للعالين قل إنا قد جعلناك بشراناً بشيراً للباشرين"[٩].

وقال متحدياً الإنس والجن على أن يأتوا بحرف منه: "يوم نكشف الساق عن ساقهم ينظرون إلى الرحمن وذكره في الأرض المحشر قريباً: فيقولون ياليتنا اتخذنا مع الباب سبيلاً إمامكم هذا كتابي قد كان من عند الله في أم الكتاب بالحق على الحق مشهود لو

---

(1) "الشيخية: أحد إفرازات الشيعة الاثني عشرية المنسـوبة إلى زعيمها الباطني المدعو: الشيخ أحمد زيـن الـدين الأحسائي البحراني المولود بإحدى قرى الأحساء في شهر رجب سـنة ١١٦٦هـ والمتوفى في ١٢٤١ هـ والمدفون بالبقيع"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٨٣/٢.

2 - انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٤٠٩/١.

3 - انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٤٠٩/١.

4 - انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب بن علي عواجي: ١ /٤٢٢.

5 - انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها: ١ /٤٧٥.

(6) انظر: البهائية، نقد وتحليل، تأليف: الأستاذ: إحسان إلهي ظهير (رحمه الله)، ص: (٩٢).

٧ - انظر: البابية عرض ونقد، الأستاذ: إحسان إلهي ظهير، ص: (١٠٤).

٨ - انظر: مفتاح باب الأبواب، ص: (١٣٨)، نقلاً عن: البابية عرض ونقد، الأستاذ: إحسان إلهـي ظهـير، ص: (١٠٤).

9 - انظر مفتاح باب الأبواب، ص: (٢٨٢)، نقلاً عن حقيقة البابية والبهائية، لمحسن عبد الحميد، ص: (٩٩).

اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب بالحق على أن يستطيعوا ولو كان أهل الأرض ومثلهم معهم على الحق ظهيراً فوربك الحق لن يقدروا بمثل بعض من حروفه ولا على تأويلاته من بعض السرقطميراً"[1].

كما أن المازندراني تبع الشيرازي في دعوى النبوة، فإنه لم تفته دعوى إنزال الله عليه كتاباً مثل الشيرازي، فلفق كتابه: (الأقدس)، جاء فيه بدعاوى غريبة، حتى ادعى فيه بعض خصائص الربوبية، يقول في كتابه: "يا ملاء البيان إنا دخلنا مكتب الله إذا أنتم راقدون ولاحظنا اللوح إذ أنتم نائمون تالله الحق قد قرأناه قبل نزوله وأنتم غافلون"[2]، ويقول في بيانه لمنـزلة كتابه: "لا تحسبن أنا أنزلنا لكم الأحكام بل فتحنا ختم الرحيق المختوم بأصابع القدرة والاقتدار يشهد بذلك ما نزل من قلم الوحي تفكروا يا أولي الأفكار"[3]، ويقول: "من يقرأ آية من آياتي لخير له من أن يقرأ كتب الأولين والآخرين هذا بيان الرحـمن[4] إن أنتم من السامعين قل هذا حق العلم لو أنتم من العارفين"[5].

فسبحان الذي حفظ كتابه عن مثل هذه الكلمات التافهة وجعله في صيانة عن أيدي العابثين وتحدى بحق فلم يحاول العرب الأقحاح من أهل الشعر الفصيح، من رثاء ومديح أن يأتوا بمثله، حتى انبهر أمام ذلك الإعجاز، أصحاب عكاظ وذي مجاز[6].

فهذه محاولات في العصر الحديث لتحريف القرآن تشـبه أصحا ا بأساتذة التحريف من اليهود، فلربما غلا بعضهم حتى غلب أستاذه في التحريف، ولا غرو فقد تشـبهوا م في الانحطاط وقسـوة القلوب، وقد قال الله عن اليهود: (ثُم قَست قُلُوبكُم من بعد ذَلك فَهي كَالْحجارة أَو أَشد قَسـوةً)[7]، فزاد هؤلاء المغرضين على ما افتراه

1 - انظر تاريخ البابية، د. ميرزا محمد مهدي خان، ص: (٣٠٩)، نقلاً عن: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسـلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب بن علي عواجي، ص: (٤١٧).

2 - الأقدس للمازندراني، ص: (١٨٢)، نقلاً عن فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منـها، لغالب بن علي عواجي: ١ /٤٧٥.

(3) الأقدس للمازندراني، ص: (١٤١)، نقلاً عن فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منـها، لغالب بن علي عواجي: ١ /٤٧٥.

(4) يقصد نفسه، انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب بن علـي عـواجي: ١ /٤٧٥.

5 - الأقدس للمازندراني، ص: (١٧٣)، نقلاً عن فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منـها، لغالب بن علي عواجي: ١ /٤٧٦.

6 - أسـواق للعرب في الجاهلية كانت تلقى فيها قصائد أفصح أنواع الشعر كالمعلقات وغيرها.

(7) سـورة: (البقرة: من الآية٧٤).

اليهود من التحريف في التوراة، حتى ادعى الواحد منهم قرآناً وفضله على كلام الله، وقال الله: (ومن أظْلَم ممن افْترى علَى الله كذباً أَو قَالَ أُوحي إِلَي ولَم يوح إِلَيه شيءٌ ومن قَالَ سأُنزِلُ مثْلَ ما أَنزلَ الله ولَو ترى إِذ الظالمونَ في غَمرات الْموت والْملائكَةُ باسطُو أَيديهِم أَخرِجوا أَنفُسكُم الْيوم تجزونَ عذَاب الْهون بِما كُنتم تقُولُونَ علَى الله غَير الْحق وكُنتم عن آياته تستكْبِرونَ)[1].

وأما الجهمية فلم أقف على تحريف لهم في نصوص القرآن في العصر الحديث، ولكن إنما وقع تحريفهم للقرآن من جهة المعنى، وسـيأتي، ولكن ذكر ابن كثير _ رحمه الله _ رواية لأحدهم حاول أن يحرف شيئاً من القرآن ليتناسق مع اعتقاده وهو من المعتزلة[2]، قال ابن كثير: "وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ وكلم اللهَ موسى تكليماً فقال له يا ابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى: (ولَما جاءَ موسى لميقَاتنا وكَلَّمه ربه)[3] يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل"[4]، ومحاولة التحريف من هذا القارئ إنما كانت لاعتقاده أن وصف الله بالكلام تشبيه له بالمخلوق، أو لنفي تعدد القدماء، وهذا مبني على لوثة كلامية[5]، وكفى بالآية التي استشهد ا هذا الشيخ دليلاً على خطأ هذا المسلك.

---

1 - سـورة: (الأنعام:٩٣)، روى الطبري عن عكرمة: "(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء) قال نزلت في مسـيلمة أخي بني عدي بن حنيفة فيما كان يسجع ويتكهن به، (ومـن قـال سأنزل مثل ما أنزل الله)، نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخي بني عامر بن لؤي كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وكان فيما يملي عزيز حكيم فيكتب غفور رحيم فيغيره ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حـول فيقـول نعـم سـواء فرجع عن الإسلام ولحق بقريش وقال لهم لقد كان ينـزل عليه عزيز حكيم فأحوله ثم أقول لما أكتب فيقول نعم سـواء ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة"، انظر: تفسـير الطبري: ٢٧٣/٧.

(2) فالمعتزلة جهمية في الصفات.

(3) سـورة: (الأعراف: من الآية١٤٣).

(4) تفسـير ابن كثير: ٥٨٩/١

(5) انظر: مطلب: علم الكلام أصوله وآثاره في العصر الحديث، من نفس هذه الرسالة.

المطلب الثاني: تحريف المعاني:-

ومما يدخل في مسمى التحريف: تحريف المعاني[1]، والذي يسـمى بتحريف التأويل[2]، وهو: صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى معنى آخر مرجوح بقرينة تدل عليه[3]، وهذا النوع من التأويل لا يعتبر تحريفاً إلا باعتبار كون القرينة التي أول اللفظ من أجلها غير صحيحة، فإن كانت صحيحة لم يكن تحريفاً[4].

وكما أن الله تبارك وتعالى وعد بحفظ نص كتابه فقال: (إنا نحن نزلْنا الذكْر وإنا لَه لَحافظُونَ)[5]، فقد توعد ببيان معاني كتابه كذلك فلا يستطيع أحد أن يمنع بيا ا الحقيقي الذي يرضاه الله عز وجل، قال تعالى: (ثُم إن علَينا بيانه)[6]، قال ابن كثير: "قال ابن عباس وعطية العوفي ثم إن علينا بيانه: تبيـين حلاله وحرامه وكذا قال قتادة"[7].

وتختلف الأفهام في تفسـير كلام الله تعالى، وهنا يكمن السؤال: أي فهم منها هو الفهم الصحيح؟ وما هي الطريقة التي يرضاها الله لنفهم كلامه الذي أنزله على رسـوله صلى الله عليه وسلم؟ والجواب الذي ينبني على التفكير السليم هو أن الذي أنزل القرآن أعلم بمراده بالقرآن فإن وجدنا في القرآن ما يفسر معناه من آيات أخرى كان أولى ما يفسر به القرآن، ثم إن الذي أُنزل عليه القرآن أعلم بمراده وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فإن لم نجد تفسـير القرآن في بعض آي القرآن وجب أن نبحث في السـنة فهي أولى ما يفسر به القرآن، ثم إن أعلم الناس بعد ذلك بمراد الله هم الصحابة الكرام، وهم الذين شاهدوا نزول القرآن وعلموا من مناسبات آياته ما لم يعلمه غيرهم من الناس، فوجب

---

(1) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢١٥/١

(2) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٨/١

3 - انظر: مجموع الفتاوى: ٥٥/٣، وأقاويل الثقات، ص: (٤٨)، وانظر: ابن تيمية وموقفه من قضية التأويـل، لمحمد السـيد الجليند، ص: (٣٤).

4 - قال شيخ الإسلام بصدد هذا الموضوع: "ويجوز باتفاق المسـلمين أن تفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخـرى ويصرف الكلام عن ظاهره إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السـنة وان سمى تأويلاً وصرفاً عن الظاهر فذلك لدلالة القرآن عليه ولموافقة السـنة والسلف عليه لأنه تفسـير للقرآن بالقرآن ليس تفسـيراً له بالرأي والمحـذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه بغـير دلالة من الله ورسـوله"، مجموع الفتاوى: ٢١/٦.

(5) سـورة: (الحجر:٩).

(6) سـورة: (القيامة:١٩).

7 - تفسـير ابن كثير: ٤٥٠/٤.

الأخذ عنهم في تفسـير ما لم نجد تفسـيره في السـنة من كلام الله تبارك وتعالى، هذا هو الترتيب العقلي الصحيح، ولا شك أنه أقرب طريق للصواب لمن أراد الحق بدون هوى، وبه قال علماء التفسـير، وأنقل هنا كلاماً جيداً للمفسر المشهور ابن كثير في مقدمة تفسـيره حيث يقول ـذا الصدد: "فإن قال قائل فما أحسـن طرق التفسـير فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسـنة فإ ا شارحة للقرآن وموضحة له بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى كل ما حكم به رسـول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى: (إنا أنزلْنا إليْك الْكتاب بِالْحق لتحكُم بين الناسِ بِما أراكَ الله ولا تكُن للْخائِنِين خصيماً)[1] وقال تعالى: (بِالْبينات والزبرِ وأنزلْنا إلَيك الذكْر لتبين للناسِ ما نزلَ إليهم ولَعلهم يتفَكرونَ)[2] وقال تعالى: (وما أنزلْنا علَيك الْكتاب إلا لتبين لَهم الذي اختلَفُوا فيه وهدى ورحمةً لقَومٍ يؤمنونَ)[3]، والغرض أنك تطلب تفسـير القرآن منه فإن لم تجده فمن السـنة، وحينئذ إذا لم نجد التفسـير في القرآن ولا في السـنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإ م أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا ا ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سـيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديـين وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم"[4]، هذه الطريقة هي التي تضمن لكل من أراد الحق أن يقف على المقصود من كلام الله أو قريباً منه دون زيغ أو هوى أو تحريف لمعنى ما أراده الله من كلامه.

ولذلك قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: "من قال في كتاب الله برأيه فأصـاب فقـد أخطأ، أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر

(1) سـورة (النساء:١٠٥).

(2) سـورة (النحل:٤٤).

(3) سـورة (النحل:٦٤).

4 - انظر: تفسـير ابن كثير: ٤/١، ولمعرفة المزيد عن هذه القضية، راجع ما كتبه شـيخ الإسـلام في مجمـوع الفتاوى: ٢٣٥/١٩، وللدكتور: محمد عمر بازمول ـ حفظه الله ـ بحث لطيف في ذلك بعنوان: الحقيقة الشرعية في تفسـير القرآن الكريم والسـنة النبوية، ذكر فيه أن الناظر في القرآن الكريم أو السـنة النبوية عليه وظيفتان: الأولى: النظر هل لهذا اللفظ الوارد في النص الشرعي حقيقة شرعية أم لا؟ فإن وجدت له حقيقة شرعية؛ تأتي الوظيفة التالية. الثانية: النظر هل هذه الحقيقة الشرعية مرادة في هذا النص أم أن هناك ما يمنع إراد ا؟ فإن لم يجد ما يمنع من الحقيقـة الشرعية في لفظ النص الذي بين يديـه؛ فسـره ا، وإلا صـار بحسب القرينة إلى المعنى العرفي أو اللغوي. انظـر: ص: (١٨) من البحث المذكور.

لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه، ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسـير ما لا علم لهم به كما قال أبو بكر الصديق ﷺ: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلـت في كتاب الله بما لا أعلم. وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قرأ على المنبر (وفَاكِهَةً وأبّاً)[1] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ثم رجع إلى نفسه فقال إن هذا لهو التكلف يـا عمـر، وعن أنس قال كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقـرأ: (وفَاكِهَةً وأبّاً) فقال ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك أن لا تدريه. وهـذا كله محمول على أنه ﷺ إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب وإلا فكونه نبتاً مـن الأرض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى: (فَأَنبتنا فيها حباً)[2]"[3].

وأكثر من اشتهر من أهل الأديان السابقة بتحريف معاني كلام الله هم اليهود، قال تعالى: (من الذين هادوا يحرفُونَ الْكَلم عن مواضعه ويقُولُونَ سمعنا وعصينا واسمع غَير مسمعٍ وراعنا لَياً بِأَلْسـنـتهم وطَعناً في الدينِ ولَو أَنهم قَالُوا سمعنا وأَطَعنا واسمع وانظُرنا لَكَانَ خيراً لَهم وأَقْوم ولَكن لَعنهم الله بِكُفْرِهم فَلا يؤمنونَ إلا قَليلاً)[4]، قال ابن جرير الطبري _ رحمه الله _: "وأما تأويل قوله: (يحرفون الكلم عن مواضعه): فإنه يقول: يبدلون معناها ويغيرو ا عن تأويله، والكلم جماع كلمة، وكان مجاهد يقول: عنى بالكلم التوراة، وأما قوله: (عن مواضعه): فإنه يعني عن أماكنه ووجوهه التي هي وجوهه"[5]، فاليهود كانوا من أوائل من حرف معاني كلام الله عز وجل، قال ابن القيم _ رحمه الله _: "والتحريف: العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره، وهو نوعان تحريف لفظه وتحريف معناه والنوعان مأخوذان من الأصل عن اليهود؛ فهم الراسخون فيهما وهم شيوخ المحرفين وسلفهم؛ فإ م حرفوا كثيراً من ألفاظ التوراة وما غلبوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه ولهذا وصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم"[6].

وممن تبعهم في ذلك من الأمم: النصارى قال ابن القيم _ رحمه الله _: "فالتأويل هو الذي فرق اليهود إحدى وسبعين فرقة والنصارى ثنتين وسبعين فرقة وهذه الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة فأما اليهود فإ م بسبب التأويلات التي استخرجوها بآرائهم من كتبهم صاروا

(1) سـورة (عبس:٣١).
(2) سـورة (عبس:٢٧).
(3) انظر: تفسـير القرآن العظيم: ٦/١.
(4) سـورة (النساء:٤٦).
5 - انظر: تفسـير الطبري: ١١٨/٥.
6 - الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢١٥/١- ٢١٦

فرقاً مختلفة بعد اتفاقهم على أصل الدين والإيمان بما في التوراة والزبور وكتب أنبيائهم التي يدرسـو ا ويؤمنون ا وبسبب التأويلات الباطلة مسخوا قردة وخنازير وجرى عليهم من الفتن والمحن ما قصه الله وبالتأويل الباطل عبدوا العجل حتى آل أمرهم إلى ما آل وبالتأويل الباطل فارقوا حكم التوراة واستحلوا المحارم وارتكبوا المآثم فهم أئمة التأويل والتحريف والتبديل والناس لهم فيه تبع فلا تبلغ فرقة مبلغهم فيه وبالتأويل استحلوا محارم الله بأقل الحيل وبالتأويل قتلوا الأنبياء فإ م قتلوهم وهم مصدقون بالتوراة وبموسى وبالتأويل والتحريف حلت م المثلات وتتابعت عليهم العقوبات وقطعوا في الأرض أمما وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله وبالتأويل دفعوا نبوة عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وقد استهلت التوراة وكتب الأنبياء بالبشارة ما وظهورهما ولا سـيما البشارات بمحمد فإ ا متظاهرة في كتبهم بحيث كان علماؤهم لما رأوه وشاهدوه عرفوه معرفتهم أبناءهم ومع هذا فسطوا على تلك البشارات بكتمان ما وجدوا السبيل إلى كتمانه وما غلبوا عن كتمانه حرفوا لفظه عن ما هو عليه وما عجزوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه بالتأويل، وكانت حالهم فيما جنت عليهم التأويلات الباطلة أفسد حالا من اليهود؛ فإ م لم يصلوا بتأويلهم إلى ما وصل إليه عباد الصليب من نسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به ثم دفعوا بالتأويلات إلى إبطال شرائع التوراة فأبطلوا الختان واستحلوا السبت واستباحوا الخ ير وعطلوا الغسل من الجنابة حتى آل أمرهم إلى ما آل إليه من انسلاخهم عن شريعة المسـيح في التوحيد والعمليات"[(1)]، ما سبق من كلام ابن القيم هو بعض ما وقع فيه أهل الكتاب من معصية الله وتحريف دين الله؛ من جراء التأويل الفاسد[(2)].

وكما أن تحريف الألفاظ قد سبقت إليه ثلاث طوائف وهم الرافضة والقرامطة والجهمية، فإن هذه الفرق الثلاث كان لها أكبر الأثر في نشر فكرة التأويل الفاسد، وذلك بتحريف معاني كلام الله وكلام رسـوله صلى الله عليه وسلم، ومن تبعهم من الفرق التي شاركتهم بعد ذلك في قضية تحريف المعاني قد أخذوا عنهم وساروا على منوالهم، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: "ودرج الرافضة على آثار اليهود؛ فهم أشبه م من القذة بالقذة والجهمية فإ م سلكوا في تحريف النصوص الواردة في الصفات مسالك إخوا م من اليهود ولما لم يتمكنوا من تحريف نصوص القرآن حرفوا معانيه وسطوا عليها وفتحوا باب التأويل

(1) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣٥٥/١- ٣٥٩

(2) واقرأ للاستـزادة من الكلام في تأويلات النصارى: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسـيح، لشيخ الإسلام: ١٦٩/٢، وإظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي: ٧٥١/٣، والرد على القائلين بوحدة الوجود، لعلي بـن سـلطان الهروي المكي الحنفي، ص: (٤٦).

لكل ملحد يكيد الدين فإنه جاء فوجد باباً مفتوحاً وطريقاً مسلوكة ولم يمكنهم أن يخرجوه من باب أو يردوه من طريق قد شاركوه فيها وإن كان الملحد قد وسع باباً هم فتحوه وطريقاً هم اشتقوه"[1].

فكل من حرف معاني كلام الله وكلام رسـوله ﷺ وأوله تأويلاً باطنياً ليس له أي صلة بلغة العرب وقد اتضح فيه نصيب الهوى: فيه شبه من القرامطة الباطنية[٢]، كالنصيرية والدروز والزنادقة وغيرهم، ومن حرف المعاني مجاراة للأهواء الفاسدة والعقائد المختلقة من الأديان السالفة، الشرقية منها على وجه الخصوص كالعقائد الهندية والفارسـية، وتستر بحب آل البيت ففيه شبه من الرافضة، كالصوفية وغيرهم، وكل من حرف المعاني بسبب مجاراة العقائد الفلسفية اليونانية والمنطق الأرسطي فيه شبه من الجهمية، كالمعتزلة والماتريدية وغيرهم.

وكل أولئك قد تشـبهوا بالأساتذة الأُول _ من اليهود _ الذين رسموا المنهج وساروا في ركب الشيطان ليقتدي م إخوا م من النصارى، ومن رغب في حالهم ومآلهم، ومن تشـبه بقوم فهو منهم.

فالباطنية ومنهم النصيرية[٣] والدروز[٤] جاءوا بتأويلات للقرآن تعد تحريفاً خطيراً لمعانيه، فمن تحريفات النصيرية أ م يزعمون أن الصلاة التي ورد ذكرها في القرآن ما هي إلا عبارة عن خمسة أسماء هي: علي وحسـن وحسـين ومحسـن وفاطمة و(محسـن) هذا هو: (السر الخفي) إذ يزعمون بأنه سقط طرحته فاطمة، وذكر هذه الأسماء يجزئ عن الغسل والجنابة والوضوء، كما يزعمون أن الصيام: هو حفظ السر المتعلق بثلاثين رجلاً

(1) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢١٥/١- ٢١٦

(2) "الباطنية: هي تلك الفرقة المتسترة بالتشيع وحب آل البيت للوصول إلى الناس مع إبطان الكفر المحض، وقـد خلطت بين التصوف والفلسـفة، وسميت بذلك؛ لأ ا ترى أن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنـزيل تـأويلا. ويقـصد بالظاهر ما جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، ويسمى بالتنـزيل، ويقصد بالباطن علم التأويل الخاص بعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه – لب الدعوة عندهم، ولذلك فمن عرف عندهم معنى العبادة سقط عنه فرضها"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة:٩٨١/٢ .

3 - "النصيرية حركة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، أصحا ا يعدون من غلاة الشيعة الـذين زعمـوا وجوداً إلهياً في علي وألهوه به، مقصدهم هدم الإسلام ونقض عراه وهم مع كل غاز لأرض المسـلمين، ولقد أطلق عليهم الاستعمار الفرنسـي لسـوريا اسم العلويـين تمويهاً وتغطية لحقيقتهم الرافضية والباطنيـة"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٣٩٠/١

(4) "هي فرقة باطنية تؤله الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، وهي تنتسب إلى نشتكين الـدرزي، نشأت في مصر لكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أ ا تؤمن بسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس، ولا تعلمها لأبنائها إلا إذا بلغوا سـن الأربعين"، انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٣٩٧/١

وثلاثين امرأة عندهم، وأن الزكاة ما هي إلا رمز لشخصية سلمان الفارسـي[1]، وأما الدروز فيرون أن لفظ الفحشاء والمنكر في القرآن الكريم وفي غيره تعني: أبا بكر وعمر[2]، هكذا يفسرون كلام الله كما تشاء أهواؤهم وأحقادهم وما ذلك إلا لإرادة هدم الدين، ولا تزال هذه الفرق الباطنية تعتقد ما سطره لها أسلافها من هذه التأويلات الشنيعة.

ومن شارك في تحريف معاني القرآن: (البابية والبهائية)، يقول الباب[٣] مفسراً لسبب تحريفه لمعاني القرآن: (إن الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة في الزمن الأول، فعوقبت بخطيئتها بأن قيدت بسلاسل الإعراب، وحيث أن بعثتنا جاءت رحمة للعالمين؛ فقد حصل العفو عن جميع المذنبـين والمخطئين حتى الحروف والكلمات، فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث تشاء من وجوه اللحن والغلط)[٤].

وأما الرافضة فقد أولوا الكثير من الآيات بأهوائهم، وخاصة ما يتعلق منها بالصحابة الكرام، فإنه لما لم يأت في القرآن ولا في السـنة سـوى مدحهم والثناء عليهم أرادوا أن يسـيئوا إليهم عن طريق تحريف معاني القرآن ففسروا بعض الآيات على هذا الأساس، ومنها قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر)[٥] يفسرو ا بأن أئمة الكفر هم طلحة والزبير[٦]، ويفسرون الجبت والطاغوت الوارد في قوله سبحانه (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت..) [٧]., يفسرو ما بصاحبي رسـول الله صلى الله عليه وسلم وخليفتيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما [٨]، ويفسرون الفحشاء والمنكر، في قوله (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) [٩] بولاية أبي بكر وعمر وعثمان[١٠]، وهذه التأويلات التي انبنت على عقيدة العداء لبعض الصحابة عند الرافضة، لا تزال متبعة حتى العصر الحديث.

---

(1) انظر الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٣٩٣/١.
(2) انظر الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٣٩٩/١.
(3) هو: الميرزا علي محمد رضا الشيرازي ١٢٣٥-١٢٦٦هـ (١٨١٩ _ ١٨٥٠ م).
(4) مفتاح باب الأبواب، د. محمد مهدي خان، ص: (٩٩)، نقلاً عن كتاب حقيقة البابية والبهائيـة – محـسـن عبدالحميد ص: (٨٠).
٥ - التوبة: آية ١٢.
٦ - انظر: تفسـير العياشي: (٨٣/٢)، وتفسـير الصافي: (٣٢٤/٢).
٧ - النساء: آية ٥١.
٨ - انظر: تفسـير العياشي: (٢٧٣/١)، وتفسـير الصافي: (٤٥٩/١).
٩ - النحل: الآية ٩٠.
١٠ - تفسـير العياشي: (٢٨٩/٢)، وتفسـير الصافي: ١٥١/٣.

ومن وقع في تحريف معاني القرآن الكريم: من تأثر بالمنهج العقلاني الأوروبي، وأضرب على ذلك بمثال واحد _ منعاً للإطالة _: يرى الجنرال سـياد بري[1] أن القرآن الكـريم يخضع للتغيرات الاجتماعية ويسايرها، ويستدل على ذلك – على حد زعمـه – بوجـود التفاوت بين أنصبة الرجل والمرأة في الميراث، ويعلل ذلك بمسايرة الأوضاع الـتي كانـت سائدة آنذاك؛ والتي كان وأد البنات خشية الإملاق متفشياً بين العرب في تلك الفترة، ولهذا جاء تشريع هذا التفاوت بين أنصبة الرجل وأنصبة المرأة في الميراث إرضاءً للطرفين، وتحقيقاً لمصلحة الجانبـين، فهو من جهة فيه إرضاءٌ للرجل بأنه أفضل من البنت، وأ ا لن تزاحمـه في الميراث، وبالتالي فإن ذلك سـيصرفه عن قتل أخته، وهو من الجهة الأخرى فيه مصلحة للبنت بحفظ حيا ا وحمايتها من القتل من الرجال، وإذا تغيرت هذه الأوضاع وترك الناس عادة وأد البنات استنفذ تشريع التفاوت في الميراث أغراضه، وحان وقت تشريع المـساواة الكاملة بين الرجل والمرأة. ثم يضيف قائلاً: "إننا نجد في القرآن كما تعلمون أن خمـسـين بالمئة من الآيات القرآنية منسـوخة أو متناقضة مع آيات أخرى، وإذا لم تكن التطـورات الاجتماعية هي السبب الأساسـي كما ذكرت؛ إذاً فما هو نسخ آية بآيـة أخـرى"[2]، وليس هذا هو موضع الرد المفصل على هذه الشبهات غير أنه يكفي أن هذه القاعدة الـتي قررها هذا الرجل لم يسبقه إليها أحد من أهل العلم، لا سـيما وأن تطبيقا ا التي مثل ـ ا يظهر التأثر فيها بالغرب جلياً واضحاً، فإن عقدة المساواة بين الرجل والمرأة شغلت الغرب كثيراً ومع ذلك لم يتوصلوا إلى حل أفضل من الحل الإسلامي.

وأما المتكلمون فإ م تأولوا بعض الآيات التي ورد فيها وصف الله عز وجل بصفات يرون أن إثبا ا ينافي المسلمات العقلية، ويقصدون بالمسلمات العقلية تلك الحجج المنطقية اليونانية التي أثبتوا ا وجود الخالق، ثم طردوا على أساسها إثبا م لصفات الخالق التي تتناسق مع تلك المسلمات المنطقية، وما تعارض معها من صفات الباري المثبتة في القرآن أولوه بدعوى تعارض العقل مع النقل.

بل أسس الرازي قانوناً يسـير عليه المتكلمون قال فيه: "إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية أو السمع والعقل أو النقل والعقل أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية أو نحو ذلك من العبارات، فإما أن يجمع بينهما وهو محال؛ لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن

(1) رئيس الصومال السابق.

(2) انظر: الصومال وجذور المأساة الراهنة، د. علي الشيخ أبو بكر ص: (١٢٦).

يردا جميعاً، وإما أن يقدم السمع وهو محال؛ لأن العقل أصل النقل فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل والقدح في أصل الشيء قدح فيه فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، فوجب تقديم العقل ثم النقل إما أن يتأول وإما أن يفوض"[1]، وذلك لأ م لم يتوصلوا إلى صدق القرآن والرسـول إلا بعد ما توصلوا إلى وجود الخالق عن طريق المقدمات المنطقية التي كانت هي السبيل الوحيد إلى معرفة الحق عندهم، حتى إنه إذا تعارض معها القرآن وجب تأويله أو تفويضه.

هذا غيض من فيض والمصاب الجلل أن تستمر عجلة التأويل في **الدوران إلى عصرنا الحديث لتنحى منحى أكاديمياً، مع غض الطرف عن أصل علم الكلام، وعن آثاره على آيات القرآن؛ فالأصل من اليونان والأثر هو تأويل آي القرآن[2].**

(1) أساس التقديس للرازي:، نقلاً عن درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/١.

(2) انظر: مطلب علم الكلام، أصوله وآثاره في العصر الحديث.

المبحث الخامس: مظاهر التشبه بالكفار في جانب النبوات

المطلب الأول: إطراء النبي ﷺ والاستغاثة به:-

الإطراء هو: مجاوزةُ الحد في المدح والكذب فيه[1]، فالإطراء يكون بالأوصاف الزائدة على ما يستحقه الإنسان من المدح، وأما ما كان من الأوصاف منطبقاً على الموصوف فلا بأس به، وذلك كوصف النبي ﷺ بما يليق به مما وصفه الله تعالى به، وما وصف به نفسه ﷺ، فقد وصفه الله تعالى بأنه خاتم الأنبياء، فقال: (ولَكن رسولَ الله وخاتم النبيين)[٢]، ووصفه بأنه سراج منير، فقال تعالى: (وداعياً إلى الله بإذْنِه وسراجاً منيراً)[٣]، ووصف خلقه بأنه خلق عظيم، فقال: (وإنك لَعلَى خلُقٍ عظيمٍ)[٤]، ووصفه بأنه أولى الناس بإبراهيم، فقال: (إن أولَى الناس بِإبراهيم لَلذين اتبعوه وهذَا النبِي والذين آمنوا والله ولي الْمؤمنِين)[٥]، وجعل الغضب وحبوط العمل على من رفع صوته بجواره فقال: (يا أيها الذين آمنوا لا ترفَعوا أَصواتكُم فَوق صوت النبِي ولا تجهروا لَه بِالْقَولِ كَجهرِ بعضكُم لبعضٍ أَنْ تحبطَ أَعمالُكُم وأَنتم لا تشعرونَ)[٦].

وكما وصف النبي ﷺ نفسه بأنه سيد ولد آدم كما روى عنه أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة))[7]، وكما سمى نفسه ﷺ بأسماء

---

(1) انظر: النهاية في غريب الحديث: ١٢٣/٣، ولسان العرب: ٦/١٥.
(2) سورة: (الأحزاب: من الآية ٤٠).
(3) سورة: (الأحزاب:٤٦).
(4) سورة: (القلم:٤).
(5) سورة: (آل عمران:٦٨).
(6) سورة: (الحجرات:٢).
7 - صحيح مسلم: ١٧٨٢/٤، برقم: (2278).

حســنة فقال ﷺ: ((لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب))(1).

وكما أن للنبي ﷺ أوصافاً لا ينبغي تعديها بوصفه بما ليس من صفاته مما فيه إطراء وغلو فيه، فكذلك له حقوق ينبغي أن تؤدى إليه من غير زيادة ولا نقصان؛ تجنباً للغلو والإطراء فمن حقوقه ﷺ:-

حق محبته واحترامه، قال رسـول الله ﷺ: ((لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين))(2)، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا ترفَعوا أصواتكُم فَوق صوت النبِي ولا تجهروا لَه بِالْقَولِ كَجهرِ بعضكُم لبعضٍ أَنْ تحبطَ أعمالُكُم وأَنتم لا تشعرونَ، إن الذين يغضونَ أَصواتهم عند رسـولِ الله أُولَئك الذين امتحن الله قُلُوبهم للتقْوى لَهم مغفرةٌ وأَجر عظيم)(٣).

وحق اتباعه ﷺ واتخاذه قدوة، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنتم تحبونَ الله فَاتبِعونِي يحبِبكُم الله)(٤)، وقال: (وما أَرسلْنا من رسـولٍ إلا ليطَاع بِإِذْن الله)(٥)، وقال: (لَقَد كَانَ لَكُم في رسـولِ الله أُسـوةٌ حسـنةٌ لمن كَانَ يرجو الله والْيوم الآخر وذَكَر الله كَثيراً)(٦).

وحق الصلاة والسلام عليه كلما ذكر ﷺ؛ فقد قال ﷺ: ((البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل علي))٧.

إلى غير ذلك من أوصافه وحقوقه ﷺ الثابتة بالقرآن والسـنة، فلا تجوز مجاوزة الحد فيها بإطرائه ﷺ ووصفه بأوصاف فوق مستوى العبودية؛ حتى لا نقع فيما وقع فيه النصارى الذين تجاوزوا الحد في نبيهم عيسى ﷺ فوصفوه بأوصاف الربوبية، ولقد حذرنا النبي ﷺ من ذلك الإطراء الذي وقع فيه النصارى فقال: ((لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسـوله)) ٨، وهذا الحديث أشمل حديث في هذا الباب، وفيه أن النصارى أطرت عيسى ﷺ وكذبت في وصفه ومدحه، ورفعوه

(1) صحيح البخاري: ١٢٩٩/٣، برقم: (3339)، و صحيح مسلم: ١٨٢٨/٤، برقم: (2354).
(2) صحيح مسلم: ٦٧/١، برقم: (44).
(3) سـورة: (الحجرات٢-٣).
(4) سـورة: (آل عمران: من الآية٣١).
(5) سـورة: (النساء: من الآية ٦٤).
(6) سـورة: (الأحزاب:٢١).
7 - سـنن الترمذي: ٥٥١/٥، برقم: (3546)، وقال: هذا حديث حسـن صحيح غريب.
8 - سبق تخريجه ص: (٣٥).

فوق المستوى اللائق به، ولو أمعنا النظر في الحديث لوجدنا أن الوصف اللائق بالنبي محمد ﷺ وهو نفس الوصف اللائق بعيسى ﷺ، مذكور في الحديث؛ فإن النبي ﷺ عقب على يه عن الإطراء بوصفه لنفسه بالعبودية لله رب العالمين، كما وصفه ربه ﷻ بالرسالة، وهذا هو عين الاعتجال بالبعيد عن الإطراء والجفاء، فكان المقصود الأعظم من النهي عن الإطراء هو خوف النبي ﷺ على أمته من أن يسلكوا نفس الطريق التي سلكها النصارى مع نبيهم عيسى ﷺ حيث رفعوه وجاوزوا به منـزلة العبودية إلى منـزلة الربوبية، فجعلوه شريكاً لله في كل شيء، بل جعلوه هو الله نفسه.

ولو وجد النبي ﷺ _ وهو الذي أوتي جوامع الكلم _ تعبيراً يكبح جماح الإطراء له غير التعبير بالعبودية لله لذكره، ولكن النبي ﷺ وجد وصف العبودية لله هو خير وصف يحدد القدر اللائق به من المدح الجائز الذي لا يخرج عن حد الاعتدال.

وهو نفس الوصف الذي ارتضاه له ربه جل وعلا في أسمى المقامات وأرفعها وأشرفها، فوصفه بالعبودية في "مقام التحدي ومقام الإسراء ومقام الدعوة فقال في التحدي (وإنْ كُنتم في ريبٍ مما نزلْنا علَى عبدنا فَأتوا بِســورة من مثْله وادعوا شهداءَكُم من دون الله إنْ كُنتم صادقين)(1)، وقال في مقام الإسراء (سبحانَ الذي أسرى بِعبده لَيلاً من الْمسجِد الْحرامِ إلَى الْمسجِد الأَقْصى الذي باركْنا حولَه)(٢)، وقال في مقام الدعوة: (وأنه لَما قَام عبد الله يدعوه كَادوا يكُونونَ علَيه لبداً)(٣)، وإذا تدافع أولو العزم الشفاعة الكبرى يوم القيامة يقول المســيح لهم: ((اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر))[٤] فنال ذلك المقام بكمال العبودية لله وكمال مغفرة الله له، فأشرف صفات العبد صفة العبودية"[٥].

ولذلك دعا النبي ﷺ ربه عز وجل فقال: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد))[٦]، وما ذلك إلا من خوفه على أمته أن يفعلوا به كما فعل الناس بقبور أنبيائهم، يقول ابن القيم في نونيته:-

ولقد ى ذا الخلق عن إطرائه　　　فعل النصارى عابدي الصلبان

(1) ســورة: (البقرة:٢٣).
(2) ســورة: (الاسراء: من الآية١).
(3) ســورة: (الجــن: من الآية١٩).
4 - صحيح ابن حبان: ٣٧٧/١٤، برقم: (6464).
5 - روضة المحبين: ٥٣/١
6 - سبق تخريجه ص: (١٨٨).

ولقد انا أن نصير قبره عيداً حذار الشـرك بالرحـ ـمن
ودعا بأن لا يجعل القبر الذي قد ضمه وثناً من الأوثـان[1]

والنبي ﷺ لم يترك مظهراً من مظاهر إطرائه أو الغلو فيه إلا و ى عنه وحذر منه؛ اهتماماً منه ﷺ ذا الجانب حتى لا يوصف بشيء مما ليس من خصائصه، ولما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: ((ما هذا يا معاذ؟))، قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسـي أن نفعل ذلك بك، فقال رسـول الله ﷺ: ((فلا تفعلوا فإني لو كنت آمراً أحد أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسـجد لزوجها))[(2)]، ولما نسـي النبي ﷺ مرة في صلاة فلما سلم قيل له يا رسـول الله أحدث في الصلاة شيء؟ قال: ((وما ذاك؟))، قالوا: صليت كذا وكذا، فثنى رجليه واستقبل القبلة فسجد سجدتين ثم سلم ثم أقبل عليهم بوجهه فقال: ((إنه لو حدث في الصلاة شيء أنبأتكم به ولكن إنما أنا بشر أنسى كما تنسـون فإذا نسـيت فذكروني))[3]، فأكد على بشريته ﷺ بل أكد على ذلك بذكر لازم من لوازم البشرية وهو النسـيان الذي لا ينبغي لمقام الربوبية.

وفي باب القضاء: النبي ﷺ يقضي بين الناس بالظاهر، ولكنه لا يعلم من هو صاحب الحق الحقيقي _ ما لم يوح إليه بذلك _، فيقول ﷺ مؤكداً على ذلك: ((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وأقضي له على نحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار))[٤]، فإن النبي ﷺ في هذا الباب لا يختلف عن أحد من الناس؛ فما يقضيه إنما يكون على حسب المعطيات التي أعطيت له من المتخاصمين، فإن أخفى أحدهما شيئاً عنه فلا يعدو عن كونه يقضي في القضية بما أنزل الله، والله يتولى السرائر.

وما هذا الحرص منه ﷺ إلا خوفاً على أمته أن تقع فيما وقع فيه النصارى الذين اتخذوا عيسى إلهاً مع الله.

1 - شرح قصيدة ابن القيم، لأحمد بن إبراهيم بن عيسى، ت: (١٣٢٩هـ): ٣٥٢/٢.
(2) سـنن ابن ماجه: ٥٩٥/١، برقم: (1853)، وصححه الألباني، انظر: صحيح ابن ماجه: ٣١٢/١، بـرقم: (١٥٠٣).
3 - صحيح البخاري: ١٥٦/١، برقم: (392)، صحيح مسلم: ٤٠٠/١، برقم: (572).
4 - صحيح البخاري: ٢٥٥٥/٦، برقم: (6566)، و صحيح مسلم: ١٣٣٧/٣، برقم: (1713).

وذلك مثبت في تحريفهم للكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام، كما أثبتوه في العهد الجديد، جاء في العهد الجديد[1]: "١ **بولس عبد ليسوع المسيح** المدعو **رسولا** المفرز لإنجيل الله، ٢ الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة، ٣ عن ابنه. الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، ٤ وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات. **يسوع المسيح ربنا**، ٥ الذي به لأجل اسمه قبلنا نعمة ورسالة لا طاعة الإيمان في جميع الأمم، ٦ الذين بينهم أنتم أيضاً مدعووا ي**سوع** الم**سي**ح، ٧ إلى جميع الموجودين في رومية أحباء الله مدعوين قدي**سي**ن. نعمة لكم وسلام من الله أبينا **والرب يسوع المسيح**، ٨ أولاً أشكر إلهي بي**سو**ع الم**سي**ح من جهة جميعكم أن إيمانكم ينادى به في كل العالم"[2].

في النص السابق من العهد الجديد يؤكد بولس _ وهو رسول المسيح كما يزعم _ على عبوديته للمسيح الذي صار ابناً لله الأب من ناحية الجسد _ وهي عقيدة النصارى اليوم بأن الرب حل في جسد المسيح _ لتخليص الناس من الخطيئة التي ورثوها عن آدم، وفي هذا تقرير لربوبية المسيح.

وفي العهد الجديد جاء أيضاً: "١ بولس رسول يسوع المسيح بمشيئة الله إلى القديسين الذين في أفسس والمؤمنون في المسيح يسوع، ٢ نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح، ٣ مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح"[3]، وفي هذا النص أيضاً يدعي بولس أن المسيح عيسى ابن مريم هو ابن الله ومنه تأتي البركات وتتنزل من السماوات، فكل بركة هي من الرب الأب والابن معاً، وهذا الإطراء للمسيح مما علم عن دين النصارى المحرف، وهو مما يصعب حصره، وما سقته آنفاً إنما هو على سبيل المثال لا الحصر.

وما وقع النصارى في هذا الكفر البواح إلا بسبب إطرائهم لرسولهم عيسى عليه السلام، قال تعالى: (لَقَد كَفَرَ الذين قَالُوا إن الله ثَالثُ ثَلاثَة وما من إله إلا إله واحد وإنْ لَم ينتهوا عما يقُولُونَ ليمسن الذين كَفَرَوا منهم عذَاب أَليم)[٤].

---

(1) العهد الجديد: أناجيل النصارى ورسائلهم للصلاة والمنسوبة إلى المسيح عليه السلام، وتلاميذه، والتي لا تختلف من حيث اضطراب النص وانقطاع السند عن العهد القديم، ولا يوجد دليل علمي يؤكد نسبة الأناجيل إلى المسيح، بالإضافة إلى تعارض وتناقض آيات بعضها من آيات البعض الآخر". انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة:١٠٩٩/٢ .

(2) رسائل بولس إلى أهل رومية: (١/ ١- ٨).

3 - رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس: (١/ ١-٣).

(4) سورة: (المائدة:٧٣).

ولقد حذرهم الله تعالى عاقبة إطرائهم لعيسى ﷺ وغلوهم فيه فقال: (يا أَهلَ الْكتابِ لا تغلُوا في دينِكُم ولا تقُولُوا علَى الله إلا الْحق إنما الْمسـيح عيسى ابن مريم رسـولُ الله وكَلمته أَلْقَاها إِلَى مريم وروح منه فَآمنوا بِالله ورسله ولا تقُولُوا ثَلاثَةٌ انـتهوا خيراً لَكُم إنما الله إِلَه واحد سبحانه أَنْ يكُونَ لَه ولَد لَه ما في السماوات وما في الأَرضِ وكَفَى بِالله وكيلاً)[1]، فبين لهم تعالى ذكره بأن المسـيح ما هو إلا عبد جاء بكلمة منه هي كلمة كن، (إِذْ قَالَت الْملائكَةُ يا مريم إن الله يبشرك بِكَلمة منه اسمه الْمسـيح عيسى ابن مريم وجِيهاً في الدنيا والآخرة ومن الْمقَربِين)[2]، ولو كان من غير أب، فإن الله على كل شيء قدير.

ولقد كان الحواريون[3] من أصحاب عيسى عليه السلام يعرفون أنه عبد الله ورسـوله، فقد قالوا له حين طلبوا منه ما يثبت نبوته ورسالته: (إِذْ قَالَ الْحوارِيونَ يا عيسى ابن مريم هلْ يستطيع ربك أَنْ ينزلَ علَينا مائدةً من السماءِ قَالَ اتقُوا الله إِنْ كُنتم مؤمنِين) [4]، ولم يقولوا هل يستطيع أبوك أو هل تستطيع أنت، ثم دعا عيسى ربه الذي أرسله قائلاً: (اللهم ربنا أَنزِلْ علَينا مائدةً من السماءِ تكُونُ لَنا عيداً لأَولنا وآخرِنا وآيةً منك وارزقْنا وأَنت خير الرازِقين)[5]، ولما جاء عيسى إلى بني إسرائيل قال لهم: (يا بنِي إِسرائيلَ إِني رسـولُ الله إِلَيكُم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً بِرسـولٍ يأْتي من بعدي اسمه أَحمد)[6]، ولكن أبى المحدثون من النصارى المحرفون لدين الله إلا الإطراء له أيما إطراء، جعلوه ابناً لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك.

ولقد افتتن النصارى بعيسى حيث جاء من أم بغـير أب، ولكن الرد كان شافياً في القرآن الكريم: (إِن مثَلَ عيسى عند الله كَمثَلِ آدم خلَقَه من ترابٍ ثُم قَالَ لَه كُن

---

(1) سـورة: (النساء:١٧١).

(2) سـورة: (آل عمران:٤٥).

(3) "الحواريون: هم الذين خلصوا ونقّوا من كل عيب، وقيل في سبب تسمية أصحاب عيسى بالحواريـين لأ ـم كانوا يغسلون الثياب ويبيضو ا، أو لأ م كانوا خلصاءه وأنصاره، وقد تتلمذوا عليه وتعلموا منه، وانتشروا في القرى يبشرون بني إسرائيل بدعوته. وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم على هذا المعنى، وعددهم اثنا عشر علـى حـسب رواية الأناجيل، ولكن النصارى يدعون أن هؤلاء رسل المسـيح الذين اختارهم ليعاينوا حياته على الأرض ويـروه بعد قيامته ويشهدوا له أمام العالم بعد حلول روح القدس عليهم"، الموسـ ـوعة الميـسرة في الأديـان والمـذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٥٠/٢ .

(4) سـورة: (المائدة:١١٢).

(5) سـورة: (المائدة:١١٤).

(6) سـورة: (الصف: ٦).

فَيَكُونُ)[1]، وجاء م الوصفة الناجعة حين قال الله لهم: (ما الْمسـيح ابن مريم إلا رسـولٌ قَد خلَت من قَبله الرسلُ وأُمه صديقَةٌ كَانا يأْكُلان الطعام انظُر كَيف نبـين لَهم الآيات ثُم انظُر أَنى يؤفَكُونَ)[2]، ومن احتاج إلى الطعام احتاج إلى ما يفرز ذلك الطعام لترشيح الغذاء، وذلك كله مما يتنـزه عنه الرب جل وتقدس وعلا عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وافتتنوا به ــ أخرى ــ حين جاءهم بمعجزات توهم الربوبية لدى من ليس له بصر ولا بصيرة؛ فإن عيسى عليه السلام لم ينسب إلى نفسه شيئاً من تلك المعجزات بل جاء ا من عند الله وبإذن الله الذي خلقه ثم أرسله، قال تعالى: (إِذْ قَالَ الله يا عيسى ابن مريم اذْكُر نِعمتي علَيك وعلَى والدتك إِذْ أَيدتك بِروحِ الْقُدسِ تكَلم الناس في الْمهد وكَهلاً وإِذْ علمتك الْكتاب والْحكْمةَ والتوراةَ والإِنجِيلَ وإِذْ تخلُق من الطينِ كَهيئَة الطيرِ بِإِذْنِي فَتنفُخ فيها فَتكُونُ طَيراً بِإِذْنِي وتبرِئ الأَكْمه والأَبرص بِإِذْنِي وإِذْ تخرِج الْموتى بِإِذْنِي)[3]، فكل ما جاء به عيسى من عند الله وهو الذي أذن له فيه وهو الذي خلق تلك المعجزات ومن أتى بتلك المعجزات.

وكان من أسباب هذا الإطراء منهم لرسـولهم: التشـبه بمن قبلهم من الأمم السابقة، كما أخبرنا الله بذلك فقال: (وقَالَت الْيهود عزير ابن الله وقَالَت النصارى الْمسـيح ابن الله ذَلك قَولُهم بِأَفْواههم يضاهئُونَ قَولَ الذين كَفَروا من قَبلُ قَاتلَهم الله أَنى يؤفَكُونَ)[4]، قال الطبري ــ رحمه الله ــ: "(يضاهئُونَ قَولَ الذين كَفَروا من قَبلُ) يعني: قول اليهود عزير ابن الله، يقول نسبة قول هؤلاء في الكذب على الله والفرية عليه ونسبتهم المسـيح إلى أنه لله ابن ككذب اليهود وفريتهم على الله في نسبتهم عزير إلى أنه لله ابن"[5].

والمسـيح نفسه لا يرضى ولن يرضى يوماً ما عما قاله عنه أتباعه وما وصفوه به من الربوبية والمساواة بالله أو البنوة له قال تعالى عنه: (لَن يستنكف الْمسـيح أَنْ يكُونَ عبداً لله ولا الْملائكَةُ الْمقَربونَ)[6]، فما المسـيح إلا عبد من عباد الله معرض لثوابه إن أطاع ومعرض لعقابه إن عصى قال تعالى: (لَقَد كَفَر الذين قَالُوا إِن الله هو الْمسـيح ابن

(1) سـورة: (آل عمران:٥٩).
(2) سـورة: (المائدة:٧٥).
(3) سـورة: (المائدة: ١١٠).
(4) سـورة: (التوبة، الآية: ٣٠).
5 - تفسـير الطبري: ١١٢/١٠.
(6) سـورة: (النساء:١٧٢).

مريم قُلْ فَمن يملك من الله شيئاً إِنْ أَراد أَنْ يهلك الْمسـيح ابن مريم وأُمه ومن في الأَرضِ جميعاً ولله ملْك السماوات والأَرضِ وما بينهما يخلُق ما يشاءُ والله علَى كُلّ شيءٍ قَدير)(1)، ولذلك لم يأمر قومه إلا بطاعته كأي نبي من الأنبياء، قال تعالى: (ولَما جاءَ عيسى بِالْبينات قَالَ قَد جِئْتكُم بِالْحكْمة ولأُبين لَكُم بعض الذي تختلفُونَ فيه فَاتقُوا الله وأَطيعون)(2)، ويوم القيامة يشهد عليهم عندما يسأله الله عن حقيقة ما دعاهم إليه، يقول عز وجل: (وإِذْ قَالَ الله يا عيسى ابن مريم أَأَنت قُلْت للناسِ اتخذُونِي وأُمي إِلَهينِ من دون الله قَالَ سبحانك ما يكُونُ لي أَنْ أَقُولَ ما لَيس لي بِحق إِنْ كُنت قُلْته فَقَد علمته تعلَم ما في نفْسـي ولا أَعلَم ما في نفْسِك إِنك أَنت علاَم الْغيوبِ)(3)، تلك حقيقة عيسى ﷺ الذي غلا فيه أتباعه (ذَلك عيسى ابن مريم قَولَ الْحق الذي فيه يمترونَ)(4).

فإن كانت شبهة النصارى في تأليههم لعيسى ﷺ هي ولادته من غير أب، فما هي حجة من غلا من المسـلمين في نبيهم محمد ﷺ وهو الذي أخبرهم عنه ر م فقال: (وما محمد إلا رسـولٌ قَد خلَت من قَبله الرسلُ أَفَإِنْ مات أَو قُتلَ انقَلَبتم علَى أَعقَابِكُم)(5)، وهو الذي حذر أمته مراراً وتكراراً من الغلو فيه، و اهم عن التشـبه بالنصارى الذين تشـبهوا باليهود في ذلك؛ خوفاً على أمته من الانخراط في سلسلة التشـبه بالكفار من اليهود الذين لم يألوا النصارى جهداً في التشـبه م والجري وراء مخططا م[6].

ولكن السـنة الكونية جرت بأن التشـبه حاصل من بعض هذه الأمة بالأمم السابقة من اليهود والنصارى كما أخبرنا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((لتتبعن سـنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه[7]، قالوا: يا رسـول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن))[8].

(1) سـورة: (المائدة:١٧).
(2) سـورة: (الزخرف:٦٣).
(3) سـورة: (المائدة:١١٦).
(4) سـورة: (مريم:٣٤).
(5) سـورة: (آل عمران:١٤٤).

6 - فإن النصارى قد أخذوا عن اليهودي بولس عقيدة التثليث، بعد ادعائه أنه رسـول المسـيح، وكان ذلـك في مخطط محكم لتحريف العقيدة النصرانية والنيل من أتباعها، وسـيأتي تفصيل ذلك في مطلب: ادعاء النبوة....

7 - قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: "لكن ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمة؛ لما تواتر عنه أ ا لا تجتمع على ضلالة" تيسـير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص: (٣٢١).

8 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٢٧٤/٣، برقم: (٣٢٦٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه: ٢٠٥٤/٤، بـرقم: (٢٦٦٩).

لقد ظهر من بين المسلمين من ينسب للنبي ﷺ بعض خصائص الربوبية التي لا تليق إلا بالله عز وجل فقد أخذ الصوفية هذه اللوثة الفكرية من النصارى ولا غرو؛ فالمصدر النصراني في ممارسات الصوفية وعقائدهم ظاهر الملامح واسع المعالم، فلا ينكر التشابه بين رهبانية النصارى ومسالك الصوفية من كان ذا اطلاع على كتب القوم وأحوالهم[1]، فمنهم من تكلم في الحقيقة المحمدية وأن النبي ﷺ يتكون من حقيقتين إحداهما لاهوتية والأخرى ناسوتية[2]، كما قال النصارى في عيسى عليه السلام، حتى إن "منهم من يعتقد أن الرسول ﷺ هو قبة الكون وهو الله المستوي على العرش وأن السماوات والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خلقت من نوره وأنه هو أول موجود وهو المستوي على عرش الله وهذه عقيدة ابن عربي ومن تبعه"[3]، يقول قائلهم: "إن الفيوض التي تفيض من ذات سيد الوجود ﷺ تتلقاها ذوات الأنبياء"[4].

ويقول مؤسس الطريقة البريلوية أحمد رضا[5] وهو يصف شخص الرسول ﷺ: "إن رسول الله ﷺ متصرف في كل مكان وهو مالك الأرضين، ومالك الناس"[6].

ويبالغ بعض المعاصرين في إطرائه ﷺ حتى يقول: "إن مجمع نوره لو وضع على العرش لذاب"[7].

1 - وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث: الرهبانية والتصوف.

(2) "الناسوت واللاهوت: يعبر هذان المصطلحان عن عقيدة أساسية في المسيحية مؤداها أن للمسيح طبيعتين: طبيعة إلهية (اللاهوت) وطبيعة إنسانية (الناسوت)، وأن الكلمة الإلهية (اللاهوت) اتحدت بجسم المسيح واختلطت بناسوته (الجزء الإنساني منه) وصار طبيعة واحدة، وأقنوماً واحداً هو الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس عندهم. وقد عارض هذا الفهم كثير من المسيحيين في الماضي والحاضر. وهذا الفهم وما بني عليه باطل من وجهة النظر الإسلامية"، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٥٧/٢

(3) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، لعبد الرحمن عبد الخالق، ص: (٥٨-٥٩).

(4) رماح حزب الرحيم، لعمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدوي: ٥/٢.

(5) هو مؤسس فرقة البريلوية، أحمد رضا خان بن تقي علي خان، (١٢٧٢هـ - ١٣٤٠هـ)، سمى نفسه عبد المصطفى، ولد في بلدة (بريلي) بولاية (أترابرديش) وتتلمذ على يد الميرزا غلام قادر بيك. زار مكة، وقرأ على بعض المشايخ فيها عام: (١٢٩٥هـ)، ومن أبرز كتبه أنباء المصطفى، وخالص الاعتقاد، ودوام العيش، والأمن والعلى لناعتي المصطفى، ومرجع الغيب والملفوظات، وله ديوان شعري: (حدائق بخش). انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٢٩٨/١.

(6) البريلوية، ص: (٦٩).

(7) هذه هي الصوفية: (٨٧).

وتظهر تلك الإطراءات جلية في قصائد الصوفية التي تقرأ في الموالد وغيرها، فمن مدعي للنبي ﷺ وصفاً من صفات الرب، ومن مستغيث بجنابه ﷺ وهلم جراً، يقول أحدهم في مدح النبي ﷺ:-

لست أخشى ولي إليك التجاء | يا نبياً سمت بـه الأنبـياء
كنت نوراً وكان آدم طينـاً | فأضاءت بنوره الأرجـاء
أيها المادحون طيبوا نفوسـاً | إن مدح النبي فيه الشفـاء
ما رماني الزمان منه بسـهم | أو دهتني الخطوب والضراء
وتوسلـت بالمشـ ـ ـفع إلا | داركتني الألطاف والسراء
يارفيع الجناب أنت المرجـى | في المهمات إذ يعم البـلاء
كن مجيري يـا خير هاد لأني | ليس لي في الأمورعنك غناء[1]

ومن تلك المدائح الشـركية، قول البوصيري[٢] في البردة:-
فإن من جودك الدنيا وضر ا
ومن علومك علم اللوح والقلم[٣]

ومع ذلك فإن هذه القصيدة هي محط أنظار بعض المسلمين في العصر الحديث ومن أجلها تعقد الدروس، وفي وصف هذا الاهتمام يقول صاحب كتاب المـدائح النبويـة في الأدب العربي: "وأما أثرها في الدرس، فيتمثل في تلك العناية التي كان يوجههـا العلمـاء الأزهريون إلى عـقـد الدروس في يومي الخميس والجمعة لشرح الـبردة، وهـي دروس كانت تتلقاها جماهير من الطلاب، وإنما كانوا يتخيرون يـومي الخمـيس والجمعـة، لأن مـثـل هذا الـدرس لم يـكن من المقررات فكانوا يتخيرون له أوقات الفراغ"[٤].
ويقول البوصيري:-

يا أكرم الرسل ما لي من ألـوذ بـه | سواك عند حلول الحادث العمم

1 - قصيدة للشيخ عبد الصمد الأرمنازي، حلية البشر: ٨٥١/٢.
(2) هو : محمد بن سعيد البوصيري نسبة إلى بلدته أبو صير بين الفيوم وبني سويف بمصر، ولد سـنة ٦٠٨هـ ـ، واشتغل بالتصوف، وعمل كاتباً، ونافح البوصيري عن الطريقة الشاذلية التي التزم ا، فأنـشد أشـعاراً في الالتـزام بآدا ا، توفي البوصيري سـنة ٦٩٥هـ ـ وله ديوان شعر مطبوع. انظر ترجمته في مقدمة ديوان البوصيري، تحقيق محمد سـيد كيلاني، ص: (٥ – ٤٤).
(3) ديوان البوصيري، ص: (٢٠٠).
(4) انظر: المدائح النبوية في الأدب العربي، لزكي مبارك، ص: (١٩٩).

ولن يضيق رسول الله جاهك بـي إذا الكريم تحلى باسـم منتقـم
فإن لي ذمة منه بتسـ ـمي ـتـي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمـم
إن لم يكن في معادي آخذاً بـيدي فضلاً وإلا فقل: يا زلة القـدم(1)

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب _ معلقاً على هذه الأبيات _: " فتأمل ما في هذه الأبيات من الشـرك منها أنه نفى أن يكون له ملاذاً إذا حلت به الحوادث إلا النبي ﷺ وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو، الثاني: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله وذلك هو الشـرك في الإلهية، الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله: ولن يضيق رسـول الله... البيت، وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه وهو الجاه والشفاعة عند الله وذلك هو الشـرك، وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لأن الشافع لا يشفع ابتداء، الرابع: قوله: فإن لي ذمة... إلى آخره كذب على الله وعلى رسـوله ﷺ؛ فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة لا بمجرد الإشراك في الاسم مع الشـرك، الخامس: قوله: إن لم يكن في معادي... في البيت تناقض عظيم وشرك ظاهر فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً وإلا فيا هلاكه"(2).

فماذا ترك هؤلاء من إطراء النصارى لرسـولهم لم ينطقوا به في حق نبـيناً محمد ﷺ.

(1) انظر: ديوان البوصيري، ص: (٢٠٠).
(2) انظر: تيسـير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ص: (١٨٧ – ١٨٨).

المطلب الثاني: ادعاء النبوة(•):-

تأتي النبوة في اللغة بمعنى الشرف والرفعة يقول الجوهري في مختار الصحاح: "والنبوةُ و النباوةُ ما ارتفع من الأرض فإن جعلت النبي مأخوذا منه أي أنه شرف على سائر الخلق فأصله غير الهمز وهو فعيل بمعنى مفعول"(1)،

والنبي في الاصطلاح الشرعي يشرحه شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _ بقوله: "الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسـول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي، وليس برسـول"(2).

ولقد جاءت الآيات والأحاديث تدل دلالة قاطعة على ختم النبوة بنبوة محمد ﷺ، فمن الآيات: قوله تعالى: (ما كَانَ محمد أبا أَحد من رِجالكُم ولَكن رسـولَ الله وخاتم النبيـين وكَانَ الله بِكُل شيءٍ عليماً)(٣)، قال الإمام الطبري _ رحمه الله _ في تفسـيرها: "يقول تعالى ذكره ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثة ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يلده محمد فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ولكنه رسـول الله وخاتم النبيـين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة"، ثم ساق أقوال المفسرين التي تعضد قوله٤، وهذا المسألة تعتبر من المسائل ا مع عليها عند أهل السـنة والجماعة، يقول الإمام القرطبي _ رحمه الله _: "(وخاتم): قرأ عاصم وحده بفتح التاء بمعنى أ م به ختموا فهو كالخاتم والطابع لهم وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم أي

(•) ولقد اخترت هذا العنوان، ولم أقل: ادعاء الرسالة؛ لأن النبوة أعم من الرسالة، فمن ادعى الرسالة فقد ادعى النبوة، انظر: كتاب النبي والرسـول، د. أحمد بن ناصر الحمد، ص: (١٧).

(1) مختار الصحاح: ٢٦٨/١

(2) كتاب النبوات، ص: (١٨٤)، وهناك تعريفات أخرى، اقتصرت على هذا التعريف ؛ إيجازاً.

(3) سـورة: (الأحزاب:٤٠).

4 - تفسـير الطبري: ١٦/٢٢، وانظر: أحكام القرآن: ٦/٢

جاء آخرهم، قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفاً وسلفاً متلقاة على العموم التام مقتضية نصاً أنه لا نبي بعده ﷺ"[1].

وأما بالنسبة للأحاديث الدالة على ختم النبوة: فقد قال رسـول الله ﷺ لعلي أبي طالب رضي الله عنه: ((أنت مني بمنـزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: ((كانت بنو إسرائيل تسـوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي))[3]، ففي هذه الأحاديث _ وهي على درجة عالية من الصحة _ يصرح النبي ﷺ بأنه لا نبي بعده ﷺ.

وفي أحاديث أخرى يخبرنا ﷺ بأنه قد بقي شيء من النبوة لا زال ممكناً ولم ينقطع، وهو إنما يحصل بالنسبة للصالحين، من عباد الله، وذلك القسم هو الرؤيا المبشرة، وقد قيدها النبي ﷺ بالمبشرات، فقال ﷺ: ((لم يبق من النبوة إلا المبشرات))، قالوا: وما المبشرات؟ قال: ((الرؤيا الصالحة))[4]، ونلحظ هنا بأنه قيد وصف النبوة في الرؤيا الصالحة بالمبشرات، فلا يؤخذ من تلك الرؤى أحكام الحلال والحرام، بل يقتصر على كونها من المبشرات.

ولم تقتصر الأحاديث على بيان ختم النبوة بالنبي محمد ﷺ فحسب، بل جاءت الأحاديث محذرة من أدعياء النبوة، فعن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسـول الله))[5]، كما قال ﷺ: ((وإنه سـيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيـين لا نبي بعدي))[6].

أثر ادعاء النبوة على العقيدة النصرانية:

(1) انظر: تفسـير القرطبي: ١٩٦/١٤

(2) أخرجه صحيح البخاري: ١٦٠٢/٤برقم: (4154)، ومسلم: ١٨٧٠/٤برقم: (2404)، واللفظ لمسلم.

3 - صحيح البخاري: ١٢٧٣/٣برقم: (3268)، وصحيح مسلم: ١٤٧١/٣برقم: (1842).

4 - صحيح البخاري: ٢٥٦٤/٦برقم: (6589)، ورواه مسلم عن ابن عباس بلفظ: ((أيها الناس إنه لم يبق مـن مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له))، صحيح مسلم: ٣٤٨/١، برقم: (479).

5 - صحيح البخاري: ١٣٢٠/٣، برقم: (3413)، وصحيح مسلم: ٢٢٣٩/٤، برقم: (157).

6 - سـنن الترمذي: ٤٩٩/٤، برقم: (2219)، و سـنن أبي داود: ٩٧/٤، بـرقم: (4252)، وقـال الترمذي: " هذا حديث حسـن صحيح".

لم تكن قضية ادعاء النبوة بدعاً من القول في أمة محمد ، بل لقد عانى النصارى من تحريف دينهم عن طريق ادعاء النبوة كذلك[1]، وذلك حين ادعى بولس (شاؤول) اليهودي النبوة، بعد ما كان مضطهداً للنصارى محارباً لدين المسـيح عليه السلام، ثم قام بادعاء النبوة وفضل نفسه على المسـيح، يقول الباحث (يونس توري) بشأن دعوى بولس: "وفضل نفسه على المسـيح نفسِه بحيث قسم الرسالة إلى قسمين: رسالة إلى الأميـين يرأسها هو ورسالة إلى اليهود يختص بها بطرس، ولكل من الرسالتين إنجيل خاص. هكذا خرج بدعوة المسـيح الخاصة باليهود إلى العالم[٢]. ويقول مفتخراً "السلام بيدي أنا بولس"[٣][٤].

وعندما قام بولس بافتراء قصة إرسال المسـيح له أصاب بها سهمين؛ فاستطاع أن يقنع السذج من النصارى بأنه رسـول من الرب، وافترى في نفس القصة ألوهية المسـيح؛ فهو الذي أرسله، يقول د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي: "كانت دعوة المسـيح عليه السلام إلى التوحيد الخالص كدعوة سائر الأنبياء والمرسلين. والحواريون والتلاميذ الذين رفع عنهم المسـيح كلهم كانوا على ذلك التوحيد، إلى أن دخل بولس الرسـول في المسـيحية، وكان قبل ذلك من اليهود المتعصبين على النصرانية، وكان ولد في طرسـوس، وتربى في أورشليم واسمه الأصلي شاول"[5]، وهذه قصة إيمانه كما يرويها العهد الجديد: "١ أما شاول فكان لم يزل ينفث دداً وقتلاً على تلاميذ الرب. فتقدم إلى رئيس الكهنة ٢ وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالا أو نساء يسـوقهم موثـقين إلى أورشليم. ٣ وفي ذهابه حدث انه اقترب إلى دمشق فبغتة ابرق حوله نور من السماء. ٤ فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له شاول شاول لماذا تضطهدني. ٥ فقال من أنت يا سـيد. فقال الرب أنا يسـوع الذي أنت تضطهده. صعب عليك أن ترفس مناخس. ٦ فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن افعل. فقال له الرب قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل. ٧ وأما الرجال المسافرون

---

(1) مع فارق أن هذا الدين لن يتم تغيـيره ولا تحريفه بحيث تذهب معالمه تماماً، فقد أخبرنا رسـول الله ﷺ بأنه ستبقى طائفة ظاهرة على الحق حتى قيام الساعة، فقال: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مـن خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)) أخرجه مسلم في صحيحه: ١٥٢٣/٣ برقم: (١٩٢٠).

(2) رسالة بولس إلى أهل غلاطية: ٢/ ٨.

(3) رسالة بولس الأولى إلى أهل كونثيوس: ١٦/ ٢١.

(4) انظر: عقيدة التثليث والصلب وموقف الإسلام منها، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى بـرقم(٥٥٨)، إعـداد الطالب: يونس توري، جامعة أم القرى، ص: (٦٥).

5 - انظر: دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، ص: (٣٣٧).

معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً(1). ٨ فنهض شاول عن الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحدا. فاقتادوه بيده وادخلوه إلى دمشق. ٩ وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب ١٠ وكان في دمشق تلميذ اسمه حنانيا. فقال له الرب في رؤيا يا حنانيا. فقال هاأنذا يا رب. ١١ فقال له الرب قم واذهب إلى الزقاق الذي يقال له المستقيم واطلب في بيت يهوذا رجلاً طرسـوسـياً اسمه شاول. لأنه هوذا يصلّي ١٢ وقد رأى في رؤيا رجلاً اسمه حنانيا داخلاً وواضعاً يده عليه لكي يبصر. ١٣ فأجاب حنانيا: يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسـيك في أورشليم. ١٤ وههنا له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يدعون باسمك. ١٥ فقال له الرب اذهب. لان هذا لي إناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبني إسرائيل. ١٦ لأني سأريه كم ينبغي أن يتألم من اجل اسمي. ١٧ فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه وقال: أيها الأخ شاول قد أرسلني الرب يسـوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه لكي تبصر وتمتلئ من الروح القدس. ١٨ فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور فابصر في الحال وقام واعتمد. ١٩ وتناول طعاما فتقوى. وكان شاول مع التلاميذ الذين في دمشق أياما. ٢٠ وللوقت جعل يكرز(2) في المجامع بالمسـيح أن هذا هو ابن الله"(٣).

ثم تتالت نبوة هذا الدعي في كتابهم مراراً، ورسائله مثبتة في العهد الجديد، ولها مكانـتها فيه وقد أخذت قسماً كبيراً منه، ملأها بالكفر والإلحاد ووصف المسـيح عيسى ابن مريم (يسـوع) بالربوبية، من ذلك ما جاء في العهد الجديد: "١ بولس رسـول يسـوع المسـيح بمشيئة الله إلى القديسـين الذين في أفسس والمؤمنون في المسـيح يسـوع ٢ نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسـوع المسـيح ٣ مبارك الله آبو ربنا يسـوع المسـيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسـيح ٤ كما اختارنا فيه قبل تأسـيس العالم لنكون قديسـين وبلا لوم قدامه في المحبة 5 إذ سبق فعيننا للتبني بيسـوع المسـيح لنفسه حسب مسرة مشيئته ٦ لمدح مجد نعمته التي انعم بها علينا في المحبوب ٧ الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته ٨ التي أجزلها لنا

(1) وهذه القصة تعارض ما ورد في العهد الجديد أيضاً: "٩ والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا ولكنـهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني"، أعمال الرسل: (١١/٧/٢٢).

(2) كرز يكرز _ بكسر الراء _: وعظ ونادى ببشارة الإنجيل وهي لفظة سريانية، انظر: دراسات في اليهوديـة والمسـيحية وأديان الهند، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ص: (٣٤١).

(3) أعمال الرسل ٩: ١- ٢٠.

بكل حكمة وفطنة ٩ إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه ١٠ لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسـيح ما في السماوات وما على الأرض في ذاك"[1]، ولقد كان سبب إيمان النصارى به أنه قد جاء بما توهموه _ بجهلهم _ آيات تدل على صدقه، ولكنها في الحقيقة ليست بدلائل نبوة لو تأملها البصير، كما أن دعوى النبوة التي قد جاء بها بولس كانت مقرونة بما يدل على كذبه وهو ادعاؤه ألوهية المسـيح عليه السلام[2].

ويتعجب كل من يطلع على سـيرة بولس كيف استطاع أن يدعي النبوة ويصير داعياً إلى النصرانية بعد ذلك؛ فقد كان من أكبر أعداء الكنيسة والحواريـين، جاء في العهد الجديد: "١ وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل. ٢ وحمل رجال أتقياء استفانوس وعملوا عليه مناحة عظيمة. ٣ وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن"[٣]، ويقول شاول معترفاً عن نفسه: "١٣ فإنكم سمعتم بسـيرتي قبلاً في الديانة اليهودية إني كنت اضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها. ١٤ وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسـي إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي"[٤]، فأنى لمثل هذا أن يتحول بين عشية وضحاها إلى رسـول، ورسـول من؟ إنه رسـول الرب (عيسى) الذي لم يخبر أحداً يوماً ما بأنه الرب بل أمر بعبادة الله وحده[٥].

وما فعله بولس هو المزج بين أديان المشـركين الوثنيـين وبين النصرانية؛ نكاية بالنصرانية وتحريفاً لها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _: "ابتدع بولص وأمثاله في دين النصارى ما ابتدعوه من الضلالات وأضلوهم وأدخلوا في دين المسـيح من دين المشـركين والصابئين من الروم وأمثالهم ما أفسدوا به دين المسـيح صلى الله عليه وسلم وجعلوا النصارى على الضلالات التي فارقوا بها دين المسـيح حتى قال من قال من العلماء إن النصارى صاروا على مذهب الروم المشـركين لا أن الروم صاروا على دين النصارى

(1) رسالة بولس الرسـول إلى أهل أفسس: (١/ ١- ١٠).

(2) أعلام النبوة: (٦١/١).

3 - أعمال الرسل: (١/٨-٣).

4 - رسالة بولس إلى أهل غلاطية: (١/ ١٣-١٤).

5 - قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ الله يا عيسى ابن مريم أأنت قُلْت للناس اتخذُوني وأمي إلهـين مـن دون الله قَـالَ سبحانك ما يكُونُ لي أَنْ أَقُولَ ما ليس لي بحق إنْ كُنت قُلْته فَقَد علمته تعلَم ما في نفْسـي ولا أعلَم ما في نفْسِك إنك أنت علام الْغيوبِ) (المائدة:١١٦).

فإن أولئك غيروا شريعة دين المسـيح مستبدلين لما استبدلوه من شرائع المشـركين وغايتهم أنهم ركبوا دينا من دين الفلاسفة والصابئين والمشـركين ودين النصارى"[1].

ولقد انكشفت حقيقة ما ادعاه بولس لدى بعض عقلاء النصارى في العصر الحديث[2]، يقول (آرتست دي يونس الألماني) في كتابه (الإسلام): "إن روايات الصلب والفداء من مخترعات بولس ومن شابهه من المنافقين"[3]. ويقول السـيد (محمد زكي الدين النجار بطهطا)، في كتابه: (الإسلام نور الأكوان): "إن من عجيب ما صنعه اليهود أن أثيماً منهم اسمه شاول حارب المسـيحية، فقتل المؤمنين، وآذى الحواريـين، ولما لم يقض على النصرانية بهذا الاضطهاد، ولم يفلح في رد المؤمنين عن الحق الذي آمنوا به، عمد إلى حيلة تمكنه من هدم الدين من أساسه والقضاء عليه، فتظاهر بأنه من أتباع المسـيح، وتسمى باسم بولس، وجعل يضلل الناس في عقائدهم كما جاء في سفر الأعمال، (وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسـيح بأن هذا هو ابن الله)[4]"[5].

وكان من نتائج ادعاء هذا الرجل للنبوة، وتصديق السذج له: أن حرف كثيراً من عقائد النصرانية وشرائعها، فمن تلك التحريفات:-

١. "أنه نقل النصرانية من التوحيد إلى التثليث.
٢. دعا إلى ألوهية المسـيح وألوهية الروح القدس.
٣. اخترع قصة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر.
٤. جعل يوم الأحد مقدساً عند المسـيحيـين بحجة أنه قام فيه من القبر بدلاً من يوم السبت الذي كان مقدساً عند اليهود.
٥. جعل التشريع حقاً للرؤساء الروحانيـين بعد أن كان للأنبياء والرسل، كما جعل فصل النزاع حقاً للمجامع المسكونية، وقد بلغ عدد المجامع حتى الآن عشرين مجمعاً أوله مجمع نيقيا ٣٢٥م، وآخره مجمع روما ١٨٦٩م الذي قرر عصمة البابا[6]، فمن ذلك التاريخ جلس بابا الكنيسة في روما على كرسـي بطرس، وأصبح حكمه

(1) درء التعارض: ٣٦٢/٥

(2) وإن كانت دعواه لم تلق قبولاً في حين بدئها كما سبق قريباً.

(3) نقلاً عن: دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، ص: (٣٤١).

(4) سفر أعمال الرسل: (٢٠/٩).

(5) نقلاً عن كتاب: النصرانية والإسلام، ص: (٢٧٣). وأما الكتاب الذي جاء فيه النص هـو: (الإسـلام نـور الأكوان)، لـ (محمد زكي الدين النجار بطهطا): (الذي كان مسـيحياً ثم دخل في الإسلام).

(6) "البابا: كلمة مشتقة من الكلمة القبطية (بي أبا) أي الأب، وهو الرئيس الأول في الديانة النصرانية الكاثوليكيـة، وكان في بادئ الأمر يسمونه البطريرك"، انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة:٩٨١/٢

قطعياً، ومن القرارات السـياسـية الهامة التي اتخذ ا كنيسة روما حديثاً تبرئة اليهود من دم المسـيح"[1]، و ذا تم ما خطط له هذا اليهودي؛ فإلى الآن تكتب الكتب عن رسالته العظيمة، وتنادي الإذاعات التنصيرية صباح مساء بتعاليمه المحرفة التي تلاشت ا أنوار النصرانية الحقة.

البهائية وادعاء النبوة:

البهائية فرقة تنتسـب إلى الإسلام زوراً و تاناً، "أسـسها الميرزا علي محمد رضا الشـيرازي: (١٢٣٥-١٢٦٦هـ) (١٨١٩ _ ١٨٥٠م)[2]، ففي السادسة من عمره تلقى تعاليمه الأولى على يد دعاة الشيخية من الشيعة ثم انقطع عن الدراسة ومارس التجارة. وفي السابعة عشر من عمره عاد للدراسة واشتغل بدراسة كتب الصوفية والرياضة الروحانية وخاصة كتب الحروفيـين وممارسة الأعمال الباطنية المتعبة. في عام: (١٢٥٩م) ذهب إلى بغداد وبدأ يرتاد مجلس إمام الشيخية في زمانه كاظم الرشتي ويدرس أفكاره وآراء الشيخية. وفي مجالس الرشتي تعرف عليه الجاسـوس الروسـي (كينازد الغوركي) والمدعي الإسلام باسم: (عيسى النكراني) والذي بدأ يلقي في روعهم أن الميرزا علي محمد الشيرازي هو المهدي المنتظر والباب الموصل إلى الحقيقة الإلهية والذي سـيظهر بعد وفاة الرشتي وذلك لما وجده مؤهلاً لتحقيق خطته في تمزيق وحدة المسـلمـين. وفي ليلة الخميس ٥ جمـادى الأولـى (١٢٦٠ هـ) _ ٢٣ مارس (١٨٤٤م) أعلن أنه الباب نسبة إلى ما يعتقده الشيعة الشيخية من ظهوره بعد وفاة الرشتي المتوفى عام: (١٢٥٩هـ) وأنه رسـول كموسى وعيسى ومحمد – عليهم السلام – بل وعياذاً بالله – أفضل منهم شأناً. فآمن به تلاميذ الرشتي وانخدع به العامة واختار ثمانية عشرة مبشراً لدعوته أطلق عليهم حروف: (الحي) إلا أنه في عام: (١٢٦١هـ) قبض عليه فأعلن توبته على منبر مسجد الوكيل بعد أن عاث وأتباعه في الأرض فساداً وتقتيلاً وتكفيراً للمسـلمين"[3].

---

(1) انظر: دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ص: (٣٥٤).

(2) والحقيقة أن الباب علي محمد رضا الشيرازي هو المؤسس للبابية التي كانت حجر الأساس للبهائية، وهو أستاذ حسـين علي المازندراني، وهو الذي لقب نفسه ببهاء الله، وإليه تنسب البهائية، انظر: حقيقة البابية والبهائية، بقلم: محسـن عبد الحميد، ص: (٦٩).

(3) الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٤٠٩/١

ولم يكن من الغريب أن يكون انطلاق (الباب) في ادعائه للنبوة من التشيع الذي يرى أصحابه أن الإمامة كالنبوة، ويجعلون للإمام من الخصائص ما لا ينطقون به في حق الرسـول ﷺ، يقول الباحث ناصر عبد الله القفاري: "وإذا كان أهل السـنة يرون أن الأمة معصومة بكتاب ر ا وسـنة نبيها صلى الله عليه وسلم، فإن الشيعة ترى أن الأمة معصومة من الضلال بالإمام لأنه كالنبي[١]، والإمامة استمرار للنبوة[٢]. وهذا المعنى ينافي حكمة الله في ختم النبوة"[٣].

ويزعم الباب (الميرزا علي محمد) أنه نزل عليه (البيان)[٤] من سماء المشيئة الإلهية فنسخ به القرآن[٥]، ويسـوق الميرزا حسـين[٦] أدلة عقلية على نبوة الباب، منها نصيحته، وثباته على مبدئه، وإيمان بعض المخدوعين به[٧].

والميرزا حسـين هو: حسـين بن علي النوري المازندراني، وإليه تنسب البهائية، كان من تلامذة الباب، ثم وجد في نفسه على الباب الشيرازي، إذ لم يجعله من المقربين لديه، ثم ناصب الباب الشيرازي ودعوته العداء، حتى زعم أن البيان الذي ألفه الشيرازي إنما كان من وحيه هو[٨].

ثم ادعى المازندراني _ نفسه _ النبوة، وألف كتابه (الأقدس)، وزعم أن الأحكام التي وردت فيه نزلت من سماء المشيئة الإلهية أيضاً !! وكان من تنبؤاته أن يحكم (طهران) ومن ورائها إيران من يوالي البهائيـين ويناصرهم ويشد أزرهم[٩]، ولكن الله _ عز وجل _ أطاح بحكومة البهائيـين في إيران ومزق من أراد مناصر م وموالا م ولو خفية[١٠].

---

(1) عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر، ص: (٩٥).

(2) عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر، ص: (٩٤).

(3) مسألة التقريب بين أهل السـنة والشيعة، لناصر القفاري، ص: (٣٢٣).

(4) وهو الكتاب الذي افتراه الباب وزعم أنه أفضل من القرآن، وقد أوردته في مطلب: مظاهر التشـبه بالكفـار في تحريف نصوص القرآن الكريم.

(5) انظر: حقيقة البابية والبهائية: ص: (٧٩) لمحسـن عبد الحميد.

(6) في كتابه: (الإيقان)، انظر: حقيقة البابية والبهائية، بقلم: محسـن عبد الحميد، ص: (٦٩).

(7) الإيقان: ص: (١٦٦- ١٧٠) نقلاً عن (حقيقة البابية والبهائية – محسـن عبد الحميد) ص: (٧٥).

(8) انظر: فرق معاصرة تـنـتسـب إلى الإسـلام وبيان موقف الإسـلام منها، إعـداد غالـب بـن علـي عـواجي: ٤١٨/١، ٤٢٢، وانظر: حقيقة البابية والبهائية، بقلم: محسـن عبد الحميد، ص: (٦٩).

(9) البهائية نقد وتحليل، الأستاذ: إحسان إلهي ظهير _ رحمه الله _، ص: (٢٥٦).

(10) البهائية نقد وتحليل، الأستاذ: إحسان إلهي ظهير _ رحمه الله _، ص: (٢٥٧).

ثم لم يكتف بذلك بل تجاوزه إلى ادعاء الألوهية، فترك التشـبه بمدعي النبوة من أمثال بولس اليهودي، إلى التشـبه بفرعون الذي قال: (أنا ربكُم الأعلَى، فَأَخذَه الله نكَالَ الآخرة والأُولَى)(1).

القاديانية وادعاء النبوة:

تدعي طائفة القاديانية أن النبوة لم يزل با ا مفتوحاً على مصراعيه وأن غلام أحمد القادياني قد تنبأ. ويصف لنا الدكتور غالب عواجي قصة تطور الميرزا غلام أحمد القادياني، منذ خمول ذكره وحتى ادعى النبوة، فيقول: "لقد كان الميرزا في بدء حياته خامل الذكر لا يعبأ ا ولا يذكر بخير أو شر. ثم اتجه إلى التأليف والمناظرات التي كانت ملتهبة في القارة الهندية بين شتى الأفكار والفرق، وقد بدأ مناظراً جلداً عن الإسلام والمسـلمين مع ما كان يظهر منه بين الفينة والأخرى من غلو في نفسه وتمجيدها وكان علماء المسـلمين تجاهه بين الاستبشار والقلق من أن يجمح به فرسه إلى مالا تحمد عقباه. ومن هنا بدأت الأنظار تلتفت نحوه وذاع صيته وأعجبته نفسه ومواهبه فبدأ يحتطب في حبله وطلب من الناس أن يبايعوه، ولم يبخل على نفسه بلقب مجدد العصر ((المأمور من الله شبيه المسـيح في دعوته إلى الله وأحواله الشخصية)). وقد اقتضت سـياسة بريطانيا أن يزيدوا من النار اشتعالاً فشجعوا قيام المناظرات وافتعال الخصام والعنف بين الطوائف ليشعر الجميع بالحاجة إلى دولة قوية تحميهم وتكون الملجأ لجميعهم وهي سـياسة بارعة منهم، وحين شمر القادياني في بدء أمره للدعوة إلى الإسلام ودحض حجج خصومه من الهندوس والنصارى وحينما توجه إليه المسلمون أعلن أنه بدأ في تأليف كتاب كبير في إثبات فضل الإسلام وإعجاز القرآن وإثبات محمد ﷺ والرد على الديانات السائدة في الهند، وسمى هذا الكتاب (براهين أحمدية) وتكفل المؤلف القادياني في أن يجمع في هذا الكتاب ثلاثمائة دليل على صدق الإسلام في خمسـين مجلداً يدفع فيه كل الاعتراضات والإيرادات التي يعترض ا الكفار عامة على الإسلام، وطلب من المفكرين أن يراسلوه بأفكارهم ليستعين ا وطلب كذلك التبرع السخي بالمال؛ لطبع الكتاب، فانخدع بذلك كثير من العلماء وعامة المسـلمين وفرحوا ذا الإنجاز المرتقب وبدأ القادياني يكتب فكيف تم ذلك؟

(1) سـورة: (النازعـات: ٢٤-٢٥).

الواقع أن الكتاب كان بمثابة صدمة عنيفة للمسـلمين وخيبة أمل مريرة، فقد أصدر الجزء الأول منه وسماه براهين أحمدية سـنة ١٨٨٠م وملأه بمدح نفسه وكراماته وكشوفاته وإعلانات أخرى زكى ا نفسه، ثم أصدر الجزء الثاني وكان لا يختلف عن الأول من حيث المضمون ثم أصدر الجزء الثالث والرابع حث العلماء والجمعيات الإسلامية على إقناع الحكومة الإنجليزية بأن المسـلمين أمة هادئة سلمية مخلصة للإنجليز وأن جهاد الإنجليز حرام، وأن حكومتهم نعمة جسـيمة من الله ورحمة وأ ا هي الدولة الوحيدة التي تحقق أهداف المسـلمين وأعاد ذلك وكرره مرة بعد مرة ففطن العلماء له وعرفوا أنه لا يريد إلا الشهرة وكسب المال لا الدفاع عن الإسلام. وحينما وقف على كتابة خمسة أجزاء بدل الخمسـين طالبه المشتركون قيمة الخمسـين جزءاً فذكر أنه كان عازماً على إصدار خمسـين جزءاً من هذا الكتاب ولكنه سـيقتصر على خمسة أجزاء ولما كان الفرق بين الخمسـين والخمسة هو صفر واحد فقد أنجز وعده بإتمام خمسة أجزاء، وأنه لا حق لهم في المطالبة بعد ذلك حسب مزاعمه لهم"[1].

وكان مما صدم به علماء الإسلام: ادعاؤه الصريح للنبوة، فيقول في أحد كتبه: "أنا على بصيرة من رب وهاب بعثني على رأس المائة لأجدد الدين وأنور وجه الملة وأكسر الصليب وأطفئ نار النصرانية وأقيم سـنة خير البرية ولأصلح ما فسد وأروج ما كسد وأنا المسـيح الموعود والمهدي المعهود من الله علي بالوحي والإلهام وكلمني كما كلم رسله الكرام"[2]، وقال: "كنت أحب أن أعيش مكتوماً كأهل القبور فأخرجني ربي على كراهيتي من الخروج وأضاء اسمي في العالم مع هربي من الشهرة والعروج ولبثت عمراً كالسر المستور أو القنفذ المذعور.... ثم أعطاني ربي ما يحفظ العدا"[3].

ولفشوا الجهل في القارة الهندية آنذاك، وأسباب أخرى، تبعت هذه الدعوة جموع من العوام، وفرحوا ا جهلاً منهم بدينهم الذي جعله الله خاتم الأديان ورسـوله الذي ختم به الأنبيـاء؛ حيث قال في خاتم الكتب السـماوية: (ولَٰكن رسـولَ الله وخاتم النبيـين)[٤].

(1) انظر: فرق معاصـرة تنـتسـب إلى الإسـلام وبيان وقف الإسـلام منها، إعداد غالب بن علي عواجي: ٥١١/٢- ٥١٢.

(2) ضميمة الوحي، ص: (٢٢). نقلاً عن فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان وقف الإسلام منـها، إعـداد غالب بن علي عواجي: ٥٢٥/٢.

3 - خاتمة رسالته ضميمة الوحي، ص: (٨٦). نقلاً عن: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان وقف الإسـلام منها، إعداد غالب بن علي عواجي: ٥٢٥/٢

(4) سـورة: (الأحزاب: من الآية ٤٠).

يقول بشير الدين محمود ابن الغلام أحمد في تفسـيره لهذه الآية بما يوافق هوى أبيه: "إن الخاتم بفتح التاء معناه: الآلة التي يختم ا وليس الانـتهاء، ومعنى الآية إذاً: أنه صلي الله عليه وسلم آلة الختم التي ختم ا جميع النبيـين" إلى أن يقول: "والخلاصة أن هذه الآية لا تحظر النبوة التي ذكرناها آنفاً ولكنها تنفي النبوة التشريعية أو النبوة المباشرة"[(1)]، وتفسـير الآية ذه الطريقة خطأ بالغ الخطورة؛ فإنه وإن كانت كلمة (خاتم) بمفردها يمكن أن تطلق ذا المعنى ولكن السـياق يدل على شيء آخر، كما أن تفسـيرها ذا يخالف ما أجمع عليه سلف هذه الأمة، كما أن الهوى يظهر ظهوراً جلياً في هذا النوع من التفسـير، مما لا يدع مجالاً للشك في عدم صلاحية هذا التفسـير إطلاقاً[٢].

كما يقول: "وعلاوة على شواهد القرآن الحكيم يتبين من أحاديث الرسـول ﷺ أيضاً أن باب النبوة ليس بمسدود على الإطلاق لأنه ﷺ وصف المسـيح الموعود بصفة النبي مراراً ولو لم يمكن وجود النبوة مطلقاً لما وصفه النبي ﷺ بصفة النبي"[٣]، وهذه مغالطة مفضوحة للنصوص الصحيحة الصريحة من كتاب الله وسـنة رسـوله ﷺ، وقد أوردت شيئاً منها في بداية المطلب.

وقد أصدرت المحكمة الشرعية الفيدرالية الباكستانية عام: (١٩٨٤م) حكماً شرعياً تبين فيه حقيقة القاديانية وتحظر ممارسة نشاطا ا وتجرم كل من يسمي نفسه مسلماً ممن ينتسب إلى القاديانية[٤].

هذه بعض الأمثلة من العصر الحاضر لادعاء النبوة في من ينتسب إلى هذه الأمة، ويتشـبه بأعداء الملة، والناقمين على الدين المتواطئين لإفساده، وليس العجب منهم؛ فكذ م واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن العجب ممن تبعهم من المسـلمين؛ وقد يزول العجب حين يفقه السبب، ألا وهو الجهل ذا الدين وغلبة الخرافات والبدع؛

---

(1) انظر: دعوة الأمير معتقدات الجماعة الأحمدية ص: (٣٤). نقلاً عن فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيـان وقف الإسلام منها، إعداد غالب بن علي عواجي: ٥٠٨/٢

2 - وتفسـير القرآن الكريم على الوجه الصحيح له طرقه المرعية والتي لا يتجاوزها إلى ما يضادها إلا مغـرض. راجع: مطلب: (مظاهر التشـبه بالكفار في العصر الحديث في تحريف معاني القرآن الكريم)؛ فقد بحثت هذه المسألـة هناك.

3 - دعوة الأمير معتقدات الجماعة الأحمدية ص: (٤٠). نقلاً عن فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان وقـف الإسلام منها، إعداد غالب بن علي عواجي: ٥٠٩/٢

4 - فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان وقف الإسلام منها، إعداد غالب بن علي عواجي: ٥٥٢/٢- ٥٥٣.

فإن الخرافة تتبعها الخرافة، ويتبعها المروق من الدين الحنيف الذي يأبى أن يشتمل على خرافة.

المبحث السادس: مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث في الإيمان بالقدر:-

القضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الواردة في حديث جبريل الطويل، حيث قال النبي ﷺ حين سأله جبريل عن الإيمان: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره))[1]، فالإيمان بالقدر من دعائم الإيمان التي بزوالها يزول الإيمان، وجاء ذكر القدر في القرآن مفصلاً بمراتبه التي لا يستقيم الإيمان بالتصديق بمجملها دون تفصيلها؛ فلا يستقيم الإيمان بالقدر حتى يتم الإيمان بكل مرتبة من مراتب القدر مفصلة، فقوله تعالى: (وعنده مفَاتح الْغيبِ لا يعلَمها إلا هو)[٢]، يدل على مرتبة العلم، وقوله تعالى: (لتعلَموا أن الله علَى كُل شيءٍ قَدير وأن الله قَد أحاَطَ بِكُل شيءٍ علْماً)[٣]، دليل على علم الله تعالى بكل ما كتب في اللوح المحفوظ وقد بين لنا رسـول الله ﷺ بأن الله قد كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، وهذه الآية تنص على علم الله وإحاطته بكل

(1) صحيح مسلم: ٣٧/١، برقم: (٨).
(2) سـورة: (الأنعام: من الآية٥٩).
(3) سـورة: (الطلاق: من الآية١٢).

شيء علماً واللوح المحفوظ يدخل ضمن عموم كلمة (شيء)، فقد علمه الله بل وأحاط به علماً.

وقوله ﷺ: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة))[1]، يدل على مرتبة الكتابة.

وقوله تعالى: (وما تشاءُونَ إلا أنْ يشاءَ الله إن الله كَانَ عليماً حكيماً)[2]، يدل على مرتبة المشيئة، وقوله تعالى: (إنا كُل شيءٍ خلَقْناه بِقَدرٍ)[3]، يدل على مرتبة الخلق. فهذه الآيات دلت على حقائق اعتقادية ثابتة، والحديث السابق دلنا على أن هذه الحقائق الثابتة تدخل تحت الإيمان بالقدر الذي هو ركن من أركان الإيمان، ولا يصح الإيمان إلا به، كما أنه من لم يؤمن بأحد هذه المراتب فإنه لم يؤمن بالقضاء والقدر[4].

فلا تنافي بين مشيئة العبد ومشيئة الله، كما أنه لا تنافي بين خلق الله تبارك وتعالى للفعل الذي يمارسه العبد وبين كون الفعل صادراً عن العبد[5]، فمشيئة العبد بمشيئة الله وبعد إرادته وعلمه، وفعل العبد إنما هو من خلق الله، وإنما يحاسب الله العبد على الفعل الذي يفعله لأنه خلق له إرادة وقدرة حقيقية على الفعل واختيار نوعه سواءٌ أكان خيراً أم شراً[6]، والله على ذلك قدير، هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: "وسلك أهل السنة والجماعة في ذلك مسلكاً وسطاً قائماً على الدليل الشرعي والدليل العقلي، وقالوا: إن الأفعال التي يحدثها الله تعالى في الكون تنقسم إلى قسمين: **القسم الأول:** ما يجريه الله تبارك وتعالى من فعله في مخلوقاته لهذا لا اختيار لأحد فيه، كإنزال المطر وإنبات الزرع وكالإحياء والإماتة والمرض والصحة وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تشاهد في مخلوقات الله، فإن هذه بلا شك ليس لأحد فيها اختيار وليس لأحد فيها مشيئة، وإنما المشيئة فيها لله الواحد القهار. **والقسم الثاني:** ما يفعله الناس بل ما تفعله الخلائق كلها من ذوات الإرادة فإن هذه - أعني هذه الأفعال - تكون باختيار فاعليها وإراد م ؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل ذلك إليهم، قال الله تعالى: (لمن شاءَ منكُم أن يستقيم)[7]، وقال تعالى: (منكُم من يريد الدنيا ومنكُم من يريد الآخرةَ)[1]. والإنسان

---

1 - صحيح مسلم: ٢٠٤٤/٤، برقم: (٢٦٥٣).

(2) سورة: (الإنسان: ٣٠).

(3) سورة: (القمر:٤٩).

(4) انظر: شفاء العليل: ٢٩/١

(5) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي: ٦٣٩/٢.

6 - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي: ٦٥٠/٢.

(7) سورة: (التكوير الآية: ٢٨).

يعرف الفرق بين ما يقع منه باختيار، وبين ما يقع منه باضطرار وإجبار، الإنسان ينـزل من السطح في السلم نزولاً اختيارياً يعرف أنه مختار، ولكنه يسقط هاوياً من السطح ويعرف أنه ليس مختاراً لذلك، ويعرف الفرق بين الفعلين، وأن الثاني إجبار والأول اختيار، وكل إنسان يعرف ذلك، ولا أحد ينكر الفرق بينهما، وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختيارياً وبين ما يقع اضطراراً وإجباراً"[٢]

هذا هو القدر وهكذا يكون الإيمان بالقدر، جملة وتفصيلاً.

ولما علم السلف الصالح أهمية هذه العقيدة من الدين حرصوا على تقريرها ودفع الشبهات حولها، من ذلك ما روي عن عبد الواحد بن سليم[٣] قال: قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح[٤] فقلت له: يا أبا محمد إن أهل البصرة يقولون في القدر، قال: يا بني أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال فاقرأ الزخرف، قال: فقرأت: (حم، والْكتابِ الْمبِين، إنا جعلْناه قُرآناً عربياً لَعلكُم تعقلُونَ، وإنه في أُم الكتابِ لَدينا لَعلي حكيم)[5]، فقال أتدري ما أم الكتاب؟ قلت: الله ورسـوله أعلم، قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السموات، وقبل أن يخلق الأرض، فيه: أن فرعون من أهل النار، وفيه: تبت يدا أبي لهب وتب، قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسـول الله ﷺ فسألته: ما كان وصية أبيك عند الموت؟ قال: دعاني أبي فقال لي: يا بني اتق الله، واعلم أنك لن تتقي

(1) سـورة: (آل عمران الآية: ١٥٢).

٢ - مجلة البيان العدد: (5).

(3) قال عنه البخاري في التاريخ الكبير: "عبد الواحد بن سليم سمع عطاء سمع منه أبو داود وعلي بن الجعد وسمـع وافداً أبا عبد الله عن ابن عمر رضي الله عنهما"، التاريخ الكبير: ٥٧/٦، واختلفت فيه أقوال أهل العلم، فقال عبـد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: حديثه حديث منكر، أحاديثه موضوعة، وقال معاوية بن صالح عن يحيى بـن معـين: ضعيف، وقال أبو حاتم: شيخ. انظر: تهذيب الكمال، للمزي: ٤٥٥/١٨.

(4) مفتي الحرم أبو محمد القرشي مولاهم المكي، يقال ولاؤه لبني جمح كان من مولدي الجند ونشأ بمكة ولـد في أثناء خلافة عثمان، حدث عن عائشة وأم سلمة وأم هانىء وأبي هريرة وابن عباس وحكيم بن حزام ورافع بن خديج وزيد بن أرقم وزيد بن خالد الجهني وصفوان بن أمية وابن الزبير وعبد الله بن عمرو وابن عمر وجابر ومعاويـة وأبي سعيد وعدة من الصحابة، أبوه نوبي وكان يعمل المكاتل وكان عطاء أعور أشل أفطس أعرج أسـود، وقطعت يده مع ابن الزبير وكان بليغ الموعظة حسـن القصص نفاعاً للعامة، قال الأوزاعي كان من العبادة على شيء لم نـسمع أحداً قوي عليه، انظر: سـير أعلام النبلاء: ٩٠/٥ – ٩١.

(5) سـورة الزخرف، الآيات: (١- 5).

الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، فإن مت على غير هذا دخلت النار)) [(١)].

ولو تأملنا هذه العقيدة الصافية التي تعتمد على الكتاب والسـنة لوجدنا أن جانب الربوبية لم يمس بأي نقص بل بالإيمان بالقضاء والقدر يزيد إيمان العبد بربه الذي يخلق كل حادث من حوادث الكون؛ فلا خالق إلا الله، حتى أفعال العباد ليست بتصرفهم المستقل[٢] بل بخلق الله الذي خلق لهم الإرادة كذلك. كما أنه ليس في هذه العقيدة مساس بجانب علم الله تبارك وتعالى، بل تزيد من عقيدة المؤمن بربه، الذي يعلم كل شيء ويعلم الفعل قبل وقوعه، وهو الذي يباشر خلقه حالَ وقوعه، وهو الذي شاء وقوعه قبل أن يقع.

وهذا الوضوح في الاعتقاد الذي نجده في العقيدة الإسلامية السمحة، لو تصفحنا عقائد الأديان السابقة _ سماوية أو غير سماوية _ في هذه المسألة لوجدنا تبايناً شاسعاً وفرقاً واضحاً، في احترام الذات الإلهية، وهذه وقفات مع بعض هذه العقائد الفاسدة في القدر وفي صفة الخلق بالذات، يتضح ا هذا التباين.

من عقائد الديانات السابقة في مراتب القضاء والقدر:

فاليهود مثلاً من عقائدهم: أن الله تبدو له عواقب الأمور بعد فعلها، وأنه يريد أن يفعل ثم لا يفعل، فيبدو له أن الأمر الذي قضاه ليس بصحيح، أو يبدو له في أمر لم يقـضه أن قضاءه خير بعد أن لم يكن لديه ذلك الرأي من قبل، ويدل على ذلك ما هو مثبـت في العهد القديم[(٣)]: "٥ ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. ٦ فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه.

---

(1) سـنن الترمذي: ٤٥٧/٤، برقم: (٢١٥٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سـ ـنن الترمـذي: ٤٤٩/٢-٤٥٠.

2 - وقد ألف البخاري كتاباً في هذا الباب سماه: (كتاب خلق أفعال العباد).

(3) "العهد القديم: تسميته وتسمية العهد الجديد اجتهادية أخذها النصارى من قول سـفر أرميـا: ٣١/٣١-٣٣ ((أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل، رفع بين يهوذا عهداً جديداً ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم))، وما في الرسالة العبرانية ٧/٨-١٣ وآخر فقرا ا ((فإذا قال جديداً عتق الأول)) . وكلمة العهد في التوراة تعني الوعد الصادق من الله تعالى للإنسان، والمقصود بالعهد القديم التوراة وملحقا ا من جميع الأسفار المنسـوبة للأنبياء قبـل عيسى، عليه الصلاة والسلام، وأولها سفر التكوين"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحـزاب المعاصـرة ١٠٩٨/٢.

٧ فقال الرب امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع ـائم ودبابـات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم"[1]، وهذا وصف لله بعدم العلم بعواقب الأمـور، ووصف له بالندم على ما فعله مما لا ينبغي لمقام الربوبية تعالى الله عما يصفون.

وأما النصارى: فاختلفت أقوالهم في القدر، فمنهم نفاة للقدر ومنهم غالين في إثباتـه إلى حد القول بالجبر، يقول الشيخ عبد الرحمن المحمود: "والنصارى أيـضاً قـد اختلفـوا وتفرقوا كثيراً في جوهر العقيدة وفي غيرها، وبالنسبة للقدر فقـد اختلفـوا فيـه أيـضاً: فالمسـيحيون الشرقيون[٢] يقولون إن الإنسان مخير، والآخرون[٣] يقولـون بـالجبر[٤]"[٥]، ووصف الإنسان بأنه مخير على الإطلاق يتنافى مع كون الخالق هو الله وحده، فلا بد مـن تقيـيد هذا التخيـير بإرادة الله وقدره، وأما الجبر فهو إلغاء لقدرة الإنسان على الفعـل، وهذا يبطله الحس والمشاهدة.

وأما ا ـوس فقد اشتهر عندهم القول بوجود خالقين: خالق للخير وخالق للشر، "قالت ا ـوس أعجب الله حسـن خلقه فتخوف ما يضاده فيه فتفكر في ذلك فكرة

---

(1) العهد القديم، سفر التكوين: ٦/ ٥-٧.

(2) (المسـيحيون الشرقيون): ويسمون باليعقوبية "وهم أصحاب يعقوب البراذعي، قالوا بأقانيم الثلاثة، إلا أ ـم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسـيح. وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. وعنهم أخبرنـا القـرآن الكريم: (لَقَد كَفَرَ الذين قَالُوا إن الله هو الْمسـيح ابن مريم) (المائدة: من الآيـة١٧)"، انظـر: الملـل والنحـل للشهرستاني:٢٧٠/١، المسـيحية، د. أحمد شلبي، ص: (١٦٣)، محاضرات في النصرانية، ص: (١٥٩-١٦٠).

(3) كالمسـيحيـين الكاثوليك، أتباع البابا في روما وغيرهم، انظر: القضاء والقدر، للشيخ د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، ص: (٧٩).

(4) انظر: تاريخ الفلسـفة في الإسلام ج دي بور ص: (٤٩).

5 - القضاء والقدر، للشيخ د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، ص: (٧٩).

فحدث منها إبليس وقال بعضهم أصابته بعينة فالتفت وراءه فرأى إبليس فصالحه على أن يمهله إلى مدة وودعه على ذلك حتى إذا مضت المدة أهلكه الله فكان من إبليس كل شر ومن الله كل خير"[1]، وهناك طائفة من ا وس وهم المنانية[2] يقولون: "الأشياء على ما عليه من امتزاج النور والظلمة وكانا متباينين النور في العلو لا يتناهى في أربع جهات شمال وجنوب وصباً ودبور والظلمة في السفل كذلك ولها من جهة الالتقاء تناه فبعت الظلمة على النور فامتزجا فكان العالم من امتزاجهما على قدر الامتزاج"[3].

مظاهر التشـبه لدى بعض الفرق في العصر الحديث باعتقادات الكفار في والقدر:

ولو تأملنا بعض العقائد لدى بعض الفرق لوجدنا تشا اً عظيماً في هذا الباب.

فاعتقاد الرافضة بالبداء[4] على الله من العقائد التي لا يمكنهم إخفاؤها فهي مسطورة في أكثر الكتب ثقة عندهم وهو الكافي للكليني، ومن النصوص التي ورد فيها البداء على الله في هذا الكتاب ما رواه الكليني عن محمد بنِ يحيى عن أَحمد بنِ محمد بنِ عيسى عنِ الْحجالِ عن أَبِي إِسحاق ثَعلَبةَ عن زرارةَ بنِ أَعين عن أَحدهما **(عليهما السلام)** قَالَ ما عبِد الله بِشيءٍ مثْلِ الْبداءِ و في رواية عن أَبِي عبد الله **(عليه السلام)** ما عظم الله بِمثْلِ

1 - التوحيد، لأبي منصور الماتريدي:: ١٧٢/١

2 - انظر: مقالات الإسلاميـين: ٣٣٦/١، والمنانية أتباع رجل اسمه ماني بن فتق بابك بن أبي برزام، من ا وس وقد كان رجلاً نقاشاً خفيف اليد ظهر في زمن سابور بن أزدشير بن بابك وادعى النبوة وقال إن للعالم أصلين نـور وظلمة وكلاهما قديمان، انظر: الفهرست: ٤٥٦/١، اعتقادات فرق المسـلمين والمشـركين: ٨٨/١، وقد يقال لهم المانوية.

3 - التوحيد لأبي منصور الماتريدي: ١٥٧/١

(4) وعقيدة البداء هي: أن الله تبدو له البداوات وانه يريد أن يفعل ثم لا يفعل لما يحدث له من البداء، فيبدو له أن الأمر الذي قضاه ليس بصحيح، أو يبدو له في أمر لم يقضه أن قضاءه خير بعد أن لم يكن عنده ذلك الرأي من قبل، وهي عقيدة يهودية ضالة وردت في نص التوراة المحرفة، وانتقلت إلى السبئية، ثم أخذ ا المختار بـن أبي عبيـد الله الثقفي، ثم انتقلت إلى الشيعة". انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٩٨٢/٢، مقالات الإسلاميـين: ٢٢١/١.

الْبداءِ"[١]، ويروي الكليني: "عن أبي عبد الله (عليه السلام) يقُولُ: لَو علم الناس ما في الْقَولِ بِالْبداءِ من الْأَجرِ ما فَتروا عنِ الْكَلَامِ فيه"[٢].

وإن كان في ما يروى في الكافي تناقض؛ فيروي الكليني عن "أَبِي عبد الله (عليه السلام) قَالَ ما بدا لله في شيءٍ إلا كَانَ في علْمه قَبلَ أَنْ يبدو لَه"[٣]، وهذا إن كان هو المقصود بالبداء: لزم أن يقال: النسخ بدل البداء؛ لأن البداء فيه معنى العلم بالمصلحة في الشيء بعد أن لم تكن معلومة، وبالمفسدة في الشيء بعد أن كانت مجهولة لله _ تعالى الله عن ذلك _.

ولكن لو تأملنا جيداً في نصوص الكافي لوجدنا ما يدل على أن البداء المقصود عند الكليني هو البداء المعروف في اللغة وليس ما يرويه في النص السابق ليوهم المسـلمين بأن البداء إنما يكون بعد العلم، فيروي الكليني في الكافي: "عن أَبِي عبد الله **(عليه السلام)** قَال إِن الناس لَما كَذبوا بِرسـولِ الله **(صلى الله عليه وآله)** هم الله تبارك و تعالَى بِهلَاك أَهلِ الْأَرضِ إلا علياً فَما سـواه بِقَوله فَتول عنهم فَما أَنت بِملُومٍ ثُم بدا لَه فَرحم الْمؤمنِين ثُم قَالَ لنبِيه **(صلى الله عليه وآله)** و ذَكِّر فَإِن الذكْرى تنفَع الْمؤمنِين"[4]؛ فإنه لا يهم على فعل شيء ثم يتركه إلى غيره إلا من كان على عدم علم بعواقب الأمور.

ويروي الكليني: " عن أَبِي هاشمٍ الْجعفَرِي قَالَ كُنت عند أَبِي الْحسـنِ **(عليه السلام)** بعد ما مضى ابنه أَبو جعفَرٍ و إِني لَأُفَكر في نفْسـي أُرِيد أَنْ أَقُولَ كَأَنهما أَعنِي أَبا جعفَرٍ و أَبا محمد في هذَا الْوقْت كَأَبِي الْحسـنِ موسى و إِسماعيلَ ابني جعفَرِ بنِ محمد **(عليه السلام)** و إِن قصتهما كَقصتهما إِذْ كَانَ أَبو محمد الْمرجى بعد أَبِي جعفَرٍ **(عليه السلام)** فَأَقْبلَ علَي أَبو الْحسـنِ قَبلَ أَنْ أَنطق فَقَالَ نعم يا أَبا هاشمٍ بدا لله في أَبِي محمد بعد أَبِي جعفَرٍ **(عليه السلام)** ما لَم يكُن يعرف لَه كَما بدا لَه في موسى بعد مضي إِسماعيلَ ما كَشف بِه عن حاله و هو كَما حدثَتك نفْسك و إِنْ كَرِه الْمبطلُونَ و أَبو محمد ابنِي الْخلَف من بعدي عنده علْم ما يحتاج إِلَيه و معه آلَةُ الْإِمامة"[5].

---

1 - انظر: الكافي للكليني، صفحة (١٤٦).

2 - انظر: الكافي للكليني: ص: (١٤٨).

3 - الكافي للكليني، ص: (١٤٨)، وهذا إن كان هو المقصود بالبداء: لزم أن يقال: النسخ بدل البداء.

(4) انظر: الكافي للكليني، ص: (١٠٣).

(5) الكافي للكليني، ص: (٣٢٧).

هذه النصوص وهي في أكثر الكتب أهمية لديهم تدل على أهمية عقيدة البداء عندهم، وقد شا وا ا ما اعتقده اليهود _ في علم الله قبل تقديره للأمور _ من البداء.

وأما المعتزلة فإن لهم أصولهم الثابتة التي لا يتـنازلون عنها، ومن ضمن تلك الأصول الثابتة: القول بالعدل، ويقصدون بالعدل: أن الله من صفاته العدل ولا يمكن أن يظلم عباده، فلا يعذ م إلا بما كان من أفعالهم ابتداءً، دون تدخل منه، ولو كان الله يعذب العصاة من عباده على شيء خلقه من أفعالهم لكان ظالماً لهم، واستدلوا ببعض الآيات كقوله تعالى: (وما ربك بِظَلاَّمٍ للْعبيد)[١]، وقوله: (وما ظَلَمناهم ولَكن كَانوا أَنفُسهم يظْلمونَ)[٢]، وتركوا قول الله تعالى: (وما تشاءُونَ إلا أَنْ يشاءَ الله رب الْعالَمين)[٣]، وهذه الشبهة هي أصل نفي المعتزلة للقدر[٤]، والحقيقة أن قول المعتزلة هذا يعني وجود خالق للأعمال البشرية _ وخاصة الشرور والمعاصي _ غير الله، وهو ذات العبد، وهذا خطأ عظيم في جانب الربوبية، يصعب عليهم تداركه إن لم يرجعوا عن قولهم بنفي القدر.

ويذكر العلماء: أن أول من قال بالقدر كانت لهم صلات بأصـحاب الـديانات الأخرى فيرى ابن كثير – رحمه الله _ أن معبد الجهني[5] الذي تكلم بالقدر: "أنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يقال له سـوس"[6]، يقول الشيخ عبـد الـرحمن المحمود: "وقد يكون من المحتمل أن الفكرة من أساسها كانت عند هذا الرجـل النـصراني الذي تظاهر بالإسلام أو عند هذا ا وسـي سـيسـويه، ولكنه لم يستطع بشخـصه أن يجاهر ا ويذيعها بين الناس به، فتأثر به معبد الجهني الذي نطق ـا علانيـة، ونـشرها فاشتهرت عنه"[٧]، ويقول مبيناً التشابه بين قول النصارى وبين قول المعتزلـة في القـدر:

---

(1) سـورة (فصلت: من الآية٤٦).
(2) سـورة (النحل: من الآية١١٨).
(3) سـورة (التكوير:٢٩).
4 - مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع، للشيخ: ناصر عبد الكريم العقل: ٢٦/٢
(5) هو: معبد بن عبد الله بن عليم، شهد يوم التحكيم، قال عنه الحسـن البصري: إياكم ومعبداً فإنـه ضـال مضل، وهو أول من تكلم في البصرة بالقدر فسلك أهل البصرة بعده مسلكه، قتله عبد الملك بن مروان في سـنة ثمانين للهجرة، بدمشق، انظر: البداية والنهاية: لابن كثير: ٣٦/٩- ٣٧.
(6) البداية والنهاية: لابن كثير: ٣٦/٩.
(7) القضاء والقدر، للشيخ د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، ص: (١١٨).

"وهناك تشابه كبير بين آراء بعـض المـسـيحيـين كالنـساطرة[1] والمـسـيحيـين الشرقيـين، وبين آراء المعتزلة" [٢].

كما أن هذا القول الذي قالت به المعتزلة مما أخذوه عن الفلاسفة؛ حيث إ م لم يألوا جهداً في دراسة مؤلفا م[٣].

وقول القدرية[٤] هذا شا وا به قول ا وس[٥] القائلين بوجود إلهين، إله يخلق الخير وإله يخلق الشر يقول الآمدي: "وأما الثنوية[٦] فاعتقادهم أن مبدأ الكائنات وكل ما في العالم من خير وشر ونفع وضر ليس هو إلا امتزاج النور والظلمة وأ ما أصل العلوم فما يحصل من الخير فمضاف إلى النور وما يحصل من الشر فمضاف إلى الظلمة لكن منهم من ذهب إلى أن النور قديم والظلمة حادثة عن فكرة ردية حصلت لبعض أجزاء النور وعبروا عن النور بالبارى وعن الظلمة بالشيطان ومنهم من قال بأ ما قديمان وأما المعتزلة فمطبقون على أن أفعال العباد المختارين مخلوقة لهم وأ ا غير داخلة في مقدورات الرب تعالى كما أن مقدورات الرب غير داخلة في مقدورا م"[7]؛ ولذلك سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة، حيث ورد عنه ﷺ أنه قال: ((القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم))[٨]، وهنا جعلهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة لكو م يقولون بوجود

---

(1) النساطرة (أو النسطوريون)، هم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتـصرف في الأناجيـل بحكم رأيه. انظر الملل والنحل ٢٦٨/١، ومحاضرات في النصرانية ص: (٧٣) وما بعدها. والمسـيحية، د. شلبي ص: (٨٩) وما بعدها.

(2) القضاء والقدر، للشيخ د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، ص: (٧٩).

3 - انظر: غاية المرام، للآمدي: ٥٢/١.

(4) "القدرية: إحدى الفرق الكلامية المنتسبة إلى الإسلام، ذات المفاهيم والآراء الاعتقادية الخاطئة في مفهوم القدر، إذ قالوا بإسـناد أفعال العباد إلى قدر م، وأنه ليس لله –تعالى عن قولهم- دخل في ذلك ولا قدرة ولا مـشيئة ولا قضاء. كما أنكروا علم الله تعالى السابق، وقد وجدت طائفة منهم تثبت العلم والكتابة وتنكـر المـشيئة"، انظـر الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١١٤/٢

5 - قال أبو منصور الماتريدي: "وا وس قد استجازوا حدث العالم لا عن شيء وأصل وإنما عظم عندهم وصف من منه الخيرات بفعل الشر"، التوحيد: ١٧٣/١.

(6) الثنوية: مذهب ديني فلسفي قديم يمثل أحد أطوار الديانة ا وسـية، ويقوم مذهب الثنوية على أساس أن العالم مركب من أصلين قديمين أزليـين وممتزجين هما: النور والظلمة، ويختلفان في الجوهر والطبع والصفات والفعل _ بخـلاف ا ـوس الذين يقولون بحدوث الظلام بعد النور، فجوهر النور عند الثنوية: الصفاء والنقاء والجمال، وجوهر الظلمة: القبح واللـؤم. وفعل النور: الخير والصلاح، وفعل الظلمة: الشر والفساد والفوضى". انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ٢٩٠/١.

(7) غاية المرام: ٢٠٦/١

(8) رواه أبو داود – كتاب السـنة، باب في القدر ٢٢٢/٤، ورقمه: (٤٦٩١)، حسـنه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٨١٨/٢، برقم: (٤٤٤٢).

خالق غير الله يختص بخلق الشر، قال الخطابي: "إنما جعلهم مجوس هذه الأمة لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس من قولهم بالأصلين النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله عز وجل والشر إلى غيره خلقاً وإيجادا"[1].

والعجيب أن مذهباً خطيراً كهذا المذهب لا زال يلقى رواجاً في العصر الحديث لدى بعض المفكرين المخدوعين بمنهج المعتزلة الذي ينطلق من المنطلق العقلي البحت، دون الرجوع إلى الكتاب والسنة إلا للاعتضاد والاستشهاد، يقول أحد الكتاب المعاصرين: "وفي رأينا أن قول المعتزلة والقاضي في الأفعال لا يحد من قدرة الله ومشيئته، ولا يؤدي إلى استقلال العباد في أفعالهم استقلالاً تاماً عن قدرة الله تعالى، وأما أن هذه النظرية لا تؤدي إلى كون العبد مستقلاً في فعله عن الله، فلأنه هو الذي أقدره على فعله، ومكنه منه، مع هيمنته المطلقة على الإنسان والمخلوقات جميعاً، فإن شاء منعه، وإن شاء أمكنه الاستمرار عليه، سواء خالف مراد العبد في التصرف أو وافقه"[2]، وهنا يحاول الكاتب أن ينفي تأثير رأي المعتزلة على جانب الإيمان بربوبية الله تعالى، وهذا الرأي فيه تمحل ومناورة مكشوفة؛ فإن قول المعتزلة هو: أن الخالق لفعل العبد هو العبد نفسه، فهو قول باطل ومخالف لرأي أهل السنة والجماعة، كما أنه مخالف للعقل السليم[3]، ولا يشفع لهذا القول كون المعتزلة أثبتوا قدرة الله، أو أن الله عز وجل يستطيع منع العبد عن الاستمرار في الفعل أو تمكينه من المضي فيما يفعل العبد؛ فإن الفاعل الحقيقي في نظر المعتزلة لم يزل هو العبد نفسه.

وينحى نفس المنحى _ في الإعجاب برأي المعتزلة _ كاتب آخر؛ حيث يقول: "وهذه العقيدة لا تنقص عقيدة التوحيد، ما دام الإنسان يؤمن بأن قدرة العبد مخلوقة لله، وأنه سبحانه هو الذي وهب له العقل، وملكة التفكير، والحرية المطلقة، إذاً لا خوف على العقيدة، ولا حرج في أن هذه الأعمال هي للناس إيجاداً وخلقاً، وأي شخص عنده مسكة من العقل يسمع آيات الوعيد التي تنذر المخالفين لأمره سبحانه بنار الجحيم وعذاب

---

1 - كشف الخفاء: ١٢٠/٢

(2) قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني: تأليف د. عبد الكريم عثمان، ص: (١٩٧).

(3) ففي إشارات عقلية يلفتنا إليها القرآن الكريم يقول تعالى: (لَو كَانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسدتا فَسبحانَ الله رب الْعرشِ عما يصفُونَ) (الأنبياء:٢٢)، ويقول تعالى: (قُلْ لَو كَانَ معه آلهةٌ كَما يقُولُونَ إذاً لابتغوا إِلَى ذي الْعرشِ سبِيلاً) (الاسراء:٤٢)، فلا يمكن للعقل السليم أن يتصور وجود إلهين مدبرين للكون أو متصرفين في جزئية معينة مهما صغرت، خلافاً لقول المعتزلة الذين قالوا بأن العبد يخلق فعل نفسه.

السعير، ثم يحكم هذا المخطئ بأن العباد ليس لهم من أعمالهم إلا الاختيار فقط، أو نوع من الاختيار، أما الأعمال فهي لله تعالى إيجاداً، إن هذه سبة تجافي العقل البشري وعدم تقدير لله حق قدره.."[(١)]، وهل هناك سبة أعظم من أن لا يجد المرء حرجاً من نسبة الخلق إلى العبد الفقير، وعدم نسبتها إلى الخالق المهيمن، ليكون في العالم خالقين الله والإنسان المكلف، تعالى الله عز وجل.

وفي إطراء غير متزن يمتدح محمد عمارة كتاب يحيى بن الحسين[(٢)]: (رسائل العدل والتوحيد)، وفيه تأصيل لعقيدة المعتزلة بنفي المشيئة عن الله وإثباتها للعبد، ودفع لأدلة أهل السنة والجماعة[(٣)] وتسميتهم بالمجبرة، فيقول في تمهيد تحقيقه للكتاب: "ويزيد من أهمية هذه الرسائل أن الفكر الإسلامي الذي تضمنته، من الممكن، بل ومن الضروري أن يتحول بالنسبة لنا إلى (جذور) نصلها بفكرنا المعاصر، و(أصول) ننسج بينها وبين مستقبلنا الفكري الكثير من الخيوط.. لا لأنها جزء عزيز علينا من الماضي والتراث، ولا لأنها رسائل قد كتبت تحت رايات الإسلام، ولا لأنها تمثل نقاء الفكر العربي الإسلامي الأصيل في موضوع الحرية الإنسانية .. لا لكل ذلك فحسب، ولكن للصلاحيات الجمة والشديدة التي تمتلكها أفكار هذه الرسائل، كي تمثل بالنسبة لفكرنا المعاصر (الأصول) و (الجذور)، وذلك دونما أدنى حيدة أو ميل عن الالتزام بالاستنارة وسعة الأفق والموقف التقدمي في الحياة الفكرية والثقافية، وأيضاً في الممارسة العملية لما في هذه الثقافة من قيم وآراء ونظريات"[(٤)].

وفي محاولة لاستنباط الأخلاقيات التي يمكن أن يتسم بها المؤمن من نظريات المعتزلة، وخاصة أصلهم: العدل، يقول أحمد صبحي: "لا شك بعد ذلك أن العدل أنسب الصفات الإلهية تعبيراً عن اتجاه أخلاقي في علاقة الله بالإنسان، بل لا شك أن المعتزلة لم يتخيروا صفة العدل ويجعلوها أصلاً لهم وربما أهم أصولهم إلا لأن فلسفتهم ذات هدف

(1) البيان في تصحيح الإيمان، الشيخ إبراهيم محمد عبد الباقي، ص: (٦٧)، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر، نقلاً عن كتاب القضاء والقدر، للشيخ د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، ص: (١٥٣).

(2) هو: أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بالمدينة سنة: (٢٤٥هـ)، مات مسموماً بمدينة صعدة، سنة: (٢٩٨هـ).

(3) كما في ص: (٣٥- ٤٣)، يقول في بدايتها: "زعم أهل الجهل أن الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فكذلك الله عز وجل، وتأولوا ذلك بجهلهم على أقبح التأويل وأسمج المعاني، ولم يعلموا ما أراد الله سبحانه، من ذلك".

(4) رسائل العدل والتوحيد، تأليف: الإمام يحيى بن الحسين، تحقيق: محمد عمارة، ص: (٥، ٦).

أخلاقي قائم على أساس عقلي"[1]، وهنا يثني الكاتب على أصل المعتزلة لأصل العدل الذي يلزم العبد بأن يحاسب نفسه على كل تصرفاته؛ كيف لا وهو خالق هذه الأفعال من دون الله، ولكن منهج أهل السـنة جمع بين الأساس العقدي والأساس الأخلاقـي، فالأسـاس الاعتقادي هو أنه لا خالق إلا الله، والأخلاقي: هو أ م ينسبون تبعة أفعال العبد إلى العبـد نفسه؛ لأن الله خيره فيها تخيـيراً كاملاً، فجمعوا بين تقديس الخـالق واحتـرام جانـب الربوبية، الذي اعتدى عليه المعتزلة بادعائهم خلق العبد لفعل نفسه، وبين إلزام العبد تبعـة أفعاله؛ ليكون محاسباً لنفسه مراعياً لتصرفاته، فما الفائدة إذا حملنا العبد تبعـة أفعالـه ولم نحْملْه على احترام جانب ربوبية الله، إن هذا إصلاح مزعوم لجانب الأخلاق، وتحطيم لجدار العقيدة، وإذا فسدت العقيدة لن تصلح الأخلاق[2].

المبحث السابع:-

مظاهر التشبه بالكفار في الاختلاف في أصول الدين:-

المطلب الأول: تعريف الاختلاف المذموم:-

(1) الفلسـفة الأخلاقية، الصفحة: (٤٩).

2 - قال رسـول الله ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجـسد كله ألا وهي القلب))، أخرجه البخاري: ٢٨/١، برقم: (٥٢)، ومسلم: ١٢١٩/٣، برقم: (١٥٩٩).

الاختلاف في اللغة يأتي بعدة معان: منها المضادة، والمفارقة، وعدم الاتفاق، والفساد والترك وقصد الشيء بعد النهي عنه، قال ابن منظور: "والخلاف: المضادة وقد خالفه مخالفة و خلافاً، ويقال: خلف فلان بعقبي إذا فارقه على أمر فصنع شيئاً آخر، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه أو قصده بعدما اه عنه وهو من ذلك وفي التـ يل العزيز (وما أُرِيد أَنْ أُخالفَكُم إلَى ما أَنهاكُم عنه)[1]، وخلف فلان بعقبي وذلك إذا ما فارقه على أمر ثم جاء من ورائه فجعل شيئاً آخر بعد فراقه، وتخالف الأمران و اختلفا: لم يتفقا وكل ما لم يتساو فقد تخالف و اختلف وقوله عز وجل: (والنخلَ والزرع مختلفاً أُكُلُه)[٢]، أي: في حال اختلاف أكله، ويقال: به خلفة أي بطن وهو الاختلاف وقد اختلف الرجل و أخلفه الدواء والمخلوف الذي أصابته خلفة ورقة بطن، والخلف والخالف والخالفة الفاسد من الناس الهاء للمبالغة والخوالف: النساء المتخلفات في البيوت، والخلوف: الحي إذا خرج الرجال وبقي النساء والخلوف: إذا كان الرجال والنساء مجتمعين في الحي وهو من الأضداد وقوله عز وجل: (رضوا بِأَنْ يكُونوا مع الْخوالف)[٣]، قيل مع النساء وقيل مع الفاسد من الناس، ويقال خلف فلان عن أصحابه إذا لم يخرج معهم وفي الحديث أن اليهود قالت لقد علمنا أن محمداً لم يترك أهله خلوفاً أي لم يتركهن سدى لا راعي لهن ولا حامي يقال حي خلوف إذا غاب الرجال وأقام النساء ويطلق على المقيمين والظاعنين ومنه حديث المرأة والمزادتين ونفَرنا خلوف[٤] أي رجالنا غُيب"[5]. وقال المناوي: "اختلاف افتعال من الخلف وهو ما يقع من افتراق بعد اجتماع في أمر من الأمور"[٦].

وإنما أطلت في بيان معنى الاختلاف في اللغة؛ لأن ثمة معنى أريد أن أؤكد عليه وهو معنى الاختلاف على الشيء دون أن يستلزم وجود طرف آخر يختلف مع الطرف الثـانى، فيقال اختلفت اليهود على كتبهم، كما يقال: اختلفت اليهود مع بعضهم البعض، فـالمعنى الأول يجهله كثير من الناس فيظن أن الاختلاف لابد أن يكون فيه طرفان وشيء مختلـف عليه، والواقع اللغوي: أن الاختلاف يكون كذلك، ويكون باختلاف على الـشيء دون وجود طرف ثان. ذلك مما يعين على معرفة معنى الاختلاف في الشرع.

(1) سـورة: (هود: من الآية٨٨).
(2) سـورة: (الأنعام: من الآية١٤١).
(3) سـورة: (التوبة: من الآية٨٧).
4 - انظر: صحيح البخاري: ١٣١/١، برقم: (٣٣٧).
(5) انظر: لسان العرب: ٩١/٩- ٩٢.
6 - فيض القدير: ٢٠٩/١.

ولو تدبرنا معنى الاختلاف الذي جاءت به الآيات الناهية عن التشـبه بالكفار في الاختلاف الذي وقعوا فيه لوجدناه يتعلق بالاختلاف على نصوص الكتاب والسـنة من النصوص الواضحات التي هي أصول لا ينبغي الخروج عنها، فقوله تعالى: (وإن الذين اختلَفُوا في الْكتابِ لَفي شقَاقٍ بعيد)(1)، وقوله: (وما اختلَف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءَتهم الْبينات بغياً بينهم)(٢)، وقوله: (وما تفَرق الذين أُوتوا الْكتاب إلا من بعد ما جاءَتهم الْبينةُ)(٣)، وقوله: (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات)(٤)، كلها نصوص تربط بين الاختلاف والنصوص الشرعية، فالاختلاف المنهي عنه هو الاختلاف على النصوص الشرعية الواضحة الدلالة.

قال ابن كثير في تفسـير قوله تعالى: (وما تفَرق الذين أُوتوا الْكتاب إلا من بعد ما جاءَتهم الْبينةُ)(5): يعني بذلك أهل الكتب المنـزلة على الأمم قبلنا بعدما أقام الله علـيهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم واختلفوا اختلافاً كـثيراً"[6].

كقوله تعالى: (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات)(٧).

ومن الآيات التي ت عن الاختلاف: قوله تعالى: (ولا يزالُونَ مختلفين، إلا مـن رحم ربك)(٨). وقوله تعالى: (ذَلك بِأَن الله نزلَ الْكتاب بِالْحق وإِن الذين اختلَفُـوا فـي الْكتابِ لَفي شقَاقٍ بعيد)(٩). وقوله تعالى: (وما اختلَف الذين أُوتوا الْكتاب إلا من بعد ما جاءَهم الْعلْم بغياً بينهم)(١٠). وقوله: (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعـد مـا جاءَهم الْبينات)(١١). ففي هذه الآيات وغيرها لم يكن الذم فيها على مجرد الاختلاف الذي الناس فيه، ولكنه وقع على مخالفتهم للكتاب المنـزل من عند الله عليهم، والذي أدى بعد ذلك إلى فرقتهم وتـنازعهم، فيذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات نعمته عليهم بـإنزال

---

(1) سـورة (البقرة: من الآية١٧٦).
(2) سـورة: (البقرة: من الآية٢١٣).
(3) سـورة: **(البينة:٤)**.
(4) سـورة: (آل عمران: من الآية١٠٥).
(5) سـورة: (البينة:٤).
6 - ابن كثير ٥٣٨/٤.
(7) سـورة: (آل عمران: من الآية١٠٥).
(8) سـورة هود الآية رقم: (١٨- ١٩).
(9) سـورة البقرة الآية رقم: (١٧٦).
(10) سـورة آل عمران الآية رقم: (١٩).
(11) سـورة آل عمران الآية رقم (١٠٥).

الكتاب ويذكر بعدها كفرهم هذه النعمة باختلافهم على الكتاب ومخالفتهم له، فليس في مجرد مخالفتهم لبعضهم البعض معصية، كما قال تعالى: (ولَكِنِ اختلَفُوا فَمنهم مَن آمن ومنهم من كَفَر)(١) فهنا امتدح الله طائفة لأنها آمنت ووقفت على الحق وأخذت به، مع أنها خالفت الأخرى، فالمخالفة هنا هي مخالفة أهل الكتاب السابقين للكتاب الذي أنزل عليهم، وإن كان الافتراق من لوازم هذه المخالفة. فاللفظ يحمل على اللازم والملزوم.

قال شيخ الإسلام: "ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية كما أخبرنا الله عن بني إسرائيل من مخالفتهم أمر موسى: في الجهاد وغيره، وفي كثرة سؤالهم عن صفات البقرة. لكن هذا الاختلاف على الأنبياء هو – والله أعلم – مخالفة الأنبياء، كما يقول اختلف الناس على الأمير إذا خالفوه"٢.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (ذَلك بِأن الله نزلَ الْكتاب بِالْحق وإن الذين اختلَفُوا في الْكتابِ لَفي شقَاقٍ بعيد)(٣) أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتبا لم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه **ويخالفونه** ويجحدونه ويكتمون صفته فاستهزءوا بآيات الله المنزل على رسلهم فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال: (ذَلك بِأن الله نزلَ الْكتاب بِالْحق وإن الذين اختلَفُوا في الْكتابِ لَفي شقَاقٍ بعيد) (٤)"(5)، ففسر ابن كثير الاختلاف هنا بمخالفة الكتاب ولم يذكر البتة مخالفة أهل الكتاب بعضهم البعض، وإن كان ذلك من لوازم الاختلاف على الكتاب(6).

وفي قوله تعالى: (ولا يزالُونَ مختلفين، إلا من رحم ربك)(٧)، الرحمة واقعة على الطائفة التي استثناها الله في الآيات، ومفهوم ذلك أن العذاب واقع على الفرق الأخرى، وعلة العذاب في الفرق الأخرى هو الاختلاف على النصوص، وعلة الرحمة لدى الفرقة المستثناة: عدم الاختلاف على نصوص الوحي، وهذا النوع من الاختلاف _ وهو

(1) سورة البقرة الآية رقم (٢٥٣).
2 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٤١/١
(3) سورة البقرة الآية رقم (١٧٦).
(4) سورة (البقرة:١٧٦).
(5) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١٩٦/١.
(6) اقتضاء الصراط المستقيم: ٤١/١
(7) سورة: (هود: من الآية: ١١٨-١١٩).

الاختلاف على نصوص الكتاب والسـنة _ هو المذموم في الشرع وهو الذي وقع فيه أهل الكتاب من قبلنا.

والنوع الثاني من الاختلاف هو: اختلاف الفرقة الناجية مع الفرق الأخـرى الـتي جانبت القرآن والسـنة، وهو اختلاف محمود، بخلاف النوع الأول: وهو الاختلاف على الكتاب والسـنة.

فإذا قارنا بين وصف الله لهم في الآية السابقة بالرحمة إذا لم يختلفوا، وبين وصفه لهـم في الآية الأخرى بأ م اختلفوا فقال: (ولَكِنِ اختَلَفُوا فَمنهم من آمن ومنهم من كَفَـر)[1]، وقوله ﷺ: "وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة – يعني الأهواء – كلـها في النار إلا واحدة وهي الجماعة"[2] علمنا أن الاختلاف هنا غـير الاخـتلاف هنـاك، وأن الاختلاف الذي وقع من الفرقة الناجية مع غيرها من الفرق في الآية والحديث الأخيريـن محمود بالنسبة للفرقة المؤمنة المتمسكة بالسـنة، ومذموم بالنسبة للفرق الأخرى؛ وذلـك لأ م وقعوا في النوع الأول من الاختلاف وهو مفارقة الكتاب والـسـنة والاخـتلاف عليهما، كما في آيتي الأنعام وهود[3].

وتقرير هذا المعنى للاختلاف في الأحاديث والآيات، فيه رد على من يعيب على أهل السـنة والجماعة والمتبعين لمنهج السلف الصالح اختلافهم مع بقية الفـرق، فـإن هـذا الاختلاف محمود في حق الفرقة الناجية كما قال تعالى: (ولكن اختلفوا فمنهم مـن آمـن ومنهم من كفر)[4]، ومذموم في حق غيرها من الفرق، والذي يحدد موطن الذم من الحمد في هذا، هو الكتاب والسـنة فمن فارق الكتاب واختلف على الرسـول ﷺ في هديـه وعقيدته، فقد وقع في الاختلاف المذموم وهو الذي ذكره الله في قوله تعالى: (ولا يزالـون مختلفين)[5] كما أن هذا المعنى فيه إنكار على من يجمع الناس، ابتعاداً عن الفرقة، فيجمعهم على غير عقيدة صحيحة، وهو ـذا يظن نفسه قد أبعد الناس بدعوته هذه عـن الفرقـة

(1) سـورة البقرة: (٢٥٣).

(2) انظر: سـنن أبي داود: ١٩٧/٤، برقم: (٤٥٩٦)، وابن ماجـه: ١٣٢٢/٢، بـرقم: (٣٩٩٢)، وسـنن الدارمي: ٣١٤/٢، برقم: (٢٥١٨)، ومسـند الإمام أحمد ١٠٢/٤، وصححه الألباني في صحيح سـنن ابن ماجه: ٣٦٤/٢، برقم: (٣٢٢٦).

3 - وهما: قوله تعالى: (إن الذين فرقُوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيءٍ)(الأنعام: من الآية١٥٩)، وقوله: (ولا يزالُونَ مختلفين، إلا من رحم ربك)(هود: من الآية: ١١٨-١١٩)

(4) سـورة البقرة: (٢٥٣).

(5) سـورة هود: (١١٨).

المذمومة في قوله تعالى: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شـيء)(1)، ولم يعلم أن المفارقة الحقيقية والمقصودة في هذه الآية هي مفارقة الكتاب والسـنة، فما الفائدة لو اجتمعت أجساد الناس وأعمالهم المادية، وإنجازا م وإخراجا م للمجتمع ولم تجتمـع قلو م وعقائدهم على الكتاب والسـنة. فالافتراق المذموم، هو الافتراق عن كتـاب الله وسـنة رسـوله ﷺ، وإن كان من نتائج هذا الافتراق الحتمية: افتراق الناس مع بعضهم البعض ونشوء التـنازع بينهم في أمر الدين.

ولذلك فسر ابن عباس قوله تعالى: (ولاَ تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات وأُولَئك لَهم عذَاب عظيم، يوم تبيض وجوه وتسـود وجوه فَأَما الذين اسـودت وجوههم أَكْفَرتم بعد إِيمانِكُم فَذُوقُوا الْعذَاب بِما كُنتم تكْفُرونَ، وأَما الذين ابيضت وجوههم فَفي رحمة الله هم فيها خالدونَ)(2)، قال: "(يوم تبيض وجوه وتسـود وجوه) يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السـنة والجماعة وتسـود وجوه أهل البدعة والفرقة"3، ففسر اختلافهم من بعد ما جاءهم البينات هو بدعتهم التي خالفوا ا الكتاب والسـنة حتى سـودت وجوههم.

بل وحتى الألفاظ التي جاءت في القرآن بمعنى الاختلاف المنهي عنه بلفظ آخر ـ غير لفظ الاختلاف ـ، جاءت بمعنى الاختلاف على الدين وأصول الشرع، فقوله تعالى: (إن الذين فَرقُوا دينهم وكَانوا شيعاً لَست منهم في شيءٍ)(٤)، قال الطبري ـ رحمه الله ـ: "قرأها علي رضي الله عنه فارقوا دينهم وعن قتادة فارقوا دينهم وكأن علياً ذهب بقوله فارقوا دينهم خرجوا فارتدوا عنه من المفارقة، وقرأ ذلك عبد الله بن مسعود (فرقوا دينهم)، وكأن عبد الله تأول بقراءته ذلك كذلك أن دين الله واحد وهو دين إبراهيم الحنيفية المسلمة ففرق ذلك اليهود والنصارى فتهود قوم وتـنصر آخرون فجعلوه شيعاً متفرقة والصواب من القول في ذلك أن يقال إ ما قراءتان معروفتان؛ وذلك أن كل ضال فلدينه مفارق وقد فرق الأحزاب دين الله الذي ارتضاه لعباده فتهود بعض وتـنصر آخرون وتمجس بعض وذلك هو التفريق بعينه ومصير أهله شيعاً مجتمعين فهم لدين الله الحق مفارقون وله مفرقون"5، فهنا نرى الآية تكلمت عن معنى الافتراق، ونلحظ في تفسـير

(1) سـورة الأنعام: (١٥٩).
(2) سـورة آل عمران الآية رقم: (١٠٢- ١٠٧).
3 - انظر: تفسـير ابن كثير: ٣٩١/١.
(4) (الأنعام: من الآية١٥٩).
(5) انظر: تفسـير الطبري:: ١٠٤/٨

الطبري _ رحمه الله _ أنه جعل الافتراق متعلق بالدين ففسره بمفارقة الدين والبعد عنه، أو تفريقه إلى شيع وأحزاب _ حسب القراءتين _، كما هو نص الآية: (إن الذين فَرقُوا دينهم)(١).

وقال القرطبي _ رحمه الله _ في تفسـير الآية: "قوله تعالى إن الذين فرقوا دينهم قرأه حمزة: فارقوا بالألف وهي قراءة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من المفارقة والفراق على معنى أ م تركوا دينهم وخرجوا عنه **وكان علي يقول والله ما فرقوه ولكن فارقوه** وقرأ الباقون بالتشديد إلا النخعي فإنه قرأ فرقوا مخففاً أي آمنوا ببعض وكفروا ببعض والمراد اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي والضحاك وقد وصفوا بالتفرق قال الله تعالى (وما تفَرق الذين أُوتوا الْكتاب إلا من بعد ما جاءَتهم الْبينةُ)(٢)"٣، فنلاحظ هنا القرطبي ساق قول علي ابن أبي طالب ﷺ وهو يفسر الآية بمعنى المفارقة التي تـنتج عن ترك الدين إلى غيره، وفسر القرطبي _ رحمه الله _ قراءة: (فرقوا)، بالإيمان ببعض المنـزل وترك بعضه، فالمقصود ترك شيء من الدين، لا مجرد المخالفة.

قال ابن كثير في تفسـير قوله تعالى: (إن الذين فَرقُوا دينهم)، بعد سـياقه لبعض أقوال أهل العلم: "والظاهر أن الآية عامة في كل من **فارق** دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسـوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيـه ولا افتراق، فمن اختلف فيه (وكَانوا شيعاً) أي فرقاً كأهـل الملـل والنحـل والأهـواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسـوله ﷺ مما هم فيه، وهذه الآية كقوله تعالى: (شرع لَكُم من الدينِ ما وصى يه نوحاً والذي أَوحينا إِلَيك)(٤) الآية"(5).

فهنا رجح ابن كثير أن الاختلاف هو مفارقة الكتاب ومفارقـة ديـن الله، وهـذا الاختلاف يؤدي بلا شك إلى التـنازع بين الناس، وينشئ الفرق. ثم استشهد ابن كـثير بقوله تعالى: (أَنْ أَقيموا الدين ولا تتفَرقُوا فيه)(٦)، فالتفرق هنا عكس إقامة الدين ولما أمـر الله بإقامة الدين ى عن التفرق فيه وهو مفارقته وعدم إقامته٧.

(1) سـورة: (الأنعام: من الآية١٥٩).
(2) سـورة: (البينة:٤).
3 - انظر: تفسـير القرطبي: ١٤٩/٧
(4) سـورة (الشورى: من الآية١٣).
(5) انظر: تفسـير ابن كثير: ١٨٧/٤.
(6) سـورة (الشورى: من الآية١٣).
7 - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١٨٧/٤.

قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _مؤيداً لما سبق، بعد سـياقه لآيات الفرقة في الدين والاختلاف فيه: "فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض في قدره وقد يقع في وصفه فالأول مثل قول اليهود نؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد وهكذا النصارى في إيما م بالمسـيح دون محمد فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا فإنه لم يؤمن بجميع المنـزل وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن ببعض نصوص الكتاب والسـنة دون بعض فإن البدع مشتقة من الكفر وأما الوصف فمثل اختلاف اليهود والنصارى في المسـيح هؤلاء قالوا إنه عبد مخلوق لكن جحدوا نبوته وقدحوا في نسبه وهؤلاء أقروا بنبوته ورسالته ولكن قالوا هو الله فاختلف الطائفتان في وصفه وصفته كل طائفة بحق وباطل ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة حيث هي من الإيمان ببعض ما جاء به الرسـول دون بعض وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض وكلاهما إما في التـ يل وإما في التأويل"[1]، فمدار كلام شيخ الإسلام حول النصوص والاختلاف عليها، إما في جانب التأويل بالتفسـير الباطل، أو في جانب التـ يل بالتحريف، ولم يذكر الاختلاف بين الناس، وإن كان الاختلاف بين الناس مذموماً ولا شك، ولكن المذموم من مجموع المختلفين هم الذين كانوا أبعد عن النص وأقرب إلى الاختلاف على نصوص الشرع.

وقال تعالى: (ولاَ تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد مـا جـاءَهم الْبينـات وأُولَئك لَهم عذَاب عظيم)[2] فسرها ابن كثير بقول معاوية بن أبي سـفيان – رضـي الله عنهما _ "قال: إن رسـول الله ﷺ قال: ((إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنـتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة _ يعني الأهواء _ كلـها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى م الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله))"[3].

ويؤيد ما سبق ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن رسـول الله ﷺ قـال: ((ذروني مـا تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا يتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))[4]، فجعل الاختلاف المنهي عنـه

1 - انظر: مجموع الفتاوى: ١٣/١٢- ١٥

(2) سـورة آل عمران الآية رقم (١٠٥).

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣٦٨/١.

(4) أخرجه البخاري: ٢٦٥٨/٦، برقم: (٦٨٥٨)، ومسلم: ١٨٣٠/٤، برقم: (١٣٣٧).

والذي يأتي بالهلاك هو الاختلاف على ما جاء به الأنبياء[1]، لا مجرد الاختلاف بين الناس فإن الاختلاف بين الناس لا ضابط له.

وقد يأتي الاختلاف في الشرع بلفظ الاختلاف مع الناس في الدين كما جاء عن عبد الله بن عمرو قال: "هجرت إلى رسـول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسـول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال: ((إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب))"[2]، فهنا عبر الصحابي عن الخلاف الذي دار بين الصحابيـين بلفظ الاختلاف، ولكن يجب أن يلاحظ أن النبي ﷺ في هذا الحديث رتب هلاك من كان قبلنا على الاختلاف في الكتاب؛ ولا بد من تفسـير القرآن بالشكل الصحيح، فلا يكون من فسره كما ينبغي ممن يدخل ضمن هذا الخلاف المؤدي للهلاك _ وإن كان قد خالف غيره ممن فسره على هواه أو بشبهة _، فهنا سمى الصحابي التنازع الذي دار بين هذين الصحابيـين: اختلافاً؛ حيث قال الصحابي: "فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية" وذلك من تسمية الشيء بنتيجته، فهو في الأصل اختلاف على الكتاب؛ فإن أحد الصحابيـين أو كلاهما كاد أن يقع في الاختلاف المذموم _ على الكتاب _ الذي حذر منه النبي ﷺ، لولا أنه تداركه ﷺ.

فينتج عندنا أن الاختلاف المنهي عنه في **الآيات والأحاديث والذي يعتبر تشـبهاً بأهل الكتاب هو:** مخالفة **الكتاب أو** السـنة بحيث **يبعد كون المخالف مريداً للحق.**

(1) القضاء والقدر، للشيخ د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، ص: (٨٨).

2 - أخرجه مسلم: ٢٠٥٣/٤، برقم: (٢٦٦٦).

المطلب الثاني: ضابط الأصول التي لا يسوغ فيها الخلاف:-

إننا عندما نتحدث عن أصول لا ينبغي أن يتجاوزها أحد إلى غيرهـا، ولا ينبغـي مخالفتها لا نقصد مسائل بعينها؛ فإن ذلك من ديدن المعتزلة الذين يقولون بأصولهم الخمسة، وأما أهل السـنة والجماعة فإن أصولهم الثابتة التي لا يخالفو ا إلى غيرها هـي نـصوص الكتاب والسـنة وإجماع السلف المبني على الكتاب والسـنة، يقول شيخ الإسـلام ابـن تيمية _ رحمه الله في كلام طويل وأسـوقه هنا لأهميته وعلاقتـه بالمطلـب _: "وهكـذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق وقد تكـون عنده ولم تـثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله ا، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان سـواء كان في المسائل النظرية أو العملية، **هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجمـاهير أئمة الإسلام وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها ومـسائل فـروع لا يكفر بإنكارها فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع آخر وتـسميته مسائل الفروع فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحـسان ولا أئمة الإسلام وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع** وعنهم تلقاه مـن ذكره من الفقهاء في كتبهم وهو تفريق متناقض فإنه يقال لمن فرق بين النوعين: مـا حـد مسائل الأصول التي يكفر المخطئ فيها؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع؟ فإن قـال: مسائل الأصول هي: مسائل الاعتقاد، ومسائل الفروع هي مسائل العمل، قيل له: فتنـازع الناس في محمد هل رأى ربه أم لا؟ وفى أن عثمان أفضل من على أم على أفضل؟ وفى كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية العلمية ولا كفر فيها بالاتفاق، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الفواحش والخمر هـي مـسائل عملية والمنكر لها يكفر بالاتفاق، وإن قال: الأصول هي المسائل القطعية قيل له كثير مـن مسائل العمل قطعية وكثير من مسائل العلم ليست قطعية وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له كمن سمع النص من الرسـول وتيقن مراده منه وعند رجل لا تكون ظنية فضلاً عن أن تكون قطعية؛ لعدم بلوغ النص إياه؛ أو لعدم ثبوته عنده؛ أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته وقـد ثبـت في الصحاح عن النبي ﷺ حديث الذي قال لأهله إذا أنا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في اليم فوالله لئن قدر الله على ليعذبني الله عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين فأمر الله البـــر برد ما أخذ منه والبحر برد ما أخذ منه وقال ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يـا

رب، فغفر الله له[1] فهذا شك في قدرة الله وفى المعاد بل ظن أنه لا يعود وأنه لا يقـدر الله عليه إذا فعل ذلك، وغفر الله له وهذه المسائل مبسـوطة في غير هذا الموضع ولكن المقصود هنا أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين ولهذا حكى طائفة عنـهم الخلاف في ذلك ولم يفهموا غور قولهم فطائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقاً حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلى وربما رجحـت الـتكفير والتخليد في النار، وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الإسلام، بل لا يختلف قوله أنه **لا يكفر المرجئة الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل ولا يكفر من يفضل عليـاً علـى عثمان، بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم، وإنما كـان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته لأن مناقضة أقوالهم لما جاء بـه الرسـول ظاهرة بينة ولأن حقيقة قولهم: تعطيل الخالق، وكان قد ابتلى م حتى عـرف حقيقـة أمرهم وأنه يدور على التعطيل. وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة، لكن مـا كان يكفر أعيا م** فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخـرة وغـير ذلك ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنو م ويعاقبو م إذا لم يجيبوهم ويكفرون من لم يجبـهم _ حتى أ م كانوا إذا أمسكوا الأسـير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وغير ذلك _ ولا يولون متولياً ولا يعطون رزقاً من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأ م لمن يـبـين لهـم أ ـم مكذبون للرسـول ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطؤوا وقلدوا من قال لهـم ذلك. وكذلك الشافعي لما قال لأحدهم حين قال القرآن مخلوق: كفرت بالله العظيم، بين له أن هذا القول كفر ولم يحكم بردته بمجرد ذلك؛ لأنه لم يتبين له الحجة التي يكفر ا، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهـل الأهـواء والـصلاة خلفهم"[2].

بل قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مـضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام وإما محبة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيماً له والله قد يـثيـبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع من اتخاذ مولد النبي صلى الله عليه

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٢٨٣/٣، برقم: (٣٢٩٢).

(2) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٣/ ٣٤٦- ٣٤٩، وانظر كلامه في الفتاوى: ٢٠٢/٢٦ – ٢٠٣.

وسلم عيداً"[1]، وعلى هذا فلا يكون المخالف ا تهد آثماً ما دام أنه لم يـتبـين له وجـه مخالفته للكتاب والسـنة، ولذلك قال النبي ﷺ: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ؛ فله أجر))[2]، قال الشاطبي _ رحمه الله _: "فأما مـن صح كونه مجتهداً فالابتداع منه لا يقع إلا فلتة، وبالعرض لا بالذات، وإنما تسمى غلطة أو زلة ؛ لأن صاحبها لم يقصد اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل الكتاب ؛ أي : لم يتبع هواه، ولا جعله عمدة، والدليل عليه : أنه إذا ظهر له الحق ؛ أذعن له، وأقر به ... لأنـه بحسب ظاهر حاله فيما نقل عنه إنما اتبع ظواهر الأدلة الشرعية فيما ذهب إليه، ولم يتبـع عقله، ولا صادم الشرع بنظره، فهو أقرب إلى مخالفة الهوى"[3].

ومن الاختلاف السائغ الذي جاء به الشرع: اختلاف التنوع الذي لا تضاد فيـه[4]، مثاله ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً قرأ آية وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها فجئت به النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فعرفت في وجهه الكراهية وقال: ((كلاكما محسـن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)) [5].

وغضب النبي ﷺ في هذه الحادثة يشعر بأن الخلاف والفراق الذي لا حاجة لـه لا ينبغي بين الأمة، فعبد الله بن مسعود ﷺ كان متأكداً من القراءة التي عنده، وسمع قراءة من رجل آخر ثقة، فلما جاء إلى النبي ﷺ مخالفاً لصاحبه كره ذلك النبي ﷺ، لمـا فيـه مـن الخلاف الذي لا ينبغي، فالقرآن نزل ـذا ونزل ـذا، وهذا النوع من الخلاف ليس من نوع الاختلاف الذي فيه مفارقة للكتاب والسـنة؛ فكلا الرجلين مصيب، وإنما الخطـأ الـذي كرهه النبي ﷺ هو المنازعة في أمرين كلاهما على صواب، ومع ذلك فإن النبي ﷺ رتـب على هذا النوع من الخلاف الهلاك، وبين أنه وقع في من كان قبلنا.

(1) الاقتضاء : ١/ ٢٩٤

2 - أخرجه البخاري: ٢٦٧٦/٦، برقم: (٦٩١٩)، ومسلم: ١٣٤٢/٣، برقم: (١٧١٦).

(3) انظر: الاعتصام، للإمام الشاطبي: ١٩٣/١-١٩٤.

(4) يقول شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "واختلاف التنوع على وجوه: منه مايكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً، كما في القراءات وصفة الأذان والإقامة والتشهدات، ومنه ما يكون كل من القـولين هـو في معـنى القول الآخر، لكن العبارتين مختلفتان، ومنه: مايكون المعنيان غيرين، لكن لا يتنافيان، فهذا قول صحيح وهذا قـول صحيح، انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ١٤٩/١-١٥٠.

(5) أخرجه البخاري: ١٢٨٢/٣، برقم: (٣٢٨٩).

وإن كان الأمر يعود إلى الاختلاف على القرآن؛ فإن كل واحد من الرجلين ينكـر ما عند الآخر من القرآن وهذا يفضي إلى الكفر ببعض القرآن ومخالفته، فرجع الأمـر إلى مخالفة الكتاب.

وهناك نوع من الخلاف لم يأت به الشرع بل هو من الاختلاف النسبي الذي يعتمد على أفهام الناس[1]، وهو من اختلاف التضاد، فهذا إذا لم يكن فيه مخالفة لنصوص الكتاب والسـنة فلا بأس به مع بقاء الأخوة الإسلامية، يقـول د. محمـد بـازمول: "إن هـذا الاختلاف؛ لما كان مما لم يأت به الشرع، ولما كان الشرع يدعو إلى الاتفاق؛ فإن الـسعي إلى إزالته من الأمور المستحبة، بل الواجبة، فإن بقي؛ فيبقى مع الود والصفاء، دون بغـض أو عداء، والاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية!"[2]، فإن تناظر المختلفان في هذا النوع من المسائل، فينبغي أن يكون ذلك مع العدل والإنصاف، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمـه وهو المسفسط والمقرمط أو يمتنع عن الاستماع والنظر في طريق العلم وهو المعـرض عـن النظر والاستدلال فكما أن الإحساس الظاهر لا يحصل للمعرض ولا يقوم للجاحد فكذلك الشهود الباطن لا يحصل للمعرض عن النظر والبحث بل طالب العلم يجتهد في طلبه مـن طرقه ولهذا سمى مجتهداً كما يسمى المجتهد في العبادة وغيرها مجتهداً كما قال بعض السلف ما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيهم وقال أبي بن كعب وابن مسعود اقتصاد في سـنة خير من اجتهاد في بدعة وقد قال النبي إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجـران وإذا اجتهـد فأخطأ فله أجر وقال معاذ بن جبل ويروى مرفوعاً وهو محفوظ عن معاذ عليكم بالعلم فإن تعليمه حسـنة وطلبه عبادة ومذكراته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمـن لا يعلمـه صدقة وبذله لأهله قربة فجعل الباحث عن العلم مجاهداً في سبيل الله "[3].

ولذلك فإن الأصول التي لا يسـوغ الاختلاف فيها هي النصوص الشرعية المحكمة، بمعنى النصوص التي لا شك في دلالتها على المقصود مما يبعد كون المخالف فيه مريداً للحق، قال تعالى: (هو الذي أنزلَ علَيك الْكتاب منه آيات محكَمات هـن أُم الْكتـابِ وأُخـر

(1) قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وأما اختلاف التضاد فهو: القولان المتنافيان: إما في الأصول وإما في الفروع، عند الجمهور الذين يقولون: (المصيب واحد)، وإلا فمن قال: (كل مجتهد مصيب) فعنده: هو من بـاب اخـتلاف التنوع، لا اختلاف التضاد. فهذا الخطب فيه أشد؛ لأن القولين يتنافيان"، انظر: اقتضاء الصراط المـستقيم: ١٥١/١، وانظر: الاختلاف وما إليه، للشيخ: محمد بن عمر بازمول، ص: (٢٤).

(2) الاختلاف وما إليه، للشيخ محمد بن عمر بازمول، ص: (٢٥).

(3) مجموع الفتاوى: (١٠٩/٤).

متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب)[1]، قال ابن كثير: "منه آيات محكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه، قال: والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد وكما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق" إلى أن قال: "كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: (إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه)[2] وبقوله: (إن مثلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثم قالَ له كُن فيكونُ)[3] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله"[4].

ولكن يؤخذ في الاعتبار: كون المخالف لهذه النصوص متبع لهواه، وإلا لم يكن من المبتدعة المخالفين للنصوص، وفي هذا يقول الشاطبي[5] _ رحمه الله _: "فالمبتدع من هذه الأمة، إنما ضل في أدلتها، حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله. وهذا هو الفرق بين المبتدع وغيره؛ لأن المبتدع جعل الهوى أول مطالبه، وأخذ الأدلة بالتبع، ومن شأن الأدلة أنها جارية على كلام العرب، ومن شأن كلامها الاحتراز فيه بالظواهر، فكما تجد فيه نصاً لا يحتمل التأويل، تجد فيه ظاهراً يحتمل التأويل، حسبما قرره من تقدم في غير هذا العلم، وكل ظاهر يمكن فيه أن يصرف عن مقتضاه في الظاهر المقصود، ويتأول على غير ما قصد فيه، فكأن المبتدع أغرق في الخروج عن السنة، وأمكن في ضلال البدعة، فإذا غلب الهوى أمكن انقياد ألفاظ الأدلة إلى ما أراد منها. والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعاً ممن ينسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي، فينزله على ما وافق عقله وشهوته. لكن إنما ينساق لهم من الأدلة المتشابه منها لا الواضح، والقليل منها لا الكثير، فإن المعظم والجمهور من الأدلة إذا دل على أمر

(1) سورة: (آل عمران:٧).
(2) سورة (الزخرف: من الآية٥٩).
(3) سورة: (آل عمران:٥٩).
4 - انظر: تفسير ابن كثير: ٣٤٦/١.
(5) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشهير بالشاطبي، ويكنى بأبي إسحاق، من مؤلفاته: الإفادات والإنشادات، شرح جليل على الخلاصة في النحو، عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، الفتاوى، كتاب المجالس، الموافقات، ت: (٧٩٠هـ)، انظر: مقدمة تحقيق كتاب الاعتصام للشاطبي، ص: (٩-١٠).

بظاهره، فهو الحق، فإن جاء على ما ظاهره الخلاف فهو النادر والقليل، فكان مـن حـق الظاهر رد القليل إلى الكثير والمتشابه إلى الواضح"(١).

ولذلك فإن المخالف لأهل السنة والجماعة، هو في الحقيقة مخالف للآيات المحكمة من القرآن، أو الأحاديث الصريحة من السنة، ويكون قد غـره ظاهر آية مشتبه، وكان الأولى به أن يرد المتشابه إلى المحكم، ولكن ما منعه من ذلك إلا هواه المخالف للكتاب والسنة.

ولذلك يقول الشاطبي _ رحمه الله _: "غير أن الهوى زاغ بمن أراد الله زيغه، بخلاف غير المبتدع، فإنه إنما جعل الهداية إلى الحق أول مطالبه، وأخر هواه _ إن كان _ فجعلـه بالتبع، فوجد جمهور الأدلة ومعظم الكتاب واضحاً في الطلب الذي بحث عنه، فوجد الجادة وما شذ له عن ذلك فإما أن يرده إليه، وإما أن يكله إلى عالمه، ولا يتكلف البحـث عـن تأويله. وفيصل القضية بينهما قوله تعالى: (هو الذي أنزلَ عليـك الْكتـاب منـه آيـات محكَمات هن أُم الْكتابِ وأُخر متشابِهات فَأَما الذين في قُلُوبِهم زيغٌ فَيتبِعونَ ما تشابه منه ابتغاءَ الْفتنة وابتغاءَ تأْوِيله وما يعلَم تأْوِيلَه إلا الله والراسخونَ في الْعلْمِ يقُولُونَ آمنا بِه كُل من عند ربنا وما يذكر إلا أُولُو الْأَلْبابِ)(٢)، فلا يصح أن يسمى من هذه حاله مبتـدعاً ولا ضالا، وإن حصل في الخلاف أو خفي عليه. فأما أنه غير مبتدع: فلأنه اتبع الأدلة، ملقيـاً إليها حكَمةَ الانقياد باسطاً يد الافتقار مؤخراً هواه، ومقدماً لأمر الله. وأما كونه غير ضال؛ فلأنه على الجادة سلك، وإليها لجأ، فإن خرج عنها يوماً فأخطأ، فلا حرج عليه، بل يكون مأجوراً حسبما بينه الحديث الصحيح: ((إذا اجتهد الحاكم فأخطأ، فله أجر، وإن أصاب، فله أجران))"(٣).

ومما يستأنس به في الدلالة على أن النصوص الشرعية المحكمة هي المعـول عليهـا في تحديد المخالفة المنهي عنها: أن الأسباب التي ذكرها العلماء في اختلاف الأئمة _ الذي لا بأس فيه _ ليس منها ما يتعلق بالنصوص المحكمة التي لا لبس فيها، ألف أبو محمد عبد الله بن السـيد البطليوسـي(٤) كتاباً في أسباب الاختلاف الواقع بين حملة الشريعة، وحصرها في ثمانية أسباب:

(1) انظر: الاعتصام للشاطبي: ١٧٦/١-١٧٩، باختصار.

(2) سـورة: (آل عمران:٧).

(3) انظر: الاعتصام للشاطبي: ١٧٦/١-١٧٩، باختصار.

(4) هو العلامة أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي اللغوي صاحب التـصانيف، أقـرأ الآداب وشرح الموطأ وله كتاب الاقتضاب في شرح وضوء الكتاب، وكتاب الأسباب الموجبة لاختلاف الأئمـة، وأشـياء، ونظم فائق، مات في رجب سنة (٥٢١هـ)"، انظر: سير أعلام النبلاء: ٥٣٢/١٩.

أحدها: الاشتراك الواقع في الألفاظ واحتمالها للتأويلات[1].

والثاني: دوران اللفظ بين الحقيقة وا از.

والثالث: الإفراد والتركيب.

والرابع: دوران الدليل بين الخصوص والعموم.

والخامس: الرواية والنقل.

والسادس: الاجتهاد فيما لا نص فيه.

والسابع: الناسخ والمنسـوخ.

والثامن: الإباحة والتوسع[٢].

فنجد هذه الأسباب اختصت بما لم يكن فيه نص واضح جلي، ووقع فيها اشتباه في أمر من الأمور.

قال ابن القيم _ رحمه الله _: "والصواب ما عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد مـا لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوباً ظاهرا مثل حديث صحيح لا معارض له من جنـسه فيسـوغ فيها إذا عدم فيها الدليل الظاهر الذي يجب العمل به الاجتهاد لتعارض الأدلة أو لخفاء الأدلة فيها وليس في قول العالم إن هذه المسألة قطعية أو يقينية ولا يـسـوغ فيهـا الاجتهاد طعن على من خالفها"[٣].

وأما قولهم: (لا إنكار في مسائل الخلاف)، إنما مـرادهم بـه المـسائل الخلافيـة الاجتهادية، أما المسائل التي ثبت فيها النص الذي لا معارض له، فهذه من خـالف فيهـا النص ينقض قوله وينكر عليه إجماعاً[٤].

قال الشافعي رحمه الله في محاورة له مع بعض أهل العلم: "قال فإني أجد أهل العلـم قديما وحديثاً مختلفين في بعض أمورهم فهل يسعهم ذلك، قال فقلت له الاخـتلاف مـن وجهين أحدهما محرم ولا أقول ذلك في الآخر، قال فما الاختلاف المحرم، قلت كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً بـيناً لم يحل الاختلاف فيه لمن علمـه، وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويدرك قياساً فذهب المتأول أو القايس إلى معنى يحتملـه

---

(1) ما لم تكن التأويلات تعارض المحكمات، فإن كان فيها تعارض للمحكمات فتكون قد خرجت عـن بـاب الاختلاف السائغ بين أهل السـنة والجماعة، إلى الاختلاف المحرم الذي وقعت فيه الأمم من قبل.

2- انظر: التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسـلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقادا م لعبد الله بن السـيد البطليوسـي، ص: (١١).

3- إعلام الموقعين: (٢٨٨/٣)

(4) انظر: الاختلاف وما إليه، للشيخ: محمد بن عمر بازمول، ص: (٥٨).

الخبر أو القياس وإن خالفه فيه غيره لم أقل أنه يضيق الخلاف في المنصوص. قال فهل في هذا حجة تبين فرقك بين الاختلافين قلت قال الله في ذم التفرق (وما تفَرق الذين أُوتوا الْكتاب إلا من بعد ما جاءَتهم الْبينةُ)(١)، وقال جل ثناؤه (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات)(٢)، فذم الاختلاف فيما جاء م به البينات"٣، فبين الإمام الـشافعي _ رحمه الله _ أن الاختلاف نوعين: أحدهما محرم والآخر سائغ بين أهل العلـم وجعـل ضابط الاختلاف المحرم هو ما أقام الله فيه الحجة على خلقه في كتابـه أو علـى لـسان رسـوله ﷺ، فلا يجوز الخلاف في فهم النصوص المبينة، لمن علم معناها، وأما مـا كـان يحتمل التأويل من النصوص التي لم ترق إلى منـزلة النصوص المحكمة من ناحية الإحكـام فالخلاف فيها سائغ، ما دام أ ا ليست من البينات الواضحات واستدل بقوله تعـالى: (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات)(٤)، فلا داعي للخلاف والفرقة مع وجود البينات.

وهو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية _ رحمه الله _ حيث قال: "والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حـديث صحيح لا معارض من جنسه فيسـوغ له _ إذا عدم ذلك فيها _ الاجتهاد لتعارض الأدلة المتقاربة أو لخفاء الأدلة فيها"٥، فجعل الاختلاف السائغ هو الاختلاف الذي عدم فيه الدليل الذي يجب العمل به وجوباً ظاهراً.

وهو رأي تلميذه المحقق ابن القيم _ رحمه الله _ حيث يقول: "الاجتهاد إنما يعمـل به عند عدم النص فإذا تبين النص فلا اجتهاد إلا في إبطال ما خالفه"(٦).

وعلى هذا فإن الاختلاف إذا كان في ما لا نص فيه خرج عن كونه من الاخـتلاف المذموم إلا أن يكون الخلاف في مسألة مشكلة من أجل هوى في النفس، وعندها لن يكون هذا الخلاف من الاختلاف المنهي عنه في قوله تعالى: (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات وأُولَئك لَهم عذَاب عظيم)(٧)، لأن شأن هذا الاختلاف _ الذي يكون في المسائل الفرعية التي لا نص فيها _ أنه ليس فيه مخالفة واضـحة مـع الكتـاب

(1) سـورة: (البينة:٤).
(2) سـورة: (آل عمران: من الآية١٠٥).
3 - الرسالة للإمام الشافعي، ص: (٥٦٠- ٥٦١).
(4) سـورة: (آل عمران: من الآية١٠٥).
5 - الفتاوى الكبرى: ٣ ص:١٨١- ١٨٢
(6) إغاثة اللهفان: (١٧٠/١).
(7) سـورة (آل عمران:١٠٥).

والسـنة فلا يحدث فرقة حتى لو كان دافع القائل بالقول الذي فيه بعد عن الصواب: هـو الهوى؛ حيث يجب تقديم العذر للمخالف؛ لأن ظاهره الاجتهاد ما دامت المسألة اجتهادية وليست نصية، فلا يمكن التفريق بينه وبين المخالف ا تهد بلا هوى بـسهولة، كمـا أن الاختلاف المنهي عنه في هذه الآية _ والذي يعتبر تشـبهاً بأهل الكتاب _ هو الاختلاف بعد مجيء البينات والعلم، وهنا لا تعتبر هذه المسألة من البينات ما دامت ليست نصية بـل هي اجتهادية.

وأما حديث: ((اختلاف أمتي رحمة))، فقد نص غير واحد من العلماء بأن هذا الحديث لا أصل له عن النبي ﷺ[1]، كما بين العلامة الألباني _ رحمه الله _ أن هذا الحديث حـديث باطل مكذوب[2].

وأما ما قاله عمر بن عبد العزيز _ رحمه الله _: "ما يسرني أن لي باختلافهم حمـر النعم"، وقوله: "ما أحب أن أصحاب رسـول الله ﷺ لم يختلفوا"[3]، فهذان القولان يؤخذان على أن الاختلاف الذي حمده عمر بن عبد العزيز بين الصحابة، هو الاختلاف في المـسائل الاجتهادية[4] التي لا نص فيها؛ فلا يتصور من الصحابة رضي الله عنهم أن يخالفوا ما جاء فيه نص من كتاب الله أو سـنة رسـوله ﷺ.

ويشرح الإمام الشاطبي هذين القولين فيقول: "قد ثبت أن الشريعة لا اختلاف فيها، وإنما جاءت حاكمة بين المختلفين فيها وفي غيرها من متعلقات الدين؛ فكان ذلك عنـدهم عاماً في الأصول والفروع، حسبما اقتضته الظواهر المتضافرة والأدلة القاطعة، فلما جـاء م مواضع الاشتباه؛ وكلوا ما لم يتعلق به عمل إلى عالمه على مقتضى قوله: (والراسخونَ فـي الْعلْمِ يقُولُونَ آمنا بِه)[5]، ولم يكن لهم بد من النظر في متعلقات الأعمال؛ لأن الشريعة قـد كملت؛ فلا يمكن خلو الوقائع عن أحكام الشريعة، فتحروا أقرب الوجوه عنـدهم إلى أنـه المقصود الشرعي، والفطر والأنظار تختلف؛ فوقع الاختلاف من هنا، لا من جهة أنه مقصود الشارع، فلو فرض أن الصحابة لم ينظروا في هذه المشتبهات الفرعية، ولم يتكلموا فيهـا – وهم القدوة في فهم الشريعة والجري على مقاصدها – ؛ لم يكن لمن بعدهم أن يفتح ذلـك الباب؛ للأدلة الدالة على ذم الاختلاف، وأن الشريعة لا اختلاف فيها، ومواضـع الاشـتباه

1 - انظر: الاختلاف وما إليه، للشيخ محمد بن عمر بازمول، ص: (٦٧).
(2) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ١٤١/١، برقم: (٥٧).
3 - سـنن الدارمي: ١٥٩/١، برقم: (٦٢٨).
4 - انظر: الاختلاف وما إليه، للشيخ: محمد بن عمر بازمول، ص: (٦٧).
(5) "سـورة آل عمران الآية رقم: (٧).

مظان الاختلاف في إصابة الحق فيها، فكان ا ال يضيق على من بعـد الـصحابة، فلمـا اجتهدوا، ونشأ من اجتهادهم في تحري الصواب الاختلاف؛ سهل على من بعدهم سـلوك الطريق، فلذلك – والله أعلم – قال عمر بن عبد العزيز: "ما يسرني أن لي باختلافهم حمـر النعم"، وقال: "ما أحب أن أصحاب رسـول الله ﷺ لم يختلفوا"(1).

فالمُعول عليه في الأصول التي لا يسـوغ فيها الخلاف هو النص المحكم، ويخطئ مـن يقول إن الأصول التي لا يسـوغ الخلاف فيها هي العقائد عموماً، وأن السلف لم يختلفوا في شيء من العقائد؛ ظناً منه بأن العقائد هي الأصول فكل ما هو اعتقادي فهو من الأصـول التي لا يسـوغ فيها الخلاف، وهذا ليس بصحيح؛ فإن من العقائد ما اختلف فيه الصحابة، فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد خالفت الصحابة في أن النبي ﷺ رأى ربه، وقالت: "من زعم أن محمداً رأى ربه؛ فقد أعظم على الله تعالى الفرية"(٢)، وجمهور الأمة على خلاف ذلك، مع أ م لا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها(٣).

قال شيخ الإسلام: "وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكـاً فإن المنازع قد يكون مجتهداً مخطئا يغفر الله خطأه"(٤).

"والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية، كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه؛ مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق؛ لحديث اعتقد ثبوته. أو اعتقد أن الله لا يرى؛ لقوله: (لا تدرِكُه الأبصار)(٥)، ولقوله: (وما كَانَ لبشرٍ أنْ يكلمه الله إلا وحياً أو من وراءِ حجابٍ)(٦).

كما احتجت عائشة اتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وإنما يدلان بطريق العموم.

وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يرى، وفسروا قوله: (وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة)(٧)؛ بأ ا تنتظر ثواب ر ا، كما نقل عن مجاهد وأبي صالح. أو من اعتقد أن

(1) الموافقات، للشاطبي: (١٣٠/٤).
2 - أخرجه البخاري: ١١٨١/٣، برقم: (٣٠٦٢)، ومسلم: ١٥٩/١، برقم: (١٧٧).
(3) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام _ رحمه الله _: ٢٣٠/٣، الاختلاف وما إليه، للشيخ: محمد بـن عمـر بازمول، ص: (٨٣).
4 - مجموع الفتاوى: (١٧٩/٣).
(5) سـورة الأنعام الآية رقم: (١٠٣).
(6) سـورة الشورى الآية رقم: (٥١).
(7) سـورة القيامة الآية رقم: (٢٢- ٢٣).

الميت لا يعذب ببكاء الحي؛ لاعتقاده أن قوله: (ولا تزر وازرةٌ وزر أُخرى)[1]؛ يدل على ذلك، وان ذلك يقدم على رواية الراوي؛ لان السمع يغلط كما اعتقد ذلك طائفة من السلف والخلف. أو اعتقد أن الميت لا يسمع خطاب الحي؛ لاعتقاده أن قوله: (إنك لا تسمع الْموتى)[2] يدل على ذلك. أو اعتقد أن الله لا يعجب؛ كما اعتقد ذلك شريح؛ لاعتقاده أن العجب إنما يكون من جهل السبب، والله منـزه عن الجهل"[3]، وبناء على ما سبق فليس كل اعتقادي هو من أصول الدين التي لا يسـوغ الخلاف فيها، كما أنه ليس كل ما هو عملي يسـوغ الخلاف فيه، فإن من الأمور العملية ما هو من الأصول التي لا يسـوغ فيها الخلاف كوجوب الصلاة والزكاة وهي ليست من الاعتقاديات.

وكل أمر حادث مخالف للكتاب والسـنة؛ فالبدع والمحدثات هي أوضح شكل لمخالفة الكتاب والوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب[4].

سـياق بعض مظاهر التشـبه بالكفار بالخلاف في الأصول:-

وبناء على ما سبق فإن الخلاف الذي يقع في هذه الأمة في الأصول من الكتـاب أو السـنة مما يبعد كون المخالف فيه مريداً للحق هو مظهر من مظاهر التشـبه بالكفـار، فالواجب في نصوص القرآن التي يظهر عليها التعارض: الجمـع بينـهما إن أمكـن، ورد المتشابه منها إلى المحكم، كما قال تعالى: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا ألوا الألباب)[5]، فضرب كتاب الله بعضه ببعض – وعدم الجمع بـين آياته وعدم رد المتشابه إلى المحكم – من عمل الذين في قلو م زيغ كما في قوله تعـالى: (فَأَما الذين في قُلُوبِهم زيغٌ فَيتبِعونَ ما تشابه منه ابتغاءَ الْفتنة وابتغاءَ تأْويله)[6]، وهو سبب هلاك الأمم السابقة، فكل من تشـبه م في الوقوع في الخلاف الذي لا ينبغي في نصوص الكتاب والسـنة، فقد شاركهم في تعرضهم للهلاك؛ فقد قال النبي ﷺ: ((ولا تختلفوا فإن

---

(1) سـورة النجم الآية رقم: (٣٨).

(2) سـورة النمل الآية رقم: (٨٠).

(3) الاختلاف وما إليه، للشيخ محمد بن عمر بازمول، ص: (٨٤).

4 - مع مراعاة جانب الخطأ والجهل وغير ذلك من الموانع التي تخرج صاحب البدعة من كونه مبتدعاً مخالفاً للقرآن والسـنة، انظر: علم أصول البدع، للشيخ: علي حسـن علي عبد الحميد، ص: (٢٠٩).

(5) سـورة آل عمران الآية رقم (٧).

(6) سـورة: (آل عمران: من الآية٧).

من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا))[1]، وفي هذه الأمة ما ضلت الفرق وتنازع الناس إلا بالاختلاف على الكتاب أو ضرب بعضه ببعض.

ومن الأمثلة على ذلك في العصر الحديث: ما يقع من الخلاف في إثبات بعض الصفات الواردة في القرآن الكريم وجاء بيانها في السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، من ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: (يوم يكْشف عن ساقٍ ويدعونَ إلى السجود فَلا يستطيعونَ)[٢]، فقد ورد تفسيرها في الحديث: ((يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً))[3]، ومع ذلك فإن من الناس من ينفي صفة الساق لله رب العالمين، يقول محمد علي الصابوني، في تفسير قوله تعالى: (يوم يكْشف عن ساقٍ ويدعونَ إلى السجود فَلا يستطيعونَ)[٤]: "أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذي يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة، قال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة، قال القرطبي: والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة كقول الراجز:

قد كشفت عن ساقها فشدوا   وجدت الحرب بكم فجدوا"[5]

فهنا فسر المؤلف كشف الساق بأنها الشدة التي تقع يوم القيامة، رغم أن الحديث واضح في إثبات صفة القدم لله تعالى: ((يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً))[6]، فتفسير كشف الساق بالشدة مخالفة بينة لهذا الحديث، وهو ينص على أن الله جل وعلا يكشف عن ساقه يوم القيامة، وقد نجد له العذر بعدم وصول الحديث إليه، أو أنه لا ينطبق على هذه الآية لولا أنه أورده بعد ذلك مباشرة في تفسير الآية نفسها، ولكنه بتره، فأورد ما يناسب عقيدته، واعرض عن الباقي.

ومن الخلافات في العصر الحديث في ما لا يسوغ فيه الخلاف وهو امتداد للخلاف في بعض صفات الله الواردة في السنة النبوية، منها تفسير فرح الله بتوبة عبده بالرضى،

---

1 - أخرجه البخاري: ١٢٨٢/٣، برقم: (٣٢٨٩).
(2) سورة: (القلم:٤٢).
3 - أخرجه البخاري: ١٨٧١/٤، برقم: (٤٦٣٥).
(4) سورة: (القلم:٤٢).
5 - صفوة التفاسير: ٤٣٠/٣.
(6) صحيح البخاري: ١٨٧١/٤، برقم: (٤٦٣٥)، وصحيح مسلم: ١٦٧/١، برقم: (183).

جاء في كتاب: (نزهة المتقين شرح رياض الصالحين): "أفرح[1]: أي أشد فرحاً، والفرح بالنسبة للإنسان: السرور ولذة القلب بنيل ما يشتهي، وبالنسبة لله تعالى يراد: الرضى"[2]، رغم أن الحديث نص على صفة الفرح لله تعالى، قال ﷺ: ((لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح))[3]، فثبتت صفة الفرح لله تعالى بالدليل الشرعي، وتفسير هذه الصفة بالرضى، فيه نفي لصفة من صفات الله التي أثبتها له رسوله ﷺ، ومخالفة للنص الصحيح الصريح، مما ينتج الخلاف والفرقة في الصف الإسلامي.

ومن مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث في جانب الاختلاف في أصول الدين في العصر الحديث[٤]: ما نراه لدى الشيعة الاثني عشرية من سب للصحابة[٥] الذين ثبت النص بعدالتهم جميعاً، وأذكر على سبيل المثال من الآيات في تزكية الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)[٦]، وقد تواترت النصوص بفضلهم على غيرهم من البشر، مما لا يتسع المقام لتفصيله، ومع ذلك نجد كتب الرافضة (الشيعة الاثناعشرية)، مملوءة بالتقرب إلى الله بسب هؤلاء الأفاضل من الناس، فكيف تأتي هذه الآيات بمدح هؤلاء وتأتي أسفار الرافضة لتقدح في عدالتهم وتتعبد الله بسبهم وتنقصهم[٧].

(1) وهو لفظ من ألفاظ الحديث النبوي وسيأتي قريباً في سياق الكلام.

2 - نزهة المتقين شرح رياض الصالحين: ٣٤/١.

3 - أخرجه البخاري: ٢٣٢٤/٥، برقم: (٥٩٤٩)، ومسلم: ٢١٠٤/٤، برقم: (2747).

(4) انظر: الرد الكافي على مغالطات د. علي عبد الواحد وافي، في كتابه: (بين الشيعة وأهل السنة)، إحسان إلهي ظهير، ص: (٩-١٠).

(5) انظر: الشيعة والسنة، إحسان إلهي ظهير، ص: (٢٧-٤٣).

(6) سورة: (الفتح:٢٩).

(7) جاء في الكافي للكليني: "٤٥٥- حدثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الْحسين بن سعيد عن علي بن النعمان عن عبد الله بن مسكانَ عن عبد الرحيم الْقَصير قالَ قُلْت لأبي جعفَرٍ (عليه السلام) إن الناس يفْزعونَ إذَا قُلْنا إن الناس ارتدوا فَقَالَ يا عبد الرحيم إن الناس عادوا بعد ما قُبِض رسولُ الله (صلى الله عليه

يقول أحد الشيعة المعاصرين، وهو يذكر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما متهماً إياهما بتعمد إخفاء بعض ما أنزل الله في القرآن: "ولا ينبغي لأحد أن يقول: لو ورد ذكر الإمام في القرآن لما استساغ الشيخان أن يخالفاه، ولو خالفاه فرضاً لم يقبله المسلمون وقاموا ضدهما، فنحن نقول: إنه لا ينبغي القول بهذا، لأننا نعرف أنهما خالفا صريح القرآن جهراً وعلنا والناس لم يردوا عليهما، بل قبلوا مخالفتهما للقرآن"[1]، ويقول: "ويعلم بهذا كله مخالفة أبي بكر وعمر القرآن في حضور المسلمين ولم يكن هذا الأمر ذا بال عندهم، بل كانوا هم معهما وفي حزبهما مناصرين مساعدين لهما في نيل المقصود، ويعرف بهذا كله أنه لو ورد ذكر الإمام في القرآن لم يكونوا تاركين للرئاسة لقول الله عز وجل، ولا معطين له أي اهتمام، وكما أن أبا بكر الذي كان خداعه ظاهراً وزائداً استطاع أن يحرم ابنة رسول الله (ﷺ) من إرثها الثابت بالقرآن والعقل باختلاق حديث مكذوب، لم يكن مستبعداً من عمر أن يقول بأن الله أو جبريل أو الرسول أخطؤوا في ذكر اسم الإمام في القرآن وآياته، ولذلك لا ينظر إليه ولا يعمل به، وآنذاك قام حزب السنة وتابعوه على قوله وتركوا القرآن مهجوراً، كما أنهم تابعوه في جميع التغييرات التي أتى بها في دين الإسلام ورجحوا قوله على القرآن وآياته وقدموه على أحاديث رسول الإسلام (ﷺ) وأقواله"[2]، وفي هذا افتراء حتى على بقية الصحابة الذين داهنوا الشيخين _ على حد زعمه _ فلم يبق أحد من الصحابة بعد موت النبي ﷺ إلا سكت على ذلك الكفر في زعمه، وليس المقصود هو تفصيل الرد عليه في هذا الموضع، ولكن المقصود هو بيان مخالفة الرافضة في العصر الحديث للكتاب والسنة الثابتين بتبرئة الصحابة من النفاق فضلاً على تبرئتهم من الاجتماع على كتمان شيء من القرآن، وفي هذا الزعم مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة على عدالة الصحابة.

فأي مخالفة لنصوص الوحي وأصول الدين، أعظم من هذه المخالفة، وأي فُرقة أحدثها المخالفون في اجتماع الرأي الإسلامي من هذه الفُرقة، عندما يترضى المسلمون على هؤلاء الأخيار، الذين ثبتت عدالتهم في غير ما آية من كتاب الله الكريم، وفاضت كتب

وآله) أهلَ جاهلية إن الأنصار اعتزلت فلم تعتزلْ بخير جعلُوا يبايعونَ سعداً و هم يرتجزونَ ارتجاز الْجاهلية يا سعد أنت الْمرجى و شعرك الْمرجلُ و فحلُك الْمرجم"، الكافي: ٢٩٦/٨، فأي سب أشنع من وصف الصحابة بالكفر.

(1) انظر: كشف الأسرار، للخميني، ص: (١١٤)، نقلاً عن الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، إحسان إلهي ظهير، ص: (٣٤٥).

(2) انظر: كشف الأسرار، للخميني، ص: (١١٩-١٢٠)، نقلاً عن الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، إحسان إلهي ظهير، ص: (٣٤٥-٣٤٦).

السـنة بمآثرهم، ويأتي هؤلاء المخالفون للكتاب والسـنة وإجماع المسـلمين بما لا يليـق ذكره في حقهم.

وغير ذلك الكثير ـ في العصر الحديث ـ من أنواع مخالفـة النـصوص الـشرعية الواضحة **البينة**، كلها تلبس لباس التشـبه بأهل الكتاب الذين ما تفرقوا إلا من بعد مـا جاءهم **البينة**.

الفصل الثاني

مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث في العبادات

المبحث الأول: الرهبانية والتصوف:-

عندما أرسل الله الرسل يأمرون الناس بعبادته وحده لا شريك له، أوحى إليهم بالشرائع التي تعبد الناس ا والتي رضيها لعباده، فعصيان الله فيما أمر به هو مما يغضبه، كما أن فعل ما اهم عنه هو مما يسخطه جل وعلا، كل ذلك من باب النقص والتقصير في حق هذه الشرائع، والزيادة على تلك الشرائع هو من الافتيات على الله جل وعلا فيما شرعه لعباده، فالله أعلم بما يصلح لعباده، ولو كانت هذه الزيادة خيراً لكانت شريعة الله المنـزلة أولى ا، ولذلك لما جاء عباد النصارى بالرهبانية[1] المبتدعة من عند أنفسهم ذمهم الله تعالى في كتابه الكريم حيث قال: (ثُم قَفينا علَى آثَارِهم بِرسلنا وقَفينا بِعيسى ابنِ مريم وآتيناه الإنجيل وجعلْنا في قُلُوبِ الذين اتبعوه رأْفَةً ورحمةً ورهبانِيةً ابتدعوها ما كَتبناها علَيهِم إلا ابتغاءَ رِضوان الله فَما رعوها حق رِعايتها فَآتينا الذين آمنوا منهم أَجرهم وكَثير منهم فَاسقُونَ)[٢]، قال ابن كثير: "وهذا ذم لهم من وجهين أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقر م إلى الله عز وجل"[3]،

(1) قال القرطبي: "والرهبانية والترهب التعبد في صومعة قال أبو عبيد قد يكون رهبان للواحد والجمع قال الفراء ويجمع رهبان إذا كان للفرد رهابنة ورهابين كقربان وقرابين"، تفسـير القرطبي: ٦/ ٢٥٨.

(2) سـورة: (الحديد:٢٧).

3 - تفسـير ابن كثير: ٤ / ٣١٦.

ولم تكن الرهبانية مقبولة لدى جميع النصارى فإن منهم لم يقبلها ووجد فيها خروجاً عن تعاليم المسـيح، يقول د. محمد أبو زهرة: "أنكر أولئك المصلحون لزوم الرهبنة التي يأخذ رجال الدين أنفسهم ا ويعتبرو ا شريعة لازمة، يفقد رجل الدين صفته الكهنوتية أن تخلى عنها، ولقد رأوا ما أدى إليه ذلك الحظر من كبت للجسد الإنساني، وتعذيب له من غير ضرورة، ولا نص من الكتب قديمها وجديدها يفيد ذلك، بل لقد رأوا ما أدى إليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الإنسان في رجل الدين فانطلق يكرع اللذة من شقتها الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال، وطفق يغترف من ورد معتكر[1] بالآثام، وترك المنهل العذب الذي حللته الشرائع، ويتفق مع ناموس الاجتماع الإنساني"[٢].

والنصارى قد عرف عنهم الغلو ليس في العبادات فحسب، بل في العقيدة كذلك فقد اهم الله عن الاستمرار في الغلو في عيسى عليه السلام وإطرائه، فقال لهم: (يا أَهلَ الْكتابِ لا تغلُوا في دينِكُم ولا تقُولُوا علَى الله إلا الْحق إنما الْمسـيح عيسى ابن مريم رسـولُ الله وكَلمته أَلْقَاها إِلَى مريم وروح منه فَآمنوا بِالله ورسله ولا تقُولُوا ثَلاثَةٌ انـتهوا خيراً لَكُم إنما الله إِلَه واحد سبحانه أَنْ يكُونَ لَه ولَد لَه ما في السماوات وما في الأَرضِ وكَفَى بِالله وكيلاً)[٣].

ولما نبتت نابتة الرهبنة في عهد رسـول الله ﷺ كان هو أول من ى عنها، فعن أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأ م تقالوها فقالوا وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سـنتي فليس مني))[٤]، فبين الرسـول ﷺ أن الخشية لله هي لزوم طريق النبي وعدم الزيادة على ما شرعه الله تبارك وتعالى، وأن الزيادة هي انحراف عن السـنة.

---

(1) لعله يقصد: معكر

(2) انظر: محاضرات في النصرانية، للإمام محمد أبو زهرة، ص: (١٨٧).

(3) سـورة: (النساء:١٧١).

(4) صحيح البخاري: ١٩٤٩/٥، برقم: (٤٧٧٦)، و صحيح مسلم: ١٠٢٠/٢، برقم: (١٤٠١).

ولقد حرم رسول الله ﷺ الغلو في الدين والزيادة فيه في عدد من الأحاديث، من ذلك قوله ﷺ: "لا رهبانية في الإسلام"[1]، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: ((القط لي الحصى)) فلقطت له سبع حصيات، من حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: ((أمثال هؤلاء فارموا))، ثم قال: ((أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين))[2]، قال شيخ الإسلام: "والغلو مجاوزة الحد بأن يزاد الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك"[3].

"ثم ظهر بعد ذلك أناس اتخذوا الزهد والورع والتقشف شعاراً لهم، وأطلق عليهم الصوفية"[4]، ويظهر من اسم الصوفية علاقته بالزهد ولبس الصوف، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الصوفية نسبة إلى لبس الصوف، وإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة لصوفية بعض أصحاب عبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية"[5]، وذهب البيروني إلى أنهم منسوبون إلى "السوفية" الحكماء القائلون بالوحدة، وأن الصوفية أول من أدخل ذلك في الإسلام فسموا باسمهم[6].

---

(1) شرح السنة للبغوي: ٣٧١/٢ بلفظ (ويروى) وله شواهد في مسند أحمد وسنن الدارمي.

2 - رواه أحمد والنسائي وابن ماجة. قال شيخ الإسلام: "وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم"، اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٢٨/١.

3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٢٨/١.

4 - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة، ص: (٢٤- ٢٥).

(5) انظر: مجموع الفتاوى: ٦/١١

(6) انظر: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة، ص: (٢٤، ٢٥).

ويبدو للمتأمل في أفعال الصوفية أن المصدر الأصيل لكثير من ممارساتهم هو رهبانية النصارى، يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "كما أن كثيراً من زهاد الصوفية يشبه النصارى ويسلك في زهده وعبادته من الشرك والرهبانية ما يشبه سلوك النصارى ولهذا أمرنا الله تعالى أن نقول في صلاتنا اهدنا الصراط..."[1].

"ويبدو أن من أسباب ظهور طبقة العباد والزهاد في القرن الثاني الهجري هو إقبال الناس على الدنيا يجمعون منها ويتفاخرون[٢]، فكانت ردة الفعل عند البعض هي الابتعاد الكلي عنها، ولا بد أن هناك أسباباً أخرى قد تكون شخصية، وقد تكون من أثر إقليم معين أو مدينة معينة، فإن من الخطأ تفسير ظاهرة ما بسبب واحد. ثم حدثت مرحلة انتقالية بين هذا الزهد المشروع وبين التصوف حين أصبح له تآليف خاصة، ويمثل هذه النقلة مالك بن دينار[٣] فنراه يدعو إلى أمور ليست عند الزهاد السابقين، منها التجرد أي ترك الزواج، وهو نفسه امتنع عن الزواج وكان يقول: "لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوي إلى مزابل الكلاب"[٤]. ويقول: "إنه لتأتي علي السنة لا آكل فيها لحماً إلا في يوم الأضحى، فإني آكل من أضحيتي"[٥]. وكثيراً ما يقول: قرأت في التوراة،[٦] ويروى عن عيسى عليه السلام: (بحق أقول لكم، إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس"[٧]، أو "قرأت في الزبور..."[٨]. فمن الواضح ومن خلال قراءة ترجمته في كتب الطبقات أنه متأثر بما ترويه الكتب القديمة عن الزهاد والرهبان.. ومن الواضح أن هذه الكتب قد حرفت ولسنا مأمورين بقراءتها بل منهيون عن الأخذ منهم وتقليدهم. وربما يكون عبد الواحد بن زيد ورابعة العدوية[٩] من أقطاب هذه المرحلة الانتقالية"[١].

---

(1) درء التعارض: ٩٤/٧

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص: (٤٦٧).

(3) قال عنه أبو نعيم في الحلية: "العارف النظار الخائف الجآر أبو يحيى مالك بن دينار كان لشهوات الدنيا تاركاً وللنفس عن غلبتها مالكاً"، حلية الأولياء: ٣٥٧/٢.

(4) سير أعلام النبلاء: ١٧٤/٨، وقد علق محقق السير الشيخ شعيب على هذا الكلام فقال: "منزلة الصديقين لا تنال بهذا النسك الأعجمي المخالف لما صح عنه ﷺ".

(5) تاريخ التصوف، ص: (١٩٣)، سير أعلام النبلاء: ٣٦٤/٥

(6) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ص: (٢١٨).

(7) حلية الأولياء: ٣٦٩/٢.

(8) سير أعلام النبلاء:١٣٢/١٢.

(9) تكلم فيها أبو داود السجستاني واتهمها بالزندقة، فلعله بلغه عنها أمر، توفيت بالقدس سنة ١٨٥هـ. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير:١٩٣/١٠، قال ابن تيمية: "قال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد

وهكذا اتخذ التصوف مساراً خارجاً عن مسار الزهد الذي أمر به الإسلام إلى مسار يشبه الرهبانية لدى النصارى.

ولقد تنوعت أشكال التصوف في العصور الإسلامية، على أنه لم يخل قرن من القرون _ خلا القرون المفضلة _ من غلاة المتصوفة المتأثرين بالرهبانية النصرانية، وغيرها من الأديان الأخرى، كما سـيأتي، على أن الأمر لو خلا من مشا ة المشـركين وتفرد بالابتداع في الدين لكان مذموماً فكيف وقد جمعت الممارسات الصوفية بين الابتداع والتشـبه بالمشـركين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني _ رحمه الله _، بعد الكلام عن قصة عمرو بن لحي الخزاعي(٢): "فقد تبين لك أن من أصل دروس دين الله وشرائعه، وظهور الكفر والمعاصي: التشـبه بالكافرين، كما أن من أصل كل خير: المحافظة على سـنن الأنبياء وشرائعهم، ولهذا عظم وقْع البدع في الدين، وإن لم يكن فيها تشـبه بالكفار، فكيف إذا جمعت الوصفين"٣.

ولقد تنوعت تلك المظاهر التي استقاها الصوفية من الرهبانية النصرانية ومن الأديان الأخرى والتي منها أديان الهند القديمة، وهنا أذكر بعض تلك المظاهر والممارسات الصوفية التي أخذت من الأديان الأخرى، مع أن المنهج الصوفي الذي اتخذ طريقاً غير طريق الشرع في التعبد لله هو خارج عن السـنة عموماً، موغل في التشـبه بالنصارى الذين ابتدعوا الرهبانية التي ما كتبها الله عليهم، فالتشـبه بالكفار من سمات التصوف عموماً، وهنا أذكر بعض المظاهر التي جاء ا المتصوفة بذا ا من الأديان الأخرى، فمن تلك المظاهر:

التعبد بالتضيـيق على النفس وحرما ا من متطلبا ا والاعتكاف في الزوايا وترك مخالطة الناس:

الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهـو مؤمن موحد". انظر الفتاوى: ٨١/١٠.

(1) الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (٢٠- ٢٢).

(2) هو أول من بحر البحائر وسـيب السـوائب، انظر: فتح الباري: ٢٨٥/٨

3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٥٢/١.

وهي طريقة النصارى، فإن من ديد م التشديد على النفس[1] وقد جاء في الحديث: ((لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار (ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم)[٢]))[٣]، يقول بولس في رسالته الأولى لأهل كورنثوس: "وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها فحسـن للرجل أن لا يمس امرأة"[٤].

"وقد بلغت الرهبانية المسـيحية ذروة عتوها في القرون الوسطى وبلغ تحريم الطيبات أشده عند هؤلاء الرهبان الذين كانوا يعدون بالألوف، حتى جعل بعضهم غسل الرجلين إثماً، ودخول الحمام شيء يجلب الأسف والحسر"[٥].

ويرى بعض الباحثين أن من مصادر الرهبانية النصرانية بعضها مستقى من أديان الهند القديمة، ولو استعرضنا، طرائق بعض تلك الأديان لوجدنا التشابه الكبير في طريقة التعبد.

ففي الجينية مثلاً نجد أن طريقة مؤسسها قائمة على التشديد على النفس، فقد "صام مهاويرا يومين ونصف يوم، ونتف شعر جسمه، وبدأ يجوب البلاد حافياً ولجأ إلى الزهد والجوع والتقشف، وغرق في التفكير، واهتم بالرياضة الصعبة القاسـية والتأملات النفسـية العميقة، وبعد ثلاثة عشر شهراً من ترهبه خلع ملابسه دون حياء، إذ كان قد قتل في نفسه عواطف الجوع والإحساس والحياء وكان أحياناً يعتكف في المقابر وكان يغرق في المراقبة إلى حالة الذهول وعدم الإحساس بما حوله، وأفنى كل اتجاه مادي، فحصل من درجات العلم على الدرجة الخامسة (أعلى الدرجات)، وهي درجة العلم المطلق، ونيل البصيرة أو النجاة،وبعد سـنة أخرى من الصراع والتأملات فاز بدرجة المرشد و ذا بدأ مهاويرا مرحلة جديدة هي الدعوة لعقيدته"[6]. ويقول د. محمد ضياء الأعظمي[٧]: "تحت

---

(1) الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (٣٤).

(2) سـورة: الحديد، الآية: (٢٧).

3- رواه أبو داود في سـننه: ٢٧٦/٤ برقم: (٤٩٠٤)، قال شيخ الإسلام: "رواية أبي داود للحديث وسـكوته عنه يقتضي أنه حسـن عنده وله شواهد في الصحيح" انظر: اقتضـاء الصـراط المسـتقيم: ٢٩٨/١.

4 - العهد الجديد، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: (١/٧).

(5) الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص: (٢١).

(6) الكشف عن حقيقة الصـوفية لأول مرة في التاريخ، تأليف، محمـود عبد الرؤوف القاسـم، ص: (٧٦٠)، وانظر: أديان الهند الكبرى الهندوسـية – الجينية – البوذية، للدكتور أحمد شلبي، ص: (١٢٢).

(7) الأستاذ بكلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، من مؤلفاته: دراسة وتحقيق: (أقضية رسـول الله ﷺ لابن الطلاع القرطبي) – دراسة وتحقيق: (المدخل إلى السنن الكبرى للإمام البيهقي) – دراسات في الجـرح

الجينية على ترك العلاقات الدنيوية، والتمسك بالحياة الرهبانية، فتأثر ا النساك الهندوسـيون والبوذيون وتركوا العلائق الدنيوية، واختاروا الحياة الرهبانية"[1]، فهي ظلمات بعضها قد أخذ الظلمة عن بعض.

وفي الديانة الهندوسـية لا يصل الراهب إلى الرهبانية الحقيقية حتى يتدرج في رياضة النفس والجسد، بأنواع من الرياضات، يقول (مانو) في شريعته: "والآن أذكر أحكام الرهبان وهم على أربع فئات:-

الفئة الأولى: (برهما جاريا آشرم) يعني به دور التربية والتعليم.

الفئة الثانية: (كرهستا آشرم) يعني به دور الحياة العائلية.

الفئة الثالثة: (سـنياس آشرم) يعني به دور التربية الجسدية والروحية.

الفئة الرابعة: (بانبرست آشرم) يعني به دور الحياة الرهبانية"[2].

وهنا أذكر بعض ما توصلت إليه الصوفية في العصر الحديث من الابتداع في الدين على منوال عباد تلك الأديان الباطلة أو المحرفة:

يقول الشيخ محمد الحجوري[(٣)]: "حتى إنك إذا بحثت في أي مدينة أو قرية في غالب الممالك الإسلامية تجد زواياها أكثر من مساجدها ومن المدارس، ولا تكاد تجد عائلة إلا وهي آخذة طريقة من الطرق تتعصب لها برجالها ونسائها وصبيا ا، على أنه ربما تجد في العائلة طالباً واحداً للعلم، ولا تجد فيها من يحسـن الكتابة، حتى التجأت الدول الإسلامية أن تعتبر رؤساء الطرق بمنـزلة الموظفين وتسميهم كما تسمي موظفيها، لتختار من لا يكون ضدها، وفي بعض الأقاليم تجعل رئيساً عاماً على جميع المشايخ تسميه شيخ المشايخ"[(٤)].

يقول أحد مفكري الهند: "لم تكن في الهند إلا فتنة التصوف الباطل، ولم تخل قرية أو مدينة من الزوايا"، ويقول: "ومن أكبر البليات في الهند أن العامة والخاصة كلهم كانوا

والتعديل – التمسك بالسنة في العقائد والأحكام – اليهودية والمسيحية. انظر: اية كتابه: دراسـات في اليهوديـة والمسيحية وأديان الهند.

1 - دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي ص٦٧١

2 - عن: دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي ص٥٨٣.

(3) (المتوفى سـنة ١٣٧٦هـ)، الأعلام، للزركلي: ٩٦/٦.

(4) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: ٦١/٢.

مصطبغين بصبغة التصوف، حتى بلغ م الأمر إلى أ م ما كانوا يقبلون شيئاً إلا إذا كان مسبوكاً في قالبه"(١).

وفي المغرب العربي: كان بعضهم يخرج إلى الغابات كما كان يفعل الشيخ محمد المبارك المغربي الجزائري؛ إذ "كان في بداية أمره يأوي إلى غابة كثيرة الوحوش والسباع، يعبد الله فيها أياماً، ثم يرجع إلى أهله يتزود لمثلها ويرجع لمكانه، حتى نادته هواتف العنايات بلطائف الإشارات، وطابت سريرته واستنارت بصيرته، وتخلى من أوحاله، وتحلى بجميل أحواله... وبعد رجوعه لداره اتخذ لنفسه خلوة في منـزله لا يخرج منها إلا لقضاء أوطاره، إلا يوم الخميس فإنه جعله لزيارة القاصدين ومذاكرة الواردين.... ثم يعود لخلوته ليلة السبت"(٢).

"وفي مكة المكرمة مهبط الوحي كان المدعو بالسـيد عمر بن عبد الله السقاف (المتوفى سـنة ١٣٠٥هـ) قد تلقى العلوم عن عدة مشايخ... ثم إنه أخذ الطريقة النقشبندية على الشيخ محمد مطهر، فعقب ذلك ترك الاشتغال بالتدريس بتاتاً، وتوجه لها(٣) واشتغل ا، وتقشف وانفرد عن الناس بالكلية"(٤).

بين وصاية الأب الروحي، ووصاية الشيخ على المريد:

لقد أعطت بعض الطرق الصوفية لمشائخ الطرق أوصافاً تصل إلى حد التقديس، بل رفع إلى مقام الربوبية أحياناً فله أن يحلل ويحرم(5). "فالشيخ عند المتصوفة هو إله، وتسمى

---

(1) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية، إعداد: عبد الوهاب خليل الرحمن، ص: (١١٤).

(2) حلية البشر: ١٣٧١/٣-١٣٧٣.

(3) يعني الطريقة، نقلاً عن كتاب الانحرافات العقدية والعلمية، للشيخ علي بن بخيت الزهراني، ٤٧٢/١.

(4) انظر: مختصر نشر النور والزهر ٣٢٨/٢.

(5) انظر: تقرير الأزهر عن الصوفية في مصر، عن اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، لحمد بن صـادق الجمال، ص: (١٧٩).

الطرق الصوفية كلها باسم مشايخها ومؤسسـيها، ومع الزمن تتفرع الطريقة الواحدة إلى طرق كثيرة تحمل أسماء مشايخها الجدد"(١)، وهذه الطريقة تشـبه إلى حد كبير تقديس النصارى للرهبان والكنيسة، التي أعطيت الوصاية الروحية على النصارى، فلا اعتراض على ما تقره الكنيسة من عقائد أو ما تفرضه من أحكام(٢)، ولا يجوز للنصراني أن يسأل عن شيء من الدين بل عليه الإيمان المطلق بكل ذلك٣. بل حتى وصل من تسلط الكنيسة أ ا صارت توزع صكوك الغفران.

وهذه التبعية للرجال والانقياد لهم دون الانقياد للحق هي من صفات اليهود أيضاً، يقول شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "فوصف الله اليهود بأ م كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي الناطق به والداعي إليه٤ فلما جاءهم النبي الناطق به من غير طائفة يهوو ا لم ينقادوا له فإ م لا يقبلون الحق إلا من الطائفة التي هم منتسبون إليها مع أ م لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم أو الدين من المتفقهة أو المتصوفة أو غيرهم أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين غير النبي صلى الله عليه وسلم فإ م لا يقبلون من الدين لا فقها ولا رواية إلا ما جاءت به طائفتهم ثم إ م لا يعلمون ما توجبه طائفتهم مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقاً رواية وفقها من غير تعيـين شخص أو طائفة غير الرسـول صلى الله عليه وسلم"٥

والعجيب أن الصوفية التي تبعت الرهبانية النصرانية _ في بادئ الأمر _ لم يتورع متأخروهم في الشطح على منوال الرهبان النصارى إلى أبعد درجة يمكن تصورها، فحرم على المريد أن يعترض على شيخه مهما وجد عليه من أمور ساقطة، "وقد وضع الصوفية قواعد عامة لتربية مريديهم، وكلها تحوم حول الخضوع التام من المريد للشيخ، بحيث يتحول التلميذ المسكين إلى انقياد أعمى(٦)، وحتى تتم هذه التربية الذليلة ألزموهم بلبس معين، ومشية معينة، وشيخ معين، وطريقة معينة، ومن هذه القواعد المتعارفة بينهم: كن بين

---

(1) انظر: الكشف عن حقيقة الصوفية ص: (٣١٧).

(2) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: (٤٣).

3 - مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥١١).

4 - وذلك في قوله تعالى: (وكَانوا من قَبلُ يستفْتحونَ علَى الذين كَفَروا فَلَما جاءَهم ما عرفُوا كَفَروا بِه فَلَعنـةُ الله علَى الْكَافرِين)(البقرة: من الآية٨٩)، وقوله تعالى: (وإِذَا قيلَ لَهم آمنوا بِما أَنزلَ الله قَالُوا نؤمن بِما أُنزِلَ علَينـا ويكْفُرونَ بِما وراءَه وهو الْحق مصدقاً لما معهم قُلْ فَلم تقْتلُونَ أَنبِياءَ الله من قَبلُ إِنْ كُنتم مؤمنِين) (البقرة:٩١)

5 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٨/١

(6) انظر: (تقرير الأزهر عن الصوفية في مصر)، عن اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، لحمد بن صـادق الجمال، ص: (١٧٨- ١٧٩).

يدي الشيخ كالميت بين يدي المغسل. لا تعترض فتنطرد. من قال: لشيخه لم؟، لا يفلح"[1]. "وفي ظل الدولة العثمانية، انتشرت تلك المقولة العجيبة: من لا شيخ له فشيخه الشيطان! وأصبحت الصوفية – بالنسبة للعامة بصورة خاصة – هي مدخلهم إلى الدين وهي مجال ممارستهم للدين!!"[2].

وفي خلافة الدولة العثمانية اتخذ بعض الحكام العثمانيـين مكانة في قلوب الناس توجته ا الصوفية، فقد "اعتنق السلطان عبد الحميد الثاني الطريقة الشاذلية[3]، وحينما اعتلى عرش الخلافة أخذ أنصاره ينشطون في الدعوة إلى (الصوفية الإمامية) على اعتبار أن الخليفة ظل الله على الأرض، مما يوجب طاعته وطلب رضاه"[4].

"والحقيقة أن النظرة للربط بين سلطة الحاكم وإرادة الخالق كانت على عهد الفراعنة القدماء الذين اعتبروا سلطة الفرعون مستمدة من سلطان السماء باعتباره – كما كانوا يعتقدون – ابن الإله، ثم نظر الفرس إلى أكاسر م باعتبارهم على صلة بالإله (أهورا – مزدا)، وحكم قيصر روما أوربا بالحق الإلهي قبل المسـيحية باعتباره ابن السماء وبعدها باعتباره رئيس الكنيسة وحليف الكهانة، وحينما جاء الإسلام ألغي هذه النظرة على اعتبار أن العصمة للأنبياء وحدهم أما الخلفاء فهم بشر ولكل بشر شيطان وعلى الرعية أن تقوم الخليفة إذا أخطأ، كما أعلن ذلك أبو بكر منذ بدء الخلافة الإسلامية"[5].

وحتى الآن يقوم نظام الحكم في بعض الدول على ما يسمى بنظام الملكية المقدسة، فإ م يعتبرون ممثلين للذات الإلهية أمام شعو م، وتكون زعامتهم روحية وسـياسـية في آن واحد. وهذه النوعية من الملكية نادرة في الوقت الحاضر[6].

---

(1) دراسات في الفرق: الصوفية ص: (٧٨).

(2) انظر: واقعنا المعاصر، ص: (١٥٥).

(3) طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسـن الشاذلي توفي عام: (٦٥٦هـ)، يؤمن أصحا ا بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية، وإن كانت تختلف عنها في سلوك المريد وطريقة تربيته بالإضافة إلى اشتهارهم بالذكر المفرد (الله) أو مضمراً (هو).

(4) صحوة الرجل المريض: (١٢٢- ١٢٣).

(5) انظر: صحوة الرجل المريض، ص: (١٢٥).

(6) وتعتبر الملكية في ساموا الغربية من هذا النوع، انظر: الموسـوعة العربية العالمية، وهي ترجمة بتصرف عن: دائرة المعارف العالمية (World.Book.Encyclopedia): ٩/١٦.

رفع التكاليف المأخوذ عن عقيدة النرفانا:

عرفت النرفانا في الهندوسـية بأنها النجاة. يقول الباحث محمد ضياء الأعظمي: "النرفانا هي: حالة الروح التي بقيت صالحة في دورات تناسخية متعاقبة ولم تعد تحتاج إلى تناسخ جديد فيحصل له النرفانا (النجاة) من الجَولان وتتحد الروح بالخالق. فهذه العقيدة قائمة على أن الأرواح هي في حال تجول مستمر من جسد إلى آخر، ولا يحصل لها الاستقرار إلا بعد النجاة، وهذا التجوال هو ما يسمى في الهندوسـية بالكارما[1]، التي هي أصل عقيدة التناسخ[2]"[3]. "ولا يصل أحد إلى النرفانا إلا بعد أن يقضي على جميع شهواته الحيوانـية، ورغباته المادية والجسـدية، ويكون في النـهاية في مرتبة: (لا شيء أريـده) (WANTLESSNESS)"[4].

يقول (كرشنا)[5]: "من يعرف طبيعة ظهوري وأعمالي التجاوزية لا يولد ثانية عند تركه الجسد في العالم المادي، بل يدخل مقامي السرمدي"[6].

كما عرفت هذه العقيدة لدى الديانة الجينية، يقول د. أحمد شلبي: "ولا بد للنجاة كذلك من قهر جميع المشاعر والعواطف والحاجات، ومؤدى هذا ألا يحس الراهب بحب أو كره، ولا بسرور أو حزن، ولا بحر أو برد، ولا بخوف أو حياء، ولا بجوع أو عطش، ولا بخير أو شر. والجيني بذلك يصل إلى حالة من الجمود والخمود والذهول فلا يشعر بما حوله،

(1) الكارما هي: قانون الجزاء الذي يقرر إن كان الإنسان صالحاً في واحدة من دورات حياتـه الحلوليـة فإنـه سـيلقى جزاء ذلك في الدورة الثانية، وإذا كان طالحاً فإنه سـيلقى جزاءه في الدورة الثانية أيضاً، انظر: دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي ص: (٦٢٩).

(2) "التناسخ: من العقائد الفاسدة التي يقصد بها انتقال الروح من بدن قد مات صاحبه إلى بدن آخر لمخلوق حي، إنسانا كان أم حيوانا، وذلك لمنح الروح الفرصة بعد الفرصة لكي تتطهر من أدرانها على أساس أن الحياة قصيرة ولا بد من إعطاء الروح وقتا كافيا لكي تتحرر من أخطائها. ويعرف التناسخ بتجـوال الـروح، أو تكـرار المولـد"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٢٢/٢ .

3 - انظر: دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي، ص: (٦٢٩).

4 - دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي ص٦٣٢-٦٣٣، وانظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، للدكتور علي عبد الواحد وافي، ص: (١٨٩).

(5) "كرشنا : من أبرز كهنة الهنود، ولد حوالي سـنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد، وتربى عند نساك البراهمة"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١١٢٩/٢

6 - الكيتا: اشلوك ٩، نقلاً من كتاب دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي، ص: (٦٣١).

ودليل ذلك أن يتعرى فلا يحس بحياء وينتف شعره فلا يتألم، لأنه لو أحس بما في الحياة من خير وشر أو نظم متفق عليها، فمعنى هذا أنه لا يزال متعلقاً ا خاضعاً لمقايـيسها"(1).

ولقد اتخذت عقيدة الفناء (النرفانا) عند الهندوس طابع التدرج كما هو الحال عند الصوفية؛ فلا يصل الفرد إلى الاتحاد بذات الخالق إلا بعد مروره بعدد من الرياضات التي تمكنه من الحلول في الذات المقدسة والفناء فيها، يقول د. محمد ضياء الأعظمي: "كانت هذه العقيدة سائدة في الهند منذ عهد بعيد. ويعتبر أرقى الناس في الهند وأعمقهم فكراً عند الهندوس من عرف حقيقة (AIRMEWADWITEA) يعني هو فقط لا ثاني له، وهذه هي غاية الفكر الهندي كما يوضح (الفيدانت):

الخطوة الأولى: أن تعرف الخالق بمعرفة مخلوقاته.

والخطوة الثانية: أن تميز بين الخالق وطبيعة الكون.

والخطوة الثالثة: أن ترى الوحدة بين الخالق وطبيعة الذرة التي خلق منها هذا الكون.

والخطوة الرابعة: وهي الغاية العظمى عند الهنادك أن ترى أن ذرة التخليق تتلاشى في ذات الخالق، لأ ا هي هيولي الكائنات، ومصيرها الاتحاد بعلة العلل"(2).

ويؤكد د. محمد ضياء الأعظمي على تأثر الصوفية ذه العقيدة الهندوسـية، فيقول: "وأثرت هذه العقيدة على أفكار الصوفية في الهند أولاً، ثم انتقلت إلى البلاد ا اورة لها مثل تركستان، ومن هنا انتشرت في البلاد الأخرى، ومن هذا المعين يقول ابن عربي:

فما نظرت عيني إلى غير وجهه   وما سمعت أذني خلاف كلامه

فإن الهدف الأسمى للحياة عند الهندوس هو التحرر من رق الأهواء والشهوات، فإن الروح إذا خرجت من جسم تنتقل إلى جسم آخر وهكذا تظل متنقلة من جسم إلى جسم حتى يحصل لها (النرفانا) وهو العودة إلى أصلها الذي صدرت عنه، والاتحاد والاتصال به وهو (برهما) وفي تعبير المتصوفين (الفناء)(3). ومما لا شك فيه أن التصوف تأثر كثيراً بالعقائد الهندية، ففكرة الاتحاد أو وحدة الوجود عند الحلاج وابن عربي وغيرهما من المتصوفين مصدرها (الفيدانت) حيث ترجم في عهد المأمون في دار الحكمة، وبقي ابن عربي مدة من الزمن في الشرق بعد أن خرج من موطنه بلاد الأندلس، وكان يتلقى مبادئ

(1) أديان الهند الكبرى الهندوسـية – الجينية – البوذية، للدكتور أحمد شلبي، ص: (١٢٢- ١٢٣).

(2) دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي ص: (٦٨٢-٦٨٣).

(3) الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (٤٠).

التصوف من مشايخ الشرق وألف كتابه "الفتوحات المكية" بمكة المكرمة، وهو شبيه بتعليمات التصوف الهندي. أليس قول ابن عربي: الاعتقاد بصحة كل عقيدة حتى لو كانت عبادة الحجر والشجر. شبيه بفكرة (الفيدانت) القائلة: وفي النهاية كل هذه الأفكار توصل إلى ذات الله"(١)، بلى.

ومما يتصل أيضاً بفكرة الاتحاد: عقيدة وحدة الوجود المأخوذة عن الفكر الهندي كذلك، والتي انتشر بسببها الفساد الأخلاقي بين الصوفية في العصور المتأخرة[2] فعقيدة وحدة الوجود – التي استفحلت عند متأخري الصوفية(٣) – شجعت على الإباحية "لأن الثواب والعقاب يصبح من المشكلات فمن الذي يثيبنا حين نحسن؟ ومن الذي يعاقبنا حين نسيء؟ إذا كان الإنسان جزأً من الله، إ ا خطر على عالم الأخلاق، بل تأتي على قواعده من الأساس، ولذلك عاش بعض الصوفية عيشة التفكك والانحلال، وقد كان لابن الفارض وهو من شيوخ وحدة الوجود(٤)، كان له مغنيات بالقرب من قرية (البهنسا) يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة وهو يرقص ويتواجد(٥)"(٦).

ولقد كان مما انتقده الأزهر على الصوفية في مصر: ادعاء بعض مشائخ الطرق الصوفية إسقاط التكاليف الشرعية عنه[7].

ولقد لقيت هذه العقيدة – عقيدة وحدة الوجود _ رواجاً حتى في عصرنا الحاضر "وهذا (أحمد السهسواني الهندي) (المتوفى سنة ١٢٥٩هـ): كان من القائلين بوحدة الوجود له مصنفات منها: (البنيان المرصوص في شرح الفصوص لابن عربي)(٨). وكان تدريس كتابي (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) لـ(ابن عربي) وغيرهما من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة

---

(1) من مضمون الفكرة: أن الخالق موجود في كل زمان ومكان، انظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي، ص: (٦١٣).

2 - انظر: تقرير الأزهر عن الصوفية في مصر، عن اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، لحمد بن صادق الجمال، ص: (١٧٩).

(3) انظر: الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (٥٢- ٥٣).

(4) توفي ابن الفارض عام: (٦٣٢هـ)، انظر: جلاء العينين، للألوسي، ص: (٧٩).

(5) انظر القصة في: جلاء العينين الألوسي، ص: (٧٩).

(6) الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (٩٧).

7- انظر: تقرير الأزهر عن الصوفية في مصر، عن: اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، لحمد بن صادق الجمال، ص: (١٧٩).

(8) نزهة الخواطر و جة المسامع والنواظر: ٣/٧.

وغيرهم، وهو المنـزلة العلمية التي لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم، والمستوى العلمي الذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء. كما رأينا ذلك بوضوح عند الأمير (عبد القادر الجزائري)، وجمهور علماء (الشام)، ولم يكن الأمر مقتصراً على (الشام)، بل كان ذلك الانحراف واقعاً في غالب الأقطار"[1].

ويذكر صاحب كتاب حلية البشر عن الشيخ: سعيد الخالدي الدمشقي أنه ممن ادعى سقوط التكاليف عنه، فيقول: "وأنكر العلم والعمل، وعن كثير من التكاليف اعتزل، وقال هذه واجبة على المحجوبين لا على المحبوبين... وصار لا يقول بواجب ولا مسنون، ويقول إن التمسك بذلك محض جنون، ومن دخل في الطريق، وترقى في المقامات، صارت ذاته عين الذات، وصفاته عين الصفات، وهل يجب على الله صلاة أو صيام بحال؟! وهل يقال في حقه عن شيء حرام أو حلال؟!

وقد وافقه على ذلك عدة أشخاص قد خرجوا من الدين ولات حين مناص، فتجاهروا بالآثام، ولم يتقيدوا بحلال أو حرام... وتبعهم على ذلك جملة قوية، حتى صاروا فرقة ذات متانة وحمية"[٢].

ويدعو أحد مشائخ الطرق مبتهلاً إلى الله أن يوصله إلى درجة الفناء، فيقول: "وزج بي في بحار الأحدية! وانشلني من أوحال التوحيد! وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها"[٣].

ويقول الشيخ (حسن رضوان)[٤]، من منظومته الصوفية (روض القلوب المستطاب):

وحسبك من ذلك المقصود ... إشراق نور وحدة الوجود
وكل ما سواه نجم آفل ... بل في شهود العارفين باطل
فليس إلا الله والمظاهر ... لجملة الأسماء وهو الظاهر"[٥]

ويقول الشيخ (علي بن أحمد اليشرطي الشاذلي)[١]: "ما زال العبد يذكر الله حتى يستولي عليه الاسم، ومتى استولى عليه الاسم، انطوت العبدية بالربية وظهرت عليه صفات

(1) الانحرافات العقدية والعلمية، للشيخ علي بن بخيت الزهراني، ١/٥٥٦.

(2) حلية البشر: ٢/٦٧٢.

(3) الكشف عن حقيقة الصوفية ص: (١٩٣).

(4) هو حسن رضوان بن محمد بن حنفي ابن عامر الحسيني الخالدي: متصوف أزهري. ولد في إحدى قرى بني سويف بمصر وتفقة بالأزهر وتنقل في بعض الزوايا المصرية وتوفي عام: (١٣١٠هـ - ١٨٩٢م)، انظر الأعلام، للزركلي: ٢/١٩١.

(5) الكشف عن حقيقة الصوفية ص: (٢١١).

الرب، ولذة الرب تغيب العبد عن وجوده حساً ومعنى... ومن يرحم الفقير ربي يحسن إليه، وهذه وحدة الوجود لا يحصل عليها أي إنسان، فهي للأصفياء والأنبياء"(٢).

ويقول علي حرازم الفاسي: "إن جميع المخلوقات مراتب للحق، يجب التسليم له في حكمه وفي كل ما أقام خلقه، لا يعارض في شيء، ثم حكم الشرع من وراء هذا يتصرف فيه ظاهراً لا باطناً، ولا يكون هذا إلا لمن عرف وحدة الوجود فيشاهد فيها الوصل والفصل، فإن الوجود عين واحدة لا تجزؤ فيها على كثرة أجناسها وأنواعها ووحد ا، لا تخرجها عن افتراق أشخاصها بالأحكام والخواص، وهي الـمعبر عنها عند العارفين أن الكثرة عين الوحدة والوحدة عين الكثرة، وهذا النظر للعارف فقط لا غيره من أصحاب الحجاب وهذا لمن عاين الحدة ذوقاً لا رسماً وهذا خارج عن القال"(٣)، كل ذلك يبين مدى انتشار عقيدة الحلول والاتحاد الهندوسية عند الصوفية في العصر الحديث.

ولذلك فإن ما يقال اليوم على ألسنة المتأثرين بالمتصوفة(٤) من استحباب التخلق بأخلاق الإله هو لوثة من لوثات الفناء (النرفانا)، يقول شيخ الإسلام _ رحمه الله _ منكراً التلفظ ذا اللفظ: "ولهذا ضل من سلك سبيل هؤلاء فصار مقصودهم هو التشبه بالله واحتجوا بما يروون تخلقوا بأخلاق الله وصنف أبو حامد شرح أسماء الله الحسنى وضمنه التشبه بالله في كل اسم من أسمائه وسماه التخلق حتى في اسمه الجبار والمتكبر والإله ونحو ذلك من الأسماء التي ثبت بالنص والإجماع أ ا مختصة بالله وأنه ليس للعباد فيها نصيب كقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره ((يقول الله تعالى العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته))(5)، وسلك هذا المسلك ابن عربي وابن سبعين وغيرهما من ملاحدة الصوفية وصار ذلك مع ما ضموا إليه

---

(1) هو علي بن أحمد المغربي اليشرطي الشاذلي: شيخ الطريقة المعروفة باليشرطية، من طرق الشاذلية، ت: (١٣١٦هـ - ١٨٩٩م)، انظر: الأعلام ٢٦٠/٤.

(2) الكشف عن حقيقة الصوفية ص: (٢١٩).

3 - انظر: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تأليف علي حرازم بن العربي برادة المغربي الفاسي، ص: ٩٢/٢.

(4) على سبيل المثال: سمعت هذه العبارة من أحد المعلمين، حيث قام بضرب المثل ببعض الصفات الإلهية التي يمكن أن يتخلق ا العبد، فسألته هل كل صفات الله يمكن للعبد أن يتخلق ا؟! فأجاب أن: نعم، والله المستعان.

(5) لم أجد الحديث في صحيح مسلم، ولكنه عند أبي داود بلفظ: ((الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار))، ٥٩/٤، برقم: (٤٠٩٠)، وعند ابن ماجه بلفظ: ((ألقيته في جهنم)): ١٣٩٧/٢،برقم: (٤١٧٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ٤٠٥/٢، برقم: (٣٣٦٥).

من البدع والإلحاد موقعاً لهم في الحلول والاتحاد وقد أنكر العلماء على أبي حامد ما ذكره في التخلق وبالغوا في النفي حتى قالوا ليس لله اسم يتخلق به العبد"(1).

وأما ما يسمى بالجذبة عند الصوفية فهي تشـبه النرفانا من ناحية أ ا اقتراب من ذات الله _ عندهم _، ولكنها تختلف من ناحية أن لها وقتاً محدداً، ولكنها لا تسلم من كو ا مأخوذة من الأديان الأخرى، ولعلنا نأتي على تعريفها أولاً، الجذبة هي: أن من عبد الله فإن الله يجذبه إليه بحيث يكشف له الغطاء الذي يجعله يرى أنه غير الله، والطريق الموصلة إلى هذه الجذبة هي الرياضة الروحية[2].

يقول المستشرق جولد تسـيهر: "فالأشكال الكثيرة للرياضات الدينية المتعلقة بالذكر في الجماعات الصوفية وكذا الوسائط التي تستخدم للوصول إلى الانجذاب والنشوة – نظام التنفس – أرجعها " كريمر " إلى أصولها الهندية التي أثبتت صدورها عنها"[٣].

ومن تلك الرياضات التي ترجع إلى أصول هندية: اليوغا، وتعرف بأ ا: "اللغة الهندية المقدسة وتعني الاتحاد والاتصال بالله، أي الاتحاد بين الجسم والعقل والله، وهي توصل الإنسان إلى المعرفة والحكمة، وتطور تفكيره بتطوير معرفته للحياة، وتجنبه التحزب أو التعصب الديني وضيق الأفق الفكري وقصر النظر في البحث، وتجعله يحيا حياة راضية بالجسد والروح"(٤).

وجاء تعريفها في المعجم الفلسفي: "اليوغا: لفظ سـنسكريتي معنـاه الاتحـاد، ويطلق على الرياضة الصوفية التي يمارسها حكماء الهند في سبيل الاتحاد بالروح الكونيـة، فاليوغا ليست إذن مذهباً فلسفياً، وإنما هي طريقة فنية تقوم على ممارسة بعض التمارين التي تحرر النفس من الطاقات الحسـية والعقلية، وتوصلها شيئاً فشيئاً إلى الحقيقة، واليوغي: هو الحكيم الذي يمارس هذه الطريقة"(5).

وهذا يعني أن اليوغا ليست رياضة جسدية فحسب بل فيها ما يتصل بالروح، وهي عبارة عن طريقة للاتحاد والاتصال بالله، فهي طريقة مبتدعة للسمو بالروح، فهي لا تعدو

(1) انظر: الصفدية: ٢ /٣٣٧- ٣٣٨

2 - انظر: الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، تأليف، محمود عبد الرؤوف القاسم، ص: (٦٦٥).

(3) العقيدة والشريعة في الإسلام ص: (١٦١-١٦٤)، نقلاً من كتاب دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديـان الهند، محمد ضياء الأعظمي، ص: (٦٣٣).

(4) اليوجا والتنفس، محمد عبد الفتاح فهيم، ص: (١٩).

(5) المعجم الفلسفي لجميل صليبا: ٥٩٠/٢.

أن تكون مأخوذة عن فكرة النرفانا، وهي كما سبق طريقة هندوكية ضالة تعتمد على وصول الإنسان إلى حالة الاتحاد في براهما، عن طريق الرياضة الروحية والجسدية.

وبناءً على ذلك فإننا لا نستطيع أن نصف اليوغا بأ ا رياضة عادية نافعة، ما دام أن لها هذه الغاية الملحدة، ولم أجد من عرف اليوغا تعريفاً مادياً بعيداً عن جانبها الروحي، فكل من عرفها لا بد أن يذكر الجانب الروحي لها وما تضفيه من صفاء الروح وطريقة التفكير، بل حتى من غالط في مفهوم اليوغا وادعى أ ا ليست فلسـفة[١] نجده عرفها بأ ا "رياضة جسدية نفسـية فكرية فيها يخضع الإنسان جسده بوظائفه الإرادية طبعاً واللاإرادية بالسـيطرة العصبية إلى محض إرادته، وبواسطتها تتصل روحه بروح الرب مسـير الكون العظيم فهي أي اليوغا إذن (صلة الوصل) بين الإنسان وخالقه"[٢]، إذن فمن قال: إن اليوغا رياضة جسدية لا علاقة لها بالروح فقد غالط، أو لم يتعرف على اليوجا فهو على جهل ا.

كما أن اليوغا لها علاقة بفكرة وحدة الأديان، يقول د. أحمد شلبي: "وذوبان بوذا في آلهة الهندوس ليس إلا عوداً إلى تفكير الجنانا يوجا الذي يرى في كل الـديانات وفي كـل الفلسفات حقاً، ولكن هذا الحق ليس سـوى ذرة من الحق الأعظم الكامل، فهذا المذهب لا يعترض على دين أو فلسـفة، ويرى أن أي دين أو فلسـفة ليس هو كل شيء وليس هو كل الحق، ومعتنق هذا التفكير لا ينتمي إلى دين أو مذهب لأنه يـرى أتبـاع كـل الديانات المختلفة إخوة له مهما اختلفوا، فجنانا يوجا مذهب يتسع لمعتقدات الجميع، ويأبى أن يتقيد بقيود أي منها، ويجب أن نقرر بشدة أن إثارة هذا المذهب والدعاية له ترمـى إلى محاربة الإسلام بطريق غير مباشر، وقد رأيت هذه المحاولات في عدة بلاد، فالإسـلام هـو القوة التي قهرت المبشرين المسـيحيـين والبوذيـين، فإذا صرفوا الناس عنـه بطريـق أو بآخر ولو باسم جنانا يوجا التي تتسع لكل المعتقدات ولا تتقيد بقيود أي منها، فإن هـذا كسب لهم عظيم، وبعد أن يصرف المسلم عن الإسلام ذه الحيلة البارعة يمكن نقلـه إلى التشكيك، فجذبه إلى دائرة أخرى، فليحذر المسلم اليوجا ومداخلها ودعا ا"[٣].

كل ذلك مما يجعلنا نؤمن بخطر هذه الرياضة الروحية والتي تساعد في تسرب العقيدة الهندوسـية الوثنية إلى المسـلمين.

(1) اليوجا سـيطرة على النفس والجسد، تأليف: المستشرق: ج. توندريو، وعالم النفس: ب. رئال، ص: (١٢).
(2) اليوجا سـيطرة على النفس والجسد، تأليف: المستشرق: ج. توندريو، وعالم النفس: ب. رئال، ص: (١١).
(3) انظر: أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي، ص: (١٧٤).

ولكننا نجد مظاهر الإعجاب ذه الرياضة الدخيلة بدأت تنتشر، يقول د. أحمد شلبي: "وقد نشرت جريدة الأخبار الصادرة في ٧٥/٧/١٦ خبراً عن إنشاء مكتب بالقاهرة باسم تدريبات اليوجا، وكان المكتب من خلف هذه التدريبات يـباشر نشاطاً دينياً لتميـيع الأديان وللانتقاص من القيم الروحية التي تتضمنها، كما ثبت أنه يمول من جهات صهونية، ولهذا أصدرت وزارة الداخلية قراراً بإغلاق هذا المكتب وترحيل الأجانب الذين يعملون فيه"[١].

ولكن هذه الفكرة لم تلبث أن وجدت لها سبلاً أخرى للدخول إلى بلاد المسـلمين، يقول أحدهم في بيان قصة معرفته باليوجا وإعجابه ا: "وذهبت إلى بيت السفير في الموعد وكان في انتظاري ولكني فوجئت بأنه لم يكن ينتظرني في مكتبه أو في الصالون بل في غرفة المائدة.. وفوجئت أكثر إذ لم أجده يرتدي ملابسه الهندية التقليدية أو حتى رداءاً غربياً .. بل كان يلبس (شورت) وصدره عارياً .. يمارس تمارين اليوجا في أحد أركان الغرفة في مواجهة الشرفة المفتوحة. وكان هذا اللقاء بداية معرفتي الواسعة بـ (اليوجا) .. ودعاني السفير: (أبا بانت) إلى مشاركته في تمارينه فكانت أولى خطواتي في ممارسة تمرينات اليوجا .. وبعدها جلسـنا إلى مائدة الإفطار .. مائدة عامرة بالصحون ولكنها كلها صحون نباتية تتفجر منها الفيتامينات. وعلى المائدة عرفت أن والد السفير (اوانراو بانت براتينهي) راجا ولاية (أونده) في الهند هو أحد أقطاب اليوجا على مستوى العالم كله. وبعد الإفطار أجريت الحديث المطلوب مع السفير. وافترقنا على موعد لأبدأ دروسـي في اليوجا"، إلى أن يقول: "إنني أهدي هذا الكتاب إلى روح الراجا: (اوا نراو بانت براتيندهي)"[٢].

التعبد بما لم يشرع الله:-

إن عبادة الله عز وجل ينبغي أن لا تكون إلا عن طريق ما شرعه سبحانه، فهو أعلم بما يجب له وما يتقرب به إليه، وإلا فإن العمل سـيخرج عن كونه صالحاً، قال تعالى: (فَمن كَانَ يرجو لقَاءَ ربه فَلْيعملْ عملاً صالحاً ولا يشرِك بِعبادة ربه أَحداً)[٣]، فلا يكفي

(1) أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي، ص: (١٧٤).
(2) محمد رفعت في كتابه: (اليوغا طريق الصحة والسعادة والشباب)، ص: (٩،٨).
(3) سـورة: (الكهف: من الآية١١٠).

كون العمل خالصاً لله، بل لا بد من كونه صواباً، قال ابن كثير في تفسـيره: "وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدو ما أي يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة وباطنه بالإخلاص فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس ومن فقد المتابعة كان ضالا جاهلاً ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين"[1].

ولكننا نجد أن المتصوفة جاءوا بعبادات ما أنزل الله ا من سلطان، وبدأ الانحـراف بزاوية ضيقة ثم اتسعت حتى صار ضلعاً الزاوية أبعد ما بين المشرق والمغرب، وعظم بذلك بعدهم عن الشريعة؛ فحين ظهرت القصائد الدينية في الزهد، والترنم ا واتخاذهـا طريقـاً لترقيق القلوب[٢]، لم ير الصوفية في ذلك غرواً، أو بعداً عن الحق، ولكن الأمر لم يقف إلى هذا الحد، بل تعداه حتى "تطور إلى ذكر الله بالرقص والـدف والغنـاء، وعنـدما تقـام الحضرة[٣] تبدأ التراتيل بذكر اسم الله المفرد (الله) بصوت واحد، ولكن عندما يشتد الرقص ويلعب الشيطان برؤوسهم يرفعون عقير م أكثر ويتحول اسم الله إلى (هو) ثم لا تـسمع بعدها إلا همهمة، وقد يجتمع مع هذا الصراخ والقفز في الهواء أخلاط الناس مـن النـساء والأولاد لرؤية هذا (التراث الشعبي)"[٤].

"وما يفعل في مصر من احتفالات مولد البدوي أو الحسـين، حيث حفلات الرقص والطبل والزمر، وحيث الاختلاط بالنساء وتضيع الفرائض شيء يخجل منه أهل الإسـلام ويتبرأ منه دينه وشرعه، والأزهر بجوارهم وما من منكر عليهم[5]، وتقام الصلاة في مسجد الحسـين ولا يدخلون للصلاة لأ م جاءوا للاحتفال (بـسـيدنا الحـسـين) ولـيس للصلاة"[٦].

يقول الباحث علي بخيت الزهراني: "وبعضهم كان يقوم بتعليم الموسـيقى، كما فعل الحاج عثمان بن الحاج عبد الله الطحان[٧]، ويا ليت أن هؤلاء المتصوفة اقتـصروا علـى

(1) تفسـير ابن كثير: ٥٦٠/١.
(2) انظر: الصوفية نشأ ا وتطورها، محمد العبده طارق عبد الحليم، ص: (٩٩).
(3) مصطلح عند الصوفية يعني الاجتماع على ذكر الله بالرقص على شكل حلقة يكون الشيخ في وسطها وكأنـه قائد أوركسترا، انظر: الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (٩٩).
(4) الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (٩٩- ١٠٠).
(5) وربما ينكر عليهم، بعض من نور الله بصيرته وتسلح بسلاح العلم، ولكن المنكر لا زال قائماً، والله المستعان.
(6) الصوفية نشأ ا وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، ص: (١٠٩).
(7) حلية البشر ١٠٥٥/٢.

الولوع بالطرب والسماع والغناء، ولكنهم جعلوه إلى الله قربة، وعدوه طاعة تلـين ــا القلوب، وتشف ا الأرواح"(١).

وتعبد الصوفية لله بالغناء والرقص والطبول يشبه تعبد المشـركين (مشركي العرب) لله بالمكاء والتصدية[2]، فما الفرق بينهما، هذا صوت وهذا صوت، وهذا بغـير دليل ولا برهان والآخر كذلك، وكلاهما مما تجره الشهوات الضالة على بني آدم، لما فيه من الطـرب المحرم، قال تعالى: (وما كانَ صلاتهم عند الْبيت إلا مكاءً وتصديةً)(٣).

قال شيخ الإسلام: "وقال سبحانه عن الضالين: (ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها علَيهم إلا ابتغاءَ رضوان الله)(٤). وقد ابتلي طوائف من المسـلمين من الرهبانية المبتدعة بما الله به عليم – إلى أن قال – ثم إن الضالين تجد عامة دينهم إنما يقوم بالأصوات المطربة، والصور الجميلة، فلا يهتمون بأمر دينهم بأكثر من تلحين الأصوات، ثم تجد* قد ابتليت هذه الأمة من اتخاذ السماع المطرب، بسماع القصائد، وإصلاح القلوب والأحوال به، ما فيه مضاهاة لبعض أحوال الضالين"[5].

ومما يلحق ذا الباب ما تفعله بعض الجماعات الإسلامية التي جعلت الأناشيد ديدناً لها، وتقول: إ ا تلين القلوب وتجذب الشباب، وهي نفس العلة التي علـل ـا الـصوفية سماعهم. ولذلك قل أن تجد احتفالاً من احتفالا م إلا وقد طغت عليه هذه المـادة علـى حساب غيرها مما هو مفيد، وجدير بالطرح.

وكل هذه التعبدات القائمة على الغناء والرقص والطبل فيها مضاهاة للأديان السابقة، يقول د. محمد ضياء الأعظمي: "إن الراهبات الهندوسـيات يعبرن عن شوقهن وحبهن للإله المعبود بالرقص والغناء والموسـيقى، واشتهرت منهن الراهبة (ميرابائي) المولودة سـنة (١٥١٦-١٥٤٦م) التي كانت تدور مع الرهبان والنساك في المعابد والخانقات، وتسحرهم وتسكرهم بصو ا الجميل، وألحا ا الجذابة، وكانت تضرب (كرتال) (هو نوع من آلة الموسـيقى) وترقص أمام تمثال (كرشنا) وتنتقل من معابد (برندا) و (داركا) (المدينتان اشتهرتا بتماثيل كرشنا). هكذا دخل الغناء والموسـيقى في

(1) الانحرافات العقدية والعلمية، للشيخ علي بن بخيت الزهراني، ٥٠٥/١.

2 - والمكاء هو: الصفير، والتصدية هي: التصفيق، انظر: تفسـير ابن كثير: ٣٠٧/٢.

(3) سـورة (الأنفال: من الآية٣٥).

(4) سـورة (الحديد: من الآية٢٧).

* هكذا.

5 - [اقتضاء الصراط المستقيم: ٩٠/١].

تكوين الفكر الهندوسي. وعلماء الهنادك وفلاسفتهم اتخذوا الموسيقى وسيلة للتعبير عن تخليق الكون ووجوده من عدمه، فهم يسمعون هذه الألحان في جميع أجزاء العالم. ولم تكن الفكرة السيخية[1] في جانب من هذه الفلسفة، فقد كان مؤسسها (نانك) يجيد الموسيقى إلى حد الإعجاب، واتخذها وسيلة لنشر مبادئه حتى رتب كتابه (كروكرنتها صاحب) على ترتيب الألحان الغنائية التي بلغت واحداً وثلاثين لحناً. ونجد في آخر الكتاب فهرساً طويلاً لهذه الألحان، هذا هو الكتاب المقدس عند السيخيين"[2].

وقد جاء في مزامير العهد القديم: "٣ سبحوه بصوت الصور سبحوه برباب وعود. ٤ سبحوه بدف ورقص. سبحوه بأوتار ومزمار. ٥ سبحوه بصنوج التصويت سبحوه بصنوج الهتاف"[3].

وفي العهد الجديد: "(١٩) مكلمين بعضكم بعضا بمزامير وتسابيح وأغاني روحية مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب – (٢٠) شاكرين كل حين على كل شيء في اسم ربنا يسوع المسيح لله والآب[4]"[5].

ويعتمد كثير من الصوفية في معرفة الحلال والحرام على الرؤى، قال الشاطبي _ رحمه الله _: "وأضعف هؤلاء احتجاجاً قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المنامات، وأقبلوا

---

(1) "جماعة دينية من الهند ظهروا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي داعين إلى دين جديد، زعموا أن فيه شيئاً من الديانتين الإسلامية والهندوسية تحت شعار (لا هندوس ولا مسلمون)، وقد عادوا المسلمين خلال تاريخهم، وبشكل عنيف، كما عادوا الهندوس بهدف الحصول على وطن خاص بهم، وذلك مع الاحتفاظ بالولاء الشديد للبريطانيين خلال فترة استعمار الهند، وكلمة سيخ كلمة سنسكريتية تعني: المريد أو التابع"، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٧٦٤/٢.

(2) انظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي ص: (٦٨٥-٦٨٦).

(3) مزامير العهد القديم: (١٥٠).

(4) "الآب : من مصطلحات النصارى التي يراد بها الله تعالى رب العالمين، فهو الإله الذي يعطي ويحمي ويربي، وقد وضعه اليهود لما رأوا أن لفظة ((ألوهيم)) تدل على رب بني إسرائيل الذي إليه دعا إبراهيم وموسى الناس. وفي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد أرادوا أن يجعلوا شريعة التوراة لهم وحدهم لا للأمم، فصاغوا التوراة على هذا الرأي وتحدثوا عن أنفسهم بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، فأطلقوا على الله تعالى الآب بالمعنى المجازي. يقول المفسر اليهودي موسى بن ميمون: ((كل أسماء الله الواردة في الأسفار المقدسة مأخوذة عن أعمال يقوم بها ما عدا اسم يهوه ...))، ولما ترجم الإنجيل إلى اللغة اليونانية وضعت كلمة الآب العبرانية كما هي للدلالة على ذات الله، فإلى الله الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن عند النصارى"، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٣٩/٢ .

(5) رسالة بولس أهل فسس: ٥/ ١٩- ٢٠.

وأعرضوا بسببها: فيقولون: رأينا فلاناً الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا. ويتفق مثل هذا كثيراً للمترسمين برسم التصوف، وحكى الغزالي عن بعض الأئمة: أنه أفتى بوجوب قتل رجل يقول بخلق القرآن، فروجع فيه، فاستدل بأن رجلاً رأى في منامه إبليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها، فقيل: هل دخلتها؟ فقال: أغناني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن، فقام ذلك الرجل، فقال: لو أفتى إبليس بوجوب قتلي في اليقظة، هل تقلدونه في فتواه؟ فقالوا: لا! قال: فقوله في المنام لا يزيد على قوله في اليقظة. وربما قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي كذا، وأمرني بكذا، فيعمل بها، ويترك بها، معرضاً عن الحدود الموضوعة في الشريعة"[1]، وبين الشاطبي _ رحمه الله _ خطأ هذه الطائفة وبين سبب ذلك فقال: "وهو خطأ؛ لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً على حال إلا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية، فإن سـوغتها عمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها البشارة والنذارة خاصة وأما استفادة الأحكام، فلا، وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسـول الله ﷺ الرائي بالحكم، فلا بد من النظر فيها أيضاً، لأنها إذا أخبر بحكم موافق لشريعته، فالعمل بما استقر، وإن أخبر بمخالف، فمحال، لأنه عليه السلام لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته، لأن الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائي المنامية، لأن ذلك باطل بالإجماع، فمن رأى شيئاً من ذلك، فلا عمل عليه، وعند ذلك نقول: إن رؤياه غير صحيحة، إذ لو رآه حقاً، لم يخبره بما يخالف الشرع"[2].

ولم يقتصروا في أخذهم عن الرؤى والمنامات على أحكام الحلال والحرام، بل تعدوا ذلك إلى أصول العقائد والصفات الإلـهية العليا، يقول أحد المعاصرين وهو ينقل لنا وصايا شيخه الثمينة _ في نظره _: "ما أعلمه هو ما رأيته في الرؤيا. وأنا لن أحدثك عن شيء إلا رأيته في رؤيا، وهذا ما يؤمن بها الصوفية فقط .. الكشف في اليقظة والكشف في المنام"[3]. وينقل مرة أخرى تأكيد شيخه التزام الصوفية بهذا المصدر من مصادر التشريع، ويعلل بأنه الأفضل والأقرب إلى الصواب، فيقول وهو يحاور أهل الشريعة _ ويسميهم: علماء الرسوم _ الذين أخذوا علمهم عن الأسانيد المتصلة إلى الرسول ﷺ وتركوا العلم اللدني والكشوفات الصوفية: "أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. والصوفيون لم يأتوا بشيء من عنديا تهم، وإذا كان علماء الرسوم أنكروا عليهم شيئاً

(1) انظر: الاعتصام، للشاطبي: ٣٣٢/١-٣٣٤.
(2) انظر: الاعتصام، للشاطبي: ٣٣٢/١-٣٣٤.
(3) الإنسان الكامل محاورات في فلسفة الصوفية، لمحمد غازي عرابي، ص: (٣٧).

فلأن علماء الرسوم محجوبون، محجوبون حتى بحجاب الشريعة. أما علمنا فهو من تركة النبي [ﷺ] فهو العلم اللدني، والعلم اللدني هو الذي أثبت أن لنبـينا هذه المكانة، ولقد سبق أن قلت لك إنني لن أقول شيئاً إلا وقد رأيته في رؤيا"[1].

وأذكر هنا مثالاً واحداً لما يقصه الكاتب عن شيخه من تفسـير بعض الرؤى بما فيه تعدي على الصفات الإلـهية، يقول: "لقد رأيتني في رؤيا مع امرأة اسمها نجلاء رمضان واقفَين أمام فرن، ولقد صنعت المرأة خفين من عجين ووضعتهما على النار ثم أعطتهما لي، ثم وجدتني أنا وهي على سرير، ونظرت فإذا أنا في الفضاء ومن تحتي الأرض بعيدة، وأبصرت على الأرض امرأتين واحدة اسمها ى والثانية أمل، وأخذني الخوف من البقاء على هذا الارتفاع فهبطت.

والنجلاء: العين، ورمضان: أشد الأسماء الإلـهية خصوصية؛ فالصيام لله ورمضان شهر العبادة على الحقيقة. إذن لقد كنت مع العين الإلـهية أمام الفرن، والفرن مصنع الخبز، والخبز حياة لأنه مقوم للحياة وبه العيش، والإشارة إلى اسمه (الحي) تعالى. ولقد صنعت المرأة خفين من عجين ووضعتهما على النار، ولقد سبق أن تحدثنا عن مقام خلع النعلين: النفس والبدن أو الدنيا والآخرة، فالفاني استبدل بنعليه، أي: بوجوده النفسـي والبدني وجوداً جديداً إلـهياً أشير إليه بخفين مصنوعين من العجين الذي صنع من الذر اللطيف الإلـهي (طحين). هذا هو مقام البقاء بالله يا بني، وهو مقام علوي فوق العقل، ولهذا رأيتني جالساً مع المرأة على سرير أي: على العرش أو الكرسـي الإلـهي الذي وسع السموات والأرض، ولهذا رأيت على الأرض امرأتين اسم إحداهما: (ى) أي: العقل، والثانية: أمل، أي أن حلمي تحقق بزيادة في العقل أو ما سميناه العقل القدسـي الآخذ عن الله بلا واسطة"[2].

فنجده في تفسـير هذه الرؤيا قد اخترع اسماً لله لم يدله عليه كتاب ولا سـنة، وادعى أن هذا الاسم (رمضان) أشد الأسماء الإلـهية خصوصية، ثم فسر المرأة التي اسمها نجلاء بالعين الإلـهية، وهذا استنـتاج غريب فيه إزراء بصفة العين لله تعالى، ثم ادعى لنفسه الجلوس على العرش الذي هو سقف المخلوقات وهو الذي استوى عليه ملك الملوك ــ تبارك وتعالى وتقدس في علاه ــ والعجيب أن هذا الموطن لم يصل إليه حتى رسول الله ﷺ، ثم يخـتم بادعاء أن رؤياه تحققت بزيادة في عقله الآخذ عن الله بلا واسطة، والحقيقة أ ا نقص في العقل والدين، وتشبه بالنصارى في تحريفهم للدين.

(1) انظر: الإنسان الكامل محاورات في فلسفة الصوفية، لمحمد غازي عرابي، ص: (٤٦).
(2) انظر: الإنسان الكامل محاورات في فلسفة الصوفية، لمحمد غازي عرابي، ص: (٢٠٩-٢١٠).

فهذه الطريقة في معرفة الحلال والحرام وتقرير العقائد عرفت لدى النصارى، فقد اشتهرت لديهم رؤيا يوحنا _ في العهد الجديد _ التي يعتمدون عليها في تبديل ما أنزل الله على المسـيح _ عليه السلام _، قال الإمام القرطبي _ رحمه الله _: "فإن معظم معتمدهم في أمور ديانا م إنما هو الإنجيل، ونقله غير متواتر لا سـيما والأحداث عندهم في أكثر الأحيان بمنامات يدعو ا، يجعلو ا أصولاً يعولون عليها"[١]، يقول د. محمد ضياء الأعظمي: "كتب هذا السفر[٢] صاحب الإنجيل يوحنا في عهد إمبراطور الدولة الرومانية الغربية عام ٨١م إلى ٩٦م. وهو رؤيا منامية ادعاها يوحنا، وادعى أنه أوحى إليه فيها كثير من حقائق الديانة المسـيحية، وأحداث المستقبل، وهي مشتملة على الأمور الآتية:

١- تقرير ألوهية المسـيح.
٢- تقرير سلطان المسـيح في السماء، وإشرافه في عليائه على شؤون الكنيسة والقوامين عليها، وبيان أعمال الملائكة في السماء، وخضوعهم للمسـيح.
٣- تقرير بأن الناس سـيبعثون يوم القيامة ويعرضون على المسـيح، وأنه هو الذي سـيتولى حسا م على أعمالهم فيجزي المحسـن على إحسانه، والمسـيء على إساءته.
٤- ذكر طائفة من الأحداث التي ستحصل في العالم الإنساني على العموم، وفي العالم المسـيحي بالخصوص في صورة رمزية مبهمة. ولم تعتمد الكنيسة هذه الرسائل إلا في حدود عام ٣٦٣م"[3].

فإذا كان ما توصل إليه النصارى من اتباع أصحاب الرؤى هو تحريف عقيد م من التوحيد إلى التثليث، فما هو يا ترى الشيء الذي سـيجنيه الصوفية الذي يريدون أن يتشـبهوا بالنصارى في مصدر التلقي.

(1) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسـن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليـه الصلاة والسلام تأليف الإمام القرطبي _ رحمه الله _ : ٢٤٦/٢.
(2) سفر رؤيا يوحنا.
(3) دراسات في اليهودية والمسـيحية وأديان الهند، محمد ضياء الأعظمي ص: (٣٩١).

المبحث الثاني: الأعياد المكانية:-

يعرف العيد في اللغة بأنه: اسم لكل: "ما يعتاد من نوبٍ وشوقٍ وهم ونـحوه. وما اعتادك من الهم وغيره، فهو عيد"[1]، وكذلك إذا أضيف العيد إلى المكان، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "العيد إذا جعل اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه وإتيانه للعبادة عنده أو لغير العبادة كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة جعلها الله عيداً مثابة للناس يجتمعون فيها وينتابو ا للدعاء والذكر والنسك وكان للمشركين أمكنة ينتابو ا للاجتماع عندها فلما جاء الإسلام محا الله ذلك كله"[2].

(1) لسان العرب: ٣١٨/٣.

(2) اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٢٥/١.

وفي الشرع يعرف العيد المكاني بأنه: كل ما يعتاد من الأمكنة بقصد القربة أو التعظيم، فأما تقيـيده بقصد التقرب فهو لنهي النبي ﷺ عن جعل قبره عيداً، وهذا لا يتصور إلا لقصد التقرب[١]؛ فإن تخصيص قبر النبي ﷺ بجعله عيداً _ عند من فعل ذلك _ لم يكن إلا لأجل التعبد، وأما تقيـيد العيد بما اعتيد قصده للتعظيم؛ فللآية: (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)[2]، فجعل التعظيم لتلك الأماكن من التقوى، ولا خلاف أ ا من الأعياد.

إن الله _ جل وعلا _ جعل لبعض الأمكنة من المزايا ما لم يجعله لغيره من الأمكنة، كما هو معلوم من فضل مكة والمدينة وبيت المقدس[٣]، وندب إلى تكرار الحج والعمرة إلى مكة[٤]، فصارت من الأعياد المكانية التي يسـن للمسلم أن يعتاد مجيئها وقصدها، وكل ما يقصد في الحج من الأمكنة هو من الأعياد المكانية المشروعة، كما قال عز وجل: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا)[٥]، فجعل الصفا والمروة من شعائر الله التي يجوز للمسـلمين أن يسافروا وفي نيتهم أن يسعوا بينهما، فتعظيم هذه الأعياد المكانية يعتبر من تقوى القلوب ومما يؤجر عليه الإنسان؛ لأنه مما شرعه الله وجعله من الشعائر الدينية التي تعبدنا ا، فتعظيم الأعياد المكانية الشرعية من تقديس الدين.

فإذا كانت الأعياد المكانية التي هي من دين الإسلام تعتبر تعظيماً للدين فإن الأعياد التي لها انتماءات أخرى هي تعظيم لتلك الانتماءات، سـواء كانت دينية أو قومية أو غير ذلك.

1 - انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ص: (٢٥٩- ٢٦٠).

(2) سورة: (الحج:٣٢).

(3) قال رسـول الله ﷺ: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، ومسجد الرسـول صـلى الله عليه وسلم، ومسـجد الأقصى))، أخرجه البخاري في صحيحـه: ٣٩٨/١، بـرقم: (١١٣٢)، ومـسـلم في صحيحـه: ١٠١٥/٢، برقم: (١٣٩٧)، (١٣٩٨).

(4) فقد قال ﷺ: ((تابعوا بين الحج والعمرة فإ ما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد))، رواه النسائي في السـنن الكبرى: ٣٢٢/٢، برقم: (٣٦٠٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه: ١٢٢/٣، بـرقم: (١٢٦٦١)، وصـححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٩٦/٣، برقم: (١٢٠٠).

(5) سـورة: (البقرة: من الآية١٥٨).

ولذلك جاء ى رسـول الله ﷺ عن اتخاذ بعض الأماكن أعياداً _ ولو كانت لها خصيصة شرعية _؛ حتى لا تقاس على تلك الأعياد الشرعية، فقال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم))[1]، ولذلك فقد اتفق العلماء على عدم جواز إتيان القبور من أجل الدعاء عندها[٢]، ولقد علل العلماء هذا النهي بما في ذلك من مشا ة الكفار بالصلاة عند القبور[٣]، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "ويبين صحة هذه العلة: أنه ﷺ لعن من يتخذ قبور الأنبياء مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنبش ولا يكون ترا ا نجساً، وقال صلى الله عليه وسلم عن نفسه: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد))[٤]، فعلم أن يه عن ذلك من جنس يه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غرو ا[5]"[٦]، ولذلك لا نجد في كتب السلف الحديث عن جواز ذلك فضلاً عن استحبابه[(٧)].

ومما يدخل في اتخاذ القبر عيداً شد الرحال إليه، يقول الشيخ صالح السدلان: "شد الرحل لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم غير مشروع ولا مأمور به وجميع الأحاديث المرغبة في ذلك ثبت وضعها وكذ ا واختلاقها ومثلها لا يجوز إثبات حكم شرعي باتفاق علماء الإسلام سلفاً وخلفاً"[(٨)].

كما ((أن عمر بن الخطاب أمر بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ ؛ لأن الناس كانوا يذهبون تحتها، فخاف عمر الفتنة عليهم))[(٩)]، ويؤخذ منه أنه لا فرق في الأعياد المكانية بين ما صح **سبب** اتخاذه عيداً وبين ما كان فيه خبر لم يصح؛ فإن عمر قطع الشجرة التي صح عن النبي ﷺ أنه بويع تحتها، فما لم يصح فيه خبر فالنهي عنه من باب

(1) رواه أبو داود في سـننه: ٢١٨/٢، برقم: (٢٠٤٢)، وصححه الألباني في صحيح سـنن أبي داود: ٣٨٣/١، برقم: (١٧٩٦).

(2) انظر: تنبيه زائر المدينة على الممنوع والمشروع في الزيارة، صالح السدلان، ص: (٧٥)، وانظر: الاقتـضاء، ص: (٢٩٨- ٣٠٠).

(3) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ص: (٣٠٠).

(4) موطأ مالك: ١٧٢/١، برقم: (414)، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام، ص: (٩٨)، برقم: (١٢٦).

(5) انظر نص الحديث في ذلك في مبحث موقف السـنة من التشـبه بالكفار.

(6) اقتضاء الصراط المستقيم: ص: (٣٠٠- ٣٠١).

(7) انظر: تنبيه زائر المدينة على الممنوع والمشروع في الزيارة، صالح السدلان ص: (٧٣).

(8) تنبيه زائر المدينة على الممنوع والمشروع في الزيارة، صالح السدلان، ص: (٧٤).

(9) أخرجه ابن سعد في الطبقات، انظر الطبقات الكبرى: ١٠٠/٢، وذكره ابن حجر في الفتح وقال: "ثم وجـدت عند ابن سعد بإسـناد صحيح عن نافع أن عمر"، وذكر الأثر، انظر فتح الباري: ٤٤٨/٧

أولى، وإنما ذكرت ذلك لأن بعض الناس يستدل بثبوت الخبر على صحة ذلك وهذا يكثر عند العوام، في هذا العصر.

ويسـوق شيخ الإسلام _ رحمه الله _ بعض آراء أهل العلم فيقول: "وقد اختلف العلماء رضي الله عنهم في إتيان تلك المشاهد فقال محمد بن وضاح(1): كان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار التي بالمدينة ما عدا قبراً واحداً ودخل سفيان الثوري بيت المقدس وصلى فيه ولم يتتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها فهؤلاء كرهوها مطلقاً لحديث عمر رضي الله عنه هذا لأن ذلك يشبه الصلاة عند المقابر إذ هو ذريعة إلى اتخاذها أعياداً وإلى التشـبه بأهل الكتاب ولأن ما فعله ابن عمر لم يوافقه عليه أحد من الصحابة فلم ينقل عن الخلفاء الراشدين ولا عن غيرهم من المهاجرين والأنصار أن أحداً منهم كان يتحرى قصد الأمكنة التي نزلها النبي صلى الله عليه وسلم والصواب مع جمهور الصحابة لأن متابعة النبي صلى الله عليه وسلم تكون بطاعة أمره وتكون في فعله بأن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعله فإذا قصد النبي صلى الله عليه وسلم العبادة في مكان كان قصد العبادة فيه متابعة له كقصد المشاعر والمساجد وأما إذا نزل في مكان بحكم الاتفاق لكونه صادف وقت الـ ول أو غير ذلك مما يعلم أنه لم يتحر ذلك المكان فإنا إذا تحرينا ذلك المكان لم نكن متبعين له فإن الأعمال بالنيات"[2]، فإنه إنما يكون الاتباع في تحري ما تحراه النبي ﷺ لا في تحري ما فعله رسـول الله ﷺ صدفة، فإننا إن جئنا للأصل _ بغض النظر عن فعل ابن عمر _ فإن تحري ما فعله ﷺ اتفاقاً لا يعتبر متابعة بل هي المخالفة بعينها كما قال عمر بأبي هو وأمي ﷺ: ((هكذا هلك أهل الكتاب اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل ومن لم تعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل))(٣).

وقد يفرق العلماء بين الكثير الذي يعتبر عيداً وبين القليل الذي لا يعتبر عيداً، وذلك فيما ليس فيه مشا ة للمشركين كزيارة قبر بعينه، فلا بأس عندهم في زيارة بعض الأماكن التي غشيها النبي ﷺ لا على وجه الاعتياد، ويرى شيخ الإسلام _ رحمه الله _ أن

(1) هو: محمد بن وضاح بن بزيع مولى ملك الأندلس عبد الرحمن ابن معاوية الأموي هو الحافظ الكبير أبو عبد الله القرطبي، ولد سـنة مائتين وعشرون أو قبلها، كان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه وعلله ورعاً زاهداً متعففاً صبوراً على نشر العلم وله خطأ كثير وغلط وتصحيف ولا علم له بالفقه ولا بالعربية مات في محرم سـنة تسع وثمانين ومائتين، انظر طبقات الحفاظ، ص: (٢٨٧)، والمغني في الضعفاء: ٦٤١/٢، وميزان الاعتدال في نقد الرجال: ٣٥٩/٦.

2- اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧٥/٢-٢٧٤ .

(3) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٥١/٢، برقم: (٧٥٥٠).

هذا التفصيل فيه جمع بين الآثار وأقوال الصحابة[1]، ونقل في اقتضاء الصراط المستقيم: "سئل الإمام أحمد عن الرجل يأتي هذه المشاهد يذهب إليها ترى ذلك قال أما على حديث ابن أم مكتوم أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي في بيته حتى يتخذ ذلك مصلى وعلى ما كان يفعله ابن عمر يتتبع مواضع النبي صلى الله عليه وسلم وأثره فليس بذلك بأس أن يأتي الرجل المشاهد إلا أن الناس قد أفرطوا في هذا جداً وأكثروا فيه"[2].

1 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧٢/٢.

2 - انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧١/٢.

وجاء عن عمر ﷺ هذا الأثر: عن المعرور بن سـويد(1) قال خرجنا مع عمر في حجة حجها فقرأ بنا (أَلَم تر كَيف فَعلَ ربك بِأَصحابِ الْفيل)(٢)، (لإِيلاف قُريشٍ)(٣)، فلما قضى حجه ورجع والناس يبتدرون فقال: ما هذا؟! فقالوا مسجد صلى فيه رسـول الله ﷺ فقال: «هكذا هلك أهل الكتاب اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً، من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل ومن لم تعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل»4، وهذا الأثر مما يؤكد التفريق السابق بين الأماكن التي لها أصل في الشرع _ كالمساجد التي صلى فيها رسـول الله ﷺ _، وبين غيرها من الأماكن التي لا أصل لها في الشرع (كالقبور)؛ فإن عمر ﷺلم يأمر بتخريب هذه الأماكن التي صلى فيها النبي ﷺ، كما لو كان فيها قبر، ولم يحكم على ذات الفعل بأنه حرام بل قال: هكذا هلك، أي بمثل هذا إذا استشرى وكثر، ولم يفعل كما فعل بالشجرة(5) رغم أ ا من الآثار ولم يكونوا يشركون عندها، بل كانوا يفعلون عندها ما يفعلونه في المسجد من صلاة وغير ذلك؛ لأن الشجرة ليس لوجودهم عندها مسـوغ سـوى أ م اعتبروها عيداً وأما المسجد فإ م لهم مسـوغ أن المساجد هي في الأصل أماكن للصلاة؛ فالمساجد قد لا يعتبر ذلك في حقها عيداً؛ لما ذكرته، والأشجار يعتبر ذلك في حقها من اتخاذها عيداً؛ لأنه لا توجد مناسبة شرعية لوجودهم عندها، ولا فضل لذلك المكان أصلاً بخلاف المسجد الذي له فضلٌ أصلاً.

كما لا يخفى ما في غشيان الناس للشجرة من مشا ة أفعال المشـركين الذين كانوا يقدسـون بعض الأشجار في الجاهلية6، مع أن فعل الناس في ذلك الحين لم يكن إلا من

(1) هو: الإمام المعمر أبو أمية الأسدي الكوفي. حدث عن ابن مسعود، وأبي ذر، وجماعة، وثقه يحيى بن معين. قال أبو حاتم: قال الأعمش: رأيته وهو ابن مئة وعشرين سـنة، أسـود الرأس واللحية، توفي سـنة بضع وثمانين، انظر: سـير أعلام النبلاء للذهبي: ١٧٤/٤.

(2) سـورة: (الفيل:١).

(3) سـورة: (قريش:١).

4 - مصنف ابن أبي شيبة: ٢/ ١٥١، برقم: (٧٥٥٠)، ومصنف عبد الرزاق: ١١٨/٢، برقم: (٢٧٣٤)، ونقلـه شيخ الإسلام عن سـنن سعيد بن منصور في اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٢٧٣.

(5) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٨٦/١.

6 - كما جاء في سـنن الترمذي: عن أبي واقد الليثي: أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا يا رسـول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله هذا كما قال قوم موسى أجعل لنا إلها كما لهم آلهـة والذي نفسـي بيده لتركبن سـنة من كان قبلكم»، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسـن صـحيح»، سـنن الترمذي: ٤٧٥/٤، برقم: (٢١٨٠).

أجل واقعة البيعة[1] وليس من أجل فعل ما كان يفعله المشركون عند الأشجار التي كانوا يتبركون ا، فقطعها عمر ﷺ قطعاً للمشا ة من كل وجه وسداً لذريعة الشـرك.

فكيف إذا كان العيد المكاني لا أصل له في الإسلام، عندها سـيكون التحريم أشد؛ لأن المشا ة صارت في أصل نفس الفعل، ولذلك استفصل النبي ﷺ من الرجل الذي جاءه فسأله إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة فقال النبي ﷺ: ((هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟)) قالوا: لا، قال: ((هل كان فيها عيد من أعيادهم؟))، قالوا: لا، قال رسـول الله ﷺ: ((أوف بنذرك)) [٢]، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "فإذا كان صلى الله عليه وسلم قد ى أن يذبح بمكان كان الكفار يعملون فيه عيداً وإن كان أولئك الكفار قد أسلموا وتركوا ذلك العيد والسائل لا يتخذ المكان عيداً بل يذبح فيه فقط فقد ظهر أن ذلك سد للذريعة إلى بقاء شيء من أعيادهم خشية أن يكون الذبح هناك سبباً لإحياء أمر تلك البقعة وذريعة إلى اتخاذها عيداً"[3].

ولا يخفى شغف أهل الجاهلية ببعض الأماكن التي ما أنزل الله ا من سلطان، كالقبور والأعياد التي كانوا يذبحون فيها لأصنامهم، ولذلك أمر النبي ﷺ بتسـوية القبور التي كانت قد رفعت في زمن الجاهلية، فقد روى مسلم وغيره عن أبي الهياج الأسدي[٤] قال قال لي علي بن أبي طالب: ((ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسـول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، **ولا قبراً مشرفاً إلا سـويته**))[5]، كما سبق[6] ذكر بعض الأحاديث التي ذكر فيها النبي ﷺ أن ذلك من صفات أهل الكتاب: فجاء عن عائشة وعبد الله بن عباس _ رضي الله عنهما _: أن رسـول الله ﷺ قال: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا))[٧]، وجاء وصف النصارى بأ م شرار الخلق عند الله

---

(1) وهي بيعة الرضوان التي قال الله تبارك وتعالى فيها: (لَقَد رضي الله عن الْمؤمنين إِذْ يبايعونك تحت الـشجرة فَعلم ما في قُلُوبِهم فَأَنزلَ السكينةَ علَيهم وأَثَابهم فَتحاً قَرِيباً) (الفتح:١٨).

2 - أخرجه أبو داود في سـننه: ٣/ ٢٣٨، برقم: (٣٣١٣)، وابـن ماجـه في سـنـنه:: ٦٨٨/١، بـرقم: (2130)، وصححه الألباني _ رحمه الله _ في صحيح سـنن ابن ماجه: ٣٦٤/١، برقم: (١٧٣٢).

(3) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٩١/١.

(4) هو: "حيان بن حصين أبو الهياج الأسدي الكوفي روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الجنـائز، روى عنه أبو وائل"، رجال مسلم: ١٦٦/١.

5 - رواه مسلم: ٦٦٦/٢، برقم: (٩٦٩).

6 - انظر: مبحث مظاهر التشبه بالكفار في توحيد الطلب والقصد.

7 - أخرجه البخاري في صحيحـه: ١٦٨/١، برقم: (٤٢٥)، ١٢٧٣/٣، برقم: (٣٢٦٧)، ١٦١٥/٤، برقـم: (٤١٧٩)، ٢١٩٠/٥، برقم: (٥٤٧٨)، ومسلم في صحيحه: ٣٧٧/١، برقم: (٥٣٠).

ففي الصحيحين عن عائشة _ رضي الله عنها _: أن أم سلمة _ رضي الله عنها _ ذكرت لرسـول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأ ا بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور فقال رسـول الله ﷺ: ((أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله))[1]، وعن جندب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أ اكم عن ذلك))[2]، وذلك يعتبر من أعظم أشكال اتخاذ القبور أعياداً، فالمساجد أظهر شكل من أشكال الاعتياد؛ فالمساجد يعتادها الناس أكثر من غيرها من المواطن.

وفي العصر الحديث نجد بعض المسـلمين قد افتتنوا ببعض المشاهد، كالقبور التي أقيمت عليها الأضرحة لبعض الصالحين، في أماكن كثيرة من بلاد المسـلمين.

ولو استعرضنا الأضرحة المقامة في المساجد في العالم الإسلامي _ والتي تعتبر أعظم شكل من أشكال اتخاذ القبور مساجد _ لوجدناها قد انتشرت انتشاراً يندى له الجبين:

"ففي مصر تلقى الأضرحة احتراماً وتبجيلاً لدى كثير من الناس، حيث يندفع أكثرهم لا شعورياً للقيام ببعض الممارسات المتنوعة والمتعلقة ذه الأضرحة، وتبدأ هذه الممارسات بالحرص على الصلاة في المسجد الذي به الضريح، ثم الحرص على زيارته وترديد بعض الكلمات والصلوات والدعوات"[3]، ويعيد السبب إلى هذا التأثر بتلك الممارسات الوثنية الكاتب خالد أبو الفتوح في مجلة البيان إلى بعض العقائد التي كانت لها جذورها منذ فجر التاريخ فيقول: "ففكرة تشيـيد المساجد الجميلة فوق أجساد الموتى وتقديسهم تتصل بجذور الفكر الديني المصري منذ العصر الفرعوني، ولا سـند لها في القرآن والسـنة. وعلى ذلك نرى أن الطقوس التي كانت تقام داخل معبد الأقصر للإله (آمون) في عصر الفراعنة هي الطقوس ذا ا التي تتبع في مولد (أبي الحجاج الأقصري) والذي يقع ضريحه داخل معبد الأقصر نفسه، وأهم ظاهرة في هذا المولد: تلك المراكب التي يجرها جموع المريدين وسط صيحات التكبير والتهليل، مما يلقي بظلاله على ما كان يحدث في المهرجانات الدينية في عصور الفراعنة؛ حيث كان لمعظم الآلهة عدد من القوارب التي

---

1 - أخرجه البخاري في صحيحه: ١٦٧/١، برقم: (٤٢٤)، ٤٥٠/١، بـرقم: (١٢٧٦)، ومـسلم: ٣٧٥/١، برقم: (٥٢٨).

2 - أخرجه مسلم في صحيحه: ٣٧٧/١، برقم: (٥٣٢).

(3) انظر: مجلة البيان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ، مقال بعنوان: (القبور والأضـرحة دراسـة وتقـويم)، الأضرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقة.

تلعب دوراً رئيساً في طقوس الاحتفالات الدينية، وإلى الآن يستمر هذا التقليد في مولد (أبي الحجاج الأقصري)، على الرغم من تأكيد أهالي الأقصر على أن هذه القوارب مرتبطة بمجيء أبي الحجاج من مكة، أو بحجه إليها، كما يتماثل أيضاً في مولد (عبد الرحيم القنائي) الذي أقيم قبره على طلل معبد إله من آلهة قدماء المصريين. ولعل منشأ كل ذلك عائد إلى التقديس الخاطئ للرموز الإسلامية إضافة إلى القياس الفاسد على من كانوا يعظمو م في جاهليتهم، فقد يبدأ الأمر بالرغبة في تعظيم الرمز الإسلامي والزعم بأن الأولياء ليسوا بأقل من الذين كانوا يعظمو م في جاهليتهم، فيعظمو م بمثل ما كانوا يمارسونه مع معبودا م الوثنية"[1]، وقد يعترض على كون هذه الممارسات التي تفعل اليوم _ في مصر _ هي بسبب التأثر بتلك العقائد الفرعونية الوثنية، وذلك لأن المد الإسلامي والفتح الذي قام به الصحابة قضى على كثير من رواسب الجاهلية الفرعونية القديمة. ولكن تلك الممارسات في الحقيقة فيها قدر كبير من المشا ة بتلك العقائد الوثنية والممارسات الفرعونية، تحكي واقع المشا ة بين المسلمين الذين يشهدون الشهادتين، وبين الوثنيين الذين لا دين لهم سوى ما اخترعوه من عند أنفسهم.

ولو تجولنا في العالم الإسلامي المترامي الأطراف لما وجدنا الأمر يختلف كثيراً[2]، ففي العراق، وبلاد الهند في بنجلادش وغيرها تنتشر هذه الأمور، وفي بلاد المغرب العربي، وفي السودان قباب وأضرحة مزارات وأعياد شركية باطلة ما أنزل الله ا من سلطان[3].

وما يسمى بـ (مرقد علي)[4] ﷺ بالنجف[5] من الأماكن التي تحوز على كثير من اهتمام الزوار: "والروضة الحيدرية على شكل مربع يرقد في وسطها قبر الإمام علي وأرضها وجدرا ا مكسوة بالرخام البديع وتقوم المرايا الملونة بالزخارف الهندسية فوق الرخام. للقبر قبة واسعة و١٢ شباكاً مزيناً بالقاشاني والمرايا وفوق القبر وضع صندوق من الخشب

---

(1) البيان العدد: (١٣١)، رجب ١٤١٩هـ، مقال بعنوان: (دوافع تقديس القبور والأضرحة وآثارها)، الجزء الثاني، لخالد أبو الفتوح.

(2) إلا ما حمى الله به الدولة السعودية، فجزى الله خيراً القائمين على ذلك خير الجزاء.

(3) انظر: مجلة البيان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ، مقال بعنوان: (القبور والأضرحة دراسة وتقويم)، الأضرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقة.

4 - ونسبة هذا القبر إلى علي ﷺ غير صحيحة، قال الذهبي _ رحمه الله _ في ترجمة عضد الدولة: "وكان شيعياً جلداً اظهر بالنجف قبراً زعم أنه قبر الإمام علي وبنى عليه المشهد وأقام شعار الرفض ومأتم عاشوراء والاعتزال"سير أعلام النبلاء: ٢٥٠/١٦.

5 - "تقع محافظة النجف على بعد ١٨٠ كم جنوب غرب بغداد، وتعتبر النجف من المدن الإسلامية الشهيرة في العالم العربي والإسلامي"، انظر: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، موعة من المؤلفين، ص: (٤٧٨).

الساج المرصع بالعاج ونقشت عليه بعض الآيات القرآنية ويحيطها شباكان أحدهما من الفضة والآخر من الفولاذ وللروضة الحيدرية ٦ أبواب، الأول يتوسط الإيوان ومعمول من الذهب مطعم بالميناء والأحجار الكريمة والباب الثاني والثالث يصلان إلى الرواق فالحرم وهما ذهبيان وفي داخل الحرم بابان فضيان أحدهما من جهة الشمال في الرواق نصب باب سادس محلى بالذهب. وللصحن خمسة أبواب ويتخلل الصحن الأواوين العديدة التي هي بالأصل غرف لرجال الدين، وتكتنف القبة مئذنتان شاهقتان مكسوتان بالذهب الخالص وتزين الضريح الهدايا الثمينة والمفروشات النادرة، وجوانب الضريح محلاة بالزخارف المعمولة من القاشاني الملون والمرايا والأشرطة الكتابية القرآنية بحيث تظهر وكأنها آية في الفن والإبداع"[1].

كما أن مرقد الحسين رضي الله عنه في كربلاء[2] يعتبر من أهم المزارات التي تقصد، ولدي تسجيل مرئي يظهر فيه أحد خطباء الرافضة يدعو إلى زيارة الضريح والبكاء عنده ولطم الخدود والضرب بالسلاسل، مستدلاً برواية مكذوبة من روايات الرافضة وهي أن السماء أمطرت دماً حين استشهد الحسين، فلا ينبغي _ في نظره _ أن يستقل المؤمن أن يقطر بعض القطرات من الدم، حزناً على من كانت هذه منزلته. وهذا الذي يأمر به هذا الخطيب هو نفسه الذي وجد منذ زمن الإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني رحمهما الله، وهو الذي نهى عنه أئمة الدين، متبعين في ذلك نهج الرسول الكريم ﷺ، يقول شيخ الإسلام: "وفي الجملة هذا الذي يفعل عند هذه القبور هو بعينه الذي نهى عنه رسول الله ﷺ بقوله: ((لا تتخذوا قبري عيداً))، فإن اعتياد قصد المكان المعين في وقت معين عائد بعود السنة أو الشهر أو الأسبوع هو بعينه معنى العيد ثم ينهى عن دق ذلك وجله وهذا هو الذي تقدم عن الإمام أحمد إنكاره قال وقد أفرط الناس في هذا جداً وأكثروا وذكر ما يفعل عند قبر الحسين"[3]، فإذا كان النبي ﷺ ينهى عن اتخاذ قبره عيداً فمن باب أولى أن ينهى عن اتخاذ قبر غيره عيداً.

---

(1) انظر: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، مجموعة من المؤلفين، ص: (٤٧٨).

(2) تقع مدينة كربلاء على مسافة ١٠٥كم جنوب غرب بغداد، وفيها ضريح الإمام الحسين بن علي" انظر: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، مجموعة من المؤلفين، ص: (٤٧٨).

(3) اقتضاء الصراط المستقيم، ص: (٢٥٧- ٢٥٨).

وفي القدس يصف أحد الكتاب _ متأسفاً على ضياع ثرى الآباء والأجداد _ أحد الأضرحة في القدس وهو ضريح الشيخ أحمد الثوري(١)، فيقول: "وكان الضريح على مدى القرون مزاراً لسكان القدس وزائريها يتبركون به. وقد زاره مشاهير السائحين المسـلمين. وكان ضريح الشيخ مقصوداً للزيارة حتى سـنة ١٩٤٨م عندما احتل الإسرائيليون قمة الجبل"(٢).

وفي السـودان تلقى بعض القباب عناية من القادة السـياسـيـين، فقد "لوحظ على بعض القباب أ ا حظيت برعاية بعض القادة السـياسـيـين، مثل قبـة الـشيخ يوسف أبو سـتـرة، التي شيدت برعاية الرئيس الأسبق جعفر محمد نميري، وكـذلك قبـة الشيـخ مدني السـني، بمدينـة ود مدني، كما لوحظ أيضاً عدم اقتصار اتخـاذ القباب على قبور المعظمين في الـمسـلمين، بل من شدة الجهل والغفلة اتخذت قبة على مقبرة (الرفيق) الصيني الشيوعي يانغ تـشـ ـي تشنغ، ولوحظ كذلك: أن بعض هذه القباب يتوسط المساكن"(3).

ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا صورة من هذا التشابه، فيقول: "في بنارس [في الهند] قبر أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ وقبر زوجه وقبر أمه! (ويقال: إ م يعبرون بأمه عن الطبيعة) وقبور قضاته، وهي تحت قباب مصفحة بالذهب كقبة أمير المؤمنين علي في النجف وقباب غيره... وجميع هذه القبور تعبد بالطواف حولها والتمسح ا وتلاوة الأدعية والأوراد عندها كغيرها من تماثيل معبودا م، مع الخشوع وبذل الأموال والنذور لها ولسدنـتها وكهنـتها، فلا يحسبن الجاهل بالتاريخ وبعقائد الملل والنحل أو التعبدات فيها أن علماء وثنيـي الهند يعتقدون أن هذه الأشياء تنفع وتضر بنفسها، وأ م ليس لهم فلسـفة في عباد ا"(4).

---

(1) قال عنه صاحب الكتاب (د. كامل جميل العسلي): "الشيخ أحمد الثوري أحد ا اهدين واسمه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الجبار. حارب مع صلاح الدين الأيوبي وكان يركب ثوراً فسموه أبا ثور.. انظر: أجدادنا في ثرى بيت المقدس، ص: (٩٥).

(2) أجدادنا في ثرى بيت المقدس، ص: (٩٦- ٩٧).

3 - مجلة البيان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ، مقال بعنوان: (القبور والأضرحة دراسة وتقويم)، الأضـرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقة البيان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ

(4) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين: (٢٧٣/١).

بل وصل الأمر إلى تقديس أضرحة (دواب الأولياء) واتخاذها أعياداً، ففي اللاذقية بسـورية حضرة يقال إ ا مدفن الفرس التي كان يركبها الولي المغربي، لا تزال حتى اليوم تزار وتبخر[1].

وفي جنوب الجزيرة "قام الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ـ في جنوب الجزيرة العربية[٢] ـ دم قبة في الساحل بمشاركة بعض زملائه، وبقايا قبة على قبر الشريف حمود المكرمي في سامطة"[٣].

ويقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: "ومن تلك الأشجار شجرة كنت رأيتها من عشر سـنين شرقي مقبرة شهداء أحد، خارج سـورها، وعليها خرق كثيرة، ثم رأيتها سـنة ١٣٧١هـ قد استأصلت من أصلها، والحمد لله، وحمى المسـلمين من شر غيرها من الشجر وغيره من الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى"[٤].

المبحث الثالث: الأعياد الزمانية: –

سبق تعريف العيد وأنه كما قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "العيد اسم جنس يدخل فيه كل يوم أو مكان لهم فيه اجتماع وكل عمل يحدثونه في هذه الأمكنة والأزمنة، فلـيس النهي عن خصوص أعيادهم، بل كل ما يعظمونه من الأوقات والأمكنة التي لا أصل لها في دين الإسلام، وما يحدثونه فيها من الأعمال يدخل في ذلك"[5].

فالعيد الزماني: هو أي وقت يحصل له نوع تعظيم، أو يحصل فيه اجتماع معظـم لأي فئة من البشر، فما ثبت من الأزمنة اعتباره عيداً في الشرع فهو تعظيم لدين الإسـلام

(1) الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين: ٢٩٨/١

(2) كما لا يخفى دور الشيخ عبد الله القرعاوي ت: (١٣٨٩هـ) _ رحمه الله _، في إزالة البـدع والـشركيات وتوعية الناس بشأ ا في جنوب الجزيرة العربية، وكان الشيخ حافظ الحكمي من تلاميذه النجباء في هذا ا ـال وفي غيره، انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد: ١٣/١.

3 - انظر: الشيخ حافظ الحكمي، حياته ومنهجه في العقيدة، لأحمد علوش، ص: (٣٥٧).

4 - تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، ص: (١٣٩).

(5) اقتضاء الصراط المستقيم: ٥/٢

وما كان من أعياد غير المسـلمين فهو تعظيم لسبب فعل العيد، سـواء أكان السبب دينياً أو اجتماعياً أو قومياً.

ولذلك جاء النهي عن الاحتفال بأعياد المشـركين، قال تعالى: (والذين لا يشهدونَ الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً)(١)، قال ابن كثير: "قال أبو العالية وطاووس وابن سـيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم هو أعياد المشـركين"[2]، وقال رسـول الله ﷺ: ((إن لكل قوم عيداً، وإن عيدنا هذا اليوم))(٣)، قال الإمام الذهبي _ رحمه الله _: "فهذا القول منه ﷺ يوجب اختصاص كل قوم بعيدهم، كما قال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)(٤)، فإذا كان للنصارى عيد، ولليهود عيد، مختصين بذلك، فلا يشركهم فيه مسلم، كما لا يشاركهم في شرعتهم، ولا في قبلتهم"(٥).

وعن أنس ﷺ قال: قدم رسـول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: ((ما هذان اليومان؟))، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسـول الله ﷺ ((إن الله قـد أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر))[6]، وفي هذا إلغاء للأعياد التي كانت في زمن الجاهلية، وإبدالها بأعياد إسلامية، فلم يقرهم النبي ﷺ على أعيادهم في حال شـرعه لعيدي المسـلمين، بل ألغى احتفالهم بذينك اليومين فقد قال: أبدلكم والإبدال يقتـضي ترك المبدل منه(7)، فأشعر فعله ﷺ هذا بأنه لا يمكن أن يكون في الإسلام أي عيد آخر غير العيدين الذين شرعاً لأهل الإسلام، أو ما أضيف إليهما بنص شرعي آخر، ولـذلك قـام بإلغاء الأعياد التي كانت أيام الجاهلية.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: ((لا تتعلموا رطانة الأعاجم، ولا تدخلوا على المشـركين في كنائسهم يوم عيدهم، فإن السخط ينـزل عليهم))(٨)، وينقل لنا الإمام الذهبي _ رحمه الله _ رأي أهل العلم في حضور أعياد الكفار، فيقول: "قال العلماء: ومن

---

(1) سـورة: (الفرقان:٧٢).

2 - تفسـير ابن كثير: ٣٣٠/٣.

(3) رواه البخاري (١٤٣٠/٣)، برقم: (٣٧١٦)، ومسلم (٦٠٧/٢)، برقم: (٨٩٢).

(4) سـورة المائدة الآية رقم: (٤٨).

(5) تشـبه الخسـيس بأهل الخميس في رد التشـبه بالمشـركين، للذهبي رحمه الله، ص: (٢٧).

6 - رواه أبو داود في سـننه: ٢٩٥/١، برقم: (١١٣٤)، وصـححه الألبـاني في صـحيح سـنن أبي داود: ٢١٠/١، برقم: (١٠٠٤).

(7) انظر: ما نقله المناوي عن المجد ابن تيمية في فيض القدير: ٥١١/٤.

(8) رواه بنحوه البيهقي في (السـنن الكبرى): (٢٣٤/٩)، وعبد الرزاق في المصنف: ٤١١/١، بـرقم: (١٦٠٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه: ٢٩٩/٥، برقم: (٢٦٢٨١)، وانظر: المدونة الكبرى: ٦٣/١.

موالا م التشـبه م، وإظهار أعيادهم، وهم مأمورون بإخفائها في بلاد المسـلمين، فإذا فعلها المسلم معهم، فقد أعا م على إظهارها. وهذا منكر وبدعة في دين الإسلام، ولا يفعل ذلك إلا كل قليل الدين والإيمان، ويدخل في قول النبي ﷺ: ((من تشـبه بقوم فهو منهم))[(١)]"[(٢)].

ويشمل النهي الاحتفالَ بيوم أو ليلة لم يثبت أ ا عيد من أعياد المسـلمين ولو كـان ذلك الاحتفال غير مأخوذ عن الكفار في الأصل، يقول شيخ الإسـلام ـ رحمـه الله ـ: "فيكفيه أن يعلم أنه لا أصل له في دين الإسلام فإنه إذا لم يكن له أصل فإما أن يكون قـد أحدثه بعض الناس من تلقاء نفسه أو يكون مأخوذا عنهم فأقل أحوالـه أن يكـون مـن البدع"[٣].

أشكال الاحتفاء الذي تحصل به المشا ة:

الضابط في حصول الاحتفاء المحرم بأعيادهم الذي هو شكل من أشكال المشا ة هو أن يبعثه وجود ذلك العيد إلى أي فعل من الأفعال، إلا فعلاً هو من أجل مخالفة أهـل ذلـك العيد، يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وإنما المحرك على إحداث ذلك: وجود عيدهم، ولولا هو لم يقتضوا ذلك، فهذا أيضاً من مقتضيات المشا ة"[4].

ومن الاحتفاء الذي لا ينبغي بأعياد الكفار: الفرح في يوم عيدهم[5]، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "ومن ذلك ترك الوظائف الراتبة من الصنائع أو التجارات أو حلق العلم أو غير ذلك واتخاذه يوم راحة وفرح واللعب فيه بالخيل أو غيرها على وجه يخالف ما قبله وما بعده من الأيام"[(6)]، ومن الاحتفاء الذي لا يجوز كذلك: الاحتفاء والفرح بسبب العيد ولو لم يكن في وقت عيدهم، يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وكذلك حريم العيد وهو ما قبله وما بعده من الأيام التي يحدثون فيها أشياء لأجله أو ما حوله من الأمكنة التي يحدث فيها أشياء لأجله، أو ما حدث بسبب أعمال من الأعمال حكمها حكمه فلا يفعل شيء

---

(1) تقدم تخريجه.
(2) تشـبه الخسـيس بأهل الخميس في رد التشـبه بالمشـركين، للذهبي رحمه الله، ص: (٣٤).
3 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٩/٢.
4 - اقتضاء الصراط المستقيم: ٥/٢
5 - انظر: سبل السلام: ٧٠/٢، وانظر: فتح الباري: ٤٤٢/٢، وقد عبروا عنه بكراهية الفرح، ولعلـها كراهيـة تحريم، وانظر: فيض القدير: ٥١١/٤
(6) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ١١.

من ذلك، فإن بعض الناس قد يمنع من إحداث أشياء في أيام عيدهم، كيوم الخميس والميلاد، ويقول لعياله: إنما أصنع لكم ذلك في الأسبوع أو الشهر الآخر"[١].

بل يرى شيخ الإسلام أنه لا تجوز إعانتهم في أي عيد من أعيادهم، يقول ـ رحمه الله ـ: "وكما لا يتشبه بهم في الأعياد فلا يعان المسلم المتشبه بهم في ذلك بل ينهى عن ذلك فمن صنع دعوة مخالفة للعادة في أعيادهم لم تجب دعوته، ومن أهدى للمسلمين هدية في هذه الأعياد مخالفة للعادة في سائر الأوقات غير هذا العيد لم تقبل هديته خصوصاً إن كانت الهدية مما يستعان بها على التشبه بهم في مثل إهداء الشمع ونحوه في الميلاد أو إهداء البيض[٢] واللبن والغنم في الخميس الصغير الذي في آخر صومهم وكذلك أيضا لا يهدى لأحد من المسلمين في هذه الأعياد هدية لأجل العيد لا سيما إذا كان مما يستعان بها على التشبه بهم كما ذكرناه ولا يبيع المسلم ما يستعين المسلمون به على مشابهتهم[٣] في العيد من الطعام واللباس ونحو ذلك لأن في ذلك إعانة على المنكرات فأما مبايعتهم ما يستعينون هم به على عيدهم أو شهود أعيادهم للشراء فيها فقد قدمنا أنه قيل للإمام أحمد هذه الأعياد التي تكون عندنا بالشام مثل طور يانور أو دير أيوب وأشباهه يشهده المسلمون يشهدون الأسواق ويجلبون فيه الغنم والبقر والدقيق والبر وغير ذلك إلا أنه إنما يكون في الأسواق يشترون، ولا يدخلون عليهم بيعهم وإنما يشهدون الأسواق؟ قال: إذا لم يدخلوا عليهم بيعهم، وإنما يشهدون السوق فلا بأس"[(4)].

ولقد ابتلي كثير من المسلمين في هذا العصر بالتشبه بالكفار في أعيادهم الزمانية وتنوعت انتماءات تلك الأعياد فمنها الدينية ـ غير إسلامية ـ ومنها الاجتماعية، وابتدئ الحديث أولاً عن الدينية منها لخطورة التشبه فيها:-

1 - انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/٥.

2 - قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: "وبالغ في ذلك الشيخ الكبير أبو حفص البستي من الحنفية وقال من أهدى فيه بيضة إلى مشرك تعظيما لليوم فقد كفر بالله"، فتح الباري: ٢/٤٤٢.

3 - قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: "وهو مبني على أصل وهو: أن بيع الكفار عنباً أو عصيراً يتخذونه خمراً لا يجوز، وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحاً يقاتلون به مسلماً" اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/١٥.

(4) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/١٣.

أعياد المجوس:

فإن للمجوس أعياداً منها: عيد المهرجان[1] وعيد النيروز[2]، يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: "فللمجوس الفرس أعياد متعددة جداً، وهم أكثر الناس أعياداً، منها: (عيد رأس السنة، وهو عندهم: (النيروز) وهو أول يوم تتحول فيه الشمس إلى برج الحمل، وقيل: هو أول يوم خلق الله فيه النور. وقيل: هو أول الزمان، وهو أول يوم من سنة القبط: ولفظ: (النيروز) معناه: (اليوم الجديد). ويسمى عند أهل مصر: (عيد شم النسيم). ومدة هذا العيد ستة أيام، تبدأ من اليوم السادس من شهر حزيران. (عيد المهرجان) وأصله: (مهركان) بالفارسية، وهو اسم للشهر الذي مات فيه أحد ملوك الفرس. وهو أول يوم تتحول فيه الشمس إلى برج الميزان، وهو يوافق السادس والعشرين من أكتوبر، ومدة إقامته ستة أيام"[3].

وإذا كان من المحرم مشاركة الكفار في أعيادهم وإعانتهم عليها، وكل ما يفضي إلى ذلك، من أي فعل سبب حدوثه من المسلم هو وجود عيد للكفار، فكيف بأخذ اسم العيد ووصف بعض احتفالات المسلمين باسمه، ولو كان ذلك في غير وقت عيدهم المسمى بهذا الاسم، كما يفعل الناس اليوم من الاحتفالات أو المسابقات الثقافية أو الدعائية أو التخفيضات ويسمون ذلك بـ (مهرجان) كذا، و(مهرجان) كذا[4]، لا شك أن هذا النوع من المشابهة هو أعظم ممن يبيع الشمع أو البيض لمن يستفيد منه في الاحتفال بالعيد.

الأعياد اليهودية:

---

(1) وهو اليوم الذي علا فيه أحد ملوك الفرس على سرير الملك وهو (أفريدون بن أثفيان)، وأصل تسمية العيد: مهرماه، انظر: تاريخ الطبري: ١/١٢٢.

2 - انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/١٣.

(3) انظر: عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، للشيخ بكر أبو زيد، ص: (١٥).

(4) انظر: صحيفة الشرق الأوسط: عدد: (١٩-إبريل – ٢٠٠٢)، مقال بعنوان: (مهرجان الإسكندرية)، ومقال آخر في نفس العدد: بعنوان: (تنافس إيراني تونسي مغربي فلسطيني)، لكاتبه: محمد رضا.

لقد انتشر بين الناس اليوم ما يسمى بالاحتفال باليوبيل[١]، ويقسمونه إلى عدد من الأنواع: "(عيد اليوبيل الفضي) بعد مضي خمسة وعشرين عاماً على ميلاد شخص، أو افتتاح مؤسسة، أو بناء دار، وهكذا، و(العيد الذهبي) بعد مضي خمسين عاماً، و(العيد الماسي) بعد مضي ستين عاماً"[٢].

وعيد اليوبيل هو من أعياد اليهود، يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: "و(اليوبيل): كلمة عبرية، معناها: قرن الكبش، الذي تصنع منه الأبواق، التي يستعملونها في أعيادهم، فيلقون به الألفاظ التي يهلونها"[٣].

وهو منصوص عليه في أسفارهم، فقد جاء في سفر اللاويين: "١ وكلم الرب موسى في جبل سيناء قائلا، ٢ كلم بني إسرائيل وقل لهم. متى أتيتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم تسبت الأرض سبتاً للرب. ٣ ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتهما. ٤ وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة سبتاً للرب. لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك. ٥ زريع حصيدك لا تحصد وعنب كرمك المحول لا تقطف. سنة عطلة تكون للأرض. ٦ ويكون سبت الأرض لكم طعاما. لك ولعبدك ولامتك ولأجيرك ولمستوطنك النازلين عندك. ٧ ولبهائمك وللحيوان الذي في أرضك تكون كل غلتها طعاماً. ٨ وتعد لك سبعة سبوت سنين. سبع سنين سبع مرات. فتكون لك أيام السبعة السبوت السنوية تسعاً وأربعين سنة. ٩ ثم تعبر بوق الهتاف في الشهر السابع في عاشر الشهر في يوم الكفّارة تعبرون البوق في جميع أرضكم. ١٠ وتقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق في الأرض لجميع سكانها. تكون لكم يوبيلاً وترجعون كل إلى ملكه وتعودون كل إلى عشيرته. ١١ يوبيلاً تكون لكم السنة الخمسون لا تزرعوا ولا تحصدوا زريعها ولا تقطفوا كرمها المحول. ١٢ أنها يوبيل. مقدسة تكون لكم. من الحقل تأكلون غلتها. ١٣ في سنة اليوبيل هذه ترجعون كل إلى ملكه"[4].

---

(1) انظر: صحيفة الشرق الأوسط، عدد: (١٥-١١-٢٠٠٠)، مقال بعنوان: (عرب وعجم)، وانظر: عدد: (١٦-فبراير- ٢٠٠١م)، مقال بعنوان: (عرب وعجم)، كذلك، وعدد: (٤/مارس/٢٠٠١م)، مقال بعنوان: (صنم واحد لكل مجال)، لكاتبه: أنس زايد.

(2) انظر: عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، للشيخ بكر أبو زيد، ص: (٢٢).

(3) "وهو لدى النصارى (الكاثوليك) باسم: (يوم الغفران الكامل العظيم)"، انظر: عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، للشيخ بكر أبو زيد، ص: (٢٣- ٢٤).

(4) سفر اللاويين: ٢٥/ ١- ١٣

"فلفظ (اليوبيل) كما ترى، انتقل من معنى الآلة التي ينفخ فيها الكلام إلى ذلك اليوم الذي يتم فيه الاحتفال بالتحرير، والإطلاق، والخلاص، على مدد متفاوتة عند اليهود باسم: (عيد اليوبيل) وعند النصارى باسم: (عيد يوم الغفران) أو (عيد يـوم الغفـران الكامـل العظيم)"(١).

ولذلك فإننا نجد أن هذه الاحتفالات باليوبيل أكثر من يحرص على دفع المـسـلمين على إقامتها: تلك المنظمات السرية أو العلنية اليهودية مثل: "(الماسـونية) و (الروتاري) و (الليونز) و (الاكستشانج) و (المائدة المستديرة)، هذه النوادي وتلك الحركات الهدامـة لا يمكن مطلقاً أن تغفل عن الاحتفال باليوبيل الفضي والذهبي لتلك النوادي، بل وتصر عليه، ومن الغريب أن فروع تلك النوادي في بلد عربي مسلم، يسافر منها أعضاء إلى الولايـات المتحدة المقر الرئيسـي لتلك النوادي كلها، لحضور اليوبيل الذهبي، والأغـرب أن المقـر الرئيسـي للروتاري في الولايات المتحدة الأمريكية يبعث إلى أعضاء في منطقة الروتـاري العربية، بتذاكر سفر بالطائرة بالدرجة الأولى، على نفقة منظمة الروتاري الأم، لمجرد حضور الاحتفال باليوبيل الفضي أو الذهبي، دون مناقشة أية موضوعات والهدف إبراز الاحتفـال باليوبيل على أنه واجب مقدس لا يمكن تجاوزه أو نسـيانه"(٢).

أعياد النصارى:

(1) عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، للشيخ بكر أبو زيد، ص: (٢٤).
(2) انظر عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، للشيخ بكر أبو زيد، ص: (٤٨- ٤٩).

اشتهر عند النصارى ما يسمى بعيد الميلاد[1] أي ميلاد المسـيح عليه السلام ويبدأ من الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، حتى منتصف ليلة ٣١ منه وهو المسمى عن الأوربيـين اليوم باسم: (عيد الكرسـمس)[2].

ويهنئ بعض مسلمي عصرنا النصارى في هذا العيد، وربما يشاركو م الاجتماع والفرح به، وقد يحصل أحياناً أ م "يعطلون الدوائر الحكومية والشـركات تعظيماً لهذا اليوم، احتراماً له ويزورون أصدقاءهم النصارى ويرسلون لهم بطاقات التهنئة"[٣]

وقلد النصارى في ذلك الشيعةُ الفاطميون الذي ابتدعوا في الإسلام عيد ميلاد النبي ﷺ [٤] قياساً على ما عند النصارى من احتفال بمولد عيسى عليه السلام وكان ذلك عام: (٣٦٣هـ)[5]، ثم انتشر بعد ذلك بين المسـلمين، وخاصة الصوفية الذين يزعمون أن ذلك من محبة النبي ﷺ، واستمرت هذه البدعة حتى عصرنا الحاضر، وانتشرت انتشاراً واسعاً حتى صار يوم عيد ميلاد النبي ﷺ يوم عطلة رسمية في بعض الدول[٦].

ويعتبر بعض الناس هذا الاحتفال من الاحتفالات الإسلامية التي تعبر عن روح الإسلام _ جهلاً منهم بحقيقة مصدر هذا الاحتفال _ يقول بعضهم: "على أننا إذا احتفلنا بميلاد الرسـول[٧] فإننا نحتفل في الحقيقة بالإسلام الذي جاء به مولانا رسـول الله صلى الله عليه وسلم، نحتفل بالفكرة، بالمنهج، أيستطيع أحد أن يمنعنا من الفرح بشخص رسـولنا، وبالهداية التي جاءت على يده وبالمنهج الذي أمرنا به"[٨]، والجواب على ذلك: أن الفرح الذي يكون بالدين وبنعمة الله بإرسال الرسـول ﷺ هو الفرح بما كان من الشريعة الحقة، وذلك بالعيدين الذين شرعهما الله عز وجل لنا بعد إكمال عبادتين من أعظم العبادات الصوم والحج، وهما عيدا: الفطر والأضحى، لا أن نحتفل بعيد استقيناه من عند

---

(1) كما عرف هذا العيد ـذا الاسـم لدى الحرانية والثنويـة من الكلدانيـين، انظر: الفهرست لابن النـديم، ص: (٤٤٣).

(2) انظر: عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، للشيخ بكر أبو زيد، ص: (١٣).

3 - انظر: مقال بعنوان: (الأعياد والمناسبات المعتبرة في الإسلام)، للكاتب: محمد عثمان، مجلة البيان العدد: (٤)، جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ

(4) حقوق النبي بين الإجلال والإخلال، إصدار المنتدى الإسلامي، ص: (١٥٣- ١٥٤).

5 - انظر: عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، للشيخ بكر أبو زيد، ص: (١٦).

6 - مقال بعنوان: (القبور والأضرحة دراسة وتقويم)، الأضرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقـة البيـان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ

7 - صلى الله عليه وآله وسلم.

(8) التحذير من الاغترار بما جاء في كتاب الحوار، عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، ص: (٧٠).

الكفار الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة، ونقله إلينا من ثبت بغضهم للإسلام والمسلمين من الشيعة العبيديين!!

وقبل أن أصف للقارئ الكريم ماذا يدور في بعض احتفالات الموالد أنقل هذا الكلام عن أحد المعجبين بدور المولد في التربية على مكارم الأخلاق، يقول: "والاحتفال بعيد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم هو احتفال بالإسلام، وتدل دراسة علم النفس والتربية الحديثة، أن العقيدة تثبت في نفوس الأطفال والعوام، بوسائل مختلفة، والاحتفال بالمولد من هذا الباب، بل نحن ندعو إلى استغلال الوسائل العلمية والتكنولوجية، للدعوة إلى الإسلام كما يفعل المبشرون الآن في بعض مجاهل إفريقيا وغيرها من بلاد العالم"[1].

ينطلق الاحتفال بالمولد النبوي من الأضرحة التي تعتبر في الأصل أعياداً مكانية انا شرعنا القويم تشييدها، حيث يصف أحد الصحفيين المشهد الذي رآه في الاحتفال بالمولد النبوي في القاهرة فيقول: " سار موكب ممثلي الطرق الصوفية لمدة (٤٥) دقيقة تقريباً مشياً على الأقدام حاملين الأعلام والرايات في جو من البهجة والاحتفال بدءاً من ضريح الشيخ صالح الجعفري بمنطقة الدراسة إلى مسجد الحسين، وهناك وجدوا في انتظارهم بعض المستقبلين، على رأسهم شيخ مشايخ الطرق الصوفية، فقاموا بالسلام عليه وقراءة الفاتحة والدعاء جماعياً. ويشهد هذا الاحتفال أيضاً كبار رجال الدولة أو ممثلون عنهم، وعلى رأسهم شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية ورئيس جامعة الأزهر ووزير الأوقاف ومحافظ القاهرة؛ حيث يلقي معظمهم كلمات في الاحتفال، كما يشهد حضوراً إعلامياً واضحاً من صحافة وإذاعة وتلفاز. وبعد اية الاحتفال الرسمي ينصرف أتباع الطرق الصوفية لإلقاء أناشيدهم ومدائحهم وأذكارهم في أماكن معدة لذلك سلفاً، ويستمرون في ذلك حتى منتصف الليل تقريباً"[٢].

---

(1) المصدر السابق، ص: (٨٨).

2 - مقال بعنوان: (القبور والأضرحة دراسة وتقويم)، الأضرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقة البيان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ.

ولبيان الأثر التربوي الذي نجنيه من الموالد المبتدعة أسـوق هذا الوصف للمولد النبوي، يقول الكاتب عثمان محمد سليمان (من الخرطوم): "وقد تأصل هذا النوع من الاحتفالات حتى خصصت لها ميادين معينة، عرفت بميادين المولد؛ ففي كل مدينة ميدان يسمى ميدان المولد الكبير، وهو ساحة متسعة مخصصة لهذا الغرض، وتلتقي فيه كل الطرق الصوفية المشتركة في الاحتفال بالمولد، وتتم المشاركة فيه بعد الحصول على تصديق رسمي من الدولة يتم بموجبه السماح للطريقة المعينة بنصب سرادقها في المكان المخصص لها في ساحة المولد، وعمل تجهيزا ا اللازمة لها.. وتقوم كل طريقة بعمل الأذكار التي تخصها والمدائح المتعلقة بالمولد، كما تتم قراءة الكتب المؤلفة في المولد النبوي في شكل حلقات تشـبه حلقات تلاوة القرآن، وعند مرورهم بمواطن معينة في هذه الموالد المؤلفة يقف الحاضرون اعتقاداً منهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يحضر عند ذكر ولادته، ويرددون في صوت واحد عبارة (مرحباً بالمصطفى يا مرحبا...) وفي بعض المواضع من القراءة يضعون الأيدي على الرؤوس، وفي مواضع أخرى يضربو ا أو يوجهو ا نحو الأرض عند الاستعاذة من بعض الأمراض أثناء قراءة المولد. وفي المولد يضربون أيضاً على الطبول الكبيرة (النوبة) التي تصدر أصواتاً قوية، ويرددون معها القصائد الملحنة كنوع من الذكر الذي يتقرب به إلى الله.. وكل هذا مع الحركة والاضطراب الشديد، وربما دار أحد الدراويش على رجل واحدة وهو (يترجم)، أي: يصدر أصواتاً لا تفهم، فيوصف بأنه غرق في الذكر. ويزداد الزحام في الليلة الأخيرة، ويكون الناس في هذه الساحات خليطاً من الرجال والنساء، وقد شاهدت في أحد الموالد نساءً يصفقن ويتحركن مع رجال يضربون هذه الدفوف (النوبة) حتى انـتهين إلى أحد السرادقات المقامة وهن يصفقن على أصوات المديح، ويتحركن على صوت ضربات الطبول، إلى أن يستقبلهن شيخ ممسك بمسبحته وهو يهز رأسه استحساناً لهذا الصنيع"[1].

وانتقـلت بدعة الاحتفـال بالمولـد النـبـوي إلى الاحتفـال بمـوالـد الصـالحين والأولـيـاء حتى صـار "من الصـعـب أن نـجـد _ على مدار

(1) مقال بعنوان: (القبور والأضرحة دراسة وتقويم)، الأضرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقـة البيـان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ.

السـنة _ يوماً ليس فيه احتفال بمولد ولي بمكان بمصـر"[1]، ومما يذكر هنا أن مولداً للبدوي عام: (١٩٩٦م) حضره حوالي ثلاثة ملايـين زائر[2].

(1) موالد مصر المحروسة، عرفة عبده علي، ص: (٧). نقلاً عن دمعة على التوحيد ص: (٢٦).

(2) انظر: مقال بعنوان: (القبور والأضرحة دراسة وتقويم)، الأضرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقة البيـان العدد: (١٣٢)، شعبان ١٤١٩هـ.

الفصل الثالث

المذاهب الفكرية المعاصرة، مصادرها وآثارها في الجانب العملي

المبحث الأول:

المذاهب الفكرية المعاصرة وعلاقتها بالغرب.

يتكون هذا المبحث من مطلبين: الأول: الصراع بين الدين والعلم في الغرب، وأبين فيه أن المذاهب الفكرية إنما نشأت عند الغرب، وأن السبب الأساسي لظهورها في الغرب، هو: العقد النفسية الناتجة عن الحياة البعيدة عن المنهج الرباني، فسميت هذا المطلب بأبرز العقد النفسية التي أنتجت المذاهب الفكرية المعاصرة في الغرب، وهو الصراع بين العلم والدين في الغرب.

والمطلب الثاني: قاعدة تأثر المغلوب بالغالب، أشرح فيه انتقال المذاهب الفكرية الغربية إلى المنبهرين بالحضارة الغربية من أبناء المسلمين، وأن سبب ذلك هو الاقتناع بما لدى الغرب من حضارة مادية، تبع ذلك انبهار بالمذاهب الفكرية الشائعة لديهم، ظناً من المنبهرين أن الحضارة المادية التي توصل إليها الغرب، ناتجة عن الأفكار والمذاهب التي اعتنقوها.

المطلب الأول: الصراع بين الدين والعلم في الغرب:

لا يدرك أحد ما يصلح للبشر من اعتقادات أو عبادات ومعاملات سوى خالق البشر، فعندما ينزل الله ديناً من الأديان أو شريعة من الشرائع على عباده تكون هي الشريعة الصالحة وهي العقيدة الصحيحة التي لا ينبغي أن يغادرها الناس إلى غيرها، فإن خالفوها وحرفوا ما أنزل الله عليهم، فقد وكلوا إلى ما اخترعوه من عند أنفسهم، ولن يكون أصلح مما أنزل الله بحال.

ولقد مر معنا فيما سبق ... إلى أي مدى تم تحريف الدين النصراني _ والعقيدة بالذات _، والقول بأن المسيح هو ابن الله أضفى إلى الكنيسة نوعاً من القداسة، "قائمة على أساس أن المسيح عليه السلام ذو طبيعتين إحداهما لاهوتية والأخرى ناسوتية، ومن ثم فهو إله وبشر في ذات الوقت، وهو على هذه الهيئة وسيط بين البشر ذوي الطبيعة الناسوتية الخاصة والإله ذي الطبيعة اللاهوتية الخالصة!! فهو ليس رسولاً يبلغ وحي الله للناس – كما هو الحقيقة – إنما هو حلقة وسيطة تمر بها مشاعر الناس وأعمالهم لكي تصل إلى الله، كما تمر من خلاله كلمة الله إلى الناس!

وقائمة – من بعد – على أساس أن الكنيسة هي وريثة المسيح، ومن ثم فإن لها ذات الوضع وذات السلطان الذي كان للمسيح، فهي مقدسة، و "قداسة" البابا – ومن يكل الأمر إليهم من الكرادلة وغيرهم – هم الوسطاء الذين تمر بهم مشاعر الناس وأعمالهم لكي تصل إلى الله، كما تمر من خلالهم كلمة الله إلى الناس!!"[1]، وعلى هذا فكل ما تأمر به الكنيسة من الأوامر أو تنهى عنه من النواهي، وكل ما تقره من العقائد هو مستمد من تلك القداسة المستمدة في الأصل من عقيدة بنوة المسيح لله.

تلك القداسة التي اكتسبتها الكنيسة هي التي جرأتها على الطغيان الذي قامت به في ما يطلقون عليه (القرون الوسطى)، أو (عصور الظلمات)، وهو الوقت نفسه الذي كان المسلمون يتمتعون فيه بالحرية في التفكير، ووحدة الكلمة، والسمعة العالية بين شعوب الدنيا.

مارست الكنيسة تبعاً لذلك التفويض الإلهي الذي أعطاه بولس لها[٢] أنواعاً من الطغيان، فلم يقتصر الطغيان الذي مارسته على الطغيان الروحي المصرح لها به، بل مارست طغياناً في جميع أشكال الحياة المادية.

---

(1) مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٢٨).

(2) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، للإمام القرطبي، ص: (٢٤٢)، وفيها شرح بداية تغيير بولس لدين النصارى والذي يعتبر أساساً لسلطة الكنيسة من بعد.

فمن الناحية الدينية (الروحية) برزت وصاية الكنيسة على العقول النصرانية في أوروبا فلا مناقشة في أمور الدين، فلا يجوز السؤال عن العقيدة التي تمليها ا امع، الواجب هو الإيمان والتسليم دون اعتراض أو نقاش(1)، الله هو الآب وهو الابن وهو روح القدس، واحد، وهو في نفس الوقت ثلاثة، والذي يسأل كيف؟: هذا خارج على تعاليم الكنيسة، كافر بالرب. كان هذا هو جزء من طغيان الكنيسة في الغرب على عقول الناس، وكان الناس _ وخاصة من اختلط منهم بالمسـلمين _ يرون الفارق بين وضوح العقيدة لدى المسـلمين، وتوحيد المشرع عندهم، وبين ممارسات الكنيسة، كانت المعاهد الإسلامية تدرس العقيدة وتطرحها طرحاً مبسطاً، ثم ترد على الشبهات الواردة في طريقة شرعية عقلية غير متسلطة، بغض النظر عن كو ا مأخوذة عن الوحي _ وهو الغالب _ أو متأثرة بالعقليات الفاسدة كعلم الكلام أو الفلسـفة أو غيرها؛ فإن الذي كان ينظر إليه الأوربيون ويعجبون به هو: تحرر العقيدة لدى المسـلمين من وصاية[2] البشر.

كما يهمنا في هذا الشأن تسلط الكنيسة و(رجال الدين) في الجوانب العلمية التجريبية والتي كانت تتوهم الكنيسة أ ا تعارض الدين _ أو أ ا تعارض دينهم المحرف فعلاً _، وبالفعل كانت معارضة الاكتشافات العلمية لبعض المسلمات الكنسـية سبباً في ثورة الكنيسة على هذه العلوم وعلى أصحا ا.

يقول أبو الحسـن الندوي _ رحمه الله _: "من أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا، ومن أكبر جنايتهم على أنفسهم، وعلى الدين الذي كانوا يمثلونه، أ م دسـوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية، ومسلمات عصرية، وعن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية، ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر. ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني، وإذا كان ذلك في عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر، فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض؛ فإن العلم الإنساني متدرج مترق، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصراً على كثيب مهيل من الرمل. ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسـنة، ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين، فإن ذلك كان سبباً للكفاح المشؤوم بين الدين والعلم، الذي ا زم فيه ذلك الدين _ المختلط بعلم البشر الذي فيه الحق والباطل، والخالص والزائف _ هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين سقوطاً لم ينهضوا بعده، وشر من ذلك وأشأم: أن أوروبا أصبحت لا

(1) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: (٤٣).

2 - وأما ما حصل في زمن المأمون والمعتصم من فرض لعقيدة خلق القرآن فهو ظاهرة شاذة، ما لبثت أن تلاشت في زمن المتوكل، انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٢٩٣/١٠، وانظر: سير أعلام النبلاء: ٢٦٥/١١.

دينية. ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس، وذكره بعض شراح التوارة والإنجيل ومفسريهما من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية، وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد ا، ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتباً وتآليف، وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله ا من سلطان (الجغرافية المسيحية)، وعضوا عليها بالنواجذ، وكفروا كل من لم يدن ا"[1].

كما أن هناك سبباً آخر في تلك المعارضة من رجال الكنيسة للعلم ورجاله وهو أن العلم التجريبي الجديد قادم من الشرق وفي التسليم له إذعان للإسلام الذي هو دين العلماء الذين جاءوا ذا العلم التجريبي.

فقامت الكنيسة بممارسا ا التعسفية، ضد كل من يحاول الطعن في الدين ــ بزعمهم ــ بعمل تلك التجارب، أو النظر عبر الأفلاك لاكتشاف الكون، فقتلت من قتلت، وأحرقت من أحرقت من العلماء[2].

تقول (زغريد هونكه)[3]: "إن القسس كانوا يلعنون كل من قال بكروية الأرض، ومن تقبل التعليل بأسباب طبيعية لفيضان أو بزوغ كوكب، أو شفاء قدم مكسور"[4].

"وقد اخترع رئيس بلدية في ألمانيا مصباحاً يعمل بالنفط، فحكمت الكنيسة بكفره بحجة أن الله خلق الليل مظلماً والنهار منيراً، وهذا الرجل يبدل في خلق الله، فيجعل الليل كالنهار"[5].

"ويقدر أن من عاقبت الكنيسة يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء، كان منهم العالم الطبيعي (برونو)، نقمت منه الكنيسة آراءً من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حياً، وكذلك كان"[6].

---

(1) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، ص: (١٩١).

(2) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٤٩٧).

(3) إحدى الكاتبات الألمانيات.

(4) شمس العرب تسطع علي الغرب، ص: (٣٧٠). نقلاً عن: الجزء الثاني من مقال بعنوان: (الأصالة والحداثة قراءة في فكر د. زكي نجيب محمود)، لكاتبه: د. نعمان السامرائي، مجلة البيان العدد: (٧٠)، جمادى الأولى، عام: (١٤١٤هـ).

(5) الجزء الثاني من مقال بعنوان: (الأصالة والحداثة قراءة في فكر د. زكي نجيب محمود)، لكاتبه: د. نعمان السامرائي، مجلة البيان العدد: (٧٠)، جمادى الأولى، عام: (١٤١٤هـ).

(6) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: (٤٨).

و"كانت الكنيسة آخذة بنظرية (بطليموس) التي تجعل الأرض مركز الكون، وتقول: إن الأجرام السماوية جميعها تدور حولها. فجاء القسيس (كوبرنيق) بنظرية تقول بخلاف النظرية القديمة، التي جعلتها الكنيسة ضمن معارفها الدينية، وشرح نظريته في كتابه (حركات الأجرام السماوية). وطبع كتابه هذا، فثارت ثورة الكنيسة ضده، وقبل أن يساق إلى محكمة التفتيش أدركته منيته، فحرمت الكنيسة هذا الكتاب، ومنعت تداوله، وقالت: إن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل. وبعد عدة سنوات ظهر (جاليليو) الذي توصل إلى صنع المنظار الفلكي (التلسكوب) فأيد بمشاهداته نظرية (كوبرنيق) وقال بدوران الأرض. فسيق إلى محكمة التفتيش، وحكم عليه سبعة كرادلة بالسجن، وفرضوا عليه تلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات. ولما خاف (جاليليو) من المصير الذي انتهى إليه (برونو) أعلن توبته، ورجع عن رأيه، وركع أمام رئيس المحكمة قائلاً: أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري سجين راكع أمام فخامتك: والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي المخطئ بدوران الأرض. وتعهد للمحكمة بأن يبلغها عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل"[1].

كل ذلك في الوقت الذي كان يزخر فيه الشرق الإسلامي بكل أنواع العلوم النافعة، وأوروبا على مرأى ومسمع، والنفوس قد امتلأت كراهية لذلك الدين الذي يحبس الإنسان عن العلم والتطور والمضي في ركب الحضارة[2].

إن طبيعة الإنسان لا تقبل الوصاية العقلية أو الاعتقادية، أن تقوم الكنيسة بالتسلط على أموال الناس، قد يكون ذلك أمراً مقبولاً إذا اقتنع الناس بقداسة الكنيسة، أو أن تفرض الكنيسة سياستها على الأوربيين فرضاً، لا ضير في ذلك ما دامت أنها تستمد مصداقيتها من لاهوتية المسيح (ابن الله)، ولكن أن تقوم الكنيسة بفرض ما تفرضه من عقائد تقررها في المجامع الكنسية، ولا نقاش فيها، ذلك أمر فيه غضاضة، وأشد منه نفوراً أن تكون الكنيسة حائلاً بين عقول الناس وبين ما يرونه أمامهم من اكتشافات، وتقول لهم الكنيسة: كل ذلك حرام كل ذلك يبعد عن الله، فلا تطور ولا تقدم في سباق الحياة بين الشعوب، كل ذلك أحدث الصراع بين العلم والدين في الغرب.

إن الصراع بين الدين والعلم في الغرب هو أحد الصراعات التي كانت قائمة بين الدين المحرف ومظاهر الحياة الغربية؛ فهناك الصراع بين الدين والحياة الاقتصادية، والصراع

(1) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: (٤٩-٥٠).
(2) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ: محمد قطب، ص: (٥٦٠).

بينه وبين رجال السـياسة، والصراع بين الدين المحرف وبين العقل الذي بدأ يحس بأن عليه أن يتحرر من ربقة العبودية الفكرية للكنيسة، ولكن طغيان الكنيسة العلمي يظل له أكبر الأثر على الأحداث بعده؛ فإن التقدم العلمي الهائل والسريع الناشئ عن التقاء الغرب بالحضارة الإسلامية[1] كان له أكبر الأثر في كشف زيف المعطيات الكنسـية، التي زادت في الدين وغلت في جوانب فيه،(ورهبانِيةً ابتدعوها ما كَتبناها علَيهم إلا ابتغاءَ رِضوان الله فَما رعوها حق رِعايتها فَآتينا الذين آمنوا منهم أَجرهم وكَثير منهم فَاسقُونَ)[2]، ولكن الكنيسة لما رأت ذلك التصادم بين العلم الحديث والذي قد يكون قائماً على مسلمات علمية جديدة: عملت على محاربة العلم، وفي الحقيقة لو كان الدين الذي يبشر به الرهبان في ذلك الوقت صحيحاً لكان من المستحيل أن يتصادم مع المسلمات العلمية؛ فإن ما جاء من عند الخالق لا يمكن أن يتصادم مع ما خلقه الخالق نفسه.

والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع هو الثورة... الثورة على الدين، ما دام أن الذي يقف حائلاً أمام العلم هو الدين متمثلاً في الكنيسة ورجالها وكل ما يأمر به رجالهـا، ولكنـها كانت ثورة على الدين ككل؛ وذلك لأن الصراع في أوروبا بين العلم والدين أنشأ لـدى الأوروبيـين تصوراً قاتماً تجاه الدين، وهو أن الدين في مواجهة العلم دائمـاً، ولا يمكـن تصور دين متفق مع العلم، ولم ينـتبه الأوربيون الغاضبون إلى أن تلك البدهيات المدخلـة إلى الدين والتي تعارضت مع العلم هي من صنع البشر، ومن تحريف الكنيسة لـدين الله _ الذي كان يوماً من الأيام ديناً يصلح لمن أنزل عليهم من البشر _ كقضية السلطان اللاهوتي المعطى للكنيسة، وهو داهية الدواهي، فلم يفكر الغربيون بنـزع ذلك السلطان، بقدر مـا فكروا بنـزع الدين نفسه من التطبيق في مجالات الحياة البشرية كلها بل بالكفر به تماماً.

يقول الشيخ محمد قطب: "ولقد بدأت نذر الثورة على الكنيسة ورجـال الـدين، وعلى الدين المزيف الذي تقدمه الكنيسة، بدأت منذ (عصر النهضة)[3]، وبـدأ الكتـاب يتمردون على سلطان الكنيسة الطاغي ويهاجمون رجال الدين، بـل يهـاجمون كـذلك خرافات ذلك الدين الكنسـي ومعمياته. ولكنها كانت أصواتاً متناثرة، فظن القوم أ ـم قادرون عليها وعلى إسكا ا. كانت هذه الأصوات ز النائمين ليصحوا .. تزيل عنهم تبلد نفوسهم .. وتزيل (الأمر الواقع) من حسهم، وتشعرهم أن التغيـير ممكن، وأن هذا الأمر الواقع ليست له صفة الخلود، ولا هو كذلك في منعة من النقد والتجريح.

(1) انظر: الموسـوعة العربية العالمية: ٢٨٧/١٦.
(2) سـورة: (الحديد:٢٧).
(3) سبق التعريف بعصر النهضة، ص: (٩١).

وبذلت الكنيسة جهدها في محاولة إسكات هذه الأصوات، مستخدمة في ذلك نفوذها على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم، وسلطانها (التقليدي)الذي كانت تأمر به فتطاع، وينظر إلى كلمتها على أنها موضع التقديس .. لأنها مرتبطة في حس الجماهير بالدين .. وما أعظم سلطان الدين على النفوس، كما استخدمت محاكم التفتيش حين اشتد فزعها وخافت على ما في يدها من السلطان. ولكن رويداً رويداً زادت الأصوات عدداً، وزادت جرأة، وزادت استخفافاً بالجبروت. علماء .. ومفكرون .. وفلاسفة .. مصلحون .. وحاقدون! حاقدون على سلطان الكنيسة الطاغي وما تتمتع به من المزايا بغير استحقاق .. وكان حجم الطغيان هائلاً مخيفاً، وكان له في الأرض تمكن طويل يبلغ عدة قرون. ولكن في النهاية حدث الانفجار! وكان بشعاً في شدة انفجاره، بشعاً في سرعة اكتساحه، بشعاً في قسوة الحمم الذي تفجر من بركانه.

واكتسحت الثورة الفرنسية في طريقها ما كان تراكم من المظالم خلال ألف وأربعمائة عام! وأزالت الطبقتين الحاكمتين الطاغيتين المتحالفتين! رجال الإقطاع (الأشراف!) ورجال الدين!"[1].

وهكذا صار الدين نفسه عقدة في ضمائر الأوربيين[٢]، ومثلهم كمثل الذي أكل طعاماً رديئاً فسبب له تسمماً في معدته، فعالج نفسه بأن امتنع عن الطعام كلياً؛ لأنه أصابته عقدة التألم بسبب نوع رديء من الطعام الفاسد، فصمم هذا على ترك الطعام بكل أنواعه، إن هذا الشخص نلحظ فيه أمرين: الأول أن مرضه أورثه مرضاً نفسياً آخر، هو أعتى من المرض الذي كان يعاني منه، ويمكن أن نسميه: عقدة الألم. والثاني أن هذا الشخص لن يعيش طويلاً، فحاجته للطعام ماسة وعقدة الألم لن تشفع له في تخليصه من الجوع الذي واجهه أو سيواجهه، وسيموت، سيموت بفكرته الفاسدة، وتموت معه عقدته قريباً.

فقامت الثورة الفرنسية[٣]، وكان شعارها: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)، هذا الشعار يبين كذلك أثر الإقطاع[١] _ الذي صادقت عليه الكنيسة _ على

---

(1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٧٧-٧٨).

(2) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥١٢-٥١٣).

(3) تقول عنها الموسوعة العربية العالمية: "بدأت الثورة بأزمة اقتصادية حكومية، ولكنها سرعان ما أصبحت حركة للتغيير العنيف. فقام الجمهور في باريس باحتلال الباستيل، وهو حصن وسجن ملكي كان قد أصبح رمزاً للقهر. وبعدها تقلد زمام الحكم سلسلة من الهيئات التشريعية المنتخبة. وتم إعدام الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت. ولاقى آلاف آخرون نفس المصير في فترة عرفت بعهد الإرهاب. وانتهت الثورة عندما استولى الجنرال الفرنسي نابليون بونابرت على الحكم، وكان من أحداثها أيضاً: أن استولت الجمعية على ممتلكات الكنيسة

الشعوب الأوروبية، ويلاحظ في هذا الشعار حنق الناس على رجال الدين الذي زاد على حنقهم على الحكم الإقطاعي، الذي اضطرهم للعيش تحت مستوى الفقر[2]؛ وذلك من خلال تقدم قتل القسـيس على قتل الملك، فتم نبذ الدين قبل نبذ السـياسة الظالمة المستمدة من الدين.

وما زالت عقدة الدين راسخة في عقول الغربيـين يقول الشيخ محمد قطب: "فقـد حدثني رجل إنجليزي متخرج في (أكسفورد)، ويعمل أخصائياً في مؤسسة اليونسكو، وهي مؤسسة ثقافية! زار مصر منذ سـنوات، وجرت بيني وبينه عدة مناقشات، فقال : إنـه لا يحب الروحانية لأنه يحب أن يستمتع بالسفر بالطائرة، والاستماع إلى المذياع !! فقلت لـه مدهوشاً: وماذا يحملك على ترك هذا المتاع حين تؤمن بالروحانية ؟ قال: أو ليس يقتضي ذلك أن أعود إلى الخيام ؟!"[3]، فالتعارض بين العلم والدين وبين المدنية والتدين قـائم في عقولهم، كما أن هناك تلازم __ في اعتقادهم __ بين التدين والتخلف الذي كان في عـصر الإقطاع.

الرومانية الكاثوليكية، حيث قد بلغ حجم الأرض المملوكة للكنيسة نحو عشر أراضـي الـبلاد مجتمعـة"، انظـر: الموسـوعة العربية العالمية: ٧٧/٨-٧٩.

(1) فلم تكن الكنيسة وحدها هي التي سببت للأوربيـين العناء والكبت، بل مارس الإقطاع أشنع الأسـاليب في إرهاق الشعوب مادياً ومعنوياً إزاء الحكم الكنسـي، يقول د. إبراهيم أحمد العدوي: "ونزلت بـا لمجتمع الرومـاني كارثة اقتصادية أخرى لا تقل خطورة عن ضياع موارده المالية. وتتلخص مظاهر تلك الكارثة في اعتماد الحكومـة على السخرة وفرض الواجبات العامة على سائر طبقات المجتمع، بدلا من الحصول على الضرائب والأموال المقـررة، ذلك أن السلطات الرومانية، حين عجزت عن خلق موارد مالية وبدأ الفقر يصيب خزائـنها، لجأت إلى هذا اللـون الفاسد من الضرائب، لإعادة توازن المالية العامة. وهذا الأسلوب الاقتصادي أشبه بالمخدر السام، الذي يخيـل لمـن يتعاطاه أنه قد تخلص من المسؤوليات الملقاة على عاتقه، ولكنه سرعان ما يرى نفسه مصاباً لمرض عضال لا خلاص منه إلا بالموت، أو العجز التام. وزاد الحالة سـوءا أن الحكومة فرضت أعمال السخرة على الفقراء، الذين عانوا شظف الحياة، وصاروا يؤدون أعمالاً عديدة دون مقابل. وكانت النتيجة الاجتماعية لهذا العبء القاسـي هو ازدياد بـؤس الفقراء وغيرهم من الطبقات الدنيا، وتحولهم إلى مرتبة قريبة من العبودية والذلـة وكلمـا تمـادت الإمبراطوريـة في السخرة،كلما انحط شأن هذه الطبقة البائسة وكثرت أعدادها. ولم يكن هناك أي أمل في تخفيف أعباء السخرة، لأن الإمبراطورية تعرضت بمرور الزمن إلى متاعب شديدة، تطلبت علاجاً سريعاً، ولم يكن من المستطاع مواجهته إلا عن طريق السخرة وبذلك أصاب الشللُ القاعدةَ الأساسـية للمجتمع الروماني وهم عامة الناس، وتلاشـت مجهـودا م بسبب انهيار روحهم المعنوية، وعدم تطلعهم إلى أي مستقبل حسـن"، انظر: المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ص: (١٨- ١٩).

(2) انظر: المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، د. إبراهيم العدوي، ص: (١٥).

(3) الإنسان بين المادية والإسلام،للشيخ محمد قطب ص: (٢٢٠).

إن اللادينية التي نشأت بعد الثورة الفرنسـية[1] هي ما يعـبر عنـه النـاس اليـوم بالعلمانية، فالعلمانية إقصاء للدين وكفر بالله، إن هذا الكفر وهذه الظلمات ما كانت لتنشأ عنها إلا الضلالات، فإن الذي يمشي في الظلام الدامس ليس كالذي يمشي ومعه مسكة من نور، وربما كان الدين النصراني المحرف على ما فيه من تحريف وتبديل يضيء بعض الطريق لهؤلاء فيقيهم شر التخبط، ولكن بعد الكفر بالأديان، لم يعد ثمة سـوى التخبط والهذيان، فنشأت المذاهب الفكرية الكفرة التي ما أنزل الله ا من سلطان، لتسد الفراغ الروحي الذي أحدثه غياب الدين، وهكذا نشأت كثير من المذاهب الفكرية القائمة على فلسفات جديدة وقديمة، تحاول تلك الفلسفات أن تفسر الإنسان ووجوده والحياة التي يعيـشها الإنـسان، وكيف ينبغي أن يمارسها.

---

(1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥١٧).

المطلب الثاني: تأثر المغلوب بالغالب:-

في العصور الوسطى وهي التي تسمى بعصور الظلمات _ بالنسبة للغرب _ كان الشرق الإسلامي قد ازدهر بالعلم بشتى أشكاله، وأخذ الغرب ينهلون من علوم المسـلمين، يقول الشيخ محمد قطب: "فحركات الإصلاح الديني التي تمردت على سلطان البابوية الطاغي كانت متأثرة بالإسلام.. وحركات التمرد على سلطان الإقطاع الطاغي، الذي يجعل أمير الإقطاعية هو السلطة التشريعية وهو السلطة التنفيذية وهو السلطة القضائية في آن واحد، كانت متأثرة بالإسلام. ومحاولة التجمع في أمة ذات قانون موحد يحكم في جميع أرجائها بالسـوية، ويخضع الناس فيه لنظام موحد كانت متأثرة بالأمة الإسلامية الموحدة، وإن كانت أوربا لم تفلح في هذه المحاولة إلا في حدود القومية الضيقة، لا في حدود الأمة الموسعة. والنظام الجامعي الغربي مأخوذ من الجامعات الإسلامية بما فيه من ضرورة إشراف الأستاذ على الطالب حتى يتخرج على يديه، وتوجيهه للمراجع التي يرجع إليها، ومناقشته فيما حصل منها للاطمئنان على قدرته على التحصيل قبل إعطائه الإجازة التي تجيز له أن يبدأ في تعليم غيره، بل إن الروب الجامعي وغطاء الرأس المكمل له هما تقليد لعباءة الأستاذ المسلم وعمامته، كما تأثر الأدب وتأثرت العمارة حتى عمارة الكنائس ذا ا إذ نقشت في بعضها _ بغـير علم _ عبارات منقولة من المساجد الإسلامية، وذلك كله فضلاً عن المنهج التجريبي في البحث العلمي وما أُحدث في أوربا من انقلاب كامل في طريقة التفكير"[1].

وبعد انشغال المسـلمين بالحروب والفتن التي وقعت بينهم، ضعف المد العلمي الذي كان يأتي من الشرق الإسلامي، فواصل الغرب العلماني عجلة السـير العلمية.

وما اكتشفه الغربيون من العلوم كانوا مبتدئين فيه من حيث انـتهى المسلمون؛ ولذلك كانت اكتشافا م متميزة بالسرعة، فالقاعدة العلمية موجودة والأصول مؤصلة، ولم يبق عليهم سـوى إكمال المسـيرة.

وتمت الاكتشافات العلمية بأسرع مما كان يتصور العالم، وتقدم الغرب في شتى ا الات، ومنها ا الات الحربية والعسكرية، فحين كانت الآلة العسكرية العثمانية متمثلة

(1) انظر: كيف نكتب التاريخ الإسلامي، للشيخ محمد قطب، ص: (١٦٥- ١٦٦).

في المدفعية العثمانية أقوى مدفعية في العالم[1]، توقف المسلمون عن تطوير أجهزتهم الحربية لتتفوق أوروبا عليهم من الناحية العسكرية ولذلك منيت الجيوش العثمانية بهزائم كبيرة في شرق أوروبا وخسرت كثيراً من ممتلكاتها هناك.

وتفوقت أوروبا في أكثر النواحي حتى اقتسم الأوربيون أجزاء الدولة العثمانية الممزقة.

وابتعث المسلمون إلى هناك إلى حيث العلمانية اللادينية، إلى حيث المذاهب الفكرية التي لم تنشأ إلا على أنقاض الدين ولم تنشأ إلا بعد التنكر للخالق، والكفر به.

إن الحضارة الغربية كانت حينئذ في تقدم باهر، انبهر به أبناء المسلمين، حتى قال قائلهم: "سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج، ولا التواء، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب"[2]، ويقول أحد دعاة العلمانية الأتراك: "إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين، حتى الالتهابات التي في رئيهم والنجاسات التي في أمعائهم"[3].

ولا شك أن هذه العبارة لم تصدر إلا من نفسية متأثرة بالوضع الذي وصل إليه الغرب من علو في الأرض وإحساس بالغلبة وتفوق الآخر، وهو السبب لهذه التبعية العمياء، يقول الكاتب عبد المنعم النمر: "ويصحب هذا كله عامل نفساني قوي، كثيراً ما وجهنا في حياتنا توجيهاً قوياً بل إني لأستطيع أن أقول إنه العامل المسيطر علينا الآن المتحكم في آرائنا وأفعالنا وأعني به عامل التقليد وحب المحاكاة للغربيين وعدم المبالاة بتقاليدنا وآرائنا الدينية! وهذا العامل النفسي يسيطر على حياة الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها كما يسيطر على حياة الأفراد الضعفاء سيطرة تدفعهم إلى الفناء في شخصية القوي، ونحن نشاهد أن هذا العامل النفساني له تأثير كبير على حياتنا أكثر من أي عامل آخر، فنحن نخضع له خضوعاً لم يحظ به أي عامل آخر من دين أو دنيا، فالأفكار الغربية بل والسلع الغربية مفضلة عندنا على أفكارنا وسلعنا، ننظر إليها بمنظار حسن

---

(1) وكانت تسمى بـ (طاباخانه)، وهي التي استخدمها محمد الفاتح في فتح القسطنطينية، حيث نصب حول أسوارها (١٤) بطارية من هذا النوع من المدافع، والبطارية هي مجموعة من المدافع، انظر: التأريخ السياسي للدولة العثمانية، د. أحمد الدعيج، شريط رقم: (١)، الوجه الثاني، سلسلة التاريخ السياسي الإسلامي، تسجيلات التقوى الإسلامية، الإصدار رقم: (٨٥).

(2) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين: ٢٢٩/٢.

(3) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين: ٢٢٩/٢.

ونحيطها بسياج من الثقة والإكبار يدفعنا إلى التوفر عليها تاركين أفكارنا الخاصة، ومنتجاتنا الوطنية مهما كانت أفكارنا سليمة وبضاعتنا متينة، فالإلحاد وعدم الاعتراف بالدين ومبادئه طغى على أفكارنا أياماً حتى عد ذلك مظهراً من مظاهر الرقي والنهوض، وطابعاً من طابع التفكير الحديث السليم!! لأن ذلك كان طابعاً للغرب في وقت من الأوقات ونحن تصل إلينا منتجات الغرب أحياناً متأخرة، وتبادل الزوجات والأخوات للرقص معهن في الحفلات العامة أصبح من ميزات الرقى والنهوض في نظر بعض الطبقات؛ لأن الغربيين يعملون ذلك فلا بد أن نجاريهم ولو كان ذلك لطمة قوية لديننا وتقاليدنا، لأن الدين والتقاليد رجعية قديمة لا تليق بحضارتهم! وتطويل الثياب وتقصيرها وطريقة تفصيلها راجع إلى تقاليد الغرب وبيوت (الموضات) فيه لا إلى الدواعي القويمة من ديننا وبيئتنا، فيمكن تطويل الثياب[1] لأن ذلك وحي باريس أو لندن فقط ولا يمكن تطويلها لأن ذلك من وحي الإسلام والقرآن! وهكذا كل شأن من شئوننا يسيطر عليه عامل التقليد بشكل مخيف . التقليد لأناس لا يتفقون معنا في الدين أو اللغة أو الجنس أو البيئة"[2].

فكان كل تقدم مقترن لدى المنبهرين بالغرب بما وصل إليه الغربيون من الحضارة المادية الباهرة، وكل خطوة يخطوها هؤلاء يكون الغرب الأسوة والمثل الأعلى فيه، والذي ترنوا إليه قلوبهم ونفوسهم بعد ما أشربت الذل والانقياد واقتنعت بأنها المغلوبة والتي لا بد أن تمشي في ركاب النهضة. ولذلك لما توصل كمال أتاتورك إلى الرئاسة "ألقى بعد انتخابه رئيساً للجمهورية خطاباً قال فيه: بفضل هذا النظام الجديد ستنجح أمتنا في أن تظهر مناقبها وخصائصها أمام العالم المتحضر، ولسوف تبرهن الجمهورية التركية، فعلاً لا قولاً، أنها جديرة بالمكانة التي تحتلها في العالم"[3]، وعمل بعد ذلك على تغريب الدولة العثمانية التركية ومسخ هويتها الإسلامية جرياً وراء اللحاق بركب التقدم والحضارة.

والحقيقة أن المذاهب الفكرية الغربية إنما أنتجتها مجموعة من العقد والأمراض النفسية التي عاشها الغرب النصراني، إبان عصر الإقطاع، فكانت هناك صراعات اجتماعية داخلية عديدة يتزعمها رجال الدين والإقطاعيين من جهة، والعامة والعمال من جهة أخرى، فلا ينبغي أن نجعلها مشكلة لنا، وأن نتوهم أن لدينا من الأمراض الاجتماعية مثل ما عندهم.

---

(1) يقصد ثياب النساء.

(2) انظر: الإسلام و الشيوعية، لعبد المنعم النمر، ص: (٣٥ ـ ٣٦) .

(3) انظر: الإسلاميون وتركيا العلمانية، لهدى درويش، ص: (٩٧).

يقول سلامة موسى وهو يعرض مشكلة ا تمع الغربي ويخلط بينه وبين ا تمع الإسلامي والذي لا يعاني من شيء مما قال: "تعدد مشكلاتنا يوهم اختلافها في الأصل وأ ا لا يتصل بعضها ببعض، ولكن المتأمل المفكر يستطيع أن يجد النقطة البؤرية لجميع هذه المشكلات والنقطة البؤرية الوحيدة هنا هي أن نظامنا الإقطاعي في نظرته للعائلة ومركز المرأة والأخلاق الأبوية والنظرة الاجتماعية، كل هذا يعود إلى مشكلة واحدة هي أن آراءنا الإقطاعية القديمة لم تعد تصلح للحياة العصرية وأن متاعبنا وأرزاءنا واصطداماتنا تنبع من هذا الكفاح الذي نكافحه نحو حياة ديموقراطية جديدة نتخلص ا من الحياة الإقطاعية القديمة"[1]، وهذه في الأصل هي مشكلة ا تمع الإقطاعي الغربي وليست مشكلة الشرقيـين المسـلمين بحال، ولكنه هنا كمن يتظاهر بالمرض ويطلب الدواء؛ لا لشيء إلا لأنه رأى مريضاً (حقيقياً) يتناول دواءً ـ ربما يشفيه وربما يزيد في مرضه ـ، وهو في ذلك كله لم يكن مريضاً حقيقياً من جهة الأصل، ثم إنه لم يحاول أن يعرض الدواء الذي يتناوله المريض الحقيقي على طبيب حاذق، والطبيب الحاذق الذي كان ينبغي أن يعرضه عليه ـ هنا ـ هو الوحي السماوي الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فمن تبع الغرب من أبناء المسلمين في تبني المذاهب الفكرية المعاصرة المأخوذة عن الغرب، فقد تشبه م في الأمراض التي مرت م، وكان أخذه بتلك المذاهب الفكرية المعاصرة علاجاً وهمياً لها.

ولا زال بعض المسلمين يتغنى بما وصل إليه الغربيون من الحضارة التقدمية السريعة، وينادي بأفكارهم، اقتناعاً منهم بتلك الآراء والأفكار التي أحدثها الأوروبيون في حيا م علاجاً لما وقعوا فيه من حيرة وتخبط، وكان يكفيهم أن يأخذوا بما توصل إليه الغرب من التقنية المادية، وترك ما عندهم من زبالة الأفكار والمذاهب الهدامة، التي لم تزدهم إلا حيرة وضلالاً.

---

(1) انظر: الأدب للشعب: (٦٦-٦٧).

المبحث الثاني:

مظاهر تأثر المسلمين بالعلمانية في الجانب العملي:-

تقدم في الفصل الأول من هذا الباب تعريف العلمانية، وأ ا اتخذت شكلين: العلمانية الملحدة (اللادينية)، والعلمانية التي تؤمن بوجود الله إيماناً ظاهراً وتحصر الدين في نطاق ضيق وتعمل على فصل الدين عن مظاهر الحياة، وكل ذلك نتيجة الصراع بين الإقطاع والكنيسة من جهة وبين الشعوب الغربية من جهة أخرى.

إن العلمانية التي انتقلت إلى العالم الإسلامي، لم تعرف في العالم الغربي النصراني ذا الاسم، ولكن لما دخلت العلمانية (Secularism) إلى بلاد المسـلمين، عربت تعريباً خاطئاً؛ فإن لفظ العلمانية ليس له علاقة بتعريفها وأصل هذا اللفظ باللاتينية هو الاسم: (secular)، وهو يعني ثلاثة معاني: ١- دنيوي، ٢- غير ديني، ٣- مدني[1]، فكان الأولى أن تسمى بـ (اللادينية)، وقد حاول دعا ا في المشرق محاكاة الغرب في اللادينية التي توصلوا إليها؛ فإن الأحداث التي وقعت في الغرب وأدت إلى العلمانية، لم يكن لها نظير في العالم الإسلامي، ولذلك فالتعبير الأوضح والأقرب إلى الواقع أن نقول: (افتعلت) العلمانية في العالم الإسلامي؛ فإن العالم الإسلامي لم يمر يوماً من الأيام بنفس الظروف التي مر ا العالم الغربي ولم توجد العلمانية في العالم الإسلامي كردة فعل للشعوب الثائرة، بل افتعلت العلمانية بين المسـلمين افتعالاً؛ فإن اسم العلمانية يوحي بأن السبب في مفارقة الدين والبعد عنه هو العلم المظلوم من الدين وهذا لم يحصل أبداً في العالم الإسلامي منذ فجر التاريخ؛ فإنه لم يحصل ثَـم صدام بين علماء المسلمين وبين العلم التجريـبي لدى الباحثين المسلمين، إذن فما هو الشيء الذي انتقل من الغرب تحت غطاء اسم العلمانية ؟!

إن الشيء الذي انتقل من بلاد الغرب إلى العالم الإسلامي _ من أطروحات العلمانية في الغرب _ هو اللادينية أو محاولة حصر الدين وإقصائه عن شؤون الحياة، وأما الصراع _

---

(1) انظر: المورد القريب، إنكليزي – عربي، ص: (٣٣٩)، دار العلم للملايـين، بـيروت: ١٩٩٣م، وانظـر: مبحث أثر العلمانية في التحاكم إلى غير الله من هذه الرسالة.

وهو أمر جوهري في العلمانية الغربية _ فلم ينتقل بل افتعل افتعالاً بعد أن انتقلت اللادينية بسبب الإعجاب بالغرب والانبهار بالحضارة الغربية، ولهذا فإذا كان من الصحيح أن نصف اللادينية الغربية بالعلم فنقول (علمانية)، فإنه ليس من الإنصاف أن نسميها بنفس الاسم في العالم الإسلامي، فهي في العالم الإسلامي لادينية وليست علمانية بشكل من الأشكال.

ولذلك فنحن إنما نعبر عن هذه اللادينية بلفظ العلمانية لشهر ا ذا الاسم. والذي جعل أدعياء العلمانية في العالم الإسلامي يعبرون عنها بلفظ العلمانية _ دون لفظ (اللادينية) _ رغم أنه لا صراع بين العلم والدين في الإسلام؛ هو أ م لما حاولوا نقل اللادينية الغربية إلى بلاد المسـلمين لم يكونوا في موقف القوة إلى حد التعبير بلفظ (اللادينية)؛ فبعض بلاد المسـلمين نجدها تحكم بالشريعة الإسلامية، وعلى هذا تكون الدعوة إلى اللادينية جهاراً اراً أمراً صعباً أو متعذراً، وإن كان ربما يعتبر ذلك أمراً مرحلياً، فقد تأتي على البلاد التي تحكم بالإسلام فترة ضعف، بسبب النخر اللاديني أو غيره من أسباب الضعف، وعندها ربما تكون تلك هي فرصة اللادينيـين في التصريح باللادينية التي يعتنقو ا، ويعبرون عنها بلفظ العلمانية.

كما أن الشعوب الإسلامية التي حكمت بالإسلام منذ قرون طويلة، لن تجد لفظ (اللادينية) لفظاً مقبولاً، وستجد جهود العلمانيـين في الإصلاح المزعوم استهجاناً واسعاً ما دام أن الهدف المعلن هو (اللادينية)، فلذلك كله اتخذت تلك اللادينية الغربية من العلمانية شعاراً، وعملت على الظهور بأشكال متعددة قد تكون أشد قبولاً وأقل نفوراً من المسـلمين.

ولذلك فقد ظهرت العلمانية في العالم الإسلامي بأشكال تبين مدى التأثر بالواقع الغربي زمن الثورة الفرنسـية، وتحمل نفس العقَد التي نشأت في أذهان الشعوب النصرانية إبـان الحكم الإقطاعي والتسلط الكنسـي، ومن تلك الأشكال التي تشكلت ـا العلمانيـة في العالم الإسلامي: -

افتعال صراع بين العلم والدين على النمط الغربي: -

يقول بعض الذين يتوهمون الصراع بين العلم والدين من العلمانين المنتسبين إلى الإسلام: "كيف ألتزم النظرة العلمية الصارمة، لأساير عصري، وأن أظل مع ذلك تواقاً إلى غيب وراء الشهادة، يتحقق لي فيه الخلود والدوام، لأظل محتفظاً ذه السمة الغريبة في

نظري؟"[١]، وهو بهذا في حيرة من أمره كيف يجمع بين العلم والدين، متوهماً وجود صراع بينهما، وما ذلك إلا بتأثره بمعطيات الغرب الفكرية القائمة في عصر النهضة الحديثة[٢] _ كما يسمونه _ على العداء المتوارث بين العلم والدين فعقدة الشعوب الأوربية المظلومة من اضطهاد الكنيسة تسللت إلى قلبه وفكره.

منذ بداية وصول العلوم الغربية إلى مصر "حاول محمد علي باشا[٣] في أول الأمر أن يدخل العلوم الحديثة ضمن مناهج الأزهر، إلاّ أنه خشي معارضة الأزهريين، فقام على الفور بإنشاء نظامه التعليمي الحديث، وهكذا انقسم التعليم في مصر إلى نظام ديني ونظام مدني حديث"[4]، وفي الحقيقة ما كان الأزهر ليعارض التعليم الحديث إذا كان هذا العلم القادم من الغرب نقياً من الشوائب الاعتقادية والأخلاقية، وربما لم تكن لدى الأزهر الآلة التي تمكنه من تمحيص تلك العلوم البحتة من مما قد يشوبها من دنس الحضارة الغربية التي قامت على أساس لا ديني.

ولكن العلم القادم من الغرب كان فعلاً يعج بالنظريات الفاسدة، والأفكار الفلسفية المنحرفة، ولكنه كان يراد له أن يؤخذ على عجره وبجره، فإن تصفيته من الشوائب تلزمنا بالرجوع إلى معايير وأخلاقيات الإسلام، وهو الشيء الذي لم يكن يعجب المنبهرين بالحضارة الغربية اللادينية التي اكتوت بنار الدين المحرف، فقد نشأت في أذهانهم نفس العقدة، فحاولوا افتعال صراع آخر بين العلم والدين، ولكنه هذه المرة بين الدين الصحيح وبين العلم، يقول: (طه حسين): "سبيل النهضة بينة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج، ولا التواء، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره،

(1) نقلاً عن: الجزء الأول من مقال بعنوان: (الأصالة والحداثة قراءة في فكر د. زكي نجيب محمود، لكاتبه: د. نعمان السامرائي، مجلة البيان العدد: (٦٩)، جمادى الأولى، عام: (١٤١٤هـ).

(2) سبق التعريف بعصر النهضة، ص: (٩١).

(3) محمد علي (باشا) ابن إبراهيم أغا بن علي، المعروف بمحمد علي الكبير، مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل، متعرب. ولد في(قولة) التابعة لليونان سنة: (١١٨٤هـ)، وكانت من البلاد العثمانية، واحترف تجارة الدخان، فأثرى. وكان أمياً، تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره. وقدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة جهزها (قولة)، تتألف من ٣٠٠ رجل، نجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر، فشهد حرب أبي قير سنة: (١٢١٤هـ) وجامل المماليك فناصروه مع الألبانيين وأتراك قولة. ومازال حتى كان والي مصر سنة: (١٢٢٠هـ)، وعني بتنظيم حكومتها وقتل المماليك سنة: (١٢٢٦هـ) بوسيلة تقوم على الغدر، وأنشأ السفن في النيل، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر، وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة (ترسانة) للسفن. ت: (١٢٦٥هـ). انظر: الأعلام للزركلي: ٢٩٨/٦

(4) انظر: تاريخ ونظام التعليم في مصر: منير عطا الله وزملاؤه، ص: (٧٩).

وما يحمد منها وما يعاب"[١]، ويقول أحد دعاة العلمانية الأتراك: "إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيـين، حتى الالتهابات التي في رئيهم والنجاسات التي في أمعائهم"[٢]، هنا نلمس افتعالاً للصراع بين العلم والدين، وإلا فما هي الفائدة من أخذ كل ما عند الغربيـين من خير أو شر مع الاعتراف بأن منها ما هو شر محض، ولا دليل على هذا الاعتراف أعظم من تسميته بالنجاسات، إن السبب الوحيد لعدم التفريق بين الخير والشر اللذين عند الغربيـين وأخذهما معاً في إناء واحد وفي لقمة غير سائغة: أن معيار قياس الخير والشر الذي عندهم هو الدين الذي عند المسـلمين، وهؤلاء _ العلمانيون _ لا يريدون الحديث عن الدين بل يريدون إقصاءه عن واقع الحياة، فإذا ميزنا ما عند الغربيـين على أساس الدين لم يكن لإقصاء الدين معنى، ومن ثم لا يكون للادينية التي يرومو ا وجود. ولذلك نلحظ أن مثل هذه العبارات التي تدعو إلى أخذ كل ما عند الغربيـين من خير أو شر (ذا الإطلاق) قلت بشكل ملحوظ؛ فلم يعد العلمانيون يحتاجون إليها بعد إدخال معايـير أخرى ومقايـيس صار المسلمون يقيسـون ا الأمور لمعرفة الخير من الشر؛ فقد صارت هناك معايـير أخرى كالعادات الاجتماعية والمصالح الوطنية والقومية والعقلانية والفلسفات الاقتصادية كالشيوعية وغيرها، وذلك بعد أن لم تكن لدى جمهور المسـلمين معايـير غير الدين المنـزل من عند الله.

ولكن ما إن جاءت سـنة ١٩٦١م حتى استطاع دعاة اللادينية أن يدخلوا التعليم المختلط على الأزهر نفسه[3]، وبذلك تم الانـتهاء من الخطوة الأولى في طريق علمنة الأزهر، ومن ثم بقية المؤسسات التعليمية الأخرى.

وهكذا صيغت قوانين تطويع الأزهر باسم تطويره[٤] تباعاً من عام ١٩٣٦م إلى عام ١٩٧٦م، وكان من نتيجة هذا التطوير "إلغاء (تخصص القضاء الشرعي) من كلية الشريعة، حتى تموت المحاكم الشرعية موتاً أبدياً في المستقبل لا حياة بعده"[٥].

وكان من نتيجته أيضاً "إدخال القانون الوضعي في صلب البرامج الدراسـية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر، وتسميتها: (كلية الشريعة والقانون) وكان يقصد ذا العمل: تقريب الشقة بين الشريعة والقانون، وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى

(1) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسـين رحمه الله: ٢٢٩/٢.

(2) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسـين: ٢٢٩/٢.

(3) انظر: العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٠٢-٦٠٣).

(4) انظر: العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٠١).

(5) انظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد، ص: (١٣٣).

دائماً أن تنبعث منها قيادة فكرية جادة لحركة تحكيم الشريعة الإسلامية وإعادتها إلى التفرد بالهيمنة على شؤون الحياة"[١].

والواقع أن هذا العمل لم يكن نتيجة قناعات بحثية وعلمية منصفة بقدر ما كان وهماً من أوهام الانبهار بالحضارة الغربية، ومظهراً من مظاهر التشـبه بالكفار في مجال الفكر[٢].

"ومن هؤلاء أيضاً: سلامة موسى، ففي كتابه: (اليوم والغد) يدعو إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها، وقطع صلتها بماضيها الإسلامي، وإقامة الحكم والوطنية على أساس مدني، لا دخل فيه للدين، وتطوير اللغة العامية على حساب اللغة الفصحى"[٣].

"وقد كان من أهداف أعداء الإسلام ما أوصى به مؤتمر القاهرة التنصيري المنعقد سـنة ١٩٠٦م من وجوب إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعة الفرنسـية [٤] لمناهضة الأزهر والذي قالوا أنه ((يتهدد كنيسة المسـيح بالخطر)) !.

وقد قام الأذيال بتنفيذ المهمة إذ أنه بعد انـتهاء المؤتمر بسـنتين تقريباً أسس سعد زغلول وأحمد لطفي السـيد وزملاؤهم الجامعة المصرية، وكان النص الأول من شروط إنشائها هو: ألا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسـياتهم وأدياناتهم فتكون واسطة للألفة بينهم))"[٥].

وقبل ذلك في تركيا قام مصطفى كمال بتنفيذ خطة شاملة للثورة على الثقافة الإسلامية، فقام بإلغاء التعليم الديني عام ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م، ثم وضع أنماطاً جديدة من التعليم تقوم على مناهج غربية بحتة[٦].

وفي الهند تزعم السـيد أحمد خان[٧] الحركة العلمية الهادفة إلى تحويل التعليم الإسلامي إلى تعليم غربي[٨]، فبنى لهذا الغرض وبمساعدة الإنجليز مدرسة في (عليكرة) سماها

(1) انظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد، ص: (١٣٤).

(2) انظر: التدابير الواقية من التشـبه بالكفار، د. عثمان دوكوري: ١٦١/١- ١٦٤.

(3) انظر: التدابير الواقية من التشـبه بالكفار، د. عثمان دوكوري: ١٣٨/١.

4 - الغارة على العالم الإسلامي، ص: (٧).

5 - انظر: العلمانية،للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٠٧).

(6) انظر: الأوضاع الثقافية في تركيا خلال القرن الرابع عشر، لسهيل صابان، ص: (٢٧).

(7) منح لقب (سـير) من قبل السلطات البريطانية تكريماً له، والذي يرى أن القرآن هو المصدر الوحيد الذي يجب أن نستقي منه أحكام الشريعة، والأحاديث لا يعتد بها في هذا الشأن لتأخر تدوينها، ولأن أكثريتها أحاديث آحاد لا تفيد يقيناً، كما يحلّ الربا البسـيط في التجارة والمعاملات، ويرفض عقوبة الرجم والحرابة، وينفي شرعية الجهاد لنشر الدين.

(8) انظر: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الشيخ أبو الحسـن الندوي، ص: (٧٥- ٧٦).

في البداية: (مدرسة المحمديـين) لتكون فخاً يصيدون به أبناء المسـلمين لتربيتهم على الأفكار الغربية(١).

وتم إدخـال ما لا عـلاقة له بالعـلم التجريبي إلى بعـض الكليات والمعـاهد فـي العـالم الإسـلامي كالرقص، والغناء، والموسـيقى، والتمثيل، والنحـت، تحـت اسـم (الفـنون الجميلة)(٢)، وهي الأمور التي كان يمكن أن نخـرجها من بين العـلوم الغربية المفـيدة لو طبقنا طريقة التميـيز بين الخـير والشـر القادم من الغرب بمقياس الشـرع حـيالها.

يقول قاسـم أمين: "لعـل أكبر الأسـباب فـي انحـطاط الأمة المصرية تأخـرها فـي الفـنون الجميلة: التمثيل، والتصوير، والموسـيقى... هذه الفـنون ترمي جميعـاً عـلى اخـتلاف موضوعـها إلى غاية واحـدة هي تربية النفـس عـلى حـب الكمال والجمال، فـإهمالها هو نقص فـي تهذيب الحـواس والشـعـور"(٣).

وفي إعـجاب كبير بما توصل إليه الغرب بثورتهم عـلى الأصولية (الدين)، وأذكر هذا الكلام بطوله لأنه يكفي في التعبير عن الإعجاب بالعلمانية، وماذا تعني العلمانية التي يعتنقها بعض من ينتمي إلى الإسلام في عصرنا، ومدى علاقتها بالعلمانية الغربية، وأنها صورة طبق الأصل منها، لقد قام الكاتب بشرح ذلك كله بإبداع فائق، كما أنه أعطانا صورة عن موقفه المتشبع بعشق العلمانية التي يسميها هو: (تنويرية)، ولكنها الظلام بحق، والله المستعان، يقول الكاتب هاشـم صالح٤: "فـي وقت تسـيطر فـيه مشـكلة الأصولية والأصوليـين على العالم كله لا أجد لي عزاء إلا أن أغطس فـي الزمن وأعود إلى الوراء لكي أرى كيف حلت أوروبا مشـكلتها مع أصوليتها. إن مشـكلة الأصولية هي مشـكلة المشـاكل، أم المشـاكل. ولن يسـتطيع المثقفـون العرب أو المسـلمون تشـخيصها وعلاجها إلا بعد مرور زمن طويل. إنها سـوف تسـتغرق خيرة جهودنا طيلة هذا القرن أو حتى منتصفـه على الأقل. إنها من الضخامة والاتسـاع بحيث تتجاوز مقدرة جيل واحد، وإنما يلزمها مرور عدة أجيال من أجل الإجهاز عليها أو التخلص منها. ولكن هذا لا يبرر لجيلنا أن يقف مكتوف الأيدي أمام ما

(1) انظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، ص: (٤٢).
(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي، د. جميل عبد الله المصري، ص: (١٩٦).
(3) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد ص: (٨٢).
4 - كاتب سـوري مقيم في باريس.

يحصل. فـ ـالمشـ ـكلة لن تنحل من تلقاء ذا ا، وإنما ينبغي أن يضطلع ا المفـ ـكرون من كافـ ـة الاختصاصات والمشـ ـارب. وإذا ما نظرنا إلى التجـ ـربة الأوروبية في التنوير[1] وجدنا أ ا كانت صعبة ومريرة. فالمعركة استغرقت ثلاثة قرون متتالية، كل فلاسفة أوروبا جيشوا طاقا م. إن كل مثقف عربي لا يعتبر مشكلة الأصولية بمثابة المشكلة الأساسـ ـية لعصرنا ليس مثقفاً ولا يستحق هذه التسمية بأي حال. فالمثقف هو ذلك الشخص الذي يشعر بأنه مهموم بقضايا شعبه وأمته. فبدلاً من القراءة المنغلقة، بل والإرهابية التي يقدمها المتزمتون عن تراثنا الإسلامي، كان ينبغي أن نولد قراءة جديدة لنفس التراث **كما فعل فلاسفة التنوير الأوروبي مع تراثهم المسـ ـيحي**. فلو أن هؤلاء الفلاسفة قالوا بينهم وبين أنفسهم: أن معظم شعبنا أصولي أو يتبع الأصوليـ ـين في تفسـ ـيرهم للدين، وبالتالي فينبغي علينا أن نلتحق بالشعب ونستسلم للمقادير.. لو قالوا ذلك لما حصل أي تطور في أوروبا. كانت أوروبا ستظل جاهلة، متخلفة، تتخبط في حرو ا الأهلية والمذهبية حتى هذه اللحظة. فالوفاء للشعب يعني إنقاذ الشعب من تصوراته الخاطئة، والآن أطرح هذا السؤال: هل يستطيع مثقف عربي واحد أن يقول: إن العصر الذي نعيشه هو عصر مستنير؟ أقصد العصر العربي أو الإسلامي بالطبع وليس العصر الأوروبي، لأننا نعاصر الأوروبيـ ـين زمنياً لا فكرياً ولا عقلياً، من يجرؤ على ادعاء ذلك؟ لا، إنه عصر الأصولية الظافرة، عصر الضجيج والعجيج، عصر طالبان وبقية الجحافل الزاحفة على التاريخ. أكثر ما نستطيع قوله هو أننا نحضر لعصر تنويري عربي ـ إسلامي مقبل. ذلك أن الموجة الحالية سـ ـوف تنكسر أو تنحسر عما قريب. وبانحسارها سـ ـوف

(1) "حركة التنوير: هي تلك الحركة الفلسفية التي برزت في ألمانيا أولا باسـ ـم autklauun، ثم انتقلـ ـت إلى فرنسا وإنجلترا وباقي دول أوربا على امتداد القرون: السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر مـ ـصاحبة لعـ ـصر النهضة الأوربية، وقد أخذت شكل الثورة على تقاليد الكنيسة؛ بسبب محاربتها العلم، مستخدمة العقل والأسـ ـاليب التجريبية في تغير نمط الحياة بما فيها من علم ودين وأخلاق وسـ ـياسة دون اعتبار للعادات والتقاليد، أو مـ ـا تـ ـراه السلطة السـ ـياسـ ـية بحجة الكشف عن الحقيقة وتأمين السعادة، وإعادة تشكيل المؤسسات على نحو يكون أشـ ـد قدرة على توفير التقدم الاجتماعي والانسجام. وكان تأثير الحضارة الإسلامية، وبخاصة كتب الفلـ ـسـ ـفة والعلـ ـوم الرياضية والتطبيقية على العقلية الأوربية من أهم أسباب تنوير العقلية الأوربية وتسليحها بسلاح العلم والمعرفة مقابل نظريات الكنيسة الجامدة، إذ تلقى قادة هذه الحركة أمثال روجر بيكون صاحب المنهج التجريبي في أوربا علومه في الأندلس، وكذلك علامة الغرب في علم الرياضيات ليونارد بيزانو تلقى علومه عن طريق المسـ ـلمين بالقـ ـسطنطينية وغيرها. بالإضافة إلى ما نقل عن طريق الحروب الصليبية وجزيرتي صقلية ومالطا من العلـ ـوم والمعـ ـارف الفكريـ ـة والحربية والتجارية والإدارية"، الموسـ ـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٢/١٠٤٥-١٠٤٦ .

يبزغ نور جديد يكاد يخطف الأبصار،[1] نور انتظرناه طويلاً: أي منذ عدة قرون!. ولكي نقدم مثالاً تطبيقياً على صحة هذا القول يكفي أن ننظر إلى القرن الذي سبق مباشرة عصر التنوير في أوروبا: أي القرن السابع عشر. فقد كان عصراً لاهوتياً خطيراً.. إنه العصر الذي شهد سـيطرة التيار المضاد للإصلاح الديني، العصر الذي حاكم (غاليليو)، وأجبر (ديكارت) على الهرب من فرنسا، وأرعب (سبينوزا).. إنه عصر الحروب المذهبية والأهلية التي اجتاحت أوروبا. إنه عصر الإرهاب اللاهوتي الذي لا يقل جبروتاً عن إرهاب طالبان أو بقية الأصولـيين الحاليـين. ومع ذلك، فبعده بعشرين سـنة فقط، دارت رحى المعركة بين التنويريـين والظلاميـين وكانت النتيجة لصالح التنوير: أي لصالح توليد تفسـير جديد للدين. وهو تفسـير تحريري، لا قمعي ولا ظلامي. هنا يكمن طريق الخلاص: بلورة فهم آخر للتراث الديني غير الفهم السائد والمسـيطر منذ مئات السـنين والذي يحاول الأصوليون إقناعنا بأنه هو وحده الممكن.. هكذا انتصرت أوروبا على نفسها، وحلت عقد ا التاريخية المزمنة المتمثلة بذلك الصدام المروع ما بين العقل اللاهوتي والعقل العلمي أو الفلسفي، كنت قد نبهت أكثر من مرة إلى خطورة لاهوت القرون الوسطى أو فقه القرون الوسطى، هذا اللاهوت الذي يسمح لأي جاهل بان يطلق فتاوى التكفير والتحريم والقتل والذبح..وقلت إن تفكيكه يمثل ضرورة ملحة وعاجلة بالنسبة لكل ا تمعات العربية والإسلامية.ولا يمكن لهذه ا تمعات أن تتقدم إلا إذا فككته لأنه يعرقل حركتها ويشعرها في كل خطوة تخطوها بالخطيئة والذنب[2]. كما أنه أصبح يشعرنا بالعار والخجل والحرج أمام لآخرين"[3]، فهو يشـبه الأصولية التي عاشتها أوربا في زمن ما قبل الثورة الفرنسـية بالعودة الإسلامية والصحوة في العصر الحديث، ثم يعطينا الحل لمشكلة الأصولية (الصحوة الدينية) التي نعيشها، وذلك الحل المقترح هو أن نسلك نفس الطريق التي سلكتها أوربا في التخلص من التسلط الكنسـي الذي عانت منه الأمرين، ثم يثني على

(1) أخشى أن يكون النور الذي قال الله تعالى عنه: (يكَاد الْبرق يخطَف أَبصارهم كُلما أَضاءَ لَهم مشوا فيـه وإِذَا أَظْلَم علَيهم قَاموا ولَو شاءَ الله لَذَهب بِسمعهم وأَبصارِهم إِن الله علَى كُل شيءٍ قَدير) (البقرة:٢٠) .

(2) إن عقيدة الخطيئة والذنب لدى النصارى تعني: أن الذنب الذي قام به آدم عليه السلام حين أكل من الـشجرة التي اه الله عن الأكل منها، لم يكفر عبر أجيال الإنسانية، وبقيت الإنسانية تحمل شؤم الخطيئة الأولى التي وقع فيهـا آدم حتى ولد المسـيح (ابن الله) في زعمهم، وكان صلبه تكفيراً للبشرية عن ذنب أبيهم آدم، إن هذه العقيدة الـتي تناقض العقل، إذا كان يمكن للنصارى أن يشعروا بالخجل في حال اعتقادها، فإنه لا يوجد في العقيـدة الإسـلامية الصحيحة التي جاء ا النبي ﷺ منذ مئات السـنين، ما يحتاج إلى تغيـير اليوم بسبب أنه يدعو إلى الخجل.

(3) جريدة الشرق الأوسط: مقال بعنوان: الأصولية الظلامية والمعركـة التي لا بد منـها، هاشـم صـالح، عـدد: (٢٠٠١-١٢-٢٣).

جهود المفكرين الذين ساهموا في ذلك من مثل تلك الأسماء التي ذكرها في مقاله، وهم الذين جاءوا (بالتنوير)، ثم يحث كل مثقف عربي على سلوك تلك الطريق، فينبغي _ في نظره _ على كل مثقف عربي أن يسعى إلى قراءة التراث الإسلامي قراءة تحررية يفصل فيها بين الدين والدولة كما فعل التنويريون الأوروبيون مع تراثهم المسـيحي، ونسـي أن النور الحقيقي هو الذي جاء به هذا الدين، قال تعالى: (يا أَهلَ الْكتابِ قَد جاءَكُم رسـولُنا يبين لَكُم كَثيراً مما كُنتم تخفُونَ من الْكتابِ ويعفُو عن كَثيرٍ قَد جاءَكُم من الله نور وكتاب مبِين)[1]، وهذا خطاب لأهل الكتاب الذين منهم هؤلاء الذين زعم من التنويريـين، وكان الأجدر م أ م لما رأوا أن الدين الذي عندهم لا يقر م إلى النور بل يبعدهم أن يتوجهوا إلى دين الله الحق الذي هو النور الحقيقي، ولكنهم أبوا إلا الابتعاد عن ظلام الخرافة الذي في ثناياه بصيص من نور الوحي إلى الظلام الدامس الذي لا نور فيه، قال تعالى: (ومن لَم يجعلِ الله لَه نوراً فَما لَه من نورٍ)[2]، وقال: (أَفَمن شرح الله صدره للإِسلامِ فَهو علَى نورٍ من ربه فَويلٌ للْقَاسـية قُلُوبهم من ذكْرِ الله أُولَئك في ضلالٍ مبِينٍ)[3].

وأما الذين يحاولون أن يقضوا على التدين والصحوة التي انبعثت في أعماق المسـلمين اليوم فلا ينطبق عليه سـوى قوله تعالى: (يرِيدونَ أَنْ يطْفئُوا نور الله بِأَفْواههِم ويأْبى الله إِلا أَنْ يتم نوره ولَو كَرِه الْكَافرونَ)[4]، فالعودة إلى هذا الدين هي النور الحقيقي، وأهلها هم أهل التنوير الحقيقيـين، فالواجب هو أن نعود لنطبق الإسلام الحقيقي لا على طريقة كانت[5] وديوي[6] وهيجل[7] ونيتشه[1]، بل على فهم الرسـول ﷺ وعلى فهم السلف الصالح، لا أن نتنكر لديننا كما فعل الأوربيون بكهنو م لما عانوا من الكنيسة الأمرين.

---

(1) سـورة: (المائدة:١٥).
(2) سـورة: (النور: من الآية٤٠).
(3) سـورة: (الزمر:٢٢).
(4) سـورة: (التوبة:٣٢).
(5) أكبر فلاسفة العصر الحديث، ولد في بروسـيا الشرقية في سـنة: (١٧٢٤م) وتوفي عام: (١٨٠٤م)، انظـر: موسـوعة الفلسـفة، لعبد الرحمن بدوي:٤٩٩/١.
(6) فيلسـوف أمريكي برجماتي وعالم تربوي، وناقد اجتماعي، ولد في (١٨٥٩م)، توفي في: (١٩٥٢م)، انظـر: موسـوعة الفلسـفة، لعبد الرحمن بدوي:٤٩٩/١.
(7) فيلسـوف نمساوي، ولد عام: (١٧٧٠م)، نشأ في أسرة ذات مراكز مدنية ودينية، لكنه اتجه إلى الفلسـفة، من مؤلفاته: موسـوعة العلوم الفلسفية – ظاهريات الروح – المنطق – فلسـفة القانون، انظر: موسـوعة الفلسـفة، لعبد الرحمن بدوي: ٥٧٠/٢، ٥٧٥.

ومن أشكال ظهور العلمانية في العالم الإسلامي والتي تبين مدى التأثر بالواقع الغـربي زمن الثورة الفرنسـية، وتحمل نفس العقَد التي نشأت في أذهان الشعوب النصرانية إبـان الحكم الإقطاعي والتسلط الكنسـي: -

التظاهر بالكبت ومن ثم نشدان الحرية:

لقد مرت أوروبا بأيام يملؤها البوس والشقاء والحرمان، في ظل حكم الإقطاعيـين والكنيسة، ولذلك لما ثارت أوروبا، كانت تضع نصب عينيها مبدأ الحرية الذي حرمت منه عدة قرون، ولكن ما هو عسى أن ينشده أدعياء العلمانية في العالم الإسلامي، إن الكبت الذي عانت منه أوروبا لم يمر عشر معشاره على المسـلمين، وإن مر على العالم الإسلامي نوع من أنواع الظلم فهو على نطاق ضيق، ثم لا علاقة له بالدين.

ربما كان يقع الظلم على بعض الأفراد من تسلط بعض الحكام ولكنه لا علاقة له بتنظير أو تقنين، لا من الشريعة ذا ا ولا من الحكام، فالشريعة الإسلامية لا تكتفي بالأمر بالعدل وتحريم الظلم[٢] فحسب، بل تقدم نماذج واقعية من التاريخ الإسلامي رجع فيها الحق إلى أصحابه حتى لو كان الظالم أميراً أو وزيراً، فتطمئن نفس المظلوم إلى أن الظلم الواقع عليه ليس إلا سحابة صيف ستمضي.

فما الذي يسعى إليه العلمانيون في العالم الإسلامي، إنه اللهث وراء الغرب، فإن كان الكبت الذي حصل للغربيـين من جراء ممارسات الكنيسة أو الإقطاع داعياً لهم لكي

---

(1) فيلسـوف ألماني، مؤسس فلسـفة القوة، ومن أكثر الفلاسفة تأثيراً في القرن العشرين، من مؤلفاتـه: (نـشأة المأساة عن روح الموسـيقى) و(تأملات في غير الأوان) ونحن الفيـلولوجيـين) و(إنسـاني إنسـاني جداً)، توفي عـام: (١٩٠٠م)، انظر: موسـوعة الفلسـفة، لعبد الرحمن بدوي: ٥٠٨/٢-٥١٧.

(2) كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كُونوا قَوامين لله شهداءَ بِالْقسط ولا يجرمنكُم شنآنُ قَومٍ علَى ألا تعدلُوا اعدلُوا هو أَقْرب للتقْوى واتقُوا الله إن الله خبِير بِما تعملُونَ) (المائدة:٨)، وقال: (قَالَ أَما من ظَلَم فَسـوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربه فَيعذبه عذَاباً نكْراً) (الكهف:٨٧).

ينشدوا الحرية التي قد حرموا منها، فما هو الداعي لنقل مرض الكبت إلى بلاد المسـلمين الذين عاشوا بعيداً عن هذه الأمراض النفسـية.

فحين كانت أوروبا تشكوا من القهر الواقع على شعو ا من الإقطاع الظالم كانت حياة المسـلمين في ظل حكم الدولة الإسلامية، هي حياة نعيم وبسط من العيش، حتى كان المكلف بأداء الزكاة ليجد العناء في البحث عن من يستحقها.

ولكن العلمانيـين مصممون على المحاكاة الممقوتة إلى حد التقليد الأعمى، فصاروا ينعقون بطلب الحرية الزائفة كما نعق أولئك، لا لأ م فقدوا الحرية في ظل الإسلام، بل لأ م يريدون محاكاة الغرب في كل صغيرة وكبيرة في عقلية جامدة تأبى ترشيح الخير من الشر، كعقلية: (طه حسـين) عندما قال: "سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج، ولا التواء، وهي: أن نسـير سـيرة الأوروبيـين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب"[1]، أو لأ م يريدون هدم الإسلام ومحاربة شعائره بدعوى الحرية.

ففي الوقت الذي أعطى الإسلام الحرية الكاملة للمرأة في ما لا يمس بحرمتها وكرامتها، نجد دعاة العلمانية يتهالكون على الدعوة إلى حرية المرأة، يقول حسـين مؤنس: "وقد ا ارت ا تمعات الشرقية كلها بسبب ظلمها للمرأة وحرما ا إياها من مكا ا وحقها الطبيعيـين، وهذه حقيقة لم يتنبه لها معظم من يدرسـون تواريخ هذه الدول الشرقية من المشارقة ولكنها معروفة للدارسـين من أهل الغرب لأن مجتمعهم ((يقوم على المرأة والرجل مجتمعين، ومن ثم فهم يعرفون أهمية المرأة في ا تمع الإنساني، ويشيرون إلى ذلك ويقررون أنه أساس تقدم مجتمعهم على غيره من ا تمعات، وهذه الحقيقة _ على ما يبدو من بساطتها _ تفرق بين مجتمع ومجتمع وحضارة وحضارة، بل هي الحد الفاصل بين الحضارات التي أينعت وعاشت والحضارات التي ذبلت وماتت)).

والحضارة المصرية القديمة من الطراز الذي أعطى المرأة حقها واعترف ا ومنحها حقها كاملاً في البيت وفي ميدان العمل والحياة، بل إن عينك لا تقع على رسم مصري قديم إلا وجدت المرأة فيه إلى جانب الرجل ورأيتها رافعة الرأس تسـير معه وتعمل معه... وحضارة مصر مشتركة من هذه الناحية الأساسـية مع حضارتنا الراهنة وأنا أقول

(1) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسـين: ٢٢٩/٢.

حضارتنا لأنك سترى أن ما نسميه اليوم بحضارة الغرب إن هو إلا الحضارة المصرية القديمة متطورة في اتجاه مستقيم"[1]، ففي نظره أن المجتمعات الشرقية (الإسلامية) انهارت !! وكان السبب لانهيارها هو ظلمها للمرأة!! والعلاج لما حصل لهذه المجتمعات هو إما الاقتداء بالحضارة الغربية التي تقوم على سواعد الرجال والنساء معاً _ في حال مختلطة فينتجون للبشرية أدوات التحضر أحياناً، وينتجون الأولاد غير الشرعيين أحياناً أخرى!! _، أو الاقتداء بالحضارة الفرعونية القديمة التي عجت بأنواع الخرافات. ولكن من يقول: إن المجتمعات الشرقية (الإسلامية) قد انهارت، إن الضعف الذي عانت منه المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة لا يمكن أن نعتبره انهياراً بحال من الأحوال، ثم إنه من غير المعقول أن لا نجد لحالة الضعف التي مرت بها الأمة الإسلامية علاجاً سوى التوجه للغرب العلماني، أو للحضارة الفرعونية المبعدة عن نهج الأنبياء والمرسلين منذ فجر التاريخ، وربما كان كثير منهم حطب جهنم، كما قال تعالى عن آل فرعون: (النار يعرضونَ عليها غُدواً وعشياً ويوم تقُوم الساعةُ أدخلُوا آلَ فرعونَ أشد الْعذَابِ)[2]، لئن انتهجنا هذا النهج الذي يدعونا إليه، فإنه لهو التنكب للصراط المستقيم وابتغاء سبيل المشركين، وهو التشبه بهم بعينه.

وفي مقدمة الدعاة إلى تحرير المرأة في العالم الإسلامي: هدى شعراوي التي ما فتئت تنادي بحقوق المرأة المصرية (المسلمة)، بحجة كبت حريتها، وهي المرأة التي عاشت قروناً متطاولة في ظل الإسلام وتمتعت بكافة الحريات، تقول في حديث لها مع بنات جنسها: "إنه ليسرني حقيقة أن أرى نفسي بينكن في هذه الجمعية المحترمة التي أمكن للمرأة المصرية أن تجيء لتناقش في حقوقها **لأول مرة** في **التاريخ**، وأنه لمما يدعوني إلى الاغتباط والفخر اختياري لإظهار تلك الرابطة بين بنات النيل وأخواتهن في أوروبا"[3]، إلى أن تقول: "والآن قبل أن أعود أرجو أن تسمحن لي أيتها السيدات على طلبكن بإلحاح إبداء الرغبة في اشتراك المرأة المصرية في واجب ((الاتحاد)) الجليل ولنا عظيم الرجاء في أن نصل بفضل نصائحكن الغالية التي نعتبرها السبيل الهادي والنسج على منوالكن الذي نجد فيه خير كفيل إلى تحقيق آمالنا ورغائبنا، ونضع تحت تصرفكن أنفسنا في خدمة مبادئكن ونشر آرائكن"[4].

---

(1) انظر: مصر ورسالتها: (٥١ _ ٥٢).

(2) سورة: (غافر:٤٦).

3 - المرأة وآراء الفلاسفة، ص: (١٤٢)، نقلاً عن كتاب العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٣٤).

4 - المصدر السابق: ١٤٤، نقلاً عن كتاب العلمانية، للشيخ سفر الحوالي ص: (٦٣٤).

وأما تحرير المرأة في الشام فإن "أول كتاب يتحدث عنها لم يصدر إلا سـنة ١٩٢٨م، وهو الكتاب الذي ألفته _ أو ألف باسم _ نظيرة زين الدين بعنوان ((السفور والحجاب)) ولعل ما يثير الانـتباه أن الذي قرظه هو علي عبد الرزاق صاحب ((الإسلام وأصول الحكم)) وكان مما قال: "إني لأحسب أن مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظري في مسألة السفور والحجاب إلى طور العمل والتنفيذ، فلست تجد بين المصريـين إلا المخلفين منهم من يتساءل اليوم عن السفور هو من الدين أم لا ومن العقل أم لا، ومن ضروريات الحياة الحديثة أم لا بل تجدهم حتى الكثير من الرجعيـين المحجبين منهم يؤمنون بأن السفور دين وعقل وضرورة لا مناص لحياة المدنية عنها...أما إخواننا السـوريون فيلوح أن للسفور والحجاب عندهم تاريخ غير تاريخه في مصر، فهم لم يتجاوزوا بعد طور البحث النظري الذي بدأه بيننا المرحوم قاسم أمين منذ أكثر من عشرين سـنة، ولكنهم على ذلك يسـيرون معنا جنباً إلى جنب في الطور الجديد الذي نسـير فيه، **طور السفور الفعلي الكلي الشامل**"[1].

وبدعوى الحرية المفقودة من الغرب، تلك الحرية التي سعد ا المسلمون قبل أن يسمعوا بدعاة العلمانية، أدخلوا ما يسمى بـ (الفن) إلى بلاد المسـلمين وهو يحمل شعار الحرية المزعومة، والتي جعلت منه أداة لمسخ الشعوب، يقول الشيخ محمد قطب: "ولكن الجديد الذي أحدثه التطور العلماني هو إعطاء الشرعية لهذا الهبوط الحيواني، وكشفه في النور، وإعطاؤه صفة الفن، ووضع منتجيه في قائمة المشاهير، بل في قائمة العظماء من الفنانين! وينشغل النقد الأدبي والنقد الفني بتتبع أثارهم وكشف جوانب العظمة الفنية فيهم.. بل يتبجح نقاد فيبحثون لهم عن عظمات نفسـية في وسط الماخور الكبير الذي يعيش فيه هؤلاء وهؤلاء من نقاد وفنانين! لقد سقط الإنسان كله إلى السراديب، وقرر المقام هناك، وأضاء الأنوار على قاذورا ا وعرضها على أ ا البضاعة الحاضرة! لم تعد سراً يستخفي منه. لم تعد قذارة تستنكر.. لم تعد شيئاً يتقزز منه الناس"[٢].

إن حقوق الإنسان التي ضاعت في الغرب منذ تسلط الكنيسة في العصور الوسطى هي التي ضاعت وكانت تحتاج إلى إنشاء منظمة لحقوق الإنسان، أما المسلمون فلا يحتاجون

---

(1) العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٣١).

(2) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٤٩٢-٤٩٣).

لمثل هذه المنظمة، فالنظام الإسلامي قائم على الشورى (وأمرهم شورى بينهم)[1]، وقائم على التناصح فيما بينهم ولولاة أمورهم، ولو كانوا يحتاجون إلى إقامة منظمة لذلك الغرض فلا داعي لمعرفة ما هي الحقوق التي يحتاجها المسلمون من الغرب النصراني الكافر، والذي لا تحمل الحرية التي يطالب ا أي معايـير أخلاقية، إلا إذا كنا نريد أن نزيح الدين الذي يقدم لنا المعايـير الصحيحة، نعم إ ا غاية العلمانين (اللادينين)، ولذلك ينعقون وراء منظمة حقوق الإنسان ويتلقفون كل ما تنادي به في الغرب وينقلونه إلى الشرق.

ومن أحدث ما تنادي به هذه المنظمة، ومن ورائها أدعياء العلمانية من أبناء جلدتنا اعتراضهم على قلة الانفتاح الموجود لدى دول الخليج على شبكة الإنترنت، فإن تلك المواقع الإباحية التي امتلأت ا شبكة الإنترنت لا تلقى رواجاً في هذه الدول، وهذا يعني لدى منظمة حقوق الإنسان هو الكبت وضياع حقوق الفرد في المتعة التي أتيحت له.

يقول د. مشعل القدهي: "فنجد جمعية مراقبة حقوق الإنسان (Human Rights Watch) مثلاً تذم وتنكر بشدة أي محاولات لدول الخليج العربي لحجب الإنترنت ويدعوننا إلى (الانفتاح والحرية)"[2].

ولسـنا نرد على تلك المنظمة التي ليس لديها مقايـيس ولا ضوابط أخلاقية سـوى ما تمليه عليهم أهواؤهم. كما أن الحديث عن ضرر تلك المشاهد على الفرد وا تمع لا يخفى على كل ذي لب.

ولكننا نتعجب من فهم _ أبناء جلدتنا الذي يتكلمون بألسـنتنا ويدينون بديننا من _ العلمانيـين لمعنى الحرية، فإن كانوا يريدون أن يفهموا معناها فليأخذوها من كتاب ر م وسـنة رسـوله ﷺ، لا أن يفهموا معنى الحرية الحقة من أناس أعمى أجدادهم الكبت وصنوف الظلم والاضطهاد، حتى صاروا لا يرومون سـوى التحرر، ولم يستطيعوا أن يرجعوا إلى دينهم المحرف _ الذي هربوا من سـياط قساوسته ورهبانه _ ليستقوا منه مفاهيم الصواب والخطأ؛ فهو ذات المشكلة التي هربوا منها.

---

(1) سـورة: (الشورى: من الآية: ٣٨).

(2) المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت، وأثرها على الفرد وا تمع، إعداد: د. مشعل بن عبد الله القدهي، وحدة خدمات الإنترنت، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية.

المبحث الثالث:

مظاهر تأثر المسلمين بالشيوعية في الجانب العملي:-

سبق تعريف الشيوعية في الفصل الأول من هذا الباب وأ ا: مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي[1].

وكان الحديث في الفصل الأول يختص بجانب الإلحاد الذي تدعو إليه الشيوعية، وكيف قامت الشيوعية بمحاولة نشره كمبدأ أول لفكرة الشيوعية.

(1) الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٩١٩/٢.

وقبل أن نخوض في الجوانب الأخرى التي حاولت الشيوعية نشرها بين الشعوب _ وما يخصنا هنا هو من اقتنع ا في العالم الإسلامي _ لا بد من الوقوف على المعالم الأساسـية للشيوعية ليتضح المذهب، ومن ثم نكون قد عرفنا تطبيقاته التي أخذت عنه.

وفي الأصل الشيوعية سارت على خطين عريضين وفلسفتين أساسـيتين ما فهم الشيوعيون الحياة والفكرة التي قامت عليها الحياة البشرية، وهما: -

١. أن المادة هي أساس كل شيء وأن الدوافع وطرق الحياة ونتائج الأمور يجب أن تفهم على هذا الأساس المادي، إن الاشتراكية المنبثقة عن الشيوعية الماركسـية ما هي إلا نتيجة من نتائج الفكر المادي ا رد الذي يحاول التخلص من المؤثرات الخارجية عن نظام الحس، يقول الباحث أنور الجندي: "تلتقي الماركسـية مع الفكر الغربي في نظرية التفسـير المادي للتاريخ، التي ليست من إنشاء الشيوعيـين وإنما يرد أصلها إلى هيجل، ولا ينفرد الشيوعيون باعتناقها، بل يشاركهم فيها الماديون والدهريون والوجوديون"[1]، وهكذا لما انـتهج ماركس هذا النهج المادي في تفسـير التاريخ، ولم يجعل في اعتباره أي أمر من الأمور الغيبية أو (الميتافيزيقية): توصل إلى هذا المنهج الاقتصادي والسـياسـي ؛ إذن فالاشتراكية منشؤها الفكر المادي الملحد، الذي بنى عليه ماركس نظرته المادية للتاريخ الذي يتطور بناءً على متطلبات المادة وتطورها، لتكون الشيوعية هي الفكرة المناسبة لهذه الفترة التاريخية في نظره.

٢. ما دامت أن المادة هي الأساس فالمادة متطورة وغير ثابتة على حال معين[2]، والحياة يجب أن تكون على هذا الأساس، فلا ينبغي أن تكون الأخلاق والقيم على ثبات بل هي تابعة للمادة المتطورة، يقول ستالين: "والمادية التاريخية _ خلافاً للعلوم الأخرى _ لا تدرس فقط هذه القوانين الخاصة أو تلك من قوانين تطور أشكال معينة لحركة المادة، وإنما هي تدرس القوانين العامة الشاملة للحركة المادية، **وا تمع هو أيضاً شكل لحركة المادة**"[3].

فالعادات والأخلاق الاجتماعية ومعها القوانين الاقتصادية المنبثـقة عن الدين ما هي إلا تطور للمادة التي حكمت الناس ذه الطقوس الدينية اقتصادية كانت أو اجتماعية،

(1) هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام، أنور الجندي، ص: (١٧٨- ١٧٩).

(2) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٣٧٥).

(3) ستالين في كتابه: (المادية التاريخية)، ص: (١١)، من الترجمة العربية نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصـرة للشيخ محمد قطب: ص: (٢٧٨).

يقول (إنجلز): "إن الدين يولد من نظريات الإنسان المحدودة، وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيـين المطلق تقريباً أمام الطبيعة المعادية، وهي محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الأعمى با تمع الذي لا يفهمونه، والذي كان يبدو لهم أنه تعبير عن إدارة سامية. وهكذا كانت الآلهة – وهو الكائنات المهمة الجبارة المسـيطرة على الطبيعة وا تمع، وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الوهمي: الاعتقاد بوجود آلهة متعددة، ثم الاعتقاد بوجود إله واحد"[1].

وكل العادات الاجتماعية والأخلاق المرعية عند ا تمعات البشرية يعتبرها الشيوعيون مبنية على المادة؛ فالاقتصاد هو المحرك لكل تلك الموروثات الأخلاقية، يقول إنجلز: "وهكذا فإننا نرفض كل محاولة لإلزامنا بأية عقيدة أخلاقية مهما كانت على اعتبارها شريعة أخلاقية أبدية، ائية، وثابتة أبدا، بحجة أن للعالم الأخلاقي أيضا مبادئه الدائمة التي تنهض فوق التاريخ وفوق الفوارق بين الأمم.. إننا على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقية قد كانت حتى هذا التاريخ، في آخر تحليل، نتاجاً لأوضاع ا تمع الاقتصادية السائدة في زمنها"[٢]، هنا نشتم رائحة عقدة الدين لدى الغربيـين والتي نشأت عن الظلم الواقع من الكنيسة اللاهوتية والإقطاع، فالإقطاع ما هو إلا نموذج للحياة الاقتصادية التي كان الدين سائداً بحكمها، لكنها كانت تتسم بالظلم للشعوب الفقيرة، مما أنتج الفكر المادي الكافر بالأديان وظهرت المادية الأولى _ في العصر الحديث _ والتي عبروا عنها باللادينية (العلمانية) ثم تمخضت عنها الاشتراكية[3] التي أبعدت في التطرف لسحق هذا الظلم الواقع على الشعوب الأوروبية والذي تمثل في الإقطاع في العصور الوسطى، وأخذ شكل الرأسمالية العلمانية في العصر الحديث.

وهكذا فالمبادئ الأخلاقية التي سار عليها الناس ديناً وعرفاً منذ فجر البشرية لا تعترف ا الشيوعية، جاء في كتاب المادية التاريخية "إن الماركسـية تنتقد دون ما تحفظ

---

(1) أصول الفلسـفة الماركسـية (٢٩٦/١-٢٩٧ من الترجمة العربية)، نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٢٩٤).

2 - (ص: ١١٥ من الترجمة العربية لكتابه أنتى دوهونج)، نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب ص: (٢٩٧-٢٩٨).

(3) الإنسان بين المادية والإسلام، للشيخ محمد قطب، ص: (٦٠).

محاولات علماء الاجتماع البرجوازيين[1]، والبرجوازيين الصغار، لجعل الاشتراكية قائمة على أساس أخلاقي"[2].

يقول (إنجلز)، مبيناً موقف الشيوعية من مشروعية المحرمات من النساء على الرجال بوصفها الأساس الفكري الذي يخلق الغيرة: "ولئن كان ثمة أمر أكيد فهو أن الغيرة عاطفة نشأت في عهد متأخر نسبياً، وهذا يصدق على مفهوم (المحرم) لأن الأخ والأخت لم يكونا وحدهما يعيشان في الأصل كما يعيش الزوج والزوجة، بل إن العلاقات الجنسية بين الآباء والأولاد مسموح ا أيضاً لدى شعوب عديدة حتى اليوم وقبل اختراع المحارم _ لأن المحارم اختراع حقاً، بل اختراع ثمين جداً _ لم يكن الوصال الجنسي بين الآباء والأبناء ليثير من الاشمئزاز أكثر مما يثيره الوصال بين أشخاص من أجيال مختلفة – كذلك الذي يحدث فعلاً اليوم حتى في أكثر البلاد تظاهراً بالتزمت – دون أن يثير النفرة الشديدة"[3].

وتبعاً لتطورات المادة تتطور الأسرة بأشكالها المتعددة، جاء في كتاب: (المرأة والاشتراكية): "لا تشكل الأسرة كياناً اجتماعياً خالداً، ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون، وهذا التطور يتحدد في التحليل الأخير **بالعامل الاقتصادي**"[4]، ولذلك فهم يتصورون أن نظام الأسرة السائد اليوم والمكون من أب وهو رب الأسرة وأم وهي شريكة هذا الأب في بعض المهام وبعض المسؤوليات، وأطفال ينشؤون في كنف الأسرة، هذا المفهوم للأسرة يعتبرونه ناشئاً لحلقات درج فيها النظام الأسري وتطور، ويسلكون في شرحها نفس الطريقة التي سلكوها في قضية تطور الكائنات والتي استمدها الشيوعيون من نظرية: (النشوء والارتقاء)[5]،

(1) البرجوازيون: هم مالكوا وسائل الإنتاج، ويعبر عنهم الشيوعيون بالطبقة البرجوازية، انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٣١١/١٤.

٢ - (ص٤٧١-٤٧٢ من الترجمة العربية): نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب ص: (٣٠٠-٣٠١).

3 - في كتاب: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة أديب يوسف، ص: (٥٣-٥٤) نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٣٠٣).

4 - المرأة والاشتراكية، لـ(جان فريفيل)، ترجمة جورج طرابيش، ص: (١٧) من الترجمة العربية، انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٣٠٣).

(5) "النشوء والارتقاء هي النظرية المعروفة بنظرية التطور. تقوم هذه النظرية على القول بأن أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك وأ ا بدأت من خلايا حية بسيطة تكونت، في زعمهم، عن طريق المصادفة عبر عمليات كيميائية مركبة، ثم تطورت إلى كائنات كبيرة معقدة. وفي بداية النظرية، في عصر داروين، كان الفكر السائد هو أن هذا التطور تم بسبب تأثير عوامل طبيعية كالبيئة والمناخ وموارد الغذاء وطرق الحصول عليه. أما في الوقت الحالي، فإن الداروينية الجديدة تركز على أن التطور تم بسبب الطفرات أو التغيرات المفاجئة في التراكيب

وعــلى النحو نفسه يتخيلون تطوراً للأسرة من أسرة الجيل إلى أسرة الشـركاء إلى الأسرة الزوجية إلى الأسرة الوحدانية[1]، ويشرحون ذلك: بأن الأسرة كانت في البداية عــلى أساس التزاوج المباح بين أبناء الجيل الواحد عــلى سبيل التبادل[٢]، ثم انتقلت إلى نظام العــشائر الذي يشترك فيه الناس في قضية التناسل عــلى حد ســواء في حدود العــشيرة[٣]، ويقصدون بنظام الأسرة الزوجية هو: ما كان الزواج فيها بناء عــلى إعــطاء الرجل أكثر الامتيازات، وأما الأبناء فهم من حق المرأة[٤]، والأسرة الوحدانية هي التي أعطت الحق في الأولاد للرجل فقط فلا ينسبون إلا إليه، وليس لأحد أن يفصل رابط الزوجية ســوى الرجل وحده، فيكون التسلط التام بيده[5].

وأما التطور الذي تريد أن تحدثه الشيوعية على ضوء النظرة المادية التي أحدثت كل فترات التاريخ الأسري فهو نظام شيوعية الجنس والنسل، حتى تلغى كل أنواع الملكية الفردية، حتى ملكية الأولاد التي تختفي وراءها غريزة حب التملك خوفاً عليهم أثناء الحياة من الفقر والحاجة، كما أ ا خلفية التوريث لهم؛ إشفاقاً عليهم من نوائب الدهر بعد موت الوالدين[6]، يقول إنجلز: "إن العلاقات بين الجنســين ستصبح مسألة خاصة لا تعني إلا الأشخاص المعنيــين وا تمع لن يتدخل فيها، هذا ســيكون ممكنا بفضل إلغاء الملكية

الجزيئية المسؤولة عن الوراثة" الموســوعة العربية العالمية، ص: (٢٥٠)، ولقد ثبت إفلاس هــذه الفرضــية، انظــر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: (٣٢١).

(1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٣٠٢).

2 - يقول إنجلز: "في هذه المرحلة (أسرة الجيل) تصنف ا موعات الزواجية تبعاً للأجيال، جميع الأجداد والجدات ضمن حدود الأسرة هم أزواج وزوجات بالتبادل، وكذلك الأمر في أولادهم: الآباء والأمهات، كما أن أولاد هؤلاء يؤلفون هم أيضا حلقة ثالثة من الأزواج والزوجات المشتركين. ويؤلف أولاد هؤلاء أعني أولاد الأحفــاد للأجــداد والجدات حلقة رابعة، وهكذا: في هذا الشكل من الأسرة يحرم السلف الخلف فقط – الآباء والأولاد – من حقــوق وواجبات زواج أحدهم بالآخر" إن أسرة الجيل قد انقرضت وحتى أخشن الشعوب التي يتحدث عنها التاريخ لا تمدنا بأمثلة على هذا الشكل يمكن التثبت عنها" كتاب " أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة " (ترجمة أديــب يوســف ص٥٦-٥٧ من الترجمة العربية)

3 - انظر: نفس المصدر السابق.

4 - يقول إنجلز في كتاب: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة أديب يوسف ص: (٧٢-٧٣): "في هذه أي المرحلة يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحدة، لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يظلان من امتيازات الرجال، وإن لم يكن تعدد الزوجات يمارس إلا نادراً لأسباب اقتصادية فقط، وفي الوقت ذاته يطلب من المرأة الإخلاص التــام طوال فترة العيشة المشتركة، فإذا زنت عوقبت بقســوة.. غير أن رباط الزيجة يمكن حله من قبل أي الطرفين، فيرجع الأولاد إلى أمهم كما كان الأمر في السابق" نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٣٠٣).

(5) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٣٠٤).

(6) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٣٥٠).

الخاصة، وبفضل تربية الأولاد على نفقة ا تمع، وبنتيجة ذلك يكون أساسا الزواج الراهنان قد ألغيا، فالمرأة لن تعود تابعة لزوجها ولا الأولاد لأهلهم، هذه التبعية التي ما تزال موجودة بفضل الملكية الخاصة"[1].

والافتقار إلى المادة هو الذي يؤسس الدين ومن أجله اخترع الناس التدين، يقول إنجلز: "ومادام ا تمع قد تطور حتى الوقت الحاضر ضمن التضادات الطبقية، فإن الأخلاق كانت على الدوام أخلاقاً طبقية، فهي إما أن تبرر سلطة الطبقة الحاكمة ومصالحها، وإما أن تمثل – حالم ا تحوز الطبقة المضطهدة ما يكفي من القوة – التمرد على تلك العقيدة، ومصالح المضطهدين المقبلة في الوقت نفسه"[(٢)].

وحتى الاقتصاد لدى ا تمعات لم تتكون نظرياته إلا تبعاً ريات المادة عبر التاريخ، فما كان الأصلح للمجتمعات البدائية (وهي ما يعبرون عنه بالمشاعية البدائية) هو الذي تم إقراره في تلك الأزمنة من التاريخ، وحين تتغير تلك ا تمعات فتصبح مجتمعات مدنية متحضرة تتغير معها النظرة الاقتصادية لتصير أكثر تحضراً وتعقيداً، فالثبات منعدم في كل ذلك، يقول أحد الشارحين للمذهب الشيوعي: "لقد ولدت علاقات الإنتاج الجماعية في النظام المشاعي البدائي عادات وتقاليد جماعية وأخلاقاً جماعية عند الناس البدائيين، وعندما واجه الناس في مجرى تطور القوى المنتجة علاقات أصبح فيها التمتع الشخصي ببعض الأشياء أكثر سهولة لعملية الإنتاج، تغيرت أراء الناس أيضاً، أصبحت الملكية الشخصية لبعض الأشياء .. وهي الملكية التي كانت تعتبر في المراحل السابقة لا أخلاقية، أو غير طبيعية وغير معتادة على أقل تقدير، أمراً لا ضير فيه، ولا يتعارض مع المصلحة العامة"[3].

وبناءً على ما سبق فإن الأسس الفكرية العلنية التي تستقي منها الشيوعية آراءه ا وتطبيقا ا تتلخص في نظر ا المادية البحتة للكون والحياة والتاريخ والدوافع الإنسانية، وكل ذلك استقاءً من بعض المصادر التي غذت روح النظرة المادية التي قامت عليها الشيوعية: وتلك المصادر التي غذت هذا المذهب: هي بعض النظريات وفي مقدمتها: نظرية التطور

1 - كتاب (المرأة والاشتراكية)، ص: (٥١) من الترجمة العربية، نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٣٠٤).

(2) الترجمة العربية لكتاب: (أنتي دوهرنج)، ص: (١١٥). نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب ص: (٢٩٨).

3 - ايرزرين ورفيقه في كتاب: النظرية الماركسية اللينينية في المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ترجمة خيري الضامن، ص: (٤٣٩) من الترجمة العربية، نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٢٩٧-٢٩٨)

الداروينية، وجدلية هيجل المادية والتاريخية. ومن هذه المنطلقات المادية البحتة التي لا تعترف بما وراء الحاسة تبلور المذهب الماركسـي بعقائده وسـياسته ونظامه الاقتصادي.

ولذلك كان من الجدير بالأوفياء للمذهب الشيوعي في البلاد الإسلامية أن لا يظهروا التنكر للدين كاملاً، وأن يتبنوا موقفاً فيه نوع من الحياد بالنسبة للدين والتدين عموماً حتى لا تنكشف اللعبة ويتضح ما فيها من زيف؛ فالمادية التي تنكر كل ما وراء المشاهد المحسـوس لا تجد قبولاً لدى أبناء المجتمع الإسلامي حتى الذين ابتعدوا عن الدين قليلاً، يقول باحث يساري[1]: "إن التدين من العناصر الأصيلة في تكويننا الحضاري، والتدين أحد الأسلحة الخطيرة في أيدي اليمين؛ ولهذا كان المنتمي إلى اليسار في موقف رد الفعل من الدين والمتدين معاً بصفة عامة، إنه يجد نفسه وجهاً لوجه أمام نقطة شائكة، وهي: أن أدوات التـغـيـير ليست صناعة محلية، إنه في مأزق لم يعرفه الثوري في الغرب، وهو مأزق نفـسـي مرير، فـبـيـنـما يتسلح الأوروبي بالماركسـية ـ وهي صناعة أوروبية ـ في وجه الدين المسـيحي ـ وهو بضاعة مـسـتـوردة ـ يـفـاجأ الثوري في الشرق بأنه يقف في الطرف المقابل، يستورد الفكر ونظريات التغيـير من أوروبـا، ليواجه حضارة متدينة من آلاف السـنين؛ لهذا: يكون موقف المنتمي إلى اليسار في بلادنا هو رد فعل لجوهر هذه الحضارة، وردود الفعل تتسم بالتضخم والانفعال والمبالغة، ومن ثم: يصبح الموقـف من الدين هو نقطة البدء عند اليساري العربي، وليس كذلك موقف اليميني من الـدين؛ لأنه يرى فيه منذ البداية مسـنداً مريحاً للكسل العقلي، وعاملاً خطيراً في توطيد مـصالحه الاجتماعية، فأغلبية الجماهير الشعبية متدينة وجاهلة، وبالتالي: يمكن الاعتماد عليها من هذه الزاوية، خاصة إذا كانت هي الهدف في الاستغلال الاجتماعي"[2]، يقول الكاتب عبد اللطيف بو عبد الولي معلقاً على هذا المقال: "كان يتمنى الكاتب لو لم توجد هذه العقبة في وجه اليساري العربي، حتى يجد الطريق ممهداً لبسط

---

(1) اليسار ينقسم إلى قسمين: اليسار الجديد واليسار القديم، فاليسار الجديد حركة سـياسـية واجتماعية متطرفة راديكالية ظهرت في الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين في الولايات المتحدة. وقد ضم اليسار الجديـد العديد من طلبة الكليات وغيرهم من الشباب وسميت الحركة بهذا الاسم للتفرقة بينها وبين اليسار القديم الذي ظهـر في الثلاثينيات من القرن العشرين. وكانت تقود اليسار القديم بصورة عامة : الأفكار الماركسـية. طالـب أعـضاء اليسار الجديد بإجراء تغيـيرات جارفة وجذرية في المجتمع الأمريكي؛ وهاجم الأعضاء معظم المؤسسات الرئيـسـية نتيجة إعلانها تأيـيد المبادئ الديمقراطية مع فشلها في إزاء مظالم مثل الفقر، والتفرقة العنـصرية، والفـوارق بـين الطبقات. وعارض الكثير من اليساريـين الجدد الرأسمالية واعتقدوا أن الرغبة في تحقيق الأرباح تؤدي إلى الإمبرياليـة وهي سـياسة تفضل مد النفوذ ليتعدى إلى دولة أخرى. انظر: الموسـوعة العربية العالمية: ٣٠٤/٢٧.

(2) انظر: مقال للدكتور غالي شكري، في: لعبة اليمين واليسار، د.عماد الدين خليل، ص: (٥٨).

مقولاته، كما فعل رفيقه في الغرب، ولكن ما دام الواقع غير ما يتمنى فعليه أن يكيف مقولاته مع هذا الواقع، وذلك حتى يوجه مؤسسة الدين لخدمة توجهه، وانتزاعها من قبضة اليمين (فإن الدين كان وما يزال مؤسسة قوية من مؤسسات اليمين)! يتخذه تكأة لتزكية الأوضاع القائمة والمحافظة عليها. وجب إذن تفسـير النصوص الدينية تفسـيراً ثورياً تقدمياً، بدل التفسـير الرجعي المتخلف الذي يعكس الاختيارات اليمينية المحافظة"[1].

ولذلك فإن التأثر بهذا المذهب في العالم الإسلامي والذي يظهر من خلال تبني بعض الأفكار الشيوعية، والتغني بالنظريات الاقتصادية الماركسـية، إذا غضضنا الطرف عن كون هذه النظريات مأخوذة من معين غير المعين الإسلامي الصافي، فإنه لا يمكننا أن نتصور هذه الأفكار _ اقتصادية كانت أو اجتماعية _ بعيداً عن الفلسـفة المادية البحتة التي قامـت عليها، والتي تنكر الشرائع وتنكر كل ما وراء المشاهد المحسـوس، إن نظرية تبنى على هذا القدر من المادية ليس من شأنها أن تغير أنماط الحياة الإسلامية إلى أنماط أخرى فحسب، بل من شأنها أن تهدم الدعائم الأساسـية للعقيدة الإسلامية.

وأعرض هنا لبعض النماذج من التأثر بالنظرية الشيوعية مـن الناحيـة العمليـة في مجتمعات المسـلمين:-

لقد اندفع المفتونون من أبناء المسـلمين لتطبيق النظم الاشتراكية، معتذرين بأن نظام الإسلام الاقتصادي لا توجد دولة تطبقه حقاً[2]، أو بغـير ذلك من الأعذار الواهية، وكان من أبرز مظاهر التأثر بهذا المذهب الماركسـي ما حصل من بعض أبناء الأمة الإسلامية الذين اقتنعوا بهذا المذهب كواجهة اقتصادية براقة تحمي الشعوب من تسلط الطبقات الحاكمة في زعمهم، فما إن تأسس الحزب الشيوعي اللبناني عام: (١٩٢٤م) _ على يد مجموعة من الشباب اللبنانيـين، بإشراف اليهودي: (جوزيف بيرجر)[3]، بعد اقتناعهم بالأفكار الشيوعية كالإخاء البشري، والتحرر من القومية والدين، والفردوس الأوحد الذي يدعى: الاتحاد السـوفياتي[4] _ وتأسس الحزب الشيوعي الفلسطيني في عام (١٩١٩م)، حتى رأى العالم بعض أبناء المسـلمين المنخدعين بشعارات تلك الأحزاب ينخرطون في

---

(1) مقال بعنوان: (اليسار العربي وصلته بالنص القرآني) بقلم: عبد اللطيف بو عبد الولي، البيان العـدد: (١٠٤)، ربيع الآخر، ١٤١٧هـ.

2 - انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٦٦٦).

(3) يهودي من خبراء شؤون الشرق الأوسط، كان يقيم في حي من أحياء اليهود بلبنان، انظـر: تجربـة عـربي في الحزب الشيوعي، قدري قلعجي، ص: (٤٩).

(4) انظر: تجربة عربي في الحزب الشيوعي، قدري قلعجي، ص: (٤٩- ٥٠).

العمل فيها، مشكلين بذلك أعظم تأثر بالفلسـفة الماركسـية المادية التي لا تؤمن بما وراء المادة، وهم بذلك لا يشكلون خطراً على واقع الأمة وتميزها فحسب، بل يتركون صدعاً في عقيدة كل من يدعو إلى هذه الأفكار المادية البحتة.

"وبدأت الاشتراكية في البلاد الإسلامية على شكل (موضة) بواسطة بعض الكتاب النصارى، وبعد ظروف إ اء الدولة العثمانية وفدت الشيوعية إلى مصر يحملها يهود (سـنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، وسـنة ١٣٤٦هت/ ١٩٢٧م). وفي سـوريا أسس الحزب الشيوعي يهود (سـنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)"[1]، وفي المغرب العربي تم إنشاء ما يسمى بـ (حزب التقدم والاشتراكية) ذيلاً للحزب الشيوعي الفرنسـي، تحـت قيادة (ليون سلطان) في عام ١٩٤٣م، وهو يهودي مغربي كان يعمل في سلك المحاماة[2].

وحاولوا بذلك الجمع بين الإسلام والنظام الاقتصادي الذي جاء به (ماركس)، وجهلوا أو تجاهلوا "أن الماركسـية قد بنيت بناءً كلياً على الإلحاد بالله، ومقاومة كل دين يصل الإنسان بإله معبود"[3]، يقول الشيخ محمد قطب: "ليست الشيوعية مذهباً اقتصادياً بحتاً كما يتبادر إلى ذهن كثير من الناس حين يسمعون لفظة الشيوعية، وإن كان لها ولا شك مذهب اقتصاديـي محدد متميز، إنما هي تصور شامل للكون والحياة والإنسان ولقضية الألوهية كذلك، وعن هذا التصور الشامل ينبثق المذهب الاقتصادي. ثم إ ا من جهة أخرى مذهب اقتصادي واجتماعي وسـياسـي وفكري مترابط متشابك لا يمكن فصل بعضه عن بعض. ومن ثم فلا يمكن عزل المذهب الاقتصادي وحده بعيداً عن التصور الشامل الذي ينبثق عنه، أو بعيداً عن الأوضاع الاجتماعية والسـياسـية والفكرية المصاحبة له؛ ففي جميع الحالات لا يمكن فصل المذهب الاقتصادي عن الفكرة الإلحادية، وعزله عن التصور الشامل الذي انبثق عنه، ولا عن الأوضاع الاجتماعية والسـياسـية والفكرية المصاحبة، كما أنه لا يمكن تركيبه على تصور آخر، ولا على أوضاع سـياسـية واجتماعية وفكرية مغايرة. وليس هذا خاصاً بالشيوعية إنما هو من طبيعة كل تصور، وكل أوضاع ناشئة عن ذلك التصور"[4]، فهل يعني تطبيق بعض الحكومات العربية لنظام الاشتراكية أ ا آمنت ذا الفكر من ألفه إلى يائه؟! وإلا كيف يفهم أن يطبق نظام كهذا وينادى به في الأحزاب وتكون له

1 - تسامح الغرب مع المسـلمين في العصر الحاضر، لعبد اللطيف الحسـين، ص: (٢٢٧).

٢ - مقال بعنوان: (من تاريخ الأحزاب الشيوعية العربية وموقفها من قضية فلسطين)، بقلم: د. محمـد آمحـزون، البيان العدد: (٨٩)، محرم، ١٤١٦هـ.

3 - انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني: ص: (٤٣٨).

(4) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٢٥٩).

الكراسـي الانتخابية، هل كل هذه النداءات لهذا الشعار هي على أساس الإيمان بفكرته المادية الأساسـية؟ أم لها رصيد آخر من الأسباب المادية _ كذلك _، من افت الغوغاء على من يحمل تلك الشعارات، وغير ذلك من الأسباب المادية التي تحقق الكسب الانتخابي، ومن وراء ذلك إيقاع الجماهير الإسلامية في التشـبه بأعدائها من حيث لا تفقه أو تفقه.

ومما لا يخفى في عالمنا الإسلامي ما خاضه حكام اليمن الجنوبي من محاولات آثمة لتطبيق هذا النظام الاشتراكي، ولكنهم وإن أفلحوا في تطبيق هذا النظام فإ م لم يستطيعوا المضي في تطبيقه؛ لعجز هذا النظام أصلاً عن إصلاح واقع الأمة[1].

ولقد قام حزب البعث العراقي على النظام الاشتراكي وإن لم يكن تطبيقه هناك بنفس الدقة بالنسبة لما حصل في اليمن الجنوبي، وتصريحات حزب البعث الاشتراكي، بل وحتى الدستور الذي وضع للبلاد خير شاهد على ذلك.

وإمعاناً في التشـبه بالكفار لم يكتف (الحزب الشيوعي السـوري اللبناني) بالعمل على تكوين قاعدة اشتراكية في ا تمعات الإسلامية، بل أخذ ينحى نفس النحو الذي اتخذته الأحزاب الشيوعية اليهودية من قبل، فقـد استعار أسماء صحفه التي أصدرها من أسماء الصحف التي أصدر ا الحركة الشيوعية اليهودية في فلسطين؛ فاسم (صوت الشعب) وهي الصحيفة السرية للحزب الشيوعي في سـورية ولبنان ترجمة حرفية لاسم الجريدة العبرية للحزب الشيوعي اليهودي (كول عاهام)، واسم (النور) وهي الصحيفة العلنية للحزب التي أصدرها في دمشق عام: (١٩٥٦م) منقول حرفياً عن اسم صحيفة (الحزب الشيوعي الإسرائيلي) التي أصدرها في فلسطين عام: (١٩٣٤م) وعلى نفس المنوال سار (الحزب الشيوعي العراقي) في الخطة نفسها في تعريب الأسماء اليهودية في الصحف التي أصدرها، إذ حملت صحيفته السرية أيضاً عام: (١٩٥٩م) اسم (صوت الشعب) أسـوة بالصحيفة اليهودية (كول عاهام)، وما كان منها إلا أن وقفت وقفتها الشجاعة بعد ذلك مع العدو الصهيوني لتبرز الوجه الحقيقي لها من العداء للإسلام والمسـلمين[2].

ومن أكثر الأحزاب تأثراً بالاشتراكية الشيوعية، يقول منيف الرزاز الأمين العام لحزب البعث: "ارتبط الحزب من جهة ذا التراث العربي ووجد تعبيراته الحديثة في نظرة

(1) انظر: مقال بعنوان: (الشيوعيون والوظيفة الجديدة)، د. محمد يحيى، البيان العدد: (٦٧)، ربيع أول، عـام: (١٤١٤هـ).

2 - انظر: مقال بعنوان: (من تاريخ الأحزاب الشيوعية العربية وموقفها من قضية فلـسطين)، بقلـم: د. محمـد آمحزون، البيان العدد: (٨٩)، محرم، ١٤١٦هـ نقله عن: التاريخ السري للعلاقات الـشـيوعية – الـصـهيونية، الغادري، ص: (١٦٢).

هيغل الجدلية التاريخية وفي استكمال هذه النظرة في جدلية ماركس المادية"[1]، وقد لخص منيف الرزاز لحزب البعث مبادئ وعقائد البعث في كتابه: (ألف باء البعث) ا موع ضمن أعماله الفكرية والسـياسـية _ من ص: (١٤٩) إلى ص: (١٦٢) _، فكان مما قال: "البعث حركة اشتراكية: الاشتراكية مصير حتمي؛ لأن الروح الثورية التي يخلقها النضال القومي في الجماهير تودي بالجماهير الكادحة وقد تحررت من رواسبها، إلى رفض الاستغلال بكل صوره[٢]. والاشتراكية وحدها هي النظام المناقض للاستغلال. الاشتراكية ليست مجرد نظام اقتصادي يتحقق في مستقبل الأيام. إ ا قبل ذلك وعي على القوى الفاعلة في ا تمع، ووعي على مكان هذه القوى من المعركة القومية. الإيمان بالاشتراكية إذن ليس إيماناً بالمستقبل، بل هو إيمان اليوم إيمان في قلب المعركة"[٣].

كما أن الناصرية[٤] تنادي بالاشتراكية فمن مبادئها: الحرية والاشتراكية والوحدة للقضاء على مشكلات العالم العربي الأربعة : وهي الاستعمار والتخلف والطبقية والتجزئة بين أقطار العالم العربي . (وهي نفسها أفكار حزب البعث القومي اليساري : الوحدة، الحرية، الاشتراكية)[5].

ولم تكن الأحزاب الاشتراكية والتي تمثل التيار الشيوعي داخل الصف الإسلامي مقصورة على هذا النوع من التأثر الكلي؛ فهناك أصوات في الانتخابات في بعض الدول الإسلامية تنادي ـذا المبدأ وتعبد الطريق لأدعيائها للوصول إلى السلطة إلى حد قريب، وأما البرلمانات فلم تزل إلى الوقت الحاضر تطرح الأطروحات الاشتراكية كطريقة للإصلاح الاقتصادي[6].

---

(1) (البعث وحركة الإبداع، البعث كحركة إبداع): ٢٠٩/٣، نقلاً عن حزب البعث تاريخه وعقائده، لسعيد بـن ناصر الغامدي، ص: (٦٨).

(2) وهنا نلمس تأثر الكاتب بعقدة الإقطاع، وحنقه على الطبقة الغنية ذات رؤوس الأموال (البرجوازية) التي كان لها أكبر الأثر في نشأة الشيوعية في أوروبا قبل انتقالها إلى روسـيا.

(3) نقلاً عن حزب البعث تاريخه وعقائده، لسعيد بن ناصر الغامدي، ص: (٤٢-٤٦).

(4) الناصرية: حركة قومية عربية، نشأت في ظل حكم جمال عبد الناصر (رئيس مصر من عام ١٩٥٢م-١٩٧٠م)، واستمرت بعد وفاته واشتقت اسمها من اسمه وتبنت الأفكار التي كان ينادي ا وهي: الحرية والاشتراكية والوحـدة وهي نفس أفكار الأحزاب القومية اليسارية العربية الأخرى. انظر: الموسـوعة الميـسرة في الأديـان والمـذاهب والأحزاب المعاصرة: ٤٨٥/١.

(5) انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٤٨٧/١.

(6) مقال بعنوان: (الشيوعيون والوظيفة الجديدة)، د. محمد يحيى، البيان العدد: (٦٧)، ربيع أول ١٤١٤هـ .

وهذه الأفكار التي اقتنع ا بعض أبناء الأمة الإسلامية ألقت بظلالها بـالطبع علـى التعليم والثقافة في العالم الإسلامي، ففكرة التطور الداروينية التي افتتن ا بعض المنتسبين إلى الإسلام لم تزل إلى عهد قريب تدرس في معاهد المسـلمين "على أ ا حقيقة علميـة[1] في مواد كثيرة كالأحياء والتاريخ الطبيعي وعلم الأرض... سـواء ذُكر داروين أو لم يذكر. ونظرية فرويد المتهافتة نجدها مقررة في أقسام علم النفس في الجامعات قاطبة على أساس أ ا نظرية علمية كذلك !. وفي أقسام الاجتماعيات تدرس نظرية دوركاريم، بل يدرس علـم الاجتماع بكامله على المنهج الغربي، ونحن نعلم مما سبق أنه _ كعلم النفس _ بني أصـلاً على أسس لا دينية. وفي أقسام الكيمياء والفيزياء والفلك والطب... الخ تـدرس منـاهج محشوة بإيحاءات فلسفية أو وثنية في العبارات المسمومة مثل ((المادة لا تفنى ولا تستحدث)) ومثل ((خلقت الطبيعة كذا))"[2]، بل وصار رد بعض الأمور العلمية التي لم تظهر أسـبا ا المباشرة إلى (ما وراء المادة) يعد نقصاً في البحث العلمي وسفهاً في العصر المادي الحديث[3]، وكان السبب في تدريس هذه النظريات المستمدة من الشيوعية أن المسـلمين اقتبـسـوا "العلوم الغربية وهي مصطبغة بصبغتها الإلحادية، وإيحاءا ا الفلسفية، وتفسـيرا ا الماديـة، واتجاها ا الإباحية، معتقدين في ذلك "تلازم الأمرين، وتوهموا أن مظاهر الانحلال والفساد هي من ضرورات التحضر والمدنية في جوانبها الصحيحة"[4].

كما أننا نجد أن هذه الفكرة قد لقيت رواجاً في الصحافة، ففي إحدى الـصحف ينشر مقال عن أحداث الفتنة التي حصلت في زمن عثمان ﷺ في صورة ثورة[5] اقتـصادية تشـبه الثورة الشيوعية، فيقول كاتب المقال: "وروى أهل مصر ما كان من أمرهم وأمـر عثمان لأهل المدينة، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا ضيق على عثمان وطالـب بتـسليمه مروان، فانضم أهل المدينة إلى وفود الأمصار وشددوا النكير على عثمـان" كمـا قـال: "وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة النصوح، ويحتجون ويقسمون عليه بالله أن يعطيهم حق الله فإذا لم يفعل قتلوه" وكتب أيضاً ما يفيد أن الصحابة تحولوا إلى جمع المـال

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، د. جميل عبد الله المصري ص: (١٩٦).
(2) العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٠٩).
3 - انظر: العلمانية، للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٠٩).
(4) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد ص: (٧٣).
5- "الثورة: حركة جماعية تضم مختلف عناصر الشعب أو الأمة، بما فيهم الدهماء والغوغاء في حركة خـروج عـن الأوضاع القائمة المضطربة والمنهارة"، الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٣٢/٢.

وتركوا الجهاد[1]، يعلق على هذا المقال: الكاتب سالم علي البهنساوي فيقول: "إنه هنـا يستخدم الفلسـفة المادية في تفسـيرها للتاريخ، فيقدم الأحداث في ثوب ثورة من أهـل المدينة ضد أمير المؤمنين، والمصادر التاريخية تكذب ذلك، فأصحاب الفتنة لم يكونوا أهـل المدينة بل إن الصحابة ا أرادوا حماية عثمان والدفاع عنه فنهاهم عن ذلك وأعلن أن مـن كان في عنقه بيعة فليغمد سـيفه وليلزم بيته. كما أن جهـاد الـصحابة وهجـر م إلى الأمصار لم يكن لهدف مادي بل لنشر الإسلام وحماية عقيدته، كما هو معلوم للجميع"[٢]، والحقيقة أن ما قاله الكاتب في هذا المقام هو إيحاء بالفلسـفة الماديـة الـتي يـؤمن ـا الشيوعيون ونص عليها أحد منظري مذهبهم وهو: (إنجلز)، فيقول مفسراً سبب الحـروب الدينية التي سادت في العصور الوسطى _ ويقصد به عصر المد الإسلامي _ "إن ما يسمى بالحروب الدينية.. كانت تتضمن مصالح طبقية تماما.. ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف شعار ديني، فلم يبدل هذا شيئا من الأمر، ويمكن تفسـيره ببساطة من واقـع ظروف تلك الأيام "[٣].

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن ما جاءت به الشيوعية من أمر مستحسـن _ من حيـث ذاته بغض النظر عن نسبته إلى الشيوعية _ فإن الإسلام قد نبه عليه وحض عليه من قبـل، فلا يكون كل من عمل عملاً جاءت به الشيوعية – وقد أقره الإسلام من قبل – لا يكون بذلك متشـبهاً بأصحاب هذا المذهب. ولكنه من الخطأ الفادح أن ننسب شيئاً من النظم الهدامة _ التي جاءت ا الشيوعية _ إلى الإسلام لإرضاء العامة، وإقناعهم بجدوى الشيوعية وأن لها سـنداً من الإسلام، وهذا ما فعله بعض المقتنعين ذا المذهب الهدام، فهذا الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي[٤] يعود بالاستدلال للمذهب الشيوعي بالإسلام فيعلل في كتابـه _ بغض النظر عما في الكتاب من زندقة[٥] ووصف للصحابة بأمور مكذوبة علـيهم لا تليـق

(1) صحيفة الوطن المصرية بتاريخ ١٩٨٣/٩/٢١م، نقلاً عن كتاب: افت العلمانية في الصحافة العربية، سـالم علي البهنساوي، ص: (١٧١- ١٧٢).

٢ - انظر: افت العلمانية في الصحافة العربية، سالم علي البهنساوي، ص: (١٧١- ١٧٢).

3 - كتاب المادية التاريخية: ص: (١٦٩-١٧٠)، من الترجمة العربية. نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب ص٢٩٥

(4) رئيس تحرير مجلة روز اليوسف سابقاً، وأحد وجوه اليساريـين في مصر، وكان محامياً عن الشيوعيـين عنـد اعتقالهم في عام ١٩٦٨م . انظر: دراسات في السـيرة النبوية، لمحمد زين العابدين، ص: (١٩).

٥ - "الزندقة: لفظ أعجمي معرب أخذ من كلام الفرس بعد ظهور الإسلام وعرب. وفي البداية كانت تطلق الزندقة على من يؤمن بكتاب ا وس المقدس الزندافست، ومن ثم نسب إليه، ثم توسعوا في استعمالها علـى كـل إنـسان

بأحد منهم[1] _ تحريم الله عز وجل للخمر والقمار على أغنياء المؤمنين ليـدفعوا أمـوالهم لأسر شهداء المعارك الذين أعوزهم الحاجة، بدلاً من تبديدها في الخمر والقمار[2].

والحقيقة أن هؤلاء لم يكتفوا بالتشـبه بأعداء الملة والدين من الشيوعيـين، بل حاولوا أن يجدوا لأنفسهم مخرجاً وتوفيقاً مع الإسلام الذي ينتسبون إليه، وما ذلك إلا لاقتناعهم بأطروحات هذا المذهب الاقتصادية لعلاج الفقر بين الشعوب، وليس هذا موضعاً للرد على أمثال هؤلاء، ولكن الواجب على كل مسلم حريص على إسلامه: أن يكون على ثقة بهداية ربه وأنه لن يكون على الأرض نظام يفي بحاجات الشعوب أعظم من النظام الرباني، الصادر عن الوحي الإلهي، وأن في تطبيق النظام الاشتراكي تشـبه بأهله الماديـين الملحدين الضالين عن سـواء السبيل.

يتشكك في الدين، أو يجحد شيئاً مما ورد فيه، أو يتهاون في أداء عبادته، أو يهزأ به أو يتجرأ على المعاصي والمنكرات، ويعلنها، أو يقول بمقالة بعض الكفار ويؤمن ببعض عقائدهم، والفقهاء يطلقونه على المنافقين الذي يـبطن الكفـر ويظهر الإسلام، والبعض من علماء السلف يطلقه على الجهمية، والإمام أحمد يطلقه على علماء المعتزلة، وقد يرمـى صاحب المجون والفحش بالزندقة". الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٦٥/٢.

(1) انظر ص: (٢٣٣)، من كتاب: محمد رسـول الحرية، ففيها يقول متحدثاً عن الوضع النفسـي المتأزم الذي آل إليه المسلمون عقب هزيمة (أحد): "روع محمداً مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه في بدر وأحـد، وهـم ينحدرون في يأس هائل، فما يفيق الواحد منهم من الخمر، وما يغادر أماكن القمار إلا ليستمتع بإحدى المغنيـات أو الراقصات اليهوديات... وأخيراً.. أطلق منادياً يدعو الناس إلى ترك الخمر؛ فقد حرمت، فلا يقربوهـا، وعلـيهم ألا يقربوا الميسر ولحم الخنزير".

2 - محمد رسـول الحرية، لعبد الرحمن الشرقاوي، ص: (٢٣٤).

المبحث الرابع:

مظاهر تأثر المسلمين بالعقلانية في الجانب العملي:

تقديس العقل وتقديمه على النقل هو السمة الأساسـية لما يسمى في العصر الحديث بالعقلانية. يعرف العقلانيةَ الشيخ محمد قطب فيقول: هي "التفسـير العقلاني لكل شيء في

الوجود، أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل لإثباته أو نفيه، أو تحديد خصائصه"[1].

وجاء تعريفها في الموسوعة الميسرة بأنها: "مذهب فكري يزعم أنه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشرية، وكذلك يرى إخضاع كل شيء في الوجود للعقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه"[2].

ولقد كان أول تقديم للعقل على الأمر الإلهي منذ بداية الخليقة وذلك لما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام فاعترض إبليس بمقاييسه العقلية وعارض بذلك أمر الله الصريح له؛ بمجرد أن الله خلقه من نار، وخلق آدم من طين، فظن أن النار أشرف من الطين، فأبى أن يستجيب لأمر الله تكبراً منه، فكان ذلك أول تقديم للعقل على النص الصريح، فكانت النتيجة أن طرد إبليس من رحمة الله؛ حيث قال الله تعالى له: (قَالَ فَاخرج منها فَإنك رجِيم، وإن علَيك لَعنتي إلَى يومِ الدينِ)[3].

وعلى هذا يكون أصل الشرور في العالم مبدؤها من تقديم العقل على النص الإلهي، وأنه من أول ما عصي الله به، ومن أعظم ما عصي الله به.

وتبع هذه الطريقة الشيطانيةَ مشركوا العرب في الجاهلية، الذين أنكروا البعث بناء على عدم تصور عقولهم القاصرة لقضية إعادة الخلق، فقالوا: (أَإِذَا متنا وكُنا تراباً وعظَاماً أَإِنا لَمبعوثُونَ)[4]، (أَإِذَا متنا وكُنا تراباً وعظَاماً أَإِنا لَمدينونَ)[5]، وكان ذلك منهم غاية السفه، ولذلك رد الله عليهم بقوله: (وضرب لَنا مثَلاً ونسي خلْقَه قَالَ من يحيِي الْعظَام وهي رميم)[6]، وقال: (أَيحسب الإنسانُ أَنْ يترك سدى، أَلَم يك نطْفَةً من منِي يمنى، ثُم كَانَ علَقَةً فَخلَق فَسوى، فَجعلَ منه الزوجينِ الذكَر والأنثَى، أَلَيس ذَلك بِقَادرٍ علَى أَنْ يحيِي الْموتى)[7].

(1) مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب: (ص:٥٠٠).
(2) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٧٩٦/٢.
(3) سورة ص، الآيتين: (٧٧- ٧٨).
(4) سورة الواقعة، من الآية: (٤٧).
(5) سورة (الصافات:٥٣).
(6) سورة (يس :٧٨).
(7) سورة (القيامة:٣٦-٤٠).

ويأتي تقديم المعقولات الذهنية على النصوص الشرعية بسبب تقديس العقل ورفعه فوق مكانـته التي كان ينبغي أن يوضع فيها[1]، والعقل له مكانـته في الإسلام والتي لا يجوز أن يتجاوزها إلى غيرها، ومن مكانـته في الإسلام أنه أبيح له التدبر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، دون تدخل فيما ليس له به شأن، قال تعالى: (قُلْ إنما أَعظُكُم بِواحدة أَنْ تقُوموا لله مثْنى وفُرادى ثُم تتفَكروا ما بِصاحبِكُم من جِنة إنْ هو إلا نذير لَكُم بين يدي عذَابٍ شديد)[2]، وقال (أَفَلا يتدبرونَ الْقُرآنَ ولَو كَانَ من عند غَيرِ الله لَوجدوا فيه اختلافاً كَثيراً)[3].

يقول الشيخ محمد قطب: "هذا شأن المسلمات في الدين الصحيح : أمور لا يملك العقل أن يستدل عليها من تلقاء نفسه، ولا يملك في الوقت ذاته دليلاً حقيقيا ينفيها، ثم إنه لا يدعي إلى التسليم ا قبل أن يسلم بالمقدمات التي توصل إليها عن طريق التفكر والتدبر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض .

أما المسلمات التي فرضتها الكنيسة فرضاً وأرهبت الناس من مناقشتها في غير ذلك تماماً . فحيث يتجه العقل والتدبر والتأمل إلى الإيمان بأن الله واحد أحد، وأنه لو كان في السماوات آلهة إلا الله لفسدتا .. تقول الكنيسة إن الله ثلاثة، ثم تزيد الأمر تعقيداً فتقول له إن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، ثم تمنعه من المناقشة عن طريق الإرهاب .. وحيث يتجه العقل – بوسائل تفكيره – إلى الإيمان بأن الله الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً هو في غنى عن كل شريك، ومن ثم فهو الجدير بالعبادة وحده .. تقول له الكنيسة إن هناك شريكاً لله هو المسـيح عيسى ابن مريم عليه السلام، هو إله مع الله، ومعبود كذلك مع الله. ثم تمنعه من المناقشة وتتهمه بالمروق إن خالف .. وحيث يتجه العقل – بمنطقه الذاتي – إلى الإيمان بأن الله ليس في حاجة إلى اتخاذ الولد – والخلق كلهم خلقه، خلقهم بمشيئته وهم عباد له – وليس من شأنه سبحانه أن يتخذ ما لا حاجة له إلى اتخاذه، وهو المهيمن الذي يدبر أمر الوجود كله بمفرده، بلا كلفة عليه سبحانه ولا جهد ولا حاجة إلى معين .. تقول الكنيسة إن لله ولداً، خلقه بمشيئته كما يخلق كل شيء بمشيئته ثم تبناه – سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً – ليضعه بعد ذلك على الصليب ويجرعه ألام الصلب، ليكفر بذلك عن خطيئة لم يرتكبها ذلك الابن إنما ارتكبها آدم وحواء قبل ذلك بزمن لا يحصيه إلا

(1) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥٠٨).
(2) سـورة سبأ (٤٦) .
(3) سـورة النساء (٨٢) .

الله! ثم تفرض عليه ذلك فرضاً وتقول له هذه هي العقيدة .. ومن لم يعتقدها فقد حلت عليه لعنة السماء.

تلك هي المسلمات التي لا يمكن التسليم ا لأن العقل يملك كل دليل ينفيها، ولأ ا لا تستند إلى شيء إلا قرارات ا امع المقدسة التي تبتدعها من عند نفسها وتزعم مجرد زعم أ ا من عند الله"[1].

ولذلك لما كان اليونانيون يقدسـون العقل إلى حد التأليه، حاولوا التعرف إلى خالق الكون، وقاسـوه على خلقه، وصار الإله الخالق مثْلَةً في يد الإله الأول عندهم وهو العقل، وتبعهم على ذلك المعتزلة، الذين لم ينـزهوا الله ولم يدفعوا عنه التشبيه ولم يروموا ذلك إلا على أسس عقلية مستنبطة مستقاة من الفكر اليوناني المتأله للعقل، يقول الشيخ محمد قطب: "كانت العقلانية الإغريقية لوناً من عبادة العقل وتأليهه، وإعطائه حجماً مزيفاً أكبر بكثير من حقيقته، كما كانت في الوقت نفسه لوناً من تحويل الوجود كله إلى (قضايا) تجريدية مهما يكن من صفائها وتبلورها فيه بلا شك شئ مختلف عن الوجود ذاته، وكان أشد ما يبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسـفة (لقضية) الألوهية و (قضية) الكون المادي وما بينهما من علاقة. ويتشعب هذا الانحراف شعباً كثيرة في وقت واحد، فأول انحراف هو محاولة إقحام العقل فيما ليس من شأنه أن يلم به فضلاً عن أن يحيط بكنهه في قضية الذات الإلهية. فمن باب احترام العقل لذاته ومعرفته لطبيعته وحدود مقدرته، ما كان لهذا العقل أن يقتحم ميدانا ليس بطبيعته مؤهلاً لاقتحامه، ولا قدرة له على الخوض فيه"[2].

ولذلك خرج فكر المعتزلة متحرراً عن النصوص، يضرب يمنة ويسرة في أمور عقلية عندهم يظنو ا مسلمات، وهي في الحقيقة _ إن كانت مصادمة للـوحي _ لا تعـدوا أن تكون على منوال ما حصل من تفضيل إبليس لخلقه على خلق آدم[3].

وأما النصارى فمن ابتداعهم في دينهم ما شرعه لهم قـساوستهم ورهبـا م، وفي مقدمتهم: بولس أو بولش (شاؤول)[4]، من تبديل متعمد للأحكام الشرعية التكليفيـة[5]،

---

(1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٥١٠-٥١١).

(2) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥٠١-٥٠٢).

(3) ولابن القيم _ رحمه الله _ كلام جميل في هذا الموضوع، انظر: بدائع الفوائد: ٩٤٩/٤.

(4) أفكار ورجال، (برنتن)، ص: (١٨١). نقلاً عن كتاب العلمانية للشيخ سفر الحوالي ص: (٦٣).

(5) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسـن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمـد عليـه الصلاة والسلام تأليف الإمام القرطبي، ٢٤١/٢- ٢٥٨.

باستحسان عقلي، تحت غطاء الوصاية الإلهية[1] المعطاة للكنيسة، وذلك في مـا يـسمى بالمجامع النصرانية[٢].

وفي العصر الحديث ظهرت طائفة من أبناء الأمة الإسلامية تمجد العقل وترفع مـن مكانـته وتقدمه على النصوص الشرعية، تمثلت في المدرسة العقلانية[٣] ومن تأثر بها، يقول الشيخ محمد عبده وهو من عمداء المدرسة العقلية في مصر: "اتفق أهل الملة الإسلامية – إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه – على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل"[4].

وهذه الآراء فيها تشابه كبير بآراء العقلانية الأوروبية، كما أن ملامـح المدرسـة الاعتزالية لا يمكن تجاهلها في هذه الطائفة.

وعلى هذا فللعقلانيـين الإسلاميـين في العصر الحديث مصدرين أساسـيـين تأثروا بهما بشكل مباشر، وهذان المصدران: -

المصدر الأول هو الاعتزال؛ فـيـعتبر هؤلاء العقلانيون المعتزلـةَ ممن فهم الدين الإسلامي على وجهه الصحيح الذي ينبغي أن يفهم الدين عليه، على أساس أن فكرهم قائم على تقديم العقل على النقل[٥].

---

(1) يقول الشيخ محمد قطب: "ولكن القضية كلها (قضية وجوب طاعة الكنيسة) قائمة على أساسـين واهيـين هاويـين: قائمة على أساس أن المسـيح عليه السلام ذو طبيعتين : إحداهما لاهوتية والأخرى ناسـوتية، ومـن ثم فهو إله وبشر في ذات الوقت، وهو على هذه الهيئة وسـيط بين البشر ذوي الطبيعة الناسـوتية الخالصة والإلـه ذي الطبيعة اللاهوتية الخالصة !! فهو ليس رسـولاً يبلغ وحي الله للناس _ كما هو في الحقيقة _ إنما هو حلقة وسـيطة تمر بها مشاعر الناس وأعمالهم لكي تصل إلى الله، كما تمر خلاله كلمة الله إلى الناس! ... وقائمة _ من بعد _ على أساس أن الكنيسة هي وريثة المسـيح، ومن ثم فإن لها ذات الوضع وذات السلطان الذي كان للمـسـيح، فهـي مقدسة، وقداسة البابا ومن يكل الأمر إليهم من الكرادلة وغيرهم من الوسطاء الذين تمر بهم مشاعر الناس وأعمـالهم لكي تصل إلى الله، كما تمر من خلالهم كلمة الله إلى الناس!!"، مذاهب فكرية معاصرة، للشـيخ محمـد قطـب، ص: (٢٨).

(2) "والمجامع قسمان: مجامع مسكونية (أي عالمية مسكونية نسبة إلى الأرض المسكونة). ومجامع محلية أو مكانيـة، وقد عقدت المجامع المسكونية عدة مرات في القرون الأولى، وشهدها ممثلو الكنائس من جميع الأقطار وكان الـسبب الرئيسـي لعقدها ظهور مذاهب دينية عدة غريبة ينبغي فحصها وإصدار قرارات بشأنها وشأن مبتدعيها، وقد عقـد من المجامع المسـكونية عشـرون مجمعاً ابتداء من مجمع نيقية سـنة ٣٢٥"انظر: المسـيحيـة، د. أحمد شـلبي، ص: (١٦٦).

(3) ومن عمدائها: الشيخ محمد عبده، والشيخ جمال الدين الأفغاني، وممن تأثر بها: الشيخ محمد الغزالي، وغيره.

4 - انظر: رسالته: الإسلام والنصرانية، ص: (٥٩)، يقول الشيخ سفر الحوالي: "أما الفكر فقد تأثر الشيخ محمـد عبده بفلسـفة كومت العقلية، حتى لنستطيع أن نقول إن اتجاهه الاعتزالي يعزى إليها لا إلى المعتزلـة المـسـلمين، ومعلوم تأثر كل زعماء الفكر في مطلع القرن بالشيخ من قريب أو بعيـد"، العلمانية، للشـيخ سـفر الحـوالي، ص: (٦١٢).

(5) انظر: العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون، لعلي بن حسـن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، ص: (٨).

يقول الدكتور محمد عمارة: "لقد انقضت المعتزلة كفرقة، ولكنها استمرت نزعة عقلية وفكراً قومياً، وأصولاً فكرية، من خلال فرق أخرى تأثرت بها، ومن خلال البصمات التي طبعتها على المجرى العام الخالد والمتدفق والمتطور، لفكر العرب والمسلمين"، إلى أن قال: "وهكذا كان المعتزلة: كوكبة من أهل الفكر والنظر والدين والثورة، اتخذوا من الفلسفة، والفكر، والرقي في المعرفة بديلاً عن الأحساب والأنساب"[(1)].

ويقول زكي نجيب محمود: "يبدو لكاتب هذه الصفحات أن أهم جماعة يمكن لعصرنا أن يرثها في وجهة نظرها ... أعني أن يرثها في طريقتها ومنهاجها عند النظر إلى الأمور هي جماعة المعتزلة التي جعلت العقل مبدأها الأساسي كلما أشكل أمر "[2]. ويقول صاحب كتاب: (دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية) تحت عنوان أهمية المعتزلة في الفكر الإسلامي : "المعتزلة أول مدرسة كلامية ظهرت في الإسلام وكان لها دور كبير في تطوير الفكر الديني والفلسفي فيه، فهي التي أوجدت الأصول العقلية للعقيدة الإسلامية !! وجعلت للنزعة العقلية في الفكر الإسلامي مكانة مرموقة، ورفعت من شأن العقل وأحكامه وقدرته في الوصول إلى الحقيقة"[3].

والمصدر الثاني هو العقلانية الأوربية التي نشأت في أحضان العلمانية، وتأثرهم بهذه العقلانية الحديثة _ إن صح التعبير _ يأتي من جهتين هما:

الجهة الأولى: من جهة إعجابهم بهذا المبدأ كمنهج في البحث العلمي يحرر العقل من جميع الوصايات التي كانت تأخذ بزمامه، كوصاية رجال الدين أياً كانوا، ومن جهة الدين نفسه إذا كان الدين يعارض العقل _ إن صح ذلك _ ولا يكون ذلك إلا من خلال الدين الفاسد، أو من خلال الروايات الضعيفة التي نسبت إلى الدين جزافاً ولا علاقة للدين بها، وهنا كان ينبغي عليهم أن يتحققوا من مصداقية الروايات التي نسبت إلى الدين، قبل أن يتوهموا مصادمتها للعقل، حتى لا يقعوا في مصادمة الدين الصحيح بترجيح عقليات تختلف جدارتها من عقل إلى آخر.

الجهة الثانية: من جهة طريقة عرض الإسلام على الأوروبيين المتأثرين بالعقلانية، فكان لزاماً على المسلمين _ في نظرهم _ أن يجتهدوا في عرض الإسلام على الأوربيين في لباس عقلاني يعجب الأوربيين وإلا فسوف يطّرح الأوربيون الإسلام كما اطّرحوا

(1) تيارات الفكر الإسلامي: ص: (٨٧- ٨٨).

(2) انظر: تجديد الفكر العربي ص: (١١٧)، نقلاً عن المعتزلة بين القديم والحديث لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم ص: (١٣٠).

3 - عرفان عبد الحميد، في كتابه: (دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية)، انظر ص: (١٢٥).

النصرانية بحجة محاربتها للمعقولات. فمن أجل إقناع الطرف الآخر لا بـد مـن عـرض الإسلام في قالب عقلاني، وهذه الجهة قد لا يعترف العقلانيون بتأثرهم ا؛ لأ م قد أشربوا الاقتناع بالمسلك العقلاني الغربي، وفي الاعتراف بذلك إقرار بتبعيتهم للغرب وهذا في حد ذاته منفر للمتلقي عنهم.

والظاهر أن هؤلاء العقلانيـين كان تأثرهم بالمنهج العقلاني الأوروبي أكـبر مـن تأثرهم بالمنهج الاعتزالي القديم، يقول الدكتور محمد عمارة وهو يشرح طريقته في التفكير وفي فهم النصوص، موضحاً أ ا "تعلي من شأن العقل، وتجعله معياراً وميزاناً، حتى بالنسبة للنصوص والمأثورات، حتى لنستطيع أن نقول: إن موقفها من العقل والفلـسـفة يجعلـها الامتداد المتطور لمدرسة المعتزلة، فرسان العقلانية في تراثنا القديم"[1]، فكـأن النـسبة إلى المعتزلة جاءت من أجل تدعيم الموقف بموروث من التراث الإسلامي، مما يـضفي علـى الموقف العقلاني الإسلامي الحديث نوعاً من الأصالة يجمع ا بين عراقة المنهج وجِـدتِـه.

سـياق بعض مظاهر التأثر بالعقلانية المحدثة أو القديمة:

تقدم معنا أن تقديس العقل وتقديمه على النقل هو السمة الأساسـيـة للمـذهب العقلاني سـواءً في منطق الجاهلية الأولى، أو في منطق المعتزلـة، أو في منطـق الجاهليـة الأوروبية الحديثة، فأسـوق هنا بعض المظاهر التي تدخل تحت هذا النوع مـن تقـديس العقل:-

(1) في كتابه: تحديات لها تاريخ: ص: (١٠٧). نقلاً عن كتاب العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون، للشيخ علـي بن حسـن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ص: (٦٢).

التجديد بين إحياء النصوص الشرعية ودعوى عدم صلاحيتها في العصر الحديث:

إن من شبهات العقلانيين التي يمهدون بها لمسلكهم العقلي، شبهة العصر، وأن العصر الحديث له ظروفه الخاصة التي لها ما يناسبها من الأحكام الشرعية، فليس كل ما صلح أن يكون ديناً وشرعاً في العصر الأول يصلح أن يكون ديناً في العصر الحديث، والحقيقة أن هؤلاء بين أحد أمرين: إما أن يكونوا قد جاؤوا بما لم يأت به الرسول ﷺ من الدين الذي لم يبلغنا إياه وقصر في تبليغه، أو أنهم جاؤوا بما هو بدعة في دين الإسلام ليس لها أصل، والجواب الثاني هو الصحيح؛ فإن الله عز وجل قال في محكم تنزيله: (الْيوم أَكْملْت لَكُم دينكُم وأَتممت علَيكُم نِعمتي ورضيت لَكُم الإِسلام ديناً)[1].

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن التجديد المذكور في الحديث الشريف: ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها))[2]، لا يقصد به الإتيان بما هو جديد في الدين مما لم يسبق صاحبه إليه، بل هو إحياء تراث ما اندرس الإسلام والسنن المهجورة في العصر الذي فيه المجدد[3]، قال المناوي _ رحمه الله _: "يجدد لها دينها أي يبين السنة من البدعة ويكثر العلم وينصر أهله ويكسر أهل البدعة ويذلهم قالوا ولا يكون إلا عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة"[4].

ولكن التجديد اتخذ معنى باطلاً، سار عليه الأوربيون من قبل، فقد انتشرت فكرة التجديد في المجتمعات الغربية، على إثر الثورة الفرنسية التي أورثت الأوروبيين الثقة المطلقة في كل ما هو تجريبي محسوس، والشك والتوقف في كل ما هو من معطيات الدين أو بتعبير أصح: (الكنيسة)، و"التجديد في الاصطلاح الغربي: يعني أن وجهة نظر الدين مبنية على الاعتقاد بأن التقدم العلمي والثقافة المعاصرة يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة، واعتبار أن الدين صحيح مادام لا يتعارض مع التطور. وتعد حركات التجديد والتطور والعصرانية الغربية إحياء لفلسفة الطبيعيين من فلاسفة اليونان وعودة إلى التراث الوثني الفلسفي القديم، ورد فعل على

(1) (المائدة: من الآية٣).

(2) أخرجه أبو داود في سننه: ١٠٩/٤، برقم: (٤٢٩١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٤٨/٢، برقم: (٥٩٩).

(3) انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود: ٢٦٠/١١.

(4) فيض القدير، للمناوي:٢٨١/٢-٢٨٢.

تسلط الكنيسة وموقفها الشديد من العلم ومكتشفاته الحديثة. واتخذت حركات التجديد الغربية سواء اليهودية أو النصرانية الغربية (كاثوليك وبروتستانت) مظاهر عديدة مشتركة منها:

١. الدعوة لعدم الالتزام الحرفي بنصوص الكتاب المقدس، وإطلاق حرية الاختيار بينها وفقاً لما تمليه ظروف ومتغيرات العصر.
٢. أن الشريعة الإلهية موقوتة بظروفها التي ظهرت فيها،وأنها ليست دائمة، فلا يجب الالتزام بها، وينبغي إعادة تأويلها بإيجاد تشريعات بديلة.
٣. الدعوة إلى التفريق بين ما هو بشري وما هو غير بشري في حجية نصوص التعاليم الإلهية.
٤. إخضاع نصوص الكتاب المقدس وقيمه للمنهج النقدي التاريخي الذي انتهى إلى أن نصوص الكتاب المقدس بها الكثير من التناقضات والاختلافات في الأسلوب مما يدفع بعدم قدسيتها، ولذا ينبغي إعادة كتابتها على ضوء ما يثبته الحس والتجربة والعلوم العصرية، وهذا الذي أدى، أيضا، إلى القول بنسبية الحقيقة.
٥. الضمير الإنساني وحده الحاكم على حقائق الدين.
٦. تجديد صور وهيئات بعض العبادات مثل الصلاة، واستحداث طرق ووسائل جديدة لتأديتها لتتلاءم مع مفاهيم العصر"[١].

والحقيقة أن ما ذهبت إليه أوروبا في العصر الحديث هو عقلانية موغلة في الكفر بالوحي، في الوقت الذي تعطي فيه العقل زمام الحل والعقد في شتى صنوف الحياة، وهي أكثر إبعاداً من المذهب الذي كان عليه الأوروبيون في حال ثقتهم العمياء بالآباء الكنسيين الذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله[٢].

وفي العصر الحديث ظهرت طائفة من أبناء الأمة الإسلامية تنادي بالتجديد، على الطريقة الغربية،ومن تجديداتهم في الدين، كما جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان المعاصرة:-

(أ) " إن الجهاد شرع فقط في حالة اعتداء الكافرين على المسلمين، وممن قال بهذا السيد أحمد خان، الشيخ محمد عبده، الدكتور محمد عمارة، محمد عابد الجابري، فهمي هويدي.

(1) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٠٢/٢-١٠٠٣.
(2) كما قال الله تعالى عنهم: (اتخذُوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركُونَ) (التوبة:٣١)

(ب) الدعوة لتقيـيد الطلاق[1]، ورفض تعدد الزوجات، والدعوة لسفور المـرأة، إذ ينكر حسـين أحمد أمين مشروعية الحجاب[2] مدعيا أنه عادة فارسـية تركيـة، وأن القرآن الكريم لم ينص على حرمة السفور، بينما يقصر الترابي الحجاب على زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فقط، على أن الحشمة هي المعيار لما تحدده عادات وتقاليد ا تمعات. وممن صرح بذلك الدكتور محمد فتحي عثمان والدكتور محمد عمارة.

(ج) عدم معاقبة المرتدين وإنكار حد الردة[3].

(د) جواز زواج المسلمة من اليهودي والنصراني، بل بالغ بعضهم مثل محمد علـي القادياني بجواز زواج المسلم من الهندوسـية باعتبار أن لها ديانة وكتبا مقدسة .

(هـ) قولهم بأن الربا المحرم[4] هو الذي يدفعه الفقير مقابل دينه، أما فوائد البنـوك والفائدة البسـيطة على المعاملات التجارية،وصناديق التوفير، فليست ربا، وينسب هـذا الرأي إلى رواد المدرسـية الإصلاحية ((الشيخ محمد عبده)) .

(ز) رفض حدود رجم الزاني المحصن، وشرب الخمر، وعقوبة الحرابة، والسرقة.

(ح) القول بأن العقوبات المنصوصة ليست مقصودة بأعيا ا حرفيا، بل المقـصود غايا ا، وعليه فإن كل ما يؤدي إلى القيام بالغاية والمقصود هو الوسـيلة المطلوبة شـرعا. على ما صرح به الشيخ عبد الله العلايلي إذ لا ينفذ الحد إلا في حالة الإصرار أي المعـاودة والتكرار، وقد قرر ذلك: أبو زيد الدمنهوري، مصطفى كمال المهدوي- الدكتور مصطفى محمود، حسـين أحمد أمين.

(ط) القول بأن الخلافة بالمفهوم الشرعي غير ملزمة، وكذلك القضاء، ووظـائف الحكم، وكل الخطط السـياسـية لا شأن لكل هذا بالدين. ويمكن أن تعتمد الحكومـة على أي نظام سـياسـي سـواء أكان ديمقراطيا أو اشتراكياً فاشياً، محل الخلافة، كمـا يرى كل من علي عبد الرازق _ كما في كتابه: (الإسلام وأصول الحكم) _ ومحمد أحمد خلف الله أن نظام الحكم في الإسلام مصدره الاجتهاد وليس بالنص.

---

(1) وانظر: الدعوة إلى التجديد، لعصام البشير، ص: (٦٠).

(2) وانظر: العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون، لعلي بن حسـن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، ص: (٦٥-٦٦).

(3) وانظر: المعتزلة بين القديم والحديث لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص: (١٣٧-١٤٠)، وانظر: بحث بعنوان: (موقف العصرانيـين من الفقه وأصوله)، للشيخ محمد حامد الناصر، مجلة البيان العدد: (١٤٦)، شوال، ١٤٢٠هـ.

(4) وانظر: بحث بعنوان: (موقف العصرانيـين من الفقه وأصوله)، للشيخ محمد حامد الناصر، مجلة البيان العـدد: (١٤٦)، شوال، ١٤٢٠هـ.

(ي) أن أحكام الشريعة غير ثابتة، بينما الثابت هو روح الدين، أي روح التشريع، وأي حكم أو وسيلة تحققه فإنها من أحكام الدين، وفي ذلك يقول الدكتور حسن حنفي إن العلمانية هي أساس الوحي، ويرى الدكتور محمد عمارة أن الدين مفاهيم ومثل عليا وأن الناس يحددون ويشرعون ويطورون حياتهم وفق المصلحة بعد ذلك.

(ك) حقوق المرأة السياسية والاجتماعية تستوحى من البيئة الاجتماعية لا من النظريات الفقهية، وممن صرح بذلك الدكتور محمد فتحي عثمان، الدكتور محمد عمارة.

(ل) الدعوة إلى تقديم المصلحة على النص إذا اقتضى الأمر ذلك.

(م) القول بنسبية حقائق الدين على أنها تختلف باختلاف البيئات والمجتمعات.

(ن) إلغاء أحكام أهل الذمة[1] على أنها كانت لظروف خاصة قد خلت بتطور العصر، فهم مواطنون لا ذميون على رأي فهمي هويدي.

(س) بالإضافة إلى تحريفهم للتاريخ الإسلامي[2] باعتبار حروب الردة حروباً سياسية، وأن الفتوحات الإسلامية ما كانت إلا غزوات استعمارية على قول أحمد أمين، وعبد المنعم ماجد حسين، ولم تسلم غزوات الرسول، صلى الله عليه وسلم، من مقالات نفاقهم إذ يصفون بأنها كانت تصفية للحسابات مع قريش، كما اتهموا صلاح الدين الأيوبي بأنه كان إقطاعيا بارزا حركه الدافع القومي في حروبه.

(ع) أخيرا عملوا على تمجيد وإحياء جميع العقائد الوثنية والحركات المنحرفة من خوارج ومعتزلة وباطنية، على أنهم يمثلون الجناح اليساري في الإسلام، وأن ثوراتهم كانت بسبب الظلم الاجتماعي، ولذلك يعلون من شأن دعاتها أمثال ابن عربي والحلاج والقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي وعمرو بن عبيد وحركة الزنج ودولتهم، وجمال الدين الأفغاني وتنظيماته السرية، وكتبهم طافحة بذلك وزيادة"[3].

وفي بيان أن الجهاد كان فريضة مناسبة لعصر الصحابة ولم يعد صالحاً في هذا العصر، يقول الكاتب: غسان الإمام بعد إطراء لطريقة المعتزلة في فهم الإسلام: "كان النصر «الأفغاني» مغرياً للأفغان العرب لشن حرب جهادية أخرى ضد أميركا التي تخلت فجأة عن حضانتهم وتمويلهم، وضد الأنظمة والمجتمعات العربية والإسلامية لإعادة أسلمتها

---

(1) وانظر: بحث بعنوان: (موقف العصرانيين من الفقه وأصوله)، للشيخ محمد حامد الناصر، مجلة البيان العدد: (١٤٦)، شوال، ١٤٢٠هـ.

(2) وانظر: بحث بعنوان: (موقف العصرانيين من الفقه وأصوله)، للشيخ محمد حامد الناصر، مجلة البيان العدد: (١٤٧)، ذو القعدة، ١٤٢٠هـ.

3 - انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١٠٠٦/٢-١٠٠٨ .

وإخراجها من «جاهليتها» بتلقينها إسلام القرون الوسطى، إسلام الرفض والقطيعة مع الثقافات، إسلام الصدام مع الحضارات.

افتعال الصدام المتعمد مع حضارة الغرب يغري دوائر عسكرية وفكرية وسياسية كثيرة في الغرب الأوروبي، والأميركي بالذات، للتخلي عن ظاهرة الحوار بين الثقافات والحضارات والأديان، وعن ظاهرة التسامح وتقبل الإسلام المهاجر إلى الغرب، لقبول التحدي وللدخول في مواجهة مسلحة مع الإسلام.

والصدام إلى الآن محصور في إطار صراع مسلح بين الغرب وشريكه إلى الإسلام «الجهادي». لكن الخطر الكبير في تحوله إلى صدام حضاري واسع وغير متكافئ، يكمن في احتمال انجذاب أوسع لدى المجتمعات العربية والإسلامية، نحو الانبهار بالجهادية الأفغانية، وتبني ذهنية الحصار والعزلة والتعصب لديها، والظن أنها الجهادية المؤهلة لكسب الصراع مع غرب علماني «كافر»، ولهزيمة ربيبته الصهيونية.

وما زلت على قناعة راسخة بأن النظام العربي حفر لنفسه فخاً. فهو يتحمل مسؤولية كبيرة في ترويج **إسلام التلقين** الذي مهد عبر الشاشة الرسمية، الأرضية المؤهلة لصعود الإسلام المتقشف، وعبر السماح لمجتمعات عميقة الإيمان وضعيفة الوعي والثقافة، بتداول كتب التفسير الديني المستوردة من أئمة القرون الوسطى، دون السماح للأعلام الرسمي **وللمثقف العقلاني العربي**، بوضع هذه الكتب على مائدة العرض وتحت مجهر البحث والنقد، لمعرفة ما يجول حقاً في عقل وفكر الإسلام الأفغاني، ولكشفه وتعريته أمام نفسه وأمام مجتمعه بالحجة واليقين والبرهان العقلي"[(1)]، كوننا لا نتفق مع طريقة للجهاد ضد الكفار لا يعني أبداً أننا يجب أن نتخلى عن شعيرة الجهاد؛ وأما التعبير بلفظ صراع الحضارات فلفظ موهم يحتاج إلى تفصيل كما هو منهج أهل السنة في الألفاظ الموهمة[(2)]، فأما إن كان المقصود بهذا اللفظ المستبدل (صراع الحضارات)، هو مواجهة دول الكفر بكل ما هو متاح من الوسائل المشروعة في هذه الفترة من الزمن، مع إعداد العدة للمواجهة الكاملة؛ عملاً بقول الله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)[(٣)]، فهذا المعنى لهذه الكلمة: صحيح، وإن كان الأولى أن يعبر بغيره

(1) صحيفة الشرق الأوسط: عدد: (٦/ نوفمبر/ ٢٠٠١م)، مقال بعنوان: الإسلام والغرب: صراع الثقافات ينذر بصراع الحضارات، لكاتبه: غسان الإمام.

(2) انظر كلام شيخ الإسلام في التدمرية، ص: (٦٥).

(3) سورة: (الأنفال: من الآية ٦٠).

من الألفاظ الشرعية البعيدة عن الإيهام، كلفظ: الدعوة إلى الله أو جهاد الكفار أو ما إلى ذلك.

وأما إن قصد به تميـيع معنى الجهاد والتخلي عن هذه الشعيرة العظيمة من شعائر الإسلام؛ حيث يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قَاتِلُوا الذين يلُونكُم من الْكُفارِ ولْيجِدوا فيكُم غلْظَةً)[1]، أو قصد بذلك إذابة مفهوم الولاء والبراء، فكل هذه المعاني الفاسدة من تغيـير الدين وإذابته. كما أن لفظ صدام الحضارات الذي يرى الكاتب أنه ليس بصحيح فهو قد يتوافق مع الآية السابقة؛ فهل هناك صدام أعظم من القتال الذي أمرنا به ضد الكفار، وهذا يدل على أن علاقة المسـلمين بالكفار فيها تصادم ولابد، فإنكار هذا اللفظ ـذا الإطلاق غير صحيح، وما أمر الله بإعداد العدة في قوله: (وأَعدوا لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رِباط الْخيلِ ترهبونَ يه عدو الله وعدوكُم)[2]، إلا ـيئة لذلك التصادم، هذا هو الدين الصحيح، الذي نفخر بالانتماء إليه، والذي نستقيه من الكتاب والسـنة على منهج السف الصالح، لا على عقليات فاسدة.

ولو تنازلنا نحن عن مصادمتهم فهم لن يرضوا عنا ولن يكفوا عداءهم عنا إلا أن نتبع ملتهم كما قال تعالى: (ولَن ترضى عنك الْيهود ولا النصارى حتى تتبِع ملتهم قُلْ إِن هدى الله هو الْهدى ولَئنِ اتبعت أَهواءَهم بعد الذي جاءَك من الْعلْمِ ما لَك من الله من ولي ولا نصيرٍ)[3].

توهم معارضة النص للعقل ومن ثم إسقاط الأثل أهمية عندهم:

إن التعارض بين العقل الصريح والنص الشرعي الصحيح، لا يمكـن بحـال مـن الأحوال، وهذا من مقتضيات صفة الحكمة لله تعالى، فإن الحكمة الربانية تقتضي أن لا يأمر الله _ جل وعلا _ إلا بما هو عدل ولا يخبر إلا بما هو صحيح، عند من تأمل فيـه بنظـر ثاقب وسلمت نيته كما سلمت نظرته، فإن لم يزل الإشكال حاصلاً، لزم أن يكـون ثمـة خلل إما في صحة نقل النص الشرعي وإما في طريقة التفكير، فإن تأكدنا من صحة النقل لم يبق سـوى أن نـتهم العقل القاصر، وإلا فإن الخيار الآخر _ وهو ا ام النقل _ طعن في

(1) سـورة: (التوبة: من الآية١٢٣).
(2) سـورة: (الأنفال: من الآية٦٠).
(3) سـورة: (البقرة: ١٢٠).

حكمة الله، ويكون خطر ذلك الطعن على الدين حسب ثبوت النص الشرعي، ولذلك غضب الله على إبليس وأخرجه من الجنة وجعله من الملعونين؛ حيث لم يكن ثمة لديه أي شك في ثبوت النص.

وأما تقديس العقل في التراث اليوناني الذي هو مادة المنهج الاعتزالي القديم، فإنه يجعل العقل هو الأساس الذي تبنى عليه الحقائق ولا مجال هناك للنص سوى ما كان مبنياً كلياً على المنطق العقلي.

قال القاضي عبد الجبار[1] في معرض حديثه عن الأدلة: "أولها دلالة العقل، لأن به يميز بين الحسن والقبح ولأن به يعرف أن الكتاب حجة وكذلك السنة والإجماع. وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط، **أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس الأمر كذلك**، فهو الأصل في هذا الباب"[2].

يقول أبو علي الجبائي[3]: "إن سائر ما ورد به القرآن الكريم في التوحيد والعدل ورد مؤكداً لما في العقول. فأما أن يكون دليلاً بنفسه يمكن الاستدلال به **فمحال**"[4]، وأقوالهم في هذا كثيرة يصعب حصرها، وفيها تصريح بتقديم العقل على النقل[5].

وأما تقديس العقل في الجاهلية الأوروبية الحديثة فهو يشبه إلى حد كبير موقف اليونانيين من النص، بل إن الأوروبيين لم يجدوا ثقافة يصدرون عنها بعد عقدة الدين التي نخرت في ضمائرهم، وبعد الثورة على الدين بشكل كامل ومن غير تحفظ[6]، سوى الثقافة اليونانية الضحلة التي تنطلق من منطلق عقلي صرف.

---

(1) هو: عبد الجبار بن احمد بن عبد الجبار أبو الحسن، الشافعي في الفروع، وكان من غلاة المعتزلة في الأصول، توفي في سنة خمس عشرة وأربعمائة للهجرة، انظر تاريخ بغداد: ١١٣/١١، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للإمام الذهبي _ رحمه الله _: ٢٣٨/٤.

(2) انظر: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص: (١٣٩).

(3) هو: محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن زيد بن أبي الموطأ الجبائي أبو علي رأس المعتزلة ومن انتهت إليه رياستهم، توفي في سنة ثلاث وثلاث مائة وله ثمان وستون سنة من تصانيفه: الرد على الأشعري في الرواية، وله الرد على أبي الحسين الخياط والصالحي والحافظ والنظام والبردعي وغيرهم من المعتزلة في ما خالفهم فيه. انظر: لسان الميزان: ٢٧١/٥.

(4) المحيط بالتكليف: ١٧٤/٤.

(5) انظر: موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، إعداد: الأمين الصادق الأمين: ٩٦/١-٩٩.

(6) كما ينطق بذلك أشهر شعار للثورة الفرنسية: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.

وكان من واجب الأوروبيـين أن يسعوا إلى البحث عن الدين الـصحيح الـذي يكفل لهم العلم الأخروي الصحيح ويرعى لهم ما توصلوا إليه من مخترعات دنيوية كانـت الكنيسة تقف حجر عثرة أمام تحصيلها.

وبحكم تأثير القوي على الضعيف في عصر ضعف المسـلمين، راح جماعة من أبناء الأمة الإسلامية يجرون وراء تقليد الغرب الكافر في عقلانيته اليونانية، ووجدوا من ثقافـة المعتزلة سـنداً تاريخياً لهم، فوقفوا من النص الشرعي موقفاً متأثراً بالمنهج العقلاني الغـربي، وإن لم يكن مطابقاً له، يقول أحد المتأثرين بالعقلانية الغربية وقد وجد متنفساً له في التراث المنسـوب إلى الإسلام (تراث المعتزلة): "لعل من أهم ما يسترعي انـتباه الباحث في تاريخ المعتزلة تلك الضخامة في شخصيا م، وذلك السمو في صفا م. فقد جمعوا في أنفسهم بين التبحر في العلم،والشغف بالفلسـفة، والكلف بالأدب، والتحلي بالفضائل، والانـصراف إلى العبادة، والزهد في متاع الحياة الدنيا. فكانوا في الدولة العربية الإسلامية طبقة مثقفـة ثقافة عالية، ومشكاة باعثة لنور العرفان، وحماسة الإيمان"[1]، ويقول الشيخ محمد عبده وهو يعيب على الطائفة التي تقيدت بنـصوص الـوحي _ يعيـب عليهـا _: بعـدها عـن المدنـيـ ـة: "فإ ا ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية السليمة أحباء"[2]، ولكن يا ترى مـا هـي تلـك المدنـيـ ـة التي لا بد وأن نراعيها حالَ فهمنا لنصوص الوحي؟! أهي مدنـيـ ـة مدينة الرسـول الكريم ﷺ أم هي مدنية العصر الحديث التي تخلصت من ظلمـات الإقطـاع، وتحررت من الوصاية الكهنوتية على العقل البشري.

يقول د. محمد أحمد خلف الله _ وربما نفهم إجابة التساؤل السابق مـن خـلال كلامه _: "إن البشرية لم تعد في حاجة إلى من يتولى قياد ا في الأرض باسم الـسماء[3]، فلقد بلغت سـن الرشد، وآن لها أن تباشر شؤو ا بنفسها"[4]، ويؤكد علـى أن النبـوة والوحي كانا قيداً وحجراً على العقل البشري، ولذلك فقد كان إ اء (نظام النبوة) إيـذاناً

(1) زهدي حسـن جار الله، في كتابه: (المعتزلة)، ص: (٤٦).

(2) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، للإمام: محمد عبده، ص: (١٠٧).

(3) وهنا تظهر اللوثة الفكرية المعاصرة التي وقع فيها الغرب من جراء عقدة الدين المحرف الذي كان يمارس الوصاية على العقول البشرية، باسم السماء _ إن صح التعبير _ ويمارس الوصاية الروحية المعطاة لرسل المسـيح في زعمهم. انظر: مطلب الصراع بين الدين والعلم في الغرب من هذه الرسالة.

(4) في كتابه (العدل الإسلامي)، نقلاً عن (غزو من الداخل) لجمال سلطان، ص: (٥١).

بتحرير العقل البشري من (قيود السماء)، فيقول: "فلقد حرر الإسلام العقل البشري من سلطان النبوة، من حيث إعلانه إ اءها كلية، وتخليص البشرية منها"[(1)].

ويقول الترابي: ": "أما المصدر الذي يتعين علينا أن نعيد إليه اعتباره كأصيل له مكانته فهو العقل"[(2)].

ولقد أدى تقديس الترابي للعقل إلى القول بآراء غاية في البعد عن الدين، يقول عن الردة عن الإسلام: "وأود أن أقول: إنه في إطار الدولة الواحدة، والعهد الواحد: يجوز للمسلم – كما يجوز للمسيحي – أن يبدله دينه"[(3)].

وفي مجال الخلوة بالمرأة الأجنبية التي جاء الوحي بتحريمها حيث قال تعالى: (وإِذَا سأَلْتموهن متاعاً فَاسأَلوهن من وراءِ حجابٍ ذَلكُم أَطْهر لقُلُوبِكُم وقُلُوبِهن)[(٤)]، وقال رسول الله ﷺ: ((ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان))[(5)]، يقول د. فتحي عثمان: "فإذا التقى الرجل بالمرأة في ظروف طبيعية هادئة محكمة، فلن يغدو هذا اللقاء قارعة شديدة الوقع.. سيألف الرجل رؤية المرأة ومحادثة المرأة ومعاملة المرأة، في إطار من الدين والخلق تحدد معالمه تربية الأسرة وعرف ا تمع ورعاية الدولة، وستألف المرأة بدورها الرجل فيهدأ السعار المضطرم ولا يكون هناك مجال للانحراف والشذوذ، وتتجمع لدى الطرفين خبرات وحصانات وتجارب"[6]، وهذا القول فيه مخالفة واضحة للنص، فإن الخلوة التي جعلها الشرع الموقر جالبة للخطر والوقوع في المحذور، استحسنها الكاتب إلى حد أن جعلها علاجاً لما غرسه الله من الشهوة وميل الجنسين إلى بعضهما، والله المستعان.

---

(1) في كتابه (الأسس القرآنية للتقدم) (ص: ٤٤)، نقلاً عن كتاب العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون، للشيخ علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ص: (٦٥).

(2) تجديد الفكر الإسلامي ص: (٢٦)، نقلاً عن: العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون، للشيخ علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ص: (٦٨).

(3) في محاضرة عنوا ا (تحكيم الشريعة) وقد (ألقاها) في جامعة الخرطوم، كما نقله عنه أحمد بن مالك في كتابه (الصارم المسلول في الرد على الترابي شاتم الرسول) ص: (١٢) العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون، للشيخ علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ص: (٦٩).

(4) سورة: (الأحزاب: من الآية٥٣).

(5) سنن الترمذي: ٤٦٥/٤، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢٣٤/٤

6 - الدعوة إلى التجديد، لعصام البشير، ص: (٦٠).

المبحث الخامس:

مظاهر تأثر المسلمين بالوجـودية في الجانب العملي:

سبق تعريف الوجودية بأ ا: جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة، وليست نظرية فلسفية واضحة المعالم، والذي يجمع بين تلك الأفكار أ ا تمثل: تياراً فلسفياً يعلي من قيمة الإنسان ويؤكد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجـه [1].

أشهر مؤسسـي المذهب الوجودي: (جان بول سارتر)، وهو الذي اكتمل المذهب بصورته النهائية الإلحادية بآرائه وأطروحاته[2].

والذي يخصنا هنا هو ما أنتجه مذهب سارتر من آراء عملية ربما تتدخل في جانب السلوك الإنساني، يقول د. عبد الرحمن بدوي شارحاً لمذهب سارتر الوجودي: "يؤكـد سارتر على معنى الحرية في كتابه (الخيالي)، ويأتي بمثال صار مشهوراً مفاده أن كوني وأنا في هذا المقهى، أشاهد غياب بطرس الذي أنا على موعد معه في هذا المقهـى في سـاعة معلومة، أشاهده على خلفية الحاضرين في المقهى _ هذا في الوقت نفسه اكتشاف للحريـة الأساسـية التي للإنسان في أن يشاهد غياب (=عدم وجود) كائن غائب وكأنـه واقعـة مشاهدة.

والمبدأ الرئيسـي الذي يضعه سارتر للوجودية هو القول بـأن (الوجـود يـسبق الماهية)[3]. ويلاحظ أن هيدجر[٤] لم يستعمل هذه العبارة، وإن تضمنها مذهبه وكل مذهب وجودي. وقد كان السائد في الفلسـفة المبدأ المضاد لهذا القول،، وهو إن الماهية تـسبق

---

(1) انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٨٨٨/٢.

(2) انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٨٨٨/٢.

(3) ويقصد سارتر هنا بالماهية: التصور عن الشيء في الذهن، ويقصد بالوجود: تحقق ذلك التصور في الخارج.

(4) هو المؤسس الحقيقي للوجودية، والموضوع الرئيسـي الذي تدور حوله كل فلسفته هـو الوجـود، ومهمـة الفيلسـوف في نظره هي إيضاح معنى الوجود، انظر: موسـوعة الفلسـفة لعبد الرحمن بدوي: ٥٩٩/٢.

الوجود: فقبل أن يوجد العالم كانت صورته أو فكرته في عقل الله، وقبل أن يوجد شـيء تسبق وجوده فكرة عند صانعه، ومن هنا كان يقال إن ثمة طبيعة للإنسان، (وهذه الطبيعة الإنسانية وهي التصور الإنساني، توجد عند جميع الناس، أي أن كل فرد من الناس هو مثال جزئي لتصور كلي هو الإنسان)، أما الوجودية فترفض هذا الرأي وتقول إن الوجود يسبق الماهية أي فيما يتصل بالإنسان مثلاً الإنسان يوجد أولاً ويصادف، وينبثق في العـالم، ثم يتحدد من بعد، فالإنسان في أول وجوده ليس شيئاً ولا يمكن أن نحده بحد؛ وعلى ذلـك فليس ثم طبيعة إنسانية. بل الإنسان كما يتصور نفسه وكما يريد نفسه وكما يدرك نفسه بعد أن يوجد، وكما يشاء هو بعد هذه الوثبة نحو الوجود. (الإنسان صانع نفسه).

الإنسان يوجد أولاً غير محدد بصفة، ثم يلقي بنفسه في المستقبل، ويشعر أنه يلقـي بنفسه في المستقبل، وذلك بأفعاله التي يؤديها. ولهذا فإن الإنسان هو أولاً مشروع وتصميم يحيا حياة ذاتية؛ ولا شيء يوجد قبل هذا المشروع، بل الإنسان هو الذي يصمم مستقبله ثم يحقق من هذا التصميم ما يستطيع.

وما دام الإنسان مشروعاً وتصميماً يضعه لنفسه، إن بالضرورة مسؤول عما يكون عليه. وكل إنسان يحمل المسؤولية الكاملة عن وجوده. ولا تقتصر هذه المـسؤولية عليـه وحده بوصفه فرداً، بل تمتد إلى الناس جميعاً، لأن القرار الذي يتخذه لنفسه يمس سائر بـني الإنسان فالإنسان حينما يختار نفسه هو في الوقت نفسه يختار لسائر الناس؛ ذلـك لأنـه باختياره هذا يرسم الإنسان كما يرى أن يكون؛ إذ أن اختياره لهـذا أو ذاك توكيـد في الوقت نفسه لقيمة ما يختاره، لأننا لا نختار أبداً ما نؤمن أنه شر وإنما نختار دائماً ما نعتقـد أنه خير، ولا شيء يمكن أن يكون خيراً لنا دون أن يكون أيضاً خيراً للآخرين، فبتـشكيلنا لصورة أنفسـنا نحن نشكل في الوقت عينه صورة الإنسان وهكذا نرى أن مسئوليتنا أكبر بكثير جداً مما نظن، لأ ا تلزم الإنسانية كلها. وحتى الأفعال الشخصية، مثل الزواج، تلزم سائر الناس؛ فاختياري مثلاً أن أتزوج وأن أنجب أولاداً، حتى ولو كان الأمر عندي أمـراً متعلقاً بحالتي الخاصة أو بملذاتي وشهواتي، فإن هذا الاختيار نفسه يمس الناس جميعاً وعلـى هذا فأنا مسؤول قـبل نفسـي وقـبل الناس جميعاً في آن واحد معاً.

وهذه المسؤولية البالغة الهائلة، لأ ا تمس الناس جميعاً لا بد أن تـثير في الإنـسان القلق البالغ الهائل أيضاً. إذ كيف لا أكون مهموماً كل الهم والقرار الذي اتخذته وإن بـدا

في الظاهر أنه قرار شخصي _ إنما هو قرار يمس جمع البشر؟! نعم! إن الإنسان يحاول الفرار من هذا القلق، بإسدال قناع عليه، ولكن هذا القناع لن يستر الحقيقة الرهيبة الكبرى"[1].

هنا نلحظ أمرين:-

الأول: أن فكرة سارتر: (الوجود يسبق الماهية)، تعارض عقيدة القضاء والقدر؛ فإن ماهية الأشياء موجودة مسبقاً معلومة لدى الله في كتاب حفيظ، (علْمها عند ربي فـي كتابٍ لا يضل ربي ولا ينسى)[٢]، فهي تعارض هذه العقيدة بمراحلها الأربع: من العلم إلى الكتابة وإلى المشيئة ومنها إلى الخلق[٣]، فلا ماهية للشيء قبل وجوده وهذا ينفي المراتـب الثلاث الأولى، مما ينفي بدوره الخلق، ولذلك فالوجودية لا تصرح بعدم وجود الخالق بقدر ما تصرف النظر عنه.

والثاني: أن فكرته هذه نفسها _ والتي لم يسبقه إليها أحد؛ فهو يجرد الموجـودات عامةً من كل وصف قبل وجودها كأفراد في الخارج، ويزعم أنه ليس ثمة لهـا أوصـافاً في الذهن يمكن تصورها قبل وجودها _ تجرد الإنسان من ماهيته وطبيعته كإنسان، وتـصفه بوصف هو وجوده في ذاته، وليس ثمة وصف للإنسانية بشكل عام، إنما يتوصل الفـرد إلى وصف نفسه بما يوجده هو في نفسه من صفات نافعة أو ضارة، وفي ذلك يـستوي مـع الحيوان فلا كرامة لأحدهما على الآخر فليس ثمة للإنسان صفة حين ولادتـه غـير صـفة وجوده، كما أن الحيوان عند ولادته ليست له صفة أخرى غير صفة وجوده، وأما الـشيء الذي يحدد ماهية الإنسان، فهو الشيء الذي يلصقه هو بنفسه ويعلقـه علـى شمـاعة الإنسانية _ إن صح التعبير _ فليس للإنسانية (ماهية) أو معنى عام يشترك فيه جميع الناس، وإنما يحدد كل إنسان معنى إنسانيته من خلال ممارساته، ليضيف إلى الإنسانية معنى آخـر، ربما سـبق إليه وربما لم يسبق إليه؛ فليس ثمة للإنسانية معنى مثالياً، تحكمه أديان أو أخلاق أو أعراف.

ولذلك فالوجودية ترى أن تحقيق الوجود للإنسان لا يتم إلا إذا أطلق العنان لرغباته، وأفسح المجال أمام شهواته بلا نظام أو قيد[٤].

إن هذه الفكرة فيها من المكابرة الشيء الواضح، مما لا يستلزم الرد عليها تفـصيلاً؛ فكل إنسان يعلم معنى إنسانيته ويعلم أن للإنسانية معان فاضلة، موجودة من قبل وجـوده

---

(1) انظر: موسـوعة الفلسـفة، د. عبد الرحمن بدوي: ٥٦٦/١-٥٦٧

(2) سـورة: (طـه: من الآية٥٢).

(3) انظر: التدابير الواقية من التشـبه بالكفار، د. عثمان دوكري: ١٩٤/١.

(4) انظر: نحو مذهب إسلامي في النقد والأدب، لعبد الرحمن رأفت الباشا، ص: (٧٩).

كفرد من أفراد جنس الإنسان. كما أن _ فكرة أن (الوجود يسبق الماهية) _ فيها دعوة للحياة بدون قيود، ليس فقط القيود الدينية والأخلاقية والأعراف السائدة والتقاليد[1]، بل حتى قيود الإنسانية التي كُرم بها الإنسان على سائر الحيوانات كما قال تعالى: (ولَقَد كَرمنا بنِي آدم وحملْناهم في الْبر والْبحرِ ورزقْناهم من الطيبات وفَضلْناهم علَى كَثيرٍ ممن خلَقْنا تفْضيلاً)[2]؛ فالقيود من صنع الإنسان الذي صنع ماهيته وكنهه بنفسه بعد وجوده كفرد من أفراد البشر.

ولكننا نجد هذه الفكرة _ مع حقارتها وبعدها عن المعقول _ تنتشر في الغرب، أو تنتشر بأيد آثمة تريد للإنسانية أن تصل إلى الدرك الأسفل من الحيوانية، بل وأدنى من ذلك، تحت غطاء الحرية المطلقة والتي يحقق المرء من خلالها كنهه وماهيته من تلقاء نفسه.

ولذلك في النهاية: "تقول وجودية سارتر إن الكون والحياة لا هدف لها ولا غاية.. ولا عدل فيها ولا حق. إنما كله ضلال وعبث. وإن الوجود الإنساني ضياع كله، ومن المستحيل أن يحقق الإنسان فيه وجوده! وإلى هنا نستطيع أن نقول إن هذا أيضاً تعبير باطني صادق عن فقدان الحياة معناها وهدفها حين تفقد العنصر الذي يوجد الترابط بين أجزائها ويعطي أحداثها تفسيرها ومعناها وهو الدين.

ولكن وجودية سارتر لا تقف عند تسجيل الضياع والعبثية وفقدان المعنى والغاية.. ولكنها تقدم حلاً للمشكلة! ويا له من حل! الحل أن يعيش كل إنسان وحده، وأن يحقق وجوده بأن يفعل ما يرى هو أنه حق وأنه واجب وأنه حسن!

في مسرحيته: (الجحيم هو الآخرون) يرسم الجحيم في نفس إنسان – إذا كان إنساناً! – تعذب من أول المسرحية إلى آخرها من وجود آخرين لا يكفون عن الوجود حوله، ويفرضون عليه أن يكونوا موجودين معه، فيمنعونه أن يكون نفسه.. أن يحس بذاتيته.. أن يفعل ما يمليه عليه هواه الشخصي. فيظل ساكناً ساكتاً يتعذب. يتطلع إلى اللحظة التي يذهب فيها عنه (الآخرون) لينطلق بوجوده الذاتي، ليحقق ذاته.. ولكنهم لا ينصرفون.. فيظل هو في الجحيم!"[3].

وعلى هذا فإن أبرز سمة من سمات الوجودية هي محاولة التحرر من كل القيم والأعراف والمثل، والجري وراء الحرية بكل طريق حتى ولو خالفت المبادئ السائدة، حتى

(1) انظر: الوجودية وواجهات الصهيونية، د. محسن عبد الحميد، ص: (١١).
(2) سورة: (الاسراء:٧٠).
(3) مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٤٩١-٤٩٢).

ولو خالفت الديمقراطية؛ فاعتبار مصلحة الجماعات اعتبار مفقود لدى الوجوديين، كما أن اعتبار موافقة الأديان والشرائع السماوية _ التي تقف في وجه إرادة الفرد أحياناً _ اعتبار منحى من باب أولى، وباختصار: فإنه ليس عند الوجوديين أي اعتبار لأي كائن ما دام يقف في وجه الحرية، فلا ينبغي عندهم لنظام من الأنظمة البشرية، ولا لدين من الأديان السماوية أن يقف عقبة في وجه دعوات التحرر، الأمر الذي نشر الإباحية السافرة في الغرب.

وما دعوات التحرر التي ينادي بها بعض الناس في العالم الإسلامي، إلا لوثة من لوثات هذا الفكر الوجودي التحرري، بل قد يكون مظهراً من مظاهر الوجودية المتلفعة بثوب شرقي، فالدعوى هي نفسها (الحرية)، مناهضةً للشرع أو موافقةً، فإن كانت مخالفة فالسبيل هو محاولة تطويع الشرع فإن لم يكن فالاعتراض، وعلى أساس هذه الدعوات قامت دعوة تحرير المرأة على يد رفاعة الطهطاوي[1] الذي تلقف فكره من نفس الموطن الذي انطلقت منه دعوة سارتر (من فرنسا)، وعاد لكي يؤلف كتابه: (تحرير المرأة)، وهو خطوة في سبيل التحرر والحرية، الحرية التي راجت في الغرب النصراني بفضل دعوة سارتر الوجودية، وغيرها من الشعارات التحررية الزائفة، تحرير المرأة من الحجاب، ثم من الأخلاق، ثم تحرير المجتمع بأسره من العبودية لله رب العالمين؛ فقد كان رفاعة في كتابه تحرير المرأة يتمسح شيئاً ما بالإسلام، ولكن الخطوة التالية لا بد وأن تكون أشد تحرراً؛ ففي كتابه: (المرأة الجديدة) لم يعد يذكر الإسلام؛ لأنه يقف في وجه الحرية التي يريد، فصار يعلن أن المرأة المصرية ينبغي أن تتقدم وتتحرر[2] كما فعلت أختها الفرنسية من قبل، وذلك حين استجابت لدعاوى التحرر والإباحية والتي في مقدمتها دعوة سارتر (الوجودية).

حينها سوف يحقق الإنسان وجوده في نظر (سارتر)، وعندها لا بد أن ينسى الذي يأمره و ينهاه ويسبب له الكبت، فالإنسان مسؤول والإنسان حر الإرادة، ولا يتم ذلك إلا حين يطغى وجود الإنسان على وجود الإله الذي خلق الوجود والماهية والتصورات والأفكار.

---

(1) هو: رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي، ابتعث إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة، ثم عاد إلى مصر، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية، ترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة، توفي عام: (١٢٩٠هـ)، انظر: الأعلام للزركلي: ٣/٥٥.

(2) انظر: في الحديث عن دور سعد زغلول في حياة مصر الحديثة كتاب: واقعنا المعاصر ص: (٣١١) للشيخ: محمد قطب.

ونحن نقول: حينها ستبدأ عبادة الهوى التي يسعى إليها سارتر، لينقل نفسه ومن معه من عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة كل شيء سواه نفسه وترنوا إليه، من الحرية الحقيقية إلى الحرية الزائفة، يقول سارتر: "إن ما ينبغي أن تكون عليه حياة الوجودي: تلبية كل ما تدعوه إليه شهواته، ونبذ كل التقاليد والتعاليم الاجتماعية وتحطيم القيود التي ابتدعتها الأديان ... ثم تطليق الماضي وسلخ المرء نفسه منه متجهاً إلى الأمام .. إلى المستقبل قفزاً .. إلى المصير المحتوم إلى الهاوية.. إلى الموت والعدم الأبدي"[١].

فأول خطوة إلى الوجودية هي التي دعا إليها رفاعة والخطوة الأخيرة هي التي وصل إليها سارتر، فمن دعوة صغيرة إلى إنكار الحي القيوم.

ولذلك إذا فهمنا هذه المعادلة، فقهنا ذلك العد التنازلي، في القيم والمبادئ عند المتحررين، من العبث والتمرد واللامعقول[٢]، لم نستغرب قول الشاعر المتحرر في وصف من افتتن قلبه بهن – حين وصل التحرر في ضميره إلى الدرجة السفلى من التحرر [٣] – حيث يقول:

فإذا الظباء الآنسات	تمر لا تلوي بمثلي
وإذا الخصور الضامرات	تجل عن وصف وقول
وإذا الجفون الناعسات	تكاد تقتل أي قتل
وإذا الوجوه المشرقات	تكاد تخطف كل عقل
يا قلب هذي كعبة الد	دنيا فقف يوماً وصل
للعاريات كأنهن	ن عرائس البحر الأجل"[٤].

إنها عبودية الهوى، كما قال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[٥]، وقال: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)[٦]، ولقد سمى رسول الله ﷺ من جرى وراء الشهوات وأعرض عن الله: عبداً لتلك الشهوات، فقال ﷺ: ((تعس

(1) الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، تأليف: ناصر القفاري وناصر العقل، ص: (١١٧).
(2) الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، تأليف: ناصر القفاري وناصر العقل، ص: (١١٨).
(3) وهي أن يجد الإنسان نفسه وينسى وجود غيره ولو كان خالقه ومولاه، وهذه الدرجة في نظرنا هي عبادة الهوى واتخاذه إلهاً يعبد من دون الله.
(4) قولي في المرأة، بقلم مصطفى صبري، ونقله المؤلف انتقاداً له، ص: (٣٠).
(5) سورة: (الجاثية:٢٣).
(6) سورة: (الفرقان:٤٣).

عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض))[1]، وعليه فقد يكون الإنسان عبداً للدنيا، وفي ذلك قال المناوي: "عبد الدنيا المعتكف على خدمتـها ومراعا ا، وعليه يصح أن يقال ليس كل إنسان عبد الله"[2]، فمن كان على هذه الحال من اتباع الهوى صح أن يطلق عليه أنه عبد للدنيا؛ فإنه لما تشـبه بالكفار في عباد م لأصنامهم وتلبيتهم لندائها وعكوفهم عليها، فهو عاكف على دنياه ملبٍ لرغبات هواه، فصار عبـداً لهواه ودنياه، وهو ما تأمر به الوجودية في العصر الحديث.

وفي إعجاب بالمذهب الوجودي يقول أحد المتأثرين به في إطراء نون ليلى الذي استطاع أن يعبر عن الفلسـفة الوجودية قبل وجودها عن طريق شعره الذي يصف فيه معشوقته: "إن ليلى في كل مكان وفي كل زمان.. وهو ضائع من أجلها وفي سبيلها.. وإذا أضاعه الحب، فإنه قد **وجد نفسه** في هذا الضياع. ولو عاش مجنون ليلى في زماننا وترجمنا شعره إلى أية لغة أوروبية لجعلوه زعيماً للفلسـفة الوجودية.. فقد استطاع بصدقه وإحساسه العميق أن يعبر القرون أحد عشر قرناً حتى يعايشنا في القرن العشرين ويتقدمنا جميعاً.. بالمعنى العميق والكلام الجميل.. مجنون؟ ليكن، ولكن ليس أعقل من كلامه الصادق، كلاماً من فلاسفة القرن العشرين. من أتى ذه المعاني، ثم كيف واتته هذه الموسـيقى وهو عريان يتقلب على رمل كالنار، وفي داخله الجوع ينهشه والعطش يكويه، والجنون يلعب به"[3]، وهكذا فإن الشاعر وجد نفسه في هذا الحب الأعمى الذي يشبه عبادة المعشوق، وهذه هي الفلسـفة الوجودية التي يحترمها الأوربيون والتي وجدنا من تراثنا الشعري ما يترجمها قبل وقوعها، وبذلك يكون العرب قد سبقوا أوروبا إلى هذه الفلسـفة الجيدة التي توصلوا إليها.

وكان من أوائل من اعتنى بتقديم فكر سارتر إلى العالم العربي الإسـلامي: سـهيل إدريس بعد عودته من باريس، في أوائل الخمسـينات، وتأسـيسه مجلةَ «الآداب» الـتي تحولت فيما بعد إلى دار للنشر[4].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: ٢٣٦٤/٥، برقم: (٦٠٧١).

(2) التعاريف، لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي، ص: (٥٠١).

(3) الحب والفلوس والموت وأنا، للكاتب أنيس منصور، ص: (١٦١).

(4) مقال بعنوان: كشف الحساب فصل من سـيرة، للكاتب: سمير عطـا الله، جريدة الشـرق الأوسـ ـ ـط، عدد: (٩/١١/٢٠٠١).

"ويعتبر الدكتور عبد الرحمن بدوي من كبار رواد الوجودية في العالم الإسلامي المعاصر، إن لم يكن أكبر رائد لها على الإطلاق"[1]، يقول متحدثاً عن نفسه في موسـوعة الفلسـفة التي ألفها: "فيلسـوف مصري، ومؤرخ للفلسـفة. فلسفته هي الفلسـفة الوجودية في الاتجاه الذي بدأه هيدجر. وقد أسهم في تكوين الوجودية بكتابه: (الزمان الوجودي)، الذي ألفه في سـنة: (١٩٤٣) وقدمه رسالة للحصول على الدكتوراه في الفلسـفة من كلية الآداب وحصل ا على إجازة الدكتوراه في الآداب تخصص فلسـفة. وتمتاز وجوديته عن وجودية هيدجر وغيره من الوجوديـين بالـ عة الديناميكية التي تجعل للفعل الأولوية على الفكر، وتستند في استخلاصها لمعاني الوجود إلى العقل والعاطفة والإرادة معاً، وإلى التجربة الحية، وهذه بدورها تعتمد على ملكة الوجدان بوصفها أقدر ملكات الإدراك على فهم الوجود الحي"[2].

ويقول عنه صديقه وتلميذه أنيس منصور: "لا شك أنا من أشد الناس إعجاباً بأستاذي د. عبد الرحمن بدوي. أستاذ الفلسـفة وعالمها وباحثها والذي نقل إلى العربية كثيراً من المصطلحات الفلسفية التي لم نعرف لها مرادفاً خصوصاً (الفلسـفة الوجودية) الألمانية التي دعانا إليها. واختلفنا حولها وحوله. وكنت أول من ألف كتاباً عن (الفلسـفة الوجودية)، في عبارة سهلة، سـنة: (١٩٥١م). وقد أعجبه الكتاب ووجد من دواعي الأسف والحزن العميق أنني تركت التدريس في الجامعة واستسلمت لمغريات الصحافة"[3].

ويقول هذا الأخير متأثراً بالفلسـفة الوجودية: "ولا تزال الصورة الجميلة الساحرة الصوفية للفيلسـوف الوجودي الألماني هيدجر هي الصورة ولا صورة غيرها. كان يقول عن نفسه: إنني ركعت عند قدمي معبودتي. وأحنيت رأسـي وأطلت الركوع والسجود صابراً سعيداً بذلك. ولكن معبودتي لم تطلعني إلا على القليل جداً من أسرارها! أما معبودته فهي: الحقيقة!"[4].

(1) انظر: التدابير الواقية من التشـبه بالكفار، د. عثمان دوكري: ١٩١/١

(2) انظر: موسـوعة الفلسـفة، د. عبد الرحمن بدوي: ٢٩٤/١-٢٩٥.

(3) كائنات فوق، أنيس منصور، ص: (٤٥).

(4) كائنات فوق، أنيس منصور، ص: (١٤)، ولكن يلاحظ على أنيس منصور أنه بدأ يرجع في كتاباته عن هـذا المنهج، فلعله تاب ورجع عن هذه الأقوال.

المبحث السادس: القومية والوطنية:-

القومية هي: "أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينبغي أن يكون ولاؤهم واحداً وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم، وإن كان معناه أيضاً السعي في النهاية إلى توحيد الوطن بحيث تجتمع القومية الواحدة في وطن شامل، فيكون الولاء للقومية مصحوباً بالولاء للأرض.. ولكن الولاء للقومية يظل هو الأصل ولو لم تتحقق وحدة الأرض"[1].

والوطنية هي: "أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن، والتعصب له، أياً كانت أصولهم التي ينتمون إليها، وأجناسهم التي انحدروا منها. أي أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم واللغة أو الجنس"[2].

ولقد جاء الإسلام بإلغاء كل هذه الأنواع من التفرقة العنصرية والنعرات القبلية التي كانت موجودة في الجاهلية[٣]، قال تعالى: (إِذْ جعلَ الذين كَفَروا في قُلُوبِهم الْحميةَ حميةَ الْجاهلية) [١].

---

(1) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥٥٤).

(2) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥٥٤).

(3) "الجاهلية: تعني فكراً وأوضاعاً وحالات للفرد والمجتمع التي تشمل عقيدته وفكره ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية، وكل ما ينظم أمور حياته غير المنبثقة من كتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وبذلك فهي حالة ووصف يقابل وصف الإسلام. وقد انقطعت الجاهلية العامة بمبعث النبي، صلى الله عليه وسلم. والجاهلية بمعناها الخاص غير مرتبطة بعصر من العصور أو بحقبة تاريخية معينة أو بلد ما، وإنما هي حالة

وقال رسـول الله ﷺ: ((ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية))[٢]، قال شيخ الإسلام _ رحمه الله _: "وتكون دعوى الجاهلية في العصبية"[٣].

وعن أبي بن كعب ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ: ((من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ن أبيه، ولا تكنوا))[4]، قال المناوي _ رحمه الله _: "إذا رأيتم الرجل يتعزى أي: ينـتسب بعزاء الجاهلية، أي: بنسبها والانتماء إليها، يقال: اعتزى إليه أي انتسب وانتمى، وتعزى كذلك، فأعضوه، أي: اشتموه ن أبيه، أي: قولوا له: اعضض ن أبيك، أو بذكره، وصرحوا بلفظ الذكر ولا تكنوا عنه بالهن تنكيراً وزجراً"[5]، وهذه الطريقة من الشتم _ في مقابل الإساءة _ لم نعهدها من النبي ﷺ في كثير من المواضع وإنما جاءت هنا ذا الأسلوب؛ لأن المسـيء في هذه الحالة يجمع بين أمور، منها: أنه تبجح بذكر مآثر الجاهلية، وأنه استعلى على غيره من المسـلمين، والأمر الأعظم: أنه تشـبه بأهل الجاهلية وذلك بافتخاره م أمام المسـلمين، فهو لم يتشـبه م فحسب، بل استعلى م، وفي ذلك محبة للكفار وتفضيل لهم على إخوانه المسـلمين[٦].

كما أثر عنه ﷺ قوله لأبي ذر ﷺ لما عير رجلاً بأمه: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[٧]، فتقيـيم الإنسان بنسبه أو قرابته: من صفات أهل الجاهلية، فليس في الإسلام فخر بالأبـاء والأجداد، لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى، وعن أبي هريرة ﷺ عنه قال: قـال رسـول الله ﷺ: ((إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقـي أو

تنسحب على كل من تلبس ا سـواء كان فرداً أو مجتمعا". انظر: الموسـوعة الميـسرة في الأديـان والمـذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٣٥/٢

(1) سـورة: (الفتح: من الآية٢٦)، قال الطبري – رحمه الله – في تفسـيره: "يعني تعالى ذكره بقوله: (إذ جعـل الذين كفروا في قلو م الحمية حمية الجاهلية): حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتـاب المقاضاة الذي كتب بين يدي رسـول الله صلى الله عليه وسلم والمشـركين: بسم الله الرحمن الرحيم وأن يكتـب فيه محمد رسـول الله وامتنع هو وقومه من دخول رسـول الله صلى الله عليه وسلم عامه ذلك"، ١٠٣/٢٦.

٢ - رواه البخاري في صحيحه: ٤٣٦/١، برقم: (١٢٣٥)، ومسلم في صحيحه: ٩٩/١، برقم: (١٠٣).

٣ - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٣٣/١

(4) رواه الإمام أحمد في مسـنده: ١٣٦/٥، برقم: (٢١٢٧١)، وصـححه الألبـاني في سلـسلة الأحاديـث الصحيحة: ٥٣٧/١، برقم: (٢٦٩).

(5) فيض القدير: ٣٥٧/١

(6) انظر مبحث: موقف السـنة من التشـبه.

٧ - رواه البخاري في صحيحه: ٢٢٤٨/٥، برقم: (٥٧٠٣)، ومسلم في صحيحه: ١٢٨٢/٣، برقم: (١٦٦١).

فاجر شقي أنتم بنوا آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن))[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: ((من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية))[٢]، فمن قاتل من أجل أي عنصرية صغيرة كانت أو كبيرة يدخل تحت هذا الوعيد منه ﷺ، لا فرق بين من قاتل من أجل عصبية قبلية أو عصبية وطنية أو عصبية قومية.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وقد تاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع[٣] أنصارياً فغضب الأنصار غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصاري يا للأنصار، وقال المهاجري يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ فقال: ((ما بال دعوى الجاهلية))، ثم قال: ما شأنهم فأخبر بكسعة المهاجري للأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: ((دعوها فإنها خبيثة))[4]، قال شيخ الإسلام: "فهذان الاسمان المهاجرون والأنصار، اسمان شرعيان جاء بهما الكتاب والسنة وسماهما الله بهما كما سمانا المسلمين من قبل وفي هذا. وانتساب الرجل إلى المهاجرين أو الأنصار: انتساب حسن محمود، عند الله وعند رسوله، ليس من المباح الذي يقصد به التعريف فقط، كالانتساب إلى القبائل والأمصار ولا من المكروه أو المحرم، كالانتساب إلى ما يفضي إلى بدعة أو معصية. ثم مع هذا لما دعا كل منهما طائفته منتصراً بها أنكر النبي ﷺ ذلك وسماها دعوى الجاهلية، حتى قيل له إن الداعي بها إنما هما غلامان، لم يصدر ذلك من الجماعة، فأمر بمنع الظلم وإغاثة المظلوم ليبين النبي ﷺ أن المحذور إنما هو تعصب الرجل لطائفته مطلقاً، فعل أهل الجاهلية فأما نصرها بالحق من غير عدوان فحسن واجب أو مستحب"[5]، فنهاهم النبي ﷺ عن التداعي بهذه الألقاب ونسبها إلى الجاهلية، رغم أنها

1 - رواه أبو داود في سننه: ٣٣١/٤، برقم: (٥١١٦)، وصححه الألباني بلفظ آخر في صحيح سنن الترمذي: ٢٥٤/٣، برقم: (٣١٠٠).

2- أخرجه مسلم: ١٤٧٦/٣، برقم: (١٨٤٨).

(3) "الكسع: ضرب الدبر باليد أو بالرجل"، انظر: فتح الباري: ٦٤٩/٨.

(4) أخرجه البخاري: ١٢٩٦/٣، برقم: (٣٣٣٠)، ورواه مسلم بمعناه: ١٩٩٨/٤، برقم: (٢٥٨٤).

٥ - اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٤١/١.

ألقاب إسلامية، وما ذلك إلا لأ ا استخدمت في هذا الموضع على وجه التفرقة العنصرية بين المسلمين.

فلم يطلق النبي ﷺ على المسلمين من أهل مكة وأهل المدينة هذا الإطلاق إلا لأنه خالٍ من العصبية، أو التفرقة العنصرية، يقول شيخ الإسلام: "وذلك أن الانتساب إلى الاسم الشرعي أحسن من الانتساب إلى غيره ألا ترى إلى ما رواه أبو داود عن أبي عقبة وكان مولى من أهل فارس، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أحداً فضربت رجلاً من المشركين فقلت خذها مني وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إلي فقال: ((هلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري))[1]، حضه رسول الله ﷺ على الانتساب للأنصار وإن كان بالولاء وكان إظهار هذا أحب إليه من الانتساب إلى فارس بالصراحة، وهي نسبة حق ليست محرمة"[2]، كل هذا حرصاً منه ﷺ على أن يكون الولاء والبراء من أجل الدين، بعيداً عن أي نعرة قومية.

وهكذا جاء الإسلام ملغياً لكل ما يجلب التعصب العنصري المقيت، فلا فرق في الإسلام بين أسود وأبيض ولا بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، قال تعالى: (يا أيها الناس إنا خلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنثَى وجعلْنَاكُم شعوباً وقَبَائِلَ لتعارفُوا إن أَكْرمكُم عند الله أَتقَاكُم إن الله عليم خبير)[3]، والله عليم خبير بما تميز به بعضكم على بعض بالتقوى التي في قلبه[4]، وليس المقياس هو الحسب والنسب، ولذلك قال النبي ﷺ: ((سلمان منا أهل البيت))[5]، وسلمان فارسي الأصل، ولما باع صهيب الرومي ماله كله الذي اكتسبه خلال عمر طويل، وكان الثمن هو الهجرة إلى النبي ﷺ وجواره، استقبله النبي ﷺ بقوله: ((أبا يحيى ربح البيع)) ثلاثاً[6]، وأظهر النبي ﷺ من العداوة لعمه أبي لهب _ والذي جاء القرآن بالوعيد الشديد في شخصه: (تبت يدا أَبِي لَهبٍ وتب، ما أَغْنى عنه مالُه وما كَسب، سيصلَى ناراً ذَات لَهبٍ)[7] _ وهو العربي القرشي السيد في قومه، ما أظهر أضعافه من

---

١ - رواه أبو داود: ٣٣٢/٤، برقم: (٥١٢٣)، وأحمد في المسند: ٢٩٥/٥، برقم: (٢٢٥٦٨)، وانظر: ضعيف سنن أبي داود، ص: (٥٠٧)، برقم: (١٠٩٦).

(2) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٤٦/١.

(3) سورة (الحجرات:١٣).

(4) انظر تفسير الطبري: ١٤٠/٢٦.

(5) المعجم الكبير للطبراني: ٢١٢/٦، برقم: (٦٠٤٠)، ورواه الطبري في تاريخه مسنداً: ٩١/٢.

(6) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: ٤٥٢/٣، برقم: (٥٧٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(7) سورة: (المسد:١-٢-٣).

المودة لسلمان وصهيب وبلال الحبشي رضي الله عنهم جميعاً.

وعلى هذا ربى النبي ﷺ صحابته الكرام، حتى رأينا الصحابة لا يفاضلون فيما بينهم إلا بالتقوى،، وقال عنه عمر ﷺ: ((أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا)) [1].

استطاع النبي ﷺ أن يفرز جيلاً للتاريخ لا يعرف سوى الإسلام علاقة وحيدة، ولا يعرف معياراً سوى الإيمان حباً وتفضيلاً، بعد أن كان العرب في **الجاهلية** لا يفاضلون إلا بالحسب والنسب، ولا يدعون الفخر بالأنساب والأحساب، والولاء عندهم ولاء ضيق محدود بالعشيرة والقبيلة وأبناء العمومة، الولاء عندهم للمخلوق بدل الخالق، حتى قال قائلهم:

أنا من غزية إن غوت غويت　　　وإن ترشد غزية أرشد

ولما كان العرب في الجاهلية يذكرون الآباء والأجداد في المحافل، وعند فراغهم من مناسكهم[2]: اهم الله عن ذلك فقال: (فَإِذَا قَضيتم مناسككُم فَاذْكُروا اللهَ كَذكْركُم آباءَكُم أو أَشد ذكْراً)[3]، فصار الولاء للخالق بدل المخلوق، وتبصرت عقولهم، واتسع أفقهم، كما اتسعت بعد ذلك رقعتهم حتى امتدت إلى مشارق الأرض ومغارا، لما تخلصوا من أدران الجاهلية وعبيتها[4].

العرقيات في الملل المحرفة والنحل الضالة:

لقد رزحت البشرية تحت هذه الجاهليات لما ابتعدت عن منهج الأنبياء؛ فلم يكن العرب في الجاهلية وحدهم قد وقعوا في هذا النوع من العنصرية، فالأديان الهندية القديمة قامت على التفريق بين أنواع من البشر على أساس طبقي مرده العنصر والنسب، يقول د. علي عبد الواحد وافي: "وذلك أن أسفار الفيدا وقوانين مانو لا تعترف بمبدأ المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية المشتركة، بل تقرر التفاضل بينهم بحسب عناصرهم ونشأتهم

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٣٧١/٣، برقم: (٣٥٤٤).

(2) انظر: تفسير الطبري _ رحمه الله _: ٢٩٦/٢.

(3) سورة: (البقرة: من الآية ٢٠٠).

4 - إن مما لا ينكر أن من أسباب تخلف المسلمين في هذا العصر هو: الاهتمام بالعصبيات والقبليات، وما أمرهم الله به أوسع وأعمق من ذلك بكثير، ولو عرفوا ما قيمة دينهم وجعلوه هو فخرهم لاعتزوا وما ذلوا بين الأمم، ولكنهم لما طلبوا العزة من القوميات والوطنيات، لحقتهم الذلة، والله المستعان.

الأولى. فتزعم أن الإله براهما[1] قد خلق أربع طبقات من الناس، وخلق كل طبقة من هذه الطبقات من طبيعة خاصة ومن موضع خاص من جسمه. فخلـق طبقـة (البرهميـين) Brahmans من فمه، وطبقة (الكشتريـين) Kachtriyas من ذراعـه، وطبقـة (الفيسائيـين) Vaisyas من فخذه، وطبقة (الشودرا) أو المنبوذين Soudras مـن قدمه. ولما كان أشرف الأعضاء وأطهرها هو ما علا السرة، وأشرفها وأطهرها جميعاً هـو الفم، ويليه في ذلك الذراع، ولما كان أحط الأعضاء هو ما كان أسفل السرة، وأحطهـا جميعاً هو القدم، لذلك كان أشرف الناس جميعاً وأطهرهم بحسب العنصر والنـشأة الأولى هم الذين انحدروا من فم براهما وهم (البرهمنيون)، ويليهم في الفضل الذين انحـدروا مـن ذراعه وهم (الكشتريون)، وكان أحط الطبقات الإنسانية الذين انحدروا من فخذه وقدمـه وهم (الفيسائيون) و(الشودرا) أو المنبوذون، وأكثرهم رجساً ونجـساً هـم (الـشودرا) المنحدرون من قدم براهما"[٢].

كما أن التفرقة العنصرية من سمات دين اليهود المبتدع؛ فإن دينهم قائم على أن بني إسرائيل شعب الله المختار، وينظرون إلى من سـواهم من الناس نظرة وضـيعة في سـلم الإنسانية[3]، وهم من يسمو م بـ (الأميـين) "وهي الترجمة العربيـة للكلمـة العبريـة ((الجويم)) وهي أحد المصطلحات التي يطلقها اليهود على غير اليهودي، وتعـني عنـدهم الكفرة، والوثنيـين، و الأنجاس، والحيوانات"[٤]، ولقد بين الله تعـالى ذلـك في القـرآن الكريم، فقال: (ومن أَهلِ الْكتابِ من إِنْ تأْمنه بِقنطَارٍ يؤده إِلَيك ومنهم من إِنْ تأْمنه بِدينارٍ لا يؤده إِلَيك إِلا ما دمت علَيه قَائماً ذَلك بِأَنهم قَالُوا لَيس علَينا فـي الأُميـين سـبِيلٌ ويقُولُونَ علَى الله الْكَذب وهم يعلَمونَ)[5]، قال ابن كثير: "أي إنما حملهم على جحـود

---

(1) "براهما: براهما اسم الإله في اللغة السـنسكريتية، وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاته الذي لا تدركه الحواس إنما يدركه العقل، فهو في اعتقادهم مصدر الكائنات كلها الذي لا حد له، وهو الأصل الأزلي المستقل، الـذي منـه يستمد العالم وجوده ومن معاني براهما عندهم رب الصلاة (أي الذي لا توجه الصلاة إلا إليه)". انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٨٥/٢.

(2) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، للدكتور علي عبد الواحد وافي، ص: (١٩٣).

(3) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، للشيخ محمد قطب، ص: (٧٩).

(4) انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٩٧٥/٢.

(5) سـورة: (آل عمران:٧٥).

الحق أ م يقولون ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميـين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا"(١).

ولقد رد الله عليهم برد مفحم في هذا الزعم الذي زعموه من عند أنفسهم، فقـال جل وعلا: (قُلْ إِنْ كَانت لَكُم الدار الآخرةُ عند الله خالصةً من دون الناسِ فَتمنوا الْموت إِنْ كُنتم صادقين)(٢)، وقال: (قُلْ يا أَيها الذين هادوا إِنْ زعمتم أَنكُم أَولياءُ لله مـن دون الناسِ فَتمنوا الْموت إِنْ كُنتم صادقين، ولا يتمنونه أَبداً بِما قَدمت أَيديهم واللـه علـيم بِالظالمين)(٣).

القوميات الأوروبية:

وبطبيعة حال الأمم الأوروبية الكافرة التي قامت على فصل الدين عـن الدولـة _ بغض النظر عن الدين الذي يعتنقونه _ أن تكتوي بنار القوميات؛ ما دامت لا يجمعها شيء يوحد كيا ا المتفرق، فنشأت هناك قوميات عدة، منها القومية الألمانية والقومية الفرنسـية، وفي بريطانيا انتشر الزعم بتفوق الرجل الأبيض وتفضيله على غيره، وفي أمريكـا قامـت الحرب الأهلية ما بين: (١٨٦١- ١٨٦٥م) بسبب العنصرية(٤)، وغيرها من القوميات التي احترق الغرب بنيرها.

يقول الشيخ محمد قطب: "وقد رأى النصارى عند احتكاكهم بالمسـلمين عالمـاً مختلفاً تمام الاختلاف، عالماً لا كنيسة فيه ولا (بابا) ولا رجال دين.. إنما فيه علماء يتفقهون في الدين، وغالباً ما يتفقهون في علوم أخرى مع العلوم الدينيـة كالطـب أو الفلـك أو الرياضيات.. الخ.. بلا تعارض بين تفقههم هنا وهناك.. وليس لهم – مع تفقههم – كهانة على الناس ولا سلطان إلا توقير العلماء من أجل علمهم فحسب، ولا وساطة لهم بين الناس

---

(1) تفسـير القرآن العظيم: ٣٧٥/١.

(2) سـورة: (البقرة:٩٤).

(3) سـورة: (الجمعة:٦-٧).

(4) انظر: الموسـوعة العربية العالمية: ٦٧٧/١٦.

وبين ر م الذي يعلمهم أنه لا وسطاء ولا شفعاء عنده، وأنه ما على العباد إلا أن يدعوه، فيستجيب لهم بلا وسـيط: (وقَالَ ربكُم ادعونِي أَستجِب لَكُم)(1)، (وإِذَا سأَلَك عبـادي عني فَإِني قَرِيب أُجِيب دعوةَ الداعِ إِذَا دعانِ)٢.

عندئذ تحركت نفوس الذين يرغبون في الإصلاح لمحاولة إصلاح مفاسد الكنيـسة المتراكمة خلال القرون، وخلع السلطان الطاغي الذي فرضه البابا ورجاله على الناس باسم الدين. ولكن محاولا م كانت كالرقعة في الثوب الخلق بسبب رفضهم الدخول في الإسلام، وسعيهم إلى الإصلاح بغـير عدته الحقيقية التي تؤدي إليه.. واستغل الملوك هذه الحركات لحسا م الخاص كما أسلفنا ، لا يريدون الإصلاح الديني الحقيقي، ولا يريدون للنـاس أن يستقيموا على دين صحيح فيخرجوا على طاعتهم ! إنما رأوا فيها أداة تـساعدهم علـى الانسلاخ من سلطان البابا فاستغلوها في هذه الحدود.

ولم يكن الملوك وحدهم وراء اللعبة، إنما كان وراءها كذلك اليهود المتربصون لأية فرصة تسـنح لهم للانتقام من النصارى الذين اضطهدوهم وأذلوهم على أساس أ م تسببوا في صلب المسـيح٣. فلما قامت حركات تؤذن بتفريق كلمة النصارى وتشتيت سـلطان الكنيسة، كان من صالحهم ولا شك أن يحتضنوها ويوجهوها خلسة أو علانية لتوسـيع الشقة بينها وبين الكنيسة الأصلية، وكل فرقة – سـواء قامت باسم الإصلاح أو ـدف الإفساد – هي في النهاية في صالح اليهود ما دامت لا تؤدي إلى إصلاح حقيقي ! وإن صلة اليهود بالبروتستانتية بالذات لأمر معلوم لكل من يدرس تاريخ تلك الحركة، وإن أنكر تلك الصلة هؤلاء وهؤلاء! هكذا كان مولد القوميات في أوربا.. حركات إصلاحية مبتورة غير ناضجة، استغلها ذوو الأهواء لحسا م الخاص، فأفسدوها وحولوها إلى اتجاه شرير"٤.

وهكذا قامت الحركات الدينية الإصلاحية في أوروبا يحمـل بعـضها القوميـة في طيا ا، كما هو حال الحركة الدينية التي قام ا لوثر والتي تدعى: (حركة إصلاح الـدين على وحدة أوربا الثقافية الدينية)، كل ذلك مما أورث الأوربيـين الفـشل والتنـازع والتمزق٥، حتى نشأ ما يسمى بالحروب الإيطالية: و"الحروب الإيطالية هي حروب منقطعة

(1) سـورة غافر (٦٠)

2 - سـورة البقرة (١٨٦)

(3) يعلم المسلمون من القرآن أن المسـيح عليه السلام لم يصلب، لقوله تعالى: (وما قَتلُوه وما صلَبوه ولَكن شبه لَهم وإِن الَّذين اختلَفُوا فيه لَفي شك منه ما لَهم بِه من علْمٍ إِلا اتباع الظَّن وما قَتلُوه يقيناً، بلْ رفَعه الله إِلَيه وكَانَ الله عزِيزاً حكيماً) (النساء:١٥٧-١٥٨).

(4) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥٦٠-٥٦١).

5 - ماذا خسر العالم بانحطاط المسـلمين، لأبي الحسـن الندوي، ص: (٢١٢).

نشبت بين فرنسا وأسبانيا خلال فترة استطالت خمسة وسـتين عامـاً (١٤٩٤-١٥٥٩) وكانت هذه الحروب مظهراً للتنافس الدولي بين هاتين الدولتين من أجل السـيطرة والنفوذ في أوربا، والرغبة في التوسع الإقليمي داخل القارة، وقد بدأ هذا التنافس بين فرنسا وأسبانيا قبل أن يلفظ القرن الخامس عشر أنفاسه الأخيرة، واقترن بصراع حـربي مريـر خاضـته الدولتان، وكانت شبة الجزيرة الإيطالية ميداناً لتصارع الجيوش الفرنسـية والأسبانية خلال المراحل الأولى لهذه الحروب التي تطورت بعد ذلك إلى نضال أوربي اتسع نطاقه وانتقل إلى ميادين متعددة خارج شبة الجزيرة الإيطالية"[1].

ولقد ظل المسلمون خلال العصور السابقة بعيدين عن تلك العصبيات الجاهلية[2] إلا ما كان من ممارسات لا تعد تياراً جارفاً يحصر أنواع الولاء في قوميات ضيقة، ولقد كـان من أسباب ثبا م على توحيد الولاء من أجل الإسلام: أ م كانوا تحـت رايـة واحـدة، سـواء كان ذلك مثلاً في الدولة الأموية أو العباسـية أو العثمانية.

ولكن القوميات بدأت تطل من وراء أنقاض الدولة العثمانية، وربما كان ذلك مـن إرهاصات السقوط لهذا الصرح الشامخ، وكانت أول قومية منظمة خرجـت في العـصر الحديث: الطورانية التركية.

الطورانية التركية:

ظهرت الدعوة إلى الطورانية التركية على يد جمعية الاتحاد والترقي[3]، والطورانية: حركة قومية ظهرت بين الأتراك العثمانيـين في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل

---

1 - انظر: أوروبا في مطلع العصور الحديثة، د. عبد العزيز محمد الشناوي: (١٥٤/١).

(2) صحوة الرجل المريض، ص: (١٩٥- ١٩٦).

(3) "جمعية الاتحاد والترقي: جمعية تركية نشأت في أوربا (يقال إ ا تأسست عام ١٨٩٨-١٣١٦هـ ـ تقريبـاً) كحركة مناوئة لنظام الخلافة الإسلامية العثمانية تحت ستار التجديد والتحديث في الدولة العثمانية. وتكونت في البدء تحت اسم جمعية تركيا الفتاة (تأسست قبل عام ١٨٦٥م-١٢٨٢هـ)، التي ركزت على النشاط الفكري، ثم تدرج العمل فيها، فكونت الجمعية خلايا سرية في الآستانة، حيث طاردهم رجال السلطان عبد الحميد، فنقلوا نشاطهم إلى باريس وسالونيك فانضم إلى صفوفهم العديد من يهود الدونمة، الذين أصبحوا من قيادات الحركـة بعـد قيـامهم بالانقلاب على الدولة العثمانية عام ١٩٠٨م، وأعلنوا دستوراً جديداً للبلاد، ثم ما لبثوا أن نحّوا السلطان عن العرش، وفي عام ١٩٢٤م تم إلغاء الخلافة الإسلامية وإعلان الطورانية كقومية تركية، وعملوا على التتريك ومعاداة العرب". انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٣٨/٢.

القرن العشرين، كانت تستهدف تتريك العناصر العثمانية، واشتقت اسمها من ((طوران)) أو ((توران)) أي بلاد توره، باعتبار أ ا مهد الشعوب التركية من شرقية وغربية، و دف الطورانية إلى تزكية النعرة القومية الطورانية بين الأتراك، دون غيرهم من المواطنين العثمانيـين، وتحقيق سـيادة العنصر التركي على غيره من العناصر المكونة للدولة. وفي بداية هذه الدعوة قبل الحرب العالمية الأولى استخدمت عدة وسائل لتحقيق أهدافها بتكوين جمعيات ومنتديات مثل: ((ترك أوجاغي)) أي: العائلة التركية، والتي تفرعت عنها جمعيات مختلفة تتعاون في تحقيق أهدافها، في تخليص اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسـية، والتنقيب عن ألفاظ تقوم مقامها من التركية القديمة، وهو ما تحقق على يد الكماليـين. كما تم رابطة ((ترك درنكي)) بدراسة أحوال الشعوب التركية وتاريخها وبث الفكر القومي بالإشادة بعظماء الطورانيـين في القديم والحديث، كما عنيت بالأناشيد والأغاني التي تمجدهم"(1).

وفي الحقيقة كانت الطورانية التركية في الأصل صناعة يهودية، "فاليهود المتمسلمون، المعروفون بيهود الدونما، الذين هاجروا من المغرب واستوطنوا البلقان كانوا من المنظمين الحقيقيـين لحزب الاتحاد والترقي الذي نادى بالقومية الطورانية (وهو قومية الأتراك في جاهليتهم قبل دخولهم في الإسلام) ورفع شعار الذئب الأغبر (وهو معبود الأتراك في جاهليتهم) كما نادى بضرورة (تتريك) الدولة، أي جعل المناصب فيها وقفاً على الأتراك وحدهم ومعنى ذلك – كما حدث في الفعل – أن يحس العرب أ م مظلومون في ظل الحكم التركي وأ م مهضوموا الحقوق.. عندئذ تلقفتهم الصليبية – حليفة اليهود في الحرب ضد الإسلام – فأرسلت إليهم (لورنس) ليؤجج فيهم روح القومية العربية رداً على القومية الطورانية.. ويؤلف الثورة العربية الكبرى ضد دولة الخلافة ! وببساطة تم الأمر.. في غفلة من المسـلمين"(2).

"وكان السلطان عبد الحميد الثاني يطارد تلك الجماعات السرية التي تنادي بالعروبة والقومية العربية كما يضيق على النشاط السري لحزب الاتحاد والترقي، لإدراكه المقـصود من ورائهما، فيتخذ ذلك ذريعة لمزيد من الكيد ضده ويتهم بالدكتاتورية الطغيان في داخل تركيا، وباضطهاد الأقليات خارجها ! وتصنع من هذه وتلك مادة للدعاية ضـده ونـشر

(1) انظر: الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٨٨/٢-١٠٨٩

(2) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: ٥٨٠-٥٨٢

البغض والكراهية له، تمهيداً لما يخطط من عزله، عقاباً له على عدم موافقته علـى إنـشاء الدولة اليهودية!"[1].

"وبالتالي فإن الطورانية دعوة لتقليد دعاوى القومية التي نشطت في أوربا"[٢]

وأخذت الطورانية التركية نصيبها من الأدب التركي وكان علـى رأس الكتـاب الطورانيـين: ضيا كوك ألب[٣]، الذي لقب بأبي القومية التركية، ومحمد أمين[4]، وكان ممن تصدى لهذه الحملة الطورانية: الشاعر (محمد عاكف) الذي اعتبر شاعر الإسلام في الدولـة العثمانية فقد وقف ينادي بوحدة المسـلمين محذراً من التيارات القومية الهدامة كالطورانية وغيرها، وكان يؤكد أن الدعوة للقوميات فتنة إنكليزية استهدفت فتح ثغرات في جـدران القلعة الإسلامية الصامدة[٥].

القومية العربية والقضية الفلسطينية:

وهكذا تلقف[٦] الدعوة إلى القومية العربية بعض نصارى العرب على نمط الـدعوة إلى الطورانية التركية[7]، ومنهم: بطرس البستاني وإبراهيم اليازجي وأحمد فارس الشدياق[٨]

(1) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص: (٥٨٢).

(2) الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١٠٨٩/٢

(3) ضياء باشا كوك ألب: (أبو القومية التركية)، ومفكر من أصل كردي، ولد في (ديار بكر) عام ١٨٧٦م، وقـد عمل في حقل التعليم في بداية شبابه فتأثر بمدير معهده اليهودي ذي الميول المتطرفة، كما تـأثر بـبعض الأشـخاص الملحدين وبأحد الأساتذة اليونان، سافر إلى استانبول عام ١٣١٥هـ ثم انتسب إلى (كلية الطب البيطـري) وكـان عمله بالسـياسة أكثر من التعلم لذا انتخب عضواً في جمعية "الاتحاد والترقي" وهو أحد منظري منظمـة "الـشبيبة العثمانية" السرية التي قامت على نمط الجمعيات الإيطالية السرية (الكاربوناري)، وقد تشكلت في اسـتانبول عـام ١٨٦٥م وكان من أهدافها السعي للوصول بالبلاد العثمانية إلى نمط من أشكال الحكم الأوروبية والعلمانية، انظـر: صحوة الرجل المريض، ص: (١٩١).

4- شاعر قومي طوراني نما في جو الاتحاد والترقي وألقى أولى قصائده أمام جمـال الـدين الأفغـاني ١٨٩٧م في استانبول فأشاد به، وقد عين والياً على الحجاز فاختلف مع الشريف حسـين فعين والياً على سـيواس وانـضم إلى الاتحاد والترقي ١٩٠٦م، انظر: صحوة الرجل المريض، ص: (١٩١- ١٩٢).

(5) صحوة الرجل المريض، ص: (١٩١- ١٩٢).

(6) انظر: افتتاحية مجلة البيان العدد: (٧١)، رجب ١٤١٤هـ.

7 - انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص٥٨٠-٥٨٢.

(8) أحمد فارس الشدياق، ت: (١٣٠٤هـ)، انظر الأعلام ١٩٣/١.

وسليم تقلا[١]، وجورجي زيدان[٢]، وعلى يد هؤلاء بدأت التفرقة بين الجامعة الإسـلامية والجامعة العربية[٣].

ومن دسائس الاستعمار الغربي: دعوته إلى إحياء الآثار القديمة والفنـون الـشعبية المندثرة حتى يشغلا المسـلمين عن العمل في رد المستعمر بإحياء الحضارات القديمة والعودة إلى الوراء وتجاهل حضارة الإسلام [٤].

وهذا ما أكده المستشرق (كويلر يونغ) في كتابه: (الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته)؛ حيث يقول: "إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبـل الإسلام، ولسـنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسـلام، ولكـن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات"[٥].

وهكذا وكذلك أثيرت الفينيقية في لبنان، والآشورية والسـومرية والبابلية في العراق، والكنعانية في فلسطين، والبربرية في المغرب، والحيثية في آسـيا الصغرى، والهندوكيـة في إندونيسـيا، والفارسـية في إيران، وذلك لعزل هذه الأجزاء عن بعضها البعض، والتفريق بينهما تفريقاً يحول دون التقائها في وحدة إيمانية قوية"[٦].

وشغلت الصحف بالكلام عن الكشوف الأثرية الجديدة وما تدل عليه من حضارات البابليـين والآشوريـين والكلدانيـين والفينيقيـين والفراعنة[٧]، وما زال بعض الكتاب المسلمون لا يفتؤون يذكرون مآثر الآباء والأجداد السابقين حتى يصل الأمر إلى المفاخرة بما أنجزه أهل الحضارات الكافرة، ما قبل الإسلام، حتى يفخر بعض الكتـاب بمـآثر قـدماء المصريـين وحضارتهم القديمة[٨].

---

(1) سليم تقلا: مؤسس جريدة الأهرام المصرية، (١٢٦٥-١٣١٠هـ)، انظر: الأعلام، للزركلي: ١٧٨/٣، الطبعة الثانية.

(2) هو: جورجي بن حبيب زيدان: منشئ مجلة (الهلال) بمصر، وصاحب التصانيف الكثيرة. ولد وتعلم بـبيروت، ورحل إلى مصر، فأصدر مجلة الهلال، وله من الكتب: تاريخ مصر الحديث – وتاريخ التمدن الإسلامي – وتـراجم مشاهير الشرق – والفلسفة اللغوية، وغيرها. وتوفي بالقاهرة عام: (١٣٣٢هـ). انظر: الأعلام، للزركلي: ١١٧/٢.

(3) انظر: الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسـين، ص: (٢٠٧).

(4) انظر: البيان١٦٢/١١

(5) نقلاً عن: واقعنا المعاصر، محمد قطب ص: (٢٠٢).

(6) حاضر العالم الإسلامي، د. جميل عبد الله المصري، ص: (١٨٢، ١٨٣)، الطبعة: الثانية.

(7) انظر: البيان١٦٢/٩

(8) انظر: آثار مصر القديمة، جيلان عباس، بقلم المقدم له: مختار السـويفي، ص: (١٤).

يقول أحدهم في مقدمة كتابه: "حسناً ألم تقم مصر بدور قيادي في التاريخ منذ فجر الحضارة؟ إذا لم تكن هي أول موطن ظهرت فيه حضارة الإنسان في التاريخ القديم، فهي لا شك الموطن الثاني. وإذا كان العراق قد سبق مصر، فإنما سبقها ببضعة قرون على الأكثر"[1].

وفي الثلاثينيات، وتحديداً في عام ١٩٣٢م، تأسس الحزب القومي في لبنان(٢) على يد أنطوان سعادة(٣)، ومن أهم مبادئ هذا الحزب التي يذكرها أنطوان سعادة في كتابه نشوء الأمم:

- إعداد جيش قومي ذي قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن.
- مصلحة سوريا فوق كل مصلحة.

كما أنهم يعتزون بالماضي السحيق الذي يمثله الفينيقيون بوثنيتهم وخمرهم وآلهتهم وعاداته وتقاليدهم ولذا فهم ويعتزون بالثقافة الروحية الطابع العمراني الذي نشرته سوريا في البحر السوري المعروف بالبحر المتوسط، ويعتبرون أن أزهى العصور في تاريخ سوريا هو العصر الفينيقي، وأن الفتح الإسلامي يعتبر فتحاً أجنبياً ولا يرون في التاريخ الإسلامي في سوريا بعد الفتح إلا تاريخاً سورياً خالصاً، فمعاوية رضي الله عنه أصبح سورياً لإقامته في دمشق عشرين عاماً قبل الخلافة، وأمجاد الأمويين أمجاد سورية محضة، والنزاع بين معاوية وعلي رضي الله عنهما إنما هو نزاع بين القومية السورية والقومية العراقية، وعندما يتحدثون عن سوريا فإنما يقصدون بذلك سوريا الكبرى والتي تضم سوريا الحالية ولبنان و الأردن وفلسطين(٤).

ومن لوثة هذا الفكر العنصري الجاهلي المريض تقديم العرب على المسلمين في اللفظ وإقحام لفظ العرب مع المسلمين في قضايا المسلمين، وهذا مشهور في كثير من الإذاعات والتلفزة العربية، إيماناً منهم بأن للعرب خصوصية في ذلك، إن لم يكن بسبب إيمانهم بالعروبة كعنصر يجمع بين العربي وأخيه العربي ويجعلهما يعملان جنباً إلى جنب نصراً

1 - الوحدة العربية آتية، أرنولد توينبي، نقله إلى العربية: عمر الديراوي، أبو حجلة، ص: (١٥).

(2) وهو النواة الأولى للحزب القومي السوري وهو: حزب يدعو إلى القومية العربية، واعتبار الوطن السوري البيئة التي نشأت الأمة السورية فيها، والقول بأن النهضة السورية تستمد روحها وتاريخها السياسي والقومي من مواهب الأمة السورية. وقد اتخذ الحزب اسم (الحزب القومي الاجتماعي)، وشعاره زوبعة لها أربعة رؤوس ترمز إلى الحرية، والواجب والنظام والقوة، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٤٦٢/١.

(3) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٤٦٢/١.

(4) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٤٦٣/١.

للعروبة، تحت شعار (الدين لله والوطن للجميع) [1]، وإن كان ذلك على حساب الإسلام دين الله الحق؛ فإن من العرب من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ومن غير العرب من هو أكثر تمسكاً بالإسلام من المسلمين العرب.

وعلى هذا فيكون من التضليل الإعلامي للمسلمين ومن تمييع قضاياهم هو إلباسها ثوباً غير الثوب الإسلامي، سواءً أكان ذلك الثوب عربياً أو كردياً أو طورانياً أو غير ذلك؛ فإن تفصيل كل هذه الثياب تفصيل جاهلي، خاطها من قبل لأهل الجاهليات: إبليس، حين اعترض على ربه ظاناً أن عنصره أفضل من عنصر آدم فقال: (أنا خير منه خلَقْتني من نارٍ وخلَقْتَه من طين)[2].

وألقت القومية العربية بظلالها على ما يسمى بالقضية الفلسطينية، وهي قضية احتلال الصهاينة لفلسطين، فصار كثير من المسلمين العرب يحمل هم القضية على أساس أن الذي حدث ويحدث لإخواننا الفلسطينيين هو مما يمس إخواننا في العروبة[3]، الأمر الذي يجعل العروبة هي الدين الجديد الذي يجمع بين العرب والذي يجب أن يلتقي عليه العربي مع أخيه العربي مهما كانت ديانته وانتماؤه، فيقاتل اليهود: مسلمون عرب ونصارى عرب وربما يهود عرب.

لم يحصل في التاريخ الإسلامي _ حسب علمي _ تمييع لقضية إسلامية وصبها في قالب قومي كما حصل لقضية المسجد الأقصى، حتى صارت إعادة الأرض المباركة، من إعادة الكيان العربي المنهار والذي يجب التعاون على وحدته.

والعجيب: كيف يقاتل المسلم وبجانبه في الصف: الشيوعي الملحد والنصراني المشرك بحجة أنهما أخوان في العروبة، إنها القومية التي تعود بالمسلمين إلى التخلق بصفات أهل الجاهلية الأولى.

وانتشر الجدل فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، بمن يكون صاحب الحق في الأرض تأريخياً، وافتتح في ذلك جدل طويل دار في المجالس العامة، كما دار في المنابر الاجتماعية والسياسية كالصحف وغيرها، فقال قائل العروبة: العرب هم أحق الناس بأرض

---

(1) يقول الكاتب: أحمد حمروش: "كما أن أجهزة الثقافة والإعلام مطالبة بدور تنويري هام يؤكد سماحة الإسلام وأن الإرهاب هو نتاج فئة خارجة عن صحيح الدين وأن الدين لله والوطن للجميع"، انظر: صحيفة الشرق الأوسط، عدد: (٢٧/ نوفمبر /٢٠٠١م)، مقال بعنوان: (الإرهاب في مصر.. بين التواصل والانحسار).

(2) سورة: (الأعراف: من الآية١٢).

(3) انظر: مقال بعنوان: (رفقاً بالديموقراطية)، د. لطيفة عيسى الرجيب، جريدة الوطن الكويتية: (الأربعاء: ٢٠٠٢/٤/١٧)

فلسطين، واستدل بأن الكنعانيين من قوم إبراهيم كانوا عرباً، وجعل الطريقة لإثبات أحقية بيت المقدس للعرب: أسبقيتهم تاريخياً، ونسي أن من العرب الذين يتحدث عنهم من هو يهودي متربص أو صليبي حاقد، كما نسي القضية الأساسية التي تفصل بين الناس ألا وهي الكفر والإيمان وليس العروبة والأعجمية: (هو الذي خلَقَكُم فَمنكُم كَافر ومنكُم مؤمن والله بِما تعملُونَ بصير)[١]، ولم يعلم أن الأرض التي خلقها الله تعالى إنما أورثها عباده المؤمنين وليس للكفار منها شيء، قال تعالى: (إن الأَرض لله يورِثُها من يشاءُ من عباده والْعاقبةُ للْمتقين)[٢]، فالأرض لله وأولى الناس بأرض الله هم المتقون ولذلك جعل العاقبة لهم في الأرض، وهؤلاء المتقون هم أهل الإسلام والإيمان والعمل الصالح: (لَيس الْبِر أَنْ تولوا وجوهكُم قبلَ الْمشرقِ والْمغربِ ولَكن الْبِر من آمن بِالله والْيومِ الآخرِ والْملائكَة والْكتابِ والنبِيين وآتى الْمالَ علَى حبه ذَوِي الْقُربى والْيتامى والْمساكين وابن السبِيلِ والسائلين وفي الرقَابِ وأَقَام الصلاةَ وآتى الزكَاةَ والْموفُونَ بِعهدهم إِذَا عاهدوا والصابِرِين في الْبأْساءِ والضراءِ وحين الْبأْسِ أُولَئك الذين صدقُوا **وأُولَئك هم الْمتقُونَ**)[٣]، هؤلاء هم المتقون وهذه هي صفات الذين اتقوا الله وكانوا أحق الناس بأرض الله والعاقبة لهم، وليست العاقبة لجنس من الناس، وليس لطائفة من الناس فضل على أخرى، كما أنه ليس للعرب فضل على غيرهم قال تعالى: (أُولَئك الذين آتيناهم الْكتاب والْحكْم والنبوةَ فَإِنْ يكْفُر بِها هؤلاءِ فَقَد وكلْنا بِها قَوماً لَيسوا بِها بِكَافرِين)[٤]، قال ابن كثير في تفسيرها: "أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتابيين فقد وكلنا بها قوما آخرين أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة"[٥].

وسارت الدول الإسلامية في ركب الدول الغربية حتى في فكرة النشيد الوطني[٦] وألحانه، فلم تكن فكرة النشيد الوطني معروفة لدى المسلمين حتى تشبهوا فيها بالدول الغربية التي سبقت المسلمين بالغرق في أوحال القوميات والوطنيات الضيقة المنتنة،

(1) سورة: (التغابن:٢).
(2) سورة: (الأعراف: من الآية١٢٨).
(3) سورة: (البقرة:١٧٧).
(4) سورة: (الأنعام:٨٩).
(5) تفسير القرآن العظيم: ١٥٦/٢.
(6) "النشيد الوطني أو النشيد القومي أغنية وطنية رسمية لدولة ما تهدف إلى إثارة روح الوطنية والولاء بين أوساط مواطني البلاد، وتؤدى في المناسبات العامة الرسمية والشعائرية، والاجتماعات الدولية والتظاهرات الرياضية، كما تعزف لتشريف رئيس دولة ما"، الموسوعة العربية العالمية: ٢٥٥/٢٥.

وأول نشيد ألفت ألحانه: نشيد العسكرية المارسـيليه الذي نظم أثناء الثورة الفرنسـية عام ١٧٩٢م، أنشده مجموعة من الجنود الجمهوريـين عندما كانوا يتقدمون نحـو بـاريس. وسرعان ما أصبح رائجاً. واتخذ المارسـيليه نشيد فرنسا الوطني عام ١٧٩٥م[1].

حتى صار لكل دولة إسلامية نشيدها الوطني الخاص الذي قد لا يحتوى على مـا يرمز للإسلام بقدر ما يرمز للعروبة ومآثر الآباء والأجداد.

(1) الموسـوعة العربية العالمية: ٢٥٥/٢٥.

الخاتمة

ذا نكون قد وصلنا _ بحمد الله _ إلى اية سياق مظاهر التـشبه بالكفـار في العصر الحديث على منوال الخطة المرسومة لهذا البحث، وقبل سياق النتائج أذكر أنني قـد استفدت من البحث في هذا الموضوع كثيراً، ولقد ساعدني شمول هـذا البحـث علـى الوقوف على فوائد جمة في أبواب العقيدة و التاريخ و الواقع المعاصر.

وبعد ذلك أخلص إلى ذكر نتائج البحث:-

- مما استوقفني في هذا البحث: تشديد الكتاب والسـنة وأقوال الصحابة في النهي عن التشـبه بالكفار، بل وسـد الذرائع الموصلة إلى التشـبه م.
- أن معنى الاختلاف المذموم: هو الاختلاف على الكتاب والسـنة؛ فليس للاختلاف بين الناس ضابط.
- كان سبب افتراق كثير من الفرق عن أهل السـنة والجماعة هو التشـبه بالكافرين، بشكل أو بآخر؛ فإننا لو استعرضنا أركان الإيمان الستة والانحرافات التي حصلت فيها: سـنجد أن سائر تلك الانحرافات مستمدة من مناهج كفرية، لا علاقة لها بدين الإسلام.
- لا يمكن أن ننظر إلى قضية التشـبه بالكفار نظرة كاملة إلا إذا وضعنا في اعتبارنا المرحلة التي يمر ا ا تمع الإسلامي، وهو حالة الضعف والا زام العسكري والاقتصادي التي يمر ا، مما أدى إلى انبهار بعض المسـلمين بالحضارة الغربية، وتقليدهم لها.
- أن المطلع على منشأ البدع التي انتشرت بين المسـلمين وأصولها وجذورها، ليخرج بنتيجة واضحة جلية: ألا وهي أنه ما من بدعة إلا إما أن تكون مأخوذة عن الكفار، وإما أن تكون أصلها من عندهم، وإما أن تكون قد فعلها الكفار وإن

لم يكن صاحبها قد استقاها من عندهم، وإما أ ا من باب التشـبه لأ ا نوع من الافتراق الذي هو في أصله تشـبه بالكفار[1].

- أن مظاهر التشـبه بالكفار عن طريق الفلسـفة في توحيد المعرفة منطلقة من شبهة عند بعض المسـلمين، ألا وهي اعتقادهم أنه لا بد من معرفة الله عن طريق العقل، وأن إثبات ذلك هو أول واجب على المكلف، فلزم على هذا الأساس أن تكون تلك المعرفة عقلية بحتة، وعلى أساسها يتم الإيمان بالغيب، فنتج عن ذلك، عدة أمور، كلها تعد من مظاهر التشـبه بالكفار من فلاسفة اليونان:

١. الأول: اعتماد المعرفة العقلية أساساً لا يقف أمامه نص، ولا غرو؛ فالأساس الأول الذي اعتمدوه لمعرفة وجود الله أولاً هو العقل، وهو الأمر الذي يسـير في خط واحد هو والفلسـفة اليونانية، ألا وهو تقديس العقل.

٢. والثاني: التزام أمور عقلية في باب توحيد الله عز وجل، لا تتفق مع منهج القرآن والسـنة والسلف الصالح، الأمر الذي أدى إلى تحريف في الدين لا يستهان به، وخاصة في باب الصفات.

- كما أن التشـبه بالكفار أمر واقع لا محالة كما أخبرنا بذلك النبي ﷺ _ وربما كان هذا الزمن الذي يكون فيه التشـبه م على أقوى صوره في التاريخ الإسلامي، بحكم حالة الضعف والا زام التي يمر ا المسلمون اليوم _ فإن التخلص من التشـبه بالكفار أمر واقع كذلك،، وسـوف يكون النصر يوماً ما للمسـلمين، كما أخبرتنا بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، نعم، يوماً ما سـيتشـبه الكافر بالمسلم، ويصير التشـبه بالكفار أمراً مستهجناً ويتشـبه الكفار بالمسـلمين، كما كان الوضع في حال قوة المسـلمين وضعف أعدائهم. وعلى هذا فإن التشـبه بالكفار اليوم هو أمر مرحلي، بحكم تأثر المغلوب بالغالب، ولا يعني ذلك أن نستسلم اليوم لتلك المظاهر أو أن نعدها من الواقع

---

[1] قال تعالى: (ولا تكُونوا كَالذين تفَرقُوا واختلَفُوا من بعد ما جاءَهم الْبينات وأُولَئك لَهم عـذَاب عظـيم) (آل عمران:١٠٥) .

الذي لا بد وأن يأخذ طريقه وزمنه، بل لا بد من محاربة تلك التوجهات الغربية في العالم الإسلامي بكل ما يميز المسلم بإيمانه ويحفظ له هويته الإسلامية، ولذلك:

التوصيات:

ولذلك فإنني من خلال البحث في هذا الموضوع المهم بالنسبة للمسـلمين اليوم، ومن خلال تقليب ملفاته وبطاقاته:-

- وجدت الحاجة ماسة للكتابة في هذا الموضوع وإشباعه بحثاً واستقصاءً وتجميع فتاوى أهل العلم فيه، وأرى من الخليق عمل موسـوعة في التشـبه بالكفار في العصر الحديث، يجمع فيها التعريف بكل أداة من أدوات التشـبه، وأحكامها، وأقوال أهل العلم وفتاواهم في ذلك، والتعريف بالشخصيات التي عملت على إقحام المذاهب الفكرية الغربية، وتوضيح الصلة بين كل فكرة وبين مصدرها الكافر وتأريخ دخولها إلى بلاد المسـلمين، مما يقيم الحجة في هذا الباب، ويعمل على توعية المسـلمين بخطره.
- السبب الأساسـي لتشـبه المسـلمين بالكفار في العصر الحديث هو ضعف الإيمان، وبجانبه عدم استحضار جوانب العزة والقدوة الإسلامية وخاصة عند الشباب، مما يستلزم من كل مخلص أن يعمل على إبراز جوانب القدوة الإسلامية ومن أهم جوانبها: السـيرة النبوية وسـيرة السلف الصالح والمعارك والفتوحات الإسلامية التي تزرع العزة في نفوس الناشئة، وتصرف أنظارهم عن الحضارة الغربية الزائفة.
- وبالعكس فلا بد من إبراز الجانب المظلم في الحياة الغربية وأدوات الدمار الأخلاقي والاقتصادي والاجتماعي التي تنخر في تلك ا تمعات وتؤذن بقرب انـتهائها

وانطفاء جذوة نارها التي لم ينشأ عنها نور في يوم من الأيام، والتي ما فتـئت تحرق في طريقها كل خلق فاضل وكل اتجاه سليم.

وفي النهاية أختم بما ابتدأت به، فأحمده سبحانه وتعالى على ما يسر وأعان وله الفضل كله وإليه يعود الأمر كله، وأسأله تعالى أن لا يجعل هذا العمل سبباً في هلاك صاحبه، وأن ينضر وجهه به، وأن يجعله خالصاً له، وأن يعفو عما فيه من الزلل، وأن يتقبله من صاحبه قبولاً حسـناً، وأن يجعل ما سطرت يداه حجة له يوم القيامة، لا حجة عليه، وصل اللهم وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. آثار المغرب والأندلس، د. طاهر مظفر العميد، دار الكتب للطباعة والنشر، الطبعة: بدون.
٣. آثار مصر القديمة في كتابات الرحالة العرب والأجانب، المؤلف: جيلان عبـاس، تقـديم: مختـار السـويفي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
٤. أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، لصديق بن حسـن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية – بيروت، عام: (١٩٧٨م).
٥. أجدادنا في ثرى بيت المقدس، د. كامل جميل العسلي، مؤسسة آل البيت المجمع الملكي لبحـوث الحضارة الإسلامية، الطابعون: جمعية عمال المطابع التعاونية – عمان، الطبعـة: بـدون، عـام: (١٤٠٢هـ - ١٩٨١م).
٦. أحكام القرآن، لمحمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتـب العلمية – بيروت، عام: (١٤٠٠هـ).
٧. الإحكام في أصول الأحكام، لعلي بن محمد الآمدي أبو الحسـن، تحقيق: د.سـيد الجميلي، دار الكتاب العربي – بيروت، عام: (١٤٠٤هـ).
٨. الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، محمود عبد الحليم، دار الدعوة – الإسكندرية، الطبعة: الثانية، عام: (١٤٠٦هـ).
٩. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألبـاني، المكتـب الإسـلامي – بيروت، دمشق، الطبعة الثانية، عـام: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
١٠. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ل يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٢هـ).
١١. الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسـين، مؤسسة الرسالة _ بيروت، الطبعـة الخامسة، عام: (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
١٢. الإسلام والشيوعية، لعبد المنعم النمر، دار الكتاب العربي – مصر.
١٣. الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، للإمام: محمد عبده، مطبعة: محمد علـي صـبيح وأولاده، عام: (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م).
١٤. الإسلاميون وتركيا العلمانية نموذج الإمام سليمان حلمي، لهدى درويـش، دار الآفـاق العربية – القاهرة، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).

١٥. الإصابة في تميـيز الصحابة، للإمام: أحمد بن علي بن حجر أبـو الفـضل العـسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي نشر دار الجيل – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
١٦. أصول الإسماعيلية، للدكتور سليمان عبد الله السلومي، دار الفضيلة – الرياض، الطبعـة الأولى، عام: (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
١٧. الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات والرد عليها من كلام شيخ الإسـلام ابن تيمية، للدكتور عبد القادر بن محمد عطا صوفي، مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
١٨. إظهار الحق، لرحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي، دراسـة وتحقيـق وتعليق: الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، دار الحديث – القـاهرة، الطبعـة الثانية، عام: (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
١٩. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل – بيروت، عام: (١٩٧٣م).
٢٠. أعلام النبوة، لأبي الحسـن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعـة الأولى، عـــام: (١٩٨٧م).
٢١. الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسـن دين الإسلام وإثبـات نبوة نبـينا محمد عليه الصلاة والسلام، تأليف الإمام القرطبي، تقديم وتحقيق وتعليـق: د. أحمـد حجازي السقا، دار التراث العربي، الطبعة: بدون.
٢٢. الأعلام، خير الدين الزركلي، جار العلم للملايين – بيروت، الطبعـة: الرابعـة، عـام: (١٩٧٩م).
٢٣. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايـين – بيروت، الطبعة الخامـسة، عـام: (١٩٨٠).
٢٤. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيـق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت، الطبعـة الثانية، عـــام: (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
٢٥. أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، لمرعـي بـن يوسف الكرمي المقدسـي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٦هـ).
٢٦. الإمام ابن تيمية وقضية التأويل، د. محمد السـيد الجليند، شركة مكتبات عكاظ للنـشر والتوزيع – جدة – الرياض – الدمام، الطبعـة: الثالثة، عـــام: (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
٢٧. الإنسان بين المادية والإسلام،للشيخ محمد قطب، دار الشروق – القاهرة، بيروت، الطبعة الرابعة، عام: (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

٢٨. الإنسان الكامل محاورات في الفلسفة الصوفية، لمحمد غازي عرابي، دار قتيـبة، الطبعـة: الأولى، عام: (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
٢٩. أوروبا في مطلع العصور الحديثة، د. عبد العزيز محمد الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية – شارع محمد بك فريد، الطبعة الثالثة، عام: (١٩٧٧م).
٣٠. الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري دراسة و تقويم، إعـداد سـهيل صابان، إشراف: عمـر عودة الخطيب، الطبعـة: بدون، عـام: (1415هـ، ١٩٩٤م).
٣١. إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، محمد إبراهيم الوزير الحسـني اليمني الصنعاني، تحقيق: أحمد مصطفي حسـين صـالح، إشـراف: د. صـابر طعميـة، الدار اليمنية للنشـر والتوزيع، عام: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
٣٢. ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، د. عبد الله محمد جـار الـنبي، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
٣٣. اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر في النصف الأول من القـرن الرابـع عـشر الهجري، للدكتور حمد بن صادق الجمال، دار عالم الكتب – الريـاض، الطبعـة الأولى، عـام: (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
٣٤. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسـين، دار الرسـالة – مكـة، الطبعة التاسعة، عام: (١٤١٣هـ -١٩٩٢م).
٣٥. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعـي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، عـام: (١٤٠٤هـ -١٩٨٤م).
٣٦. الاختلاف وما إليه، لمحمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة – الرياض الطبعة الأولى، عام: (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
٣٧. الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي، تحقيق: سليم بـن عيد الهلالي، دار ابن عفان – الخبر، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
٣٨. اعتقادات فرق المسـلمين والمشـركين، لمحمد بن عمر بن الحسـين الرازي أبو عبـد الله، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية – بيروت، عام: (١٤٠٢هـ).
٣٩. اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، تحقيق و تعليـق: د. ناصر عبد الكريم العقل، السعودية – دار العاصمة، الطبعة السادسة ١٤١٩هـ.
٤٠. الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريـين وآثارهما في حياة الأمة، لعلي بن بخيت الزهراني، دار طيبة – مكة المكرمة، دار آل عمار – الشارقة، الطبعـة الثانية، عام: (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
٤١. البابية عرض ونقد، للإستاذ: إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان الـسـنة – لاهـور – باكستان، الطبعة: السادسة، عام: (١٩٨٤م).

٤٢. باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات، للدكتور محمد خليل هراس، مكتبة الصحابة – طنطا، الطبعة الثانية، عام: (١٤٠٥هـ).

٤٣. بدائع الفوائد، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا – عادل عبد الحميد العدوي – أشرف أحمد،مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

٤٤. البداية والنهاية، تأليف: أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم (وآخرون)، دار الريان للتراث – القاهرة، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٤٥. البهائية نقد وتحليل، الأستاذ: إحسان إلهي ظهير _ رحمه الله _، إدارة ترجمان السنة – لاهور – باكستان، الطبعة: بدون.

٤٦. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لأحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة – مكة المكرمة، الطبعة الأولى، عام: (١٣٩٢هـ).

٤٧. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي محمد مرتضى، بيروت – دار الحياة، الطبعة الأولى ١٣٠٦هـ.

٤٨. تاريخ الأمم والملوك، لمحمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٧هـ).

٤٩. تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، الطبعة الأولى، عام: (١٩٧٥م).

٥٠. تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس – بيروت، الطبعة: الثانية، عام: (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٥١. تاريخ الفلسفة في الإسلام، الأستاذ: ت. ج. د ي بور بجامعة أمستردام، نقله إلى العربية وعلق عليه د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والتربية والنشر، سنة ١٣٧٧هـ.

٥٢. تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية – بيروت.

٥٣. التاريخ الكبير، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر.

٥٤. تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٥. تاريخ ونظام التعليم فى جمهورية مصر العربية، تأليف منير عطا الله سليمان وآخرون، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، الطبعة: الثالثة، عام: (١٩٧٢م).

٥٦. التجانية، للدكتور علي بن محمد آل دخيل الله، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الثانيـة، عام: (١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م).
٥٧. تجربة عربي في الحزب الشيوعي، قدري قلعجي، دار الكتاب العربي – بيروت.
٥٨. تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، بقلم الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني،، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية عام: (١٣٩٢هـ).
٥٩. التحذير من الاغترار بما جاء في كتاب الحوار، عبد الحي العمروي، عبد الكـريم مـراد، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
٦٠. تحريم النظر في كتب الكلام، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله بن حذيفة، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، دار عـالم المكتـب – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٩٩٠م).
٦١. التحف في مذاهب السلف، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: طارق السعود، دار الهجرة - بيروت، الطبعة الثانية، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٦٢. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لمحمد عبدالرحمن المباركفوري أبـو العـلا، دار الكتب العلمية – بيروت.
٦٣. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، للبيروني، مطبعـة مجلـس دائـرة المعارف العثمانية – حيدر أباد، الهند، عام: (١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م).
٦٤. تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية، د. صلاح الصاوي، دار طيبة – الريـاض، الطبعـة الأولى، عام: (١٤١٢هـ).
٦٥. تحكيم القوانين، للشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، الطبعة الثالثة، عـام: (١٤١١هـ).
٦٦. التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان – دمشق، الطبعة الأولى، عام: (١٣٩٩هـ).
٦٧. التدابير الواقية من التشـبه بالكفار، للدكتور عثمان دوكوري، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
٦٨. التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
٦٩. التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية / دراسات لكبار المستشرقين، الكاتـب: كـارل هينرش بكر، ترجمة: عبدالرحمن بدول، الكويت – وكالة المطبوعات – بيروت دار القلم، الطبعـة الرابعة، سـنة ١٩٨٠م.
٧٠. تراثنا الفلسفي حاجته إلى النقد والتمحيص، محمد رضا الشبيبي، مطبعة العاني – بغـداد، الطبعة: بدون، عام: (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

٧١. تسامح الغرب مع المسلمين، لعبد اللطيف بن إبراهيم بن عبد اللطيف الحسين، دار ابن الجوزي – الدمام، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).
٧٢. تشبه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبه بالمشركين، للذهبي، تحقيق: علي حسن علي عبد الحميد، دار عمار للنشر والتوزيع - الأردن (عمان)، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٧٣. التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٥هـ).
٧٤. تفسير الجلالين، لمحمد بن أحمد وعبد الرحمن بن أبي بكر المحلي والسيوطي، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى.
٧٥. تفسير الصافي، تأليف محسن الملقب بالفيض الكاشاني، صححه وقدم له وعلق عليه حسين الأعلمي، بيروت – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة: الثانية، عام: (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
٧٦. تفسير العياشي، تأليف أبي النصر محمد بن مسعود بن عياش السلمي المعروف بالعياشي، تصحيح وتعليق: هاشم الرسولي المحلاتي، بيروت – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١١هـ - ١٩٩١م).
٧٧. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، القاهرة – دار الحديث، الطبعة الثانية، عام: (١٤١٠هـ).
٧٨. تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر – بيروت، عام: (١٤٠١هـ).
٧٩. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران – الطبعة الثانية.
٨٠. التفكير الفلسفي في الإسلام، شيخ الأزهر: عبد الحليم محمود، بيروت – دار الكتاب اللبناني – مكتبة المدرسة، سنة ١٤٠٢هـ.
٨١. تقريب التهذيب، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد – سوريا، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
٨٢. تلبيس إبليس، لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٥هـ -١٩٨٥م).
٨٣. التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام، توفيق الطويل، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الطلبي وشركاه، سنة ١٣٦٤هـ.
٨٤. تنبيه زائر الدينة على الممنوع والمشروع في الزيارة، صالح السدلان

٨٥. التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المـسـلمين في آرائهـم ومذاهبـهم واعتقادا م، لعبد الله بن السـيد البطليوسـي، تحقيق: د. أحمد حسـن كحيل – د. حمزة عبد الله النشرتي.
٨٦. تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، لعبد الرحمن بن أبي أبو الفضل الـسـيوطي، المكتبـة التجارية الكبرى – مصر، عام: (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).
٨٧. افت التهافت، للقاضي أبي الوليدمحمد بن رشد، تحقيق: الأستاذ د. سليمان دنيـا، دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، عام: (١٩٦٩م).
٨٨. افت العلمانية في الصحافة العربية، لسالم علي البهنساوي، دار الوفـاء – المنـصورة، الطبعة الثانية، عام: (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
٨٩. افت الفلاسفة، للإمام أبي حامد الغزالى، تحقيق وتقديم: د. سليمان دنيا، دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة.
٩٠. ذيب الكمال، ل يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بـيروت، الطبعـة الأولى، عـام: (١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م).
٩١. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، لأحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق: زهير الشاويش،المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة، عام: (١٤٠٦هـ).
٩٢. التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: د.محمـد رضـوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر – بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٠هـ).
٩٣. تيارات الفكر الاسـلامي، محمد عمـارة، دار الشروق – القاهرة، بـيروت، طبعـة عـام: (1411هـ، ١٩٩١م).
٩٤. تيسـير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبـد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة – الرياض.
٩٥. الثقات، لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، المحقق: السـيد شرف الـدين أحمد، دار الفكر، الطبعة الأولى، عام: (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
٩٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفـر، دار الفكر – بيروت، عام: (١٤٠٥هـ).
٩٧. جامع العلوم والحكم في شرح خمسـين حديثاً من جوامع الكلم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٨هـ).
٩٨. الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، تحقيـق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب – القاهرة، الطبعة الثانية، عـام: (١٣٧٢هـ).

٩٩. الجرح والتعديل، للإمام: عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمـد الـرازي التميمي، دار إحياء التراث العـربي – بيروت، الطبعة: الأولى، عـام: (١٢٧١هـ - ١٩٥٢م).
١٠٠. جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، تأليف: السـيد نعمان خير الـدين الـشهير بـابن الألوسـي البغدادي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: بدون.
١٠١. جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد لوح، دار بن عفان – المملكة العربية السعودية – الخبر، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
١٠٢. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسـيح، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحـراني أبـو العباس، تحقيق: د.علي حسـن ناصر ود.عبد العزيز إبراهيم العـسكر ود. حمـدان محمـد، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٤هـ).
١٠٣. جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سـيدي أبي العباس التجاني، تأليف علي حرازم بن العربي برادة المغربي الفاسـي، دار الفكر – بيروت، الطبعة: بدون.
١٠٤. حاشية ابن عابدين، المعروفة برد المحتار على الدر المختار، لمحمد أمين (ابـن عابـدين)، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية – بـيروت، الطبعـة الأولى، عـام: (١٤١٥هـ).
١٠٥. حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد الأمريكي، نقله إلى العربية الأستاذ: عجـاج نويهض، بقلم أمير البيان وا اهد الكبير: الأمير شكيب أرسلان، مكتبة عيـسى البـابي الحلـبي وشركاه، مصر القاهرة- عام: (١٣٥٢هـ).
١٠٦. حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، د. جميل عبد الله محمـد المـصري، مكتبـة العبيكان – الرياض، الطبعة الرابعة، عام: (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
١٠٧. حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، د. جميل عبد الله المـصري، دار أم القـرى – مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، عام: (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
١٠٨. الحب والفلوس والموت.. وأنا، لأنيس منصور، ضة مصر – القاهرة، الطبعة الثانية، عام: (٢٠٠١م).
١٠٩. الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة، لأبي محمد عبد الله بـن محمـد الـسـيد البطليوسـي الأندلسـي، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، عـام: (١٩٨٨م).
١١٠. حزب البعث تاريخه وعقائده، لسعيد بن ناصر الغامدي، دار الوطن – الرياض، الطبعـة الأولى، عام: (١٤١١هـ).
١١١. حسـن التنبه لما ورد في التشـبه جزء في مجلدين ٤٧١ ق، المكتبة السليمانية بتركيـا، رقم المكبرة في الجامعة الإسلامية: ١١١٥-١١١٦.

١١٢. حقيقة البابية والبهائية، لمحسن عبد الحميد، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، عام: (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).
١١٣. الحقيقة الشرعية في تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد عمر بازمول، دار الهجرة – الرياض، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
١١٤. حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة، لعبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي أبو محمد، تحقيق: عبد الله يوسف الجديع، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٩هـ).
١١٥. الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه، للدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار طيبة – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
١١٦. الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي _ بيروت، الطبعة الخامسة عشر، عام: (١٤١٥هـ).
١١٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، عام: (١٤١٥هـ).
١١٨. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، الشيخ: عبد الرزاق البيطار، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق، الطبعة الرابعة، عام: (١٩٧٩).
١١٩. الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، للإمام محمد بن علي الشوكاني، علق عليه وخرج أحاديثه: أبو عبد الله الحلبي، دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٤هـ).
١٢٠. درء تعارض العقل والنقل، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية – الرياض، عام: (١٣٩١م).
١٢١. دراسات في السيرة النبوية، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم – الكويت، الطبعة: الثانية، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
١٢٢. دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، د.حسام الدين الألوسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
١٢٣. دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١).
١٢٤. دراسة المضمون الروائي في أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، تأليف عبد الله بن محمد بن ناصر المهنا، دار عالم الكتب للطباعة والنشر – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
١٢٥. الدعوة إلى التجديد في منهج النقد عند المحدثين و مواجهتها،رسالة ماجستير، إعداد عصام احمد البشير، إشراف عبدالمهدي عبدالقادر، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية أصول الدين، الطبعة: بدون، عام: (1405-04هـ، ١٩٨٤م).

١٢٦. دعوة التوحيد أصولها – الأدوار التي مرت ا- مشاهير دعا ا،تأليف فـضيلة الـدكتور محمد خليل هراس (رحمه الله)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
١٢٧. الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية، إعداد: عبد الوهاب خليل الرحمن، رسالة دكتوراة بجامعة أم القرى، إشراف الدكتور: بركات عبد الفتاح دويدار، عام: (١٤٠٦-١٤٠٧هـ)، رقم الرسالة: (١٢٢٧).
١٢٨. الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، د. هشام الصفدي (وآخرون)، مكتـب التربية العربي لدول الخليج، أشرف على الطبع والتصحيح: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعـة: الأولى، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
١٢٩. دمعة على التوحيد: حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة، إصدار المنتدى الإسـلامي – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
١٣٠. ديوان الشاعر العراقي إبراهيم أدهم الزهاوي، جمع و تحقيق: عبد الله الجبوري، مراجعـة شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة للتأليف – القاهرة، الطبعة: بـدون، عـام: (١٣٨٩هـ ـ - ١٩٦٩م).
١٣١. ديوان البوصيري، تحقيق: محمد سـيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القـاهرة، الطبعة: الثانية، عـــام: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
١٣٢. ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته عن الثقات عند البخاري ومسلم، لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني، تحقيق: بوران الضناوي وكمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٩٨٥م).
١٣٣. رجال صحيح البخاري، أو: (الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد)، لأبي نـصر أحمد بن محمد بن الحسـين البخاري الكلاباذي، تحقيق: عبد الله الليثي، نـشر: دار المعرفـة – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٧).
١٣٤. رجال صحيح مسلم، لأحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني أبو بكر، تحقيـق: عبـد الله الليثي، دار المعرفة- بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٧).
١٣٥. الرد الكافي على مغالطات د. علي عبد الواحد وافي، في كتابه: (بـين الـشيعة وأهـل السـنة)، إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السـنة – لاهور – باكستان، الطبعة: بدون.
١٣٦. الرد على الزنادقة والجهمية، لأحمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله، تحقيق: محمد حسـن راشد، المطبعة السلفية –القاهرة، عام: (١٣٩٣هـ).
١٣٧. الرد على القائلين بوحدة الوجود، لعلي بن سلطان محمد الهروي المكي الحنفي، تحقيـق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، دار المـأمون للتـراث – دمـشق، الطبعـة الأولى، عـام: (١٩٩٥م).

١٣٨. رسائل العدل والتوحيد (الجزء الثاني)، تأليف: الإميام يحيى بن الحسـين، تحقيق: محمـد عمارة، دار الهلال، الطبعة: بدون، عام: (١٩٧١م).
١٣٩. رسالة التوحيد، لمحمد عبده، مطابع دار الكتاب العربي،عام: (١٩٦٦م).
١٤٠. الرسالة الثانية في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام، للشيخ: محمد حسـنين مخلوف العدوي، مطبعة المعاهـــد، الطبعة: الأولى، عـــام: (١٣٤٨هـ).
١٤١. رسالة الشـرك ومظاهره، مبارك بن محمد أمين مال الميلي، السعودية – المدينة المنورة – الجامعة الإسلامية – مركز شؤون الدعوة، الطبعة الثانية، عـــام: (١٤٠٨هـ).
١٤٢. الرسالة، لمحمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، عام: (١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م).
١٤٣. رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، لسـيدي عمر بن سعيد الفوتي الطـوري الكدوي، دار الفكر – بيروت، الطبعة: بدون.
١٤٤. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتـب العلمية – بيروت، عام: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
١٤٥. سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، لمحمد بن إسماعيل الـصنعاني الأمـير، تحقيق: محمد عبد العزيز الخولي، دار إحياء التراث العربي – بـيروت، الطبعـة الرابعـة، عـام: (١٣٧٩هـ).
١٤٦. السنة قبل التدوين، للدكتور محمد عجاج الخطيب، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثالثـة، عام: (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
١٤٧. سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض، طبعة جديدة، عام: (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
١٤٨. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبـة المعـارف – الرياض..........
١٤٩. السـنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، بيروت – دار الفكر، الطبعة الخامـسة ١٤٠١هـ.
١٥٠. السـنة والشيعة، لإحسان إلهي ظهير _ رحمه الله _، إدارة ترجمان السـنة – لاهور – باكستان، الطبعة: بدون.
١٥١. السـنة، لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله، تحقيق: سالم أحمـد الـسلفي، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٨هـ).
١٥٢. سـنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث أبو داود السجـستاني الأزدي، تحقيـق: محمـد محيـي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

١٥٣. سـنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.
١٥٤. سـنن البيهقي الكبرى، لأحمد بن الحسـين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، عـــام: (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
١٥٥. سـنن الترمذي، لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٥٦. سـنن الدارمي، لعبد الله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمـد زمـرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٧هـ).
١٥٧. السـيد البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، مكتب القاهرة، الطبعة بدون.
١٥٨. سـير أعلام النبلاء، الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمـان، تحقيـق: شـعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت – مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، عـــام: (١٤١٤هـ).
١٥٩. سـير أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبـد الله، تحقيـق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسـوسـي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعـة التاسـعة، عام: (١٤١٣هـ).
١٦٠. السـيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكـم – المدينـة المنورة، الطبعة الخامسة، عام: (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
١٦١. السـيرة النبوية لابن هشام، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار النخيل – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤١١هـ).
١٦٢. شذا العرف في فن الصرف، الأستاذ الشيخ: أحمد الحملاوي، مراجعة وتعليق: سعد محمد اللحام، بيروت – دار عالم الكتب، سـنة ١٤١٧هـ
١٦٣. شرح أصول اعتقاد أهل السـنة والجماعة من الكتاب والسـنة وإجمـاع الصحابة والتابعين من بعدهم، لابن الحسـن بن منصور الطبري اللالكائي، تحقيق: الدكتور أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة – الرياض، الطبعة الثالثة، عام: (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
١٦٤. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل اء الدين عبد الله بن عقيـل العقيلـي الهمداني المصري، تحقيق: محمد محيـي الدين عبد الحميد، صيدا – بيروت – المكتبـة العـصرية، طبعة جديدة منقحة – راجع هذه الطبعة ونقحها د. محمد أسعد النادري، سـنة ١٤١٨هـ
١٦٥. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسـف الزرقـاني، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤١١هـ).
١٦٦. شرح السـنة، للحسـن بن علي بن خلف البر اري أبو محمد، تحقيق: د. محمد سـعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم – الدمام، الطبـــعة الأولى، عـــام: (١٤٠٨هـ).

١٦٧. شرح السـيوطي على سـنن النسائي، لعبد الرحمن بـن أبي بكـر أبـو عبـدالرحمن السـيوطي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانيـة، عام: (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
١٦٨. شرح العقيدة الأصفهانية، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العبـاس، تحقيـق: إبراهيم سعيداي، مكتبة الرشد – الرياض، الطـــبعة الأولى، عـــام: (١٤١٥هـ).
١٦٩. شرح العقيدة الطحاوية، للإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العـز الدمـشقي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: الدكتور عبد الله بن عبد المحسـن التركـي وشـعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
١٧٠. شرح العمدة في الفقه، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د.سعود صالح العطيشان، مكتبة العبيكان - مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٣هـ).
١٧١. شرح سـنن ابن ماجه، للسـيوطي وعبد الغني و فخر الحسـن الدهلوي، قديمي كتب خانة – كراتشي.
١٧٢. شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسـين البيهقي، تحقيق: محمد الـسعيد بـسـيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبـــعة الأولى، عـــام: (١٤١٠هـ).
١٧٣. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قـيم الجوزيـة، تحقيـق: الدكتور السـيد محمد السـيد وسعيد محمود، دار الوليـد – جـدة، الطبعـة الأولى، عـام: (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
١٧٤. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لمحمد بن أبي بكر أبو عبد الله، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر – بيروت، عام: (١٣٩٨م).
١٧٥. شهر في دمشق، مطابع الرياض، (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م).
١٧٦. الشيعة وتحريف القرآن، محمد مال الله، تقديم: محمد أحمد النجفي، الطبعة: الثالثة، عـام: (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
١٧٧. الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، تأليف: إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السـنة – لاهور – باكستان، الطبعة: بدون.
١٧٨. الصابئون حرانيـين ومندائيـين، للدكتور رشدي عليان، دار السلام – بغداد.
١٧٩. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البـستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعـة الثانيـة، عـام: (١٤١٤هـــ - ١٩٩٣م).
١٨٠. صحيح ابن خزيمة، لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيـسابوري، تحقيـق: د.محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، عام: (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

١٨١. صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، دمشق، الطبعة الثالثة، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
١٨٢. صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
١٨٣. صحيح سنن ابن ماجة، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الثالثة، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
١٨٤. صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
١٨٥. صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠).
١٨٦. صحيح مسلم بشرح النووي، لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، عام: (١٣٩٢هـ).
١٨٧. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٨٨. الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، لأبي الحسن الندوي، دار القلم – الكويت، الطبعة: الخامسة، عام: (١٩٨٥م).
١٨٩. الصفدية، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية، عام: (١٤٠٦هـ).
١٩٠. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم – بيروت، الطبعة الرابعة، عام: (١٤٠٢هـ - ١٩٨١م).
١٩١. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: د.علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الثالثة، عام: (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
١٩٢. الصوفية نشأتها وتطورها، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، دار الأرقم – بريطانيا، الطبعة الثالثة، عام: (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
١٩٣. الصومال وجذور المأساة الراهنة، د. علي الشيخ أبو بكر، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
١٩٤. صون المنطوق والكلام عن فن المنطق والكلام، جلال الدين السيوطي، مكتبة الخانجي بمصر - الطبعة الأولى.
١٩٥. ضحى الإسلام، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، الطبعة الأولى، عام: (١٣٥٥هـ - ١٩٣٦).

١٩٦. ضعيف سنن أبي داود، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
١٩٧. طبقات الحفاظ، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٣هـ).
١٩٨. الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، دار صادر – بيروت، الطبعة: بدون.
١٩٩. عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر، دار الزهراء بيروت، الطبعة: الثالثة، عام: (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
٢٠٠. عقيدة التثليث والصلب وموقف الإسلام منها، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى برقم: (٥٥٨)، إعداد الطالب: يونس توري.
٢٠١. علم أصول البدع دراسة تكميلية مهمة في علم أصول الفقه، تأليف: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، دار الراية – الرياض، الطبعة الثانية، عام: (١٤١٧هـ).
٢٠٢. العلمانية نشأ ا وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، لسفر بن عبدالرحمن الحوالي، دار مكة، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
٢٠٣. العلمانية وثمارها الخبيثة، لمحمد شاكر الشريف، دار الوطن للنشر – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١١هـ).
٢٠٤. عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختيار وتحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف – مصر، عام: (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧).
٢٠٥. العولمة وخصائص دار الإسلام ودار الكفر، دراسة فقهية مقارنة، د. عابد بن محمد السفياني، دار الفضيلة – الرياض، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
٢٠٦. عون المعبود شرح سنن أبي داود،ل محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، عام: (١٤١٥هـ).
٢٠٧. عيد اليوبيل بدعة في الإسلام، أبو زيد بكر بن عبد الله، بيروت – مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٢٠٨. العين والأثر في عقائد أهل الأثر، لعبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن عبد الباقي بن إبراهيم، تحقيق: عصام رواس قلعجي، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة الأولى، عام: (١٩٨٧م).
٢٠٩. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي (ابن أبي أصيبعة)، تحقيق: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة – بيروت، عام: (١٩٦٥م).
٢١٠. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، عام: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

٢١١. غاية المرام في علم الكلام، لعلي بن أبي علي بن محمد بن سالم الآمدي، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، عام: (١٣٩١هـ).
٢١٢. الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د. عبد الستار فتح الله سعيد، دار الوفاء المتطورة، الطبعة الخامسة: (١٤١٠هـ – ١٩٨٩م).
٢١٣. غزو من الداخل : قراءة في الفكر الديني المستنير، جمال سلطان، دار الوطن – الرياض، الطبعة: الأولى، عام: (1412هـ، ١٩٩١م).
٢١٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة – بيروت، عام: (١٣٧٩هـ).
٢١٥. فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني محمد بن علي بن محمد، تحقيق: سيد إبراهيم بن صادق إبراهيم، عمران، القاهرة – دار الحديث، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.
٢١٦. فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، إعداد: غالب بن علي عواجي، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مكتبة أضواء المنار – المدينة المنورة، عام: (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
٢١٧. فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، للقاضي عبد الجبار الهمداني، الدار التونسية للنشر، الطبعة: بدون.
٢١٨. فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، للدكتور أحمد بن سعد بن حمدان، دار طيبة – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
٢١٩. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، دار الفكر – بيروت، الطبعة الخامسة، عام: (١٩٧٠م).
٢٢٠. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، المكتبة العلمية – المدينة المنورة، الطبعة الأولى، عام: (١٣٩٦هـ).
٢٢١. فلاسفة من الشرق والغرب، مصطفى غالب، بيروت – منشورات حمد، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.
٢٢٢. الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي العقليون والذوقيون أو النظر والعمل، للدكتور أحمد محمود صبحي، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية.
٢٢٣. الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، أحمد محمود صبحي، مكتبة الدراسات الفلسفية – دار المعارف، الطبعة الثانية.

٢٢٤. الفلسـفة العربية، سلطان بك، الجامعة المصرية، القاهرة – مطبعـة المعـارف بـشارع الفجالة بمصر.
٢٢٥. الفهرست، لمحمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، دار المعرفـة – بـيروت، عـــام: (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
٢٢٦. في سبيل البعث، ميشيل عفلق، دار الطليعـة – بـيروت، الطبعـة: الثانيـة، عـام: (1383هـ، ١٩٦٣م).
٢٢٧. في قافلة الإخوان المسلمون، عباس السـيسـي، دار الطباعة والنـشر والـصوتيات – الإسكندرية، الطبعة: الثانية، عام: (١٤٠٧م).
٢٢٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجاريـة الكـبرى – مصر، الطبعة الأولى، عام: (١٣٥٦هـ).
٢٢٩. - قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، تأليف الدكتور عبد الكريم عثمان، طبعـة دار العربية، بيروت – لبنان.
٢٣٠. القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي،........
٢٣١. قصة الفلسـفة من أفلاطون إلى جون ديوي حياة وآراء أعاظم رجـال الفلـسـفة في العالم، لـ ول ديورانت، ترجمة: الدكتور فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعـارف – بـيروت، الطبعة الخامسة، عام: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
٢٣٢. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسـنة ومذاهب الناس فيه، للدكتور عبدالرحمن بـن صالح المحمود، دار النشر الدولي – الرياض، الطبعة الأولى، عـــام: (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
٢٣٣. قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، لمحمد صديق حسـن خان القنـوجي، دار عـالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٩٨٤م).
٢٣٤. قواعد العقائد، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: موسى بن نصر، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الثانية، عام: (١٩٨٥م).
٢٣٥. كائنات فوق، أنيس منصور، مطبعة: ضة مصر للطباعة والنشر والتوزيـع – مـصر، الطبعة: الثالثة، عام: (٢٠٠١م).
٢٣٦. الكافي في الأصول، لـ ... الكليني، دار الكتب الإسلامية، الطبعة: بدون.
٢٣٧. الكامل، المبرد أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه د. محمد أحمد الدالي، بيروت – شارع سـوريا – مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.
٢٣٨. الكتاب، سـيبويه.
٢٣٩. كتاب الأربعين في أصول الدين، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، مطبعة مجلس دائـرة المعارف العثمانية – حيدر أباد، الدكن، الطبعـــة: الأولى، عـــام: (١٣٥٣هـ).

٢٤٠. كتاب التوحيد، للإمام أبي منصور الماتريدي، حققه وقدم له: الدكتور فتح الله خليـف، دار الجامعات المصرية،
٢٤١. كتاب العين، لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.مهـدي المخزومـي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٢٤٢. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكـوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٩هـ).
٢٤٣. الكتاب المقدس (المحرف).
٢٤٤. كشف الأوهام والالتباس عن تشـبه بعض الأغبياء من الناس، لسليمان بن سحمان بن مصلح بن حمدان بن مسفر الفزعي الخثعمي، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله الزيـر آل حمـد، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٥هـ).
٢٤٥. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسـنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الرابعة، عـام: (١٤٠٥هـ).
٢٤٦. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد الله القـسطنطيني الرومـي الحنفي، دار الكتب العلمية – بيروت، عام: (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
٢٤٧. الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، تأليف محمود عبد الرؤوف القاسـم، دار الصحابة لطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٨- ١٩٨٧).
٢٤٨. كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن حسـن حبنكة الميداني، دار القلم – بـيروت، دمشـق، الطبـعة الثانيـة، عـام: (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
٢٤٩. لباب النقول في أسباب النـزول، بذيل تفسـير الجلالين، للسـيوطي، دار ابن كثير – دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ
٢٥٠. لسان العرب، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكـرم الإفريقـي المـصري، بيروت – دار صادر، دار بيروت، سـنة ١٣٧٥هـ.
٢٥١. لسان الميزان، للإمام: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق: دائرة المعرف النظامية (الهند)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، الطبعة: الثالثة، عام: (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
٢٥٢. لعبة اليمين واليسار، د.عماد الدين خليل، دار الاعتصام، ودار العلوم للطباعة – القاهرة، الطبعة: بدون.
٢٥٣. الماتريدية دراسةً وتقويماً، لأحمد بن عوض الله داخل اللهيبي الحـربي، دار العاصـمة – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٣هـ).

٢٥٤. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، إدارة إحياء التراث الإسلامي – قطر.
٢٥٥. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، مطابع بن علي – الدوحة، الطبعة: العاشرة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).
٢٥٦. المجتبى من السنن، لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، عام: (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
٢٥٧. المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، د. إبراهيم أحمد العدوي، دار المعرفة – القاهرة، الطبعة: الأولى، عام: (١٩٦١م).
٢٥٨. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني _ رحمه الله _، جمع وترتيب الشيخ: عبد الرحمن بن قاسم.
٢٥٩. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، تأليف: عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز، أشرف على تجميعه وطبعه: د. محمد بن سعد الشويعر، مكتبة المعارف – الرياض، عام: (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
٢٦٠. محاضرات في النصرانية، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ودار الكتاب الحديث، الطبعة الثالثة.
٢٦١. المحيط بالتكليف، للقاضي عبدالجبار بن أحمد جمع الحسن بن أحمد بن شعبة، تحقيق: عمر عمر السيد عزمي مراجعة أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
٢٦٢. مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، طبعة جديدة، عام: (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
٢٦٣. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
٢٦٤. المدائح النبوية في الأدب العربي، تأليف: زكي مبارك، الطبعة: بدون، عام: (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م).
٢٦٥. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، عام: (١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م).
٢٦٦. المدخل إلى علم التاريخ، د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المكتبة الأكاديمية – القاهرة، الطبعة: الأولى، عام: (١٩٩٤م).
٢٦٧. المدونة الكبرى، للإمام مالك بن أنس، دار صادر – بيروت، الطبعة: بدون.
٢٦٨. مذاهب فكرية معاصرة،للشيخ محمد قطب، دار الشروق – القاهرة/ بيروت، الطبعة السادسة، عام: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

٢٦٩. مسألة التقريب بين أهل السـنة والشيعة، للدكتور ناصر بن عبد الله علي القفاري، دار طيبة – الرياض.
٢٧٠. مسائل الجاهلية، التميمي محمد عبدالوهاب، أعده زضبطه وعلق عليه: أبو محمد أشـرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، مكتبة طبرية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٢٧١. المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسـية، لعبد الله بن حمد الـشبانة، دار طيبـة – الريـاض، الطبعة: الرابعة، عام: (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).
٢٧٢. مسـند أبي عوانة، لأبي عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائيني، تحقيق: أيمن بن عـارف الدمشقي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى: عام: (١٩٩٨م).
٢٧٣. مسـند أبي يعلى، لأحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حـسـين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
٢٧٤. مسـند الإمام أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبـة – مصر.
٢٧٥. المسـيحية، تأليف د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، الطبعـة العاشـرة، عام: (١٩٩٣).
٢٧٦. مشاهير علماء الأمصار، لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، اسم المحقق: م. فلايشهمر، دار الكتب العلمية – بيروت، عام: (١٩٥٩).
٢٧٧. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت.
٢٧٨. المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيـب الـرحمن الأعظمـي، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية، عام: (١٤٠٣هـ).
٢٧٩. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، لحافظ بن أحمد حكمي، تحقيـق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
٢٨٠. معالم التنـزيل، البغوي أبو محمد الحسـين بن مسعود، حققه وخرج أحاديثـه: محمـد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الريـاض – دار طيبـة للنـشر والتوزيع، سـنة ١٤١١هـ.
٢٨١. المعتزلة بين القديم والحديث، محمد العبده وطارق عبد الحليم، دار الأرقم – برمنجهـام، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).
٢٨٢. المعتزلة، لزهدي حسـن جار الله، مطبعـة: مـصر، الطبعـة: الأولى، عـــــام: (١٣٦٦هـ - ١٩٤٨م).
٢٨٣. المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بـن محمد وعبد المحسـن بن إبراهيم الحسـيني، دار الحرمين – القاهرة، عام: (١٤١٥هـ).

٢٨٤. المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني – بيروت، دار الكتاب المصري – القاهرة، عام: (١٩٧٩م).
٢٨٥. المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد ا يد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، عام: (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م).
٢٨٦. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، ت: (٤٨٧هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، دار عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الثالثة، عام: (١٤٠٣هـ).
٢٨٧. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق و ضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، سنة ١٣٩٩هـ.
٢٨٨. معرفة الثقات أحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
٢٨٩. المغني في الضعفاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: نور الدين عتر، الطبعة: بدون.
٢٩٠. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٥هـ).
٢٩١. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لعلي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن، تحقيق: هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة.
٢٩٢. مقدمات العلوم والمناهج محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل، عالم الإسلام المعاصر، لأنور الجندي، دار الأنصار.
٢٩٣. مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع، للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، دار الوطن – الرياض، الطبعة الثانية، عام: (١٤١٧هـ).
٢٩٤. مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، القاهرة – دار الشعب.
٢٩٥. المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، للإمام: برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة :: الأولى: عام: (١٩٩٠م).
٢٩٦. الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثامنة، عام: (١٤٢١هـ - ٢٠٠١).
٢٩٧. مناقب الإمام أحمد بن حنبل، للحافظ أبي الفرج بعد الرحمن بن الجوزي، بتصحيح ناشره: محم أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة – مصر، الطبعة الأولى.

٢٩٨. المنتخب من مسـند عبد بن حميد، لعبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسـي، تحقيـق: صبحي البدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السـنة – القـاهرة، الطبعـة الأولى، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٢٩٩. المنطق وتاريخه من أرسطو حتى راسل، روبير بلانشي، ترجمة: د. خليل أحمـد خليـل، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
٣٠٠. المنفردات والوحدان مسلم بن الحجاج بن مسلم أبو الحسـين النيسابوري، تحقيـق: د. عبدالغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٣٠١. منهاج السـنة النبوية، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٦هـ).
٣٠٢. الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
٣٠٣. المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت، وأثرها على الفرد والمجتمع، إعداد: د. مشعل بـن عبد الله القدهي، وحدة خدمات الإنترنت، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية.
٣٠٤. الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، لناصر بن عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكـريم العقل، دار الصميعي – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
٣٠٥. موسـوعة أهل السـنة في نقد أصول فرقة الأحباش ومن وافقهم في أصـولهم، لعبـد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، دار المسلم – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٨هـ).
٣٠٦. الموسـوعة العربية العالمية، وهي ترجمة بتصرف عن: دائـرة المعـارف العـالمية (World.Book.Encyclopedia)، نشر مؤسسة أعمال الموسـوعة للنشر والتوزيـع – السعودية، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
٣٠٧. موسـوعة الفلسـفة، د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسـات والنـشر – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٩٨٤م).
٣٠٨. الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة: الرابعة، عام: (١٤٢٠هـ).
٣٠٩. موطأ الإمام مالك، لمالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – مصر.
٣١٠. موقف أهل السـنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع، للدكتور إبـراهيم بـن عـامر الرحيلي، مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٥هـ).

٣١١. موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسـنة (عرضاً ونقداً)، لسليمان بـن صالح بن عبد العزيز الغصن، دار العاصمة – الرياض، الطبعـة الأولى، عـام: (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
٣١٢. موقف المدرسة العقلية من السـنة النبوية، إعداد: الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد، وشركة الرياض – الرياض، الطبعة: الأولى، عام: (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
٣١٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: (١٩٩٥).
٣١٤. النبوات، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المطبعة السلفية – القـاهرة، عام: (١٣٨٦هـ).
٣١٥. النبي والرسـول، للدكتور أحمد بن ناصر بن محمد آل محمد، مكتبة القدس – الزلفـي، الطبعة الأولى، عام: (١٤١٤هـ).
٣١٦. النجاة، للحسـين بن علي بن سـينا، مطبعة السعادة – مصر، الطبعة: الثانيـة، عـام: (١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م).
٣١٧. نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، قدم له أبو الحسن الندوي، تأليف: عبد الـرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي – قبرص – القاهرة،الطبعة: الثالثة، عـام: (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
٣١٨. نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامي، للدكتور محمد زين الهادي العرمـابي، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٧هـ).
٣١٩. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعـارف بالإسـكندرية، الطبعة الثانية ١٩٦٢م.
٣٢٠. النصرانية والإسلام، عالمية الإسلام، ودوامه إلى قيام الساعة، محمـد عـزت إسماعيـل الطهطاوي، مكتبة الحرم المكي، الطبعة بدون.
٣٢١. نفحة الرحمن في بعض مناقب سـيدنا ومولانا وأستاذنا وشيخنا المرحوم الشيخ أحمد بن المرحوم السـيد زيني دحلان، أبو بكر بن محمد شطـا، دار فينـوس – القاهـرة، عـام: (١٣٠٥هـ).
٣٢٢. نهاية الإقدام في علم الكلام، عبد الكريم الشهرستاني، حرره وصححه: الفـرد جيـوم، الطبعة: بدون.
٣٢٣. نيل الأوطار من أحاديث سـيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، لمحمد بن علي بن محمـد الشوكاني، دار الجيل – بيروت، عام: (١٩٧٣م).
٣٢٤. هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام، لأنور الجندي، دار الاعتصام.

٣٢٥. الواضح في علم الصرف، د. محمد خير الحلواني، دمشق – بيروت – دار المأمون للتراث، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.

٣٢٦. واقعنا المعاصر، للشيخ محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، جـدة – الطبعة الثانية، عام: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٣٢٧. الوحدة العربية آتية، أرنولد توينبي، نقله إلى العربية: عمر الديراوي أبو حجلة، منشورات دار الآداب بيروت، الطبعة الأولى: عام: ١٩٦٨م.

٣٢٨. الورع، لأحمد بن محمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله، تحقيق: د. زينب إبراهيم القاروط، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، عام: (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٣٢٩. الولاء والبراء في الإسلام، لمحمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة – الرياض، الطبعة الأولى.

٣٣٠. اليوجا سـيطرة على النفس والجسد، تأليف: المستشرق: ج. توندريو، وعالم الـنفس: ب. رئال، نقله إلى العربية الصيدلي: إلياس أيوب، مكتبة المعارف – بيروت، الطبعة: بدون.

٣٣١. اليوجا والتنفس، محمد عبد الفتاح فهيم، دار المعارف – القاهرة، الطبعة: بدون.

٣٣٢. اليوغا طريق الصحة والسعادة والشباب، إعداد: محمد رفعت، دار البحـار – بـيروت، الطبعة: الأخيرة، عام: (١٩٩٥م).

الصحف وا لات:-

٣٣٣. صحيفة الشرق الأوسط، الصادرة من لندن.

٣٣٤. صحيفة الحياة، الصادرة من لندن.

٣٣٥. صحيفة الوطن الكويتية.

٣٣٦. مجلة البيان الشهرية، الصادرة عن المنتدى الإسلامي، لندن.

فهرس الموضوعات